

محمّد عبد الله عثمان

# دولة الإسلام فى الأندلس

عصر الموحدين



الجزء الخامس



الهيئة المصرية  
للكتاب



# دولة الإسلام في الأندلس

## عصر الموحدين

## لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : قاعة من الطراز العربى

الصورة المنشورة على الغلاف هى قاعة من الطراز العربى داخل مسجد قوطية، وهو من ضمن بهو ملء بالأعمدة المصنوعة من الرخام الثمين، وقواعدها مزينة بالقاشانى، كما تقوم عليها عقود تجعلها كبيرة الشبه بالمساجد التى شيدت فى عصر الموحدين، وتمتاز بطلائها الجصى ذو الزخارف التى تجمع بين الرسوم والعناصر الإسلامية والقوطية. فضلاً عن الوحدات الشريطية التى اشتهرت فى الزخارف العربية بشكل عام، وتغطى الزخارف أغلب المساحات التى بلغت من الغنى والدقة والتنوع ما لا يتخيله عقل، وعلى الأخص ما حفر فى الجص، أو ما صنع منه، وللمقرنصات فى هذا الطراز شأن عظيم، بالإضافة إلى استخدام الكتابات والزخارف بالخط الكوفى ذى الحروف المتشابكة والمعقودة.

محمود الهندى

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية



# دولة الإسلام في الأندلس

عبد الرحمن الموحدين

الجزء الخامس

محمد عبد الله عنان



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١  
مكتبة الأسرة  
برعاية السيدة سوزان مبارك

في إطار (الأعمال الفكرية)

دولة الإسلام في الأندلس  
عصر المرحدين  
(الجزء الخامس)  
محمد عبدالله عنان

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د . سمير سرحان

## على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثناء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء) . وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء) .. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

طبعة خاصة من مكتبة الخانجي  
لمكتبة الأسرة  
بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تصدير

تناولنا في القسم الأول من هذا الكتاب، تاريخ الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس ، منذ وفاة عاقلها ومؤسسها يوسف بن تاشفين في سنة ٥٥٠٠ هـ ( ١١٠٦ م ) ، حتى سقوطها بعد ذلك بنحو أربعين عاما ، وقيام الدولة الموحدية ، على يد داعيتها وإمامها المهدي ابن تومرت ، واستكمال فتوحها ، وتوطيد دعائمها بالمغرب والأندلس ، على يد أول خلفائه ، عبد المؤمن بن علي ، مؤسس الدولة الموحدية الكبرى .

وفي هذا القسم الثاني من الكتاب ، نتناول عصر الموحدين في المغرب والأندلس ، ونعرض تاريخ الدولة الموحدية الكبرى ، منذ بداية عهد ثاني خلفائها ، أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ ( ١١٦٣ م ) ، حتى انحلالها وسقوطها في عهد آخر خلفائها إدريس الملقب بأبي دبوس ، وذلك في سنة ٦٦٨ هـ ( ١٢٦٩ م ) ، وهي حقبة تزيد على قرن من الزمان ، وهي حقبة حافلة بعظائم الحوادث والتطورات ، سواء في المغرب أو الأندلس .

وبالرغم من أن الأندلس لم تكن في ظل الدولة الموحدية ، سوى قطر من أقطارها العديدة ، يتبع المغرب وحكومة مراكش ، حاضرة الدولة الرئيسية ، فإنها لبثت محتفظة بأهميتها السياسية والعسكرية ، واستقلالها المعنوي والحضاري ، ومن ثم فقد خصصنا تاريخ الأندلس ، وتاريخ صراعها مع الدول النصرانية الإسبانية ، في هذه المرحلة الطويلة من تاريخ الموحدين ، بما يستحقه من العناية والإفاضة ، ومضينا في استعراضه في ظل الحكم الموحدى ، حتى قيام الدولة الهودية المتوكلية ، في شرق الأندلس وأواسطها ، ثم قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، على يد مؤسسها العبقري محمد بن الأحمر النصرى ، وأفضنا القول ، بنوع خاص ، فيما نزل بالأندلس ، في هذه الفترة المدهمة من تاريخها ، من النوائب والمحن ، بسقوط قواعدها الكبرى ، التي أذكت لوعة الشعر الأندلسي ، وأملت على أبي الطيب الرندى مرثيته الشهيرة التي مطلعها :



لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغربطيب العيش إنسان  
وراعينا في سرد أدوار هذه المأساة المشجية ، من تاريخ دولة الإسلام في  
الأندلس ، أن تبرز تفاصيل المأساة الأندلسية كاملة ، على ضوء مصادرنا العربية  
والقشتالية ، وأن نصل بها إلى حيث بدأنا تاريخ مملكة غرناطة في كتابنا « نهاية  
الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » ، وهو خاتمة هذه السلسلة الطويلة من عصور  
التاريخ الأندلسي ، التي استغرقت من حياة مؤلفها أكثر من ربع قرن من الزمان .  
وقد عنيّا في كل من عصرى المرابطين والموحدين حسباً نوهنا في مقدمة  
الكتاب ، أن نتحدث في نهاية كل عصر ، عن طبيعة نظم هذا العصر وخصائصه ،  
وعن الحركة الفكرية الأندلسية خلاله . وقد تحدثنا في القسم الأول من هذا  
الكتاب ، عما يخص العصر المرابطي من ذلك ، وسوف نحاول أن نتحدث في خاتمة  
هذا القسم ، عن نظم العصر الموحدى ، وعن سير الحركة الفكرية الأندلسية خلاله  
وان لم يكن ذلك بما كنا نبغى من التفصيل والإفاضة . ذلك أن الميدان شاسع ،  
يستوعب المجلدات ، وهو ليس في الواقع إلا تاريخ الحضارة الأندلسية ، التي يقتضى  
استعراض مراحلها العظيمة الوضاعة ، جهوداً شاقة ، لم يسعفنا الوقت والجهد ببذلها .  
وعنيّا في هذا القسم أيضاً - عصر الموحدين - بتقديم طائفة من الخرائط  
والصور الأثرية ، والرسوم الهامة ، منها رسوم لميادين بعض المواقع التاريخية التي  
شهدناها بأنفسنا ، ودرسناها على الطبيعة حسباً أشرنا إل ذلك في مقدمة الكتاب  
وفيها صور لعدد من الآثار الموحدية الأندلسية التي مازالت قائمة حتى يومنا ،  
وأشهرها وأروعها جميعاً صومعة جامع المنصور (لاخيرالدا) لؤلؤة إشبيلية الأثرية .  
ونحن نرجو ، وقد من الله علينا آخر الأمر ، وبعد أن قضينا هذه الأعوام  
الطويلة في ارتياد المعاهد والديار بالأندلس والمغرب ، وذرفنا الدمع غير مرة  
على أطلال الإسلام بالأندلس ، وقمنا بعديد الرحلات في طلب المصادر الأصلية  
واستقصائها ، وجمعنا من ذلك أغزر مادة يمكن الظفر بها - نرجو الله بعد ذلك  
كاه ، أن نكون قد وفقنا إلى أداء هذه الرسالة العلمية الحليّة التي اتخذناها شعاراً  
لحياتنا منذ خمسة وعشرين عاماً ، على وجه يرضى العلم والتاريخ ؛ ومثل هذا  
التوفيق ، أن تحقق الرجاء ، يكون لنا خير جزاء لما بذلناه خلال هذه الحقبة  
الطويلة من الزمن ، من جهود مضيئة في سبيل تحقيق هذه الغاية الكبرى .

محمد عبد عيّن

القاهرة في : جمادى الأولى سنة ١٣٨٤  
الموافق : سبتمبر سنة ١٩٦٤





صفحتان من الجزء الخامس من مخطوط « كتاب الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المر اكسي المخطوط بالمتحف البريطاني برقم ٧٩٤٠ ، وما تفيضان به داية  
فمن المنشور الوعادي الذي صدر عن انليئة بمقرب المنصور ضد الفيلسوف ابن رشد









الكتاب السادس

عَصْرُ الْخَلِيفَةِ أَبِي يَعْقُوبَ يَوْمُ مَشْرِقِ



## الفصل الأول

### عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة . تخلف بعض إخوته عن بيعته . موقف السيد أبي سعيد والى قرطبة والتوجس منه . سير السيد أبي حفص إليه . اللقاء بين الأخوين في جبل الفتح . عود التناهم والصفاء . رواية أخرى عن بيعة أبي يعقوب يوسف . ولاية السيد أبي حفص للوزارة . الثورة في غمارة وإخادها . حملة لإمداد الأندلس . عبور قوات موحدية جديدة إلى الأندلس بقيادة السيد أبي حفص . سيرها لمقاتلة ابن مردنيش . استيلاؤها على أندوجر . زحفها على بسطة ثم لورقة . استيلاؤها على حصن بلج . خروج ابن مردنيش لقتال الموحدين . سير الموحدين إلى مرسية . نزولهم في فحس الجلاب . قدوم ابن مردنيش في قواته . الاشتباك بين الفريقين . عنف المعركة واضطرامها . هزيمة ابن مردنيش وفراره إلى مرسية . سير الموحدين في أثره . تخريبهم لأحوار مرسية . إدريس بن جامع يتولى الوزارة للخليفة أبي يعقوب . عود الثورة إلى منطقة غمارة وإخادها . احتلال الموحدين للأماكن المفتوحة في ولاية مرسية . عود القوات الموحدية إلى الأندلس . عود السيد أبي حفص إلى مراکش . خروج الخليفة لاستقبال أخيه . وصف للاحتفالات التي نظمت لذلك . المآدب والصلوات . تعيين ولاية الأندلس . اتخاذ الخليفة للعلامة . رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبي سعيد والى قرطبة . الحث فيها على وجوب التدقيق في أحكام الإعدام وإراقة الدماء . عود الثورة إلى غمارة واستفحالها . سير القوات الموحدية لإخادها وفشلها في ذلك . سير الخليفة بنفسه لمقاتلة الثوار . منزلة الثوار في جبال غمارة . تمزيقهم ومقتل زعيمهم ، عود الخليفة إلى مراکش . رسالة الفتح . الثورة في جبل تاسررت وإخادها . غزو والى غرناطة لحصن لبة واقتحامه . خطر البرتغال على قواعد الغرب . ملكها ألفونسو هنريكيذ وأطاعه . تحالفه مع القوات الصليبية ومسيره لمحاصرة أشبونة . مناعها وتفاني المسلمين في الدفاع عنها . ضغط الحصار وثلث الأسوار . المعركة الأخيرة . اقتحام النصارى للمدينة . الفتك بأهلها المسلمين واسترقاقهم . استيلاء البرتغاليين على شترين . استيلاؤهم على قصر الفتح . غزوهم لباجة وتخريبها . جيرالدو سمبافور وغاراته على قطاع بطليوس . وصف ابن صاحب الصلاة له ولأعماله . غزوه لمدينة ترجاله . استيلاؤه على قاصرش وحصون متنانجش وشربه وجلانية . انشغال الموحدين بقتال ابن مردنيش وبفتنة غمارة . تجديد بيعة الخليفة وتعليقه . أقوال ابن صاحب الصلاة . كتاب الخليفة في ذلك . إنعام الخليفة واعطاؤه . تعيين السيد أبي إسحق لولاية قرطبة . إغارة جند ابن مردنيش النصارى على وادى شنيل . سير والى قرطبة لقتالهم ونجاحه في تمزيقهم . افتتاح الموحدين لثغر طليرة . مقدم فرناندو رديجس إلى إشبيلية وطلبه محالفة الموحدين . سفره إلى مراکش وتعاوده مع الخليفة على الإخلاص في محالفته . الصلح بين فرناندو ملك ليون والموحدين . المنافسة بينه وبين ألفونسو هنريكيذ . تعريف الرواية الإسلامية به . معارضة الموحدين له في مقاتلة صاحب طليطة .

لما توفي الخليفة عبد المؤمن بن علي بمحلته بئر سلا في ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) خلفه علي الأثر ، ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، وعقدت له البيعة بمحلة أبيه في يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة ، وتولى تنظيمها أخوه شقيقه السيد أبو حفص عمر ، والشيخ أبو حفص عمر الهتائي كبير أشياخ الموحدين ، تنفيذاً لوصية الخليفة الراحل ، وذلك تحسباً فصلناه فيما تقدم<sup>(١)</sup> . وكان الخليفة الجديد عند ولايته قتي في الخامسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بتينملل في الثالث من شهر رجب سنة ٥٣٣ هـ ، وأمه حرة هي زينب بنت الفقيه القاضي موسى بن سليمان الضرير التينملي<sup>(٢)</sup> . من أصحاب خمسين . ولما اكملت البيعة سار الخليفة الجديد من سلا إلى مراكش ، ونزل قصر الخلافة ، وتولى الشيخ أبو حفص وعظ الموحدين على اختلاف مراتبهم ، وحثهم على التزام فروض الطاعة . ثم أعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وحمل جثمانه إلى تينملل ، حيث ووري إلى جانب إمامه المهدي ابن تومرت .

ولم يتخلف عن بيعة أبي يعقوب يوسف ، سوى بعض أشياخ الموحدين وثلاثة من الإنخوة ، هم السيد أبو الحسن علي ، والسيد أبو محمد والي بجاية ، والسيد أبو سعيد والي قرطبة . فأما السيد أبو الحسن فقد كان حاضراً ليلة وفاة أبيه ، وعقد البيعة لأخيه ، ولما عاد من تينمال بعد مواراة الخليفة الراحل ، لزم العزلة ، وبرحت به عوامل الغيرة والحقد ، حتى مرض وتوفي غير بعيد وذلك في أواخر سنة ٥٥٨ هـ . وأما السيد أبو محمد عبد الله والي بجاية ، فقد لزم عاصمة إمارته ، وكُتب الخليفة تردد إليه بالاستعطاف والاستدعاء ، وهو يتمهل ، ويرد بالاعتذار والاستعداد للرحيل ، واستمر في هذا التردد والتسويق نحو عام ونصف ، وأخيراً اعتزم أمره ، وغادر بجاية في جاشيته ، قاصداً إلى مراكش ، فأدركته

(١) وذلك في الفصل الرابع من الكتاب الثالث ( ص ٣٩٤ ) .

(٢) المراكشي - في الميعاد ص ١٢٢ ، وأيضاً في القرون ص ١٣٤ ، ويسمى والدته أبي يعقوب عاتقة ، والجلال الموشية ص ١٢٩ ، وابن الخطيب في الإحاطة ، ( مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ) الغرناقي ، ( لوحة ٢٨٨ ) أيضاً في تاريخ ابن خلدون ، ( مخطوط رقم ١٦٧٣ ) .



المنية في الطريق ( سنة ٥٦٠ هـ ) فأسف أخوه الخليفة لفقده ، وشمل أهله وبنيه بعطفه ورعايته . ونظر فيما يجب لضبط شئون بجاية حتى يعين لها وال جديد .

وكان تحلف السيد أبي سعيد مثار التوجس ، ومختلف الأقاويل ، لأنه كان بوحوده في رئاسة الأندلس ، الشطر الثاني من الإمبراطورية الموحدية ، وبما يسيطر عليه بها من الموارد والقوى ، حرياً بأن تحدثه نفسه بالخروج والعصيان : ومن ثم فقد بعث أخوه الخليفة لاستدعائه ثلاثة من الحفاظ الموحدين هم أبو عبد الله ابن أبي إبراهيم ، وأبو يحيى بن أبي حفص ، وأبو الربيع سليمان بن داود ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، تمارص السيد أبو سعيد ، ولم يستطيعوا مقابلته إلا بصعوبة ، ولم يحصلوا منه إلا على وعود غامضة . ولما عاد هذا الوفد إلى مراکش ، ولم يتحقق ما وعد به السيد أبو سعيد من القدوم ، وكثر التوجس والإرجاف من موقفه ، اعزم السيد أبو حفص عمر أن يسير بنفسه إلى استدعاء أخيه ولقائه في جبل الفتاح ( جبل طارق ) . فغادر مراکش في فاتحة ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ في جملة من أشياخ الموحدين ، منهم أبو يحيى بن أبي حفص ، وأبو يعقوب بن ينجيت ، وإسحق بن جامع ، ويوسف بن وانودين ، وجماعة من زعماء ثوار الأندلس منهم سيدراى بن وزير ، وابن الصخار صاحب للة ، وجماعة من أشياخ لمونة ومستوفة ، ومعه قوة من نحو أربعة آلاف فارس ، خصصت لإمداد قوات الأندلس وتعزيزها . ولما وصل الركب إلى سلا ، تقدم الحند للعبور إلى الأندلس ، وأقام بها السيد أبو حفص شهراً ، بعث خلاله إلى أخيه السيد أبي سعيد بقرطبة يخطر به بمسيره إلى رؤيته ، وبأن يكون اللقاء بينهما في جبل الفتاح . ولما وصل ركب السيد إلى طنجة ، استقل منها سفينة أقلته مع كاتبه عند الملك بن عيَّاش وبعض خاصته إلى سبتة ، وسارت بتمية الركب إلى سبتة ، بطريق البر . وفي اليوم التالي لوصول السيد أبي حفص إلى سبتة ، وصلت من الجزيرة الخضراء سفينة ، أعلن من فيها وصول السيد أبي سعيد في خاصته وأشياخه إلى جبل الفتاح في انتظار أخيه ، فعبر السيد أبو حفص وصحبه البحر في نفس اليوم إلى جبل الفتاح . ويقول لنا عند الملك بن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذا الحفل ، ومن جملة الوافدين ، أولاً وآخراً ، إن اجتماع الأمرين قد تم على خير ما يرجى ، بين قرع الطبول ونشر البنود ، والسرور بالورود . ولبجاءت وفود قرطبة ، وغرناطة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس ، وكان على رأس وفد إشبيلية الفقيه الحفاظ ابن الجلد ، والقاضي أبو بكر

العافقي ، وصاحب المخزن محمد بن المعلم . وجلس السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد في قصر الجبل لاستقبال الوفود ، فتعاقبت في السلام ، وإلقاء الخطب ، وأنشد الشعراء قصائدهم ، على نحو ما حدث أيام مقدم الخليفة عبد المؤمن ، ودامت إقامة الأميرين بالجبل خمسة عشر يوماً ، أغدقت فيها « الأعطيات والبركات والكسي » . وصفا الجو ، وارتفع الإرجاف ، ثم انصرف الوفود ، وعبر السيدان أبو حفص وأبو سعيد كل في صحبه ، البحر إلى سبتة ، وأقاما بها ثلاثة أيام ريثما عبرت بقية الركب من الجبل ومن الجزيرة الخضراء ، ثم سار السيدان إلى مراكش ، فتلقاها أخوهما الخليفة أبو يعقوب يوسف خارج الحضرة ، وكان اجتماعاً بهجاً ، ساده البشر والخبور ، وكان وصول السيد أبي حفص وأخيه السيد أبي سعيد إلى مراكش في أول شهر رجب سنة ٥٦٠ هـ ، فاستقبل الجميع بالحضرة أروع استقبال ، وأنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم . وهكذا تم التهانم والتعاطف بين الخليفة وأخيه ، وأسبل الستار بذلك على ما كان يحيط بموقف السيد أبي سعيد من التوجس والإرجاف (١) .

هذا وقد اعتمدنا فيما تقدم ذكره عن تولية الخليفة أبي يعقوب يوسف وبيعته ، وما حدث عن تخلف بعض إخوته عن بيعته ، على ما ذكره مؤرخا الموحدين المعاصران ، اليبذقي وابن صاحب الصلاة ، باعتباره أوثق ما يمكن الاعتماد عليه في هذا الشأن (٢) . بيد أنه توجد إلى جانب ذلك رواية أخرى مفادها أن البيعة التي عقدت لأبي يعقوب عتب وفاة أبيه الخليفة عبد المؤمن ، لم تكن بيعة تامة ، إذ تخلف عنها بعض أشياخ الموحدين ، وبعض إخوته ، وأنه لذلك اكتفى باتخاذ لقب الأمير حتى تكمل بيعته ، وصرفت الجيوش التي كانت مجتمعة للجهاد ، وعاد إلى مراكش ، فأقام بها ، وكتب إلى جميع عمالاته بالمغرب وإفريقية والأندلس في طلب البيعة ، فوردت إليه من سائر النواحي ، ما عدا قرطبة التي كانت لطر

(١) نلخص ما تقدم عن رواية ابن صاحب الصلاة في كتاب « المر بالإمامة على المستصين » (مخطوط أكسفورد السالف ذكره) لوائح ٤٨ إلى ٥٧ ، وفي المطوع ص ٢٦٨ - ٢٥٠ وأصرنا عن نقل ما أورده ابن صاحب الصلاة من مختلف قصائد المديح والتهنئة . وراجع في ذلك أيضاً « البيان المغرب » القسم الثالث ، وهو يخلص كذلك عن ابن صاحب الصلاة (ص ٥٩ - ٦٢) .

(٢) الأول في كتاب أحبار المهدي ابن تومرت ص ٨٤ ، ويشان في كتاب « المر بالإمامة »



أخيه السيد أبو سعيد عثمان بن أبي بجاية الذي كانت النظر أخيه السيد أبي محمد عبد الله بن أبي بجاية سنة ٥٩٠ هـ. وقد عليه أخوة السيد أبي سعيد بن أبي بجاية ، والسيد أبو عبد الله ، وكل في أشياخ إمارته ، طائعين تابعين ، وقلنا إليه البيعة ، وبذلك كملت بيعته . وذكر القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر ، وهو من قضاة عبد المؤمن ومن مؤرخى الموحدين ، أن أبا يعقوب يوسف بويج بيعة الجماعة وانفقت الأمة على بيعته فى اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ ، وذلك بعد وفاة أبيه بعامين ، وبعد أن بايعه أخوه السيد أبو سعيد والى قرطبة ، وتسمى من ذلك الوقت بأمير المؤمنين ، بعد أن كان يتسمى بالأمير (١) .

وتولى السيد أبو حمص منذ البداية شئون الحجابة والسياسة لأخيه السيد أبي يعقوب  
« على معنى الوزارة والإمارة » بتنفيذ الأوامر السلطانية باسمه وعن أمره ،  
على نحو ما كان عليه عند أبيه الخليفة عبدالمؤمن من تولى شئون ورارته . والظاهر  
مما توكلده لنا الرواية من أن السيد أبا حمص كان يزاول سلطته عن رضى من  
أخيه السيد أبي يعقوب ، وأن علائق الأخوين كان يسودها الصفاء والمحبة ، أن  
السيد أبا حمص ، كان فى منصبه يزاول سلطة مطلقة ، وأنه كان هو الخليفة  
الفعلى ، وأنه لم يترك لأخيه السيد أبي يعقوب سوى مظاهر الإمارة الشكلية . وكان  
الوزير إدريس بن إبراهيم بن جامع وهو من قرابة المهدي ، يمثل بين أيديهما  
لرفع المسائل ، وتوصيل رغبات الوافدين والسائلين ، وكان يؤدي دوره فى  
تنظيم الصلة بين الأميرين ، وفى التوسط بينهما ، ببراعة وكياسة<sup>(٢)</sup> . بيد أن  
السيد أبا حمص لم يملك فى منصبه هذا سوى فترة قصيرة لم تطل سوى عامين ،  
وافرد بشئون الحجابة والوزارة من بعده الوزير ابن جامع<sup>(٣)</sup> .

وفي بداية عهد أبي يعقوب في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) وقعت ثورة محلية في منطقة غمارة ، بزعامة مرزداغ الغماري الصنهاجي من صنهاجة مفتاح ، فتغلب على تلك المنطقة ، والتفت حوله جموع غفيرة من غمارة ، وصنهاجة .

(۶) راجع دوس القراطيس ص ۳۷؛ ..

( ٢ ) ابن مباح، الصلاة في كتابه المتن بالإيامة ، ( المخطوط المؤلف الذكر لوحة ٤٨ ب  
 وفي المطبوع ص ٢٣٧ و ٢٣٨ ) وكذلك البيان المنسوب ، القسم الثالث ص ٥٩ .

(٢) ابن سنان الصلاة في « إلى الإيمانية » - لوحة ٧١، دار، والمعبد في الطور، ص ٢٨٥  
ص ١٣٧، واليان العرب القسم الثالث ص ٦٥ .

وأورية ، وضرب السكة باسمه ، ثم سار إلى أراضي تاودا ، على مقربة من فاس ، وحدث فيها وقتل كثير من أهلها ، فسير الخليفة أبو يعقوب لقتاله جيشاً موحدياً بقيادة يوسف بن سليمان . وفي رواية البيهقي أن الموحدين قاتلوا مزيردغ ، حتى بددت قواته ، وأذعن للتوحيد ، ثم سمح له بأن يجوز إلى الأندلس ، وهناك نزل بقرطبة . لكن صاحب روض القرطاس ، يقول لنا بالعكس إن الثائر قتل وحمل رأسه إلى مراکش (١) .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى الحملة التي جهزها السيد أبو حفص لإمداد قوات الأندلس ، وذلك حين سيره لمقابلة أخيه أبي سعيد بجبل الفتح . وقد عبرت هذه الحملة ، وقوامها نحو أربعة آلاف فارس ، معظمهم من العرب ، البحر بقيادة الشيخين أبي سعيد بن الحسن ، وأبي عبد الله بن يوسف ، وسارت ثوا إلى إشبيلية . وأرسل منها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز حاميتها ، وتصادف أن كانت ثمة قوة من النصاري من أهل شترين تغير على تلك المنطقة ، فقاتلها الفرسان الموحدون ومزقوا شملها ، وأفتوا معظمها . وسار الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله ببقية العسكر من إشبيلية إلى قرطبة لتعزيز جبهتها الدفاعية ، إزاء هجمات ابن مردنيش . وما كاد الموحدون يستريحون قليلاً ، حتى خرجوا إلى أحواز قرطبة ، وهناك التقوا في وادي « لك » القريب منها بجمع من عسكر ابن مردنيش ، وهم الذين ينتمون مؤرخ الموحدين « بالأشقياء » ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، أبلى فيها الموحدون أحسن البلاء واستمر القتال بينهما طوال اليوم على شرب الماء ، وافترقا دون حسم ، وكان ذلك في شعبان سنة ٥٦٠ هـ ( ١١٦٥ م ) . وبعث الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله بأنباء المعركة إلى مراکش ، ووصفا ما لقيناه في القتال من هول ومشقة ، وطلبا العون والإنجاد ، فاهتم لذلك السيد أبو حفص وجهز في الحال جيشاً من الموحدين والعرب ، وخرج من مراکش في قواته أومعه أخوه السيد أبو سعيد عثمان وإلى قرطبة ، في أوائل شهر رمضان ، وأسرع في السير وعبر البحر ، ووصل يجمعه إلى إشبيلية ، وهناك اجتمع بزعماء الموحدين ، وقر الرأي على محاربة ابن مردنيش في عقر أراضيه قبل أن يبادرهم بمهاجمة قرطبة (٢) .

(١) راجع أخبار المهدي ابن تومرت من ١٢٤ ، وروض القرطاس - ص ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة في كتاب « الملأ للإمامة » لوحة ٥٧ « أوت و ١١ » وفي المطوع ص ٢٧٠ .



وخرجت القوات الموحدية من إشبيلية في أول شهر ذي القعدة سنة ٥٦٠ هـ ، وسارت نحو الشمال الشرقي معرجة على قرطبة ، حتى وصلت إلى أندوچر ، وهي من معقل ابن مردنيش التي تهدد سلامة قرطبة . فهاجمتها واستولت عليها في الحال عنوة ، وبأمر أهل الحصون المخاورة إلى إعلان الطاعة وطلب الأمان ، وأغار الموحدون على أنوار أندوچر واستولوا على كثير من السبي والغنائم . ثم حشد السيد أبو حصص صفوة جده من الموحدين والعرب وسار من أندوچر جنوباً ، قاصداً إلى مرسية ، من طريق السهل ، فوصل إلى مشارف مدينة بسطة ، دون أية مقاومة ، وجده تعيث في تلك المنطقة ، وتتزعزع القوات وتتساقط الماشية ، وهالك على مقربة من بسطة وإفقه حشود غرناطة ومنهم فرقة من الرماة ، وسار الجيش الموحدى بعد ذلك صوب لورقة ، ماراً بحصن ياجر أو بلش<sup>(١)</sup> وهو من أهم معقل ابن مردنيش في تلك المنطقة ، فسلم قائده العزفى وأصحابه بالأمان ، ووضعت به حامية موحدية<sup>(٢)</sup>

وكان أحمد بن سعد بن مردنيش أثم ذلك قبل حشد قواته ، وامن بها جمع كبير من النصارى ، وخرج من مرسية ترمع إعراص الموحدين عند لورقة ، ويحول دون سلوكهم منها إلى مرسية ، فلما رأى الموحدون صعوبة احتراق هذا الطريق الحبلى الوعر تحولوا إلى عرت لورقة ، وانحدروا إلى السهل المسمى « بالفتدون » وهو السهل الواقع بين لورقة وقرطاجنة ، وهو من أخصب بقاع هذه المنطقة ، ثم احترقوا السهل نحو مرسية . وهذا ما ورد في خطاب الفتح الذي أرسل فيما بعد إلى مراکش ولكن البيدق يقول لنا بالعكس إن الموحدين علوا على لورقة ، وقرطاجنة وبلش ، وأولاد أهلها ، وأن ابن مردنيش أحيا قدام إلى لورقة كان بها الموحدون<sup>(٣)</sup>

وكان ابن مردنيش في تلك الأثناء قد ارتد بحنده نحو مرسية من الطريق الحبلى ، فلما كان يوم الجمعة التاسع من ذي الحجة سنة ٥٦٠ هـ ( ١٥ أكتوبر سنة ١١٦٤ م ) ، أشرف الموحدون عند الظهر على فحص مرسية ، على بصعة أميال منها ، ونزلوا

(١) هو المسمى بالإسبانية Vélez Rubio .

(٢) وردت تفاصيل سير الحملة الموحدية في خطاب الفتح الذي أرسل إلى مراکش بعد موقعة فحص الحلاب ونقله إليها ابن صاحب الصلاة وساقى على ذكره .

(٣) كتاب أحوال المهدي ابن تومرت ص ١٢٦ .

بموضع فيه يعرف « بفحص الجلاب » . وهناك أشرف ابن مردنیش بقواته قبالتهم ، فنظم الموحدون قواتهم من أهل هرغة وتينملل وهتاتة وجدميوه وباقي القبائل الموحدية ، كما نظم الجند العرب من بني هلال ورياح والحشميين والرعيين وحرس الأمير الأسود . ويبدو من خطاب الفتح السالف الذكر أن جيش الموحدين كان يضم عندئذ زهاء اثني عشر ألف مقاتل غير حامية غرناطة ، من ذلك نحو أربعة آلاف هي التي كانت تحت إمرة الشيخين أبي سعيد وأبي عبد الله ، وثمانية آلاف هي جملة الحملة التي عبر بها السيد أبو حفص وأخوه : وأما جيش ابن مردنیش فلم تذكر لنا الرواية جملة ، ولكنها تقدر من كان به من النصاري المرتزقة بثلاثة عشر ألف مقاتل (١) .

وتعاهد الموحدون على الصدق والثبات والصبر ، والاستشهاد في سبيل الله . وبدأ ابن مردنیش الهجوم فانقضت قواته أولاً على الجند العرب ، ثم تحول إلى مهاجمة الموحدين ، فهاجمهم مرتين متواليتين ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، قاتل فيها الموحدون والعرب أشد قتال وأروع ، واستمرت حتى مغيب الشمس ، ورجحت كفة الموحدين في النهاية ، ففتكوا بجيش مردنیش ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسقط في الموقعة شيوخ العرب السبعة فيمن سقط من الموحدين ، وارتد ابن مردنیش في فلول قواته إلى تل قريب إلى أن دخل الليل ففر مسرعاً إلى مرسية ، وامتنع بدخلها . وفي صباح اليوم التالي الثامن من شهر ذي الحجة (١٦ أكتوبر) ، سار الموحدون إلى مرسية ، حتى اقتربوا منها ، ونزلوا بساحتها ، وأمضوا بها عيد الأضحى ، وخرجت سرياتهم تدمر أحوازها وغياضها ، ومنها بساتين ابن مردنیش البانعة ، مدى أيام ، حتى امتلأت أيديهم بالغنائم والأقوات ، ووصلت طلائعهم إلى أوريولة وألش . وبعث السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى أخيهما الخليفة أبي يعقوب بمراكش بكتاب الفتح والبشرى ، من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش ، فوصل إلى الحضرة في الثالث والعشرين من ذي الحجة ، وقرئ على سائر الحاضرين من الأشياخ ، والطلبة ، ثم قرئ بعد ذلك بالمسجد الجامع على كافة الناس (٢) .

(١) نشرنا في الفصل الثاني خريطة ملكة الشرق ومواقع غزوات الموحدين لها

(٢) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تفاصيل الغزوة الموحدية لآندوجر ، وسير الموحدين إلى مرسية ، وموقعة فحص الجلاب في كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٥٨ إلى لوحة ٦٠ ب . كما أورد لنا نص الخطاب الذي أرسل بالفتح إلى مراكش ( لوحة ٦٠ ب إلى لوحة ١٦٣ ) =



وكانت هزيمة فحوص الجلاب من أقسى الضربات التي أصابت ابن مردنيش، وكانت بداية انحلال ثورته، وانهيار سلطانه في شرق الأندلس.

وحدث في مراكش خلال ذلك أعنى في عام ٥٦٠، وفي أثناء غياب السيد أبي حفص بالأندلس، حدث هام، هو تولي الخليفة أبي يعقوب يوسف لسلطانه المباشر، واختصاصه للوزير أبي العلاء إدريس بن جامع بتدبير الشئون وتقريبه إياه، واختار ابن جامع لمعاونته صفوة من رجاله المخلصين، في مقدمتهم الخطيب أبو الحسن الإشيلي، وأبدى في منصبه كفاية وغيرة ونزاهة، وبذل في تصريف الأمور وإقامة العدل، وتوطيد السكينة والأمن، جهوداً مشكورة، حتى كان الراكب وفقاً لقول المؤرخ «يسر حيث شاء من بلاد العدو في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله». وأحسن لمن وفد عليه واستغاث به، من أجناد الأندلس المضامين أو المأسورين، يفتديهم بماله، ويهبهم الخيل وآلات الحرب والكساء، وأسبغ رعايته على الموحدين المقيمين، وعلى طلبة الحضرة الوافدين إلى العاصمة، وفرض الزكاة على حكم الكتاب والسنّة، وأنفقها في وجوهها المشروعة<sup>(١)</sup>.

وحدث في هذا العام أيضاً أن عادت الفتنة إلى منطقة غمارة، وعادت بعض بطون صنهاجة إلى نقض الطاعة بقيادة سبع بن منعماد. فخرج إليهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى، في حملة من الموحدين، سارت إلى جبال غمارة، وضيق على الثوار، حتى أذعنوا إلى طلب الأمان تائبين ضارعين، معلنين للطاعة والخضوع<sup>(٢)</sup>. بيد أنه كان، كما اسرى، خضوعاً خادعاً مؤقتاً.

على أثر انتصار الموحدين في موقعة فحوص الجلاب، قام السيدان أبو حفص وأبو سعيد، بوضع حاميات موحدية في الأماكن المفتوحة، وتنظيم حكمها،

---

« وتراجع أخبار موقعة فحوص الجلاب أيضاً في روض القرداس ص ١٣٧، والبيان المغرب - القسم الثالث - ص ٦٤ و ٦٥، وكذلك في Halci Miranda : Imperio Almohade, V.I. p. 226 & 227 M. O. Remiro : Murcia Musulmana, p. 219- A P Ibañs : Valencia Arabe, p. 641 (١) كتاب « المن بالإمامة » المخطوط الذي ألفه لرحلة ٧١ الأولى المطبوع ص ٢٨٥ و ٢٨٦ وب، وكذلك البيان المغرب - القسم الثالث - ص ٦٥، و ٦٦ وهو ملخص من كتاب « المن بالإمامة ».

(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٤، و « المن بالإمامة » لوحة ١٧٢.

وضبط الأمور فيها ، ثم انصرفا من ظاهر مرسية ، في القوات الموحدية ، عائدين إلى الأندلس . ولما وصلا إلى قرطبة . تخلف بها السيد أبوسعيد بموافقة سابقة من أخيه الخليفة ، ليستأنف بها مهام منصبه في الولاية عليها ، وسار السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، ثم عبر البحر إلى العدو ، عائداً إلى حضرة مراکش ، فوصل إليها في ضحى اليوم العاشر من ربيع الأول سنة ٥٦١ هـ .

ويقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفا ضافياً لاحتفال الخليفة أبي يعقوب باستقبال أخيه في ظاهر مراکش ، وماتلا ذلك من الحفلات والمآدب وتوزيع الصلات . ولا بد لنا أن ننقل هنا موجزاً لهذا الوصف ، أولاً كنموذج لحفلات الابتهاج الموحدية ، وثانياً كنموذج لبعض نواحي الحياة الاجتماعية الرسمية ، التي يصفها لنا ابن صاحب الصلاة خلال روايته من آن لآخر .

يقول ابن صاحب الصلاة ، إن الأمير الإمام أبا يعقوب ، خرج بنفسه لاستقبال أخيه ، بعد أن كتب كتابه المنصورة الحاضرين معه بحضرة مراکش ، وكسا حرسه الأسود بالثياب الزاهية ، واصطفت الفرسان المدرعة من الموحدين وغيرهم ، والرجال بالدورق والرماح ، وجعل الرايات خلف ركابه ، وحمله الطبول مع خاصة أصحابه ، وهو راكب جواده ، ووزيره أبو العلاء لإدريس ابن جامع راجل لصق ركابه ، وهو يحدته ، ويصدر الأمير أوامره ، فينفذها الوزير ، ثم يرجع إليه ، وعلى عاتق الأمير رمح طويل . والتقى الأمير بأخيه في الساحة التي كانت قائمة عندئذ تجاه باب الشريعة ، فلما التقى الأميران ، تجاوزت الخيل بالحملات والحراب والطبول . ثم نزل الأخوان كل عن فرسه ، والتقيا وتصافحا ، ثم سلم الناس الواصلون على الأمير وعلى من حضر ، ثم ركبوا إلى القصر العتيق في أعظم أبهة فوصلا إليه بعد العصر ، واجتمعوا به . وفي اليوم التالي ، أقيمت المآدب الحافلة بالأطعمة والأشربة للموحدين والعرب الواصلين ، ولجميع المقيمين ، واستمر ذلك خمسة عشر يوماً . ثم وزعت الكسي من العمام والبرانس والأكسية . وتسلم كل فارس طبقاً كاملاً من الكساء يتكون من عقارة وعمامة وكساء وقسطية وشقة ، وأنعم على جميع الناس من الغازين والقاطنين وطلبة الحضر ، ووزعت عليهم الأعطية المالية ، من الذهب والدرهم ، فخص الفارس سواء من الموحدين أو العرب ، عشرون ديناراً ، واكل من أعيان الموحدين وأشياخهم وكذلك أشياخ العرب ، مائة دينار ، وعم بذلك البشر والحبور ، واستمرت

الطبول في قرعها خمسة عشر يوماً ، ثم انصرف الغازون إلى قبائلهم (١) .  
وكان أول ما عني به الخليفة أبو يعقوب بعد الانتهاء من هذه الحفلات ،  
هو النظر في تعيين الولاية . وكانت بجاية وإشبيلية في مقدمة الولايات التي خلت  
رياستها ، فقرر الخليفة بعد مشاورة أخيه السيد أبي حفص ، أن يعين لولاية  
بجاية وأقطارها أخاه السيد أبا زكريا يحيى بن عبد المؤمن . فسار إليها من الحضرة  
في فاتحة جمادى الأولى سنة ٥٦١ هـ ، ومعه جملة من أبناء الجماعة والحفاظ . وعين  
لولاية إشبيلية الشيخ أبا عبد الله بن أبي إبراهيم إسماعيل ، أحد أصحاب المهدي  
العشرة ، وعين له وزيراً لمعاونته هو أبو زكريا بن سنان ، وهو من أكابر علماء  
الدعوة المهدية ، فغادر مراکش في صحبة من الحفاظ إلى مقر ولايته ، في  
الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ، ووصل إلى إشبيلية في أول شهر رجب .  
وماكاد يصل إليها ، حتى كانت جماعة من نصارى شترين ، قد اخترقت ولاية  
الغرب ، ووصلت في غارتها إلى بلدة طلياطة ، الواقعة جنوبي شرقي لبلة .  
فجهز الشيخ أبو عبد الله حملة لردهم من الحفاظ والعرب وجند إشبيلية ، بقيادة  
أبي العلاء بن عزون ، فأدركتهم وهزمهم ، واستنقذت منهم الغنائم والأسرى ،  
وأسرت جملة منهم . وبعث الوالي الجديد بخبر هذه الموقعة إلى الخليفة فسر به ،  
وبعث إليه بشكره .

ولم يرض على انفراد الشيخ أبي عبد الله بولاية إشبيلية سوى أشهر قلائل ،  
حتى عين الخليفة أخاه السيد أبا إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن والياً لإشبيلية ،  
فوصل إليها في أول شهر ذي الحجة سنة ٥٦١ هـ ، وتقرر أن يبقى معه الشيخ  
أبو عبد الله ، على ما كان عليه ، وأن يتولى الشؤون العسكرية ، وتوثقت أواصر  
المودة والتعاون بين الرجلين ، واستمر معاً في النظر في شؤون إشبيلية ، حتى  
وصل أمر الخليفة بنديب الشيخ أبي عبد الله للقيام بولاية غرناطة وذلك في أواخر  
شعبان سنة ٥٦٢ هـ ، فغادر إشبيلية في صحبة من الحفاظ وغيرهم في أوائل شهر  
رمضان إلى غرناطة ، واستقر في ولايتها ، واستدعى الخليفة في نفس الوقت  
أخاه السيد أبا سعيد ، والى قرطبة للقدوم إلى الحضرة ، فغادرها في أوائل  
ذي القعدة سنة ٥٦١ هـ .

وفي نفس هذا العام أعني سنة ٥٦١ هـ قرر الخليفة أبو يعقوب بالاتفاق

---

(١) كتاب المن بالإمامة ، لوحة ١٧٣ و ب ولوحة ١٧٤ وفي المطبوع ص ٢٨٩-٢٩٢



مع أشياخ الموحدين ، أن يتخذ العلامة الخلافة ونصها « و الحمد لله وحده » وأن يكتبها بخط يده على المراسيم والأوامر ، فتتخذ بمقتضاها . وصدرت أول رسالة ممهورة بالعلامة الخلافة في الثالث من شهر رمضان مدبجة بقلم الوزير الكاتب أبي الحسن بن عياش ، وموجهة إلى أخى الخليفة السيد أبي سعيد وأصحابه الطلبة بقرطبة ، على أن تنفذ منها نسخ إلى مختلف البلاد ، وفيها بعد الديباجة الموحدية المعتادة ، يوصى الخليفة بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وأن تُرفع إليه أحكام الإعدام ، فلا يقضى الموحدون في الدماء من تلقاء أنفسهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وتشرح وتفيد بالشهود والعدول « وتكتب أقوال المظلومين وحججهم وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين في مقالاتهم واستظهارهم في بياناتهم معطى كل ذى حق حقه ، موفى كل قائل قوله » ، وأن يدقق في الجرائم التي دون القتل ، من ضرب أو جرح أو سرقة أو قتل خطأ ، وكذلك في سائر المعاملات والأموال واستحقاقها وفي الرقاب وعتقها أو استرقاقها ، وفي المناكحات فلا يبت في أمرها إلا بعد المطالعة ، وتعرف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة ، وأنه يجب التوقف ومراعاة أنه لا يقدم على إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات ، إلا بوجه صحيح . ويختتم الخليفة رسالته بحث الموحدين على العمل بما جاء فيها ، وأنه يجب عليهم في جميع الأحوال ، تقوى الله في السر والظهر ، وخيفته في الباطن والظاهر ، والجرى على سنته ، وأنه يجب إذاعة هذا الكتاب ، والتشهير به ، وجمع الناس لقراءته ، وتعريف الحاضر والغائب بما فيه ، وأن ترسل منه نسخ إلى سائر الجهات ليعمل الناس بما جاء « في هذا الأمر العزيز من إقامة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله على وجهه المتعين وسنته الواضح البين »<sup>(١)</sup>.

وإنه لما يلفت النظر في هذه الرسالة بنوع خاص ، اهتمام الخليفة البين بمسألة أحكام الإعدام ، وإراقة الدماء ، وتشدده في المطالبة برفعها إليه ، وفي

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة النص الكامل لهذه الرسالة في كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٧٩ إلى لوحة ١٨٢ ونقلها العلامة جولدسيهر في بحثه انتهى سبقت الإشارة إليه *Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung* (Z. der Mog. Gesellsch., 1887 p. 134-188) وقد شرناها نحن في باب الوثائق الموحدية في نهاية الكتاب .

وجوب تحرى الدقة فى شرحها ، وتقييدها بالشهود والعدول ، وإثبات أقوال المظلومين وحججهم ، وأقوال الظالمين ، أعنى المدعين وحججهم ، فهذا الاهتمام البالغ من أبى يعقوب ، بالحرص على صون الدماء ، والتنكيب عن إراقها إلا بوجه الحق ، ومنتهى الدقة والحذر ، يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الخليفة العالم ، والفقيه البارع ، قد تأثر إنما تأثر بما أبداه الموحدون منذ عهد المهدي ، من خفة فى سفك الدماء ، ومن إسراف فى إراقها ، وما اتسم به عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن من سيطرة هذه الظاهرة الدموية المروعة ، وأنه أراد برسالة أن يحمل زعماء الموحدين من أمراء وأشياخ وحكام ، على التزام نوع من الحرص والاعتدال فى إراقة الدماء ، وفى تقرير أحكام الإعدام .

ولما وصلت رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبى سعيد بقرطبة ، وجهت منها نسخ إلى سائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، وقرئت على الناس فى الجوامع ، وغادر السيد أبو سعيد قرطبة بعد ذلك بقليل ، عائداً إلى حضرة مراكش نزولاً على رغبة الخليفة حسبما تقدم .

وفى أوائل سنة ٥٦٢ هـ ( ١١٦٦ م ) عادت الفتنة إلى جبال غمارة بين قبائل صنهاجة ، وعاد زعيمها سبع بن منعماد إلى الخروج والعصيان ، وبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالاً حتى سبتة ، وأخذ يعيثُ فساداً فى تلك المنطقة ، ويقطع الطرق ، ويعتدى على السكان الآمنين قتلاً وسيّاً ونهاً . ووصل عيثه وعدوانه غرباً حتى منطقة القصر الكبير . وكان قيام الثورة فى تلك المنطقة الحساسة ، التى هى شريان المواصلات بين المغرب والأندلس من أخطر الأمور ، التى يجب حسمها بقوة وبسرعة . ومن ثم فقد سير الخليفة جيشاً موحدياً بقيادة أبى سعيد يـُخلف بن حسين إلى بلاد صنهاجة من جهة القاعة ، وكان الشبح أبو حفص عمر بن يحيى ، قد تقدم فى عسكره إلى ناحية أخرى من منطقة الثورة ، فقاوم الثوار أشد مقاومة ، وامتنع سبع بن منعماد بفواته فى جبل الكواكب ، ولم تـُتل القوات الموحدية من الثوار مأرباً . وعندئذ رأى الخليفة أن يسير بنفسه إلى مقاتلة الثوار ، فخرج فى جيش كثيف ، ومعه أخواه السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، وسار إلى جبال غمارة ، ونازلت القوات الموحدية الرعيم الثائر فى أعماق معاقله ، وأحاطت به وبسائر صحبه من كل ناحية ، وأمكنت فيهم قتلاً وأسراً ، ومزقوهم تمزيقاً ، واحتلوا

أراضهم ، وقتل زعيم الثورة سبع بن منعقاد ، و صلبت جثته ، وأذعنت سائر  
صنهاجة في تلك المنطقة ، وتضرعت إلى الصفح والأمان ، فأجيبته إلى ما طلبت .  
وتم قمع ثورة غمارة في أوائل شوال سنة ٥٦٢ هـ ( أغسطس سنة ١١٦٧ م ) .  
واستولى الموحدون على غنائم هائلة من الماشية ودواب الحمل ، وأسروا من  
الثوار نحو أربعة آلاف . وعاد الخليفة أبو يعقوب في عساكره المظفرة إلى حضرة  
مراكش ، وصدرت عن هذا الفتح رسالة مطولة بقلم الكاتب أبي الحسن بن  
عباش مؤرخة في الرابع عشر من شوال ، ووجهت إلى سائر الموحدين والأشياخ  
والطلبة بالمغرب والأندلس<sup>(١)</sup> ، وعين الخليفة أخاه السيد أبا الحسن على والياً  
على سبتة وسائر منطقة الريف وغمارة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم تمض على إخماد فتنة غمارة بضعة أشهر ، حتى  
حدثت فتنة جديدة ، وثار بعض البطون البربرية بجبل تاسررت ، وأعلنوا خلع  
الطاعة ، فسار إليهم السيد أبو حفص أخو الخليفة في عسكر وافر من الموحدين  
واشتد في قتالهم ، حتى مزقهم واستأصل شأفتهم<sup>(٢)</sup> .

أشرنا فيما تقدم إلى ندب الخليفة أبي يعقوب للحافظ الشيخ أبي عبد الله بن أبي إبراهيم  
لولاية غرناطة وذلك في شعبان سنة ٥٦٢ هـ . وكان أول ما عني به الوالي الجديد ،  
أن يطهر أحواز غرناطة من عدوان المرتزقة النصارى من أحلاف ابن مردنيش ،  
وكانت قوة منهم تحتل حصن « ليه » الواقع فيما بين غرناطة ووادي آش ، وتعيث  
باستمرار في تلك المنطقة ، وتبث فيها الخراب والروع ، وتصل أحياناً إلى أسوار  
غرناطة ، وتهدد أمنها وسلامتها ، فحشد الحافظ أبو عبد الله قواته وسار إلى حصن  
ليه المذكور ، وهاجمه بشدة ، واقتحمه عنوة ، ومزق حاميته من النصارى ،  
وقضى بذلك على عيشها وشرها ، وعاد ظافراً إلى غرناطة ، وبعث إلى الخليفة  
ينبئه بسعيه ، فبعث إليه الخليفة برسالة يعرب فيها عن شكره ورضاه .

على أن أهم حوادث الأندلس التي وقعت في تلك الفترة ، كان مسرحها

---

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٨٢ أ وب ، وكذلك لوحة ٩٦ . والبيان  
المغرب القسم الثالث ص ٦٩ ، و ٧٠ و ٧١ . وينقل إلينا ابن صاحب الصلاة رسالة الفتح بأكملها  
وهي تشغل اللوحات من ٨٤ إلى ٩١ .

(٢) ابن صاحب الصلاة لوحة ١١٣ ب .



ولاية الغرب الأندلسية ، وكان قيام مملكة البرتغال الناشئة ، واشتداد ساعدها في عهد ملكها ألفونسو هنريكيز ، يمثل الخطر الجديد على قواعد الأندلس الغربية المتاخمة لهذه المملكة الجديدة ، وكان ألفونسو هنريكيز حينما اضطربت شئون الأندلس ، وعمت الفتنة قواعد الغرب ، قد انتهر هذه الفرصة للإغارة على القواعد الإسلامية المجاورة ، وكان يتوق بالأخص إلى الاستيلاء على أشبونة لموقعها الفذ عند مصب نهر التاجه ، ولحصانها ، واكونها كانت معقل المسلمين المنيع في قلب الأراضي البرتغالية . ولما لم يكن لديه قوى كافية لتنفيذ مشروعه فقد اتجه إلى الاستعانة بالقوات الصليبية المتجهة إلى المشرق من الإنجليز والألمان والفلمنك (الهولنديين) ، واستطاع بالفعل أن يجذب منهم لمعونته طوائف كبيرة . وفي أوائل سنة ١١٤٧م (أواخر ١١٤١هـ) سار في قواته لمحاصرة أشبونة ، ورابطت القوات الصليبية في البحر ، في مدخل الميناء لتحول دون وصول أية إمداد إلى المدينة المحصورة . واستمر الحصار بضعة أشهر ، وكانت أشبونة الإسلامية مدينة منيعة ، تحميها من ناحية البر أسوار منيعة ضخمة ، ولها عدة أبواب عظيمة ، وبابها الغربي هو أعظم أبوابها ، وقد عقدت عليه حنايا فوق حنايا ، على عمد من الرخام ، مثبتة على حجارة من رخام ، ولها باب قبلي يسمى باب البحر ، وباب شرقي يسمى باب الحمة<sup>(١)</sup> . ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عديدة ، ودافع المسلمون عن ثغرهم أشد دفاع ، ولكن الحصار كان شديداً مرهقاً ، وقد نصبت موارد المدينة المحصورة تباعاً ، وثلمت الأسوار في عدة مواضع . ثم استعد البرتغاليون للضربة الحاسمة . وخطب فيهم ملكهم ألفونسو ، يحثهم على مضاعفة الجهود في القتال ، وليقول لهم إن المدينة غنية بالأموال ، التي تمكنهم من متابعة الحرب ، وإنها معقل الأعداء وكنزهم ، ومستودعهم الذي يزخر بالحلى والنفائس ، فعليهم أن يقتحموا هذه الأسوار المثلومة ، وأن يأخذوا المدينة .

وكانت المعركة الأخيرة قصيرة ، ولكن دموية هائلة ، ودافع المسلمون ، بالرغم مما عانوا من أهوال الحصار ، عن مدينتهم ، دفاعاً مريراً . ولكن هذا الدفاع اليائس لم يغن شيئاً ، واقتحم النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة من بابها الشرقي — باب الحمة — وقتل من المسلمين مقتلة عظيمة ، وأسر الأحياء منهم ، وجعلوا رقيقاً ؛ ونهب النصارى المدينة نهباً ذريعاً ، وكان فيها من الأموال والنعم

---

(١) الروض المطار — صفة جزيرة الأندلس — ص ١٦

أعظم ما يتصور . وفي الحال حول مستحذها الجامع إلى كيسة ، وعين لها أسقف هو الأسقف حليرتو ، وكان استيلاء البرتغاليين على أشونة في اليوم الخامس والعشرين ، وقيل في الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ١١٤٧ م ( جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ )<sup>(١)</sup> .

واستولى ألفونسو هريكيزا في نفس الوقت على مدينة سبترين الواقعة شمال شرق أشونة ، ثم استولى على سائر الأراضي الإسلامية المتاحة لتلك المنطقة ، والتي تكون القسم العربي من ولاية « استر إمادور » . ولم يكن من الميسور يومئذ على الموحدين ، وقد شغلهم حواشيهم العرب ، واصطراهم الفتنة بالأندلس ، أن يبادروا إلى إنجاد هذه القواعد الإسلامية الباقية .

والملتزم ألفونسو هريكيزا أعواماً يغير على أراضي ولاية الغرب من آن لآخر ، ويترقب الفرص الساجدة ، وقد أشيرنا من قبل إلى ما كان من محاولة ابن قيلي زعيم فتنة المرينيين ، أن يحالفه ، وأن يستعين به على مقاومة الموحدين ، وما ترتب على هذه المحاولة من سقوط ابن قسي وهلاكه ( سنة ٥٤٦ هـ ) ولما تعاقم عدوان ملك البرتغال على قواعد العرب ، عبر ابن ورير صاحب باجة وياطرة إلى المغرب مستغيثاً بالخليفة عبد المؤمن ( سنة ٥٤٩ هـ ) ، ولكن عبد المؤمن اكتفى بمثل ذلك وعوده في الإنجاد والعون

وفي سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٨ م ) استولى البرتغاليون بقيادة ألفونسو هريكيزا على الثغر الصغير المنيع المسمى بقصر الفتح أو قصر أبي دانس<sup>(٢)</sup> ، الواقع على مصب نهر سادو ( شطوبر ) على المحيط الجنوبي شرقي أشونة ، بعد أن حاصروه مدى شهرين من البر والبحر ، وكان سقوطه في ٢٤ يونيو من العام المذكور<sup>(٣)</sup> . وفي أواخر سنة ٥٥٧ هـ ( ديسمبر ١١٦٢ ) قبيل وفاة عبد المؤمن بقليل ، قامت حملة قوية من نصاري شهرين بغزو مدينة باجة والاستيلاء عليها ، وليثوا فيها أربعة أشهر ، ولم يغادروها إلا بعد أن حاربوا ربوعها ، وهدموا أسوارها<sup>(٤)</sup> .

(١) Mariana : Historia General de Espana : Lib. Decimo Cap XIX

(٢) وهو الثغر المسمى « Altacer do Sal »

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٩ وكذلك H: Miranda : Imperio Almohade

Vol. I p. 266

(٤) كتاب « المر بالإمامة » لوحة ١١٨ وفي المطوع ص ٣٧٣



هذا وسوف نرى فيما بعد أن استيلاء البرتغاليين على باجة قد وقع وفق رواية أخرى بعد ذلك بعشرة أعوام .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى بدأ نصارى البرتغال سلسلة جديدة من الاعتداءات على القواعد والأراضي الإسلامية . وكان منظم هذا العدوان وقائده معامر يدعى جيرالدو ، ويعت في التواريخ النصرانية « بالبازل » Oeraldo sem Pavor ، وكان هذا المعامر الذي تعرفه الرواية الإسلامية « بالعلاج جراندة الجليقي » قاطع طريق أورئيس عصابة ناهبة ، ألقى مجالا طياً لنشاطه في الظروف التي كانت سائدة يومئذ في بلاد الغرب الأندلسية ، وكان يغير بالأخص على المحلات والأراضي الإسلامية الواقعة في قطاع بطليوس ما بين نهري التاجه ووادي يانه ، ويعيث فيها قتلا وتخريباً ونهباً ، وكان يقوم بهذه الغارات والعروات لحساب نفسه ، وفي أصحابه وعصبته ، على نحو ما كان يفعل السيد الكبيطور (الكبيادور) في شرقي الأندلس أيام الطوائف . يبدو أنه لم يكن يبلغ من حيث شخصيته ، ولا من حيث عصبته أو مكائده ، مبلغ السيد ، وإن كان بعض البرتغاليين يعتبره قرين السيد ، ويسميه « بالسيد البرتغالي » . وكان ملك البرتغال ألفونسو هنريكز يؤارره ، ويعاونه بالمال والرجال ، لما يترتب على نجاح حملاته وغاراته من إضعاف المسلمين ، والتمهيد لمشاريعه الصخمة في افتتاح قواعدهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة - وهو الراوية المعاصر - أعمال جيرالدو ومعمراته في الفقرة الآتية :

« وكان أدفونش بن الرنك العاذر الجليقي ، صاحبة قلمرية ، قد عاين من بحدة هذا الكلب حراندة ، وتيقظة لغدر البلاد والحصون ، ما أعماه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين في الثعور بأرجاله ، فكان الكلب يتسلل في الليالي المطرة الخالكة المظلمة ، الشديدة الريح والثلج ، إلى البلاد ، وقد أعد آلات من السلام من أطول العيدان ، بعلو سور المدينة التي يؤم ويروم ، فإذا نام السامر المسلم في برج المدينة ، ألقى تلك السلام إلى جانب البرج ، ورقى عليها بنفسه أولاً إلى البرج ، ويقص على السامر ، ويقول له ، تكلم على ما كانت عادتك ليلا يشعر الناس بنا ، فإذا استوفى طلوع حملته ، الدميمة في أعلى سور المدينة ، صاحوا بلعائهم صيحة عظيمة منكرة ، ودخلوا المدينة ، وقتلوا من وجدوه



واستلبوه ، وأخذوا كل من فيها سبياً وفتياً<sup>(١)</sup> .

وكانت أول قاعدة إسلامية غزاها جبرالدو في ذلك القطاع من ولاية الغرب ، هي مدينة ترجاله<sup>(٢)</sup> الواقعة شمالى ماردة على مقربة من نهر التاجه ، قدسها في شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٠ هـ ( مايو سنة ١١٦٥ م ) ، ثم انقض على مدينة يابرة في شهر ذى القعدة من نفس العام ( سبتمبر ١١٦٥ ) ، وباعها مع ترجاله إلى النصارى . ثم سار إلى مدينة قاصرش<sup>(٣)</sup> الواقعة غرب ترجاله ، واستولى عليها في صفر سنة ٥٦١ هـ ( ديسمبر ١١٦٥ ) ، وتبعها بالاستيلاء على حصن متانجش الواقع في جنوبها الشرقى في جمادى الآخرة من نفس العام . واستولى أخيراً على حصن شربة ، ثم حصن جلمانية<sup>(٤)</sup> الواقع على مقربة من غربى بطليوس ، واتخذة قاعدة للإغارة عليها ، والتضييق على أهلها . وكانت هذه الغزوات المتوالية التى وقعت بولاية الغرب في نفس الوقت الذى شغل فيه الموحدون بمقاتلة ابن مردنيش في شرقى الأندلس ، مقدمة لغزو بطليوس وسقوطها ، وتحريك الموحدين بذلك إلى المبادرة إلى خوض الصراع مع النصارى ، لاسترداد بطليوس ، وحماية ولاية الغرب الأندلسية من السقوط .

وشغل الخليفة أبو يعقوب في العام التالى - سنة ٥٦٢ هـ - حسباً رأينا بقمع فتنة غمارة . وفي أوائل سنة ٥٦٣ هـ ( ١١٦٧ م ) اتفق رأى الموحدين على تجديد البيعة للخليفة . وليس في أقوال الرواية ما يوضح سبب هذا الإجراء في تجديد بيعة سبق عقدها عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن ، واستكمالها في سنة ٥٦٠ هـ ، حينما تمت بيعة السيد أبى سعيد والسيد أبى عبد الله لأخيها الخليفة ، وتسمى أبو يعقوب عقب ذلك بأمر المؤمنين ، اللهم إلا أن يكون ذلك عنواناً لإجماع سائر البلاد والقبائل على الطاعة بعد إخماد ثورة غمارة التى شملت منطقة كبيرة حساسة في شمالى المغرب ، والتى اقتضى أخادها أن يسير إليها الخليفة بنفسه . ويزف ابن صاحب الصلاة إلينا هذا الإجراء كمعادته في ألفاظ منمقة ،

---

( ١ ) في كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٨ . وراجع أيضاً البيان ( المطوع ص ٣٧٣ ) المغرب

القسم الثالث ص ٧٨ ، وكذلك ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .

( ٢ ) هي بالإسبانية « Trujillo »

( ٣ ) هي بالإسبانية « Cáceres »

( ٤ ) متانجش بالإسبانية Montanchez ، وشربه Serpa ، وجلمانية Jurumena

ويقول لنا في حوادث سنة ٥٦٣ هـ ، « في أول هذه السنة جمع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والبشائر ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة بتجديد البيعة ، والتسريح بالإسمية المستحقة لسيدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين ، أعزهم الله » . ثم يقول لنا . إن هذا الأمر العزيز ، قد نفذ بكتاب كريم ، أرسل إلى أخى الخليفة السيد أبي إبراهيم إسماعيل وإلى إشبيلية ، منبئاً له « بما اتفق من اجتماع الرأي السعيد ، والفعل السديد ، الذى اجتمعت عليه آراء الموحدين . . من تجديد البيعة الرضوانية والإسمية الإمامية للإمام أبي يعقوب » . وفى هذا الكتاب يأمر الخليفة بأن يأخذ الناس بما جاء فيه ، وجميع الموحدين بإشبيلية ، وسائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، مثل قرطبة وغرناطة ومالقة وغرب الأندلس ، وذلك بعقد البيعة على أوفى شروطها . فوجه السيد أبو إبراهيم نسخة الكتاب إلى زميله الحافظ أبي عبد الله وإلى غرناطة ، فاحتفل بقراءته من فوق المنابر ، وهرع الناس إلى إعطاء بيعتهم ، وسجلوها فى كتاب أرسل إلى الخليفة . وكتب أهل إشبيلية كذلك بيعتهم ، ووقعوها بخطوطهم ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إلى الخليفة . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة نص الوثيقتين المذكورتين ، وقد أرخت كلتاهما فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسة<sup>(١)</sup> ، وأرسلت فى نفس الوقت بيعات سائر القواعد الأخرى ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، إلى حضرة مراکش .

ولما كملت البيعة الجديدة على هذا النحو تسمى الخليفة أبو يعقوب بأمير المؤمنين ، وساد اليمن والبشر ، وأصدر الخليفة عقوه عن المسجونين ، وأمر برفع البقايا عن العمال الخائفين ، وتأمينهم من المخاوف ، فيما تقيد عليهم فى الدواوين ، وأغدق الصلوات والأعطية ، وأمر بأن يجرى « الإنعام والبركات » فى سائر بلاد المغرب والأندلس ، فكثرت النعم ، وعم الرخاء ونمت الحبايات والحراج ، وانتعشت حركة العمران فى العاصمة الموحدية ، وشرع الناس فى إنشاء الدور الفخمة ، والرياض الياقة ، وكثرت بهذه المناسبة مدائح الشعراء وتهانيمهم . فمن ذلك قصيدة نظمها أبو عمر بن حربون شاعر الدواول الموحدية هذا مطلعها :

جاءتك تسحب ذيلها للموعد رهراء طالعة بسعد الأسعد

(١) كتاب « المن بالإمامة » ، لوحة ١٠٠ إلى ١٠٤ . وفى المطوع ٣٣٨ - ٩٤٤ وقد رأينا

أن نقل نص بيعة إشبيلية فى باب الوثائق ، فلتراجع هناك .

فاصدع أمير المؤمنين بدعوة لم تترك صمما لسمع الجامد  
بني الخلافة ان ليست رداءها وقعت منها اليوم أشرف مقعد<sup>(١)</sup>

وفي أواخر هذا العام — سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) — ندب أبو يعقوب أخاه  
السيد أبا إسحاق إبراهيم والياً لقرطبة ، وكانت بلا وال مذ غادرها واليا السابق السيد  
أبو سعيد عائداً إلى مراكش نزولا على رغبة أخيه الخليفة ، وذلك في شهر  
ذي القعدة سنة ٥٦١ هـ . وعبر السيد أبو إسحاق إلى الأندلس في عسكر ضخم من  
الموحدين وسار إلى قرطبة ليتقلد ولايتها . وكان عبوره فاتحة الحركة التي كانت  
تجتمع أسبابها منذ حين ، لعبور الموحدين إلى شبه الجزيرة ، للاضطلاع بمحاربة  
النصارى ، وافتتاح عهد جديد من الجهاد ، توطن فيه الأندلس ، ويقمع  
عدوان المعتدين عليها .

والواقع أن الموحدين كانت قد انعقدت نيّتهم على الاضطلاع بهذه الخطوة ،  
التي برهنت حوادث الأندلس على ضرورتها ، وذلك سواء في الشرق أو الغرب .  
وقد أبلغ الخليفة أمر هذه النية ، وما اتفق عليه رأى الموحدين بشأنها ، إلى  
الشيخ الحافظ أبي عبد الله والي غرناطة ، في رسالة خاصة وجهها إليه ، مؤرخة  
في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ هـ ، وفيها يشير إلى ما تقرر  
من إرسال السيد أبي إبراهيم في عسكر من الموحدين والعرب إلى قرطبة ، وأنه  
سوف يتعاون بعسكره مع إخوانه الذين ياشيرون ، ويضطلع الجميع بالجهاد  
وحماية البلاد ، وأن يستمر النظر للحافظ أبي عبد الله في شئون الآلات والأسلحة  
التي تحتاج إليها القوات الموحدية<sup>(٢)</sup> .

وحدث في نفس الوقت الذي وصلت فيه هذه الرسالة إلى غرناطة ، أن  
أغارت قوة من النصارى المرتزقة من جند ابن مردنيش على وادي شتيل غربي  
غرناطة ، واندفعت جنوباً حتى وصلت إلى أحواز رُنْدَة ، وعاثت في تلك  
المنطقة ، وانهبت أموالها وماشيتها ، فبادر السيد أبو عبد الله بتجهيز عسكر قوى

(١) أوردها ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٠٧ أوب ، وفي المطوع ص ٢٤٨ —

٣٥١ ووردت كذلك في البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٧٤ .

(٢) أوردها لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٠ أوب

و ١١١١ . وفي المطوع ص ٣٥٤ — ٣٥٦



لردها وردعها ، فالتقت بهم حين عودتهم على مقربة من وادى آش ، فحاول  
النصارى الامتناع بجبل قريب ، ولكن الموحدين دهموهم في أعلى الجبل ،  
وقاتلوهم بشدة ، حتى مزقت صفوفهم ، وتساقطوا من حافات الجبل ، وقد  
فنى معظمهم قتلاً وأسراً ، واستاق الموحدون الغنائم والأسلاب ، ومعها  
ثلاثة وخمسين أسيراً من النصارى ضربت أعناقهم عند وصولهم إلى غرناطة  
(مارس سنة ١١٦٨ م) ، وبعث السيد أبو عبد الله ، نبأ ذلك النصر إلى الخليفة ،  
فرد عليه برسالة يزجى فيها الشكر ، ويحمد الله على توفيقه (١) .

وفي أواخر هذا العام استولى الموحدون على ثغر طبيرة ، الواقع في جنوبي  
البرتغال غربى مصب نهر وادى يانه ، وكانت طبيرة من القواعد التى ثارت  
بالغرب أيام أن اضطربت شئونه ، وذلك في سنة ٥٤٨ هـ ، وكان الخليفة أبو يوسف ،  
أيام أن كان والياً لإشبيلية ، في أواخر عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن ، قد نازل  
طبيرة مرتين ، فلم يظفر بفتحها ، وكان صاحب طبيرة ، عندئذ الثائر بها عبد الله  
ابن عبد الله ، قد تفاقم شره وعدوانه ، وكثر عيثه في تلك المنطقة ، يعتدى على  
السكان الآمنين والسابلة ، والتجار ، بعصبته من أهل الشر وقطاع الطريق ،  
سواء في البر أو البحر ، فعندئذ عول الموحدون على أخذ طبيرة ، وحسم دأبها .  
فساروا إليها في حملة قوية ، واحتلوا حصن قسطة القريب منها ، وحاصروها  
براً وبحراً ، حتى أذعنوا إلى التسليم ، وذلك في شهر ذى القعدة سنة ٥٦٣ هـ  
( سبتمبر سنة ١١٦٨ م ) (٢) .

وفي أواخر هذا العام أيضاً وقع حادث ذو مغزى خاص ، هو قدوم الزعيم  
القشتالى فرناندو ردرىجيس صهر فرناندو الثانى ملك ليون وزوج أخته ابنة  
القيصر ألفونسو ريمونديس ، مع أخويه إلى إشبيلية ، والإعراب عن رغبته لأشياخ  
الموحدين بها ، في أن يكون صديقاً وحليفاً لأمر المؤمنين ، ومنابذاً لشيعة  
النصارى ، فبعث الموحدون برغبته إلى الخليفة ، فأذن له بالقدوم إلى مراکش ،  
فقدم إليها ، واستقبله الخليفة أبو يعقوب بترحاب بالغ ، وأنزله ومن معه خير  
منزل ، وأقام بالعاصمة الموحدية خمسة أشهر ، معززاً مكرماً ، حتى كاد أن

( ١ ) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٢ أ وب .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٦ ب وفي المطوع ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ،

والبيان المغرب التكم الثالث ص ٧٧ و ٧٨ .

يُسلم» ، وقد عاهد الخليفة أن يكون حليفه وحليف المسلمين المخلص ، لا يشهر عليه عدواناً قط . ثم عاد إلى بلاده وقد أمر الخليفة بأن يشمل الموحدون بأتم الرعاية . ويقدم لنا ابن صاحب الصلاة هذا الزعيم القشتالي باسم « فرناندو ريس النصراني » ويلقبه بصاحب ترجاله ، ويصفه « بالشهير النسب والشهامة عند النصاري »<sup>(١)</sup> .

وتلا ذلك عقد الصلح والتحالف بين فرناندو الثاني ملك ليون وبين الموحدين . وكانت الحصومة تضطرم بين فرناندو وملك البرتغال ألفونسو هنريكي ، بالرغم مما كان بينهما من أواصر المصاهرة ، إذ كان فرناندو متزوجاً بالأميرة أورাকা ابنة ملك البرتغال ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها أن فرناندو لم يستطع أن يزاول حق السيادة على البرتغال الذي ورثه عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس . وكان فرناندو مذفرغ من مشاغله وحروبه في قشتالة ، يتجه بأطماعه نحو مملكة البرتغال ، وينظر بعين الحسد والتوجس إلى ما كان يحزره ألفونسو هنريكي من انتصارات متوالية على المسلمين ، ويخشى بنوع خاص أن تمتد فتوح ملك البرتغال إلى بعض القواعد والأراضي الإسلامية التي يرى فرناندو أنها من خاصة قشتالة وليون . وكان فرناندو قد عمد إلى تحصين مدينة ردريجو ، ( ثيوداد ردريجو )<sup>(٢)</sup> الواقعة على حدود البرتغال ، واتخذها قاعدة للإغارة على أراضي البرتغال القريبة ، وأنشأ في نفس الوقت عدة قلاع وحصون منيعة على حدود البرتغال . كل ذلك استعداداً لأن يخوض مع ملك البرتغال صراعاً حاسماً . ثم رأى أخيراً أن يقوى جانبه يعقد التحالف مع الموحدين . وتسمى الرواية الإسلامية فرناندو ، « بالبيوج » ، و« بصاحب السبطاط » وتسميه أحياناً صاحب « السبطاط وآبابة وليون وسمورة » . فأما « البيوج » أو « البيوج » فهو تحريف للكلمة القشتالية El-Baboso ، ومعناها الكثير اللعاب ، وكذلك الأبله . وهذا ما لم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إليه<sup>(٣)</sup> . وأما « صاحب السبطاط » فمعناه « صاحب ثيوداد ردريجو » وقد كانت وقتئذ

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ وفي المطوع ص ٣٦٨ - ٣٧٠ - واليان المغرب القسم الثالث ص ٧٨ .

( ٢ ) وهي بالإسبانية Ciudad Rodrigo والقشتالية الثدية Cibdad ومنها حرفت التسمية العربية « سبطاط » .

( ٣ ) راجع المعجب ص ١٨٢ .

مقره وقاعدة تحركاته . وكانت أول ثمرات محالفة فرناندو للموحدين هو أنهم أمدوه بعسكر لمعاونته على قتال الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة، والمسيطر على ابن أخيه الملك الصبي ألفونسو النبل ملك قشتالة . وكانت هذه الحملة الموحدية التي حشدت في إشبيلية بقيادة أبي العلاء بن عزون والحافظ أبو علي عمر بن تمصلت ، والحافظ موسى بن حمو . ودخل الموحدون مع قوات فرناندو أراضي قشتالة، وحاربوا معه ضد خصومه ، ثم ساروا معه حتى حدود الأسترياس (أشتريش) ، وأقاموا في هذه الغزوة خمسة أشهر ، ثم عادوا سالمين ، وقد اغتبط ملك ليون بمؤازرتهم ونجدتهم ، وقطع على نفسه العهد الوثيق ، بأن يبادر إلى القتال مع أمير المؤمنين ضد النصارى ، الذين يعتدون على أراضيه ، وألا يتواني في ذلك قط ، وأقسم على ذلك في بيعة بلده . وقد أوفى بهذا العهد كما ستراه في حوادث بطليوس أتم وفاء<sup>(١)</sup> .

---

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ و ١١٨ ، وفي المطبوع ص ٣٧٠ - ٣٧ والبيان المغرب ، التسم الثالث ص ٧٨



## الفصل الثاني

### حوادث الأندلس

#### وسقوط مملكة الشرق

اهلهم الموحدون بحوادث الأندلس . عزهم على استئناف الغزو . رسالة الخليفة أبي يعقوب في ذلك . خطة ألفونسو هنريكيث ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لافتتاح بطليوس . سقوط المدينة وامتناع الموحدون بالقصبة . تدخل فرناندو ملك ليون لإنجاد الموحدون . بواعث خصومته لملك البرتغال . القتال داخل المدينة بين الفريقين . هزيمة ملك البرتغال وأسرهم ، ثم إطلاقه . فرناندو يسلم المدينة للموحدون . تدعيم الدفاع عن قرطبة . الشقاق بين ابن مردنيش وابن همشك . توحيد ابن همشك وانضمامه للموحدون . بعث ابن مردنيش قواته لقتاله . تعيين الحافظ أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص والياً لبطليوس . مهاجمة جيرالدو سمبافور لبطليوس . القتال بينه وبين الموحدون . هزيمة الموحدون وأسر أكابرهم . استدعاء ولاية قرطبة وإشبيلية وغرناطة إلى الحضرة ثم عودهم . غزو القشتاليين للأندلس . تقاعد الموحدون عن ردهم . بعض الأحداث الطبيعية . غارات جيرالدو على بطليوس . سعى الموحدون لإمدادها . معركة بين الموحدون وجيرالدو . هزيمة الموحدون ومقتل الحافظ أبي يحيى . مرض الخليفة وتأخر حركة الغزو . ترجيع البدء بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على حركته . عبور السيد أبي حفص في القوات الموحدية . سير السيد أبي سعيد في قواته لإنجاد بطليوس . مسير ملك ليون إليها لافتتاحها . لقاء السيد والملك النصراني . تفاههما على استبقاء التحالف والصلح . افتتاح السيد أبي سعيد لحصن جلالية . ابن مردنيش وانحلال قواه . عوامل هذا الانحلال . مصادقة ابن مردنيش للنصارى . خروج قادته ووزرائه عليه . سير الموحدون بقيادة السيد أبي حفص لقتال ابن مردنيش . استيلائهم على قبيجاطة . زحفهم على مرسية . دخول لورقة في طاعتهم ، ثم سقوطها في أيديهم . دخول ألس والجزيرة ثم بسطة في طاعتهم . مدافعة ابن مردنيش للموحدون . موقف أخيه يوسف والى بلنسية . محاولة النصارى غزو بلنسية . قيام محمد بن مردنيش ومحمد بن هلال بالمرية ودعوتهما للموحدون . اضطراب ابن مردنيش وتخاذله . وفاته وما قيل حولها . انهيار دولته . ثورة ابن مردنيش وصفتها الأندلسية القومية . شخصية ابن مردنيش ومعايها . مقدرته وشجاعته . إعلان ولده هلال وقادته الطاعة للموحدون . رواية عن وصية ابن مردنيش بالتسليم . دخول السيد أبي حفص والموحدون مرسية . مسير هلال وأكابر الترق إلى إشبيلية . مبايعتهم للخليفة أبي يعقوب . رواج الخليفة من ابنة ابن مردنيش . ابن همشك ونهائته .

لم يكن الخليفة أبو يعقوب وأعوانه من أشياخ الموحدون ، بغافلين عن خطورة الحوادث التي وقعت في غربي الأندلس ، وما اقترن بها من سقوط قواعد إسلامية جديدة في أيدي النصارى . وكان قد مضى على سقوط أشبونة وشنترين في يد الملك

ألفونسو هنريكز نحو عشرين عاماً ، وقد غلب النسيان نوعاً على فقد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد الغرب لموقعهما النائي ، ولكن تقدم البرتغاليين نحو بطليوس وماردة ، بسقوط ترجائه وقاصرش ويابرة وجلدانية ، وتهديدهم لسائر الأراضي الواقعة على ضفتي نهر وادي يانه ، زاد من خطورة الموقف ، ونبه الموحدين إلى وجوب البدار إلى إنجاد الأندلس ، والعمل على حمايتها .

وقد حالت الأحداث والفتن التي وقعت بالمغرب ، والتي فصلناها فيما تقدم ، دون تنفيذ هذا العزم حيناً . فلما حلت سنة ٥٦٤ هـ ، هدأت تلك الفتن ، واستتببت السكينة والسلام بالمغرب ، لاح للخليفة ومعاونه ، أن الفرصة قد أزفت للعمل بالأندلس ، فجهز أبو يعقوب جيشاً من الموحدين وغيرهم تحت إمرة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى كبير أشياخ الموحدين ، وعبر هذا الجيش البحر إلى إشبيلية ، ليكون مقدمة لحركة الجهاد العامة ، التي اعتزم الموحدون القيام بها في الأندلس . ويبدو مما يقوله لنا ابن صاحب الصلاة ، نقلاً عن أبي محمد سيدرأى بن وزير ، أن التعجيل بإرسال هذا الجيش ، كان بسبب وصول الخبر بمهاجمة البرتغاليين لبطليوس ، ومحاصرته للموحدين الممتنعين بقصبتها ، وقد وقع الهجوم على بطليوس في شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ ( أبريل سنة ١١٦٩ م ) . على أنه يبدو من نص الرسالة التي وجهها الخليفة بهذه المناسبة إلى الموحدين بالأندلس والتي أُرخت في اليوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، أن هذا الجيش الموحدى ، قد جهز وأرسل إلى الأندلس ، قبل حوادث بطليوس بنحو شهرين أو ثلاثة ، ليكون طليعة لحركة الجهاد الكبرى ، وليطمئن أهل الأندلس بوصوله وأنه فوجئ بحوادث بطليوس أثناء وجوده بإشبيلية .

وهذه الرسالة التي وجهها الخليفة أبو يعقوب « إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس » هي من إنشاء كاتبه أبي الحسن بن عياش ، وهي تردد وتؤكد نفس الوعود التي قطعها الخلافة الموحدية على نفسها غير مرة ، منذ أواخر عهد عبد المؤمن بالعمل على حماية الأندلس وغوثها ونصرتها<sup>(١)</sup> ، وقد ورد فيها ما يلي بخصوص هذا الشأن :

« ومازلنا وفقكم الله على أتم العناية بتاكم الجزيرة مهدها الله ، والحرص

( ١ ) أشرنا من قبل إلى رسالة بهذا المعنى وجهها الخليفة عبد المؤمن إلى ولده السيد أبي يعقوب أيام أن كان والياً لإشبيلية وذلك في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ ( القسم الأول ص ٢٧٩ ) .

على غوثها ، والانتواء انصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة ، والمشاهدة ،  
إشفاقاً على ما استضام منها جبرتها الأعداء ، وأبناؤها الأعقاء ، مجسمين وروما ،  
وما كادوها به من التكلف والتحيف والتنقص ، وفقر الأفواه ، وكسر الثيوب  
والأرصاء ، لغيض مافاض فيها من نور التوحيد ، وخفض ما نصب من أعلام  
هذا الأمر ، والمناصب المنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستدمين بذمته ، ممن  
صح ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السبائك ، ونصح على السير ،  
ونجعل لها من الفكر حظاً يستحق الصدر على ما سواه من الأفكار ، ويأخذ  
السبق على غيره من معانيات الأمور .

ثم تقول الرسالة إيضاحاً لحركة الشيخ أبي حفص ، وتأكيذاً لنيات الخليفة  
في الاضطلاع بأعباء الجهاد :

« ورأينا في أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميمنة المباشر ، أن تقدم  
بين أيدينا عسكرياً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبي حفص  
أعزه الله ، ليكون مقدمة لجواز جمهور الموحدين ، ومؤذناً بما عزمنا عليه .  
والله المستعان من التحرك بجملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ،  
الذي جعلناه نصب العين وتجاه الخاطر ، فتعاونون مع إخوانكم الواصلين على  
بركة الله إليكم ، على جهاد أعدائكم ، إلى أن يوافيكم إنشاء الله هذا العزم ،  
ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أمراسها ،  
التي انعقدت بها النية ، واحتدمت لها في ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله  
في تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والروية ، وإنا لندرجو من المبلغ لآمال  
القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون ما يتم  
مبدأها ، ويكمل منشأها ، وتشقى به صدور أوليائه بالنقمة في أعدائه ، وإن  
فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وقنية ،  
فما ذلك على الله بعزير »<sup>(١)</sup>.

وفي خلال ذلك كان ألفونسو هنريكينز ملك البرتغال ، قد وضع خطته  
للاستيلاء على مدينة بطليوس بالتعاون مع جبر الدو « سمبافور » أو « جيرانده الحليقي »  
حسب تسميه الرواية الإسلامية . وكان ملك البرتغال قد قام في سنة ١١٦١ م

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة في « المر بالإمامة » لוחات ١٢٠ - ١٢٢



( ٥٥٦ هـ ) بمحاولة أولى لمهاجمة بطليوس ، انتقاماً لما قام به الموحدون قبل ذلك بأعوام قلائل من غزو أراضيه . ولكنه رد على الأثر . وليس من الواضح ما إذا كانت بطليوس عندئذ ما تزال تحت حكم صاحبها ابن الحجام ، أحد ثوار الغرب المواليين للموحدين ، أم أنها كانت قد خلصت للموحدين ، وهم الذين قاموا بالدفاع عنها . وكان جبرالدوسمبافور قد استولى ، حسبما ذكرنا فيما تقدم ، على حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، وحصن منتانجش على مقربة من شمالها الشرقي . ففي شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ ( أبريل سنة ١١٦٩ م ) ، زحف جبرالدوسمبافور في جموعه على مدينة بطليوس ، وهاجمها ، ورأى واليها أبو علي عمر بن تيمصلي أنه لا يستطيع بحاميته الضعيفة أن يدفع المهاجمين ، فامتنع بالقصبة ، وبعث بصرىحه إلى الموحدين بإشبيلية . وما كاد جبرالدوسمبافور يستولى على المدينة حتى أقبل ملك البرتغال ألفونسو هنريكز في قواته ، ودخل بطليوس ، وحاصر الموحدين في القصبة ، وحدد لهم مهلة للتسليم . وكانت قصبة بطليوس من أعظم القصبات الأندلسية وأمنعها<sup>(١)</sup> ، ومن ثم فإن ابن تيمصلي كان على يقين من أنه سوف يستطيع الصمود مع حاميته حتى تصل الأمداد الموحدية من إشبيلية . بيد أن النجدة جاءت لأهل بطليوس ، وللموحدين المحصورين بقصبتها ، من طريق آخر لم يكن في الحسبان . جاءت على يد ملك ليون فرناندو الثاني .

ويجب لكي نفهم هذا الموقف الذي ترتب عاياه اشتباك الملكين النصرانيين ألفونسو هنريكز ملك البرتغال ، وفرناندو الثاني ملك ليون ، داخل مدينة بطليوس ، وتحت أسوار قصبتها ، أن نرتد قليلاً إلى الوراء ، لنلقى بعض الضوء على علائق هذين الملكين المتنافسين ، في هذه الفترة الدقيقة من حياة الحاضرة الأندلسية الثالثة — بطليوس . وقد سبق أن شرحنا بإيجاز سبب الخصومة الرئيسي بينهما ، وهو ما يتمسك به فرناندو الثاني من دعوى السيادة على البرتغال التي ورثها عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس ، ورفض ملك البرتغال أن يعترف بظل من هذه السيادة ، وما اقترن بذلك من إنشاء فرناندو الثاني لمدينة ردرىجو الحصينة على مقربة من حدود البرتغال ، لكي يتخذها قاعدة للإغارة على أراضى

---

( ١ ) أتج لى أن أزور مدينة بطليوس وأن أشاهد بقايا قصبتها العظيمة ، الواقعة فوق الربوة الصخرية المشرقة على نهر وادى يانه ، والتي مارلت تدل على ما كانت عليه هذه العصبة من الضخامة والمنعة .

البرتغال . كل ذلك بالرغم مما كان يربط هذين الملكين من وشائج المصاهرة الوثيقة ، إذ كان ملك ليون متزوجاً من ابنة خصيمه ملك البرتغال . وكان ألفونسو هنريكيز قد بعث ولده سانشو في جيش ليهاجم مدينة ردرينجو ويخربها ، فبادر إليها فرناندو في قواته ، ورد البرتغاليين عنها ، وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر عدداً وافراً منهم ، بيد أنه أطلق في الحال سراحهم سعيّاً إلى استرضاء ملك البرتغال ، وتهدئة خصومته . ولكن الأمر كان بالعكس ، فقد عول ألفونسو هنريكيز على الانتقام لتلك الهزيمة ، وخرج في أواخر سنة ١١٦٧ م من شمال البرتغال في جيش قوى ، وهاجم جليقية من أراضي مملكة ليون واستولى على مدينة توى ، ثم على مدينتي لميا وترونيو وما حولها من الأراضي ، ووضع فيها حاميات برتغالية قوية ، وذلك بحجة أن هذه المدن والأراضي كانت من أملاك أمه الملكة تيريسا ، تلقتها عن أبيها ألفونسو السادس مهراً لزواجها .

وفي العام التالي ، سنة ١١٦٨ م ، وضع ألفونسو هنريكيز خطته لمحاربة المسلمين ، والبدء بغزو مدينة بطليوس ، أهم وأقرب القواعد الإسلامية إليه . ونفذ خطته بالفعل بالتعاون مع جيرالدو سيمافور في أبريل سنة ١١٦٩ م . وكان فرناندو ملك ليون ، يرقب مشاريع ملك البرتغال وحركاته بمنتهى العناية ، ويحرص بالأخص على ألا تمتد فتوحه إلى تلك المنطقة التي كان ملوك قشتالة وليون يعتبرونها منطقة لنشاطهم وفتوحهم . وكان سانشو الثالث ملك قشتالة ، قد عقد مع أخيه فرناندو على أثر موت أبيهما القيصر ألفونسو ريمونديس ، معاهدة لتقسيم أراضي اسبانيا المسلمة ، إلى منطقتي نفوذ ، يختص كل منهما بواحدة منهما ، فيختص ملك ليون بالغزو والفتح في المنطقة التي تمتد من لبله حتى أشبونة ومنتانجش وماردة وبطليوس ويابرة وتلب وكذلك نصف مدينة إشبيلية ، وسائر الحصون الواقعة في تلك المنطقة ، ويختص ملك قشتالة بالغزو والفتح في سائر ما تبقى من أراضي اسبانيا المسلمة ، ولاسيما المنطقة الواقعة فيما بين الوادي الكبير وغرناطة ، ومن ثم فإنه لما سار ألفونسو هنريكيز إلى غزو بطليوس ، اعتبر فرناندو هذه الحركة اعتداء على حقوقه ومنطقة نفوذه ، وما كاد ملك البرتغال يدخل بطليوس ، حتى كان فرناندو قد سار بقواته في أثره ، يحاول رده عن القاعدة الإسلامية . فلما اقترب من بطليوس بعث رسوله خفية إلى واليها ابن تيمصلت المحصور بالقصبة ، وإلى أهل المدينة من الأندلسيين ، ينبئهم بمقدم



ملك ليون لإنجادهم ، ويطلب إلى ابن تيمصلت أن يدلّه على الطريق الذي يمكن أن يسلكه لدخول المدينة . فبعث ابن تيمصلت بعض رجاله إلى مكان خفي من بعض أسوار القصبّة ، لم يفتن إليه البرتغاليون ، فلما تحقّقوا من وصول القوات الليونية ، تقبّوا السور فخرج منه الموحّدون إلى أقرب أبواب المدينة وفتحوه ، وأدخلوا منه جنود ليون ، واجتمع الموحّدون وجند ليون على قتال القوات البرتغالية داخل المدينة ، وحى القتال بين الفريقين ، وأبدى الموحّدون وحلفاؤهم الليونيون منتهى الإقدام والبراعة ، في مقاتلة البرتغاليين ، حتى مزقت صفوفهم واضطر ملكهم ألفونسو ، هنريكيّز إلى الفرار ، ولكنه عندما أراد أن يقتحم باب المدينة وهو في منتهى السرعة والدعرج ، اصطدمت ساقه اليمنى بعمود الباب بشدّة أو عاقت برتاج الباب على قول آخر ، فسقط من فرسه ، وقد كسرت ساقه ، وأنغمى عليه ، فحمله أصحابه وهو فاقد الوعي ، إلى بليدة ، « قايّة » الواقعة على مقربة من شمال المدينة فطاردتهم قوات فرناندو ، وأسرت الملك الحربيّ ، وعدة من أكابر أصحابه . وعامل فرناندو خصمه الملك بمنتهى الكرم والشهامة ، فعهد إلى أطبائه بمعالجته ، ثم أطلق سراحه ، بعد أن تعهد له برد سائر الأماكن التي انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها . وعاد ألفونسو هنريكيّز إلى قلمرية ، وقد فتت الهزيمة في عضده ، وشلت ساقه ، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك اليوم أن يركب فرساً<sup>(١)</sup> .

أما جبرالدو سيمافور فقد فر على أثر الواقعة ، حسبما يذكر لنا ابن صاحب الصلاة . وفي رواية أخرى أنه أسر مع ملكه ، ثم أطلق فرناندو سراحه بعد أن تعهد بالتنازل عن الأماكن والحصون التي استولى عليها شمالي بطليوس مثل ترجالّه ، وقاصرش ومتانجش ، وقد استولى الموحّدون على قاصرش وحصن شربة فيما بعد .

ووقعت هزيمة البرتغاليين وإخراجهم من بطليوس في اليوم الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٦٤ هـ ( ٢١ مايو سنة ١١٦٩ م ) . وفي الحال سلم فرناندو المدينة إلى واليها ابن تيمصلت ، وأوفى فرناندو في هذه المناسبة بعهوده للخليفة الموحّد أتم وفاء ، وأبدى للموحّدين إخلاصه وعرفانه لسابق عونهم وإنجادهم . واستولى

( ١ ) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٢٢ ب و ١٢٣ ا في المطوع - ص ٣٨

٣٨٢ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٠ و ٨١ وكذلك . M. Lafuente : Hist- General

T. III, p. 329 & 330. de Espana.



الموحدون على سائر ما تركه البرتغاليون وراءهم من العتاد والمتاع والمؤن ، وكانت مقادير وفيرة . وعاد فرناندو في قواته ظافراً إلى ليون . ووصلت أنباء النصر إلى إشبيلية ، على عجل ، وتلتها الشيخ أبو حفص عمر ، بينما هو يستعد للسير في قواته إلى بطليوس لإنجاده . فكتب في الحال إلى الخليفة أبي يعقوب ، رسالة بالفتح ، فسر الخليفة بذلك أمّا سرور ، ورفع إليه الشعراء مدائحهم وتهانيهم . ومنها قصيدة لشاعر الدولة الموحدية أبي عمر بن حربون هذا مطلعها :

بسعدك أضحي الدين جذلان باسمي وباسمك أمسى الشرك للشرك هادما  
إلا أنها فيما وعدت لآية يدين بها من كان بالله عالماً<sup>(١)</sup>

- ١ -

لما انتهت معركة بطليوس بهزيمة البرتغاليين ، وتوكيد سيادة الموحديين على المدينة ، غادر الشيخ أبو حفص عمر إشبيلية في قواته وسار إلى قرطبة ، لمعاونة واليها السيد أبي إسحاق إبراهيم ، على تقوية جبهتها الدفاعية . وكان يخشى دائماً أن تهددها قوات ابن مردنيش من ناحية الشرق ، عن طريق جيان قاعدة حليفه وصهره إبراهيم بن همشك ، وتهدها القوات القشتالية من الشمال . بيد أن الخطر من ناحية الشرق تضاعف منذ موقعة فحوص الجلاب ، التي هزم فيها ابن مردنيش وحطمت قواته . ومن جهة أخرى فقد وقع الشقاق بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك ، وذلك بسبب طلاق ابن مردنيش لزوجته صبيحة ابنة إبراهيم ، بعد أن بالغ في إهانتها وإيلامها ، فغادرته إلى كنف أبيها ، وأسلمت إليه ابنها منه ، ومما يروى أنها سئلت عن ولدها ، وكيف تصبر عنه ، فأجابت « جرو كلب ، جرو سوء ، من كلب سوء لا حاجة لي به » فأرسلت كلمتها في نساء الأندلس مثلاً<sup>(٢)</sup> . وكانت الوحشة قد سادت قبل ذلك بين ابن مردنيش وصهره ، وخشى ابن همشك على نفسه من غدر صهره ، وراعه ماشهده بنفسه من إقدام ابن مردنيش على قتل وزيريه ابني الخدع وبنائهما في الحائط ، وغير ذلك من الأعمال المروعة ، فاشتدت بينهما الوحشة ، وانقلبا إلى خصمين لدودين ، والظاهر من أقوال ابن الخطيب أنه قد وقعت بين ابن مردنيش وابن همشك على

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكملها في « المن بالإمامة » وتشغل

اللوحات من ١٢٤ إلى ١٢٦ . وفي المطوع ٣٨٤ - ٣٨٧

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٣٠٢ .

أثر ذلك ، معارك ومناوشات هلك فيها جماعة من أنصار الفريقين . وكان ابن همشك يسيطر على قطاع جيان وبياسة وأبدية ، ناثبا عن صهره ابن مردنيس . فلما اضطرم العداء بينهما ، أخذ ابن مردنيس يرهقه بغاراته ، ويؤلب عليه قواده وجنوده ، وابن همشك يقاوم ما استطاع .

على أن ابن همشك لم يلبث أن جنح إلى قرار حاسم ، فكتب إلى الشيخ أبي حفص بقرطبة رسالة يعلن فيها توبته واعتناقه لمذهب التوحيد ، ويعرض تمكن الموحدين من بلاده ، وهو ما يصفه ابن صاحب الصلاة « بتوحيد ابن همشك » وفي هذا التعبير ذاته ما يدل بأن « التوحيد » لم يكن يقتصر على الناحية الدينية ، ولكنه كان يعنى بالأخص الخضوع السياسى لسلطان الدولة الموحدية . ثم شفع ابن همشك رسالته بالسفر إلى قرطبة ، وذلك فى رمضان سنة ٥٦٤ هـ ( يونيه ١١٦٩ م ) ، فاستقبل من واليها السيد أبي إسحق ومن الشيخ أبي حفص ، وأكابر الموحدين بترحاب ومودة . وأعلن ابن همشك أنه « قد عاهد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع ، والدخول فى حكم التوحيد » . ثم كتب إلى الخليفة أبي يعقوب يسجل توبته ودخوله فى الطاعة ، ويلتمس العفو ، وحسن المثاب . فرد الخليفة بحسن القبول ، وأمر بتقريبه ، وإكرامه ، وانصلت القواعد والأراضى التى كانت بيد ابن همشك بأراضى الموحدين فى أواسط الأندلس . وكان انضمام ابن همشك إلى الموحدين على هذا النحو ، ضربة أصابت ابن مردنيس فى الصميم ، إذ كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قواده وأشدهم وطأة على أعدائه ، ومن ثم فقد عول ابن مردنيس على الانتقام من صهره ونائبه السابق ، ومعاقبته على خيائته ، فدفع سائر قواته المجاورة لأراضية إلى قتاله ، وهاجمت هذه القوات جيان واستمرت فى مقاتلة ابن همشك وإرهاقه مدى عام ، وهو يستصرخ الموحدين لإنجاده . ولكن الموحدين لم يروا أن يتدخلوا فى تلك المعركة ، إذ كانت لديهم خطة أخرى لمقاتلة ابن مردنيس فى عقر بلاده<sup>(١)</sup> .

وفى أثناء ذلك ورد أمر الخليفة بتعيين الحافظ أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر والياً لمدينة بطليوس مكان ابن تيمصلت . وكان أبو يحيى من أنجب الحفاظ وأوفرهم فروسة وعلماً . وكان عندئذ مع أبيه بقرطبة . فسار إلى بطليوس فى جملة

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٢٦ أ و ب وفى المطوع ٣٨٨ - ٣٩٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٢ .



كبيرة من الموحدين والجنود الأندلسيين ، وتقلد ولايتها وأخذ في تأمينها وتحصين أطرافها . وقام بحفر بئر كبيرة داخل القصبنة تنفيذاً لأمر الخليفة ، يسرى إليها ماء نهر وادى يانه ، وذلك تحوطاً واستعداداً لما قد يقع من حصار أو غيره من الطوارئ ، وعرفت هذه البئر باسم « القيوراجة » . وكانت من خير ما عمل لتأمين القصبنة الشهيرة وتحصينها . وكان المغامر البرتغالي جبرالدو سيمافور ما يزال مرابطاً بقواته في حصن جلثانية القريب من بطليوس ، فانهز فرصة انشغال الوالى الجديد بأعمال الحفر والتحصينات ، وأخذ يرهق المدينة بغاراته المتوالية ، والحافظ أبو يحيى يبذل جهده في مدافعته وردة بقواته . وأخيراً نظم جبرالدو حملة قوية ، اشتركت فيها قوة كبيرة من نصارى شنترين ، ورتب من جنده كمائن في مواضع مستورة ثم هاجم أحواز بطليوس القريبة ، فخرج إلى لقائه الحافظ أبو يحيى في قواته ، وما كاد الموحدون يحملون عليه ، حتى تظاهر بالخزيمة والفرار ، فتبعه الموحدون حتى وصل إلى مقر الكمائن ، وعندئذ أطبق النصارى على الموحدين ، وقتلواهم بشدة ، فانهزم الموحدون وأسر النصارى منهم جملة بينهم عدة من الأكابر ، اقتدى معظمهم فيما بعد ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ ( أواخر ١١٦٨ م ) (١) .

وفى هذه السنة أيضاً — سنة ٥٦٤ هـ — استدعى الخليفة أخويه السيد أبا إبراهيم لإسماعيل والى إشبيلية ، والسيد أبا إسحق لإبراهيم والى قرطبة ، والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم والى غرناطة ، إلى الحضرة فغادروا الأندلس فى أوائل جمادى الأولى من هذا العام ( فبراير ١١٦٩ م ) . والظاهر أن الغرض من هذا الاستدعاء ، كان يدور حول الاستعداد للحملة الكبرى التى يزعم الخليفة تسيرها لمقاتلة ابن مردنيش . وأقام هؤلاء الولاة فى الحضرة حتى أوائل سنة ٥٦٥ هـ ثم أنصرف السيدان أبو إبراهيم ، وأبو إسحق إلى الأندلس ، وصحبهما أخوهما السيد أبو على الحسن الذى ندب والياً لسبتة ، ومنطقة جبال غمارة ، ليتقلد ولايته . وبقي الحافظ أبو عبد الله بالحضرة حيناً آخر ، وسار السيد أبو إبراهيم إلى إشبيلية والسيد أبو إسحق إلى قرطبة . وكان معهما وال جديد عينه الخليفة ، هو الحافظ أبو يحيى زكريا بن يحيى بن شيبان أحد أبناء أشياخ خمسين ، وقد عين والياً لطبيرة وشنتمرية الغرب ، من أعمال ولاية الغرب الأندلسية ، وكانت هذه المنطقة التى تقع فى جنوب البرتغال ، تضطرم بالفتنة من آن لآخر ، فضبطها الحافظ

(١) ابن صاحب الصلاة لوجه ١٢٨ ارب و ١٢٩ ، والبيان المغرب ص ٨٣ .



أبو يحيى بخزم وقرّة . وقع بذور الفتنة ، واستمر في حكمها أعواماً طويلة ، وقد ساد بها السلام والأمن .

وكان من أهم الأحداث في هذه السنة — سنة ٥٦٥ هـ ( ١١٧٠ م ) — إغارة القشتاليين على الأندلس . وكان عدوان القشتاليين على الأراضي الإسلامية قد انتظم حيناً منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، واضطراب الحرب الأهلية بين الملك الإسباني النصرانية ، وانشغال قشتالة بنوع خاص بالصراع بين أسرتي لارا وكاسترو القويتين . فلما انتهى هذا الصراع الذي اشترك فيه فرناندو ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، بانتصار آل لارا وهزيمة آل كاسترو ، بسط آل لارا سيادتهم على طليطلة عاصمة قشتالة ، ووضعوا الملك الصبي ألفونسو الناس تحت حمايتهم ، وقام بالوصاية عليه كبير الأسرة الكونت نونيو دي لارا ( سنة ١١٦٦ م ) . ولم يمض قليل على ذلك . حتى اعزم الكونت نونيو — وبسميه ابن صاحب الصلاة ، القمط نونه ، ويصفه « بظئر أدفونش الصغير » — أن يقوم بغزوة للأراضي الإسلامية ، يكون فيها تقوية سلطانه ، وتعزيز هيئته . فخرج في قوائمه من طليطلة ، واخترق موسطة الأندلس ، وسار جنوباً ، وهو يشحن أينما حل ، دون أن تعترضه أية قوة معارضة . ثم عبر الوادي الكبير ، وشنيل ، وانتهى في غزوته إلى فحص رندة ، وفحص الجزيرة الخضراء ، وأنه استطاع بعبارة أخرى ، أن يخترق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها دون أن يلقى أية مقاومة على نحو ما فعل ألفونسو المحارب قبل ذلك بنحو نصف قرن . ويقول ابن صاحب الصلاة ، إنه وصل في سيره إلى البحر ، وقتل المسلمين في تلك الأراضي ، واستولى على كثير من السبي والغنائم والماشية ، ونحن لانستطيع أن نفسير جمود الموحدين إزاء مثل هذا العدوان الجريء خصوصاً وقد كانت لديهم في قرطبة قوات كبيرة بقيادة الشيخ أبي حفص عمر ، اللهم إلا حرصهم على قواتهم ، وادخارها لمحاربة ابن مردنيش (١) .

ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة طائفة من الأحداث الطبيعية التي حدثت في تلك الفترة . منها تغير الهواء بمراكش أو بعبارة أخرى ظهور وباء مرض منه معظم السادات وكثير من الناس ، وذلك في أواخر سنة ٥٦٤ هـ . ومنها توقف المطر وحدث الشرق بالأندلس حتى شهر ديسمبر سنة ١١٦٩ ، ثم سقوط

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لرحلة ١٢٠ الأولى المطبوع ٣٩٧

الأمطار بعد ذلك . وفي شهر جمادى الأولى من سنة ٥٦٥ هـ ، حدثت زلازل عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها في عدة من مدن الأندلس ، وتوالت بالأخص في مدينة أندوجر مدة أيام حتى كادت أن تغوص منها الأرض ، ووقعت كذلك بقرطبة وغرناطة وإشبيلية . يقول ابن صاحب الصلاة ، وكان من سكان إشبيلية « فكان الرأى يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى الأرض ، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى . وتهدمت من ذلك ديار كثيرة في البلاد المذكورة وصوامع مساجدها » (١) .

وفي شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ ( أبريل سنة ١١٧٠ م ) ، كثرت غارات جيرالدو سمبافور على مدينة بطليوس ، واشتد في إرهابها ، وقطع المؤن عنها ، حتى شعرت المدينة بالضيق ، فلما علم بذلك الموحدون في إشبيلية ، قرروا أن يرسلوا إليها مدداً وافرأ من المؤن ، فجهزت إليها قافلة من نحو خمسة آلاف دابة تحمل الطعام والسلاح والعلوفات ، وقدم لحراستها الحافظ أبو يحيى زكريا بن علي في قوة من الجند الموحدين بإشبيلية ، ولما اقتربت هذه الحملة من مدينة بطليوس ، خرج إليها جيرالدو في قواته وأهل شترين ، ونشبت بين الفريقين معركة حامية استمرت عدة ساعات وهزم فيها الموحدون أشنع هزيمة ، وأيدت صفوفهم ، وسقط قائدهم الحافظ أبو يحيى ضمن القتلى ، واستولى النصارى على قافلة المؤن كلها . وكان ذلك في يوم ٢٦ شعبان سنة ٥٦٥ هـ ( ١٤ مايو سنة ١١٧٠ م ) . ووقعت أنباء هذه النكبة لدى الموحدين بإشبيلية وقرطبة أسوأ وقع ، وبعثوا بجبرها إلى الخليفة في مراکش (٢) .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف مريضاً في ذلك الوقت ، وقد بدأ مرضه منذ أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، واستمر أكثر من عام . ونحن نذكر أن الخليفة كان منذ أوائل سنة ٥٦٤ هـ يزعم تنظيم حركة الجهاد بالأندلس ، وأنه وجه رسالته بذلك إلى الموحدين بها في ربيع الآخر من هذا العام ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أمر بهذه المناسبة بضرب الطبول والخروج ، وركب بنفسه في هيئة الغزو ، وخرج من مراکش ، ونزل بوادى تانسيفت على مقربة منها ، معلناً

( ١ ) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٣٠ ب . وفي المطوع ص ٣٩٧

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة في « المر بالإمامة » لوحة ١٣١ ، وفي المطوع ص ٣٩٨ والبيان

المغرب القمم الثالث ، ص ٨٤ .

عزمه على الجهاد بالأندلس ، وأقام به ثلاثة أيام ، وانتهى رأى الموحدين عندئذ إلى أن يتقدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى بعسكر ضخم من الموحدين . وقد عبر الشيخ البحر إلى الأندلس بعسكره ، ونزل في إشبيلية في نفس الوقت الذي كانت قد أنقذت فيه بطليوس من خطر السقوط في أيدي البرتغاليين ، بمعاونة ملك ليون ، وذلك كله حسبما فصلناه في موضعه .

ثم جاء مرض الخليفة ، فعاقه عن الاستمرار في تنفيذ حركة الغزو التي وعد بها الموحدين بالأندلس . بيد أنه استمر بالرغم من مرضه في استدعاء جموع العرب من إفريقية ، وجموع الموحدين من كافة الأنحاء ، وتزويدهم بالأعطية والكسبي . وكان تطور الحوادث في الأندلس ، يؤذن بضرورة القيام باستعدادات عسكرية عاجلة توجه إلى شبه الجزيرة ، وذلك قبل أن تتم الأهبة لتنفيذ الغزوة الكبيرة التي يزعم الخليفة القيام بها . وكان موطن الصراع يبدو في ناحيتين ، الأولى في شرق الأندلس ، حيث كان ابن همشك منذ دخوله في طاعة الموحدين ، يتلقى ضربات صهره القديم ابن مردنيش باستمرار ، ويفقد معاقله تبعاً ، ويلج في طلب النجدة من حلفائه الحدد ، الموحدين ، ويبعث بصريحه المتوالى إلى الخليفة وإلى الشيخ أبي حفص بقرطبة ، وقد أوفد إلى مراکش لهذا الغرض وزيره القدير أبا جعفر الوقشي ، وكان قد جنح مثله إلى طاعة الموحدين . ثم عبر ابن همشك بنفسه البحر إلى العدو ، وقصد إلى الخليفة بمراكش ( ٥٦٥ هـ ) مؤكداً طاعته ومكرراً صريحه . وكانت الناحية الثانية من مواطن الصراع ، في غربي الأندلس ، حيث تطورت الحوادث تطوراً سيئاً ، وغدت مدينة بطليوس مرة أخرى ، عرضة لتهديد النصاري المستمر . وكان يلوح أن حوادث شرق الأندلس تتطلب تدخلاً عاجلاً ، يكفل حماية ابن همشك وأراضيه التي غدت جزءاً من أراضي الموحدين ، والقضاء نهائياً على حركة ابن مردنيش والاستيلاء على بلاده ، حتى تخضع الأندلس بذلك من أقصاها إلى أقصاها إلى سلطان التوحيد ، وكان الشيخ أبو حفص يؤيد هذه السياسة ، ويبعث من قرطبة إلى الخليفة بالحث على اتباعها . ومن ثم فقد تقرر أن يسير السيد أبو حفص أخو الخليفة في جيش ضخم من الموحدين إلى جزيرة الأندلس لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصاري ، ومقاتلته في قلب بلاده ، والاستيلاء على مرسية ، قاعدته ومقر رياسته .

وخرج السيد أبو حفص في عسكره من حضرة مراكش في أول شهر



ذى القعدة سنة ٥٦٥ هـ ( أغسطس سنة ١١٧٠ م ) ومعه أخوه السيد عثمان أبو سعيد ، وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدين ، ومن زعماء الأندلس ، أبو محمد سيدرأى بن وزير ، وأخوه أبو الحسن على بن وزير ، وعدة من القادة الأندلسيين النازلين بمراكش ، صحبهم لينتفع بخبرتهم ومشورتهم في تدبير شئون الجزيرة ، وتنظيم الخطط العسكرية بها . فوصل في قواته إلى إشبيلية في أوائل سنة ٥٦٦ هـ . ووافاه بها من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ومعه إبراهيم بن همشك . وعقد السيد أبو حفص وصحبه من الأشياخ والزعماء مؤتمرا لبحث شئون الحرب ، تقرر فيه أن يبادر السيد أبو سعيد أولا في عسكر إلى مدينة بطليوس ، لتقوية جهتها الدفاعية . فسار إليها في جيش من الموحدين والعرب ، ومعه من زعماء الأندلس سيدرأى ابن وزير ، وأبو العلاء بن عزون ، وقد جاءت هذه الحركة في الواقع في الوقت المناسب ، إذ كانت بطليوس في تلك الآونة بالذات عرضة لخطر غزو جديد .

ذلك أن فرناندو الثاني ملك ليون ، لما رأى نشاط البرتغاليين المتكرر في مهاجمة بطليوس ، وإلحاق جيرانه سيمافور في إرهابها ، وما حل بقافلة الأمداد الموحدية من هزيمة ساحقة ، خشى أن ينتهي الأمر بسقوط المدينة في أيدي البرتغاليين . وقد رأينا من قبل حرص ملوك قشتالة وليون على اعتبار بطليوس وما إليها داخلة في نطاق فتوحاتهم ، وحرصهم على ألا يفوز البرتغاليون بأية فتوح في هذه المنطقة . ومن ثم فقد خرج فرناندو في قواته قاصداً إلى بطليوس ليقوم بالاستيلاء عليها ، قبل أن تسقط في أيدي البرتغاليين ومليكهم ألفونسو هنريكز ، وفي الوقت الذي وصل فيه إلى سهل الزلاقة الواقع شمال شرق بطليوس على مقربة من نهر وادي يانه ، اقترب الموحدون من المدينة ، ولما علم السبد أبو سعيد بالموقف ، أرسل سيدرأى بن وزير ، وأبا العلاء بن عزون ، وبعض أشياخ الموحدين إلى المعسكر النصراني ، ليتعرفوا نيات ملك ليون ، وهل هو باق على صلحه ومحالفته للموحدين أم قد نقض هذا الصلح ، فرحب بهم ملك ليون ، وأجابهم بأنه خرج لحماية بطليوس ، « وإمساكها لأمر المؤمنين » فاقترح الرسل أن يجتمع الملك النصراني بالسيد أبي سعيد ، لتجديد الصداقة والصلح ، فاستجاب فرناندو لدعوتهم . وسار في نفر من خاصته إلى مقربة من بطليوس ، والتقى بالسيد أبي سعيد وكلاهما تمتطى صهوة جواده ، وتم بينهما التفاهم وتوكيد أواصر المودة والصلح ، وانصرف ملك ليون على أثر ذلك في قواته إلى بلاده .

أما السيد أبو سعيد فقد سار في عسكره توأ إلى حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، والذي اتخذته البرتغاليون بقيادة جبرالدو سمبافور قاعدة للإغارة على المدينة وإرهاقها ، ونازله واستولى عليه عنوة ، ثم هدمه ، وانقشعت بذلك غمته ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ (نوفمبر ١١٧٠ م) . وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو سعيد في صحبه وعسكره المظفر إلى إشبيلية<sup>(١)</sup> .

وما كاد السيد أبو سعيد يصل إلى إشبيلية ، حتى عقد السيد أبو حفص مؤتمراً حربياً جديداً حضره السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، واستقر فيه الرأي على القيام بمحاربة ابن مردنيش ، وتحطيم سلطانه في شرقي الأندلس . وكان محمد بن سعد بن مردنيش ، قد اضطربت شؤنه خلال ذلك ، وأخذت تخبو قواه ، وموارده ، ولا سيما منذ هزيمة فحص الجلاب الساحقة . وكان من أهم العوامل في انحلال سلطانه الشامخ الذي استمر منذ قيامه في شرقي الأندلس في سنة ٥٤٢ هـ ، نحو عشرين عاماً يتحدى سلطان الموحدين ، وبتبذ سيادتهم ودعوتهم ، دون هوادة ، عاملاً يتلخص أولها في مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، وانخلاعه إليهم ، واعتماده المطلق عليهم . وقد رأينا فيما تقدم كيف كان النصارى المرتزقة ، يؤلفون معظم قوات ابن مردنيش في أية موقعة يخوضها . والثاني ، فيما نشب من الشقاق بين ابن مردنيش ومعظم وزرائه وقادته .

فأما عن العامل الأول ، وهو مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، فقد كان أمراً طبيعياً ، تمليه الظروف المحيطة بابن مردنيش ، وثورته على الموحدين . وقد كانت ثورة ابن مردنيش ، تملئها فضلاً عن الأطماع السياسية ، بواعث وطنية ، هي التي دفعت سائر القواعد الأندلسية إلى الثورة على المرابطين ، وقد كان الموحدون خلفاء المرابطين في التغلب على الأندلس ، فكانت ثورة ابن مردنيش على الموحدين ، وكفاحه ضدهم ، امتداداً لنفس الثورة ، ونزولاً على نفس البواعث . وكان النصارى حلفاء طبيعيين لابن مردنيش في هذا الصراع ضد العدو المشترك ، أعنى الموحدين الوافدين على شبه الجزيرة من وراء البحر . ولم يغفل ابن مردنيش عن أهمية هذا العامل ، في اجتذاب النصارى إلى محالفته ،

(١) ابن صاحب الصلاة لوسات ١٢١ ب ١٢٢ و ١٢٣ ، وفي المطوع ص ٢٠٠ - ٢٠٢

والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٥ و ٨٦ .



وحشدتهم في صفوفه . وكانت تربط ابن مردنيش في البداية بسائر أمراء اسبانيا النصرانية ، روابط المودة والصداقة ، ولكنه لما توفي رامون برنجير الرابع ملك قطلونية وأراجون ، وخلفه ولده ألفونسو الثاني في حكم مملكة أراجون المتحدة ، تطورت الأمور ، وساءت العلاقات بينه وبين ابن مردنيش لإصراره على مطالبة ابن مردنيش بالحزبية التي كان يدفعها لأبيه ، ورفض ابن مردنيش لأدائها . وقد وصل العداء بين الأميرين ، إلى حد أن ملك أراجون ، بعث ببعض ضباطه وجنده للاشتراك مع الموحدين ضد ابن مردنيش في معركة فحصى الجلاب<sup>(١)</sup> . ثم تحسنت العلاقات بعد ذلك بينهما حينما تدخل ملك قشتالة ، وتعهد ابن مردنيش بأداء الحزبية وتعهد ألفونسو الثاني ألا يساعد الموحدين أعداء ابن سعد بأية صورة . وأما علائق ابن سعد بقشتالة ، فقد كانت على خير ما يرام ، من المودة والصفاء ، وكانت تربط ابن مردنيش بألفونسو الثامن ملك قشتالة صداقة متينة العرى . وكان ابن مردنيش يحتفظ في بلنسية بحامية كبيرة من الجند القشتاليين ، يعيشون في المدينة ، وتغص بهم طرقها وأحيائها ، حتى ضاق بهم أهل المدينة المسلمين ذرعاً ، وغادرها الكثير منهم إلى الضياع والقرى القريبة ، وهم يضطرمون خطأً على أميرهم المسلم ، الذي مكن أعداءهم النصارى من دورهم وأموالهم ومرافقهم ، وشردهم بذلك عن أوطانهم . وقيل إن ابن مردنيش هو الذي أخرج أهل بلنسية منها ليوسع لحلفائه النصارى<sup>(٢)</sup> . وقد كان لهذه السياسة في اصطفاء النصارى وما تقتضيه من إرهاب المسلمين بالمغارم والقروض ، وهي السياسة التي سبق أن أشرنا إلى طرف من عناصرها ومظاهرها ، أثرها العميق في النيل من هيبة ابن مردنيش والسخط عليه ، وتبرم أهل شرق الأندلس برياسته وتمنيهم زوالها .

وأما العامل الثاني في تضعف قوى ابن مردنيش ، فهو خروج قاداته ووزرائه عليه . وقد كان انشقاق صهره إبراهيم بن همشك عليه ، وانضمامه للموحدين ، بلا ريب أعظم ضربة هزت من رياسته وسلطانه . فقد كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قاداته ، وأوسعهم حيلة وأبعدهم صيتاً ، بل كان ابن همشك في الواقع بالرغم من صفاته المثيرة ، ومن قسوته ، وروعة وسائله ، واستهانة بالدماء ، من أعظم قادة اسبانيا المسلمة في هذا العصر ، ان لم يكن

( ١ ) A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 542

( ٢ ) ابن الأبار في الحلة البراء ص ٢٣٦



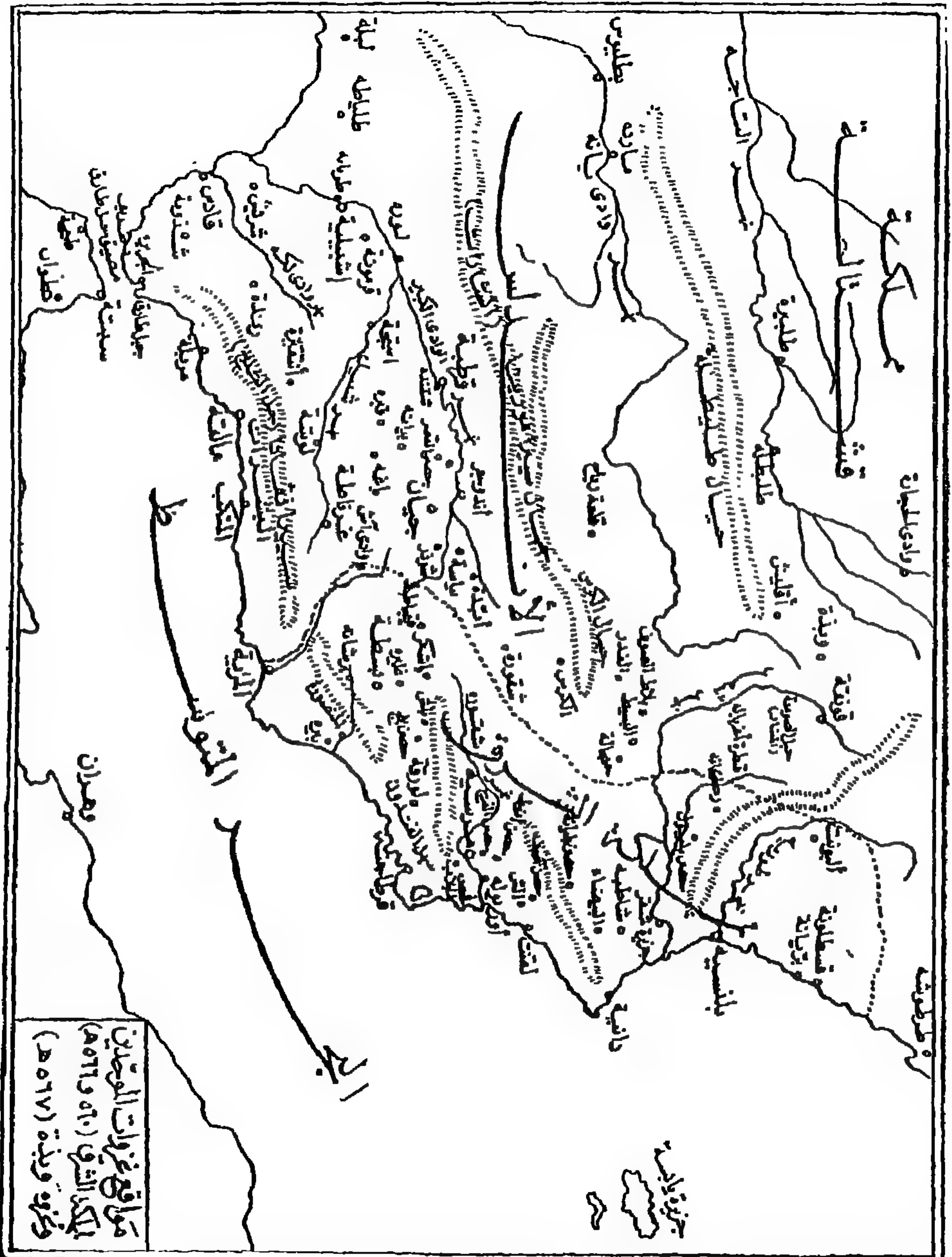
أعظمهم جميعاً . وخرج على ابن مردنیش غیر ابن همشك ، عدة من قرابته ووزرائه ، ومن هؤلاء صهره يوسف بن هلال ، وكان فارساً شجاعاً حازماً ، حظى لدى أميره فصاهره ، وندبه لرياسة حصن مطرنیش القريب من بلنسية وما حوله من الأراضي ، ثم فسد ما بينهما ، فثار ابن هلال ، ولحق بمورتلة (مورادال) وتحالف مع أمير برشلونة على أن يكون تحت حمايته ، فأيده بقوة من الفرسان ، وأخذ يغير على أحواز بلنسية ، وينتزع بعض حصونها . وأوقع المهزيمة بابن مردنیش . ولكن حدث لسوء طالعته أن وقع ذات يوم أسيراً في يد سرية جردها صهره على مورتلة ، فأخذ إليه ، فأسرع به إلى مورتلة ، وطالبه بإخلاصها ، وإلا نزع عينه ، فأبى ، فأمر ابن مردنیش فأخرجت عينه اليمنى بعود ، ولما تمادى في رفضه نزع عينه الأخرى ، ثم أخذ إلى شاطبه ، حيث بقى بها إلى أن توفي<sup>(١)</sup> . وكانت هذه الوسائل المثيرة في الانتقام من أبرز نزوات ابن مردنیش ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يرويه لنا ابن صاحب الصلاة ، من أنه قتل وزيريه ابني الخدع وذلك بينهما في الحائط .

كان ابن مردنیش يعاني من هذه الظروف العصبية والمتاعب المضنية ، حينما وضع الموحدون خططهم لإنزال ضربتهم الأخيرة به .

في شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ (مارس سنة ١١٧١ م) خرج السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص في جموع الموحدين من إشبيلية ، ومعهم إبراهيم بن همشك ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، أقاموا بها أياماً ، يضعون خططهم النهائية . ثم خرجت الفوات الموحدية من قرطبة ، وسارت شرقاً قاصدة إلى مرسية ، وكانت أول قاعدة غزوها من قواعد ابن مردنیش مدينة قيجاطة<sup>(٢)</sup> الواقعة شرقي جيان ، بينها وبين لورقة . فافتحموها بعد مقاومة قصيرة ، وقبض على قائدها الشرقي وأعدم بإشارة ابن همشك ، ثم اخترق الموحدون بعد ذلك بسائط الشرق في طريقهم إلى مرسية حتى وصلوا إلى فحصبها ، فنارلوها لاختبار مقدرتها الدفاعية ، وتخللوا على حصن الفرج في ظاهرها ، وقد كان متزّه ابن مردنیش ، ومنزل لدوه وأنسه ، واستباحوا الرياض والبساتين ، وسائر القرى والبساتين الخضراء في تلك المنطقة ، وابن همشك يفود الموحدين ويدلهم

(١) ابن الحليب و أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦٢

(٢) وهي بالإسبانية Quesada



مواقع غزوات الموحدين  
 في بلاد الشامي (٥١٠ و ٥١٦ هـ)  
 وغزو ويلة (٥١٧ هـ)

على خير الطرق والمسالك . وكان ابن مردنيش خلال ذلك يستجمع قواته الأخيرة ، ويستصرخ حلفاء النصارى لإمداده ، فلم ياب منهم دعوته سوى أربعائة فارس ، بعث بهم إلى لورقة ، وهى حصن مرسية الأماوى ، لتأمين الدفاع عن قصبته ، وقد كانت بقيادة قائده الأثير وموضع ثقته أبى عثمان سعيد ابن عيسى ، فضبطها أبو عثمان ، وحصنها لمنع تحصين . ولكن الأمر طال عليه ، وهو فى عزله . وذاع بين الناس ما يعانیه ابن مردنيش من اضطراب الأحوال والقلق ، وشعروا أن عاقبته قد دنت ، فعندئذ ثار أهل لورقة ، ودعوا للموحدين ، وهاجوا النصارى وأنصار ابن مردنيش ، فالتجأ هؤلاء جميعاً إلى القسبة وامتنعوا بها . واتجه أهل لورقة إلى الموحدين فى طلب الإنجاد ، وبعثوا بصريخهم إلى السيد أبى حفص بمحلته بفحص مرسية ، يعلنون دخولهم فى دعوة التوحيد ، ويستنصرون به على عدوهم ، فسار السيد أبو حفص فى بعض قواته صوب لورقة ، ودخلها واحتلها ، وبقيت حاميتها بقيادة أبى عثمان على حالها من الامتناع . وحدث أن خرجت سرية موحدية تجول فى الأنحاء المجاورة ، فوقع فى يدها ولد القائد ، محمد بن أبى عثمان ، فأمر السيد أبو حفص أن يحمل إلى مقربة من القسبة يمرأى من أبيه عسى أن يحمله ذلك على التسليم ، فأبى القائد واستمر فى امتناعه ، حتى كادت الأقوات والماء أن تنفد ، فعندئذ ألح عليه حلفاؤه النصارى فى التسليم ، وتوسط ابن همشك لأبى عثمان فى النزول من القسبة مع جنده بالأمان ، وهكذا سلمت القسبة ، وانصرف القائد أبو عثمان مع صحبه إلى مرسية ، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم ، وتم بذلك فتح لورقة وخلوصها للموحدين .

وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو حفص فى قواته إلى مرسية ، ليمضى فى حصارها . وفى أثناء ذلك أعلن أهل الشطاطعتهم ودخولهم فى دعوة التوحيد ، وتبعهم فى ذلك أهل معظم الحصون المجاورة ، فنهجوا جميعاً الأمان ، ثم جهز السيد أبو حفص حملة من الموحدين والعرب تحت إمرة الشيخ الحافظ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم ، سارت إلى مدينة بسطة فافتتحتها ودخلت فى طاعة الموحدين . وأعقبها الجزيرة - جزيرة شفر - الواقعة على مقربة من جنوبى بلنسية فأعان أهلها التوحيد برعاية عميدهم أبى بكر أحمد بن محمد بن سفيان الخزومى ، ولطردوا النصارى الذين كانوا بها . وكان أبو بكر زعيماً ناهياً من بيت عريق ، وراهداً محسناً . وأديباً شاعراً ،



فلما رأى اختلال أمر ابن مردنیش وضغط الموحدین علی قواعده ، دعا للموحدین وانضم إليه جيرانه ، فندب ابن مردنیش لقتاله ، أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد نائبه فی بلنسية ، وبعث أبو الحجاج قوة من الفرسان قامت بمنازلة الجزيرة ، ومحاصرتها والتضييق عليها ، فی منتصف شوال سنة ٥٦٦ هـ ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، وابن سفيان يقاوم ما استطاع ، وابن سعد يوالى إرسال الخند لتشدید الحصار ، ووصلت رسل الجزيرة إلى السيد أبي حفص بمحلته بمرسية فی طلب الإنجاد ، فوجه معهم قائدهم السابق أبا أيوب بن هلال الشرقي والياً عليهم ، وكان قد دخل فی دعوتهم للتوحيد واستطاع أبو أيوب أن يقتحم الجزيرة ، وأن يقوم بضبطها وحمايتها أشهراً ، حتى مرض ابن مردنیش ولحق بمرسية عليلاً ، وتنفس مخنق الجزيرة<sup>(١)</sup> .

وكان ابن مردنیش أثناء ذلك ، والموحدون قبالة مرسية ، يخرج بقواته من آن إلى آخر ، ويشتبك مع المحاصرين فی معارك طاحنة ، وكان أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد ، يتولى الدفاع عن بلنسية ، وأحوازاها . وقد اختلف فی موقف يوسف من أخيه فی هذا المأزق العصيب ، ففي رواية أنه خرج على أخيه ، وفر عنه إلى الموحدین<sup>(٢)</sup> ، ودخل فی دعوتهم قبيل وفاة أخيه بنحو عام . وفي رواية أخرى ، أنه لما رأى تبهم الحوادث دعا فی بلنسية لبنى العباس ، وكاتب الخليفة المستنجد بالله ، فكتب له بالعهد والولاية ، ثم بايع للموحدین (سنة ٥٦٦ هـ)<sup>(٣)</sup> . بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن هذه الرواية غير صحيحة ، وأن أبا الحجاج يوسف ، استمر يعمل إلى جانب أخيه بإخلاص ، وأنه اختص بالدفاع عن قطاع بلنسية ، بينما تفرغ أخوه محمد (ابن مردنیش) للدفاع الموحدین فی مرسية . والواقع أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن مردنیش يكتنفها شيء من الغموض ، وفي بعض الروايات القشتالية ، أن ألفونسو الثاني ملك أراجون انتهز فرصة ضغط الموحدین على ابن مردنیش ، وغزا أراضي بلنسية ، المتاخمة لحدود قطلونية ، واستولى منها على عدة مواقع وحصون ، وأنه أرسل حملة برية وبحرية لغزو بلنسية ذاتها ، فتولى الرئيس أبو الحجاج مدافعة

(١) ابن الأبار فی الحلة السراء ص ٢٢٧

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٧١

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦

القوات البرية ، وتولى ابن قاسم قائد أسطول ابن مردنيش مدافعة السفن النصرانية فهزمها وأحرق عدداً منها<sup>(١)</sup> .

وجاءت حوادث ألمرية ضربة أخرى لابن مردنيش . وكان ابن مردنيش قد انتزع ألمرية من الموحيدين ، وندب لولايتها قائده ابن مقدم . فلما اجتاحت الموحدون منطقة الأندلس الشرقية ، واستولوا على لورقة وبسطة ، واقتربوا من ألمرية ، قام بألمرية ابن عم وصهر لابن مردنيش على أخته ، هو محمد ابن مردنيش المعروف بصاحب البسيط ، وتعاون معه محمد بن هلال أحد القادة الخوارج على ابن مردنيش ، وأعلنوا بطاعة الموحيدين ، وبعثوا إلى السيد أبي حفص في طلب العون والإنجاد ، فوجه إليهم قوة من الجند الموحيدين ، فقبض على الوالي ابن مقدم وأعدم . فلما علم ابن مردنيش بما حدث ، أمر بقتل أخته زوجة ابن عمه وكانت بمرسية ، وقتل ابنته منها ، فقتلا إغراقاً ، فجاء هذا الحادث البشع ، دليلاً جديداً على ما كان يتسم به ابن مردنيش من بالغ القسوة ، والاستهتار بسفك الدماء ، لاتعوقه في ذلك صلة رحم أو أية عاطفة إنسانية . يقول ابن صاحب الصلاة : « واختل ذهن ابن مردنيش في أثر ذلك ، وقل عونه من الله ومن الناس هنالك ، وعاد صبحه كالليل الحالك ، وفزع من أذيته أهله وقرابته وشيعته وخاصته ، واختلت حياته وحالته »<sup>(٢)</sup> .

والواقع أن ابن مردنيش بما توالى عليه ، في تلك الآونة العصبية ، من الضربات الأليمة ، ومن انشقاق معظم قاداته ووزرائه وقرابته ، ومن استيلاء الموحيدين على معظم قواعده ، وتشددهم في حصاره وإرهاقه ، قد بلغ ذروة اليأس والألم . وكانت الضربة الأخيرة والقاضية ، ما بلغه من عبور الخليفة الموحد أبي يعقوب يوسف نفسه إلى الأندلس في جموع جرارة من الموحيدين والعرب ، ونزوله بإشبيلية ، وذلك في شوال سنة ٥٦٦ هـ ، فأيقن عندئذ بأنه لم تبق مندوحة عن الهزيمة المطبقة والسقوط النهائي . وكان يستشف خلال يأسه وألمه ، نذرا لخاتمة المحتومة المروعة ، بيد أنه لم يهن ولم يفكر في أن يختم ثورته العتيدة وسلطانه العريض ، الذي استطال زهاء ربع قرن ، بالتسليم المهين ، لمن كان يعتبرهم أعداء وأمته وبلاده ، على أنه لم يلبث أن انهارت بنيته المتينة ، وحطمه الغم واليأس . ويبدو

( ١ ) A. P. Ibars: Valencia Arabe, p. 532

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٢٦ و ١٢٧ . وفي المطوع ص ٤٠٦ و ٤٠٧

من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن ابن مردنيش قد انتهى به اليأس إلى نوع من الدهول والخبيل ، وزاد من ذهوله ماعمد إليه أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف من المبادرة إلى التوحيد . ثم جاء الموت فأنقذه من المصير المروع الذي كان ينتظره . وكانت وفاته حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة ، في العاشر من شهر رجب سنة ٥٦٧ هـ ( ٦ مارس سنة ١١٧٢ م ) في الثامنة والأربعين من عمره ، وهو تاريخ يحمل طابع الرجحان لأنه قول المؤرخ المعاصر<sup>(١)</sup>.

وفي رواية أن ابن مردنيش لم يمت موتاً طبيعياً ، وأنه انتحر بتناول السم<sup>(٢)</sup> ، أو أنه توفي مسموماً بيد والدته . ذلك أنه لما اشتد على أهله وكبراء دولته ، وأساء إليهم ، نصحته أمه ، وأغلظت له القول ، فنهرا وخافت بطشه ، لما تعلمه من وحشية طباعه ، فدبرت قتله بالسم<sup>(٣)</sup> . على أن هذه الرواية ، لاتستند إلى أساس قوى ، فإن ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، وشاهد العيان ، لم يقل لنا شيئاً عنها . ومن جهة أخرى فإن ابن الأبار ، وهو قريب من العصر ، وقد عاش في بلنسية في عهد حفيد يوسف بن مردنيش ، يذكر لنا أن ابن مردنيش ، مرض خلال محاصرته ، بلخزيرة شقر ، فغادرها عليلًا إلى مرسية<sup>(٤)</sup> . ويقول لنا المراكشي أيضاً إن ابن مردنيش توفي « حتف أنفه » خلال حصار مرسية<sup>(٥)</sup>.

وهكذا هلك محمد بن سعد بن مردنيش . وكان موته نذيراً بانتهاء دولته الشاغخة ، التي استطاع بعزمه وجراته وشجاعته وبراعته ، أن ينشئها في شرق الأندلس ، ما بين طرطوشة شمالاً والمرية جنوباً ، وما بين شاطئ البحر شرقاً وجيان غرباً ، والتي لبثت زهاء ربع قرن تمثل سلطان الأندلس واستقلالها القومي ، وتتحدى سلطان الموحدين وجيوشهم المتدفقة من وراء البحر ، بل لقد لاح مدى حين أن ابن مردنيش يكاد يسطر سلطانه على الأندلس كلها ، وذلك حينما استولى على جيان وبياسة وأبدّة ووادي آش ، واخترق أواسط الأندلس حتى

( ١ ) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة ( لوحة ١٦٥ ) . يأخذ ابن الخطيب بهذه الرواية ( الإحاطة ج ٢ ص ٩٠ ) . ولكن ابن خلكان يقول لنا إن ابن مردنيش توفي في التاسع والعشرين من رجب سنة ٥٦٧ هـ ( ٢٧ مارس سنة ١١٧٢ م ) . راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٣ .

( ٢ ) M. Gaspar Remiro : *Marcia Musulmana* p. 228

( ٣ ) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

( ٤ ) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٧

( ٥ ) المعجب ص ١٤٠



إشبيلية ، وحينما اجتاحت نائبه ومعاونه ابن همشك وادى قرطبة ، وهدد قرطبة ذاتها ، واستولى على قرمونة ، ثم هزم الموحدين في مرج الرقاد واستولى على غرناطة . ولو لم تضع موقعة السيكة حداً لتقدمه ، لكان سلطان الموحدين في الأندلس عرضة للانهدار ، ولكالت ثورة ابن مردنيش بالظفر التام . ولقد كان ابن مردنيش في الواقع يمثل بثورته ضد الموحدين ، كل ما كانت تبطنه الأندلس القديمة من الآلام والآمال القومية ، التي لبثت تخبئ بها منذ استولى المرابطون على قواعدها ، وفرضوا سيادتهم عليها . ولم تغير سيادة الموحدين بعد المرابطين لشبه الجزيرة الأندلسية شيئاً من هذا الاتجاه القوي ، فقد كان الموحدون كالمرابطين بالنسبة للأندلس ، أجنب ، وكانوا مثلهم من القبائل البربرية ، التي لم تستطع منذ مثولها القوي في شئون الأندلس منذ أيام الحاجب المنصور ، أن تخرز من الأمة الأندلسية كثيراً من العطف والتقدير . ولم تكن فكرة الجهاد التي كان يحمل لواءها المرابطون ثم الموحدون ، وما كانت الجيوش المرابطية ، ثم الموحدية ، تبذله في سبيل حماية الأندلس ، ومحاربة إسبانيا النصرانية ، لتقضي تمام القضاء على الفكرة القومية الأندلسية ، وإن كانت تلتطف من آن لآخر من جذوتها واضطرامها . على أن ابن مردنيش لم يكن بالرغم من حصافته وجراته وشجاعته ، هو الشخصية المثلى لحمل لواء القومية الأندلسية ، فقد كانت ثورته على الموحدين ، تفقد كثيراً من قيمها المعنوية ، بما كان ينجح إليه من الإفراط في مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم في حروبه ، وتمكينهم من قواعده ، وتشبه بهم في زيه ، وفي حياته الخاصة والعامة . وإلى جانب ذلك كان ابن مردنيش يتسم بطائفة من الخلال الذميمة ، فقد كان مسرفاً في الشراب ، واتخاذ الجوارى ، حتى « كان يراقدهم جملته تحت لحاف واحد » ، منهمكاً في حب القيان والزمر والرقص<sup>(١)</sup> ، ثم كان بعد ذلك طاغية ظلوماً ، بالغ القسوة ، مسرفاً في الانتقام ، مستهتراً بالدماء ، وكان عماله على شاكلته من الظلم والجور<sup>(٢)</sup> . وتضع الرواية الإسلامية ابن مردنيش في سلك ثوار الأندلس ، وتنوه بذكائه وشجاعته ، وقد وصفه بعضهم بأنه « كان بعيد الغور ، قوى الساعد ، أصيل الرأي ، شديد العزم ، بعيد العفو ، مؤثراً الانتقام ، مرهوب العقوبة » .

( ١ ) ابن الخطيب في الإحاطة ( المطبوع ) ج ٢ ص ٨٦ ، وفي أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

( ٢ ) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ و ٨٨ .

وبالرغم من أن ابن صاحب الصلاة يقدمه لنا في كتابه « المن بالإمامة » في صور قاتمة، ويصف أصحابه دائماً بالأشقياء، فإنه في كتابه « ثورة المريدين » الذي يفصل فيه سير الأندلس، يصف ابن مردنيش بقوله « كانت له فروسية وشجاعة وشهامة ورياسة »<sup>(١)</sup>.

أما ما حدث عقب وفاة ابن مردنيش، فتختلف الرواية في تصويره. ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة، أنه على أثر وفاته، يادر قواده وأشيائهم، بإعلان الطاعة للموحدين، وأقنعوا ولده أبا القمر هلالاً بذلك، فصعد برأيهم، ويادر إلى إعلان توحيدهم، وطاعته، وسار إلى إشبيلية، ليؤكد ذلك لأمر المؤمنين أبي يعقوب. وقد سبق أن أشرنا إلى ما يذكره ابن صاحب الصلاة من أن أبا الحجاج يوسف أخا ابن مردنيش، قد أعلن توحيدهم، قبيل وفاة أخيه<sup>(٢)</sup>.

ويذكر لنا عبد الواحد المراكشي، أنه لما توفي ابن مردنيش، خلال الحصار، كتمت وفاته حتى قدم أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف من بلنسية، وتباحث مع أكبر أبناء أخيه، واتفق رأي الجميع على أن يدينوا بالطاعة لأمر المؤمنين أبي يعقوب، وأن يسلبوا إليه البلاد. ويقرن ذلك برواية أخرى خلاصتها أن محمداً بن سعد حين شعر بدينو أجله جمع بنيته، وكان له من الولد المذكور ثمانية، هم هلال أبو القمر وهو أكبرهم، وإليه أوصى، وغانم، والزبير، وعزيز، ونصير، وبدر، وأرقم، وعسكر، وقال لهم أني أرى أمر هؤلاء القوم، من الموحدين، في صعود، وقد كثر أتباعهم، ودخلت معظم البلاد في طاعتهم، وأنه يظن أنه لا طاقة لهم بمقاومتهم، وأنه لذلك يحسن التسليم لهم طوعاً واختياراً فيحفظوا بذلك عندهم، قبل أن ينزل بهم ما أنزل بغيرهم من أهل البلاد التي دخلوها عنوة، على أن عبد الواحد لا يجزم بصحة أي الروايتين<sup>(٣)</sup>.

وعلى أي حال فإنه يبدو من المقطوع به، أنه على أثر وفاة ابن مردنيش، يادر ولده أبو القمر هلال، بإعلان إذعانه وطاعته لأمر المؤمنين أبي يعقوب، وبالتخلي له عن مدينة مرسية قاعدة الإمارة. فوجه الخليفة أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية ليتقبل طاعته وليتسلم المدينة، فسار إليها في عسكر منازل من الموحدين

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٦.

(٢) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٦٥. وفي المطبوع ص ٤٧١

(٣) المعجب ص ١٤٠.



فبادر أهلها بالخروج إليه ، ثم دخل المدينة وآنس أهلها ، ووعظهم وحثهم على طاعة الخليفة ، ووعدهم بالخير ورفع المظالم عنهم . ثم سار هلال بنفسه إلى إشبيلية في مستهل شهر رمضان (٥٦٧ هـ) ومعه أكابر دولة الشرق وقادتها وأعيانها ، فاستقبله وصحبه خارج إشبيلية ، أخو الخليفة أبو زكريا يحيى صاحب بجاية ، وأبو إبراهيم إسماعيل وعليه أشياخ الموحدين ، ثم استقبلهم الخليفة بالقصبة العتيقة أحمل استقبال ، وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بحضور السادة الإخوة وأشياخ الموحدين . ثم أنزلوا بقصر ابن عباد والدور المتصلة به ، وقد غمرهم الخليفة بوافر عطفه وإكرامه . وفي اليوم التالي قدم قادة الشرق وأجناده ، وفي مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، بيعتهم وطاعتهم ، وأبدوا رغبتهم إلى الخليفة أن يقوم بغزو من جاورهم من بلاد النصارى ، وعينوا مدينة وبدة بالذات هدفاً لهذا الغزو ، نظراً لضعف تحصيناتها وأسوارها ، فوعد الخليفة بتحقيق هذه الرغبة<sup>(١)</sup> .

ويتقل إلينا ابن الخطيب بهذه المناسبة رواية خلاصتها أن الأمير محمداً بن سعد ، لما أدركه اليأس ، وأيقن بتصوير ملكه إلى الموحدين ، أشهد على نفسه بإقامة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن - علوه - وصياً على ولده وأهله ، ورغب إليه قبول هذه الوصية ، فلما تقل ذلك إلى الخليفة رق لهذا القصد ، وتأثر بهذه الوسيلة ، وتزوج زائدة ابنة ابن مردنيش وحفيدة ابن همشك . وكانت شقراء زرقاء العينين ، رائعة الجمال ، وتم زفافها إليه في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فحظيت لديه ، وغدت أحب نسائه إليه ، وأكثرهن نفوذاً لديه « حتى كان الناس على قول ابن الخطيب يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء » المردينشية . وتزوج أختها صفية فيما بعد ولده ، وولى عهده الأمير أبو يوسف يعقوب<sup>(٢)</sup> ، وأغدق الخليفة عطفه على آل مردنيش ، واستبقى لهم سلطانهم بشرقي الأندلس ، فعين أبا الحجاج يوسف بن سعد والياً لبليسية وجهاتها ، وعين غانم بن محمد ابن مردنيش قائداً لأساطيل العدو بسبته ، واستبقى هلالاً لديه ، فعاش في كنفه ، أثراً ، رفيع الرتبة<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٦٥ ب و ١٦٦ أ . وفي المطبوع ص ٤٧٢ - ٤٧٤

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٤٠ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٧١



وأما إبراهيم بن همشك ، وهو الذى كان خروجه على صهره وحليفه ابن مردنیش ، نذيراً بأنهيأ مملكة الشرق ، فقد لبث مستقراً على ما كان عليه فى جيان وأراضها ، وأقره الخليفة على ولايته ، وذلك حتى أوائل سنة ٥٧١ هـ ، ( ١١٧٥ م ) ، ثم طلب إليه الخليفة أن ينصرف إلى العدو ، فعبر إليها بأهله وولده ، وأسكن مدينة مكناسة وأقطع بها إقطاعات يعيش منها ، ولم يمض قليل على ذلك حتى أصيب بفالج غريب ، شديد الأعراض ، لم يلبث أن حمله إلى القبر ، بعد أن قاسى أهوالاً من آلامه المروعة<sup>(١)</sup>.

---

( ١ ) الإحاطة ( ١٩٧٣ ) ج ١ ص ٣٠٣ .

## الفصل الثالث

### حركة الجهاد بالآندلس

#### والإخفاق في غزوة وبدة

مرض الخليفة أبي يعقوب يوسف . عنایتہ باستدعاء العرب وحشدہم لمؤازرته . قصيدة ابن طفيل في حثهم على الجهاد . قصيدة ابن عياش في ذلك . استجابة العرب للنداء . مسير بعض طوائفهم إلى مراكش . شفاء الخليفة وجلوسه لاستقبال الوفود . خروج الخليفة وجيشه لاستقبال حشود العرب . المباريات الرياضية بين الفريقين . مبايعة العرب للخليفة . مآدب الطعام . تمييز هسكر العرب والتوسعة في أجورهم . تمييز الموحدين . توزيع الخيل والسلاح على الفريقين . الإنعام والبركة . خروج الخليفة في قواته من مراكش . وصف الموكب الخلافي . رباط الفتح . اتخاذها مركزاً لتجميع الجيوش الموحدية . تجديد منشآتها . تمييز جديد للجيش . استئناف السير إلى قصر مصمودة . العبور إلى الآندلس . المسير إلى إشبيلية ثم قرطبة . جلوس الخليفة للسلام والتهنئة . مسير الخليفة إلى إشبيلية . عزل ابن المعلم ومحاسبته . إنشاء قنطرة طريانة . إمداد بطليوس بالمؤن . إنشاء قصور البحيرة . إنشاء تالبستان . إجراء الماء إلى المدينة . إنشاء الجامع الأعظم . وصف ابن صاحب الصلاة لمراحل بناء الجامع وصنع منبره . تطور طراز المنشآت الموحدية . اقتراح أكابر الشرق غزو مدينة وبدة . موافقة الخليفة . خروجه في قواته من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره صوب القصر فأندوجر . استيلاؤه على حصن بلنج . تسليم حصن الكرسي . المسير إلى وادي شقر . مسير السيد أبي سعيد في جيش إلى وبدة . معركة بين الموحدين والنصارى . وصول الخليفة في قواته إلى وبدة . هجوم الجيش الموحدى على وبدة . التفاهة بالمدينة . انسحاب القشتاليين إلى الداخل وامتناعهم بالقصبة . فشل الهجوم الموحدى . محاصرة الموحدين للمدينة . عصف الرياح والأمطار . مقدم جنود الشرق . استئناف الموحدين للهجوم . فشلهم للمرة الثانية . حث الشيخ أبي محمد للناس على الجهاد . محاولة الموحدين إقناع القشتاليين بالتسليم . فشل هذا المسمى . قرار الخليفة بالرحيل . مهاجمة القشتاليين للجيش المنسحب . ارتداد الموحدين نحو قونقة . عطاء الخليفة لأهل قونقة . مسير الموحدين صوب نهر شقر . ظهور طلائع القشتاليين . إحجام الموحدين عن القتال . استئناف السير نحو أراضي بلنسية . الوصول إلى ركانة . اختلال الجيش وقلة الأقوات . تسريح جنود الشرق . الوصول إلى بلنسية ثم شاطبة فأوريولة فرسية . نظر الخليفة في شئون مرسية . المسير إلى إشبيلية . نزول آل مردنيش بها . تكوين قوة من أهل الثغور للغزو . تأملات عن فشل الموحدين في خلة وبدة . عجز القيادة الموحدية . تفكك الجيش الموحدى . تقلب العرب وتحاذلهم . حوادث الغرب . الأحوال في مدينة إيجة . تربص النصارى بها . مسير ألفونسو هنريكيث وجيرالدو لافتاحها . مداممة النصارى لها واستيلاؤهم عليها . تخريبهم لها ثم مفادرتها . عدم اكتراث الموحدين بسقوطها . اشتغال الخليفة في إشبيلية بإتمام الجامع والقصور . غزو القومس الأحذب لأحواز قرطبة . مسير الموحدين لرد النصارى . إدراكهم عند قلعة رباح . القتال بين الفريقين . هزيمة القشتاليين ومصرع

القومس . الاحتفال بالنصر في إشبيلية . غزو الموحدين لأراضي قشتالة . وصولهم إلى طليطلة وتخريب مساكنها . سعى التصاري إلى عقد المهادنة . عقد الهدنة بين الموحدين وبين صاحب طليطلة وملك قشتالة وملك البرتغال . دخول جيرالدو سمبافور وجنده في خدمة الخليفة . بقية أخباره ومصرعه . تعمير قواعد الغرب . تعمير مدينة باجة . تكثف فرناندو ملك ليون وغزوه لأراضي الأندلس . سير الموحدين إلى مدينة رديجو . زواج الخليفة بابنة أمير الشرق محمد بن سعد . نكبة الخليفة لابن عيسى . تعيينه لأخيه أبي علي وإلياً لإشبيلية وأخيه أبي الحسن وإلياً لقرطبة . مقادرة الخليفة لإشبيلية وعبوره إلى المغرب .

نرجع الآن قليلاً إلى الوراء ، لنتتبع مراحل الغزوة الأندلسية التي وعد بها الخليفة أبو يعقوب يوسف من بدايتها . وقد سبق أن أشرنا إلى مضمون الرسالة التي بعث بها الخليفة إلى الموحدين بالأندلس في شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، يؤكد فيها حرصه على إغاثة الأندلس والعمل على نصرتها ، ونياته في استئناف الجهاد ، وإلى ما قام به من إرسال جيش موحدى إلى الأندلس ، تحت إمرة الشيخ أبي حفص عمر ، ليكون تقدمه لهذا الجهاد . بيد أنه لم تأت أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، حتى مرض الخليفة ، واستطال مرضه زهاء أربعة عشر شهراً ، حتى ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ . وكان يتولى علاج الخليفة خلال تلك النازلة الخطيرة ، طبيباؤه ، أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل<sup>(١)</sup> . وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية فيها ، الفيلسوف والطبيب الكبير ابن طفيل ، باعتباره طبيب الخليفة الموحدى ، وكان يتولى الاتصال به وزيره أبو العلاء إدريس بن جامع ، يعرض عليه المخاطبات الواردة في مسائل الوفود ، وأخبار الشئون المطمئنة ، وتحجب عنه الأمور المكدرية ، والقاضى أبو محمد عبد الله الماتى إذ كان يثق بعلمه وأمانته وحسن نصحه وتدبيره ، وبعض الثقات من أشياخ الموحدين . وكان أهم ما عنى به الخليفة أثناء مرضه . هو العمل على استدعاء العرب من إفريقية وترغيبهم للمشاركة في الجهاد . وقد سبق أن أشرنا إلى طوائف أولئك العرب الذين كانوا يحتلون بعض مناطق إفريقية ( تونس ) الجنوبية ، وهم من بني هلال ، وسليم ، وزغبة ، ورياح ، والأثبيج ، وإلى أسباب نزوحهم إلى إفريقية ، وما كان من موقفهم من الخليفة عبد المؤمن ، وما قام به عبد المؤمن من محاولة استمالهم إلى المشاركة في الجهاد بالأندلس . وقد لبثت السياسة الموحدية من ذلك الحين تعمل على استمالهم وحشدتهم في صفوف الجيوش الموحدية ، وذلك بالرغم مما جبلوا

---

( ١ ) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٣٨ ب . وفي المطوع ص ٤١٠



عليه من التقلب وعدم الولاء . ومن ثم فقد حذا الخليفة أبو يعقوب في ذلك حذو أبيه ، وبذل بالرغم من مرضه جهوداً خاصة ، في استمالة أولئك العرب إلى مؤازرته فيما ينتويه من الجهاد ، والقيام بالغزوة العظمى في جزيرة الأندلس ، وكان مما أشار به الخليفة يومئذ ، وهو يعلم ما للشعر البليغ في نفس العربي من عميق الأثر ، أن توجه إلى العرب قصيدة حماسية ، يشاد فيها برفيع أصولهم وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضى في نصرة الدين ، وقمع المارقين والكافرين . فنظم طيبيه الفيلسوف ابن طفيل ، تحقيقاً لتلك الغاية ، قصيدة طويلة تفيض بلاغة ، وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف في نفس الوقت ، من منزلة عالية في النظم ، تضعه في صف أكابر الشعراء . وإليك بعض ما جاء في تلك القصيدة الرائعة التي أوردناها لنا بتمامها ابن صاحب الصلاة :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب	لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكى العاديات على العدا	فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنى	ولانكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم	على الهول ركابٌ ظهور المصائب

ومنها في استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عريسة	تحف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من بنى هلال بن عامر	وما جمعت من طاعن ومُضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها	بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر	وفيثوا إلى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم نبتغى خلاص جميعكم	دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم مانبغى لنفوسنا	ونوثركم زُلَى بأعلى المراتب
لكم نصر الإسلام بدءاً فنصره	عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به	ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب
وقد جعل الله النبي وآله	ومهديه منكم بلا عيب عائب
وإن ذا الذى يسمو ليبلغ شأوكم	إذا كنتم فوق النجوم الشواقب

ومنها في الختام :

وما الحزم إلا طاعة الله إنها : هي الحَرَمُ المناع من كل طالب

نعدكم السيف الذى ليس ينثنى      إذا ما نبا سيف برّاحة ضارب  
ونجعلكم صدر القنّاة إذا غدت      تأطر ما بين الحشى والثرائب  
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى      ولكن فعل الحرّ أصدق خاطب  
وما خلق الأعراب خلاف موعد      ولكن صدق الوعد خلق الأعراب  
منعلم من أوفى ومن خان عهده      ومن كان من آت إلينا وذهب<sup>(١)</sup>

وأمر الخليفة أن تتبع قصيدة ابن طفيل بشعر آخر بوجه إلى العرب ، استعجالاً  
لهم واستنهاضاً لهممهم ، فوجهت إليهم قصيدة ثانية من نظم ابن عيَّاش هذا مطلعها :  
أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل      وقودوا إلى الهيجاء جرد الصوادل  
وقوموا لنصر الدين قومة نائر      وشدوا على الأعداء شدة صايل  
فما العز إلا ظهر أجرد مسابح      يفوت الصبي في شدة المتواصل  
وأبيض ماثور كأن فرسه      على الماء منسوج وليس بسائل  
وأسروا بنى قيس إلى نيل غاية      من المجد تجنى عند برد الأصائل  
تعالوا فقد شُدت إلى الغزو نية      عواقبها مقصورة على الأوائل<sup>(٢)</sup>

وقد كان لهذه المخاطبة الشعرية أثرها فيما يروى ابن صاحب الصلاة ، في  
نفوس العرب في إفريقية ، ولاسيما في منطقتى الزاب والقيروان ، فاجتمع زعمائهم ،  
وحزموا أمرهم على المبادرة إلى الاستجابة لنداء الخليفة . وكان شيخ بنى رباح  
وزعيمهم جبارة بن كامل بن أبي العيش ، وهو الذى كان قد فر أيام عبد المؤمن  
من إفريقية ، فيمن فر من أشياخ العرب ، حين دهمتهم القوات الموحدية في  
جنوب القيروان ، قد عاد من المشرق في هذه الآونة بالذات بعد أن تجول في  
ربوعه حيناً ، ورأى أن يقتدى بزملائه في الاستجابة إلى « الأمر العزيز » . فجمع  
قومه ، وسار إلى بجاية ، وقصد إلى أميرها السيد أبي زكريا يحيى أخى الخليفة ،  
فأكرم وفادته ، ولحق به بقية الزعماء والأشياخ ، وتحرك الجميع في صحبة السيد

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تلك القصيدة في « المن بالإمامة » لوحات ١٢٩ أ و ب ،  
و ١٤٠ أ ، وهى تحتوى على أربعين بيتاً ، ونقل ابن عذارى معظمها في البيان المغرب القسم الثالث  
ص ٨٨ و ٨٩ . ونشرت في العدد الأول من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (سنة ١٩٥٢) .  
(٢) أوردنا ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٤٠ ب . وورد قسم منها في المعجب  
ص ١٢٥ .

أبى زكريا إلى حضرة مراکش ، ومعهم أموالهم وجملة كبيرة من عتاق الخيل ، ولما وصلوا إلى تلمسان سار معهم واليها السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة بمن عنده من العمال والأموال والخيل . وكان الخليفة أبو يعقوب قد شفى عندئذ من مرضه الطويل ، فلما بلغت أنباء مقدم العرب ، واقتربهم من الحضرة ، سر بذلك أما سرور ، وخرج إلى المسجد الجامع يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ، في جو يسوده الجبور والبشر ، وبعد ذلك بيومين جلس الخليفة لاستقبال أشياخ الموحدين وطلبة الحضر ، والأجناد والخاصة من أهل الوفود والقضاة ، وخطب في هذا الحفل الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر ، والقاضي أبو يوسف ، والفقيه أبو محمد الملقى ، وأمر الخليفة بإخراج الصدقات للضعفاء والمساكين والوافدين الغرباء ، ثم صدر الأمر بأن يكون وصول العرب الوافدين ، ومن معهم إلى حضرة مراکش في ضحى يوم السبت الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ .

وكانت الأوامر قد صدرت أثناء ذلك إلى جميع الجند الموحدين بالحضرة بالاستعداد واستكمال الزي والهيئة ، وفرقت عليهم بهذه المناسبة الدروع ، والبيضات والرماح والأسلحة والكسى والأعلام . وفي صبيحة يوم السبت المذكور بكر الحفاظ والطلبة من الموحدين وسائر الجند إلى باب السدة ، وانتظمت صفوفهم جملا جملا ، تتقدمهم الطبول العديدة . ولما كمل ترتيب الموكب ، برز الخليفة أبو يعقوب ممطيا صهوة فرسه الأشقر ، وإلى جانبه وزيره أبو العلا إدريس ابن جامع ، سائرا على قدميه لصق ركابه ، وهو يراجع فيما يعن من الأمور . وفي ساقه الخليفة ، يسير سائر الإخوة الصغار والبنين ، ومن ورائهم حملة البنود ، وأكابر الموحدين يحمل كل منهم علما ، وعليه درع سابغة لامعه تسطع تحت أشعة الشمس ، وتتبعهم سائر الأجناد من الحشم والروم والعييد . وتقرر أن يكون اللقاء في الفحص الشاسع القريب من المدينة ، فلما وصل الموكب إلى الفحص المذكور ، والطبول تفرع بشدة ، والجيش تبدو في أكمل هيئة ، ضربت قبة الخليفة ، ونزل فيها مع إخوته وبنيه . وأقبلت عساكر العرب وأهل إفريقية ، ومعهم السيدان أبو زكريا يحيى ، وأبو عمران موسى أخوا الخليفة . ولما التقى الموكبان على هذا النحو ، أمر الخليفة أن يحمل الفريقان من العسكر كل على الآخر حملة مبارزة ورياضة ولعب ، ففعلا ، وتجاوبا وتصارولا حتى العصر ، والطبول



تفرع ، وقد أبدع كل منهما في حركاته ومناوراتيه . ثم تقدم أخوا الخليفة وأشياخ الموحدين وأشياخ العرب وجميع الوافدين للسلام على الخليفة ، وانصرف الخليفة بعد ذلك في عسكر الموحدين إلى المدينة ، وضرب العرب محلهم في الفحص . وفي اليوم التالي ، الثالث من ربيع الأول ، أمر الخليفة بدخول أشياخ العرب والوفود لمبايعته ، وأخذ العهد عليهم ، فأدخلوا واستغرت بيعتهم أسبوعاً حتى العاشر من ربيع الأول .

وفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول ، خرج الخليفة عقب الصلاة إلى البحيرة ( البستان ) خارج الحضرة ، ومدت المآدب العظيمة لإطعام العرب والوافدين . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذه الحفلات . كلها ، هيئة الإطعام ، فيقول إن كل طائفة من ثلاثة آلاف رجل كان يقدم لها الطعام ، وكلما انتهت طائفة من الأكل ، سارت إلى موضع الخليفة وسلمت ودعا لها . واستمر حفل الإطعام أياماً ، وقد أربى ما كان يقدم فيه على ما تقدم من الإنعام المماثل . ولم يعكر صفو هذا الحفل سوى مشادة حدثت بين صبيان الموحدين وأتباع العرب ، وقعت خلالها بعض الاعتداءات على النفس والمال ، وبادر العرب بالاعتذار وطلب العفو من الخليفة لما وقع من أتباعهم ، فصفح الخليفة عنهم ، وأمر بالاستمرار في إطعامهم وإكرامهم<sup>(١)</sup>.

وكانت آخر خطوة في هذه الأحداث المتعاقبة ، إجراء التمييز لعسكر العرب والموحدين ، ففي اليوم الثامن من جمادى الأولى أمر الخليفة بتمييز العرب الوافدين ومن وصل معهم ، وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره بدار الحجر ، ورتب دخولهم كل يوم بعدد معلوم من مختلف القبائل ، فاستمر تمييزهم خمسة عشر يوماً ، والخليفة جالس في مجلسه مع أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضرة وأشياخ العرب ، يحرص العرب والناس على الجهاد ، ويحث على التفاني فيه . ولما انتهى التمييز ، دعا الخليفة أشياخهم وكبراءهم ، وأحضرت زمامات التمييز الأول ، أيام الخليفة عبد المؤمن ، فوجدت في التمييز الحديد زيادة كبيرة في الأجور . وكان قصد الخليفة من التوسعة على العرب ، أن يمتنعوا عن عاداتهم الذميمة في الاعتداء على الأموال وخطف العائم والثياب والسروج وغيرها ،

( ١ ) يقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفاً ضافياً لهذه الاستقبالات والحفلات في « المن بالإمامة »

وأن يستميلهم إلى طاعته وموآزرته : ثم بدئ بتمييز الموحدين من غرة جمادى الآخرة واستمر تمييزهم أيضاً خمسة عشر يوماً ، وفق منازلهم وقبائلهم ، ووزعت على أثر ذلك على الموحدين والعرب الخيل وعدد الحرب من الرماح والدروع والبيض والسيوف وغيرها . واختتم التمييز بما يسمى في المراسيم الموحدية « بالإنعام بالبركة » وتوزيع الأعطية . وأقيم لذلك حفل ضخم جلس فيه الخليفة في مجلسه ، ومن حوله أشياخ الموحدين وأشياخ العرب ، وأحضرت الأموال بين يديه ، أكواماً من الذهب والفضة ، من دنانير ودراهم ، وقُدِّم الموحدون في تنفيذ البركة ، فأصاب الفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، وغير الكامل ثمانية ، والراجل الكامل خمسة دنانير وغير الكامل ثلاثة . وحصل العرب على منح مضاعفة ، فأصاب الفارس الكامل منهم خمسة وعشرين ديناراً ، وغير الكامل خمسة عشر ، والراجل سبعة دنانير ، ومنحُ أشياخ العرب خمسون ديناراً لكل منهم ، ومنح كل رئيس قبيلة مائتا دينار ، ووزعت على الجميع الكسبي من القباطي والنفابر والعائم ، وزودوا بالسيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا ، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس وزعت على مختلف القبائل ، وحصل الموحدون كذلك على جملة كبيرة من الخيل قسمت عليهم بحسب قبائلهم ومنازلهم . وكان يوماً مشهوداً ، سادت فيه الغبطة والحماسة بين الأشياخ والجنود ، وارتفعت قواهم المعنوية ، وأخذوا يتطلعون إلى الغزو المنشود في عزم وثقة<sup>(١)</sup> .

وهكذا تمت أهبة الخليفة أبي يعقوب يوسف للغزوة الأندلسية التي اعزمها ، والتي عاقه المرض حيناً عن إتمامها ، وعلى هذا النمط الذي أفاض في وصفه ، ابن صاحب الصلاة ، ولخصناه فيما تقدم ، كانت تُحشد الجيوش الموحدية ، ويجرى استعداد الخليفة الموحدي للغزو . وفي اليوم الرابع من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١١٧١م غادر أبو يعقوب حضرة مراکش في حشوده من الموحدين العرب ، وكان خروجه من باب دُكَّالِه ، وقد هرعت الجموع الغفيرة لرؤيته ، فسار وأمامه العلم الأبيض ، ومن ورائه حملة الطبول ، وقد قدم أمامه مصحف عثمان محمولا على جمل مرتفع ، وعليه قبة صغيرة حمراء ، وقد وضع في تابوته الفخم المرصع بنفائس الجواهر والياقوت والزمرد ، وأمام مصحف

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٥٠ ب و ١٥١ اوب . وفي المطبوع



عثمان ، مصحف الإمام المهدي ، وكان يسير إلى جانب حملة الأعلام والطبول ، الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، ومعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر صاحب المهدي ، وأبو محمد عبد الله الملقب شيخ طلبة الحضر ، وقاضي الجماعة أبو موسى عيسى بن عمران ، وعدة آخرون من أشياخ الموحدين . ونزل الخليفة في وادي تانسيفت على قيد ثلاثة أميال من مراکش ، وهو أول منازل الرحلة ، وعساكره محذقة به من كل صوب . ثم غادره في اليوم التالي إلى جسر الخطابة إلى توبين ، ثم إلى تودجين . واستمر في سيره على هذا النحو حتى وصل إلى وادي أم الربيع ، وهو في كل مرحلة ينزل في الدار التي أعدت لنزوله ، وجاز العسكر الوادي تباعاً فوق القنطرة التي عملت لذلك ، وقد خصص يوم لحواز كل قبيلة . ثم استأنف السير حتى وصل إلى مقربة من المهديّة ، وهي التي سُميت عندئذ برباط الفتح . وكان موضع هذه المدينة التي غدت في عصرنا عاصمة المغرب ، سهلاً براحاً به مرافق لأهل سلا ، وبعض أعيان إشبيلية ، فاشتراه الخليفة عبد المؤمن من أصحابه . ولما وفد في قواته على سلا في سنة ٥٤٥ هـ ، لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس واستدعاء شيوخها وطلبها من الموحدين ، أمر حسبما تقدم ، بأن ينشأ في ذلك الموضع قصبة حصينة على اللسان الممتد في البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب لجريان الماء من عين عبولة ، القريبة إلى محلته التي أنشأها ، فتم ذلك في بضعة أشهر ، وجرى الماء ليستقي منه الناس والدواب وتروى الأرض ، وغرست الحنات والرياض ، وأذن الخليفة للناس بالسكنى وإنشاء الديار والأسواق . وهكذا قامت مدينة رباط الفتح . وكانت الرّباط ، منذ عهد عبد المؤمن مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية سواء إلى إفريقية أو الأندلس . ولما تم فتح إفريقية غدت بالأخص مجاز الجيوش المسيرة إلى الأندلس .

ولما وصل الخليفة أبو يعقوب إلى مقربة من الرّباط نزل في فحصها مع الوزراء والأشياخ والكبراء ، وأمر بأن تُغرس في أركان تابوت مصحف عثمان الأربعة ، أربع رايات ، رفعت على أربع رماح صغار ، في أعلى كل منها تفاحة من الذهب يسطع بريقها الوهاج ، وللرايات ألوان أربعة ، الخلدى والأحمر ، والأصفر والأبيض . ثم اقتعد الخليفة غارب فرسه الأشقر ، وسار على النظام الذي سبق وصفه ، ومن ورائه حشود الموحدين والعرب وقد ملأت البسائط .



فلما أشرف على الرباط ، أمر بتقديم الطبول والرايات أمامه مع المصحفين تعظيماً  
لشأنهما ، وتبعه الوزراء والأشياخ والكتّاب والطلبة ، حتى وصل إلى باب المدينة ،  
فرد وجهه للناس واستقبلهم ودعا لهم ، وأمرهم بالنزول في السهل الشاسع ،  
ونزل بالدار المعدة لنزوله ، وكان وصول الخليفة إلى رباط الفتح في اليوم  
العشرين من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ ، وبدا استغرقت رحلته إليها من مراكش ،  
سبعة عشر يوماً (١) .

وأمر الخليفة على أثر وصوله أن تجدد السقاية التي أنشأها والده عبد المؤمن ،  
وكانت قد خربت ، وأسن ماؤها ، فجددت وأعيدت إلى حالتها الأولى ، وأنشئ  
إلى جانبها صهريج عظيم ليمدها بالماء المتجمع فيه ، وكذلك أمر بأن ينشأ جسر  
جديد فيما بين الرباط وسلا على نهر أبي رقراق ، إلى جانب الجسر الذي كان قد  
أنشأه أبوه ، ثم خرب بفعل الزمن ، فأقيم جسر عظيم فوق القوارب ، وغطى  
بالحجر والخيار الثابت . وأمر أخيراً بالبدء في بناء أسوار المدينة من جهتي  
الجنوب والغرب ، وهي الأسوار التي أكملت فيما بعد في عهد ولده الخليفة يعقوب  
المنصور . وفي اليوم الثامن من نزوله أمر بتحريك العساكر ، وأن يقام لهم تمييز  
جديد ، وأشرف على تمييز العرب السيد أبو زكريا أخو الخليفة ، وأبو محمد  
عبد الله المألوف لمعرفته بهم وبأنسابهم . ثم وزعت الكسي على الأشياخ من كل قبيل ،  
وعلى طلبة الحضر ، والعرب ، ونخص كثير منهم بأخبية ونخيل عتاق ، وكذلك  
وزعت الصدقات على الضعفاء والمساكين ، وقضيت حوائج الناس ، ثم اتخذت  
الأهبات الأخيرة لاستئناف السير .

وفي عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان سنة ٥٦٦ هـ ، صدرت الأوامر  
بالحركة ، وعبرت الجند البحر إلى سلا فوق الجسر الجديد . وفي صباح اليوم التالي  
تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين حتى تم جوازهم ، ثم تلاه السيد  
أبو زكريا بالعرب ، واستغرق جواز العسكر خمسة أيام ، وفي الخامس عشر من  
شعبان غادر الخليفة رباط الفتح ، ومعه وزيره ابن جامع ، والأشياخ والحفاظ  
والطلبة والعبيد ، بنفس النظام الذي تقدم وصفه ، ونزل بالموضع المعروف  
بالحمام على مقربة من وادي سبو تجاه ثغر المعمورة ، وتلاحق سائر العسكر إلى  
الوادي ، فاجتمع من عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس ، واجتمع كذلك

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٥٢ إلى ١٥٤ ب . وفي المطبوع

من العرب عشرة آلاف فارس ، وهذا غير المتطوعة والمجاهدين ، فإذا ذكرنا أن الشيخ أبا حفص بن يحيى ، كان قد تقدم الخليفة بجيش كبير إلى شبه الجزيرة في أوائل سنة ٥٦٤ هـ ، وأن السيد أبا حفص أبا الخليفة ، تلاه في جيش كبير آخر عبر إلى شبه الجزيرة في أوائل سنة ٥٦٦ هـ ، وهو الجيش الذى اضطلع بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على مملكة الشرق ، أدركنا ضخامة الجيوش الموحدية التى أعدت للغزو بالأندلس .

ووصل الخليفة فى قواته الحرارة إلى قصر مصمودة غربى ثغر سبتة<sup>(١)</sup> ، وبدأ عبور الجند إلى شبه الجزيرة ، عن طريق ثغر طريف ، فى مستهل رمضان من سنة ٥٦٦ هـ ( ٨ مايو سنة ١١٧١ م ) واستمر عبورها أكثر من أسبوعين ، وفى اليوم السابع والعشرين من رمضان عبر الخليفة فى خاصته ، واستقبله فى طريف زعماء الأندلس وأكابرها من سائر القواعد ، ثم تحرك إلى إشبيلية ، ودخلها فى يوم الجمعة الثانى عشر من شهر شوال ( ١٨ يونيه ) واستقبله الأشياخ والناس استقبالا حافلا ، فاستراح بها عشرة أيام ، ثم سار إلى قرطبة فى الثانى والعشرين من شوال ، فوصل إليها فى غرة ذى القعدة ( ٥ يوليه ) . ونزلت القوات الموحدية فى داخل قرطبة وفى خارجها على ضفتى الوادى ، مدة إقامة الخليفة بها ، وقد استطالت إلى آخر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ . وفى يوم عيد الأضحى ، خرج الخليفة للصلاة وألقى الخطبة المعتادة ، واحتفل بالنحر ، ثم استقبل الأشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وانصرف إلى دار الإمارة . وفى اليوم التالى جلس بالقصر ، مجلس السلام والتهنئة ، وأقبل أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وطلبة الحضر ، والفقهاء والقضاة والكتاب ، وأهل الوفود ، وأعيان قرطبة ، أقبلوا جميعاً للسلام ، وأنشد الشعراء كالعادة مدائحهم وتهانيهم ، وكان فى مقدمتهم أبو بكر بن المنخل ، وقد أنشد بين يدى الخليفة قصيدة طويلة أوردها لنا ابن صاحب الصلاة ، ومما جاء فيها :

شرف الخلافة أن ملاكت زمامها وعدوت من عقب الامام إمامها

---

( ١ ) قال الإدريسي فى وصف قصر مصمودة « إنه يقع غرب سبتة على قيد ١٢ ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس . وهى على رأس الحجاز الأقرب إلى ديار الأندلس » ( وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٦٨ ) .



طبع الإله لها حساما صارما يحى جوانبها فكنت حسامها  
ورأت عداة الله أن حمامها من قيس عيلان فكنت حمامها  
فعلى رماحك أن تشق جيوبها وعلى سيوفك أن تفلق هامها<sup>(١)</sup>

وفي خلال إقامة الخليفة بقرطبة سُرِت حملة موحدية بقيادة عبد الله بن أبي حفص ابن تفريج بن وبعض أشياخ الموحدين نحو أراضي قشتالة ، وكان القصد من تسيرها أن تقوم بغارة انتقامية لما ارتكبه القشتاليون بقيادة الكونت نونيو دي لارا من العيث والتقتيل في أراضي المسلمين ، قبل ذلك بنحو عامين ، فسار الموحدون شمالا ، وعبروا نهر التاجه ، وعاثوا في منطقة كبيرة من أراضي قشتالة ، وعادوا إلى قرطبة مثقلين بالسيب والغنائم ، ونحن نذكر أن الجيوش الموحدية ، كانت قبل ذلك ببضعة أشهر ، قد سارت بقيادة السيد أبي حفص أخى الخليفة لحصار مرسية ومقاتلة ابن مردنيش في عقر أراضيه ، والقضاء على سلطانه في شرقي الأندلس ، وذلك حسب فصلناه من قبل في موضعه ، وكانت الأنباء تتوالى على الخليفة ، وهو بقرطبة ، بما أنزله الموحدون بابن مردنيش من الضربات والمآثم ، وما استولوا عليه من بلاده ، وبما يؤذن بإحرازهم النصر النهائي في تلك المعركة الحاسمة .

غادر الخليفة أبو يعقوب يوسف قرطبة ، بعد أن أقام بها شهرين ، في آخر شهر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ ، قاصداً إلى إشبيلية ، فوصل إليها في الثاني من محرم سنة ٥٦٧ هـ ( ٥ سبتمبر ١١٧١ م ) ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكل ما تقدم من تنقلات الخليفة ، إن الخليفة لم يحتل من دور إشبيلية سوى ستين داراً ، وأنه اشترى بها مائة دار من ماله الخاص لتكون منزلاً للوافدين إليه ، وذلك رفقا منه بأهل المدينة<sup>(٢)</sup> ، وكانت إشبيلية قد غدت عندئذ قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس ، وذلك بعد أن ترددت هذه الحكومة حيناً بين قرطبة وغرناطة وإشبيلية . وكانت إشبيلية بموقعها على مقربة من البحر وعلى مقربة من العدو ، أصلح من الناحية الإستراتيجية من قرطبة ، لاستقبال

( ١ ) تشغل هذه القصيدة من « المن بالإمامة » لوحة ١٥٩ ب و ١٦٠ ا و ب .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٥٦ ب وفي المطوع ص ٤٥٢



الحيوش الموحدية الوافدة ، واستقبال عتادها وذخائرها وموثها ، ومن جهة أخرى ، فقد أثبتت الحوادث ، منذ مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة ، أن تيار الغزو النصراني للأندلس ، قد تحول إلى ناحية الغرب ، وأن قيام مملكة البرتغال بالحديدة ، واشتداد ساعدها ، قد نقل الصراع الرئيسى بين إسبانيا المسلمة ، وإسبانيا النصرانية إلى هذه الناحية من شبه الجزيرة ، وهذا ما أبدته فى الأعوام الأخيرة ، معارك بطليوس ، وغزوات ألفونسو هنريكز ، وهذا ما سوف تؤيده الحوادث فيما بعد ، وهو مما يدل على بعد نظر السياسة الموحدية فى هذا الشأن . وأخيراً فقد كانت إشبيلية ، بعد الذى أصاب قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، من ضروب التخريب والعفاء منذ أيام الفتنة ، ومختلف الحروب والثورات ، كانت أرقى عمراناً ، وأوسع رحاباً ، ولاسيما منذ أيام بنى عباد ، حيث غدت أعظم حواضر الأندلس وأجملها . ولهذا كله اختار الموحدون أن تكون إشبيلية حاضرتهم وقاعدة حكومتهم بالأندلس .

وما كاد الخليفة يصل إلى إشبيلية ، حتى أمر بعزل محمد بن سعيد المعروف بابن المعلم ، وكان يتولى أعمال الخزن أو إدارة الشئون المالية بإشبيلية والأندلس ، وأمر بالسير إلى قرطبة لمحاسنته ، والتحقيق فى سير أعماله ، وكانت قد علقت به وبتصرفاته فى تنفيذ المنشآت والمشاريع العامة ريب كثيرة ، وندب لمحاسنته الفقيه أبو محمد الماتى والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز ، وانتهى الأمر باستصفاء أمواله ، ثم إعدامه فيما بعد . وقدّم الخليفة مكانه على أعمال إشبيلية ، أبا داود بلول ابن جلداسن . وقد كان للخليفة عند حلوله بإشبيلية برنامج ضخم من الأعمال الإنشائية ، سوف يضطلع بلول ، وزير المال الجديد ، فى تنفيذه بأعظم قسط . وكان أول ما أشار به الخليفة من تلك الأعمال بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادى الكبير ، تصل ما بين إشبيلية وطريق طرّيانة ، ضاحيتها الغربية ، وتيسر سبل المواصلات فى اتجاه الغرب ، فحشد لها العرفاء والصناع ، وتم إنشاؤها فى نحو شهر ، فى السابع من صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة يوم إكمالها وافتتاحها ، فى حفل ضخم ، رفعت فيه البنود وقرعت الطبول . وبنوه ابن صاحب الصلاة بما كان لإنشاء هذه القنطرة العظيمة من حسن الأثر ، وما حققته للناس من يسر ورخاء ، إذ كان المرور بها دون قبالة أو رسوم .

وفى خلال ذلك ، حضر السيد أبو حفص أخو الخليفة من حصن مرسية ،

وذلك قبل وفاة ابن مردنيش وانقضاء أمره بأشهر قلائل ، فاستقبله الخليفة خارج إشبيلية ، باحتفال بالغ . واجتمع الأخوان للبحث فيما يجب عمله للحماية الأندلس ورد عدوان النصارى عنها . وكان أول ما تقرر في ذلك أن ترسل حملة ضاربة من الموحدين تحمل الميرة والعتاد والمرافق اللازمة لمدينة بطليوس ، فخرجت هذه الحملة في الثامن من شهر صفر ، وجازت فوق القنطرة الحديدية إلى طريانة ، فكانت أول عسكر يجوز عليها ، وسارت إلى بطليوس . فلما أقربت من المدينة ، هاجمت حصن ليون الواقع على مقربة من شرقي بطليوس على ضفة وادي يانه ، وكانت تحتله حامية من النصارى من جند جبرالدوسمبافور ، واقتحمته عنوة ، وأوصلت حولها من الميرة والسلاح إلى بطليوس ، ثم عادت سالمة إلى إشبيلية . ولما كالت حملة مرسية بالنجاح ، وتوفي ابن مردنيش ، وانتهت مملكة الشرق ، قديم هلال بن مردنيش وأكابر الشرق إلى إشبيلية ، في مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، وقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة ، وذلك حسبا فصلناه من قبل في موضعه .

وقد استطالت إقامة الخليفة أبي يعقوب يوسف بإشبيلية والأندلس زهاء خمسة أعوام ، وبالرغم من أنه قام خلال إقامته بغزو أراضي النصارى ، وذلك تحقيقاً لمشروعه الرئيسي في العبور إلى الأندلس ، فإن أهم ما تميزت به تلك الفترة ، هو اضطلاعه بالأعمال الإنشائية العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهي التي بدأها ببناء القنطرة على الوادي الكبير . والظاهر أن أبا يعقوب ، كان يحبو هذه المدينة العظيمة ، التي اتفق فيها أعواماً عديدة من شبابه حاكماً لها أيام أبيه المؤمن ، بكثير من الحب والإعجاب ، ومن ثم فإننا نراه يعمل بهمة عظيمة على تحصينها وتجميلها ، وتزويدها بالمنشآت الفخمة ، والمياه الحارية . وكان أول ما عني به بعد إنشاء القنطرة ، هو إنشاء القصور الخليفية المعروفة « بالبحيرة » . وكانت إشبيلية تزدان بعدد من القصور الملكية ، هي قصور بني عباد السالفة ، وكانت ما تزال ، في هذا العصر ، بعد أكثر من مائة عام ، تحتفظ بكثير من رونقها وفخامتها ، ولكن الخليفة الموحدي ، لم يرق له أن يتخذ من تلك القصور مقامه ، واكتفى بتخصيصها لنزول الأمراء والكبراء الوافدين . وكان السيد أبو حفص ، أخو الخليفة ، قد ابتنى خلال زيارته لإشبيلية بعض الدور في وادي إشبيلية خارج باب الكحل ، فرأى الخليفة أن يقيم قصوره خارج باب جهور ، في أرض الحنان المنسوب



لأبي مسلمة القرطبي بعد أن عوض أصحابه جنانا في مكان آخر . وأقيمت في هذا الموضع طائفة من القصور والدور الفخمة للخليفة وحاشيته . وقام على إنشائها العريف أحمد بن ياسه عريف الأندلس ، والخبير بشئون القصور ، فجاءت على أبداع طراز ، وأقيمت حولها من جميع الجهات أسوار من الحيار والرمل والحصى . وعهد الخليفة إلى أبي القاسم أحمد بن محمد الحوفى القاضى ، وأبى بكر محمد ابن يحيى الجند ، لما عرف عنهما من الأمانة والخبرة الهندسية والزراعية ، أن يقوموا بإنشاء بستان عظيم حول هذه القصور من أموال المخزن ( الأموال العامة ) تجلب إليه الغراس من الزيتون والأعناب والفواكه وسائر الأنواع النادرة الغريبة من الأشجار والغراس ، فقاما بتنفيذ أمره ، وعوض أهل الأراضى التى أدخلت فى البستان عن أراضيمهم تعويضاً مرضياً . وعهد بأعمال الحفر والغراس إلى أبى داود بلول بن جلداس ، متصرف إشبيلية وأعمالها وأمن الخليفة ، وجلبت إلى البستان آلاف الغراس والأشجار من مختلف الأنحاء ، وغرست فيه على أحمل نسق . وحملت غراس التفاح والأجاص ( الكمثرى ) وغيرها من غرناطة ووادى آش ، وكان الوزير أبو العلاء بن جامع وابنه يحيى يلازمان الجلوس للإشراف على العمل من الصباح إلى المساء ، وكان الخليفة يخرج من قصره بإشبيلية مع أعيان الموحدين لمشاهدة الأعمال الحارية ومدى تقدمها . ويفيض ابن صاحب الصلاة كعاداته فى وصف هذه القصور وجمالها وفخامتها<sup>(١)</sup> .

وكانت الخطوة التالية بعد إنشاء القصور والبستان ، النظر فى استجلاب الماء لتوفير السقاية والرى . وكان يوجد خارج باب قرمونة ، على الطريق المتجه إلى قرمونة ، أطلال قنطرة رومانية قديمة ، قد درست وعفت ، ولم يبق منها سوى حجارتها المتساقطة . فقام المهندس الأندلسى البارع الحاج يعيش المالى ، وهن الذى تولى الإشراف على أعمال جبل طارق ، بالحفر حول هذا الأثر ، حتى تحقق لديه ، أنه كان قنطرة رومانية تحمل الماء من سرب قديم إلى إشبيلية ، ثم تتبع السرب بعد ذلك بالحفر حتى انتهى إلى مأخذة القديم من الوادى على مقربة من قلعة جابر<sup>(٢)</sup> ، وتم إجراء الماء من ذلك الموضع فى سربه القديم إلى البحيرة ،

( ١ ) المن بالإمامة لوحات ١٦١ ب و ١٦٢ ب و ١٦٣ ب . وفى المطبوع ص ٤٦٣ - ٤٦٨

( ٢ ) وهى تقع فى جنوب شرق إشبيلية على قيد نحو عشرة كيلومترات منها ، ومكانها اليوم

البلدة الإسبانية الصغيرة التى تسمى ( Acalá de Guadaira ) .



والقصور والرياض الخليفة ، وأمر الخليفة بعد ذلك ، بإجراء الماء إلى داخل المدينة لسقاية الناس ، وتوفير مرافقهم ، فقام الحاج يعيش بتنفيذ هذه الرغبة على أكمل صورة ، وأنشئ داخل إشبيلية محبس للماء بحارة منور وهو نهاية جريانه ، وتم توصيل الماء إلى المدينة على هذا النحو في اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة حفل إجرائه في جماعة كبيرة من الحند والأشياخ والفقهاء والطلبة ، وضربت الطبول ، وساد البشر واليمن بين الناس .

على أن أعظم منشآت الخليفة أبي يعقوب يوسف بإشبيلية ، هو الجامع الأعظم ، الذي مازالت تقوم منه حتى اليوم بعض البقايا الدارسة ، إلى جانب كنيسة إشبيلية العظمى ، التي أقيمت فوق أنقاضه . وكان البدء بإنشائه واختطاط موقعه في شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، فهدمت لذلك الغرض ديار كثيرة داخل القصبة تحت إشراف العريف أحمد بن باس ، واجتمع بإشبيلية للقيام بأعمال الإنشاء ، العرفاء ، والبنائون من أهل إشبيلية ، ومن سائر قواعد الأندلس ، ومن أهل العدو ولاسيما مراكش وفاس ، واجتمع معهم أمهر العمال من سائر الحرف المطلوبة . وكان الموحدون حينما افتتحوا إشبيلية قد أنشأوا لهم بقصبتها جامعاً صغيراً يؤدون فيه شعائرهم ، ولكنه أضحى يضيق بهم ، بعد أن تكاثروا وكثرت وفودهم ، ومن جهة أخرى ، فإن المدينة ذاتها كانت في أشد الحاجة إلى مسجد جامع يتفق مع ضخامة عمراتها ، وأهميتها كمقر للحكومة الموحدية بالأندلس . وكانت مسجد إشبيلية الجامع ، المسمى بجامع العديس أو ابن عديس وهو المنسوب للقاضي عمر ابن عديس ، والمشيء في سنة ٥١٤ هـ ، أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، قد ضاق برواده ، نظراً لنمو المدينة وتكاثر سكانها ، وكثرة الموحدين الوافدين عليها ، ولم يفكر أحد من أمراء بني عبّاد أيام دولتهم ، في إنشاء مثل هذا الجامع لانهاكهم في شئون الإمارة ، وإنشاء القصور ودور القصص ، وإهمالهم لشئون العبادة . يقول ابن صاحب الصلاة وقد كان من سكان إشبيلية ، وكان شاهد عيان لإقامة هذه المنشآت كلها ، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب « قد حاز الذخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس ، فأسس من الماء بالآجر والحيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطانة تحت الأرض ، أطول مما فوق الأرض ، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام ، وإحضار الآلات من الخشب المحلوب من سواحل العدو

مما لا يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته ، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه ، وأنفذ أمره العالى ببنائه فى رمضان من سنة سبع وستين وخمسة المورخة ، لم يرفع عنه البناء قط فى فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية ، إلى أن كمل بالتسقيف وجاء فى أبهى النظر الشريف ، أعجز فى بنيانه من تقدمه ، وبقي فى ميزانه ذخيره ورحمة له مقدمة ، قارب له جامع قرطبة فى السعة ، وليس فى الأندلس جامع على نده ، وسعته وعدد بلاطاته .

وتولى النظر على بناء الجامع وعرفائه العريف أحمد بن باس ، والنظر على النفقة أبوداود بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ، وكان من الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية ، أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الساقى . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مراحل إتمام الجامع على النحو الآتى : إن سرب المدينة كانت تشق بجرها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع ، فنكبت عنه ، وصرفت إلى جهة الخوف على سرب واسع ، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض ، وعنى العرفاء ببناء القبة التى على محرابه وبنجارتها أعظم عناية ، وأقاموا عن يسار المحراب ، ساباطاً فى الحائط ، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع ، لشهود صلاة الجمعة ، وافتن الصنائع فى عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب ، وفى إبداع نقوشه ، وترصيعه بالصندل المجزع بالعاج ، وأبنوسه يتلأأ بصفائح الذهب والفضة ، « وأشكال فى عمله من الذهب الإبريز ، يتألق نوراً ، ومحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدوراً » . ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة . وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه فى أكثر الأيام ومعه أشباخ دولته ، ويشير للمشرفين عليه بالحد فى البناء وإتقانه ، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس ، وكمال التسقيف ، واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً ، إلى أن حان موعد عودة الخليفة إلى حضرة مراکش فى الرابع عشر من شعبان عام ٥٧١ هـ ، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصنائع إلى مواطنهم . على أن هذا الجامع لم يفتح للصلاة بصنفة رسمية وتقام به الخطبة ، إلا بعد ذلك بنحو سبعة أعوام ، وأقيمت فيه الخطبة لأول مرة يوم الجمعة ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٧٧ هـ ( ٣٠ أبريل سنة ١١٨٢ م ) وذلك على يد السيد أبى إسحاق إبراهيم ابن الخليفة أبى يعقوب ، ووالى إشبيلية عندئذ ، وأزيات الخطبة من جامع ابن عبدبّس من ذلك التاريخ<sup>(١)</sup> .

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٦٧ و ١٦٨ و ب ١٦٩ ، وفى المطبوع

وروض ص ٤٧٤ - ٤٧٩ القرطاس ص ١٣٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٦



ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن الموحدين في بداية أمرهم لم يعنوا بزخرفة المنشآت والصروح ، ولأسيا المساجد ، معتبرين هذا الزخرف من الأمور المكروهة من الناحية الدينية ، وكان كل ما يراعى في هذه الصروح هو البساطة والمتانة . بيد أنه لما استحالت الخلافة الدينية من بعد عبد المؤمن إلى ملك باذخ ، وبلاط يمتاز بالفخامة والروعة ، بدأ زخرف الصروح الموحدية وتجميلها بوفرة وسخاء ، فكان منبر جامع إشبيلية المرصع بصفائح الذهب والفضة ، وكان تزويد صومعته التي أنشئت فيما بعد بتفانيحها الذهبية الثقيلة (١) .

وسرى فيما بعد ، كيف أنشئت منارة هذا الجامع ، وهي المنارة الشهيرة التي مازالت قائمة حتى عصرنا في مدينة إشبيلية ، بعد أن حول جزؤها الأعلى إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى .

ذكرنا فيما تقدم أنه لما وفد هلال بن مردنيش وأكابر الشرق وقادته على إشبيلية في مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، ليقدّموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة أبي يعقوب ، اقترح قادة الشرق ، وفي مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، على الخليفة أن يقوم بغزو أراضي النصارى من جهة بلادهم ، وعينوا له بالذات مدينة وبدة هدفا لهذا الغزو ، وذلك لضعف تحصيناتها وأسوارها ، ولأنها حسبما ينقل إلينا ابن صاحب الصلاة « حديثة البنيان قريبة الإسكان » (٢) أو بعبارة أخرى لم يتأثر عمراتها ، ولا أهبتها الدفاعية ، وأن الخليفة وعدهم في نفس هذا المجلس بتحقيق رغبتهم متى انتهى شهر الصوم (٣) . وإنه ليبدو لنا من ذلك أن الخليفة حينما عبر إلى الأندلس بقصد الغزو والجهاد لم يكن لديه مشروع معين لهذا الغزو ، ومن ثم كان قبوله لاقتراح قادة الشرق .

وعلى أي حال ، فقد اتخذ الخليفة أهبة لتلك الغزوة ، وخرج في قواته من إشبيلية في فجر يوم الاثنين الحادي عشر من شوال سنة ٥٦٧ هـ ( ٦ يونيو سنة ١١٧٢ م ) ، فوصل إلى قرطبة في السابع عشر منه ، وأقام محلته في جبل

( ١ ) وقد أبدى العلامة جولديهر مثل هذه الملاحظة في بحثه : *Materialien zur Kenntniss*

*der Almohaden Bewegung* (Z. der Morgenl. Geselsch. 1887; p. 106)

( ٢ ) المن بالإمامة لوحة ١١٦٦ وفي المطبوع ص ٤٧٣

( ٣ ) المن بالإمامة لوحة ١١٦٦ .



فحص السراق المثل على براح أرض مدينة الزاهرة القديمة ، وفي اليوم التالي دخل قصر قرطبة القديم ، وأقام به بضعة أيام . ثم غادر قرطبة في ظهر اليوم الخامس والعشرين من شوال ، وسار في قواته صوب مدينة القصر<sup>(١)</sup> ، فأندو جر ثم اتجه نحو الشرق حتى صار على مقربة من بياسة ، وهناك لحق به إبراهيم ابن همشك ، وكان على حصار حصن بلج<sup>(٢)</sup> القريب من بياسة ، وكان من أعظم وأمنع حصون هذه المنطقة . وكان هذا الحصن من أملاك ابن همشك ، فلما وقع الخلاف بينه وبين صهره ابن مردنيش ، من جراء انصوائه تحت لواء الموحيدين ، استولى ابن مردنيش على هذا الحصن ، ووضع به حامية من جنده المرتزقة النصاري ، وكان ابن همشك يحاصره بقواته حينما قدم الخليفة في جيشه الضخم ، فاقترح عليه ابن همشك أن يسير في الحال إلى الحصن لحصاره والاستيلاء عليه ، فاستجاب الخليفة إلى دعوته ، وسارت القوات الموحدية صوب الحصن ، ونزلت في ظاهره ، وعانين الموحدون ضخامته ومنعته ، وروعت حاميت النصرانية بما شهدت من كثرة الجيوش الموحدية ، فاستدعوا ابن همشك ورجوه أن يتوسط لهم لدى الخليفة لينحهم الأمان مقابل تسليم الحصن ، فقام ابن همشك بتحقيق رغبتهم ووافق الخليفة ، ورأى في تسليم الحصن فاتحة النجاح والنصر ، وتم تسليم الحصن في يوم السبت ٣٠ شوال ، وركب الخليفة إلى الحصن ، وراقته ضخامته ومنعته ، ورتب به حامية موحدية ، وصرف أمره إلى ابن همشك . وفي اليوم الثاني من شهر ذي القعدة سار الخليفة في قواته شمالا نحو حصن الكرس<sup>(٣)</sup> وكان ابن مردنيش قد فعل به ما فعل بحصن بلج ، وسلمه إلى حامية من النصاري . وكان هذا الحصن يقع فوق ربوة عالية يحيط بها الماء والبساتن الخضراء ، فلما اقترب منه الموحدون ، عرض النصاري تسليمه بالأمان ، على نحو ما تم بحصن بلج ، فأجبيوا إلى مطلبهم ، ونزلوا عن الحصن ، وذلك في اليوم السادس من ذي القعدة ، وصرف أمره كذلك إلى ابن همشك .

ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من مرافقي هذه الحملة الموحدية<sup>(٤)</sup> ، سير الحملة وتنقلاتها بإفاضة ، ويقول لنا إنه بعد الاستيلاء على هذين الحصنين ، سار

(١) وهي بالإسبانية Alcocer .

(٢) وهو بالإسبانية Vilches . (٣) وهو بالإسبانية Alcaraz .

(٤) وهو يذكر لنا ذلك في أكثر من موطن ، « المن بالإمامة » لوحة ١٧٧ ، ١٧٨ ب .

الخليفة في قواته إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف<sup>(١)</sup> وهو المتصل بفحص جنجاله ، وقد كانت يومئذ مدينة الحدود بين الأندلس وبين قشتالة ، ثم تقدم منه إلى الموضع المعروف بالغُدُر قرب منابع نهر وادي يانه ، ونزل في سهل بلاط الصوف وقضى فيه يوماً تزود فيه العسكر والناس بالماء . ثم غادره إلى مرج البسيط ، وأقام فيه يوماً آخر ، وسار منه إلى مقربة من وادي شُقر ، حيث ارتوى الناس والدواب من ماء النهر ، وقضوا فيه يومهم للراحة . وفي يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة ، أمر الخليفة أخاه السيد أبا سعيد ، أن يسير من وادي شُقر في عسكر ضخّم من الموحدين والعرب ، يبلغ نحو اثني عشر ألف فارس ، ومعهم قوة من الرّجالة والرّماة ، إلى أراضي قشتالة ، صوب مدينة وبذة<sup>(٢)</sup> ، فسار السيد أبو سعيد في هذا الجيش ومعه أبو العلاء بن عزون « قاضي الدولة المهدية » في جنده ، وإبراهيم بن همشك في جنده ، فوصلوا في صباح اليوم التالي إلى أول بلاد قشتالة بموضع يسمى « برج جمل » وفيه حصن يحتله النصارى ، فافتتحوه في الحال ، وأنفوا حاميته قتلاً وسيّياً ، وهدموه . وفي اليوم التالي — السبت — وصلوا إلى مدينة وبذة ، والظاهر أن النصارى كانوا على أهبة لرد المغيرين ، فما كاد الموحدون يصلون إلى ظاهر المدينة ، حتى خرج إليهم القشتاليون ، ونشبت بين الفريقين معركة تمهيدية ، ظهر فيها تحاذل من بعض الجند العرب ، فقتلوا ، وأسفرت المعركة حسباً يقول لنا ابن صاحب الصلاة عن « ظهور الإسلام » . وعلى أثر ذلك نزل السيد أبو سعيد بعسكره فوق التل المطل على المدينة<sup>(٣)</sup> .

وفي خلال ذلك وصل الخليفة في قواته إلى وبذة في اليوم السابع عشر من ذي القعدة ، وأمر الموحدين والعرب من سائر القبائل بالتأهب للحرب ، فانحاز كل عسكر إلى قبيله ، واجتمع تحت رايته ، وأمر الجميع بالسير ، والصعود إلى التل الذي نزل به السيد أبو سعيد بجنده ، ليتم اجتماع القوات الحاربة ، فصعد الجند على الترتيب المذكور ، وصعد بعدهم الخليفة في كتيبته ، ومعه أبناء الجماعة ، وأبناء أهل خمسين وأهل الدار والعبيد ، وخلفه السيد أبو حفص وباقي الإخوة ، ومن ورائهم الرايات والطبول وعددها مائة ، وفي الخال بدأ انفجور تحت قرع الطبول وصيحات التكبير ، بين الموحدين والقشتاليين ، واستولى الموحدون على

( ١ ) وهو بالإسبانية Balazote . ( ٢ ) وبذة هي بالإسبانية Huete .

( ٣ ) تراجع مواقع عزوه وبذة في الخريطة المنشورة في ص ٤٩ .



ما كان لصق السور من مداخل أرباض المدينة، وأحرقت الدور وهدمت، وارتد القشتاليون إلى الداخل ، ونزل الموحدون بنخيولهم في الجئات والكروم المتصلة بالمدينة ، وقطعوا عنها ماء الوادى . وفي مساء نفس اليوم طاف السيد أبو حفص ومعه الإخوة والأشياخ والزعماء ، وقوة كبيرة من الموحدين بجوانب المدينة الأربعة ، وقسم جهاتها على الجند ، يختص كل عسكر بجهة ويقوده سيد من الإخوة ، ويختص العرب بجمعهم منها بجهة . وكان النصارى في أثناء ذلك قد حفروا على عجل خندقاً خارج المدينة ، ووضعوا له زرباً من الحشب ، وذلك ليعوقوا اقتحام الموحدين للمدينة . وفي صباح اليوم التالى خرج الخليفة راكبا فرسه ، ومن حوله الكتائب الحاررة ، وقد اتخذت أهبها للقتال ، وقرعت الطبول ، ونخفت الرايات ، وإلى جانبه أخوه السيد أبو حفص وأشياخ الموحدين ، ولما وصل إلى مقربة من الخندق ، نزل فوق ربوة تشرف عليه ، واستدعى إلى قبته الفقهاء والقضاة المرافقين للحملة ، وهم الحافظ أبو بكر بن الحد ، والفقيه أبو محمد المالى ، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، والقاضى أبو الوليد ابن رشد وأقبل الإخوة والأشياخ ، وبايعه الجميع على الثبات على الجهاد ، وكانت العساكر قد احتل كل فريق مكانه المعين ، وقسمت السهام على الرماة ، وأعدت سائر الآلات ، ثم قرعت الطبول إيداناً ببدء القتال ، فهجم الموحدون على القشتاليين واضطربت بين الفريقين معركة عنيفة ، فارتد القشتاليون حتى لصق السور ، وإلى داخل البيوت ، وأمتنع معظمهم بالقصبة ، ولم يثبتوا إلا في الجهة الغربية ، حيث عجز أبو العلاء بن عزون وقواته عن ردهم . فحاول أن يستنجد بالخليفة ليمده ، فأعرض عنه لاشتغاله في قبته بالمناقشة مع الطلبة . وهدم الموحدون كنيسة المدينة ، وانتزعوا نواقيسها ، وقتل من تصدى من النصارى لاستردادها . ويقول ابن صاحب الصلاة « ودام القتال على انحلال وضعف وملال إلى بعد أذان الظهر ، وارتفع ، وما نفع الجيش الكثير عديده ، ولا النجع ، إذ كان في نحو مائة ألف بين فارس وراجل ، وانصرف أمير المؤمنين ، وانصرف الناس إلى أخبيتهم ، وقد همهم الحال »<sup>(١)</sup> .

وهكذا فشل هجوم الموحدين الأول على وبذة ، وبالرغم مما يبدو من مبالغة ابن صاحب الصلاة في تقدير عدد الجيش المهاجم ، فإنه كان بلا ريب جيشاً وافر

(١) المن بالإمامة لوحة ١٧٨ . وفي المطوع ص ٤٩٧



العدد ، وقد كان من جراء هذا الفشل ، أن اتجه الخليفة إلى حصار المدينة . وفي اليوم التالي اجتمع الأشياخ والقواد ، وأمر الخليفة أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر لزرع الغلات والعلوفات وتحصيل الأقوات ، استعداداً لحصار المدينة ، فخرج الناس لذلك ، وطرق الموحدون المدينة ، ومنعوا عنها ماء الوادي ، وأمر الخليفة بصنع السلام والأبراج الخشبية لمقاتلة النصارى في جوانب المدينة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن رسولا من النصارى جاء في ذلك اليوم يعرض تسليم المدينة بالأمان ، فلم يُلْتَفِت إليه ، فكر مسعاه في مساء نفس اليوم ، فصرف بغير طائل .

وفي صبيحة يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة ( ١٤ يولييه ) هبت ريح صيفية عاصفة ، فأوقعت الاضطراب بمعسكر الموحدين ، واقتلعت الأنحية ، وفاضت الغدور ، وقضى الموحدون ليلتهم في التحوط ضد عصف الريح . وفي صباح اليوم التالي قدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى من مرسية في جند أهل الشرق ، ومعه أبو الحجاج يوسف بن مردنيش وأهل بلنسية والثغر ، فخرج إليه الخليفة وسائر الإخوة والأشياخ والزعماء والطلبة ، واستقبل استقبالاً حافلاً . ثم نزل جند الشرق بالجبل المجاور لوبذة ليعاونوا في تشديد الحصار ، وشهد القشتاليون من مدينتهم مقدم هذا الجيش الحديد في توجس وفرع . وفي مساء نفس اليوم ، هبت ريح عاصفة أخرى أشد من السابقة ، فاقتلعت خيام الموحدين ، ومزقتها ، ثم تلاها مطر وابل ورعد قاصف وبرق . وكانت فرصة طيبة للنصارى أن ارتووا من مياه الأمطار . ويلاحظ ابن صاحب الصلاة أن هذه الرياح قد عصفت ، والأمطار قد هطلت « في أشد ما يكون من الحر » في شهر يونيه العجمي ( وصحته يولييه ) .

وفي صباح اليوم التالي — الاثنين الثالث والعشرين من ذي القعدة — هاجم الموحدون القشتاليين على الأسوار ، ولكنهم ما كادوا يبدأون القتال ، حتى أظلمت السماء ، وقصف الرعد والبرق ، وهطل المطر غزيراً كالسيل ، فأغرقت ثياب الموحدين وعجزوا عن القتال ، وفرغ الناس من تكرار هذه الظاهرة ، واعتبروها سخطاً من الله ، ورغبوا في التوبة إليه ، وارتد الخليفة والناس ، وقد اكتسحت السيول المضربة ، وعند الظهر أشرقت السماء ، وارتفع المطر ، فعاد الموحدون إلى القتال وفق ترتيبهم السابق ، ودام القتال حتى المساء ، ولكن دون جدوى .

وفي ليلة الأربعاء ، قام القشتاليون بهجوم مفاجئ من القطاع الذي يحتله جند هسكورة ، فقررنا منه منهزمين ، فلما علم الخليفة في الصباح ، أمر بضربهم

بالسياط عقاباً لهم . وفي صباح يوم الخميس ، أمرت الفرق المختلفة ، أن يخرج من كل ثلثها للبحث عن الأقوات والعلوفات ، واجتمع أولئك الجند تحت إمرة الحافظ أبي محمد عبد الله بن أبي تفرج بن إبراهيم بن هاشم ، ولكن هذه الحملة فشلت في مهمتها ، فلم تجمع شيئاً من المؤن والعلف ، فارتفعت الأسعار في المعسكر الموحدى ، وكاد أن ينعدم فيه القوت .

هذه الأحداث المكدرية المثبطة للهمم ، حملت الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن عمر ، أن يدعو الناس ، وأن يخطب فيهم ، تارة بالعربية ، وأخرى بالبربرية ، يعظهم ، ويستنهض همهم للجهاد ، وكان مما قاله لهم : « قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا النصارى لحاهدنا الله واجتهدنا ، فلما حضرتم معهم ، قصرتم وجبنتم وحنتم الله عز وجل ، ونكلمتم وما نصحتكم ، ما أنتم بمؤمنين ولا موحدين ، أن تسمعوا النواقيس تضرب ، وتعابنوا الكفر ، ولا تدفعوا المنكر . إن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم في حق الله تعالى من الجهاد على كثرتكم من الأعداء »<sup>(١)</sup>.

وبذلت عندئذ محاولة يائسة لحمل القشتاليين على التسليم بالأمان ، فوجه عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد الغرناطى ، إلى قائد وبذة وهو ولد الكونت مانريكى دى لارا<sup>(٢)</sup> ، يقول له إنهم على استعداد لتحقيق رغبته في تسليم المدينة بالأمان ، وكرر هذا المسعى مرتين في نفس اليوم ، فرفض قائد القشتاليين هذا العرض بجفاء ، لما رآه من اختلال أحوال الموحدين ، ولما علمه من استعداد ألفونسو الثامن لإنجاده بحشوده . ولما وقف الخليفة على ذلك استدعى سائر الأسياف من الموحدين والعرب إلى خيمته — القبة الحمراء — للبحث فيما يجب عمله ، وفي نفس الليلة — ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذى القعدة — أمر بحرق البرج المصنوع لقتال النصارى وسائر الآلات التى صنعت معه ، وبأن يقوم مقدم الدواب بشحن النواقيس التى أخذت من الكنيسة من وبذة . وفي الصباح ضرب الطبل الكبير إيداناً للناس بالرحيل ، فساد الاضطراب والهرج في المعسكر الموحدى ، فلما رأى القشتاليون ذلك ، وأيقنوا أن الموحدين قد بدأوا في الانسحاب ، خرجوا في قواتهم من الفرسان والرجالة ، ونزلوا إلى الوادى ، وهاجموا الموحدين وأشعلوا النار في البيوت والخيام ، ووصلوا إلى السوق بقرب المحلة ، وقتلوا

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٨٠ وفى المطبوع ص ٥٠١

(٢) ويسميه ابن صاحب الصلاة « ولد مرفو » .



الضعفاء والمرضى ، وتشب القتال بين الجيش المنسحب وبين النصارى ، وأمر الخليفة أن يتوقف سائر الجند حتى ترفع الأخبية ، فلما رفعت وقفت قوة ترد الهاجمين حتى يتم الانسحاب ، وتحرك الجيش المنسحب على قرع الطبول ، يتقدمه الخليفة ، والسيد أبو حفص فى أهل تينمل ، وأشياخ الموحدين مع قبائلهم ، وزعماء الأندلس مع أصحابهم ، والعرب مع قبائلهم ، والنصارى خلال ذلك يهاجمون الجيش المنسحب ، وقد احتشدت فى المؤخرة قوة كبيرة لردهم بقيادة السادة الإخوة ، ومعهم يوسف بن مردنيش وإبراهيم بن همشك وأبو العلاء بن عزون فى عسكر الأندلس . وسار الجيش المنسحب متجهاً نحو كونكة ( قونكة ) ونزل فى فحس به الماء على قيد بضعة أميال من وبذة ولحقت به قوة المؤخرة فى المساء ، بعد أن ردت النصارى وقتلت منهم نحو ستين .

واستمر الجيش المنسحب فى سيره ، وهو يحصد الزروع ، ويجمع الغلات فى طريقه ، حتى وصل إلى كونكة بعد يومين ، فى يوم الثلاثاء أول ذى الحجة . وفى عصر ذلك اليوم ركب الخليفة ومعه إخوته السادة ، ووزيره ابن جامع ، والفقهاء والقضاة ، وسائر الأشراف من الموحدين والعرب ، ودخل المدينة : وكان يرافق هذا الموكب عبد الملك بن صاحب الصلاة راوية هذه الحوادث ، وهو يصف لنا قصبة كونكة ، ومنعتها ، وعلوها الشاهق ، وكيف يصل إليها الماء من بحيرة عظيمة تقع خارج السور ، وعلى قنطرة عظيمة فى جانبها ، وكان إلى جانب المدينة من جهة الحوف خندق عميق قد حفر فى الحجر الصلد ، وفيه أدراج حفرت تحت الأرض ، ينزل منها إلى الوادى لشرب الماء ، وتحريك الرحى التى على الوادى ، وقد غطى بستارة منيعة عليها برج عظيم من بناء الأوائى ، وفى فحس المدينة تقوم الكروم وأشجار الجوز والمراعى الخضراء .

ولما دخل الخليفة مدينة كونكة ، وقصبتها استقبله أهلها كباراً وصغاراً ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال ، وكان النصارى قد حاصروا مدينتهم قبل ذلك ببضعة أشهر ، وبرح بهم الضيق والحرمان ، ولم يتركهم النصارى إلا حينما علموا باقتراب الموحدين ، فلما سلموا على الخليفة سأله عن أحوالهم ، ووعدهم بجميل رعايته ، وأمر بأن تكتب أسماء سائر أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال ، فكان عددهم جميعاً سبعمائة ، فأمر للفارس منهم باثنى عشر مثقالاً ، وللرجال ثمانية مثاقيل ، وللمرأة أربعة وللطفل أربعة ، وأعطاهم سبعين



بقرة لم يكن في محلته سواها ، وزودهم بكثير من الرماح والقسى والسهم ،  
والسلاح ، وأمر بأن يمدّهم سائر الجند بالقمح والشعير صدقة لهم ، وتنافس  
الأكابر والأشياخ في تزويدهم بمختلف الأعطية والصلوات .  
وفي اليوم التالي أمر الخليفة بحصد الزروع ، التي للنصارى في تلك المنطقة  
وسوقها ، واكنهم التقوا بعدد كبير من النصارى على مقربة من قونقة ، وسرت  
الإشاعة بأنهم طلائع جيش ألفونسو الثامن والكونت نونيو دي لارا ، فلما علم  
الخليفة بذلك ، أمر بالإقلاع فوراً من ذلك الموضع ، والسير إلى وادي شُقر ،  
وأمر الناس بالرحيل ، فكان هرج شديد مقرون بالفرع كذلك الذي حدث يوم  
الإقلاع من وبذة ، وعبر الجيش الموحدى نهر شُقر ، ونزل بالجبل المتصل  
بمدينة قونقة لخصائمه ، وسرعان ما وصلت قوات النصارى ، وعسكرت في  
في جبل تونيس ، في الناحية المتعابلة من النهر ، وصار كل من الجيشين تجاه الآخر  
دون أن تتاح لأحدهما فرصة الاشتباك ، وقضى الموحدون ليلتهم على حذر ،  
وفي صباح اليوم التالي ، عقد الخليفة مؤتمراً من الأشياخ واستقر الرأي على  
أن يقاتل الموحدون النصارى في الغد . ولكن العرب اعترضوا « وجبنوا عن  
اللقاء » واحتجوا بضيق ساحة القتال . وانضم أهل الأندلس بقيادة أبي العلاء  
ابن عزون للموحدين في نية القتال ، وفي الغد خرجت قوة منازلة بقيادة أبي العلاء  
واشتبكت مع النصارى في عدة مناوشات لتختبر قوتهم . وفي اليوم التالي تأهب  
الموحدون لخوض المعركة ، وخرج أبو العلاء في بعض قواته ليستطلع أمر العدو ،  
ولكنه عاد مع جنده ، وأعلن أن النصارى أفلحوا عن محلتهم منصرفين إلى بلادهم .  
فعندئذ أمر الخليفة باستئناف الرحيل ، وسار الجيش الموحدى حتى وصل إلى  
جبل « الصومعة » Alminar على بعد عشرة أميال من قونقة ، وقضى به الليل ،  
وفي اليوم التالي استأنف سيره حتى وصل إلى وادي تامطة ، وقد ظهر الإعياء على  
الناس ، وقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ثم وصل إلى وادي برج قبالة  
في طريق مدينة بلنسية ، وقد نفق كثير من الدواب ، وبرح الجوع بالناس ،  
ومات الكثير منهم . وفي اليوم التاسع من ذي الحجة عبر الموحدون الربوة العالية  
المسماة بعقبة الأبالس ، ووصلوا بعد جهد شاق إلى قنطرة « أغريالة »<sup>(١)</sup> وقد  
اشتد الإعياء بالناس من الضعف والجوع ، ونفق كثير من الخيل والبغال والجمال .

( ١ ) وبالإسبانية Puente del Gabriel

وفي ظهر ذلك اليوم ، أمر الخليفة بإخراج البركة لسائر العساكر على قدر تمييزهم ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وخص الراجل الكامل مثقالين ، وذلك ابتداء من حركة الغزو لسنة سابقة .

وفي صبيحة اليوم العاشر من ذي الحجة ، وهو يوم الأضحى ، أمر الخليفة بصلاة العيد في ذلك الموضع ، وألقى خطبة العيد أبو زيد بن عبدون قاضي تلمسان ، وعقب الصلاة ، سلم الإخوة والأشياخ والأكابر على الخليفة ، ووزعت عليهم الأضاحي ، وعند الظهر استؤنف السير مدى خمسة عشر ميلا ، ونزل الموحدون بمرج القبذاق على مقربة من حصن ركنانة ، ووصلوا في اليوم التالي إلى ركنانة ، وقد اشتدت المجاعة بين الناس . وينوه ابن صاحب الصلاة خلال وصفه المستفيض لتلك الرحلة المضنية ، في غير موضع ، بما كان يعانيه الجيش المنسحب من نقص في المؤن ، وغلاء شديد في أسعار القمح والشعير والدقيق . وعند مغادرة ركنانة أخطأ الأدلاء الطريق ، وافترقت العساكر في شعب الجبال ، واشتد بالناس الجوع والآلم والضعف . وسار الخليفة إلى موضع يعرف « بمجمع الأودية » وهو الذي يلتقي فيه نهر شقر ونهر أغربالة ( كبريل ) ولحق به سائر الناس إلى هذا الموضع . ثم استؤنف السير في اليوم التالي ، ونزل الخليفة قريبا من حصن بيتول ، وهو من حصون بلنسية الأمامية . وهنا صدر الأمر بتسريح الحشود من أهل الشرق وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم وسارت إلى بلنسية منهم جموع كبيرة (١) .

ووصلت إلى الخليفة في هذا اليوم دفعة كبيرة من الدقيق والشعير والفواكه بعث بها إليه وإلى بلنسية يوسف بن مردنيش . هذا بينما هرع الناس إلى حصن بنيول يطلبون القوات والعون . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان منهم ، أنهم لم يجدوا شيئا سوى بعض التبن الأخضر ، فقصدوا إلى بلنسية . ويصف ابن صاحب الصلاة بهذه المناسبة ، مدينة بلنسية وجمالها ونضرة رياضها ، بيد أنه يلاحظ أن الضعف كان باديا عليها ، وأن الخوف من الفتنة كان يزاد . وقضى الخليفة في محلته ثلاثة أيام بقرب حصن بنيول ، ثم غادره في قواته فوصل إلى مدينة شاطبة في السابع عشر من ذي الحجة ، وقضى بقصبتها يومين ، وانتهز أشياخ الموحدين هذه الفرصة ، فوعظوا أهل المدينة بالجامع عقب صلاة الجمعة ، وبشروهم بالخير في ظل العهد الجديد .

---

( ١ ) تراجع موانع غزوة وبذة وارتداد الجيش الموحد في الخريطة المنشورة ص ٤٩ .



وغادر الخليفة بعد ذلك شاطبة ، ونزل بحصن بليانة<sup>(١)</sup> على مقربة منها ، ثم سار إلى حصن آصف ، ثم إلى ألس ، ووصل إلى أوريولة في الثالث والعشرين من ذي الحجة ، وغادرها في اليوم التالي ، قاصداً إلى مرسية ، فنزل أولاً بحصن أنوط<sup>(٢)</sup> على مقربة منها ، ثم سار منه إلى المدينة ، فخرج أهل مرسية لاستقباله ، ودخل المدينة والأعلام تخفق والطبول تضرب ، ونزل بقصرها ، وقد احتشد أهل المدينة رجالاً ونساء خاصتهم وعامتهم ، لتحية الخليفة ، والإعراب عن سرورهم بمقدمه ، وكان الخليفة قد طلب إلى هلال بن مردنيش أن يعد الدور اللازمة لنزول الموحدين ، فقام بتحقيق هذه الرغبة ، وأنزل أشياخ الموحدين أكرم منزل ، وقدم هلال إلى الخليفة ما وسع من الهدايا السنية ، وما كان لدى أبيه من الجوارى والسرارى البارعات في الحسن ، فتقبل الخليفة هديته ، وأثابه عنها بالعطايا الجزيلة .

ولم تمض أيام قلائل حتى ضاقت مرسية ، بمن نزل فيها ، ووفد إليها ، من الموحدين وغيرهم ، وارتفعت الأسعار ، وعم الغلاء ، ورغب كثير من الموحدين والعسكر المرتزقة في الرجوع إلى أوطانهم ، فأذن لهم الخليفة ، وارتحل كثير منهم . ولما دخل شهر صفر سنة ٥٦٨ هـ ، صدر الأمر بخروج البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقة ، الذين اشتركوا في هذه الغزوة ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وغيره أربعة مثاقيل ، وخص الراجل مثقالين ، وغيره مثقال ونصف ، وتسلم كل شيخ بركة قبيلته ، وافترق معظم الناس .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لينظم شئون مملكة الشرق القديمة ، فأمر بإصلاح معقل مرسية ، وتحصيناتها ، وندب مختلف الولاة لجهاتها وحصونها ، وجمع هلال بن مردنيش وإخوته وعمهم أبا الحجاج يوسف في مجلسه ، وأبدي لهم منتهى العطف والرعاية ، وأنهم يكونون من جملة الموحدين والأهل ، وأمرهم بالنظر في الارتحال معه ، وأقر أبا الحجاج يوسف بن مردنيش على ولاية بلنسية وأقطارها ، لما ثبت له من حسن إخلاصه وطاعته ، وكذلك أبقى ابن عيسى القائد على ما كان بيده من حصن جنجاله وأراضيه ، وأبقى غيره من قادة الحصون والثغور ممن ثبت إخلاصهم وصلاتهم .

وفي أول شهر ربيع الأول غادر الخليفة مرسية عائداً إلى إشبيلية ، وعرج

---

(١) هو بالإسبانية Villena .

(٢) هو بالإسبانية Monctagudo ، وقد بقيت أطلاله إلى اليوم .



فى طريقه على مدينة غرناطة ، وترك بها أخاه السيد أبا سعيد والياً لها ، ووصل إلى إشبيلية فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٨ هـ (نوفمبر ١١٧٢ م) . ومعه الإخوة وفى مقدمتهم السيد أبو حفص ، وخاصته من أشياخ الموحدين وأكابر الدولة ، فاستقبله أهل إشبيلية وعلى رأسهم الحافظ أبو بكر بن الجند ، استقبالا حافلا ، وقدم معه بنو مردنيش فى الأهل والولد ، وفقاً لما أمر ، فأنزلوا فى قصر ابن عباد ، والدور المتصلة به ، واشترى لهم الخليفة ما لزم لسكناهم وسكنى أتباعهم من الدور ، وعين منهم غانم بن مردنيش لرياسة جماعة من الجند الأندلسيين ، وأصحاب أبيه وأهل الثغور والأجناد إشبيلية ، لتكون منهم قوة تضطلع بالغزو وحماية الأقطار من العدو وغيث البدو ، ونظم هلالا والكبار من إخوته فى جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، يحضرون مجلسه العالى ، ويشتركون فى مباشرة الأمور ، وإبداء الرأى تقريباً لهم وتشريعاً وتأييماً ، وكان غانم يخرج فى قواته مع الموحدين إلى غزو أراضى قشتالة ، وقد ظهر فيها بعد بشجاعته وكفايته . وكان مثلاً طيباً للغزاة من الأجناد والعرب .

\* \* \*

والآن وقد انتهينا من استعراض مراحل هذه الغزوة الأندلسية الأولى للخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستوعبنا تفاصيلها ، وفقاً لرواية مؤرخها المرافق لها ، والى سجلها منذ بدايتها إلى نهايتها ، يوماً بعد يوم ، نحاول أن نستخلص منها ما يمكن أن تدلى به من الحقائق والعبر .

وأول ما تكشف عنه حوادث هذه الغزوة التى لم يطل أمدّها أكثر من شهرين ما تجلّى تحت أسوار مدينة وبدة من عجز الجيوش الموحدية وتفككها . ويبدو هذا العجز فى أسطح صوره متى ذكرنا أن الجيش الموحدى الذى تصدى لحصار وبدة ، كان يضم على الأقل عشرين ألفاً من الفرسان النظامية ، منهم عشرة آلاف من الموحدين وعشرة آلاف من العرب ، الذين عبروا مع الخليفة الموحدى إلى الأندلس حسباً أسلفنا فى موضعه . وهذا غير المتطوعة وأجناد الأندلس ، وهؤلاء يمكن تقديرهم أيضاً بعدة آلاف . فكيف يعجز هذا الجيش الكبير عن اقتحام مدينة صغيرة غير ممتنعة مثل وبدة ، خصوصاً وقد كانت تضطلع بالدفاع عنها حامية محلية صغيرة من القشتاليين ؟ إن مثل هذا العجز المطبق يكشف أولاً وقبل كل شىء عن عجز القيادة الموحدية ، ذلك أنه لم تكن بين أولئك الإخوة والأشياخ

الدين يلتفتون حول الخليفة الموحدى، ويدبرون دفة الغزوة، هيئة قيادة مقتدرة، بل لم يكن بينهم قادة أكفاء بالمعنى الصحيح، وكان مجلس القيادة يتخذ في معظم الأحيان صورة اجتماع عائلي، تغلب فيه الآراء الفطيرة، والقرارات المرتجاة، وبدلاً من أن نرى الخليفة يخرج من قبته ليقود جنده بنفسه، أو ليحثهم على التفاني في القتال، نراه في اللحظة الحرجة التي هزم فيها أهل الأندلس، وأجلوا عن مواقعهم، يجلس داخل قبته مع الطلبة الموحدين ليناقشهم في بعض المسائل الفقهية. ويجدر بنا ونحن نتحدث في هذا الموطن عن عجز القيادة الموحدية أن نعود قليلاً إلى الوراء، لنذكر ما كانت عليه القيادة المرابطية في شبه الجزيرة من المقدرة والكفاية، وما كان يمتاز به القادة المرابطون من البراعة والدربة العسكرية العالية، وهي التي مكنتهم من أن يحرزوا بجيوشهم القليلة العدد، انتصاراتهم الباهرة في مواقع مثل إقليش وإفراغة.

هذا ومن جهة أخرى فقد كشفت غزوة وبدة، عما كان يسود الجيوش الموحدية من التفكك، وانعدام التماسك بين مختلف العناصر التي تتكون منها. وقد كان العرب الذين يرافقون الجيش الموحدى يحملون أكبر قسط من تبعه هذا التفكك، فقد رأيناهم يفضنون بتعاونهم، ويحجمون عن القتال في الساعات الحرجة، وكان هذا الإحجام من جانب العرب يشل حركة الجيش الموحدى، وينال من قدرته وقواه المعنوية. أضف إلى ذلك ما كشفتته هذه الحملة من سوء تنظيم تموين الجيش الموحدى، وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوات والعلوفات، وما كان يصيب الجند من جراء ذلك من الضيق والحرمان وانهيار القوى المعنوية<sup>(١)</sup>

في الوقت الذي نزل فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بمرسية، ليستريح من وعناء حملته المنكودة على وبدة، كانت تحدث في الجانب الآخر من شبه الجزيرة في غربي الأندلس، حوادث هامة، مؤسفة في نفس الوقت. وكان ملك البرتغال مذقت في عهده نكبته في معركة بطليوس في شعبان سنة ٥٦٤ (١١٦٩ م) قد لزم السكنة حيناً، وهو يرقب الحوادث والفرص، فلما غادرت الجيوش الموحدية قواعدها في إشبيلية في غزوتها إلى وبدة، شعر بأن الفرصة قد سنحت

---

(١) تستغرق يوميات ابن صاحب الصلاة عن غزوة وبدة من كتاب «المن بالإمامة» نحو ستة عشرة صفحة كبيرة من لوحة ١٧٣ إلى لوحة ١٨٩ ب. وفي المطبوع ص ٤٨٧ - ٥٠٢



للعمل ، وكان يطمح بعد فشله في افتتاح بطليوس ، إلى الاستيلاء على مدينة باجة الحصينة ، أهم قواهد ولاية الغرب في تلك المنطقة ، وكانت باجة ، مذ أقبل عن ولايتها سيدراى بن وزير ، وبسط الموحدون سيادتهم على قواعد ولاية الغرب ، قد أسندت ولايتها إلى بعض الحفاظ الموحدين ، فتولاها عمر بن تيمصلت التينمللى مدى حين ، ولكنه لم يفلح في تهدة ما ثار بها من الفتن بين أعيانها وبين الدهماء ، فعزل عنها ، وولى عليها طالب بربرى من الحفاظ يسمى عمر بن سحنون ، وكان عاجزاً ، يغلب عليه الطيش ، فاتصل به الدهماء والسفلة ، فقر بهم وأدناهم ، وأذكى بذلك حفيظة الخاصة ، واشتد التقاطع بين الناس ، واستوزر ابن سحنون أيضاً رجلاً بدوياً من سفلة باجة ، فاضطهد الناس ، واجترأ على سفك الدماء ، وأخذ أموال الناس بالباطل ، وضربهم بالسياط ، وعاونوه في طغيانه وعسفه قاضى البلدة عمر بن زرقاج ، وكان مغرضاً ظلوماً ، واستبد ابن سحنون بأمره ، وغلب رأى السفلة والفجار في كل شيء ، وقتل بعض الأعيان والفقهاء ظلماً وعدواناً ، واشتدت الفتنة بالمدينة ، ووصلت أخبارها إلى إشبيلية .

كانت هذه حال مدينة باجة في أواخر سنة ٥٦٧ هـ ( صيف سنة ١١٧٢ م ) حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يسير في جيوشه إلى غزوة وبدة ، ولم تكن هذه الأحوال بخافية على النصارى ، وهم يمتاؤون يابرة وقصر أبى دانس القريبتين من باجة . وكان من الواضح أن مدينة هذه حالها لا يمكن أن تثبت أمام العدو المغير . ومن ثم فقد أعد ألفونسو هنريكز عدته لافتح باجة ، وسار إليها ومعه قائده ومعاونيه جيرالدو سمبافور في قواته . وكان من سوء الطالع أن الحراسة بأبراج المدينة كانت مهملة ، وكان بعض هذه الأبراج دون سمار ( حراس ) يلازمونها بالليل ، لأن الوالى ابن سحنون كان يحبس رواتبهم ولا يدفعها ، وكان برج القصبة المسمى « برج الحمام » قد ترك على هذا النحو دون سامر . ففي ليلة مستهل المحرم سنة ٥٦٨ هـ ( ٢٣ أغسطس سنة ١١٧٢ م ) نفذ النصارى ضربتهم . وكانت ليلة مظلمة على النحو الذى كان يختاره جيرالدو سمبافور لانزال ضرباته . فوصل النصارى إلى السور زحفاً على أيديهم وأرجلهم ، ووضعوا السلام على برج القصبة دون أن يشعر بهم أحد من السُمَّار ، ثم صاحوا صيحتهم المأثورة ، وما كاد الوالى عمر بن سحنون وأهل المدينة يستيقظون من سباتهم حتى كان النصارى قد ملكوا برج القصبة ، ثم احتلوا القصبة في الحال . وساد الذعر في المدينة ،



وتللى الوالى من السور وفر إلى ميرتلة ، وماكاد يسفر الصبح حتى احتل  
النصارى المدينة ، وأخذ الناس يفرون من أبوابها ، وهم يُقتلون ويأسرون من كل  
جانب ، وقتل وأسر جماعة من أعيانها ، واستولى النصارى على مقادير عظيمة  
من المال والمتاع .

ولكن النصارى لم يَمَكُونُوا طويلا بياجة . ذلك أن ملك البرتغال رأى من ضخامة  
المدينة ما يجعل الدفاع عنها مهمة شاقة ، ومن ثم فقد هدم أسوارها ، وأحرق  
ربوعها ، ثم غادرها بعد أن احتلها نحو خمسة أشهر ، وتركها قاعاً صفصفاً وذلك  
فى أول يناير سنة ١١٧٣ ، وقد أخذ معه كثيراً من أهلها الأسرى . وقد أنقذ معظم  
هؤلاء فيما بعد بالقداء ، وهاجر كثير منهم بعد خراب مدينتهم إلى مراکش<sup>(١)</sup> .

ولم يتحرك الموحدون لسقوط باجة على هذا النحو ، وشغل الخليفة أبو يعقوب  
منذ وصوله إلى إشبيلية بالعدل على استكمال بناء المسجد الجامع ، وكذلك باستكمال  
بناء القصور والبساتين التى بدئ بإنشائها خارج باب جهور حسباً تقدم فى موضعه .  
وكذلك باستقبال وفود أهل إفريقيا . بيد أنه لم يمتس على ذلك أشهر قلائل ، حتى  
اضطر الموحدون إلى خوض غمار حرب جديدة جاءت تلك المرة من ناحية قشتالة .

فى أوائل شهر شعبان سنة ٥٦٨ هـ ( مارس ١١٧٣ م ) خرجت من مدينة  
آبله حملة قشتالية بقيادة حاكمها الكونت خمينو ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية  
بالقومس « سان منوس » وأحياناً بشانشوا وتصفه بالأحدب عظيم النصارى بآبله —  
وقد كان بالفعل أحدباً — وتسميه أحياناً « بأبى بردعة » إذ كان لعاهته يركب على  
بردعة وثيرة من الحرير مسرجة بالذهب مرصعة بأصناف الجواهر<sup>(٢)</sup> . وكان  
الكونت خمينو قد قام قبل ذلك بعدة غارات مخربة فى ربوع الأندلس ، ووصل

---

( ١ ) نقلنا هذه الرواية المفصلة عن غزو البرتغاليين لباجة عن ابن عذارى ( البيان المغرب —  
القسم الثالث ص ١٠٠ — ١٠٣ ) . وقد سبق أن أشرنا فى موضعه إلى الرواية الموجزة التى يقدمها  
إلينا ابن صاحب الصلاة عن ذلك الحادث وهو ينب وقوعه إلى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٧ هـ ( ديسمبر  
سنة ١١٦٢ م ) أعنى إلى ما قبل التاريخ الذى يقدمه إلينا ابن عذارى بعشرة أعوام . ( كتاب المن بالإمامة  
لوحه ١١٨ ب ) . ولم يذكر لنا صاحب البيان المغرب مصدره . ولكن يبدو من أسلوب روايته أنها  
ربما نقلت عن ابن صاحب الصلاة من السفر الثالث من كتابه وهو لم يصل إلينا . وفى هذه الحالة  
تكون رواية ابن صاحب الصلاة الأولى من قبيل اللبس والخلط .

( ٢ ) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحه ١٩٠ ب ، وروض القرطاس ص ١٣٩  
والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٨ .

في بعض غاراته إلى طريف والجزيرة الخضراء ، وأصاب المسلمين من عدوانه وعيئه بلاء كثير . فخرج بقواته من آبله واخترق قلب الأندلس جنوباً ، حتى عبر نهر الوادي الكبير ، من المخاضة الواقعة بين حصن بلمة وحصن الجرف ، وانحدر إلى أحواز إستجة ، ثم اتجه صوب قرطبة ، وعاث في واديها ، وخرب الزروع واستاق من الماشية نحو خمسين ألفاً ومن البقر نحو مائتين . وأسر من المسلمين نيفاً ومائة وخمسين رجلاً ، ثم سار بغنائه وأسراه غرباً صوب مخاضة بليارش على مقربة من بلدة القصير . وكان الخليفة في تلك الأثناء قد أمر بالتأهب لمحاربة القشتاليين ، وقمع غارتهم ، فخرج من إشبيلية في الثالث عشر من شهر شعبان ( ٥٦٨ هـ ) جيش موحدى بقيادة السيد أبي زكريا يحيى ابن الخليفة ، ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل ، وعدة من الحفاظ والأشياخ وقوة مختارة من الفرسان والرجال العرب بقيادة أشياخهم ، وعبر هذا الجيش الموحدى نهر الوادي الكبير على عجل ، وسار صوب قرطبة ، فوصلها في السادس عشر من شعبان ، وكان القشتاليون قد وصلوا عندئذ إلى بلدة القصر . واجتمع أقطاب الموحدين بالشيخ أبي حفص عمر ، واستقر الرأي على مطاردة القشتاليين وقتالهم أينما كانوا ، ولو في أراضي قشتالة ذاتها ، وانضم الشيخ أبو حفص بقواته إلى الجيش الموحدى ، واستعد بالميرة والعلوفات ، وخرج الموحدون في أثر النصارى ، تتقدمهم قوة من الطلائع بقيادة الحافظ أبي عمران موسى بن حمو الصنهاجى صاحب يابرة ، لتخبرهم تبعاً عن تحركات النصارى ، وكان القشتاليون قد توقفوا في سهل متسع يعرف بفحص « كركوى » على مقربة من قلعة رباح . فأدرك الموحدون أنهم يريدون اللقاء في هذا المكان ، فاستعدوا للمعركة في عزم وثقة ، ولكنهم ما كادوا يقتربون من السهل ، حتى عجل النصارى بالمسير ، ولكنهم لما أيقنوا بأنه لا مفر من القتال ، لحأوا إلى جبل وعرف في نهاية السهل . فاندفع الموحدون وراءهم إلى أعلى الجبل ، واشتبكوا معهم في معركة حامية . وكان الكونت خمينو ، يراقب المعركة من خيمته في أعلى الجبل ، ويحث جنوده على التفانى في القتال ، ولكن ما كاد ينتصف النهار ، حتى رجحت كفة الموحدين ، ومزقت صفوف القشتاليين ، وكثر القتل فيهم ، ووصل الموحدون إلى خيمة الكونت خمينو ، وقتلوه واحتزوا رأسه ، ولم يفلت من القتل من النصارى سوى نحو مائتين ، فروا في مختلف الأنحاء . وفي هذه المعركة معظم أهل آبله ، واستولى المسلمون على عتاد



النصارى ، وأسلاهم وخیولهم ، واستنفدوا الأسرى المسلمين ، واستردوا سائر الغنائم والماشية والدواب ، وأعيدت بأمر الخليفة إلى أصحابها . وجمعت رؤوس النصارى ، وحملت إلى الشيخ أبي حفص وابني الخليفة « وميزت » رأس الكونت خمينو ، وأرسلت إلى الخليفة بإشيلية ، عن يد يحيى ابن الوزير أبي العلاء بن جامع فوصل إليها في ظرف يومين بعد رحلة مسرعة شاقة ، ووصف للخليفة تفاصيل الواقعة المظفرة ، وفي الحال قرعت الطبول إيذاناً بالنصر ، وأقبل الناس للتهنئة . وفي يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ، وهو ثالث يوم بعد الواقعة ، وصل الشيخ أبو حفص وصحبه إلى إشيلية ، واجتمع بالخليفة وأخيه السيد أبي حفص ، بقصره بالقصبة ، واصطف الموحدون من الأشياخ والطلبة والفقهاء والكتاب والخطباء ، وأدخل المهثون وفق مراتبهم . وخطب الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر أولاً باللغة البربرية ، ثم بالعربية ، وخطب من بعده الحافظ أبو بكر بن الحد ، فالقاضي أبو موسى عيسى بن عمران ، فالفقيه أبو محمد الماتى . ثم أنشد الشعراء تهنيتهم ومدائحهم ، ووزعت عليهم الصلوات ، وكان يوماً حافلاً<sup>(١)</sup> .

وشجع هذا النصر الذى تلا فشل حملة وبذة الموحدين على الاضطلاع بغارات جديدة فى أراضى النصارى . فجهزت حملة موحدية قوامها أربعة آلاف فارس ، وقوة من أجناد الأندلس والعرب ، بقيادة أبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله تيجيت وعبد الله بن إسحق بن جامع ، ومعها مقادير عظيمة من الميرة والعتاد برسم مدينة بطليوس تحملها قافلة من ثلاثة آلاف دابة ، وغادرت هذه الحملة إشيلية ، إلى بطليوس ، وبعد أن سامت أحمال الميرة إلى واليها أبي غالب بن أبي الحسين ، سارت نحو الشمال الشرقى حتى وصلت إلى أحواز مدينة طليبرة ، الواقعة على نهر التاجه غرب طليطلة ، فعاثت فى بسائطها ، وقتلت وأسرت كثيراً من النصارى ، واستولت على أكثر من ثلاثين ألفاً من الغنم والدواب ، وعادت سالمة إلى إشيلية . ثم خرجت من بعدها حملة أخرى ، وسارت إلى أراضى طليطلة ، وعاثت فيها واستولت على كثير من الغنائم . وأدرك النصارى أن موجة الغزو الموحدى قد تشتد ، وقد تتخذ صورة مزعجة ، فجنحوا إلى المسالمة ، وطلب المهادنة . وكان أول من سعى منهم إلى الصلح ، الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة ، ثم تلاه

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٩١ إلى ١٩٤ ب وفى الموضوع ص ٢١٨ -



ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، فبعث رسله إلى الخليفة ، وحذا ألفونسو هنريكيث ملك البرتغال حذو ملك قشتالة فبعث رسله في طلب المهادنة والصلح . واستمرت المفاوضات نحو شهرين ، وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملوك النصاري ، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥٦٨ هـ ( يولييه سنة ١١٧٣ م ) . وكان مما حمل الخليفة على إثثار الصلح والمهادنة رغبته في التفرغ لأعمال الإنشاء ، وتعمير البلاد التي خربت أو أقفرت من جرأء العدوان والغزو ، مثل باجة وغيرها<sup>(١)</sup>.

وكان من أثر عقد المهادنة بين الخليفة وبين ملك البرتغال ، أن شعر حليفه وقائده السابق جيرالدو سمبافور أو جراندقة الجليقي ، أنه فقد مكانته ، وأغلقت في وجهه فرص المغامرة ، والعمل المثمر ضد الموحدين ، ولم يجد أمامه خيراً من الدخول في خدمة الخليفة ، فسار في صحبه ، وهم ثلاثمائة وخمسون جندياً ، إلى إشبيلية ( سنة ٥٦٨ هـ - ١١٧٤ م ) واتمس قبوله « عبداً وخدمياً » للخليفة ، فقبل الخليفة التماسه ، ووصله بالإحسان والإكرام ، واستمر الأمر على ذلك بضعة أشهر ، ولكن ألفونسو هنريكيث ، الذي لم يرقه تصرف قائده السابق لبث يرسل إليه سرّاً ، أن يتحيل في الارتداد والعود ، فضبطت بعض هذه المراسلات وظهر منها موقف جيرالدو المريب ، فقبض عليه وعلى أصحابه ، وأرسلوا إلى سجلماسة ، واعتقلوا هنالك تحت رقابة شديدة . ثم حاول جيرالدو الفرار من معتقله ليجوز إلى البحر ، فقبض عليه ، وقتل واحتز رأسه ، وانتهى بذلك وفي رواية أخرى أن جيرالدو لبث في خدمة الخليفة حتى غادر الخليفة إشبيلية إلى المغرب في شعبان سنة ٥٧١ هـ ( مارس ١١٧٦ م ) ، فسار في ركابه ، وعينه الخليفة للخدمة في « السوس » وهنالك اتصل جيرالدو بالملكاتبه سرّاً بملكه السابق ، وعرض عليه أن يجهز أسطولا لفتح هذه الناحية ، وبذلك تمتلك البرتغال بعض مراكز على ساحل المغرب ، فضبط الموحدون بعض هذه الرسائل<sup>(٢)</sup> ، وأصدر الخليفة أوامره سرّاً إلى عامله بدرعة موسى بن عبد الصمد بأن يقسم جيرالدو

---

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٩٥ أ وب وفي الموضوع ص ٢٥٢ - ٥٢٧ . وهنا ينتهي السفر الثاني من كتاب المن بالإمامة ، وهو الذي وصل إلينا من مؤلف ابن صاحب الصلاة ، ولم يصلنا شيء من السفر الثالث الذي يبدأ بحوادث سنة ٥٦٩ هـ .

(٢) أخبار المهدي بن تومرت ص ١٢٧ ، ويقول لنا البيهقي إن مصرع جيرالدو كان في سنة ٥٦٥ هـ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٣ . وراجع H. Miranda : Imperio

وأصحابه على القبائل ، ثم يقتل جبر اللو لما ثبت من خيانتة ، وبعث بجبر اللو إلى درعة فسار إليها مع أصحابه ، وهناك نفذت فيهم أوامر الخليفة . وكانت أهم الحوادث في العامين التاليين ، قبيل عودة الخليفة إلى المغرب ، تتلخص في اهتمام الخليفة بتعمير قواعد الغرب ، وفي تجديد الحرب مع ملك ليون . وقد بدأ الخليفة أعمال التعمير ، بإصلاح حصن القلعة الواقع على مقربة من جنوب شرق إشبيلية على النهر المتفرع من الوادي الكبير<sup>(١)</sup> ، وكان قد بدأ حصنها الشرقى ، وقد تهدم منذ أيام الفتنة الكبرى ، وبقي خراباً حتى ذلك الوقت ، فأمر الخليفة بإصلاحه وبنائه ليعود إلى الاضطلاع بمهمته الدفاعية القديمة ، وكان ذلك في صفر سنة ٥٦٩ هـ .

وفي العام التالي كانت حركة تعمير مدينة باجة ، التي خربها وهدمها ألفونسو هنريكينز قبل إخلائها . ففي شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، استقبل الخليفة وفدًا من أعيان أهل باجة السابقين ، ووعدهم بتعمير مدينتهم لكي يعودوا إلى سكناها ، ويسكنها معهم الموحدون ، وعين لولايتهم الحافظ أبا بكر بن وزير ، ثم سار أهل باجة إلى مدينتهم الخربة ، وكانوا يومئذ نحو مائتي شخص من مختلف الأعمار ، ونزلوا بقصبتها ، وبنوا بابها ، وأصلحوا ما تيسر من أطلالها . ثم لحق بهم عمر ابن تيمصلت والى شلب في نحو خمسمائة رجل من الفعلة والبنائين ، ومعهم أقواتهم وأدواتهم ، وأخذوا في بناء أسوارها فكملت في نحو شهر ، وجاءت للعمل والبناء حشود أخرى ، واستمر العمل في التعمير بهمة . وحدث خلال ذلك أن استبد والى باجة أبو بكر بن وزير وأساء السيرة ، ونشب بينه وبين أهلها خلاف شديد وفتنة ، فأمر الخليفة بعزله ، وتعيين عمر بن تيمصلت والياً مكانه ، فأحسن السيرة ، وأقبل الناس على البناء والتعمير ، وإنشاء الرباع والحدائق ، وراجت الأحوال ، وانتظم التعامل ، واستعادت باجة سابق عمارتها ورونقها<sup>(٢)</sup> .

وفي أثناء ذلك كانت الحرب قد نشبت بين الموحدين وبين فرناندو الثاني ملك ليون المسمى «بالبوج» ، وكان فرناندو قد عقد الصلح والتحالف مع الخليفة الموحدى منذ سنة ٥٦٤ هـ ( ١١٦٩ م ) ، وعاونه الموحدون في حربه ضد آل لارا زعماء قشتالة ، وأبدى هو ، حينما حاصر البرتغاليون مدينة بطليوس ، وكادوا يستولون

( ١ ) وهو بالإسبانية Alcalá de Guadaira ويسمى كذلك قلعة جابر .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٧ .



عليها ، صدق ولاته ، فحارب إلى جانب الموحدين ، وعاون على صد البر تغاليين وهزيمتهم . وامتنع هو عن مهاجمة بطليوس مرة أخرى ، حينما نبه الموحدون إلى الحلف المعقود ، وأبدى تمسكه بعهوده ، وهاداه الخليفة وأثنى عليه ، واستمر محافظاً على صداقته وولائه حتى أواخر سنة ٥٦٩ هـ ( ١١٧٤ م ) ، وعندئذ ، ودون أية أسباب ظاهرة ، قام فجأة بغزو أراضي الأندلس وعاث فيها ، فاستشاط الخليفة غضباً ، وأمر بمهاجمته في عقر داره ، فجهزت حملة كبيرة من الموحدين والعرب ، وخرجت من إشبيلية بقيادة السيد أبي حفص أخى الخليفة فى الثالث من صفر سنة ٥٧٠ ( ٣ سبتمبر ١١٧٤ م ) ، وسارت توأ إلى مدينة رديجو قاعدة ملك ليون ، وهى التى تسميها الرواية الإسلامية بمدينة « السبطاط » (١) ، ومعه الزعيم القشتالي فرناندو رديجيس صهر ملك ليون حليف الموحدين القديم فى صحبه ، وهاجم الموحدون مدينة رديجو ، فلم ينالوا منها مأرباً ، ولكنهم استولوا على حصنى القنطرة وناضوش من أماكن الحدود . ولما عاد السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، احتفل بهذا النصر الجزئى ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالعادة (٢) . ولزم فرناندو ملك ليون السكينة مدى حين . بيد أنها كانت هدنة قصيرة ، وكانت كما سنرى مقدمة لسلسلة من الغزوات الجديدة ، التى قام بها الملوك النصارى فى أراضي المسلمين .

\* \* \*

وفى أوائل سنة ٥٧٠ هـ ، عقد الخليفة أبو يعقوب زواجه بالحسنة زائدة ابنة زعيم الشرق الراحل محمد بن سعد بن مردنيش ، وتم زفافها إليه فى اليوم الخامس من ربيع الأول فى مهرجان فخم . وكان صداقها الرسمى خمسين ديناراً ، ولكن الخليفة وجه إليها ألف دينار من الذهب العين « تأنيساً » . ولما وصلت إليه بإشبيلية مع أهلها وحشمها ، وهب لها كل ما كان أهدها إليه إخوتها عند فتح مرسية . وكان زواجاً موفقاً ، حظيت فيه العروس الأندلسية ، واستأثرت بحب الخليفة وإعجابه ، حتى كان يضرب المثل بهذا الحب للحسنة ذات العينين الزرقاوين . وحظى قومها آل مردنيش لدى الخليفة ، وأحرزوا فى كنفه رفيع

( ١ ) سبق أن أوضحنا أن مدينة السبطاط ، هى تحريف لكلمة cibdad القشتالية ومعناها المدينة .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٠٤ .



المناصب والرتب ، حسباً أشرنا إليه في موضعه . وكان من غرائب القدر أن يحظى عقب الثائر الذي شغل الموحدين ودوخ جيوشهم زهاء ربع قرن ، على هذا النحو في بلاط عدوه القديم المتغلب عليه<sup>(١)</sup> .

وكانت إقامة الخليفة بالأندلس تدنو عندئذ من نهايتها ، وقد استطالت هذه الإقامة زهاء خمسة أعوام ، منذ مقدم الخليفة في رمضان سنة ٥٦٦ هـ . ولم تدون الرواية في الأشهر الأخيرة من إقامته شيئاً من الحوادث ، سوى ما أمر به من نكبة محمد بن عيسى المشرف على إشبيلية وذلك في شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧١ هـ ، وكانت قد لحقت به ريب كثيرة من تبديد الأموال واختلاسها ، فقبض عليه ، وتولى بلول بن جلداس محاسبته ، واستصفاء أمواله ، ثم عذب وضرب حتى مات ، وألقيت جثته في الوادي الكبير .

ولم يمض على ذلك سوى أسبوعين أو ثلاثة ، حتى اتخذت الأهبة لسفر الخليفة ، وذلك بعد أن عقد لأخيه أبي علي الحسين على ولاية إشبيلية ، ولأخيه أبي الحسن علي ، على ولاية قرطبة . وغادر أبو يعقوب إشبيلية في ركة في يوم الخميس الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٥٧١ هـ ( ٢٨ فبراير سنة ١١٧٦ م ) ومعه الخواص والأشياخ والعمال والكتاب ، ومن زعماء الأندلس بنو مردنيش ، وإبراهيم بن همشك وغيرهم . وكان خروجه من مرسى طلياطة على نهر الوادي الكبير ، فجاز النهر ثم البحر إلى طنجة ، وأقام بها أياماً ، ثم غادرها إلى مراكش ، فوصلها في منتصف شهر رمضان من نفس العام ( ٢٨ مارس سنة ١١٧٦ م ) .

---

( ١ ) البيان المنرب - القسم الثالث ص ١٠٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٧١ ،

وروض القرطاس ص ١٣٩ . وكذلك : A. P. Ibars : Valencia Arabe, T.I. p. 552

## الفصل الرابع

### أحداث الأندلس والمغرب

عصف الوباء بالمغرب والأندلس . ثورة عشاير صنهاجة وإخادها . غزو النصارى لمدينة قونقة وحصارها . غزو الموحدين لأراضى طليطلة وطلبيرة . استمرار النصارى فى حصار قونقة . سقوطها فى أيديهم . غزو ملك ليون لفحص إشبيلية . إغارة البرتغاليين على باجة وطريانة . خروج جند باجة للغزو وهزيمتهم . فرار أهل باجة وإخلاؤها . رواية أخرى عن غزوة البرتغاليين . نكبة الخليفة لبنى جامع وغيرهم . وفاة بعض السادة والأعلام . غزو السفن الموحدية لغر أشبونة ، ورد السفن البرتغالية . غزوة ثانية للسفن الموحدية . نفاذ الموحدين إلى الداخل وهزيمتهم . معركة بحرية بين الموحدين والبرتغاليين . هزيمة البرتغاليين ومقتل قائدهم . غزو الموحدين لأراضى يابرة . غزو البرتغاليين لأراضى إشبيلية . غزوهم للشرف ومدينة شلوقه ، وحسن القصر . غزو القشتاليين لأراضى قرطبة . توغلبهم فى وادى إشبيلية وجنوب الأندلس . استيلاؤهم على حصن شنتفيلة . غزو الموحدين لحصن شنتفيلة وحصاره . صموده وإقلاعه عنهم عنه . إخلاء النصارى له . غزو الموحدين لأحوار طليبرة . اشتباكهم مع القشتاليين . هزيمة القشتاليين وفرارهم . القائد ابن وانودين والخليفة . وفاة السيد أبى حفص . ثورة بنى الرند بقفصة . سير الخليفة لقمع الثورة . تواطؤ ابن المنتصر مع بنى الرند ونكبته . محاصرة قفصة وضربها . تسليم ابن الرند . حث الخليفة العرب على الجهاد . استجابة العرب لدعوته . سياسة الموحدين فى اصطناع العرب . دأبهم فى التقلب وعدم الولاء . عقد الصلح بين ملك صقلية والخليفة . رسالة الفتح . عود الخليفة إلى مراكش . سير الخليفة إلى تينمل . زيارته لقبر المهدي وقبر أبيه . قصيدة فى مناقب المهدي وصحة دعوته . توسيع مدينة مراكش . ثورة عرب سليم وهزيمتهم للسيد أبى الحسين وأسرهم . حوادث أخرى .

لم تمض أسابيع قلائل على استقرار الخليفة أبى يعقوب بمراكش ، حتى ظهر الوباء بالمدينة فى أول شهر ذى القعدة ( سنة ٥٧١ هـ ) واشتد حتى بلغت ضحاياه كل يوم نحو مائتى شخص ، ولما ضاق الجامع بالصلاة على الموتى ، أمر الخليفة أن يُصلى عليهم بسائر المساجد . وأصيب معظم السادات بالوباء ، ومات منهم أربعة من إخوة الخليفة هم السيد أبو عمران ، ثم أخوه السيد أبو سعيد ، فأخوهما السيد أبو عبد الله ، ثم أخوهم السيد أبو زكريا وإلى يجاية . ومات من أشياخ الموحدين أبو سعيد بن الحسين ، وكان الشيخ أبو حفص عمر المهناتى قادماً من قرطبة قاصداً إلى مراكش ، فأصيب بالوباء وتوفى بالطريق ، ودفن برباط الفتح ، وفقدت الدولة الموحدية بوفاته ركناً من أهم أركانها ، وبناء من أعظم بناتها ، وقائداً من

أعظم قوادها . ومرض الخليفة ، وأخوه السيد أبو حفص ، وأشرفا على الهلاك ، ولكن تداركتهما العناية حتى شفا . ويروى ابن صاحب الصلاة عن السيد أبي علي الحسين ولد الخليفة ، أنه كان يموت كل يوم في القصور الملكية ثلاثون شخصاً حتى فنى معظم رجال الحاشية والخدم والعبيد . واستمر هذا الوباء مدى عام ، وساد الروح حاضرة مراکش ، حتى أنه لم يكن يدخلها أو يخرج منها أحد ، وكان كل من خرج منها فاراً ، أدركه الوباء في الطريق . ولم يكن عصف الوباء قاصراً على أهل المغرب ، بل تعدى أثره إلى الأندلس ، ولكن فيما يبدو بصورة مخففة . وكان من أعيان المتوفين به بالمغرب والأندلس غير من تقدم ذكرهم ، القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف قاضي مراکش ، وكان من أعلام عصره زهداً وعدلاً وأدباً ، والكاتب أبو الحكم بن هرودس المالقي ، وأخوه أبو الحسن وكان من جلة الطلبة ، والكاتب أبو الحسن علي بن زيد الإشبيلي ، ومشرف غرناطة أبو عمرو بن أفلاح ، وجملة كبيرة من أعيان الطلبة والموحدين في مختلف القواعد<sup>(١)</sup> .

وما كادت تنقش غمة الوباء حتى وقعت ثورة محلية بين عشائر صنهاجة القبلية ، وذلك في أواخر سنة ٥٧٢ هـ (أوائل ١١٧٧ م) ، فخرج الخليفة إلى غزوها في الرابع من شهر ذي القعدة ، وترك أخاه السيد أبا حفص بمراكش والياً عليها ، فلما وصل إلى رباط هسكورة في منطقة الأطلس ، جنوب شرقي مراکش ، أمر ببناء محلة للعسكر ، وقدم عليهم ابنه السيد أبا يوسف يعقوب ، وعاد إلى مراکش في الحادي والعشرين من ذي القعدة ، ولم تلبث العشائر الثائرة أن أذعنّت وعادت إلى الطاعة ، وانصرف جميع الأجناد<sup>(٢)</sup> .

وفي تلك الآونة بدأت حوادث الأندلس تتخذ وجهة خطيرة سواء في الشرق أو الغرب . وكان التهادن والصلح قد عقد بين الخليفة وبين الكونت نونيو دي لارا صاحب طليطلة ، وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وألفونسو هنريكينز ملك البرتغال ، في سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) أثناء إقامته بإشبيلية . ولكن الخليفة ما كاد يغادر شبه الجزيرة عائداً إلى المغرب في شعبان سنة ٥٧١ هـ ، حتى عول النصاري على نقض الهدنة ، واستئناف الغزو . ففي العام التالي ، أعنى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) وهي السنة التي عصف فيها الوباء بمراكش ، خرج ألفونسو الثامن

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٩ و ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٠ .



ملك قشتالة ، ووصيه السابق الكونت نونيو دى لارا ، لغزو الأراضى الإسلامية ، واتجها بقواتهما صوب مدينة قونقة ( كونكة ) وهى تقع فوق ربوة عالية صعبة المنال عند ملتقى نهري شقر ووقر ، فى شمال شرقى الأندلس ، وهى من حصون ولاية بلنسية الأمامية المنيعه ، وضربا حولها الحصار ( يناير سنة ١١٧٧ م ) . ويقول ماريانا ، إن قونقة كانت من المدن التى أنشأها المسلمون فى تلك المنطقة ، لأنه لم يرد ذكرها فى سير الرومان والقوط ، وإن ملك أراجون كان مشتركاً فى تلك الحملة ، وقد تحالف مع ملك قشتالة على محاربة المسلمين ، كما اشترك فى الحملة إلى جانب الملكين عدد كبير من القادة ومشاهير الفرسان مثل بيدرو أسقف برغش ، وسانشو صاحب آبله ، وريموندو صاحب بلازنسيا ، وغيرهم<sup>(١)</sup>. فبعث أهل قونقة إلى الخليفة بمراكش فى طلب الغوث والنجدة ، فبعث الخليفة إلى ولديه السيد أبى على الحسين وإلى إشبيلية ، والسيد أبى الحسن على وإلى قرطبة ، بأن يتحركا لغزو جهات طليطلة وطلبيرة ، وذلك حتى يرغم القشتاليون على رفع الحصار عن قونقة . فخرج السيد أبو الحسن فى عسكر قرطبة فى اليوم السادس من شوال ( أبريل ١١٧٧ ) ، وأغار على أراضى طليطلة وأثنى فيها ، وارتد بغنائمه سالماً إلى قرطبة. وخرج السيد أبو على الحسين بعسكر إشبيلية فى أربعة آلاف فارس ، وأربعة آلاف راجل ، وسار شمالاً صوب طلبيرة ، وعاث فى أحوازها ، واستولى على كثير من السبى والغنائم ، وعبر نهر تاجه فى قارب كان قد حمله معه من إشبيلية على أكتاف الرجال ، وفاء لنذر نذره .

على أن هذه الحركة التى نظمها الموحدون لغزو أراضى قشتالة ، لم تؤت ثمرتها فى إنجاد قونقة ، فقد لبث القشتاليون على حصارها ، ولم تصدهم قسوة الشتاء ، ولا مناعة المدينة المحصورة ، ولا ضخامة حاميتها ، عن المضى فى إرهابها والتضييق عليها . والظاهر من أقوال الرواية النصرانية أن الموحدين قد أرسلوا صوب قونقة بعض أمداد مباشرة لإنجادها ، لكن هذه الأمداد عاقتها عن الوصول إلى المدينة المحصورة ، قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة . وطال حصار قونقة زهاء تسعة أشهر من أواخر يناير سنة ١١٧٧ حتى أواخر سبتمبر ، وفى النهاية اضطرت المدينة المسلمة ، بعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع ، وبعد أن برح بها الجوع والحرمان إلى التسليم إلى ملك قشتالة ، وذلك فى اليوم

الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١١٧٧ م . وفى الحال حول مسجدھا الجامع إلى كنيسة ، جرباً على القاعدة المأثورة ، ثم جعلت قوتقة بعد ذلك مركزاً لأسقفية . وكان سقوط قوتقة ثغرة خطيرة فى خط الدفاع الشمالى الشرقى الأندلسى ، وكان تقصير الموحدین أوقصورهم فى إنجادهما وإنقاذها ، ينطوى على خطأ عسكرى خطير ، يكشف عن ناحية أخرى من ضعف وسائل الدفاع الموحدى عن شبه الجزيرة الأندلسية (١) .

وانتهز فرناندو الثانى ملك لیون ( البیوج ) نفس الفرصة فى الإغارة على الأراضى الإسلامية ، فخرج فى نفس العام بقواته ، «وخرجنا فحصد إشبيلية ، ووصل فى سیره حتى أحواز مدينتى أركش وشریش جنوبى إشبيلية . فخرج إليه الموحدون من إشبيلية ، فلحقوا بقوة من النصارى من أهالى منطقة طلبيرة ، وكانت قد خرجت فيما يبدو للانتقام مما أنزله الموحدون بأراضیهم ، فأحرق بها الموحدون وأبادوها ، واستنقذوا ما كان معها من الغنائم والماشية ، وأسروا منها ثمانین ، أخذوا إلى إشبيلية ، وهناك ضربت أعناقهم أمام الخليفة والأشیاخ (٢) .

ووقع فى غربى الأندلس عدوان مماثل ، وحذا ألفونسو هنرىکیز ملك البرتغال حذو زميله ملكى قشتاله ولیون ، وقد اعتزم مثلهما أن ينقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة الموحدى . وكانت مدينة باجة هدفه مرة أخرى ، وخصوصاً بعد أن عمرت واستردت رونقها ورخاءها . فسار إليها فى سنة ٥٧٣ هـ ( ١١٧٧ م ) ، وانتسف زروعها ، ونازلها أياماً حتى كاد أن يتغلب علیها . ثم تركها وسار بقواته ، نحو الجنوب الشرقى قاصداً وادى إشبيلية ، ووصل فى زحفه إلى ضاحيتها الغربية طريانة ، فدخلها وأثنى فيها ، وعاث فى أحواز إشبيلية ، ثم عاد إلى باجة مرة أخرى فوجدھا خراباً وقد أقفرت من أهلها . وكان أهل باجة فى تلك الأثناء قد أصابتهم محنة أخرى ، اضطرتهم إلى الفرار من مدينتهم . وذلك أن والیها عمر بن تیمصلى خرج منها بجندھا وفرسانها ، وانضم إليه على بن وزیر حاکم حصن شربة فى قواته ، وأغار على فحص أبى دانس ، ونشب القتال بينهم وبين النصارى . وفى أثناء ذلك قدمت قوة من نصارى شترین فجأة ، وانضموا

---

( ١ ) راجع الیان المغرب - القسم الثالث ص ١١٠ و ١١١ . وراجع أيضاً :

M. Lafuente : Historia General de Espana T. III p. 326 & 327

( ٢ ) الیان المغرب - القسم الثالث ص ١١١ .



إلى إخوانهم في مقاتلة الموحدين ، فانهزم ابن تيمصلت وزميله ابن وزير وأسرا مع جملة من الفرسان والرجالة ، وقتل الباقون ، ووصل الخبر إلى أهل باجة فبادروا بالفرار من مدينتهم في الأهل والولد ، وقصدوا إلى مدينة ميرتلة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٥٧٤ ( يولييه ١١٧٨ م ) وحمل ابن تيمصلت وزميله ابن وزير إلى قلمرية ، وعذب ابن تيمصلت ثم أعدم ، وافتدى ابن وزير بأربعة آلاف دينار<sup>(١)</sup> .

وتقدم إلينا الرواية البرتغالية قصة هذه الغزوة في صورة أخرى ، فتقول إن الذي قام بغزو وادي إشبيلية هو سانشو ولد ألفونسو هنريكيذ وولى عهده ، وذلك في سنة ١١٧٨ م ( ٥٧٤ هـ ) وأنه بعد أن هزم الموحدين في ظاهر طريانة ، سار لغزو مدينة لبلة ، ولكنه علم عندئذ أن جيشاً موحدياً قد سار لمحاصرة باجة ، فبعث قوة مختارة من فرسانه ردت الهاجمين ، ثم لحق بها بباقي قواته ، وهزم الموحدين مرة أخرى ، وبقيت باجة في حوزة البرتغاليين<sup>(٢)</sup> .

وعلى أثر هذه الأحداث المتوالية ، استدعى الخليفة أبو يعقوب أخويه السيدين أبا علي الحسين وإلى إشبيلية ، وأبا الحسن علي وإلى قرطبة إلى حضرة مراکش ، فغادرا إشبيلية في اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ٥٧٣ هـ ( ٢٧ فبراير ١١٧٨ م ) ، ومعهما أبو علي بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين بإشبيلية ، فلما وصلا إلى الحضرة بحث معهما الخليفة طويلاً في شئون الأندلس ، وفيما يجب عمله لمحاربة النصاري ، والدفاع عن أراضي المسلمين . ثم أمرا بالانصراف إلى شبه الجزيرة ، فوصلا إليها في المحرم سنة ٥٧٤ هـ ( يونيه ١١٧٨ م ) .

وفي نفس هذا العام ، أعنى سنة ٥٧٣ هـ ، قام الخليفة أبو يعقوب بحركة تطهير شاملة بين وزرائه وعماله ، فنكب وزيره أبا العلاء إدريس بن إبراهيم ابن جامع وبنيه ، فقبض عليهم ، واستصنى أموالهم ، ونفاهم إلى مدينة ماردة بالأندلس ، فأقاموا بها في فقر وضعة نحو ستة أعوام ، حتى توفي الخليفة أبو يعقوب ، فعفا عنهم ولده الخليفة أبو يوسف . وكان بنو جامع يتولون وزارة الخليفة الموحدي ، منذ بداية حكمه ، أي منذ خمسة عشر عاماً ، وعميدهم إدريس ابن جامع ، هو ولد إبراهيم بن جامع من أصحاب أهل الدار ، أعنى من قرابة

( ١ ) البيان المغرب ص ١٠٧ و ١٠٨ .

( ٢ ) H. Miranda : Imperio Almohde, T. I. p. 277 & 278



المهدي ابن تومرت ، فلما سما شأنهم ، وتمكن سلطانهم ، طغوا كالعادة وبغوا ، فنكبهم أبو يعقوب ليتخلص من نيرهم . ونكب الخليفة عدة آخرين من العمال ، وأعدم بعضهم ، وكان من هؤلاء أبو عبد الله بن المعلم مشرف إشبيلية ، وابن فاخر مشرف سجلماسة ، وأبو الحسن علي بن حنون ، وغيرهم<sup>(١)</sup> .

وفي سنة ٥٧٤ هـ ، بعث الخليفة ابني السيد أبي الحسن والي قرطبة ، إلى الأندلس ، فولى أبو زيد نظر غرناطة ، وولى أبو محمد عبد الله نظر مالقة . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفي أخو الخليفة السيد أبو علي الحسين والي إشبيلية ، ثم أخوه السيد أبو العباس بن عبد المؤمن ، وكان والياً لمدينة سجلماسة . وتوفي من أعلام الدولة الموحدية اثنان كانا من أركان حكومة الخليفة أبي يعقوب ومجلسه ، وهما أبو علي بن عزون عميد زعماء الأندلس ، والفقيه أبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضرم براكش ، وكان من أقطاب الفقه والحديث والأدب ، وحظي لدى الخليفة عبد المؤمن ، ثم ولده الخليفة أبي يعقوب ، وعلت مكانته في الدولة الموحدية . وكان يتولى رفع المسائل للخليفة ، وتوصيل الرسائل الواردة ، وقراءة كتب الفتح ، ويتقدم للخطابة والصلاة بأمر المؤمنين ، ويرفع إليه أشعار الشعراء في المناسبات المختلفة ، ويلازم ركب الخليفة في الحركة والغزو ، وكان له أدب بارع ، وشعر جيد ولاسيا في الزهد<sup>(٢)</sup> .

وفي العام التالي أعنى سنة ٥٧٥ هـ ( ١١٧٩ م ) اشتد عدوان البرتغاليين في البر والبحر . وكان ألفونسو هنريكي즈 قد نقض الهدنة التي عقدها مع الخليفة ، وقام البرتغاليون بغزو وادي إشبيلية ، ثم مدينة باجة ، حسباً قدمنا ، ثم تفاقم عدوانهم تباعاً ، فعندئذ قرر الخليفة أن يقوم الموحدون بمجهود لرد هذا العدوان ، فبعث أسطوله الم رابط بسبته تحت إمرة غانم بن مردنيش لغزو شواطئ البرتغال ، فسار غانم صوب أشبونة ، وهاجم ثغرها ، واستولى على سفينتين من سفن البرتغاليين ، وعاد بأسطوله إلى سبته . فعندئذ سارت حملة بحرية برتغالية إلى الجنوب وهاجمت شواطئ ولاية الغرب الجنوبية ، واستولت على جزيرة شلطيش ، الواقعة قبالة

( ١ ) المراكشي في المعجب ص ١٣٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

ولبة في مصب نهر أوديل ، وأسرت كثيراً من سكانها المسلمين فبقوا في الأسر حتى اقتداهم الخليفة أبو يعقوب<sup>(١)</sup> .

ورأى الخليفة أن ينتقم لهذا الاعتداء ، وأمر لانشغاله بغزوة ققصة التي نتحدث عنها بعد ، بأن يقوم أسطوله بغزو البرتغال مرة أخرى ، فخرج غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء ، في حملة بحرية ، سارت إلى مياه البرتغال الشمالية ، وورست عند سان مارتين دي بورتو شمالي أشبونة ، ونفذ المسلمون إلى الداخل ، وحاولوا مهاجمة « بورتو دي موس » . التي تقع على مقربة من الشاطئ ، ولكن حاكمها البرتغالي الأميرال روينو استنفر لمعاونته أهالي مدينة شترين ، وألكانينا التي تقع في شمالها ، فهرعوا لإنجاده ، ودبر البرتغاليون كميناً للمسلمين في جبال منديجا ، وانقضوا عليهم ، فزقت صفوفهم ، وأسر غانم وأخوه أبو العلاء ، وجملة من أكابر الموحدين ، واحتوى البرتغاليون على أسلابهم ومتاعهم ، واستولوا على السفن الموحدية وأسروا من كان فيها ، وساروا بها إلى أشبونة . ووقعت هذه الموقعة في منتصف شهر المحرم سنة ٥٧٦ هـ ( ١١ يونيو سنة ١١٨٠ م ) . وكتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة يلتمس الغوث ، فعهد الخليفة إلى أخيه هلال ابن مردنيش بالنظر في فداء أخيه ، فجمع المال اللازم لذلك ، وبعث به إلى إشبيلية ، فحمل إلى النصارى ، وأفرج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه<sup>(٢)</sup> ، ولكن سري أن ابن عذارى ، وهو صاحب هذه الرواية ، يقدم لنا رواية أخرى عن افتداء غانم وأصحابه .

وحاول البرتغاليون أن يتبعوا نصرهم ، بنصر أكبر ، فحشدوا أسطولا ضخماً سار بجذاء شاطئ ولاية الغرب بقيادة الأميرال روينو ، وكان مقصد البرتغاليين أن يقوموا بضربة لميناء سبتة مركز الأسطول الموحدي . ولكن قائد أسطول سبتة عبد الله بن جامع ، وهو الذي تولى قيادته منذ أسر غانم ، خرج منها بأسطوله ، وخرج في نفس الوقت أسطول إشبيلية بقيادة أبي العباس الصقلي ، واجتمعت الأساطيل الموحدية بشفرة قادس ، ثم سارت منه مجتمعة صوب شاطئ البرتغال الجنوبي ، ثم انعطفت لتسير شمالاً بجذاء شاطئ ولاية الغرب ، وكان الأسطول البرتغالي قد بدأ عندئذ سيره نحو الجنوب ، فالتق الفريقان قبالة رأس إسبكل

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٣ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٦ .

جنوبي أشبونة ، وكان من غرائب القدر أن وقع هذا اللقاء في الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٧٧ هـ ( أواخر مايو سنة ١١٨١ ) أعنى لعام بالضبط من اليوم الذي وقعت فيه موقعة « بورتودي موسى » وعلى مقربة من المكان رسا فيه الأسطول الموحدى بقيادة غانم بن مردنيش ، فنشبت بين الأسطولين معركة بحرية عنيفة هزم فيها البرتغاليون شر هزيمة ، وقتل قائدهم الأميرال روينو ، واستولى المسلمون على عشرين سفينة من سفنهم ، وأسروا نحو ألف وثمانمائة أسير ، وغنموا غنائم وفيرة من العتاد والسلاح ، وكان نصراً موحدياً باهراً . وبأمر القائدان الظافران ابن جامع والصقلي ، فسارا إلى الحضرة في الأسرى ، والغنائم وقدماهما إلى أمير المؤمنين ، فأمر بتخصيص بعض الأسرى لافتياء غانم بن مردنيش وأصحابه ، وأمر بإعدام الباقيين<sup>(١)</sup> .

وقام القشتاليون في نفس الوقت ببعض الغارات في أراضي الأندلس من ناحية طليطلة ، وأثخنوا فيها كالعادة تخريباً وسيئاً ، بيد أن المعركة الرئيسية ، كانت تضطرم بين الموحدين والبرتغاليين . ذلك أنه في نفس الوقت الذي وقعت فيه المعارك البحرية السالفة الذكر بين الفريقين ، كان الموحدون يغزون أراضي البرتغال الداخلية ، ففي فاتحة سنة ٥٧٧ هـ ، خرجت من إشبيلية ، حملة موحدية قوية بقيادة أبي عبد الله محمد بن وانودين الهنتاني ، وسارت نحو الشمال الغربي صوب مدينة يابرة وعاثوا في أحوازها ، وانتسفوا الزروع والكروم والثمار والأشجار ، واستاقوا كثيراً من الماشية ، وامتنع البرتغاليون داخل المدينة ، والمسلمون يشخنون في كل ناحية من نواحيها . وفي ذات يوم خرج البرتغاليون من يابرة فجأة ، واشتبكوا مع الموحدين في معركة حامية ، فهزموا شر هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، ولبأ الباقيون إلى المدينة . فأقام عليها ابن وانودين يومين ثم انصرف عنها ، وهاجم في طريق عودته حصناً آخر للنصارى واستولى عليه ، وسبي رجاله ونساءه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، مثقلاً بالغنائم والأسرى ، وذلك في أواخر شهر محرم سنة ٥٧٧ هـ ( يونيه سنة ١١٨١ م )<sup>(٢)</sup> .

ولم يمض قليل على ذلك حتى خرجت حملة برتغالية ، من أهل شنترين ، وعبرت نهر وادي يانه ، وسارت حتى فحص الشرف من أحواز إشبيلية ، فخرج

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ و ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ .



إلهم عسكر إشبيلية ، ونشب بينهما قتال عنيف قتل فيه من النصاري مائة وسبعون ، ولكن البرتغاليين كانوا قد رتبوا كميناً ، فخرج كمينهم واشترك في المعركة ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة . وأغار القشتاليون في نفس الوقت على مدينة إستجة وعلى أراضي قرطبة . ثم انصرفوا دون قتال ولا مقاومة ، وأحيط الخليفة بمراكش علماً بما حدث (١) .

وفي العام التالي ، أعنى سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢ م ) تفاقم عدوان البرتغاليين على أراضي الأندلس . فخرجت حماة برتغالية قوية قوامها فرسان شترين ، وأشبونة ، وعبرت نهر وادي يانه ، واجتاحت الشرف جنوبي إشبيلية ، حتى وصلت إلى مدينة شلوقة (٢) ، على مصب الوادي الكبير ، فنازلتها في ألف فارس وألف راجل ، واقتحمها ، وقتلت من كان بها من المسلمين ، واحتوت على كثير من الأسرى والغنائم ، ثم استولت على حصن القصر (٣) وغيره من حصون تلك الناحية ، وعادت من طريق لبلة ، دون أن يقف في سبيلها أحد . وتفاقم في نفس الوقت عدوان القشتاليين ، فخرج ألفونسو الثامن أو أذفنش الصغير كما تسميه الرواية الإسلامية في قواته ، وسار أولاً صوب قرطبة ، وعسكر في ظاهرها ، وذلك في الرابع من شهر صفر ، ثم بعث طوائف من قواته سارت نحو مالقة ، ورندة ، وغرناطة ، فساد الاضطراب في تلك القواعد الأندلسية ، وارتفعت الأسعار ، واشتد الضيق . واجتمع مجهود الموحدين الدفاعي حول إشبيلية ، والتحوط لحمايتها ، فوجه قائدها أبو عبد الله بن وانودين قواته إلى الأنحاء المجاورة ، وتعزيزها ، ووجه بعض عسكره إلى دفع القشتاليين عن فحص قرمونة ، كل ذلك والقشتاليون يشخون في الأراضي الواقعة بين قرطبة وإشبيلية ، دون أن يردهم أحد ، ثم سار ألفونسو الثامن إلى منازلة مدينة إستجة ، وكاد يتغلب عليها ، ولكن واليها أبا محمد بن طاع الله الكومي استطاع أن يصمد فيها . فغادرها ألفونسو صوب إشبيلية ، وهو يعيث في تلك المنطقة فساداً وتدميراً . وفي خلال ذلك تغلب القشتاليون الزاحفون نحو الجنوب على بعض حصون رندة ، وأسروا فيه ألفاً وأربعمائة من المسلمين ، وانتسفوا الزروع

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) وهي بالإسبانية سان لوكار Sanlúcar la Mayor

(٣) وهو بالإسبانية Aznalcázar

في أراضي رندة والجزيرة ، واستولوا على مقادير عظيمة من الغنائم من الماشية وغيرها .

وكان استيلاء ألفونسو الثامن على حصن شنتفيلة<sup>(١)</sup> أخطر ما حققه القشتاليون في تلك الغزوة . وكان من أمنع حصون المنطقة الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، يقع فوق ربوة عالية وله أسوار منيعة ، فاستولى عليه القشتاليون في السابع عشر من صفر ( ٢٢ يونيو ١١٨٢ م ) وأسروا من كان به من المسلمين ، وعددهم سبعمائة بين رجال ونساء ، فافتداهم أهل إشبيلية بمبلغ ألفين وسبعمائة وخمسة ومبشرين ديناراً ، جمعت من الناس بالمسجد الجامع . وعنى ألفونسو الثامن بتقوية الحصن ، ومضاعفة أهباته الدفاعية ، ووضع به حامية من خمسمائة فارس وألف راجل ، وأسكنه بالنصارى وشحنه بالأقوات والعدد والسلاح ، ويروى أنه قال ، حين الاستيلاء على هذا الحصن : « الآن آخذ قرطبة وإشبيلية » . وأقلع ملك قشتالة بعد ذلك في قواته عائداً إلى بلاده ، وذلك في الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٧٨ هـ ( ١٧ يولييه ١١٨٢ م ) بعد أن قضى في غزوته خمسة وأربعين يوماً<sup>(٢)</sup> .

وأدرك الموحدون خطورة فقد حصن شنتفيلة ، فقرروا العمل على استرداده . واستدعى السيد أبو إسحق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، الحشود من سائر أنحاء الأندلس برسم الجهاد ، وخرج في قواته في غرة ربيع الآخر سنة ٥٧٨ هـ . وحدث في نفس الوقت أن خرجت حامية شنتفيلة النصرانية لتغير على بعض الأنحاء المجاورة ، فخرج إليها المسلمون من قرمونة وغيرها ، وقتلوها وهزموها ، وقتلوا منها سبعين فارساً ، وأسروا جملة أخرى ، وأساقوا الأسرى إلى السيد أبي إسحاق فأمر بإعدامهم في الطريق . وشجع هذا النصر المحلى ، الموحدون على منازلة حصن شنتفيلة ، فطوقوه من كل ناحية ، وأحكموا حصاره ، وقطعوا عنه المؤن والعلوفات ، واستمر الحصار ستة وأربعين يوماً حتى مات أكثر الجند والدواب ، وفي خلال ذلك خرج ألفونسو الثامن في قواته من طليطلة قاصداً لإنجاد الحصن المحصور ، ووصل نبأ مقدمه إلى الموحدون في السادس من جمادى الأولى ، فرفعوا الحصار ، وانصرفوا عائدين إلى إشبيلية . وعلى أثر ذلك وصل ألفونسو الثامن إلى الحصن فلم يجده سوى خمسين فارساً ، هم البقية من حاميته الخمسمائة ، ومن

(١) وهو بالإسبانية Santafile

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٩



الرجالة ستمائة من ألف ، وقد هلك الباقون من أثر الحصار والمرض والوباء ، فأمر بإخلاء الحصن ، والرحيل عنه وذلك في الخامس عشر من جمادى الثانية ( ١٦ سبتمبر سنة ١١٨٢ م )<sup>(١)</sup> .

وما كادت تنهى غزوة شنتقيلة ، حتى قرر الموحدون استئناف الغزو ، واهتم أبو عبد الله بن وانودين بحشد الجند ، فاجتمع منهم بإشبيلية عدد جم ، وفي الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ ( ٩ سبتمبر ١١٨٢ م ) ، غادر إشبيلية في عسكره ومعه أشياخ الموحدين وأشياخ الأندلس ، وسلك طريقاً منعرجة حتى وصل إلى حصن بته ، وهناك ميز عسكره ، وعقد الأشياخ مجلساً للشورى ، تقرر فيه السير إلى غزو مدينة طليبرة الواقعة غربى طليطلة على نهر التاجه ، وهى أولى مدن الحدود القشتالية . ومن ثم فقد اتجه الجيش الموحدى نحو الشمال ، وعبر جبال الشارات ( سيرا مورينا ) ثم نهر وادى يانه ، وكان الجو قائماً ملبداً بالضباب ، فسار حتى أضحى على مقربة من طليبرة دون أن يفتن النصارى إلى مقدمه ، وهناك التقى الموحدون بسرية من النصارى فى نحو عشرين فارساً ، فأخذوا بهم وأسروهم جميعاً إلا دليلهم فإنه نجح فى الفرار . ولما أشرف الموحدون على وادى التاجه ، لم يجدوا أمامهم مغنا ، فعلموا أن الدليل الفار قد أخطر بمقدمهم ، فأسرعوا السير حتى وصلوا إلى ظاهر طليبرة ، وذلك فى منتصف جمادى الآخرة .

وفى اليوم التالى احتل الموحدون ربوة مرتفعة تقع على نحو ميل من المدينة ، وضربوا شملتهم بها . ودهش النصارى لإقدام المسلمين على دخول بلادهم على هذا النحو ، بعد أن مضت مدة طويلة لم يجرؤ أحد منهم على الظهور فى تلك المنطقة ، وفى الحال حشدوا قواتهم واستنجدوا بأهل الحصون المجاورة ، وخرجوا لقتال الموحدين ، وكان الموحدون خلال ذلك قد غادروا الربوة منصرفين ، بعد ما امتلأت أيديهم من الغنائم ، فجد النصارى فى اتباعهم مصممين على قتالهم ، ولما أصبح الموحدون على قيد نحو ثمانية أميال من المدينة ، توقفوا وراء أحد التلال واستعدوا للقاء النصارى ، وابن وانودين يحثهم على الجهاد والتفانى ، إذ هم فى أراضى العدو بعيدين عن بلادهم . ثم نشبت المعركة المرتقبة بين الفريقين فثبت الموحدون ، وحملوا على القشتاليين حملة صادقة ، هزموا على أثرها ،

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .



ومزقت صفوفهم ، وولوا الأدبار ، وقتل منهم حسباً تقول الرواية الإسلامية أكثر من عشرة آلاف بين فارس وراجل ، واستولى المسلمون على عتادهم ، ودوابهم . وعاد الموحدون إلى إشبيلية ظافرين مغتبطين ، وبعث ابن وانودين إلى الخليفة بكتاب الفتح ، فسر به ، ولكنه أبدى غضبه على ولده السيد أبي إسحاق لأنه لم يحضر تلك الغزوة التي نسبت برمتها إلى ابن وانودين ، مع أنه من جملة قواده ، وعاقب كل من تخلف من الأجناد ، وحرّمهم من العطاء .

ومن جهة أخرى فإنه يبدو من رد الخليفة على ابن وانودين ، وقوله في خطابه إليه « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . يبدو من ذلك أن الخليفة قد غص بالانتصارات المتوالية التي أحرزها ابن وانودين ، دون بقية الأشياخ والسادة . وكان أبو عبد الله محمد بن وانودين هذا ، هو ولد أبي يعقوب يوسف ابن وانودين الهنتائي من كبار أهل خمسين ، وقد نشأ في مهاد العلم ، ونظمه الخليفة عبد المؤمن في مجلسه ، وقربه إليه ، ثم قدمه على العسكر وولاه القيادة وصحبه في سائر غزواته في إفريقية . ولما أوفد إلى الأندلس ظهر في محاربة ابن مردنيش ثم في هزيمته لنصارى شترين ، وفي قيادة قافلة الميرة إلى بطليوس ، ثم في رد القشتاليين عن قرمونة ، وأخيراً في غزوة طليبة . ومع ذلك كله فسرعان ما غضب عليه الخليفة لآتفه الأسباب ، وذلك عند مقدمه إلى إشبيلية في العام التالي ، حيث وشى في حقه الوشاة ، فأمر بتخريبه إلى غافق ، على مقربة من قلعة رباح ، فلبث بها حيناً ، ثم نرح إلى تونس واستقر بها<sup>(١)</sup> .

نرجع الآن قليلاً إلى الوراء لنستعرض ما حدث في المغرب في تلك الأعوام القلائل التي اشتد فيها عدوان القشتاليين والبرتغاليين على الأندلس ، والتي شغل فيها الخليفة بالأحداث الداخلية عن تجديد حركة الجهاد .

وكان من أهم الأحداث الداخلية ، في تلك الفترة ، وفاة السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن أخى الخليفة أبي يعقوب ، وكان أبو حفص شقيقه وكبيره ، وأمهما حسباً تقدم حرة هي زينب بنت القاضي موسى بن سليمان الضرير ، من أصحاب خمسين ، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ ( أغسطس

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٢ .

١١٧٤ م) ، وكان أبو حفص ، منذ أيام أبيه الخليفة عبد المؤمن يشغل مكانة ملحوظة في الدولة الموحدية ، وقد تولى في فتوته ولاية تلمسان ، ثم وزر لأبيه بعد مصرع وزيره عبد السلام الكومي . ولما توفي عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ ، بغير سلا ، قام السيد أبو حفص مع الشيخ عمر بن يحيى الهتاني كبير الأشياخ بتنظيم البيعة لأخيه الأصغر أبي يعقوب يوسف ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ثم تولى له في البداية منصب الحجابة على نحو ما كان لأبيه . واضطلع السيد أبو حفص بأعظم قسط في حملة شرق الأندلس ، وفي الأعمال الحربية التي انتهت بتحطيم مملكة الشرق ، وانتهاء ثورة ابن مردنيش ، وكان على العموم يحتل في دولة أخيه الخليفة أبي يعقوب أعظم مكانة ، وفي تدبير الأمور والبت فيها أعظم نصيب .

وفي نفس هذا العام أعني سنة ٥٧٥ هـ وقعت الثورة بمدينة قفصة الواقعة جنوبي القيروان على مشارف الصحراء . وكانت قفصة منذ ضعفت دولة بني باديس الصنهاجيين بإفريقية ، منزل إمارة محلية في ظل بني الرند ، وعميدهم عبد الله ابن محمد بن الرند ، فاستقل بقفصة ، وقوى أمره تبعاً ، ويسط سلطانته على عدة من البلاد المجاورة حتى قسنطينة ، ثم خلفه في الإمارة ولده المعز ، ثم حافده يحيى بن تميم بن المعز . ولما قام عبد المؤمن في سنة ٥٥٤ هـ بغزوته لإفريقية ، استولى على قفصة ، ونقل بني الرند إلى بجاية ، وعين لقفصة والياً موحدياً . وكان والي قفصة الموحدى حينها وقعت الثورة ، عمران بن موسى الصنهاجي ، وكان قد أساء السيرة ، ووقع الاضطراب بالمدينة ، فبعث لقيف من أهلها إلى بجاية في دعوة علي بن عبدالعزيز بن الرند المعروف بالطويل ، فقدم إليهم ، واضطربت الثورة ، وقتل عمران بن موسى ، واستبد ابن الرند بالمدينة ، وكان يشجعه في ثورته ، ويحرض العرب للانضمام إليه قريبه القائد علي بن المنتصر من بجاية<sup>(١)</sup> .

فلما نمت هذه الأنباء إلى الخليفة أبي يعقوب ، اعتزم السير بنفسه إلى إفريقية ، فخرج في قواته من مراکش في الخامس عشر من شوال سنة ٥٧٥ هـ ( مارس سنة ١١٨٠ م ) ، ويروى لنا ابن صاحب الصلاة ، أن البركة الدورية التي كانت تعطى للعسكر في تلك الغزوة كانت تبلغ في كل مرة ألف ألف دينار ، سوى العلوفات والمرافق ، مما يدل على ضخامة الجيش الذي حشد<sup>(٢)</sup> ، واستمر الخليفة

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٦ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .



في سيره وثيداً ، واحتفل في الطريق بعيد الأضحى ، وقدم ولده السيد أبا يوسف يعقوب على مقدمة الجيش ، فسبقه إلى تلمسان . ووصل الخليفة في قواته إلى تلمسان في أوائل سنة ٥٧٦ هـ ، ولما كملت أهبة الجيش وتعبته ، خرج من تلمسان في الثاني عشر من شهر صفر ، متجهاً إلى إفريقية ، فلما وصل إلى بجاية نزل بها . وتحقق لديه أن القائد على بن المنتصر متواطئ مع قريبه الناصر بقفصة ، وأنه يوالى تحريضه على الاستمرار في الثورة ، ويوالى تحريض العرب لتأييده ، وضبطت بمنزله رسائل تؤيد ذلك ، فقبض عليه ، وأحيط بسائر أمواله . ثم سار الخليفة من بجاية ، فلما قرب من قفصة ، بادر أشياخ العرب من رياح إلى المثلول لديه ، وتأكيدهم ولائهم وطاعتهم . وضرب الخليفة الحصار حول قفصة وضربها بالمجانيق ، حتى اضطر على بن الرند إلى الإذعان والتسليم ، أو التوحيد وفقاً لقول البيهقي ، ثم ارتد إلى تونس وفقاً لرواية أخرى ، واحتل الموحدون قفصة وذلك في رمضان سنة ٥٧٦ هـ (فبراير ١١٨١م) وعقد الخليفة بولاية إفريقية والزاب لأخيه السيد علي أبي الحسين ، وبولاية بجاية أو ولاية القيروان على قول آخر لأخيه السيد أبي موسى (١).

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لتجديد مساعيه في استمالة العرب الذين ينزلون بهذه الأنحاء من إفريقية وترغيبهم في الجهاد بالآندلس . وقد شرح لنا هذه المساعي في رسالة الفتح التي وجهها إلى الموحدين بقرطبة . وذلك أنه لما اجتمع لديه أشياخ قبائل رياح وكبرائهم من جميع الأنحاء ، ذكروا بما كان لأسلافهم من فضل سابق في نصرة الدين ، وأنه يجدر بهم أن يحذوا حذو أسلافهم في الاضطلاع بتلك المهمة الجليلة ، وأن خير ما يصنعونه في ذلك هو المساهمة في الجهاد بالآندلس ، وغزو النصراني بها ، سيما وقد تفاقم عدوانهم في الآونة الأخيرة ، وأن أولئك الأشياخ أبدوا أنهم على أتم أهبة للاستجابة إلى هذه الدعوة ، وأن قبائل رياح كلها ، وبطونها وأفخاذها ، أبدوا جميعاً أنهم يقبلونها بقلوب خالصة ، ونيات صافية ، وأنهم أخذوا بالفعل في الحركة والاحتشاد ، كل طائفة صوب الطريق التي تفضلها وتراها أيسر لمجازها ، وتوالت جموعهم حتى امتلأت بها تلك البطاح والسهول . وكان ممن حضر ذلك الجمع الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام ، فلما وقع العزم على الاستجابة ، أخذ في الرحيل بأهله وولده وكل من تبعه من

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، وكتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٥ ، والمعجب للمراكش ص ١٤١ ، و ١٤٢ .



قومه ، وبأدر الجميع بالامثال والرحيل ، مبايعين ربهم على الجهاد في سبيله .  
وينوه الخليفة في رسالته ، بأنه كان من أثر هذه الحركة أنه لم يبق بإفريقية من طوائف  
العرب ، سوى من نزل من قبائل سليم بجبهات طرابلس وما وراءها مشرقاً نحو  
برقة والإسكندرية ، وأن هؤلاء قد خوطبوا أيضاً بما خوطب به زملاؤهم ،  
وكتبوا ، وبذلت لهم أطيب الوعود ، وأنذروا في نفس الوقت ، أملاً في استمالتهم  
واستجلابهم إلى مشاركة إخوانهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى خطة السياسة الموحدية في استمالة القبائل العربية  
النازلة بإفريقية وحشدتها في الجيوش الموحدية ، وهي الخطة التي وضعها الخليفة  
عبدالمؤمن منذ افتتاحه لثغر المهديّة في سنة ٥٥٥ هـ ، وتابعها ولده الخليفة أبويعقوب  
وضاعف اهتمامه بتنفيذها حسبما سبق أن فصلناه . وقد كان للسياسة الموحدية من  
تحقيق هذه الخطة هدف مزدوج أشارت إليه رسالة الفتح المتقدمة الذكر ، وهو  
أولا تخليص إفريقية من طوائف العرب النازلة بها ، وكف أيديهم عنها ، وذلك  
لما كان من استطالهم عليها ، وتخريبهم لربوعها ومدنها ، وثانياً لاستنفارهم إلى  
الجهاد والاستعانة بهم في تدعيم الجيوش الموحدية المرسلّة إلى الغزو بالأندلس .  
وقد استطاع الخليفة أبويعقوب أن يحشد بالفعل منهم حشوداً عظيمة عبرت معه  
إلى الأندلس ، واشتركت مع الجيوش الموحدية في غزوة وبدة وفي محاربة النصارى  
في مختلف الميادين في شبه الجزيرة . ولما أراد أبويعقوب العودة إلى المغرب في  
سنة ٥٧١ هـ ، فرق العرب الباقيين في مختلف القواعد ، فأنزل بعضهم في نواحي  
قرطبة ، وبعضهم في نواحي إشبيلية الجنوبية ، مما يلي مدينة شريش وأعمالها .

بيد أن السياسة الموحدية لم تكن خيراً من هذه الخطة في استمالة العرب وحشدهم  
إلى جانبها ، وذلك لما كانوا يتسمون به من حب التقلب ، ومجانبة الولاء ، والسعي  
إلى اجتناء المغانم المادية بأي الوسائل . وسوف نرى فيما بعد ، كيف انقلبوا إلى  
محاربة الدولة الموحدية ، وغدوا من أخطر خصومها في منطقة إفريقية<sup>(١)</sup> .

وحدث أيضاً أثناء وجود الخليفة بإفريقية ، أن وفدت إليه رسل ملك صقلية ،  
النورمانى ، وهو يومئذ ولیم الطيب ، يطلب الصلح والمهادنة ، وكان ملوك صقلية

---

(١) راجع رسالة الخليفة أبي يعقوب المتضمنة لشرح مساعيه في حشد العرب في كتاب «مجموع  
رسائل موحدية» . الرسالة السادسة والعشرون ص ١٤٩ - ١٥٧ ، وراجع أيضاً كتاب المعجب  
للمراكشي ص ١٢٤ و ١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ .

منذ استرد منهم عبد المؤمن ثغر المهديّة ، وقضى على سلطانهم في شواطئ إفريقية قبل ذلك بعشرين عاما ، يخشون بأس الدولة الموحدية ، ويؤثرون السلم معها . ويقول لنا صاحب المعجب إن ملك صقلية عقد الصلح مع الخليفة على أن يحمل إليه إتاوة سنوية اتفق عليها ، وأنه أرسل إلى الخليفة تحفاً وذهائراً نفيسة منها حجر ياقوت يسمى « الحافر » لاستدارته بمثل حافر الفرس ، وقد وضع في تابوت مصحف عثمان ، الذي كان يبالغ الموحدون في تكريمه<sup>(١)</sup>.

وعلى أثر افتتاح قصّة ارتحل الخليفة إلى تونس ، وكتب من هنالك برسالة الفتح إلى حضرة مراکش ، وإلى الأندلس — إلى إشبيلية وقرطبة — وبعث مع الرسالة بقصيدة طويلة من نظم طيبيه العلامة الفيلسوف أبي بكر بن طفيل ، يشيد فيها بالفتح ، وبالحيش الموحدى ، وقد جاء في أولها :

ولما انقضى الفتح الذى كان يرتجى	أصبح حزب الله أغلب غالب
وساعدنا التوفيق حتى تبينت	مقاصدنا مشروحة بالعواقب
وأنجزنا وعد من الله صادق	كفيل بإبطال الظنون الكواذب
وهبوا كما هب النسيم إذا سرى	ولم يتركوا بالشرق علقه آيب
وأذعن من عليا هلال بن عامر	أبى ولّى الأمر كل مجانب
يغص بهم عرض القيافي وطولها	وقد زحوا الآفاق من كل جانب

ولما وصل كتاب الفتح ، وقصيدة ابن طفيل ، إلى السيد أبي إسحاق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، عم البشر والسرور ، ومثل لديه أشياخ إشبيلية لتهنئة ، وخطب بن يديه الفقيه ابن الجحد ، وأنشد أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة صاحب تاريخ « المن بالإمامة » قصيدة جاء فيها :

خير البشائر صوغت حمل المنى	بقفول خير خليفة وإمام
وافت كما ابتسم الأمان لحائف	وانهل أثر المحل سكب غمام <sup>(٢)</sup>

ثم قفل الخليفة عائداً إلى حضرة مراکش ، فوصل إليها في شهر صفر سنة ٥٧٧ هـ ، وعلى أثر وصوله ، سارت وفود الأندلس إلى العدو لتهنئته ، يتقدمهم ولده السيد أبو إسحاق والى إشبيلية ، وابن وانودين وغيره من أشياخ الموحدين ،

( ١ ) المراكشى في المعجب ص ١٤٢ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٥ .

وقدمت كذلك وفود قرطبة وغرناطة ومرسية لغرض التهئة ، وأقامت هذه الوفود بالحضرة إلى أواخر العام ، ثم انصرفت عائدة إلى بلادها .

وفي خلال ذلك علم الخليفة أن طائفة من أهل جبل السوس الواقع على مقربة من بلاد هرغة وهي قبيلة المهدي ابن تومرت ، قد استولوا لأنفسهم على ما تحصل من معدن الفضة الذي يستخرج من ذلك الجبل ، وذلك بطريق الاغتصاب من عمال المنجم الخاص بذلك ، فخرج الخليفة في بعض عسكره من مراکش في أول صفر سنة ٥٧٨ هـ ، ولما وصل إلى الجبل المذكور ، أمر ببناء حصن عليه ، ووضع به حامية ، ثم سار من هنالك إلى تينملل فزار قبر المهدي وقبر والده ، الخليفة عبد المؤمن ، وكان معه وفد من أهل إشبيلية قدم لزيارته بالحضرة قبل ذلك بتليل ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة وقد كان ضمن هذا الوفد ، إنه زار القبرين بصحبة أبي بكر بن زهر ، وأبي الوليد ابن رشد ، وأن الخليفة زار فضلا عن القبرين الغار الذي في جبل إيجليز حيث كان يتعبد المهدي والمسمى برابطة الغار ، والرابطة الأخرى المسماة رابطة وانسرى ، وكان الناس يأخذون التراب منهما للتبرك ويجعلونه على المرضى . وأمر الخليفة بهذه المناسبة ، أن ينظم الشعراء قصائدهم في رثاء المهدي ورثاء أبيه ، وأن يذكروا مناقبهما ومآثرهما ، وأغدق عليهم صلاته الكثيرة (١) . وكان مما قيل بهذه المناسبة ، في ذكر مناقب المهدي ، وشرح أسطوره ، والإشادة برسالته ، قصيدة نظمها شاعر من أهل الجزائر ، وقد على أبي يعقوب تينملل ، وأنشد قصيدته على قبر المهدي ابن تومرت بمحضر من الخليفة وشيوخ الموحدين ، وإليك بعض ما ورد فيها :

سلام على قبر الإمام المجد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبه في خلقه ثم في اسمه	وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
وعجى علوم الدين بعد مماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن عملاً الدنا	بقسط وعدل في الأنام مخلد
ويفتح الأمصار شرقاً ومغرباً	ويملك عرباً من مغير ومنجد
فن وصفه أقي وأجلى وإنه	علاماته خمس تبين لمهدي
زمان واسم المكان ونسبة	وفعل له في عصمة وتأيد

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ - ١٢٢ .



وتتبعه للنصر طائفة الهدي  
هي الالة المذكور في الذكر أمرها  
بهم يجمع الله الجبابرة الأولى  
ويقطع أيام الجبابرة التي  
فيغزون أعراب الجزيرة عنوة  
ويفتحون الروم فتح غنيمة  
ويغنون للدجال يغزونه ضحاً  
وينزل عيسى فيهم وأميرهم  
يصلي بهم ذاك الأمير صلاتهم  
فيمسح بالكفين منه وجوههم  
وما أن يزال الأمر فيه وفيهم  
فأبلغ أمير المؤمنين تحية  
عليه سلام الله مادر شارق  
فأكرم بهم إخوان ذى الصدق أحمد  
وطائفة المهدي بالحق تهتدي  
يصدون عن حكم من الحق مرشد  
أبادت من الإسلام كل مشيد  
ويعرون منها فارساً وكان قد  
ويعرون منها فارساً وكان قد  
يذيقونه حد الحسام المهند  
إمام فيدعوهم لمحراب مسجد  
بتقديم عيسى المصطفى عن تعبد  
ويخبرهم حقاً بجز مجد  
إلى آخر الدهر الطويل المرمد  
على التأني مني والوداد المؤكد  
وما صدر الوارد عن ورد مورد

وقيل إن منشي هذه القصيدة لم يحضر لإلقائها بنفسه، للكبر وبعد الشقة، وأنه أرسل بها فأنشدت باسمه على قبر الإمام ، وكان نظمه إياها أيام حياة الخليفة عبد المؤمن<sup>(١)</sup>.

وفي العام التالي ، أعنى في سنة ٥٧٩ هـ ، كانت توسعة مدينة مراکش . وكانت العاصمة الموحدية ، قد بدأت تضيق بسكانها الذين هرعوا إلى استيطانها من كل صوب ، وبالرغم مما أقيم بها منذ أيام الخليفة عبد المؤمن ، من الأحياء الكبيرة والدور العديدة الفخمة لسكنى رجال البلاط ، وعلية القوم ، والوافدين إليها من مختلف أنحاء المغرب والأندلس ، فإنها أضحت قاصرة عن أن تستوعب سكانها ، وحركة عمرائها الضخمة . وكان الخليفة قد أمر قبائل هسكورة وصنهاجة أن يتركوا بلادهم ، وأن يأتوا إلى العاصمة بأهلهم لسكنائها ، فلما وصلوا إليها لم يجدوا بها متسعاً لنزولهم ، فشكوا إلى الخليفة أمرهم . فعندئذ رأى الخليفة أنه لا بد من العمل على توسعة المدينة ، وعهد إلى ولده وولى عهده السيد أبي يوسف

(١) راجع المعجب ص ١٠٤ - ١٠٦ حيث يورد هذه القصيدة وقصتها ، وينفرد المراكشي بذلك بين المصادر الموحدية .

يعقوب بتلك المهمة ، فركب في يوم أول ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين لينظروا خير موقع يصلح لتحقيق هذه الرغبة ، فاتفق رأيهم على زيادة المدينة من الجهة القبليّة ، بإنشاء مدينة جديدة متصلة بها من هذه الناحية ، ووافق الخليفة على هذا المشروع ، وقام العبيد والرجال بهدم سور المدينة من جهة باب الشريعة ، ووضعت خطط المدينة الجديدة في يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، واتصل بناء السور حول المواقع الجديدة ، وبناء باب الشريعة أربعين يوماً ، حتى كمل ، وبدأ إنشاء الدور والرباع بسرعة في هذا القطاع الجديد من العاصمة الموحدية<sup>(١)</sup> .

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بإفريقية حادث مكرر . ذلك أن طوائف العرب من بني سليم ثاروا على مقربة من مدينة قابس ، فسار أبو الحسن على ابن الخليفة ووالى تونس لقتالهم ، ودامت الحرب بينهم أياماً ، ثم أمر الفرسان الموحدون من أهل الرايات أن ينتقلوا من موضعهم إلى جبل قريب يسمى جبل كسرى ، فظن أن هذا الانتقال بسبب الهزيمة ، فتركوا عتادهم وفروا منهزمين دون قتال ، فلجأ السيد ومن معه إلى الجبل ، ولكنهم لم يجدوا به ماء ، فلما اشتد بهم العطش كروا على العرب دفعة واحدة ، فهزمهم العرب ، وأخذوا بهم وأسروا السيد وأصحابه . ( جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ ) . ولما علم الخليفة بذلك قرر في الحال غزو بني سليم والانتقام منهم ، ولكن لم تمض بعد ذلك سوى أيام قلائل حتى ورد الخبر بأن السيد وأصحابه قد أطلق سراحهم لقاء ما دفعوا من المال ، وأنهم وصلوا سالمين إلى تونس<sup>(٢)</sup> .

ومن حوادث هذا العام أيضاً نكبة الخليفة لأبي زكريا بن حيون شيخ قبيلة كومية وابنه على الذي كان مشرفاً على تلمسان ، وقبض على أبي زكريا وحوسب مدة ، ثم نفي إلى بطليوس بالأندلس ، وبقي ابنه على في السجن ، حتى خرج الخليفة إلى الغزو ، فأمر بأن يحمل معه مصفداً ، ولكنه استطاع الفرار أثناء السير . ومنها فرار الداعية على بن محمد بن رزين المعروف بالجزيري من مراکش ، وكان على مذهب الخوارج الأزارقة يقول بتكفير جميع المسلمين ، وتبعه قوم من البربر يقرأون عليه مذهبه ، وشاع خبره ، وعندئذ خشي بطش ولاية الأمر . ففر من المدينة واختفى حيناً ، حتى قبض عليه فيما بعد وقتل أيام الخليفة المنتصور .

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٦ ( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٧

## الفصل الخامس

### غزوة شنترين

#### ومصرع الخليفة أبي يعقوب يوسف

استعداد الخليفة للجهاد بالأندلس . ولاية الأندلس وقضاها الجدد . قصة السلاح والعتاد . سير الخليفة إلى رباط الفتح . الاتفاق على توجيه الحملة إلى الأندلس . سير الخليفة إلى مكناسة ، ثم إلى فاس . تعيين السيد أبي حفص لقيادة العرب ، وبعض السادات لقيادة الموحدين . سير الخليفة إلى سبتة . جواز قبائل العرب فقبائل البربر ثم الموحدين إلى شبه الجزيرة . عبور الخليفة ومسيره إلى إشبيلية . أقوال ابن صاحب الصلاة . اختيار مدينة شنترين هدفاً للغزوة المنشودة . حكمة هذا الاختيار وبواعثه . منشآت الخليفة بإشبيلية . خروج الخليفة في قواته إلى بطليوس . تحالف ملكي قشتالة وليون ضد الموحدين . ملك ليون يحاصر قاصرش . الرواية النصرانية عن خطة الموحدين . رفع الحصار عن قاصرش . سير الموحدين إلى شنترين . عدد الجيش الموحدى . شنترين وموقعها . أشبونة هدف الغزوة المرهبة . محاصرة الموحدين لشنترين . اقتحامهم للربض الخارجى . اعتصام النصراني بالقصبة . الممارك بين الموحدين والبرتغاليين . أمر الخليفة بالكف عن القتال . تحول الجيش الموحدى عن موقعه . صدور الأمر بالرحيل . غموض بواعث هذا الأمر . رواية في تعليقه . رواية أخرى في شرح ماحدث في المعسكر الموحدى . شرح الرواية النصرانية لأسباب الانسحاب . ماحدث خلال الانسحاب من التوضى والاضطراب . مهاجمة النصراني لساقة الجيش المنسحب . وصولهم إلى علة الخليفة . جرح الخليفة ثم وفاته خلال السير . بعض روايات عن هذا الحادث . رواية أخرى عن مرض الخليفة ووفاته . أسباب نكبة الجيش الموحدى . سير الجيش وكتمان وفاة الخليفة . التوقف في طرش . اجتماع القادة ومبايعة الأمير أبي يوسف يعقوب . الوصول إلى إشبيلية إعلان الوفاة وأخذ البيعة للخليفة . انعضاء الغزو والأمر بالرحيل . سير الركب الخليلي إلى طريف . عبوره إلى العدو . المسير إلى رباط الفتح . الخليفة أبو يعقوب . حزمه وتقواه وعلمه . حرصه على تنفيذ حكم الشرع . مطاردته للعمال الظلمة . خبرته بثئون المملكة . شغفه بالجهاد . علمه وأدبه . تمكنه من الحديث والفقه واللغة . دراسته للفلسفة والطب . صلواته بآبن طفيل وآبن زهر وآبن رشد . كيف وضع آبن رشد شروحه لأرسطو . آبن طفيل سفير الخليفة لدى العلماء . شغف أبي يعقوب بجمع كتب الفلسفة . أثر من آثاره العلمية . كلفه بالمنشآت العمرانية . وزراؤه وقضاة وكتابه . أبنائوه وصفته .

كان من الواضح للخليفة أبي يعقوب وأعوانه من أقطاب الموحدين ، أن حوادث الأندلس ، قد أخذت في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، تسير نحو اتجاه مكدر ، وأن عدوان الممالك الإسبانية النصرانية ، قد أخذ يشتد ويتفاقم ، وأن غزوات البرتغاليين لولاية الغرب ، وما أحرزوه من انتصارات في البر



والبحر على القوات الموحدية ، وغزوات ملك قشتالة لموسطة الأندلس وتهديده لقرطبة وإشبيلية ، وتوغل قواته جنوباً حتى غرناطة ومالقة ورندة ، كل ذلك قد كشف عن ضعف الجبهة الدفاعية الموحدية بالأندلس ، وعن قصور القوات الموحدية عن حماية الأندلس ، وصد عدوان النصارى عنها .

ومن ثم فقد رأى الخليفة أنه لابد من تنظيم حركة جديدة للجهاد بالأندلس ليقودها بنفسه ، وظهرت بوادر هذه النية منذ أوائل شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٩ هـ ، حينما أمر الخليفة بتميز طوائف الموحدين والعرب والقبائل استعداداً للغزو ، وبصنع عشرة مجانيق جريت بعد صنعها بالرى أمامه ، في منطقة البحيرة خارج مراكش ، واستمر تميز الجند طوال شهر جمادى الثانية ( سبتمبر ١١٨٣ م ) . وفي شهر شعبان أصدر الخليفة المراسيم بتولية أربعة من أبنائه قواعد الأندلس الأربعة الرئيسية ، وهم السيد أبو إسحق لولاية إشبيلية كما كان ، والسيد أبو زكريا يحيى لولاية قرطبة ، وذلك تنفيذاً لرغبة القاضي أبي الوليد بن رشد ، والسيد أبو زيد لولاية غرناطة ، والسيد أبو عبد الله لولاية مرسية ، وأمر بسفرهم إلى مقر أعمالهم ، تمهيداً لحركة الغزو . وأصدر أمره في نفس الوقت بتولية أبي المكارم ابن الحسين المصرى لقضاء إشبيلية ، وأبي الوليد بن رشد لقضاء قرطبة ، وأبي عبد الله بن الصقر لقضاء غرناطة ، وتحرك الجميع للسفر إلى شبه الجزيرة في السابع والعشرين من شعبان .

وفي منتصف شهر رمضان ، أجريت قسمة السلاح والعتاد ، ونخصص خباء لكل عشرة من الفرسان ، ثم أخرجت البركة لسائر الجند من الفرسان والرجالة . وفي يوم السبت الخامس والعشرين من شوال ( فبراير ١١٨٤ م ) صدرت الأوامر بالحركة ، وركب الخليفة كعادته بعد صلاة الصبح ، وخرج من باب دُكالة ، وهو الذى يسلكه إلى الغزو بإفريقية . ويصف لنا صاحب البيان المغرب — والمرجح أنه ينقل عن ابن صاحب الصلاة<sup>(١)</sup> — موكب الخليفة ومراحل سيره ، فيقول إنه سار يتقدمه العلم الأبيض مع الرجالة ، كالعادة ، ومعه مصحف عثمان على جمل أبيض مرتفع ، وقد وضع تابوته المرصع بنفيس الجواهر ، وعليه قبة حمراء لصيانتها ، ويليه مصحف المهدي يحمله بغل ، وقد سار بنو الخليفة مع

---

( ١ ) يدفنا إلى هذا الاستنتاج ما نلاحظه من مطابقة في السرد والوصف لأسلوب ابن صاحب الصلاة ، وورود عبارات كثيرة مسجعة وغيرها مطابقة لما يستعمله ابن صاحب الصلاة في مواطن كثيرة .

لإخوته خلفه ، ووصل الخليفة في ركبه الضخم إلى سلا في الثالث عشر من ذي القعدة ، ونزل بمدينة المهدية (رباط الفتح) ، وهناك وفد عليه أبو محمد ابن أبي إسحاق بن جامع قادماً من إفريقية ، فأخبره أن السلام يسودها ، وأن العرب الذين يخشى من شعبهم ، قد فروا من البلاد بأهلهم ، حينما سمعوا بحركة الغزو ، وبذلك أمن شرهم واستتببت السكينة والأمن .

وفي أثناء ذلك وصل شيوخ العرب المنضمون للحملة بجميع قبائلهم ، فصدر أمر الخليفة بالإتعام عليهم بالكسبي والبركات والصلوات الجزيلة . وتعهد الأشياخ بأن يساهموا في هذه الغزوة بمائة وثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل .

ثم أمر الخليفة باجتماع شيوخ الموحدين والعرب والقادة في مؤتمر عام ، وخرج إليهم ولده أبو يوسف يعقوب ، وأبلغهم أن أمير المؤمنين يطلب رأيهم ويستشيرهم في أمر توجيه هذه الحملة ، هل توجه إلى أفريقية أم توجه إلى الأندلس ، فكان رأيهم بالإجماع أن توجه إلى الأندلس لغزو النصارى والجهاد في سبيل الله ، فأبدى الخليفة ارتياحه لهذا الرأي<sup>(١)</sup> . ومعنى ذلك أن الخليفة ، حين خروجه من مراکش لم يكن لديه رأى حاسم في شأن الغزوة التي ينوي القيام بها ، وهذا في ذاته يكشف لنا جانباً من ضعف الخطط العسكرية الموحدية .

وفي اليوم الثامن والعشرين من ذي القعدة ، بدأت العساكر في الجواز على قنطرة سلا ، وفي اليوم الثلاثين غادر الخليفة في موكبه ، رباط الفتح إلى مكناسة ، فوصلها في السادس من ذي الحجة ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم غادرها إلى فاس ، وكانت قد ترامت إليه الأنباء عن خيانة مشرقها وعمالها المختلفين ، واختلاساتهم ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، ومصادرة دورهم وأموالهم لحساب « المخزن » ، وألزموا بأن يردوا « للمخزن » أربعمئة ألف وستين ألف دينار ، تعهدوا بأدائها أقساطاً ، ورتب عليهم الرقباء حتى قاموا بأدائها .

وفي الثاني عشر من ذي الحجة ، أمر الخليفة بأن يتقدم العسكر قبيلتنا هتانة وتينمائل برسم الجواز إلى الأندلس ، وبأن يتقدم ولده السيد أبو حفص على طوائف العرب ، وأن يشرف على جوازهم إلى الأندلس ، ثم قدم على قبائل الموحدين وحشودهم ، بعض السادات من الأبناء والإخوة ، وكتب إلى الولاة

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ ، وكذلك في روض القرطاس ص ١٢٩ .



بالأندلس أن يستعدوا لاستقبال هذه الحشود المختلفة ، وأن يكونوا هم في جموعهم في هيئة استعداد للجهاد .

وفي يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم سنة ٥٨٠ هـ ( ٨ أبريل ١١٨٤ م ) غادر الخليفة أبو يعقوب مدينة فاس في موكبه ، على الترتيب السابق وصفه ، حتى وصل إلى ثغر سبتة فأقام به بقية شهر المحرم . وأمر في أثناء ذلك ببدء الجواز ، فجازت قبائل العرب أولا ، ثم قبائل زناتة ، فالمصامدة ، فغراوة وصنهاجة وأورية وغيرهم من بطون البربر ، ثم جازت جيوش الموحدين ، فلما كمل جواز الجيش عبر الخليفة فيمن بقي من طوائف العبيد والحرس ، وكان عبوره في الخامس من صفر ( ١٧ مايو ) ونزل بجبل الفتح ( جبل طارق ) ثم سار منه إلى الجزيرة الخضراء ، ثم إلى إشبيلية عن طريق أركش وشرش ، فوصل إليها في عساكره في اليوم الثالث عشر من صفر ( ٢٥ مايو ) ، وخرج أهل الحاضرة الأندلسية إلى لقائه والسلام عليه ، وفي مقدمتهم قاضيهم ابن الجند . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إنه كان حاضراً في هذا اليوم ، وإنه قام بالسلام على الخليفة مع من تقدم إليه من الطلبة ، وأنه لم يستطع الكلام لشدة الزحام ، وإن الخليفة نزل بقصره داخل حدائقه الواقعة خارج باب قرمونة . وفي اليوم التالي لوصوله أمر بتميز العساكر وتوزيع السلاح والعتاد عليهم . ووزعت ألف فرس من عتاق الخيل على أشياخ الموحدين والعرب وكبار الجند . وأمر قائد الأسطول أبو العباس الصقلي بإعداد سفن الغزو وما يلزمها من الآلات والمعدات . وكانت أجناد الأندلس ، تتلاحق خلال ذلك من أوطانها وقواعدها إلى إشبيلية ، لتنضم إلى جيش الغزو<sup>(١)</sup> .

وأقام الخليفة بإشبيلية أسبوعين وهو دائب العناية باستكمال الاستعدادات وتنظيم الحشود ، والنظر في كل ما يلزم للقيام بالغزوة المنشودة ، وضمان نجاحها . أما هدف هذه الغزوة ، فقد استقر الرأي على أن يكون مدينة شنترين البرتغالية . وقد سبق أن أوضحنا أن الخليفة لم يحدد هدف هذه الغزوة منذ البداية بصورة قاطعة ، بل لم تتحدد وجهة الحملة الموحدية إلى شبه الجزيرة الأندلسية إلا حينما وصل الخليفة إلى سلا . ولكن اختيار مدينة شنترين بالذات هدفاً للغزوة الموحدية يرجع إلى أسباب عديدة ، مادية ومعنوية . فقد كانت البرتغال في عهد

( ١ ) نقله البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ص ١٢٢ . وكذلك روض القرطاس ص ١٣٠ .



أبي يعقوب أول مملكة نصرانية في شبه الجزيرة ناصبت الموحدين العدوان ، وكانت مدينة شترين بالذات أهم قواعد هذا العدوان ، فمنها خرجت الحملات العدوانية المتوالية التي شنّها الفارس المغامر جيراالدو سمبافور على بلاد ولاية الغرب وحصونها في قطاع بطليوس ، وهي ترجالّه وقاصرش ، ومتانجش وشربة ، وجلّمانية . ثم كانت بعد ذلك قاعدة لمهاجمة ملك البرتغال وجيراالدو سمبافور لمدينة بطليوس ذاتها ، واستيلاهما عليها ، ولو لم يتعاون فرناندو ملك ليون مع الموحدين على إنقاذ المدينة ، لقيت في أيدي البرتغاليين . وكانت شترين أخيراً مركزاً للحملات المخربة التي شنّها البرتغاليون على أحواز إشبيلية ، والتي وصلت في سبيلها مرة إلى طريانة ، وأخرى إلى الشرف ومدينة شلوقة ، وعلى الحملة فقد كانت شترين هي المركز الرئيسي لعدوان البرتغاليين على قواعد ولاية الغرب وأراضيها ، وقد اضطلع فرسانها وجندوها بأعظم دور في هذه الحملات العدوانية ، والغزوات المخربة ، وكان الخليفة وقادته يرون أن الاستيلاء على شترين يلحق بالبرتغاليين وملكهم ألفونسو هنريكز ضربة شديدة ، ويقضي على أهم مراكز العدوان في البرتغال ، ومن ثم كان اختيارها هدفاً للغزوة الموحدية الكبرى .

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة أبا يعقوب ، لم ينس خلال هذه المشاغل الحربية الطامية برنامجه منشآته العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهو الذي بدأه حين إقامته الأولى بإشبيلية قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاماً ، بإنشاء المسجد الجامع والقصور الموحدية ، وقنطرة طريانة . ومشاريع الري والسقاية ؛ ذلك أنه أمر قبل تحركه إلى الغزو عامله أبا داود بلول بن جلداسن ، أن يقوم خلال غيبته في الغزو ، بإنشاء سور حصين على قصبة إشبيلية ، يمر من مبدئ بنيانه أمام رحبة ابن خلدون داخل المدينة ، وبيناء صومعة للجامع في موقع اتصال السور بالجامع المذكور ، وبناء دار صنعة للسفن تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع ، إلى الرحبة السفلى المتصلة بباب الكحل<sup>(١)</sup> . وسوف نعود فيما بعد إلى التحدث عن مصير هذه المنشآت في موطنه المناسب .

في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٠ هـ الموافق لليوم السابع من شهر يونيه سنة ١١٨٤ م ، تحركت الجيوش الموحدية وعلى رأسها

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٧٠ أ . وفي المطوع ص ٤٨١

الخليفة أبو يعقوب يوسف ، من مدينة إشبيلية ، نحو الشمال ، بنفس الترتيب الذى سبق وصفه . وكان السير هيناً وثيداً ، فوصلت بعد تسعة أيام إلى حصن العرجة<sup>(١)</sup> فى طريق بطليوس ، وهناك تم اجتماع الجيوش الموحدية ، وقد بدت فى أكمل نظام ، وأحسن زى ، وتقلد الجند كامل أسلحتهم من السيوف والدروع والقسى وغيرها ، ثم استأنفت الجيوش سيرها ، حتى وصلت إلى مدينة بطليوس ، فأمر الخليفة بالنزول فى ظاهرها ، وأن يجرى تمييز الجند ، واستكملت الجيوش ما كان ينقصها من الزاد والميرة . وكان الوزير السابق إدريس بن جامع منفياً فى بطليوس ومعه فى المنفى أيضاً أبو زكريا بن حيون الكومى شيخ قبيلة كومية ، فالتمسا إلى أمير المؤمنين حين مقدمه أن يأذن لهما بالاشتراك فى الجهاد فأذن لهما .

وكان الموقف بالنسبة للمالك النصرانية قد تغير قبل ذلك بأعوام ، وانقطعت كل مهادنة بينها وبين الموحدين ، وجنحت كلها إلى العدوان ، وإلى غزو أراضي الأندلس كل من الناحية التى تليها ، وذلك حسباً فصلناه من قبل . وكان فرناندو ملك ليون قد نبذ محالفة الموحدين حسباً تقدم ، وحذا حذو زملائه فى انتهاج هذه السياسة العدوانية ، وعقد مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن معاهدة تعهد فيها بأن يلتزم معاداة الموحدين ، وألا يعود إلى محالفتهم قط ، وقطع زميله ملك قشتالة على نفسه مثل هذا المعهد ( يونه سنة ١١٨٣ م ) . وكان فى الوقت الذى عبرت فيه الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، يقوم بغزوة جديدة لأراضى الأندلس ، ويحاصر مدينة قاصرش<sup>(٢)</sup> الواقعة شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر التاجه ، واستمر يحاصرها طول الشتاء حتى نهاية الربيع . وكان الخليفة الموحدى يعلم بأمر هذا التحالف الجديد بين قشتالة وليون . وكان الذائع بين الملوك النصرانى أن الجيوش الموحدية الغازية ، قد تغزو أى الممالك النصرانية ، أعنى قشتالة أو ليون أو البرتغال ، إذ كانت جميعاً سواء فى موقفها العدوانى من الموحدين ، وفى الإغارة على أراضي الأندلس . بل أن الرواية النصرانية ، وبخاصة الرواية البرتغالية ، تنسب إلى الخليفة الموحدى من غزوته هذه مشاريع أجل خطراً ، وأبعد مدى ، فتقول لنا إنه كان ببغى ، بعد الاستيلاء على شنتيرين ، أن يقوم بافتتاح مملكة البرتغال كلها شمالاً حتى نهر دويرة ، ثم يسير بعد ذلك إلى غزو مدينة طليطلة

( ١ ) وهو بالإسبانية Alanje .

( ٢ ) وهى بالإسبانية Cáceres .



حاضرة قشتالة<sup>(١)</sup> ، وعلى أى حال فإن فرناندو ملك ليون ، حينما علم بسير الجيوش الموحدية نحو بطليوس واقتربها بذلك من مواقعه ، بادر برفع الحصار عن قاصرش ، وعاد إلى حاضرتة مدينة ردرىجو ، وأخذ يرقب سير الحوادث . وفى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الأول غادر الخليفة فى قواته مدينة بطليوس ، وسار نحو الشمال الغربى مخترباً الناحية اليسرى من وادى التاجه ، ثم أمر الجند الموحدين أن يتقدموا صوب شترين ، فعبروا نهر التاجه بقيادة السيد أبى إسحاق وإلى إشبيلية ، ثم تلاهم بقية الجند وعلى رأسهم الخليفة ، ونزلت الجيوش الموحدية جميعها بالتل المرتفع المشرف على شترين من ناحيتها الشرقية والجنوبية ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ ( ٢٧ يونيه سنة ١١٨٤ م ) وفقاً لقول الرواية الإسلامية المعاصرة<sup>(٢)</sup> ، وتضع الرواية النصرانية مقدم الجيوش الموحدية إلى شترين قبل ذلك بثلاثة أيام فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه وهو يوم القديس خوان<sup>(٣)</sup> .

وتنوه معظم الروايات الإسلامية بضحامة هذا الجيش الموحدى ، ووفرة حشوده<sup>(٤)</sup> ، ويقدم إلينا بعضها عن عدده أرقاماً مذهشة ، فيقول لنا صاحب الروض المعطار إنه كان يضم أربعين ألفاً من أنجاد العرب الفرسان ، ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الأندلس ما ينيف على مائة ألف فارس<sup>(٥)</sup> ، وإذن فقد كان هذا الجيش الذى أعد لغزو البرتغال ، وافتتاح شترين أضخم من الجيش الذى سار من قبل عند جواز الخليفة الأول إلى الأندلس ، إلى حصار وبدة ، وتنوه الرواية النصرانية أيضاً بضحامة الجيش الموحدى ، وذلك بما تذكره من أرقام خسائره ، حسباً نشير إليه فيما بعد .

وتقع مدينة شترين ، وقد أتاحت لنا زيارتها ، فى شمال شرقى أشبونة على

( ١ ) H. Miranda : *ibid*, cit. *Chronicon Lusitanum* p. 292

( ٢ ) هذه هى رواية البيان المغرب ، منقولة فيما يرجع عن ابن صاحب الصلاة ، وكان مرافقاً للحملة ( البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٣ ) ويضع صاحب روض القرطاس مقدم الموحدين إلى شترين فى السابع من ربيع الأول ( ص ١٤٠ ) .

( ٣ ) راجع فى ذلك H. Miranda : *ibid*, p. 297 & 300 .

( ٤ ) راجع ما ينقله البيان المغرب فى القسم الثالث عن القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر ( ص ١٣٥ ) وكذلك ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٣٩٤ .

( ٥ ) الروض المعطار - صفة جزيرة الأندلس فى مقاله عن « شترين » ص ١١٤ .



قيد خمسين كيلومتراً منها ، فوق ربوة مرتفعة تقع على الضفة اليمنى لنهر التاجه ، أمام حنية نصف دائرية . وقد كانت في العصر الذي نتحدث فيه من أمنع القواعد البرتغالية ، وكانت في عهدها الإسلامي ، نظراً لحصانة موقعها في منعطف النهر من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى . وقد سقطت في أيدي النصارى لأول مرة في سنة ٤٨٦ هـ ( ١٠٩٣ م ) ، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكن المسلمين استردوها ، واستمرت في حوزتهم عصراً آخر ، ولما اشتد ساعد مملكة البرتغال الناشئة في عهد ملكها ألفونسو هنريكيث ، وأخذ هذا الملك يغير على القواعد الإسلامية المجاورة ، كانت شترين وأشبونة من القواعد التي استولى عليها ، وذلك في سنة ٥٤٢ هـ ( ١١٤٧ م ) حينما اضطربت شئون ولاية الغرب على أثر قيام الثورة ضد المرابطين وبقينا بيد النصارى إلى ذلك الحين . وكان الموحدون يتوقنون إلى استرداد هاتين القاعدتين المائتين من قواعد ولاية الغرب .

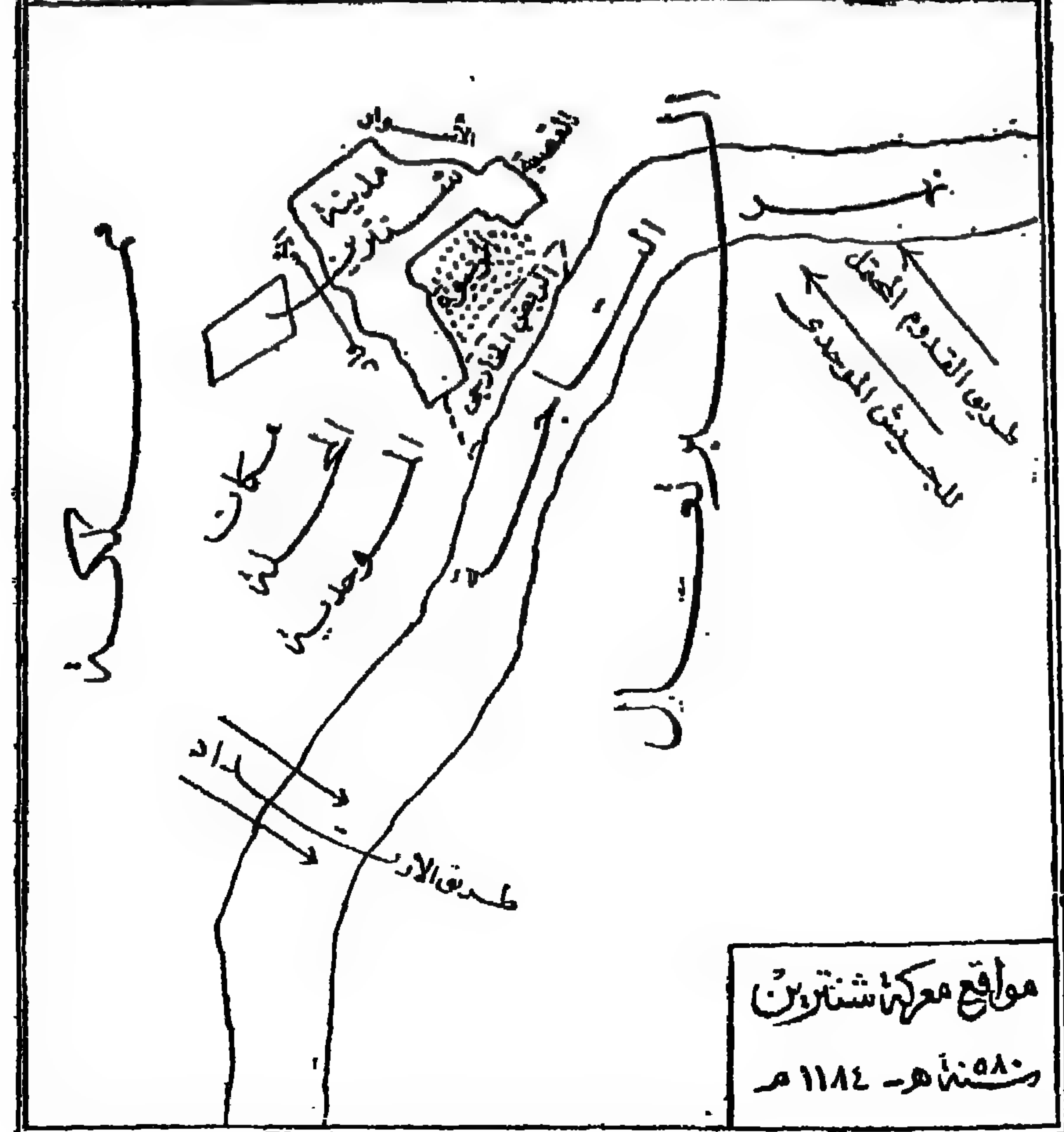
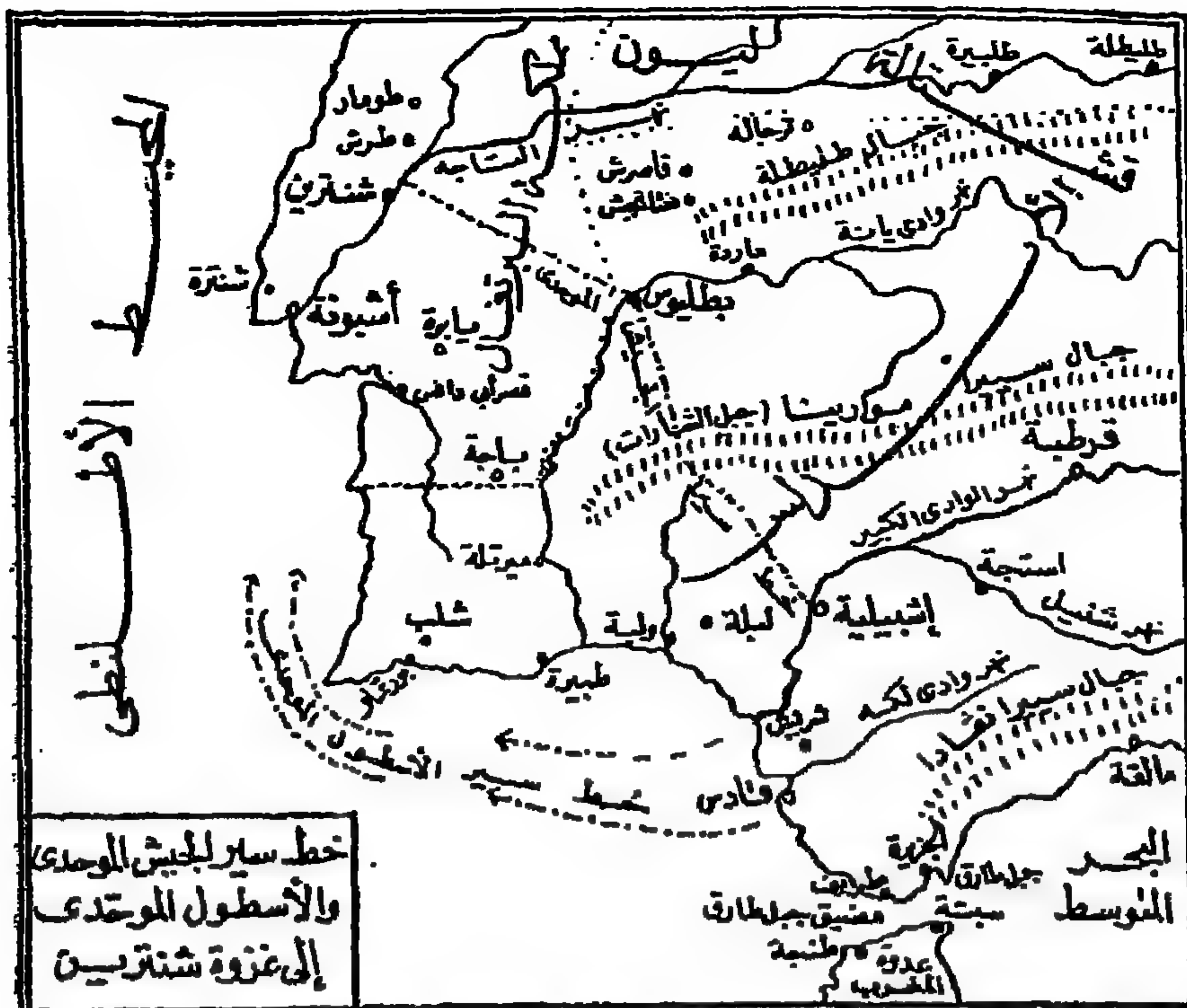
وهناك في الواقع ما يدل على أن استرداد ثغر أشبونة كان من أهداف هذه الحملة الموحدية الكبرى بل ربما كان هو هدفها الرئيسي<sup>(١)</sup> . ذلك أن الأسطول الموحدى ، كان وقت عبور الخليفة إلى شبه الجزيرة ، قد حشد عند مصب الوادى الكبير ومصب وادى يانه ، وكان في نفس الوقت الذى اتجهت فيه الجيوش الموحدية صوب شترين ، يسير إلى مياه أشبونة ، ثم يحاصرها<sup>(٢)</sup> . بيد أنه كان من الطبيعى أن يقوم الجيش الموحدى قبل السير إلى أشبونة ، بالاستيلاء على شترين ، وهى حصن أشبونة من الشمال ، وبذلك تؤمن مؤخرة الجيش الموحدى ضد أى هجوم يقوم به النصارى من تلك الناحية .

ومن ثم فإنه ما كادت القوات الموحدية تصل إلى ظاهر شترين ، حتى أمر الخليفة بأن يتقدم الجند حتى أبواب المدينة ، وأن يضربوا حولها الحصار ، ونزل الموحدون في الریض الواقع في جنوبها الشرقى والممتد على طول النهر وضربت به قبة الخليفة ، وكان البرتغاليون وعلى رأسهم ملكهم ألفونسو هنريكيث ، قد احتشدوا داخل شترين وقصبتها وجدوا في تحصينها ، واتخذوا أعظم أهبة الدفاع عنها<sup>(٣)</sup> ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٠ .

(٢) الروض المطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٤ .

(٣) المراكشى في المعجب ص ١٤٥ .





وكان المدافعون عن الربض الخارجى قد أقاموا حواجز يستطيعون الاعتصام بها ، والدفاع منها . فافتحم الموحدون الربض وهدموا أحياءه المتصلة بالسور ، وهدموا الكنيستين اللتين به ، وقتل كثير من المدافعين عنه ، وارتد الباقيون إلى القصبة ، واعتقد القادة الموحدون أن السيل ممهّد لاقتحام المدينة وأخذها ، وأعدت بالفعل السلام اللازمة لاقتحام الأسوار . وفى يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول (٢٩ يونيه) ، هاجم الموحدون الأسوار ، واشتبكوا مع قوة من النصارى خرجت لقتالهم فهزموها وردوها صوب القصبة . وفى صبيحة اليوم التالى — السبت — تجدد القتال بين الموحدين وبين النصارى ، واستمر القتال بين الفريقين حتى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول (٢ يوليه) . ونشبت بينهما خلال ذلك عدة معارك عنيفة . وتقدم إلينا الروايات النصرانية عن هذه المعارك صوراً مختلفة ، ويقول بعضها إن المعارك لبثت تضطرم بين النصارى والموحدين فى الربض الخارجى للمدينة خمسة أيام ، وأن الموحدين بالرغم من خسائرهم لبثوا يجمدون هجماتهم ، حتى حطمت سائر الحواجز والتحصينات بالربض ، وأضحى الموقف مستحيلاً ، واضطر النصارى إلى اللجوء إلى ناحية القصبة . وهذه الرواية تقترب فى جملتها من أقوال الرواية الإسلامية . بيد أن بعض الروايات النصرانية تقدم إلينا مزاعم لا يستطيع أن يسيغها العقل ، ولا سيما الرواية المنسوبة إلى الخبر الإنجليزى راؤول دى ديستو ، ونخلاصتها أن الموحدين وصلوا إلى شترين فى يوم القديس خوان ، أعنى فى يوم ٢٤ يونيه ، وحاصروها ، وأنهم بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من القتال المستمر ، نجحوا فى اقتحام المدينة من ثلثة أحنوها . ولكن وصل فى اليوم التالى أسقف بورتو وابن الملك وقتلوا من الموحدين خمسة عشر ألفاً ، وسدوا تلك الثلثة بجنهم . وفى اليوم الذى يليه وصل أسقف شنت ياقب ومعه عشرون ألف مقاتل ، وفى الفجر قتلوا ثلاثين ألفاً من الموحدين<sup>(١)</sup> .

بيد أنه وقعت فى اليوم الحتامى لهذه المعارك ، وهو يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول (٢ يوليه) بالعسكر الموحدى مفاجأة مذهلة ، وهى صدور أمر الخليفة بالكف عن القتال ، وكان الأمر قد صدر فى نفس الوقت بتحريك الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أو من شرقى شترين إلى غربها وشمالها حسبما يقول صاحب

---

H. Miranda ; ibid ; C.R. de Diceto y Crónica de Alfonso Enriquez ( ١ )



روض القرطاس . فعجب الناس لذلك ، ولم يفقهوا له سبباً ، بل إن في هذا التعليق ذاته ما ينم عن إنكار الشيوخ والقادة الموحدين لهذا الأمر الفجائي الذي لم يدرس ، ولم تتضح مبرراته . فما الذي حدث في المعسكر الموحدى ، وكيف ولم وقع هذا التحول الفجائي في حركة الجيش الموحدى ، ولما لم يحض على مقدمه إلى شترين سوى ستة أيام ؟ إن الرواية الإسلامية لا تقدم إلينا في هذا الوطن أى شرح واضح أو أى تحليل مقنع لهذا الارتداد الفجائي لجيش ضخيم غاز يربى عدده على المائة ألف ، عن مدينة مرهقة بالحصار وقد سقطت أرباضها في أيدي الغزاة ، ولا تدافع عنها سوى حامية محلية ، قد أنهكتها المعارك المتوالية مع الغزاة ، ولجأت في النهاية إلى القصبة ترقب المصير المحتوم ، ولم يقل لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو مرافق الحماة ومؤرخها ، شيئاً سوى التعليق على أمر الارتحال بقوله : « فتعجب الناس من هذا الرأى في الانتقال والارتحال ، وتعطلت في النفوس جميع الآمال ، وظهر الخلل في جميع الأحوال » . ثم يقول إنه قد حدث في هذا اليوم - أى يوم صدور الأمر بالارتحال - على عسكر أهل مرسية حادث مروع ، وذلك أنهم خرجوا للإغارة في بسائط النصارى ، فخرجوا عليهم وهزموهم هزيمة شنيعة فارتدوا إلى المحلة منهزمين ، « وبات الناس في المحلة على حذر ، ومن الوجل في ألم وضرر »<sup>(١)</sup> .

ويقول لنا مؤرخ موحدى آخر كان مرافقاً للحملة أيضاً هو القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر ، إن الخليفة أبا يعقوب حينما قصد مدينة شترين أمنع بلاد ابن الرنك ، وأكثرها أجناداً ، وأقواها استعداداً ، فزع النصارى وروعت نفوسهم لما رأوه من ضخامة الجيش الموحدى وتفوقه العظيم . وكان القصد محاصرة المدينة وإرهاقها ، ثم يقول دون أى إيضاح آخر : « فلما استراعت من جهاتها الأنباء ، وطال لغير طائل الثواء ، عزم أمير المؤمنين على الارتحال ، وترويح الجيوش والنفوس من السامة والكلال ، فأمر بالرحيل ليلاً »<sup>(٢)</sup> .

على أن مؤرخاً معاصراً آخر ، ويعتبر كذلك من مؤرخى الموحدين ، هو عبد الواحد المراكشى ، يقدم إلينا عن هذا الارتداد للجيش الموحدى رواية ، قد تبدد بعض هذا الغموض الذى يثيره صمت شاهد العيان ، وهى أن أبا يعقوب حينما

( ١ ) نقله البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٢٤ و ١٣٥ .

( ٢ ) نقله البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣٦ .

حاصر شترين وبالع في التضييق عليها ، وانتساف قواتها ، وقطع المؤونة والمدد عنها ، لم يزد ذلك أهلها إلا حزمًا في الدفاع ، وجلدًا في تحمل مشاق الحصار ، فخشي الموحدون هجوم البرد ، إذ كان الوقت آخر فصل الخريف ، وخافوا أن يفيض النهر فلا يستطيعون عبوره ، وتنقطع عنهم الأمداد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالارتداد عن شترين والرجوع إلى إشبيلية ، فإذا تغيرت الظروف ، عاد الموحدون إلى حصارها ، وصوروا له أن الأمر هين ، وأن المدينة تعتبر غنمًا في يده لا يمنعه عنها مانع ، فاستمع الخليفة إلى نصيحهم ، وقال نحن راحلون غدا إن شاء الله ، ولم يقف أحد على هذا القول سوى الخاصة ، وكان أول من قوض نجاءه وأظهر الأخذ بأهبة الرجل ، أبو الحسن علي بن عبد الله المعروف بالمالقي ، وكان من أكابر البلاط الموحدى ، ويوصف بخطيب الخلافة ، فلما رأى الناس صنعه ، حذوا حذوه لما يعلمونه من وقوفه على أسرار الدولة ، وعبّر النهر في تلك العشية أكثر العسكر ، يريدون التقدم خشية الزحام ، ولم يبق إلا من كان بقرب نجاء أمير المؤمنين ، وبات الناس يعبرون الليل كله ، وأمير المؤمنين لا علم له بما حدث<sup>(١)</sup> . وينقل ابن خلكان هذه الرواية بنصها وتفصيلها في ترجمة الخليفة أبي يعقوب<sup>(٢)</sup> .

ونلاحظ فيما يتعلق بهذه الرواية أن حصار شترين لم يقع في أواخر الخريف ، ولكنه وقع في أواخر شهر يونيه سنة ١١٨٤ م ، أعنى في أوائل الصيف ، وقد رأينا أن الحصار ، وفقًا لرواية شاهد العيان ، وكذلك وفقًا للرواية النصرانية ، لم يدم سوى عدة أيام<sup>(٣)</sup> . وعلى ذلك فإن تعليل الارتداد باقتراب الشتاء ، والخوف من فيضان النهر ليس بالتعليل المقنع ، وإن كان على أى حال محاولة لتفسير تصرف الخليفة الموحدى .

هذا ، وهناك محاولة أخرى من جانب الرواية الإسلامية لتفسير ما حدث في المعسكر الموحدى ، هي رواية صاحب روض القرطاس ، وهي أنه لما أمر أمير المؤمنين بانتقال الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أنكر الناس ذلك .

(١) المراكشى في المعجب ص ١٤٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٣) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٨٠ هـ ، أن الخليفة أبا يعقوب حاصر شترين مدة شهر

( ح ١١ ص ١٩٠ ) . وينقل ابن خلكان هذه الرواية ( ج ٢ ص ٤٩٢ ) .



ولم يعلموا له سبباً ، وأنه لما جن الليل ، وفرغ الخليفة من صلاة العشاء ، استدعى ولده السيد أبا إسحق وإلى إشبيلية ، وأمره بالرحيل من تلك الليلة إلى غزو مدينة أشبونة وشن الغارة على أنحائها ، وأن يسير لها بجيوش الأندلس خاصة ، وأن يكون رحيله نهاراً ، فأساء السيد أبو إسحق فهم أوامر الخليفة ، وظن أنه أمره بالرحيل في جوف الليل إلى إشبيلية . يقول صاحب الروض : « وصرخ الشيطان في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل . وفي هذه الليلة تحدثت الناس بذلك ، وتأهبوا له ، فرحل من الناس طائفة بالليل . فلما كان قرب الفجر أطلع السيد أبو إسحق ، وأطلع كل من كان يليه ، وتابعه الناس بالرحيل ، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك » (١) .

على أن ما تقدمه إلينا الرواية النصرانية عن أسباب انسحاب الجيش الموحدى قد يفسر لنا ما وقع بطريقة أوضح ، وأكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث . ذلك أن الموحدين ، بعد أن اشتبكوا مع البرتغاليين في ربض شترين في سلسلة من المعارك الطاحنة استمرت بضعة أيام ، واستولوا خلالها على أرض الربض وحطموا تحصيناته الخارجية ، أدركوا أن المدينة من المناعة ، وأن المدافعين عنها من الاستعداد والكثرة ، بحيث يتعذر اقتحامها ، ولا بد لأخذها من الاعتماد على حصار طويل صارم . وفي أثناء ذلك وقع حادث كان له فيما يبدو تأثير حاسم في تطور الموقف . ذلك هو مقدم فرناندو الثاني ملك ليون في قواته . ونحن نذكر أنه لما تحرك الجيش الموحدى من إشبيلية ، صوب بطليوس ، كان فرناندو الثاني يحاصر مدينة قاصرش الواقعة شمال شرقي بطليوس محاولاً الاستيلاء عليها ، فلما وقف على حركة الجيش الموحدى ، رفع الحصار عن قاصرش ، وارتد إلى قاعدته القريبة مدينة ردريجو . ولما تعينت وجهة الجيش الموحدى بالسير إلى شترين وحصارها ، سار فرناندو في قواته صوب ميدان المعركة لإنجاد المدينة المحصورة ، وذلك تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه بقتال الموحدين ، وتقول الرواية النصرانية أيضاً إن ألفونسو ملك البرتغال كان متوجساً في البداية من مقدم فرناندو وجيشه ، فلما علم أنه قادم لإنجاده وإنجاد إخوانه النصارى ، اطمأنت نفسه وأيقن بالخلاص (٢) . ومن ثم فإنه يبدو أن تطور الحوادث على هذا النحو

(١) روض القرطاس ص ١٤٠ .

(٢) Primera Crónica General de Espana (Ed. Pidal) p. 676



هو الذى حمل الخليفة على اتخاذ قراره الفجائى ، بالارتداد ، خشية أن يعمل الليونيون على إعاقة عبوره النهر إلى الضفة اليسرى ، ولا سيما بعد أن اقتنع بصعوبة الاستيلاء على شترين .

بيد أنه إذا كان هذا التعليل يلقى شيئاً على بواعث قرار الارتداد ، فلنا لاستطيع أن نفهم سر ذلك الاضطراب المروع الذى اقترن بتنفيذه . ومن المحقق أن الخليفة ومعاونيه كانوا يقصدون أن يكون الارتداد وفق خطة منظمة ، تقي الجيش المنسحب كل اضطراب وكل عثار . وهذا ما يؤكد لنا القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر فى روايته حين يقول « إن ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع ، وأوعزوا إليهم ، ترتيب التحرك وكيفية القلوع ، وأن يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل الحملة والأثقال ، وتتلخص إلى السعة من المضائق والأحوال »<sup>(١)</sup> . بيد أن الذى حدث هو العكس تماماً . وهو القوضى المروعة ، والاختلال المطبق . يقول أبو الحجاج يوسف ، وهو شاهد العيان : « فاضطرب إقلاع الناس اضطراباً شنيعاً ، وكثر الضجيج ، واختلاط الأصوات ، وتهولت المحلات ، وأخذ العموم على شئ المسالك ، فلا ترى شيعاً ولا مطيعاً » .

وكان أشنع ما فى ذلك ، هو ما حدث من غموض فى فهم أوامر الخليفة ، وتسرع فى تنفيذها . ذلك أن كثيراً من الأشياخ وروثاء القبائل فهموا أنه يجب الارتداد فوراً وفى جوف الليل ، فهرعت طوائف غفيرة من الحند إلى الارتداد . وعبور النهر ، ووقع الارتداد فى مناظر مروعة من الاختلال والضجيج والقوضى . يقول الراوية شاهد العيان : « حضرت يوم هذا الإقلاع وليله ، فما رأيته فى تاريخ قبله ، ولا يحصر واصف هوله » ، وأقلع السيد أبو إسحاق ولد الخليفة نفسه فى جنده عند الفجر قاصداً إشبيلية ، واعتقد كثير أن الخليفة نفسه قد أقلع فى السحر ، واستمر عبور الحند على هذا النحو تباعاً ، حتى عبر معظم الجيش ، كل ذلك والخليفة غافل عما حدث . فلما أسفر الصبح ، ظهرت الحقيقة المروعة ، ولم يبق حول الخليفة الموحى سوى الساقة ، فعندئذ أمر الخليفة بضرب الطبول ، فاجتمعت القلول الباقية ، وانحدر الخليفة صوب النهر ، وبقى ابنه أبو يوسف يعقوب مع بقية الساقة ، فى موضع المحلة مستعداً للقاء النصارى وردهم وحماية أبيه ومن معه .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٦ .

ولكن نصارى شترين أدركوا عندئذ ما وقع في العسكر الموحدى ، من إقلاع وارتداد ، فبادروا بالخروج من المدينة ، وهجموا على القوات المنسحبة بشدة ، وأدركوا ساقه الخليفة ، ودافعت القلول الموحدية بمنتهى البسالة ، وسقط خلال ذلك عدد من أكابر الموحدين والأندلسيين ، ووصل النصارى إلى مقر الخليفة نفسه بعدوة الوادى ، وإصابه بعضهم بجراح خطيرة . وعلى أثر انتهاء المعركة أمر الخليفة بتفريق الجموع ، ورجوع كل جندى إلى قبيلته ، وأمر بتخريب الوادى ، وانتساف زروعه ، وقطع أشجاره وهدم ضياعه ، وتغویر مائه ، وحرقت كل ما يمكن حرقه ، كما أمر بتقسيم السرايا في نواحي الوادى لتحصيل الأقوات ، وانتزاع السبي والغنائم . كل ذلك الخليفة الجريح ملتزم فراشه ، ومن حوله أطباؤه ابن زهر وابن طفيل<sup>(١)</sup> وابن قاسم ، وهو يزداد ضعفاً على ضعف ، ثم أمر الخليفة بالرحيل ، وهو محمول في محفة ، حتى تم اجتياز وادى التاجه ، وما كاد الموكب يقطع بضعة أميال أخرى ، حتى أسلم الخليفة الروح ، وذلك في الثامن عشر لربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ( ٢٩ يولييه سنة ١١٨٤ م )<sup>(٢)</sup> .

تلك هى رواية القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر ، المرافق للجيش المنسحب عن ظروف الارتداد وعن إصابة الخليفة أبى يعقوب يوسف ووفاته متأثراً بجراحه . بيد أن هناك رواية أخرى هى رواية المراكشى ، وهو أيضاً معاصر ، ومن مؤرخى الموحدين ، وهى أنه لما رأى نصارى شترين ما حدث من عبور الموحدين ، وانصراف معظم الجيش المحاصر ، ووقفوا على ما قرره الخليفة من الارتحال في بقية جيشه ، خرجوا من المدينة في خيل كثيفة ، وحملوا على المحلة الموحدية بشدة ، حتى بلغوا قبة أمير المؤمنين ، ودافعهم من حولها ، وجلهم من أعيان الأندلس ، حتى قتل كثير منهم ، ونفذ النصارى إلى خباء الخليفة ، فطعنه أحدهم تحت سترته طعنة توفى منها بعد أيام يسيرة ، وتكاثر الموحدون على الروم حتى ردوهم ، فانهزموا راجعين إلى المدينة ، وعبر أمير المؤمنين النهر

( ١ ) وردت في النص « ابن مقبل » ولكننا نعتقد أن ذلك تحريف لاسم ابن طفيل طبيب الخليفة الخاص .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٢٧ و ١٢٨ . وتضع معظم الروايات تاريخ وفاة الخليفة في شهر ربيع الآخر على خلاف في اليوم الذي توفى فيه . ولكن المراكشى يتفرد بالقول بأن الخليفة أيا يعقوب توفى في اليوم السابع من رجب سنة ٥٨٠ هـ ( أكتوبر سنة ١١٨٤ م ) المعجب ص ١٤٧ . ويجاريه في ذلك ابن خلكان فيذكر نفس التاريخ ( الوفيات ج ٢ ص ٤٩٤ ) .



جريحاً في محفة ، فلم يمض على ذلك يومان أو ثلاثة حتى توفي متأثراً بجراحه<sup>(١)</sup>.

وهناك رواية أخرى مماثلة تقرب في جوهرها من رواية المراكشي ، وهي رواية صاحب روض القرطاس ، وهي أنه لما وقع ارتداد معظم الجيش الموحدى ليلاً ، وجاء الصبح ، فلم يجد الخليفة حوله سوى اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله ، وقواد الأندلس لأنهم هم الذين كانوا يمشون أمام ساقته وخلف محلته ، فلما أشرقت الشمس وشهد النصاري ما وقع من ارتحال المحلة الموحدية ، وأنه لم يبق منها حول المدينة سوى تبة أمير المؤمنين وعبيده وحشمه وأهل دائرته ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فتحوا أبواب المدينة ، وخرج جميع من فيها خرجة عنيفة وهم ينادون « الرى . الرى »<sup>(٢)</sup> أعني الملك ، فافتحموا محلة العبيد ، حتى وصلوا إلى خباء الخليفة ، فزقوه واقتحموه ، فدافعهم الخليفة بسيفه حتى قتل منهم ستة رجال ، فطعن أحدهم طعنة نافذة ، وقتل ثلاث من جواريه كن قد انصبين عليه حتى طعن ، وسقط على الأرض ، فتصايح الفرسان والعبيد والأجناد والموحدون وقواد الأندلس ، واجتمع المسلمون فقاتلوا النصاري قتالاً عنيفاً حتى ردوهم عن الخباء ، ثم تابعوا قتالهم بشدة حتى هزموهم وردوهم إلى أبواب المدينة ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة تقدر بما يزيد على عشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين جماعة . ثم ركب أمير المؤمنين ، وقد أشرف على الموت ، وارتحل الناس ، ومات الخليفة خلال الطريق ، وكانت وفاته في يوم السبت الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ( ١٣ يولييه سنة ١١٨٤ م ) وذلك على مقربة من الجزيرة الخضراء في طريق جوازه إلى العدو<sup>(٣)</sup>.

ويؤيد هذه الرواية عن مصرع الخليفة أبي يعقوب متأثراً بجراحه ، من المؤرخين المتأخرين ، الوزير ابن الخطيب ، حيث يقول لنا إن الخليفة توفي بظاهر شترين من سهم أصابه في خيائه وهو محاصر لها ، قضى عليه ، وكنم موته : بيد أنه يضع تاريخ مصرعه في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ

---

( ١ ) المراكشي في المعجب ص ١٤٥ و ١٤٦ ، ونقل ابن خلكان هذه الرواية في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

( ٢ ) " El Rey El Rey " .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١٤٠ ، ١٤١ .



وهو يوافق الثامن من أغسطس سنة ١١٨٤ م (١) .

ويوجد أخيراً رواية مفادها أن الخليفة أبي يعقوب لم يمت متأثراً بجراحه ، ولكنه توفي من مرض لم تذكر لنا الرواية كنهه ، وهذه هي رواية ابن الأثير ، حيث يقول إن الخليفة حاصر شتريين شهراً ، فأصابه مرض فمات منه في ربيع الأول ( ٥٨٠ هـ ) وحمل تابوته إلى مدينة إشبيلية (٢) ، ويأخذ صاحب الروض المعمار بهذه الرواية فيقول لنا إن الخليفة ، وهو مقيم على شتريين عرض له المرض الذي توفي منه ، وأقام الرجل به مضطجعا على فراشه ، وضعفه يزايد ، إلى أن تُفقد في بعض أميال فوجد ميتاً وذلك في سنة ٥٨٠ هـ (٣) .

ويتردد ابن خلدون بين الروایتين ، فيقول لنا إن الخليفة توفي من سهم أصابه في حومة القتال عندما اقتحم النصاري محلته وأنه توفي من مرض أصابه (٤) . وكان الخليفة أبو يعقوب عند وفاته في السابعة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده ، حسبما تقدم في سنة ٥٢٣ هـ بتينمائل .

ولأنه يبدو لنا إزاء اتفاق الروايات الموحدية المعاصرة ، ومعها صاحب روض القرطاس وابن الخطيب ، أن القول الراجح هو أن الخليفة أبا يعقوب قد أصيب في الموقعة التي نشبت بين النصاري وبين محلته ، وأنه توفي متأثراً بجراحه . ومن الواضح أن وقوع مثل هذا الحادث ممكن ومعقول في مثل الظروف التي أحاطت بالجيش المنسحب ، وفي غمرة الخلل الذي أصابه ، والفوضى التي سادته . ولقد كان انسحاب الجيش الموحدى من أمام أسوار شتريين نكبة مؤلمة ، تفوق في نتائجها الخطيرة المروعة ، نكبة انسحابه من وبدة قبل ذلك باثني عشر عاما . ونستطيع هنا أن نستشف نفس الأسباب ، ونفس وجوه الضعف التي التابت الجيش الموحدى ، وعصفت بتماسكه ونظامه ، وجعلته بالرغم من ضخامته ، ووفرة استعداده وعدته ، أشبه بكتلة بشرية مفككة ، لا تجمعها أية قيادة حازمة ، ولا هدف مشترك ، وفتت في قواه المعنوية ، فانهارت لديه فكرة الجهاد التي حشد من أجلها ، وأضحت كل طائفة من طوائفه تبحث فقط عن سلامتها ،

( ١ ) ابن الخطيب في الإحاطة في مخطوط الإسكوريال الذي سبقت الإشارة إليه لوحة ٣٩٥

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠ .

( ٣ ) الروض المعمار ( صفة جزيرة الأندلس ) ص ١١٤ .

( ٤ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٥٤٦ .

وترقب أول فرصة للانسحاب . ومن الواضح أيضاً أن استئثار الخليفة بتوجيه حركات جيشه دون الاعتماد على رأى قواده ، كان له أكبر الأثر فيما حدث من سوء فهم للأوامر الصادرة ، بل ربما نستطيع أن نستشف من ذلك أثر الانشقاق وعصيان الأوامر الصادرة من الخليفة دون دراسة ودون تدبر ، وقد كان منها الأمر بنقل مواقع الجيش الموحدى من شرق وجنوبي شترين إلى الشمال والغرب ، وهو أمر عارضه القواد الموحدون ، لأنه يضع الجيش الموحدى في مواقع تعرضه لخطر التطويق ، ثم أمر الانسحاب المفاجئ الذى استأثر الخليفة بإصداره ، فكان نذيراً بكارثة الانسحاب المروع ، وما اقترن به من شنيع الاضطراب والفوضى ، وما انتهى الأمر إليه من فقد الاتصال بين الفرق المنسحبة ، وبين حرس الخليفة وخاصته ، فكانت النكبة المروعة ، باقتحام محلة الخليفة وإصابته القاضية ، أضف إلى ذلك كله ما كان يعانيه الجيش الموحدى من نقص فى تمويناته ، حتى اضطر حين الانسحاب أن يبحث عن أقواته بشن الغارات على الأراضى التى يحترقها خلال مسيره . وقد أثبت الخليفة أبو يعقوب وقواده بذلك كله ، أنهم لم يتعلموا شيئاً من دروس حماة وبدة ، ولم يحاولوا إصلاح جيوشهم ، على ضوء ما تبين من وجوه النقص فيها ، واستمر اعتمادهم فى حشدها على التفوق العددي دون سواه .

— ٢ —

لما توفى الخليفة أبو يعقوب متأثراً بجراحه بعد عبوره نهر التاجه بقليل ، محمولاً على محفته حسباً تقدم ، كتبت وفاته ، وتُمل كالعادة مسجياً فى محفته ، حتى نزل الركب خلال الطريق إلى إشبيلية ، بعد موضع يسميه صاحب البيان المغرب « بحصن طرش » وهناك ضربت أخبية الخليفة كالعادة ، وأحرق الفتيان والخدمة بالقبة الخليفية وفقاً للرسوم المعتادة ، وكان السيد يعقوب أبو يوسف ولد الخليفة هو الذى يدخل على أبيه منذ إصابته ، ويخرج من لدنه ، ويتصرف فى الأمور باسمه<sup>(١)</sup> ، فلما نزل الركب بالموضع المذكور ، وتكامل وصول الناس ، بعث السيد أبو زيد ابن الخليفة إلى إخوته الأكابر الموجودين مع الجيش ، وإلى أكابر الموحدين ، وأطلعهم على وفاة الخليفة ، وكشف لهم عن جهانه وهو مسجى فى فراشه ، وطلب إليهم مبايعة الأمير يعقوب أبى يوسف ، فاستجابوا إليه ، وتمت البيعة فى مساء نفس اليوم . وفى اليوم التالى استؤنف السير ، وكل شىء على

(١) روض القرطاس ص ١٤١ .



حاله ، واستمر كتمان وفاة الخليفة الراحل ، بيد أنه كفن وأدرج في تابوت ، حتى وصل الركب إلى إشبيلية ، وذلك بعد نحو شهر من بداية انسحاب الجيش وعبره نهر التاجه .

واستراح أبو يوسف يعقوب بإشبيلية ثلاثة أيام ، تلاحت خلالها الحشود ، ووصلت جموع العرب والموحدين وسائر الطوائف الأخرى ، ونزلت في أكتاف إشبيلية ، ودعى الناس خاصتهم وعامتهم ، لتقديم البيعة ، وأعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وغصت القصبة بوجوه القوم من موحدين وغيرهم ، وأخذت البيعة للخليفة الجديد مدى يومين هما وفقاً لقول صاحب البيان غرة وثاني جمادى الأولى<sup>(١)</sup> وأغدق الخليفة بهذه المناسبة صلاته على قرابته وأهل بيته ، وخص أخاه السيد أبا زيد بهبة جليلة قدرها عشرة آلاف لما بذل في خدمته ، وتنظيم بيعته .

وقد تمت بيعة الخليفة أبي يوسف في هدوء وسلام ، ودون أية معارضة ، أولاً لأن أباه الخليفة الراحل أبا يعقوب كان قد خصه بولاية عهده أثناء حياته ، وإن لم تقدم لنا الرواية تاريخ هذا التعيين<sup>(٢)</sup> ، وثانياً لأنه كان أكبر أولاده<sup>(٣)</sup> ، فكان هذا الاعتبار في ذاته مبرراً لتقديمه ، وذلك خلافاً لما كان عليه أبوه الخليفة أبو يعقوب بن عبد المؤمن حيث قدم للخلافة مع وجود شقيقه الأكبر السيد أبي حفص ، وذلك تنفيذاً لوصية أبيه .

ولما كمل أمر البيعة ، وشملت سائر أنحاء الأندلس ، وسائر الطبقات ، وتم تنظيم شئون الأندلس ، دعا الخليفة في اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى ( ٢ سبتمبر سنة ١١٨٤ ) أشياخ الموحدين والعرب ، وشيوخ الوفود من سائر القواعد ، وأذن بالحركة وانقضاء الغزو ، والتأهب للرحيل ، وكتب بذلك لسائر البلاد والقبائل من المجاهدين والمسافرين ، وقدم القائد أبو العباس الصقلي إلى ثغر طريف ، في ثلاث عشرة سفينة لنقل الخليفة وخاصته وجيشه ، وتقدمت سفينتان

---

( ١ ) وهذا التاريخ لا يتفق مع سير الأحداث والتواريخ السابقة . فقد كانت وفاة الخليفة وفقاً لنفس المؤرخ في ١٨ ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ ، وقد استغرق وصول الجيش المنسحب مدى شهر . وإذا فقد كان من المنطق أن تكون البيعة في نحو منتصف شهر جمادى الأولى لاني غرته ( البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٨ و ١٤٢ ) .  
( ٢ ) المعجب للمراكشي ص ١٤٧ .  
( ٣ ) الحلل الموشية ص ١٢٠ .



بالانتقال إلى رباط الفتح بمياه سلا . وفي فجر اليوم التالي ، خرج أهل الأندلس إلى بحيرة الوادي في جموع حاشدة ، وضربت قبة الخليفة على شاطئ النهر (الوادي الكبير) ، ونظم الموكب الخلفي ، يتقدمه المصحف الكريم ، وسار الخليفة في ضحى اليوم ، فنزل بقرية طريانة قبالة إشبيلية ، ثم غادرها إلى شريش ، تتبعه الحيوش ، ثم إلى مدينة شذونه ، أو مدينة ابن السليم<sup>(١)</sup> ، حيث التقى بالسيد أبي زكريا ابن أخيه السيد أبي حفص قادماً من تلمسان مع أعيان عرب زغبة ، ومعه سبعمائة جواد معونة لأهل الأندلس . وسار الخليفة بعد ذلك جنوباً صوب الشاطئ حتى وصل إلى الموضع المسمى بحجر الإيل<sup>(٢)</sup> ، وهي ربوة تقع على مقربة من طريف ، وقد اجتمع الأسطول على طول الشاطئ ، على قدم الأبهة لنقل الخليفة وجيشه ، وفي اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ ( ١٢ سبتمبر ) ضربت قبة الخليفة ، وقام أهل الأندلس بتحية الوداع ، وكذلك ودع الخليفة إخوته الذين قدمهم للولاية بالأندلس ، وهم أبو إسحاق وأبو زيد وأبو يحيى ، وفي ضحى نفس اليوم ركب الخليفة البحر ، وأمام سفينته مصحف عثمان ، ونزل بقصر مصمودة ، أو القصر الصغير ، قبالة ثغر طريف من البوغاز ، واستراح هنالك ريثما تم جواز سائر الجيش . ثم غادر القصر إلى رباط الفتح ، وهنالك تسمى لأول مرة بأمير المؤمنين ، وكان منذ بيعته يكتب بلقب « الأمير يعقوب » ، وكتب في الحال بذلك إلى بلاد الأندلس . وتلقاه في الرباط ، أبو عبد الله بن واجاج في وفود العرب وأهل فاس ومكناسة وعمالهم ، وأقال إبراهيم بن إسماعيل من عمل فاس ، وأمر سائر العمال بالمثل إلى الحضرة ، وقام بدفن أبيه أمير المؤمنين أبي يعقوب مؤقتاً بدار الخليفة بالرباط ، ثم نقل منها بعد ذلك ودفن بتينملل إلى جانب أبيه عبد المؤمن والمهدي ابن تومرت<sup>(٣)</sup> . وغادر الخليفة بعد ذلك رباط الفتح إلى حضرته مراکش<sup>(٤)</sup> .

كان الخليفة أبو يعقوب يوسف من أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، وبالرغم

---

( ١ ) وهي بالإسبانية Medina Sidonia

( ٢ ) وهي بالإسبانية La Pena del Cierro .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١٤١ ، والحلل الموشية ص ١٤٢ .

( ٤ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٣ .

من أنه لم يحقق في ميادين الحرب والسياسة نتائج عظيمة كالتى حققها أبوه الخليفة عبد المؤمن ، وولده الخليفة يعقوب المنصور ، فإنه يعتبر مع ذلك ، ولاسيما من النواحي الإدارية والعمرانية ، ثالث هؤلاء الخلفاء الثلاثة ، الذين بلغت الدولة الموحدية فى ظلهم أوج قوتها وعظمتها .

وقد امتاز حكم الخليفة أبى يعقوب بالحزم ، وتحرى الحق والعدالة ومطاردة الظلم والبغى<sup>(١)</sup> ، وترجع هذه النزعة إلى ما كان يتسم به هذا الخليفة من التقى والورع ، ومن العلم والتبحر فى العلوم الشرعية . وقد ظهرت هذه النزعة بصورة عملية ، فى غير مناسبة من أوامره وتصرفاته . وربما كانت رسالته التى وجهها إلى أخيه السيد أبى سعيد وإلى قرطبة ، وإلى سائر الطلبة الموحدين بالأندلس فى سنة ٥٦١ هـ ، بشأن وجوب تحرى الدقة فى تنفيذ الأحكام وتوقيع العقوبات ، أبرز محاولة بذلها فى هذا الشأن . وقد رأينا كيف عنى الخليفة فى هذه الرسالة التى لخصنا محتوياتها فيما تقدم ، بإصدار أمره إلى الموحدين بالآلا يقضى بحكم الإعدام إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة مشفوعة بالشرح وأقوال الشهود والعدول ، وأن تكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، وكذا فى سائر المعاملات والأموال ، واستحقاقها ، وفى الرقاب وعتقها وغير ذلك . وكان الخليفة إلى جانب هذه المحاولات الشرعية ، يقوم بمطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فإذا وقف على ما يرتكبه بعضهم من ظلم أو عسف أو اغتيال أموال الناس بالباطل ، عزله ونكبه . وكان من أبرز ما فعله فى ذلك بطشه بعمال مدينة فاس وملحقاتها ، والتنكيل بهم ، ومصادرة دورهم وأموالهم<sup>(٢)</sup> ، وما قام به فى جوازه الأول إلى الأندلس من نكبة بعض عمال إشبيلية والخزن من المختلسين وغيرهم ، وما قام به بعد ذلك من نكبة عماله ووزرائه بنى جامع الذين استأثروا بالوزارة دهرآ ، وغير ذلك مما أشرنا إليه .

وإلى جانب هذه النزعة إلى تحقيق العدالة ، كان حكم أبى يعقوب متمسكاً بالمقدرة والحزم ، فقد كان خبيراً بشئون مملكته ، عارفاً بسياسة رعيته ، دؤوباً

( ١ ) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٦ ب . وفى المطبوع ص ٢٣٣ و ٢٣٤

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣١ .

على النظر في الأمور ، وكان عارفاً بالشئون المالية ، ضابطاً لخراج مملكته<sup>(١)</sup> ، وربما كانت هذه المقدرة في فهم الشئون وتديرها راجعة بالأخص إلى ممارسته إياها ردها من الزمن قبل توليه الخلافة أيام أن كان والياً لإشبيلية ، وقائماً بشئون الأندلس .

وقد تجلّى هذا الحزم في حكم أبي يعقوب في شدة عنايته بقمع أية نزعة إلى الخروج والعصيان ، والسير بنفسه إلى مقاتلة الخوارج ، وذلك كما حدث عند فتنة غمارة ، ثم فتنة صنهاجة ، وحين ثورة قفصة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه في مواضعه .

والخلة الثانية التي امتاز بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، هي شغفه بالجهاد في سبيل الله ، وقد ظهر أثر هذا الشغف بالجهاد من الناحية النظرية فيما ألفه أبو يعقوب في فضل الجهاد ، مما نذكره بعد ؛ وظهر من الناحية العملية في عنايته بحشد الجيوش العظيمة وتمويلها ، ثم قيادتها في حملتيه العظمتين إلى شبه الجزيرة الأندلسية . وبالرغم من أن الخليفة أبا يعقوب لم يكن موقفاً في حملتيه المذكورتين ، وقد سجل فشله الأول تحت أسوار وبدة ، ثم سجل فشله الثاني أمام أسوار شنترين ، وبالرغم من أن الحملتين لم تكونا بعيدتين عن تحقيق الأغراض العسكرية والإقليمية ، فإن مقصد الجهاد كان هو النزعة المسيرة لها ، وقد ذهب الخليفة ضحية هذه النزعة واستشهد في ميدان الجهاد .

وكان أبو يعقوب إلى جانب ذلك ملكاً عظيماً « شديد الملوكية » على حد قول المؤرخ ، بعيد المهمة ، وافر البذل والجود ، عمت صلواته وأعطيته سائر الطوائف . ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « آية الموحدين في الإعطاء والمواساة » ، وفي أيامه ساد الرخاء واستغنى الناس ، وكثرت في أيديهم الأموال<sup>(٢)</sup> .

على أن ألمع وأعظم نخلة كان يتسم بها أبو يعقوب ، هو علمه وأدبه ، وقد أفاضت الروايات المعاصرة واللاحقة في التنويه بمواهبه العلمية والأدبية ، ويحمل ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، العارف بشخص أبي يعقوب وخطاه ، مواهبه العلمية ، في تلك الفقرة : « كان الأمير أبو يعقوب يوسف رضى الله عنه كاملاً فاضلاً عدلاً ورعاً جَزْلاً مستظهِراً للقرآن ، حافظاً له ، عالماً بالحديث ،

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) المعجب ص ١٣٣ ، وابن الخطيب في الإحاطة بخطوط الإسكوريال لوحة ٢٩٥ .



متقناً للعلوم الشرعية والأصولية ، متقدماً في علم الإمام المهدي رضي الله عنه<sup>(١)</sup> .  
على أن ما يجمله ابن صاحب الصلاة في تلك الكلمات القليلة ، يفصله لنا المراكشي بإفاضة في حديثه عن أبي يعقوب . وقد عاش المراكشي قريباً من عصر أبي يعقوب ، وكانت تربطه بعدة من أبنائه مثل أبي زكريا يحيى ، وأبي عبد الله محمد ، وأبي إبراهيم إسحق ، روابط وثيقة .

يقول المراكشي إن أبا يعقوب كان « أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها ، في الجاهلية والإسلام » . ثم يقول : « إنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية »<sup>(٢)</sup> .

ويجب لكي نقدر روعة هذه الصفات في أبي يعقوب ، أن نذكر أولاً أنه كان بأرومته من صميم أصول البربر ، وذلك سواء من ناحية أبيه أو ناحية أمه ، وقد ولد ونشأ بتينملل عاصمة المهدي ، في بيئة بربرية محضة ، ولكن يجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن أبا يعقوب كانت تحمله نفس الروح العلمية التي امتاز بها أبوه الخليفة العالم عبد المؤمن بن علي ، ثم يجب أن نذكر أيضاً أن أبا يعقوب قضى زهرة فتوته في إشبيلية مذكور عنه أبوه والياً لها في سنة ٥٥١ هـ ، وهو في نحو الثامنة عشرة من عمره ، حتى وفاة أبيه في سنة ٥٥٨ هـ ، حينما استدعى لتولي الخلافة من بعده . ففي هذه الأعوام الثمانية التي قضها أبو يعقوب في المدينة الأندلسية العظيمة ، التي كانت قد غدت منذ اضمحلال قرطبة عاصمة الأندلس الفكرية ، تفتحت مواهب أبي يعقوب العلمية والأدبية ، وقد كانت إشبيلية يومئذ مجمع أقطاب اللغة والعلوم الدينية ، وكان أبو يعقوب منذ حداثة حافظاً للقرآن متمكناً من الحديث ، حتى قيل إنه كان يحفظ صحيح البخاري . وكان في نفس الوقت بارعاً في الفقه ؛ وفي إشبيلية تلقى علوم اللغة عن بعض أقطابها ، وفي مقدمتهم العلامة اللغوي أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك المعروف بابن ملكون ، وبرع في النحو والأدب . ولما ولي الخلافة ، وعاد إلى إشبيلية في جوازه الأول إلى الأندلس ، واستطالت إقامته بها زهاء خمسة أعوام أخرى ، تجلت في هذه الفترة روعة مواهبه العلمية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٤٦ ب . وفي المطبوع ص ٢٢٣

(٢) راجع المعجب ص ١٢٢ و ١٢٣ .

أئمة التفكير الإسلامى ، هم طيبيه الخاص ، الفيلسوف العلامة أبو بكر بن طفيل الوادى آشى ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد بن رشد<sup>(١)</sup> ، والطبيب العبقري أبو بكر بن عبد الملك بن زهر . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطيبه ابن طفيل ، ولا يصبر على فراقه . وهكذا أتيح لأبي يعقوب أن يطلق العنان لشغفه بالدراسات الفلسفية فى ظل هذا الأفق العلمى الباهر ؛ ويبدو مما يذكره لنا المراكشى ، عن بعض مجالس الخليفة الفلسفية نقلاً عما رواه له أبو بكر ابن يحيى القرطبي عن أستاذه ابن رشد ، أن الخليفة كان يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ ، ويبدى فى شرح مسائلها « غزارة حفظ » تدعو إلى الإعجاب . ويضيف القرطبي إلى ذلك رواية أخرى مفادها أن أبا يعقوب هو الذى أوعز إلى ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها بما يشوبها من الغموض ، وأن ابن طفيل هو الذى اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة لما يعلمه من مقدرته وقوة نزوعه وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذى حمل ابن رشد حسبما يقول لنا ، على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهى الشروح التى اشتهر بها ابن رشد ، وترجمت فيما بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم فى دوائر التفكير الغربى . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه بفضل ابن رشد وبراعته<sup>(٢)</sup> .

وحمل الخليفة أبو يعقوب شغفه بالدراسات الفلسفية على الاهتمام بجميع كتبها ، والتنقيب عنها ، وعن غيرها من الكتب الخلية ، فى سائر أنحاء المغرب والأندلس ، وبذل فى ذلك جهوداً وأموالاً حمة ، واجتمع له منها مقادير ضخمة قيل إنها بلغت قرب ما كانت تبلغه المكتبة الأموية العظيمة أيام الحكم المستنصر . ويروى لنا المراكشى طرفاً من هذه الجهود ، وكيف وقع عمال الخليفة على مجموعات عظيمة من كتب الطب والفلك كانت لدى رجل بإشبيلية يعرف بأبي الحجاج المرانى ، وأن هذه الكتب كانت قد وقعت إلى أييه أيام الفتنة بالأندلس<sup>(٣)</sup> .

---

(١) كان ابن رشد قاضياً لإشبيلية منذ سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ١٢٦ .

(٣) المعجب ص ١٢٣ و ١٢٤ .



وقد انتهى إلينا من آثار الخليفة أبي يعقوب العلمية، بحث ديني يكشف لنا عن براعته في علم الحديث والعلوم الشرعية، وهو كتاب «الجهاد» الذي ألحق بكتاب المهدي ابن تومرت أو كتاب «أعز ما يطلب» وفيه يورد مؤلفه طائفة كبيرة من الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد في سبيل الله، والحث عليه، وتبيان محاسنه. ويلحق بذلك الكلام عن الجهاد ببذل المال وما ورد فيه أيضاً من الأحاديث وما يتسم به من الفضائل. ويحمل هذا الكتاب في خاتمه اسم مؤلفه، وهو الخليفة أمير المؤمنين، وتاريخ الانتهاء من وضعه، وهو العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة أعني قبيل وفاة واضعه بنحو تسعة أشهر<sup>(١)</sup>.

وكان الخليفة أبو يعقوب كلفاً بالمشاريع الإنشائية العظيمة، وقد قام بإنشاء طائفة من المنشآت العمرانية الهامة، والصروح الجليلة، التي خلدت اسمه، وجعلته في مقدمة خلفاء الموحدين، بل وفي مقدمة ملوك المغرب قاطبة في هذا الميدان. ويكفي أن نذكر هنا ما قام به في إشبيلية حاضرة الأندلس، من المشاريع والمنشآت العظيمة مثل قنطرة طريانة، ومسجد إشبيلية الجامع، وصومعته العظيمة التي أتمها ولده يعقوب المنصور، ومشروع إمداد إشبيلية بالماء، وتجديد أسوارها التي خربها السيل، وإنشاء القصور والبساتين الموحدية العظيمة خارج إشبيلية، وإنشاء قصبة بطليوس العظيمة وإمدادها بالماء، وهي التي ما زالت أطلالها القائمة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والمنعة. وما قام به أخيراً من توسيع حاضرة مراكش وتجميلها، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه في مواضعه.

\* \* \*

وتولى الحجابة لأبي يعقوب أول ولادته، شقيقه وكبيره السيد أبو حفص، ولما تنحى عنها وزرله أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع، واستمر في منصبه نحو خمسة عشر عاماً. ولما اشتد طغيانه، وبدت مثالبه، نكبه أبو يعقوب واستصحب أمواله، ونفاه مع ولده إلى الأندلس سنة ٥٧٣ هـ. فخلفه في الوزارة أبو بكر ابن يوسف الكومي، ليعمل تحت رياسته ولده وولي عهده أبي يوسف يعقوب، واستمر الأمر كذلك حتى وفاة أبي يعقوب وقيام ولده يعقوب بالأمر من بعده<sup>(٢)</sup>.

(١) راجع فصل الجهاد في كتاب المهدي ابن تومرت ص ٣٧٧ - ٤٠٠.

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٠، وابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة الخليفة

أبي يعقوب، مخطوط الإسكوريال لوحة ٢٩٥.



وتولى القضاء في عهده أبو محمد المالتى ، ثم عزل وولى بعده عيسى بن عمران التازى التسولى ، وكان عالماً متمكناً ، وأديباً نابهاً ، وشاعراً مجيداً ، وخطيباً بليغاً ، وكان يخطب عن الوفود وفي المناسبات الهامة ، وكانت له مكانة رفيعة في البلاط الموحدى . ثم ولى القضاء من بعده حجاج بن يوسف . ثم أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة . واستمر في منصبه حتى وفاة أبي يعقوب ، ومن بعده فترة أخرى في أوائل عهد ولده يعقوب المنصور .

وتولى الكتابة لأبى يعقوب أبو الحسن بن عياش القرطبي كاتب أبيه من قبل . وكان هذا الكاتب الأندلسى ، قد فر من بلده قرطبة عند قيام الثورة بها في أواخر العهد المرابطى ، ولجأ إلى إشبيلية ، واتصل بالسيد أبى حفص بن عبد المؤمن فاختاره لكتابه ، ثم صحبه معه إلى تلمسان ، ولم يزل متولياً كتابته حتى نكبة الخليفة عبد المؤمن لوزيره ابن عطية ، فاستدعاه الخليفة وعينه لكتابه . ولبت ابن عياش كاتباً للخليفة أبى يعقوب حتى توفى في سنة ٥٦٨ هـ . وكتب لأبى يعقوب أيضاً أبو القاسم القالى ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة وهو من أهل بجاية ، وأبو الحسين الهوزنى الإشبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى . وفي مجموعة الرسائل الموحدية ، رسائل عديدة بقلم ابن عياش وزميله ابن محشرة تدلى بما كان لهما من الكاتبتين من مقدرة راسخة في أساليب البيان<sup>(١)</sup> .

وترك أبو يعقوب من البنين ثمانية عشر ، وهم ولى عهده يعقوب المنصور وشقيقه إسحق ، ويحيى ، وإبراهيم ، وعبد العزيز ، وإدريس ، وأبو بكر ، وعبد الله . وأحمد ، ويحيى الصغير ، ومحمد ، وعمر ، وعبد الواحد ، وعبد الحق ، وطلحة وعبد الرحمن ، وموسى ، وعثمان . كما ترك عدة من البنات .

وأما عن شخصه ، فقد كان أبو يعقوب أبيض اللون مشرباً بالحمرة ، فاحم الشعر ، مستدير الوجه ، أعين ، إلى الطول أقرب ، وكان جهر الصوت ، طيب المجالسة ، فصيح العبارة ، حلو الألفاظ ، رقيق الحلال<sup>(٢)</sup> .

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٠ ، والمراكشى في المعجب ص ١٣٧ ، وابن الخطيب في الإحاطة مخطوط الإسكوريال السابق ذكره لوحة ٣٩٥ .

( ٢ ) المراكشى في المعجب ص ١٣٢ . وقد عاش المراكشى قريبا من عصر الخليفة أبى يعقوب وكانت له صلة وثيقة ببعض أبنائه .

الكتاب السابع

عصر الخليفة يعقوب المنصور  
حتى موقعة العقاب

# الفصل الأول

## عصر الخليفة يعقوب المنصور

### وبداية ثورة بني غانية

الخليفة أبو يوسف يعقوب . رواية في معارضة بيعته . اهتمامه بمطاردة الفساد والمنكر . حظره لبس الثياب الحريرية . عنايته بتحقيق العدل وقمع الظلم . جلوسه للنظر في المظالم . إنشاؤه لصاحبة الصالحة الملوكية . مضاعفته لوزن الدينار . بداية عدوان بني غانية بإفريقية ، فتح المرابطين للجزائر الشرقية . ولاية وائور المتونى عليها . ولاية محمد بن غانية . استقلاله بعد سقوط المرابطين بحكم الجزائر . وفاته وولاية ولده إسماعيل . الجزائر تغدو مشوى لبقايا المرابطين . تقدم الجزائر ونمو قوتها . غزوات سفنها لشواطئ الدول النصرانية . عقد التهادن بينها وبين بيزة وخنوة والبتندية . اطمئنانها أيام حكم ابن مردنيش . تحولها إلى مصانعة الموحدين بعد وفاته . اهتمام الموحدين بأمر الجزائر . مطالبهم لإسماعيل الاعتراف بالطاعة . وفاة إسماعيل وولاية ولده محمد . مقدم على البربرتيير سفير الخليفة إلى الجزائر . اعتراف محمد بطاعة الخليفة . خروج إخوته عليه واعتقالهم إياه . حجزهم لسفير الخليفة ورفضهم لطاعة الموحدين . خطمهم لمحاربة الموحدين في إفريقية . تدبيرهم لغزو بجاية . مسير على بن إسماعيل إليها في حملة بحرية . اقتحامه إياها بمواطاة بعض أهلها . نزوله بها ودعوته لبني العباس . تعيينه لأخيه يحيى والياً لها . مطاردته لوالها الموحدي السيد أبي الربيع . حرمة السيد وفراره . استيلاء على الجزائر ومليانة وأشير والقلمة . وصف لمدينة مليانة . عوده إلى بجاية وانتهابها فيها . مسيره إلى قسنطينة ورده عنها . اهتمام الخليفة المنصور بتلك الحوادث . إرساله جيشاً إلى إفريقية بقيادة السيد أبي زيد . تسييره للأسطول في نفس الوقت . ثورة المدن المحتلة ضد الغزاة . استيلاء الأسطول الموحدي على مدينة الجزائر . القبض على يحيى بن غانية وعلى حاكم مليانة المرابطي . الثورة داخل بجاية . دخول الموحدين إياها . فرار يحيى بن غانية وإخوته . أسر رشيد قائد سفن الميارقة والاستيلاء عليها . فشل على بن إسماعيل في اقتحام قسنطينة . فراره وإخوته وقلوله إلى الصحراء . مطاردته وعجز الموحدين عن إدراكه . فراره إلى بلاد الجريد ونهبه لمخلاتها . استماتته لطوائف العرب . اقتحامه لمدينة توزر ونهبها . الفوضى في بجاية . اقتحام غزي الصنهاجي قائد ابن غانية لأشير . قدوم الموحدين لإنقاذها ونجاحهم في استردادها . مصرع غزي وأخيه . مقتل رشيد الرومي . مقتل وتشريد أنصار بني غانية في بجاية . زحف على بن غانية على قصبة واستيلاؤه عليها . دعوته للخليفة العباسي . استماتته لطوائف العرب . تحالفه مع قراقوش الأرمني . كيف نزع قراقوش وصحبه الترك إلى المغرب . افتتاحه لفزان وطرابلس . التفاف العرب حوله . تطور الحوادث في الجزائر الشرقية . مؤامرة البربرتيير لخلع طلحة بن إسماعيل وإعادة أخيه محمد . نجاح المؤامرة . دعوة البربرتيير للخليفة الموحدي . مفادته لميورقة . محاولة الموحدين تملك الجزائر . فشل هذه المحاولة . ثورة أهل ميورقة على محمد . مقدم عبد الله بن غانية . انتزاعه الولاية ونفيه لمحمد . محاولة أخرى للموحدين لافتتاح الجزائر . فشلهم في أخذ ميورقة . تفاقم أمر على بن غانية بإفريقية . تحالفه مع قراقوش وطوائف العرب . انصوائه تحت لواء الخلافة العباسية . ييسط حكم الإرهاب



على إفريقية . اهتمام الخليفة يعقوب بذلك . تجهيزه لجيش موحدى . سيره فى قواته إلى رباط الفتح ثم إلى فاس . عنايته بالشئون خلال سيره . سيره إلى قسنطينة ثم إلى تونس . استعداد ابن غانية وحلفائه . الخليفة يرسل حملة لقتاله بقيادة السيد أبى يوسف . اللقاء بين الموحدين والمبارقة وحلفائهم قرب قفصة . موقعة عمرة . هزيمة الموحدين ومصرع أكثرهم . الاستيلاء على محلتهم . فرار السيد أبى يوسف وقلوله . اهتمام الخليفة لتلك النكبة . خروجه فى قواته من تونس . سيره صوب القيروان . إنذاره لابن غانية . سيره إلى الحمة قرب قابس . مقدم ابن غانية وحلفائه . مهاجمة الموحدين للمغرب حلفاء ابن غانية . تحاذيهم وتبدهم . مهاجمة الموحدين للمبارقة والترك . المعركة الدموية . هزيمة المبارقة . فرار ابن غانية وقراقوش إلى الصحراء . استيلاء المنصور على قابس وبلاد الجريد . محاصرته لقفصة وتسليمها بالأمان . القبض على قادة الغز وإعدامهم . توحيد قراقوش وابن زيان . عودة المنصور إلى تونس . سيره إلى تلمسان ثم إلى مكناسة . تأمر أخيه الرشيد وعمه سليمان ضده . ذكوصهما ومسيرهما لمقابلة الخليفة . القبض عليهما وإعدامهما . دخول الخليفة إلى الحضرة . اهتمامه بشئون الأندلس واستعداداته للجهاد .

استعرضنا فيما تقدم مجمل الحوادث التى وقعت عقب نكبة شنترين ومصرع الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وما تم من مراحل بيعه الخليفة أبى يوسف يعقوب ولد الخليفة الراحل ، وعبره من الأندلس إلى العدو عائداً إلى حضرة مراکش .

وكان الخليفة الحديدي فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمدينة قصر عبد الكريم أو القصر الكبير أواخر شهر ذى الحجة سنة ٥٥٤ هـ ( يناير سنة ١١٥٩ ) أو فى سنة ٥٥٥ هـ على قول آخر . وأمه أم ولد كان قد أهداها سيدراى بن وزير صاحب شلب لأبيه الخليفة أبى يعقوب<sup>(١)</sup> . لقبه المنصور بـفضل الله ، أسبغته عليه انتصاراته المتوالية ولاسيما فى معركة الأرك العظيمة .

وقد رأينا كيف تمت بيعته الخاصة عقب وفاة أبيه ، بمحلة الجيش المنسحب ، وهوى طريقه إلى إشبيلية ، ثم تأيدت بعد ذلك بيعته العامة بإشبيلية ، ولم تلق هذه البيعة يومئذ معارضة من أحد . ولكن صاحب المعجب ، يقول لنا إنه كان له من إخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلاً للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء سيرته فى صباه ، وأنه لقي منهم شدة . بيد أنه لما نزل خلال عودته بسلا ، استجاب لبيعته من كان قد تخلف من أعمامه بنى عبد المؤمن ، بعد ما أغدق عليهم الأموال والإقطاعات الواسعة<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) البيذق فى أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤ ، وروض القرطاس ص ١٤٣ ، وتاريخ الدولتين للزركشى ص ١٠ .  
( ٢ ) المراكشى فى المعجب ص ١٥٠ .

وبدأ الخليفة يعقوب عهده بعمل خير مشكور ، فأخرج من بيت المال مائة ألف دينار من الذهب ، فرقت في أسر الفقراء والضعفاء في سائر أنحاء المغرب ، وأمر بتسريح المسجونين<sup>(١)</sup> . ثم نشط إلى مطاردة مظاهر الفساد التي بدت بالحاضرة الموحدية على أثر عودته ، وكان الناس قد انغمسوا ، في الدعة ، وأنهمكوا في ضروب اللهو والملاذ ، وراجت سوق الخمر والقيان والغانيات ، فأريقتم الخمر في كل مكان ، ونفذت الأوامر بذلك إلى سائر الجهات ، وأُنذِر المخالفون بعقاب الموت ، وطاردت الشرطة كل مستهتر ، وألقت القبض على من وجد من المغنين ، ففرقوا في كل مكان ، ولاذوا بالنكيرة والاختفاء ، واختفى القيان ، وزهد الناس في مجالسهن ، وبعث الخليفة بهذه المناسبة إلى إشبيلية ، حاضرة الأندلس الموحدية ، برسالة إلى الطلبة والموحدين والأشياخ مؤرخة في في عقب رمضان سنة ٥٨٠ هـ يأمر فيها بمطاردة شراب الرب ، وهو مسكر ذائع ، وقطعه جملة ، ومنع بيعه وإغلاق حوانيته ، وإراقة ما يوجد منه ، وتوقيع أشد العقاب على من يقتنيه ، وبأن تنفذ هذه الرسالة إلى كافة الجهات للعمل بما فيها<sup>(٢)</sup> . وأمر الخليفة كذلك بمنع الثياب الحريرية الغالية ، والاجتزاء منها بالرسم الرقيق ، ومنع النساء من لبس الثياب الخفيفة ، والاقتصار على الساذج القليل ، وأخرج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب ، فبيعت منه مقادير وفيرة بأثمان باهظة . وهكذا هبت على العاصمة الموحدية ريح من الاقتصار والتواضع والتقشف ، واختفى كثير من ضروب الفساد التي كانت ذائعة بها<sup>(٣)</sup> .

وعنى الخليفة في نفس الوقت بالعمل على بسط العدل وتأييده ورد المظالم التي وقعت أيام أبيه ، ومطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فنفذت كتبه إلى سائر الولاة والعمال بمراعاة العدل ، وتأنييس الرعية ، والعمل على إرضائهم في اقتضاء حقوقهم ، وكف الظلمة عن إرهابهم ، وإباحة جواز البحر إلى المشتكين ، والمتظلمين من شبه الجزيرة . فاستبشر الناس بالعهد الجديد وطواله ، وأملوا تحقيق العدل والخير .

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٢) الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل الموحدية ( ص ١٦٤ - ١٦٧ ) .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٣ ، و ١٤٤ ، و ١٤٥ .



ورأى الخليفة أن يقرن هذا التوجيه إلى تحقيق العدالة ، بأن يجلس للنظر بنفسه في المظالم وإجراء العدل ، واتخذ مجلسه لذلك الغرض بالمسجد الجامع المجاور لقصر الحجر القديم ، وكان بدأ جلوسه في غرة شهر رجب سنة ٥٨٠ هـ ، وكان يداوم جلوسه منذ الضحى إلى قرب الزوال . ويقد إليه المتظلمون من كل ضرب ، فيؤنسهم برفقه ولينه ، ويستمع إلى ظلاماتهم ، وكثرت دعاوى المدعين من السوق والتجار ، قبل السادة والأشياخ والأكابر ، بطلب الحقوق والأموال ، وكثر في ذلك الزور والتدليس ، فكان يقع الصلح في معظم الأحوال بما يرضى المدعين دفعاً للفضيحة ، فلما تمالى هذا الأمر ، وكثر وفود السفلة والغوغاء وانكشف أمرهم ، وبدأ تحاملهم ، قطع الخليفة جلوسه للعامة ، وأسدل الستار على هذا السيل من الإفاك والبهتان<sup>(١)</sup> .

وفي العام التالي ، اعزم الخليفة أن ينشئ له ضاحية ملوكية تتفق مع روعة الملك ومقتضياته ، وذلك بعد أن ضاق قصر الحجر القديم - قصر على بن يوسف - وملحقاته ، عن استيعاب الأغراض الخليفية ، ومطالب البلاط والحاشية ، فاختطت ضاحية الصالحة ، على رقعة مستطيلة تمتد في جنوبي مراكش ، ما بين باب أغات شرقاً وباب الشريعة غرباً . وكان البدء في إنشائها في مستهل شهر رجب سنة ٥٨١ هـ ( ٢٨ سبتمبر سنة ١١٨٥ م ) وحشد لبنائها رهط من المهندسين والعرفاء ، وآلاف من العمال والبنائين والفنانين ، من المغرب وإفريقية والأندلس ، وجمعت لها سائر الآلات اللازمة ، ورتب لها الحفاظ والنظار . وأمر الخليفة أن يراعى في إقامتها منتهى الإتقان والمناطة ، وأنشئت بها عدة قصور ملوكية ، ومسجد جامع ، ما زال يقوم بها حتى اليوم ، ويحمل اسم منشئه الخليفة يعقوب المنصور ، واستمر العمل في بنائها نحو أربعة أعوام ، حيث كملت في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٤ هـ ( مايو سنة ١١٨٨ م ) ، وبدأت في أجمل هيئة ، وأضحت عروس الحاضرة المراكشية ، بما أسبغ عليها من ضروب التنسيق والإتقان ، والفخامة<sup>(٢)</sup> .

وفي نفس هذا العام الزاخر بمشاريع الإصلاح والإنشاء أعنى سنة ٥٨١ هـ ( ١١٨٥ م ) اتخذ الخليفة خطوة جديدة لها خطرها ، في ميدان الإصلاح المالي ، وذلك هو

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٤ و ١٤٥ .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٥ و ١٤٦ .



إقدامه على مضاعفة وزن الدينار الموحدى . وكان الدينار الموحدى القديم صغير الحجم ، صغير الوزن ، لا يعدو وزنه القانونى بحسب الوزن الحديث جرامين وخمسة وثلاثون فى المائة من الجرام ، فأمر المنصور بمضاعفة وزنه ، وأخرجت دار السكة الموحدية بمدينة فاس ، الدينار الحديد بوزن أربعة جرامات وسبعين فى المائة من الجرام ، فكان لذلك الإجراء أثر بالغ فى بث الطمأنينة المالية ، واستقرار التعامل بين الناس (١) .

بيد أنه حدثت فى نفس تلك الفترة التى خيم فيها ظل الأمن والاستبشار على العاصمة الموحدية ، والتى عنى فيها الخليفة الحديد ، بأعمال الإصلاح والإنشاء — حدثت بإفريقية حوادث فى منتهى الخطورة ، إذ هاجم بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، أو أصحاب ميورقة ، ثغر بحاية واستولوا عليه ، واستولوا على عدة أخرى من ثغور الشاطئ ، وكان ذلك بداية ذلك الصراع المرير الذى نشب فى أراضى إفريقية بين الموحدين وبنى غانية ، واستطال أكثر من نصف قرن ، وكان له أبلغ الأثر فى انحلال الدولة الموحدية واستغراق جهودها ، وتبديد قواها ومواردها . ولا بد لنا لكى نفهم طبيعة ذلك الصراع وتطوراته ، والبواعث التى أدت إليه ، أن نعود فترة طويلة إلى الوراء ، نستعرض فيها تاريخ الجزائر الشرقية ، منذ أسندت ولايتها إلى بنى غانية أيام العهد المرابطى .

ذكرنا فيما تقدم من أخبار الدولة المرابطية أن أمير المسلمين على بن يوسف ، حينما غزا الجنويون والبيزيون وحليفهم أمير برشلونة ، الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فى أواخر سنة ٥٠٨ هـ (أوائل سنة ١١١٥ م) واستولوا على مدينة ميورقة بعد حصار طويل ، بادر بتجهيز أسطول مرابطى ضخم لاسترداد الجزائر ، واستردها المرابطون بالفعل فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) وعين أمير المسلمين لولايتها وانور بن أبى بكر اللمتونى ، فلبث فى حكمها زهاء عشرة أعوام ، ولكنه أساء السيرة واستبد وبغى ، حتى اضطرمت الثورة فى الجزائر ، وقبض الثوار على وانور ، وبعثوا إلى أمير المسلمين ، يشرحون ظلاماتهم ، ويلتمسون إليه أن

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وراجع كتاب «الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة» المنشور بعناية الدكتور حسين مؤنس (معهد الدراسات الإسلامية بمدرسة سنة ١٩٦٠) ص ٥١ .

يعين لهم والياً آخر ، فاستجاب أمير المسلمين إلى رغبتهم ، وعين والياً جديداً للجزائر ، ولم يكن هذا الوالي الجديد ، سوى محمد بن غانية المستوفى ، وهو أخو الأمير القائد أبي زكريا يحيى بن غانية ، وكان يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر في سنة ٥٢٠ هـ ( ١١٢٦ م ) وتولى شئونها بحزم وكفاية ، وشاء القدر أن تكون ولايته للجزائر ، فاتحة عهد جديد في تاريخها ، يتصل مدى أمد قصير بتاريخ الدولة المرابطية ، ثم يغلو بعد ذلك مستقلاً في ظل بني غانية .

وقد سبق لنا التعريف ببني غانية ، وتتبع سيرة زعيمهم القائد البطل يحيى ابن غانية ، حتى وفاته بغرناطة سنة ٥٤٣ هـ ( ١١٤٨ م ) ، خلال غمار الثورة التي اضطرت بأرجاء الأندلس ضد المرابطين . أما أخوه محمد بن غانية ، فقد لبث على ولايته للجزائر ، حتى سقطت الدولة المرابطية ، ودخل الموحدون مراكش ، في شوال سنة ٥٤١ هـ ( مارس ١١٤٧ ) . وكان محمد ، مذكراً لأمير الدولة المرابطية ، وقيام أمر الموحدين ، يعمل على توطيد سلطانه بالجزائر ، والاستقلال بشئونها . ولما قضى الأمر وانتهت الدولة المرابطية ، لبث محمد مع ذلك على ولايته لقضية المرابطين وملتونة ، واستمر يدعو في الخطبة لأمر المسلمين وبني العباس ، وجعل من ميورقة والجزائر ، ملجأ ومشوى للوافدين والقارين من فلول ملتونة والمرابطين ، يستقرون بها تحت حمايته ورعايته .

واستطال حكم محمد بن غانية للجزائر زهاء ثلاثين عاماً ، وكان يرقب من مقره النائي بالبحر ، سير الحوادث ، وتقدم أمر الموحدين بشبه الجزيرة . بيد أنه كان يرى في قيام ابن مردنيش ضد الموحدين ، وتمكن سلطانه في شرق الأندلس ، عاملاً يدعو إلى الطمأنينة . وكان مذ شعور بتوطد أمره ، في تلك الجزائر المنعزلة ، يعتزم أن يجعل منها ملكاً موثقاً له ولعقبه . وكان له من الولد أربعة هم عبد الله وإسحق والزبير وطلحة ، فاختار لولاية عهده أكبر أولاده عبد الله . وهنا تختلف الرواية فيقال إن إسحاق حقد على أخيه ودبر مؤامرة قتل فيها أبوه وأخوه . وفي رواية أخرى أن عبد الله خلف أباه في حكم الجزائر حينما توفي سنة ٥٥٠ هـ ( ١١٥٥ م ) ، وأن أخاه إسحاق خلفه في الحكم بعد وفاته<sup>(١)</sup> .

وعلى أي حال فقد تولى إسحاق بن محمد بن غانية حكم الجزائر الشرقية ،

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، والمعجب لمراكشي ص ١٥٢ ، وراجع أيضاً :

A. Bel : Les Benou Obania (Paris 1903) p. 19.



وضبطها بحزم وقوة . واستمر على سياسة أبيه من جعلها ملجأ للوافدين من فلول  
لمتوتة ، ورمزاً لثورة المرابطين الأخيرة ضد الموحدين . وكان أولئك المرابطون  
الوافدون على الجزائر يمدونها بعونهم ، وروح البغض المتأصلة فيهم ضد الموحدين ،  
بقوى ذات شأن . وفي عهد إسحاق نمت موارد الجزائر وقوتها نمواً كبيراً ،  
وأضحت أساطيلها القوية عاملاً يحسب حسابه في ميزان القوى البحرية في هذا  
الجانب من البحر المتوسط . ويبدو من خطاب أرسله الفارس برنجيردى تراجونا ،  
وهو من أشرف برشلونة ، وكان قد لحاً إلى ميورقة ، فراراً من اضطهاد أميره ،  
إلى ألفونسو الثاني ملك أراجون في سنة ١١٧١ ( ٥٦٧ هـ ) ما كانت عليه ميورقة  
الإسلامية في ذلك العهد من القوة والازدهار ووفرة الموارد . وكانت حملات  
إسحاق البحرية تتردد بالغزو بانتظام لشواطئ الممالك النصرانية القريبة ، وتشحن  
فيها ، وتحجز مقادير عظيمة من الغنائم والسبي ، ويقول لنا المراكشي إنه كان  
يغزو هذه الشواطئ في العام مرتين<sup>(١)</sup> . وفي الروايات النصرانية ، أن مسلمي  
ميورقة في عهد إسحاق غزوا ثغر طولون في جنوبي فرنسا ، واستولوا عليه في  
سنة ١١٧٨ م ( ٥٧٤ هـ ) وأسروا الفيكونت هوجو جودفريد صاحب مرسيليا ،  
وعدة آخرين من أكابر النصارى ، وكان من أثر اشتداد قوة ميورقة البحرية ،  
وتوالي غزواتها لشواطئ الدول النصرانية القريبة ، أن سعت جمهوريات جنوة وبيزة  
والبندقية إلى عقد المهادنة والصلح مع إسحاق ، فعقدت بين الفريقين في سنة ١١٧٧  
( ٥٧٣ هـ ) معاهدة صلح وصداقة تعهد فيها كل منهما ألا يحدث أضراراً للآخر  
في البر ولا في البحر ، واستمرت هذه المعاهدة سارية حتى توفي إسحاق في أوائل  
سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م )<sup>(٢)</sup> .

ونحن نعرف أن ثورة ابن مردنيش ضد الموحدين ، استطالت زهاء ربع قرن  
حتى وفاته في سنة ٥٦٧ هـ ( ١١٧١ م ) ، وفي خلال ذلك كان ابن مردنيش يسيطر  
على شرقي الأندلس كله ، وعلى أجزاء من الأندلس الوسطى . وكانت مملكة ميورقة  
خلال هذه الفترة ، تشعر بما تسبغها عليها سيطرة ابن مردنيش لشرقي الأندلس  
من طمأنينة وسلامة . بيد أن سلطان ابن مردنيش مالبث أن أخذ في التصدع ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٢ . وكذلك A. Bel : Les Benou Obanla, p. 24 & 25

(٢) راجع : A. Campaner y Fuertes: Bosquejo Historico de la Dominación  
Islamica en las Islas Baleares (Cit. Espana Sagrada) p. 144-145.



ولاسيما منذ انقلب عليه صهره وحليفه القوي إبراهيم بن همشك وانحاز إلى الموحدين. ثم انتهى أمر ابن مردنيش وانهارت مملكة الشرق بوفاته (٥٦٧ هـ) ودخل الموحدون مرسية ، وبسطوا سلطانهم على شرق الأندلس ، وأضحوا على مقربة من الجزائر. وهنا رأى إسحاق ابن غانية ، أن يتحول إلى مصانعة الموحدين ومهادنتهم ، فأخذ يرأسلهم ، ويبعث إليهم بنفيس الهدايا من خاصة غنائمه وسبييه ، وكان الموحدون في البداية ، يستصغرون شأن الجزائر ، ولا يحفلون بأمرها ، فلما سيطروا على شواطئ الأندلس وثغورها الشرقية ، ولما رأوا تقرب إسحاق منهم ، أخذوا يهتمون بشأنها ، ويدركون أهمية موقعها البحري ، فتوالت كتبهم على إسحاق بطلب الدخول في طاعتهم ، وبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى إسحاق كتابه بذلك في سنة ٥٧٨ هـ ( ١١٨٢ م ) وطلب إليه بصفة رسمية أن يعترف بطاعته وأن يدعو له في الخطبة . فعرض إسحاق هذا الأمر على أكابر أصحابه ، فاختلف رأيهم بين الاستجابة والرفض ، فرأى أن يرجئ رده على الخليفة . وخرج في أسطوله غازياً إلى بعض السواحل النصرانية القريبة ، فقتل في بعض المعارك ، وقيل أنه طعن في حلقه ، وحمل حياً إلى ميورقة ، وهناك مات في قصره . وكانت وفاته سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م )<sup>(١)</sup> .

ولما توفي إسحاق بن محمد بن غانية ، خلفه في حكم الجزائر أكبر أولاده العديدين محمد<sup>(٢)</sup> . وكان قد اختاره في حياته لولاية عهده . وكان محمد يواجه في بداية حكمه تلك المشكلة الدقيقة ، التي أثارها الخليفة الموحدى بدعوته إلى خضوع الجزائر لسلطانه . وازدادت هذه المشكلة دقة بما عهد إليه الخليفة أبو يعقوب من إرسال سفيره إلى ميورقة في بعض السفن الموحدية ، التي سارت به من سبتة ، ليعرض الطاعة بنفسه على أميرها ، وليختبر مدى استعداد بني غانية للاستجابة إلى الدخول في الدعوة الموحدية . وكان سفير الخليفة إلى محمد بن غانية ، رجلاً من طراز خاص ، هو أبو الحسن علي البربرتي ، وهو ولد الفارس النصراني البربرتي El Reverter أو روبرتو القطلوني ، قائد جند الروم أو النصراني المرتزقة في الجيش المرابطي أيام علي بن يوسف ، وقد أبلى البربرتي وجنده الروم

(١) المعجب ص ١٥٢ ، وكذلك A. Bel : ibid; p. 24 & 25.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ . ويقول المراكشي إن الذي خلف إسحاق هو أكبر أولاده

على (ص ١٥٢) .

حسباً فصلنا من قبل ، خبر البلاء في محاربة الموحدين ، وانتصر عليهم مراراً ثم توفي قتيلاً في إحدى المعارك ، وذلك في سنة ٥٣٩ هـ ( ١١٤٤ م ) وترك ولدين ، كان أحدهما على هذا الذي اعتنق الإسلام ، وتحول إلى خدمة الموحدين .

واستقبل محمد بن غانية سفير الخليفة بترحاب ومودة ، وأبدى استجابته إلى الدخول في طاعة الخليفة . وكان الخليفة أبو يعقوب عندئذ قد عبر البحر إلى الأندلس في جيوشه الحرارة ، وذلك في صفر سنة ٥٨٠ هـ ( أبريل سنة ١١٨٤ م ) ، قاصداً استئناف الجهاد ضد النصاري ، فلم يكن أمام محمد سوى الخضوع وسيلة لاتقاء الغزو الموحدى . ولكن إخوة محمد ، وهم علي ويحيى وطلحة وعبد الله وسير وتاشفين ومحمد المنصور وإبراهيم ، لم يرقهم هذا الخضوع ، فثاروا ضد محمد ، وقبضوا عليه واعتقلوه ، وقدموا أخاهم علياً لولاية الجزائر ، ووضعوا في الوقت نفسه سفير الخليفة علياً البربري في شبه اعتقال ، وحالوا بينه وبين مغادرة الجزيرة ، واعتقلوا بحارة السفن الموحدية ، ووضعوا بها بحارة من ميورقة ، ولبثوا يطاولون البربري ، حتى جاءت الأنباء بمصرع الخليفة أبي يعقوب عقب موقعة شنترين ، وتفرق الجيوش الموحدية الغازية ، فعندئذ أعلن علي وإخوته جهاراً رفضهم للدعوة الموحدية والدخول فيها ، وألقوا بعلي البربري إلى ظلام السجن<sup>(١)</sup> .

ولم يكتف بنو غانية — علي وإخوته — برفض طاعة الموحدين واعتقال سفيرهم ، بل فكروا كذلك في انتهاز فرصة ما أصاب الموحدين من آثار هزيمة شنترين ، وتفرق جيوشهم الغازية ، وجنوح الخليفة الجديد أبي يوسف يعقوب إلى القيام بأعمال الإصلاح والإنشاء في ظل السكينة والعافية ، لإنزال أول ضرباتهم بالموحدين ، فاتجهوا بأبصارهم إلى إفريقية ، إلى تلك المنطقة المضطربة ، التي كانت دائماً مثار القلاقل والمتاعب للموحدين ، والتي كانت طوائف العرب بها تجعل بتقلبها من فريق إلى فريق ، ميزان القوى دائماً في تردد ، وأزمعوا غزو مدينة بجاية أقرب ثغور هذه المنطقة إلى ميورقة .

ولم يكن تفكير بني غانية في غزو بجاية دون تمهيد سابق ، فقد اتصل علي ابن غانية ببعض العناصر الناقمة على الموحدين في المدينة ، من أولياء بني حماد

( ١ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك :

Campaner y Puertes : Ibid, p. 146 : -A. Bel : Ibid; p. 29.



أمرائها السابقين ، وراسله جماعة من أهلها ، وكان يعتمد فوق ذلك على موازنة بعض طوائف العرب من بني هلال ورياح والأثبيج . ونحن نذكر ما حدث قبل ذلك بأعوام قلائل من ثورة بني الرند في قفصة ، وقيام الخليفة أبي يعقوب بإخماد هذه الثورة ( سنة ٥٧٦ هـ ) ، وإسناده عندئذ ولاية إفريقية لأخيه السيد على أبي الحسين ، وولاية بجاية والزاب لأخيه السيد أبي موسى عيسى ، وما حدث بعد ذلك بقليل من ثورة عرب بني سليم على مقربة من قابس ، وأسرفهم للسيد أبي الحسين وأصحابه عندما تصدوا لمقاومتهم ، ثم إطلاق سراحهم لقاء فدية كبيرة . وكان تكرار هذه الحوادث وأمثالها ، مما يشجع بني غانية على اختيار هذه المنطقة بالذات مسرحاً لمغامراتهم ضد الموحدين .

وحشد على بن إسحاق الملقب بالمورقي أسطولا صغيراً من اثنين وثلاثين سفينة تحمل نحو مائتي فارس وأربعة آلاف راجل ، تحت إمرة القائد رشيد النصراني ، واستخلف على ميورقة عمه أبا الزبير . وسار مع إخوته في سفنه صوب بجاية ، فوصلت بسلام إلى مقربة من الميناء . وكان كل شيء في المدينة هادئاً ، ولم يخطر ببال أحد من أهلها أن الغزاة على الأبواب . ودفع القائد رشيد رجاله في زورق إلى أسفل الأسوار للاستخبار والتحرى ، وكان والى المدينة السيد أبو الربيع سليمان عم الخليفة خارج المدينة وعلى مقربة منها راحلاً إلى الحضرة ، وقد حل بها السيد أبو موسى مع بعض أصحابه في طريقه إلى تلمسان ، ولم يك ثمة أية أهبات دفاعية يعتد بها . فتقدمت السفن المهاجمة من المدينة . واحتشد رهط كبير من الغزاة في مكان معين قبالة الأسوار ، كان متفقاً على اختياره لاقتحام المدينة مع الضالعين مع الغزاة ، وتلقى بعض هؤلاء من الأسوار ليدلوا الغزاة على عورات السور ، وثغرات الدفاع . واجتمعت جمهير من أهل البلد لمقاومة الغزاة دون قائد يجمع شملهم ، ودون استعداد ، وقد تنازل الرؤساء وأولو الأمر ، فسلط الميورقيون عليهم القسي والسهام ففتكت بهم . ثم تقدم الفرسان والمشاة ، واقتحموا المدينة من ثلمات السور ، واستولوا عليها ، وقبضوا على السيد أبي موسى وآله وعلى سائر الموحدين الذي يخشى بأسمهم . وكان سقوط بجاية على هذا النحو في يد على بن إسحاق المورقي في السادس من شهر شعبان سنة ٥٨٠ هـ ( ١٣ نوفمبر سنة ١١٨٤ م )<sup>(١)</sup> .

(١) المعجب ص ١٥٣ ، والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٩١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ . ويأخذ ألفرد بل بهذا التاريخ . Les Benou Ghania, p. 42 . ولكن صاحب البيان =



وأقام على بن غانية أسبوعاً في بجاية ينظر في شئونها ، وصلى بها الجمعة ، ودعا في الخطبة لبني العباس ، والخليفة العباسي أحمد الناصر ، وكان خطيبه يومئذ هو خطيب بجاية الفقيه المحدث والأديب الشاعر ، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشيلي صاحب كتاب « الأحكام » وغيره . وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب ، حينما بلغه موقفه يزعم قتله والاقتصاص منه . ولكنه توفي غير بعيد ونجا من نقمته<sup>(١)</sup> .

وترك على بن غانية النظر على بجاية لأخيه يحيى بمعاونة رشيد الرومي ، وخرج من فوره لمطاردة واليها السيد أبي الربيع ، وكان ما يزال على مقربة من بجاية ، فلحق به بموضع يعرف بياملول ، وكان معه رهط من الأعراب الموالين للموحدين فأنخلدوا كعادتهم عند الشعور بالهزيمة ، وانضموا إلى ابن غانية ، وهزم السيد أبو الربيع ، وقتل عدد من رجاله ، وسقطت محلته بأسرها في يد العدو وفيها أهله وأمواله ، ولكنه استطاع الفرار إلى الجزائر ، ومنها إلى تلمسان ، فزل بها على واليها السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، وأخذ في تحصينها ، والاستعداد في الدفاع عنها<sup>(٢)</sup> .

وتابع على بن غانية زحفه المظفر صوب الجزائر فدخلها ، وقدم عليها يحيى ابن أخيه طلحة ، ثم سار إلى مليانة ومازونة ثم إلى أشير والقلعة ( قلعة بني حماد ) واستولى عليها جميعاً ، واستباح أهلها ، واستصنى أموالهم . وكانت مليانة ، وهي أهم هذه البلاد ، في الأصل مدينة رومانية ، جدد لها زيري بن مناد الصنهاجي وحصنها ، وكانت في ذلك الوقت حسبما يصفها لنا الإدريسي ، مدينة قديمة البناء ، حسنة البقعة ، نضرة المزارع ، ولها نهر يروي معظم مزارعها وجنائها ، قد ركبت على ضفافه الأرحاء ، ولأراضيها حظ من مياه نهر شلف ، وعلى ثلاثة أيام منها ، وفي جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشريش ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرسون ، وأوربة ، وبنو أبي خليل ، وكتامة ومطاطة ، وبنو مليل ،

---

= المغرب يضع تاريخ سقوط بجاية في التاسع عشر من صفر سنة ٥٨١ هـ ( القسم الثالث ص ١٤٨ ) ويتابعه في ذلك ابن خلدون ( ج ٦ ص ١٩٠ ) وكذلك الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٠ .

( ١ ) المعجب ص ١٥٣ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٨ .

وبنو ارتجان وبنو أبي خليفة، ويصلاتن، وزولات، وزواوة، وهوارة وغيرها .  
وطول هذا الحبل مسيرة أربعة أيام ، وينتهي طرفه إلى مقربة من تاهرت<sup>(١)</sup> .  
وقدم على بن غانية على مليانة يدّر بن عائشة ، ووقف بها أياما ، ثم عاد إلى  
بجاية ، وهناك جلس بمسجدها الجامع ، فأقبل الناس لمبايعته والدخول في  
طاعته ، والتف حوله الدهماء والعامّة ، واستخرج ما كان في المخازن من الأموال  
والثياب ، وكسا أوباش العرب ومن انضم إليهم من الأخلاط والكافة ، ولما  
رتب شئونه ببجاية ، ترك بها رشيداً الرومي إلى جانب ابن أخيه يحيى ، وسار  
في قواته إلى قسنطينة ، ولكنها كانت على أهبة الدفاع ، واستبسل أهلها في  
قتاله ، وقتلوا جملة من رجاله ثم اعتصموا بمدينتهم ، ف ضرب حولها الحصار ،  
مؤملاً أن تسقط في يده<sup>(٢)</sup> .

وعلم الخليفة يعقوب المنصور ، بتلك الحوادث المؤسفة ، وهو ما يزال في  
بداية عهده ، وما يكاد يبدأ حملته الإصلاحية ، فاهتز لها ، وأدرك في الحال  
خطورتها ، واعتزم أن يبذل قصارى جهده لقمعها ، فجهز حملة قوية من الجند  
المختارة قوامها عشرون ألف مقاتل مزودة بوافر العدة والآلات ، وجعل قيادتها  
لابن عمه السيد أبي زيد بن أبي حفص ، وسار في نفس الوقت أسطول موحدى  
كبير من سبّعة ، تحت قيادة أبي محمد بن إسماعيل بن جامع ، وأبي محمد بن عطوش  
الكومي ، وأبي العباس الصقلي ، وسارت القوات البرية والبحرية وفق خطة  
موحدة لمحاربة العدو ، متعاونين في البر والبحر ، وسار الجيش الموحدى أولاً إلى  
فاس ، وتوقف بها وقتاً لاشتداد البرد والأمطار ، ثم رحل إلى تلمسان وكان بها  
السيد أبو الحسن بن أبي حفص ، وقد حصن أسوارها وشحنها بالمقاتلة ومعه السيد  
أبو الربيع والى بجاية السابق ، وكان قد لجأ إلى تلمسان ، وتوقف بها يرتقب  
الفرصة لاستنقاذ أهله وذويه من قبضة العدو المغير .

وسار الجيش الموحدى من تلمسان شرقاً بحذاء الشاطئ ، والأسطول يحاذيه  
من البحر ، وكان الخليفة يعقوب قد وجه إلى أهالى القواعد المغزوة ، كتباً يعلمهم  
فيها بالأمن والأمان والصفح والإحسان لمن تعاون مع العدو . واستطاعت الجواسيس

---

(١) الإدريسي في « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٨٤ و ٨٥ ،  
وكذلك الاستبصار في عجائب الأمصار ( طبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨ ) ص ١٧١ .

(٢) الرسائل الموحدية - الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٢ ، و ١٧٣ . والبيان المغرب -  
القسم الثالث ١٤٨ .



الموحدية أن تدس هذه الكتب تحت جناح الليل إلى مختلف القواعد ، فلما علم الناس أن القوات الموحدية قد اقتربت منهم ، وثبت طوائف كثيرة منهم بالمحتلين ولاسيا بالجزائر ، وقبضت على العديد منهم ، وبادر الأسطول الموحدى ، فاستولى على الجزائر قبل أن يصل إليها الجيش ، وأسر بها يحيى بن غانية وأتباعه الميورقيين ، ثم استولى على مليانة ، وكان حاكمها المرابطى يدّر بن عائشة قد فر منها ، فاقتنى أهلها أثره ، وطاردوه ثم قبضوا عليه وعلى أصحابه بعد معركة شديدة ، وسبق مع أصحابه مصفدا . ثم أعدم بعد ذلك . وكان السيد أبو زيد قد وصل عندئذ إلى وادى شلف ، وأمر بمتابعة الحرب ، وتقدم نحو بجاية على جناح السرعة ، إذ علم بأن ابن غانية يروم نقل السيد أبي موسى وزملائه من أكابر الموحدين إلى ميورقة ، ومار الأسطول إليها في نفس الوقت . وتقدم القائد أبو العباس الصقلى في إحدى السفن مع بعض أهالى بجاية ، ودسوا الكتب إلى أهلها بوصول القوات الموحدية ، فثارت العامة داخل المدينة ، وفتحوا الأبواب ، ونزل بحارة الأسطول وعلى رأسهم أبو محمد بن جامع إلى المدينة ، وفتكوا بالميورقيين وأنصارهم ، وفر يحيى بن غانية وأخوه عبد الله في عدد قليل من أصحابه ، ولحق بأخيه أمام قسنطينة ، وأسر الموحدون رشيداً الرومى قائد الميورقيين ، واستولوا على السفن الميورقية خارج الميناء ، وأطلق مراح السيد أبي موسى ومن معه من أكابر الموحدين . وهكذا استنفذت بجاية بضرية سريعة ، وكان استردادها في اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٨١ هـ ( ٢٢ مايو سنة ١١٨٥ ) ، بعد أن لبثت في قبضة بنى غانية نحو سبعة أشهر (١) .

وفى ذلك الحين كان ابن غانية تحت أسوار قسنطينة ، وكانت المدينة المحصورة قد استنفدت كل وسائل الدفاع ، وأشرفت على السقوط في يد العدو ، ولكن ما كادت أنباء استرداد بجاية تصل إلى المحصورين ، حتى اضطربت قواهم المعنوية وثبتوا في معقلهم ، ورأى الميورقى من جهة أخرى ماحل بقضيته من الحسران ، بعد سقوط بجاية ، وضياح أسطوله ومصرع الكثير من أصحابه ، وتكول الأعراب عن مؤازرته ، ونخشى من إدراك الموحدين له ، وهو فى هذه الحالة اليائسة ، فارتد عن قسنطينة مع إخوته وقلوله الباقية ، وتوغل فى الصحراء ، بعيداً عن

( ١ ) الرسائل الموحدية - الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٦-١٧٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث

ص ١٥٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ . وكذلك A. Bel : Les Benou Obania, p. 50-53



المطاردة . ولم تمض على فراره ثلاثة أيام حتى وصل السيد أبوزيد في قواته إلى تيكلات على مقربة من بجاية ، وهناك وافاه طلبة بجاية وأكابرها وعلى رأسهم السيد أبو موسى ، وأخذ الجميع في الأهبة والاستعداد لمطاردة العدو القار ، وسبق إلى الحملة الموحدية كل من قبض عليه وأسر في بجاية من أنصار الميورقي سواء منهم من جاز معه من ميورقة ، أو من انحاز إليه ، ارتداداً عن الدعوة الموحدية ، وميزوا وقتل معظمهم . واستبقى يحيى بن طلحة الميورقي رهينة . وفي اليوم الثالث سار الموحدون في أثر ابن غانية واستمروا في مسيرهم حتى مقرة ونفاوس ، ولكنهم لم يستطيعوا إدراكه ، لأنه كان قد ألقى معظم أثقاله في الطريق وفرق قواته ، وسبق الموحدون بمراحل ، ولم يستطع الموحدون بقواتهم الكثيفة وعددهم الثقيلة لحاقاً به ، فعندئذ ارتد السيد أبو زيد في جموعه إلى بجاية ، وذلك بعد أن أنفقت الحملة الموحدية زهاء ستة أشهر في حركة متواصلة لم تنعم خلالها بقسط من الراحة<sup>(١)</sup> .

أما على بن غانية ، فقد اتجه وأخوه يحيى في فلوله جنوباً ، واخترق جبال الأطلس إلى منخفض حنّدة ، ثم إلى منطقة الواحات الواقعة جنوبي ولاية إفريقية المسماة بلاد الجريد ، وهو ينهب الخلات الغنية في تلك المنطقة ، ويستميل بجزير صلاته طوائف العرب النازلين في تلك الأنحاء ، ولا سيما بني رياح وبني جشم . ولما اطمأنت نفسه وكثرت جموعه ، سار إلى افتتاح مدينة توزر ، فحارب حولها الحصار ، وقطع غابات النخيل المحيطة بها ، فقاومت المدينة بشدة ، ولكنه استطاع بمعاونة بعض الضالعين معه من أهلها أن يدخلها أخيراً . فلما دخل أغضى عن أهلها الذين ناصروه ومنحهم الأمان ، واستصنى أموال الآخرين ، ثم فرض عليهم فروضاً أخرى لافتداء أنفسهم ، فمن استطاع أن يفتدى نفسه ، أطلق سراحه ، ومن عجز قتل ثم ألقى بعد قتله إلى بئر بالمدينة سميت فيما بعد بئر الشهداء ، وكان سقوط توزر في سنة ٥٨٢ هـ ( ١١٨٦ م )<sup>(٢)</sup> .

وكان السيد أبو زيد قد استقر في تلك الأثناء في بجاية ، وكانت المدينة قد سادها الاضطراب والفوضى ، وخربت دورها ومعاهدها ، وأقفر سائر المناطق المحيطة بها ، وخربت على يد جند ابن غانية وأنصاره الأعراب ، وعدمت المؤن والموارد والغلات ، وارتفعت الأسعار ، وفر كثير من السكان وهاموا على

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٥١ .

( ٢ ) رحلة التجاني ( المنشورة بعناية المطبعة الرسمية بتونس سنة ١٩٥٨ ) ص ١٦٢ .

وجوهم ، ثم سرى الوباء إلى المدينة وكثر الموت . ووصلت أنباء تلك الحالة إلى الخليفة بمراكش ، وكثرت لديه الأقوال في حق السيد أبي زيد ، وقصوره عن معالجتها ، فبعث إليه معاتباً ، وحثاً على العمل لتدارك الأمر ، وغادر الأسطول في نفس الوقت مياه بجاية ، عائداً إلى قواعده في سبتة .

وبالرغم من ابتعاد الميورقي عن بجاية وأحوازها ، وتوغله في القفار الجنوبية فإنه بعث جملة من جنده تحت إمرة غزي الصنهاجي ، فسار إلى مدينة أشير ، واقتحمها ، وقتل حافظها الموحدى ، فبادر السيد أبوزيد إلى توجيه ولده السيد أنى حفص عمر في قوة موحدية ومعه أبو الظفر بن مردنيش في جملة أخرى من الأجناد ، فساروا لقتال غزي وأصحابه ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها غزي وقتل ، وأرسل رأسه إلى بجاية وعاقب بها ، واستولى أبو الظفر بن مردنيش على محلة العدو وحرّمه وعتاده وماشيته ، وحل عبد الله الصنهاجي مكان أخيه غزي في الدفاع عن أشير ، فاستماله القاضي أبو العباس بن الخطيب ، وأغراه بالوعد ، واستنزله من المدينة ، ثم قبض عليه وأرسل إلى بجاية ، حيث صلب إزاء رأس أخيه<sup>(١)</sup> .

وكان من أحداث بجاية في هذا العام ، أن قُتل رشيد الرومي قائد ابن غانية السابق ، وقتل عدد من أهل بجاية ممن انحازوا إلى جانب بني غانية ، وكان من هؤلاء أبناء القائد ابن حملة ، وغُرب بنو حمدون من بجاية إلى سلا ، لاتهمهم بالتواطؤ مع بني غانية ، بعد أن أرغموا على تصفية أموالهم بها بضمن بنحس ، وأبعد غيرهم من الأعيان أيضاً إلى سلا ، بعد أن صفيت أموالهم وديارهم<sup>(٢)</sup> .

وعلى أثر ذلك استدعى السيد أبوزيد من قبل الخليفة إلى الحضرة ، فسار إليها في جملة من صحبه بالرغم من اشتداد البرد والأنواء خلال فصل الشتاء ، فلما وصل إليها أحسن الخليفة استقباله ، وأكرم وفادته ، وسرى بذلك عنه ما كان قد لحق به من أوزار الوقعة ، وتهمة القصور والإهمال .

وكان على بن غانية ، بعد أن استولى على توزر يطمح إلى الاستيلاء على قفصة . ونحن نذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف ، كان قد استرد قفصة في سنة ٥٧٦ هـ ( ١١٨١ م ) وأخذها ثورة بني الرند ، وكانت المدينة بالرغم من

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٣ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٣ .



انضواؤها تحت لواء الموحدين ، ما تزال مسرحا لمختلف الدسائس والتيارات ، وولاؤها للموحدين غير ثابت ، ولا مستقر ، ومن ثم فإنه ما كاد الميورقي يزحف عليها بقواته ويضرب حولها الحصار ، حتى بادر أهل المدينة بإخراج الموحدين منها ، وتسليمها إلى الميورقي ، فوضع بها حامية من جنده المرابطين وحلفائه الجند الأتراك ، وجدد تحصيناتها ، وكان ذلك أيضاً في سنة ٥٨٢ ( ١١٨٦ م ) .

وهكذا سيطر على بن إسحاق بن غانية الميورقي على معظم إفريقية ، وقطع بها خطبة الموحدين ، ودعا لطاعة الخليفة العباسي ، الناصر لدين الله ، وأرسل إليه في طلب المراسيم والخلع والأعلام السود . وكان مما يزيد في خطورة هذا الموقف بالنسبة للموحدين ، أن الميورقي استطاع أن يستميل إلى جانبه كثيراً من طوائف العرب من سلم ورياح وغيرهم ، واستطاع من جهة أخرى أن يعقد الحلف مع قراقوش الأرمني مملوك الأيوبيين وجنده الترك ، وكانوا قد نزحوا من مصر إلى الغرب واستولوا على طرابلس ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أطراف إفريقية الشرقية (١) .

ويجب إن نشير بهذه المناسبة إلى الظروف التي وقع فيها نزوح أولئك الجند الترك إلى هذه الأنحاء من إفريقية . وذلك أنه لم تم استيلاء الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب على مصر ، على أثر وفاة الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، ووقعت الوحشة من أجل ذلك بينه وبين سيده القديم السلطان نور الدين ، ففكر بعض أمراء بني أيوب ، أن ينزحوا ، إذا ما تغلب عليهم نور الدين ، إلى بعض الجهات النائية المأمونة مثل اليمن أو المغرب . واتجه نحو المغرب بالأخص تقي الدين عمر بن شاهنشاه أخو صلاح الدين . ولكنه عدل عن مشروعه لما رأى ما يكتنفه من الصعاب والمخاطر ، ففكر اثنان من أولياء بني أيوب ، هما شرف الدين قراقوش الأرمني مملوك تقي الدين (وهو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين فيما بعد ) وإبراهيم بن قراتكين المعظمي ، نسبة إلى الملك المعظم شمس الدولة أنحى صلاح الدين ، في تنفيذ المشروع ، وفرا في طائفة كبيرة من الجند الترك ، وسارا صوب المغرب ، ثم افترقا ليسعى كل منهما إلى مصيره فسار قراقوش إلى قلب ولاية طرابلس ، وافتتح سنترية وأوجلة ، ودعا للسلطان صلاح الدين ، وابن أخيه تقي الدين عمر ، ثم سار إلى فزان فافتتحها ، وقضى على دولة الهواريين القائمة بها

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .



وكانت زويلة مقر ملكهم ، وخطب فيها أيضاً لصالح الدين وابن أخيه .  
وقوى أمر قراقوش تباعاً ، فسار إلى طرابلس ، والتف حوله العرب من  
بنى دياب ونهضوا معه إلى جبل نفوسة ، فاستولى عليه ، واستخلص منه أموالاً  
عظيمة فرقها في حلفائه العرب ، ثم وفد إليه مسعود بن زمام أمير بنى رياح ،  
وكان من الخارجيين على بنى عبد المؤمن فانضم إليه بقواته ، وضرب قراقوش  
بقواته المشتركة الحصار حول طرابلس ، وكانت خالية من الأجناد والأقوات ،  
فاستولى عليها بأيسر أمر ، وذاع صيته واشتد ساعده ، وهرعت طوائف العرب  
من كل فج إلى لوائه . وملك قراقوش كثيراً من أنحاء إفريقية المجاورة ، وتضخمت  
موارده وقواته ، ومعظمها من العرب الذين عاثوا فساداً في تلك الأنحاء ، ما جبلت  
عليه من التخريب والنهب والإفساد ، بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك ، وأخذت  
نفسه تحدته بالاستيلاء على سائر إفريقية (١) .

وفي ذلك الحين حدثت بميورة حوادث هامة . وكان من الطبيعي بعد أن  
خلت الجزيرة من معظم الجند والقادة ، منذ رحيلهم تحت إمرة عاهلهم على  
ابن غانية إلى إفريقية ، واستولى الموحدون على سفن الأسطول الميورقي في مياه  
بجاية ، أن تتخذ الأحداث بالجزيرة وجهة جديدة . وكان رسول الخليفة الموحدى  
على البربرية منذ اعتقل بالجزيرة ، يرقب الفرص لكي يتحرر من معتقله ، وليقوم  
في نفس الوقت بضربة تحقق الغاية من رسالته . وألقى على فرصته في الاتصال  
بالجند المرتزقة النصارى من حراس معتقله ومن إليهم من أبناء ملتهم ، وكان  
معظمهم يرومون مغادرة الجزيرة إلى أوطانهم ، فوعدهم على بأنهم متى عاونوه  
على تحقيق غرضه ، فإنه يعمل على تسريحهم في أهلهم وأولادهم إلى أوطانهم .  
وكانت أرومة البربرية وأصله النصراني ، مما يحببه إلى نفوس أولئك الجند النصارى  
ويجعله موضع ثقتهم وأملهم . والظاهر أيضاً أن البربرية استطاع أن يجذب إلى  
جانبه بعض أعيان المدينة من أنصار محمد بن غانية المعزول وخصوم أخيه على .  
وهكذا دُبرت مؤامرة قوامها الجند النصارى لخلع والى الجزائر القائم وهو طلحة  
ابن إسحاق بن غانية ، وإعادة أخيه محمد المعزول ، ونفذ المتآمرون مشروعهم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٦ ، ورحلة التجاني ص ١١١ - ١١٣ ، وابن خلدون

ج ٦ ص ١٩١ و ١٩٢ .

في يوم جمعة ، وفي وقت الصلاة ، حينما شغل معظم الناس بأداء الصلاة في المسجد الجامع ، وغيره من المساجد . فأخرج المتآمرون علياً البربري من سجنه ، ووثبوا إلى مخازن السلاح ، فاستولوا على ما فيها ، ثم حاصروا القصبة ، وقتلوا من بها من الجند المرابطين ، وتحصن البربري وأنصاره بالقصبة ، فحاصروهم جمهور من أهل ميورقة . وضربوا القصبة بالمحانيق وأرسلوا على من بها وإبلا من الحجارة والسهام . فأتى البربري من داخل القصبة ، بأهل على بن غانية ، وفيهم أمه وأبنائه ، ووضعهم فوق الأسوار ، ليرغم المحاصرين على الكف عن ضرب القصبة ، فعندئذ هدأت الأمور ، واضطر أهل البلد إلى المفاوضة ، وتبادل العهود<sup>(١)</sup> .

وعلى أثر ذلك استدعى محمد بن إسحاق بن غانية حاكم الجزائر السابق ، وكان قد خلعه إخوته ، حينما اعترف بطاعة الموحدين عند مقدم البربري إلى ميورقة ، واعتقل في أقصى الجزيرة ، واتفق على إعادة تنصيبه والياً للجزائر ، ونزل البربري عن القصبة والسلطة ، وأعلن طاعة الموحدين ، وخطب للخليفة الموحدي ، وجمع البربري من الأموال والذخائر ما استطاع ، وسرح المرتقة النصاري بأموالهم وأهلهم إلى بلادهم . ثم غادر الجزائر عائداً إلى المغرب ، وقصد إلى حضرة مراکش . ووقع ذلك في أوائل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . وفي رواية أخرى أن محمداً بن إسحاق غادر ميورقة مع البربري ولحق بالحضرة ، ليقدم طاعته بنفسه إلى الخليفة<sup>(٢)</sup> . وهكذا حكم محمد بن إسحاق ميورقة في ظل طاعة الموحدين الإسمية : ولما حاول الخليفة يعقوب المنصور بعد ذلك أن يجعل من هذه الطاعة حقيقة واقعة ، بتملك ميورقة ، وأرسل لهذه الغاية إليها أسطولا بقيادة أبي العلاء بن جامع ، أبي محمد أن يستجيب إليه ، واستغاث بملك أراجون فأمدّه بالجند ، ولم يستطع الموحدون تنفيذ مشروعهم . ومن جهة أخرى ، فإن الهدوء لم يستمر طويلاً بالجزائر ، ذلك أن أهل ميورقة ثاروا على محمد لخضوعه للموحدين ، ورفعوا إلى الولاية أخاه تاشفين . وفي رواية أخرى أنه لما وقف على بن إسحاق بن غانية وإخوته وهم بإفريقية ، على ما حدث في ميورقة ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٥ و ١٥٦ . وراجع :

A. Bel : ibid; p. 68 & 66 وكذلك : Cmapaner y Fuertes ; ibid, p. 148 et suiv.

(٢) البيان المغرب ص ١٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ .

سار منهم عبد الله في بعض صحبه، وركب البحر إلى صقلية، وهناك زوده النصارى ببعض السفن فسار إلى ميورقة، والتف حوله جمع من أهل الجزيرة واستطاع أن يدخل ميورقة باسمالة بعض أعيانها، وأن ينزع الولاية لنفسه، وقبض على أخيه محمد، وبعث متفياً إلى الأندلس. فالتجأ هنالك إلى الموحدين فولوه على مدينة دانية، واستقر عبد الله في ولاية الجزائر دون منازع. وعاد الخليفة المنصور فبعث أسطوله إلى الجزائر بقيادة أبي العلاء بن جامع، ثم أرسله مرة أخرى بقيادة الشيخ إبراهيم المزرجي، فقاوم عبد الله أشد مقاومة، وقتل كثير من الموحدين، ولم ينالوا مأرباً من ميورقة، ولكنهم استطاعوا الاستيلاء على جزيرة يابسة ومنورقة. وكان ذلك في سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م). واستردت الجزائر في عهد عبد الله قوتها ورخاءها، واستمر في رياستها أعواماً طويلة، وهو يعاود الغزوات البحرية للشواطئ النصرانية القريبة، حتى كان افتتاح الموحدين للجزائر في سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٣م) على ما نذكر بعد<sup>(١)</sup>.

عظم أمر علي بن غانية بأنحاء إفريقية الجنوبية والوسطى، ولاسيما منذ تقاطرت طوائف العرب من بني هلال وجشم وبني رياح والأنبج إلى لوائه. وعقد التحالف بينه وبين قراقوش الأرمني وأجناده الترك الوافدين من مصر، وبسط سلطانه على سائر أنحاء إفريقية، ولم يبق بيد الموحدين منها سوى المهديّة وتونس، ودعا على الخلافة العباسية حسياً أسلفنا، وتلقب بأمر المسلمين جرياً على ما كان عليه أمراء الدولة المرابطية<sup>(٢)</sup> وبعث ولده عبد المؤمن إلى الخليفة الناصر بن المستضيء ببغداد ليطلب إليه المدد والرعاية، فعقد له الخليفة على سائر ما يملكه، وبعث ديوان الخليفة صحبة عبد المؤمن إلى مصر، خطاب الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين باعتباره نائب الخليفة بمصر والشام، فكتب له صلاح الدين كتابه إلى مملوكه قراقوش، بالعمل المشترك على تأييد الدعوة العباسية<sup>(٣)</sup>، وكانت

---

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٥ و ١٥٦، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٧، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤، وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦.

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢.



استعادة الجزائر على يد عبد الله بن غانية وتمكين سلطان بني غانية بها ، عاملاً جديداً ، في ذبوع أمر على وتوطيد هيئته وسلطانه .

وبسط على بن غانية على إفريقية حكم إرهاب مطبق ، وأطلق العنان لأحلافه من طوائف العرب ، يعيشون أينما استطاعوا فساداً ، ويطلقون أيديهم بالإيذاء والسلب والنهب والسبي ، لا يراعون حرمة ولا يرحمون ضعفاً ، وعلى لا يستطيع منعهم أو ردعهم استبقاء لولاثهم ومخالفتهم . وقد وصف مؤرخ رحالة حالة إفريقية في ذلك الوقت بإيجاز في قوله « إنه هلك العباد وخراب البلاد » . وكان من شنائع على بن غانية ، أنه سار إلى جزيرة باشو بالقرب من حضرة تونس في غضون سنة ٥٨٢ هـ ( ١١٨٦ م ) ، فسأله أهلها الأمان ، فنحهم إياه ، ولكن ما كاد عسكره يدخل إليها ، حتى نهبوا سائر ما فيها ، وهدموا الحرمات ، وفر من استطاع منهم إلى تونس ، ونزلوا بين أسوارها ، فأهلكهم البرد خلال فصل الشتاء ، وبلغ من هلك على قول الرواية اثنا عشر ألفاً (١) .

وتوالت أنباء هذه الحوادث الإفريقية المزعجة على الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور فأهمته ، وأدرك مبلغ خطورتها ، وبعث إليه أخوه السيد أبو عبد الله الذي كان قد حل مكان السيد أبي زيد في ولاية إفريقية من تونس ، يستغيث به ويستنفره إلى تدارك الأمر بعد أن بلغ الخطر أقصاه ، وظهر عجز القوات الموحدية القليلة ، وأضحت سيادة الموحدين في إفريقية على وشك الانهيار ، فاتخذ الخليفة أهمته للحركة إلى إفريقية ، وبدأ بالتحرك إلى تينملل ، حيث زار قبر المهدي ، جرياً على تقليدهم المأثور ، في التيمن بزيارته ، عند المللات والحوادث الحسام ، ثم عاد إلى مراکش ، وجهاز جيشاً مختاراً من الموحدين قوامه عشرون ألف فارس ، وغادر الحضرة في قواته عقب عيد الفطر في الثالث من شوال سنة ٥٨٢ هـ ( ١٧ ديسمبر ١١٨٦ م ) مستخلفاً عليها أكبر أعمامه السيد أبا الحسن ، ومسنداً إليه في نفس الوقت الإشراف على تكملة الأعمال الخاصة بضاحية الصالحة ، وتابع الخليفة سيره دون توقف حتى رباط الفتح ، وهناك وافاه ولاة الأندلس والمغرب ، فالتقى إليهم بتعليماته وتوجيهاته . وكان من الأمور الظاهرة في تجهيز هذه الحملة الموحدية ، أن الخليفة لم يصطحب معه في جيشه كتائب العرب إلا قلّة من أشياخ بني رياح مثل بني زيان وذلك تحوطاً من تقلباتهم

(١) رحلة التجاني عن ابن شداد ص ١٤ .

وخطر انسلاخهم أثناء القتال إلى جانب إخوانهم عرب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد اقتصر الخليفة في حشوده على القلة المختارة من الجند ، نظراً لصعوبة تموين الحشود بالحرارة في إقليم خربت أرجاؤه ، ونضبت موارده ، من كثرة الغزوات والمعارك<sup>(١)</sup> . وأصدر الخليفة أوامره المشددة في نفس الوقت إلى سائر العمال بالمتازل وأمهات الطرقات بتمهيد المسالك ، وتوطيد السبل ، ونصب الجسور في أماكنها ، وإعداد الأقوات والعلوفات ، فكان الجند يسرون في طرق ممهدة ، موفورة المرافق والموارد ، مما لم يكن معهوداً من قبل في مثل هذه الرحلات الغازية . واستراح الخليفة وجيشه في حضرة فاس ، وقضى بها معظم أشهر الشتاء ، وغمر إلى فاس وأهلها الجيش الموحدى ، بمختلف ضروب الإكرام والضيافات ، وجدد الجند أسلحتهم وعددهم وملأوا أزودتهم ، ونظر الخليفة في شئون المدينة ، وترتيبها على أكمل وجه ، ثم غادر الخليفة وجيشه فاس إلى رباط تازة وهو خلال الطريق دائم النظر في شئون الرعية ، ويجتهد في إزالة المظالم ، وتحقيق مبادئ العدل والإنصاف . وفي تازة لاحظ الخليفة أن معظم الإنحوة والأعمام قد اختصوا بلباس الغفائر الزيبية ، والبرانس المسكية ، فأنكر عليهم اتخاذ ذلك الزي لكونه زى الخليفة في حالتي ركوبه وجلوسه ، فجمعهم السيد أبو زيد وإلى بحاية السابق باعتباره عيدهم ، المقدم عليهم ، وذكرهم بوجوب التزام المراسم الخلافية ، وأن يتجنبوا التشبه بالخليفة فيما هو خاص به فامتنعوا من ذلك الحين عن اتخاذ الملابس التي تحمل الألوان الخلافية<sup>(٢)</sup> .

ولما وصل الجيش الموحدى إلى أراضي قسنطينة ، وكان على بن غانية يرقب حركاته ، اجتمع ابن غانية في قواته من الميارقة والأعراب والأغزاز وبعض طوائف سليم ، على مقربة من القيروان ، وبدت طلائعهم أمام الجيش الموحدى ، وكان رأى الخليفة يعقوب أن يبادر بمهاجمة خصومه من قبل أن يكمل استعدادهم ، ولكن الأشياخ والوزراء رأوا في المجلس الذى عقد للشورى أن الأفضل ، أن يتابع الجيش الموحدى سيره إلى تونس ، وهناك ينال قسطة من الراحة والاستعداد ، وهكذا وصل الجيش الموحدى إلى تونس في شهر صفر سنة ٥٨٣ هـ .

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٨ .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٨ و ١٥٩ .



وقد كان هذا خطأ عسكرياً دفع الموحدون ثمنه غالياً . ذلك أنه لما وصل الجيش الموحدى إلى تونس ، واستراح الجند من أتعابهم ، وجددوا مؤنهم ولوازمهم ، جهز الخليفة حملة من ستة آلاف فارس تحت إمرة ابن عمه السيد أبى يوسف يعقوب ابن أبى حفص ، وعمر بن أبى زيد من أشياخ الموحدين ، والقائد على البربر ، وسارت هذه الحملة إلى مقاتلة على بن غانية وجموعه ، وكانت ترابط على مقربة من قفصة . فلما اقترب الموحدون من محلة الميارقة وحلفائهم الترك تحت إمرة قراقوش ، خرج إليهم على بن غانية في جموعه ، والتقى الفريقان فى السهل المسمى بسهل « نحرمة » وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ ( ٢٥ مايو سنة ١١٨٧ م ) ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وظهر انقسام الجيش الموحدى واختلاله منذ البداية ، حيث تقدم الجناح الذى يقوده على البربر إلى الهجوم فزقته سهام الأعداء وطعناتهم ، وسقط البربر أسيراً وتفرق صحبه ، وحدث مثل ذلك حينما هجم القائد أبو على بن يومور فى طوائف العرب الذين يقودهم ، فخذلوه فى القتال كعادتهم المأثورة ، وأسر ابن يومور وقد أثنى جراحاً . واختلت صفوف الموحدين فى كل ناحية وكثر القتل فيهم ، وما انتهى النهار حتى كان الجيش الموحدى قد مزق تمزيقاً ، وفر السيد أبو يوسف فى فل من أصحابه صوب تونس ، وهلك عدة من الأشياخ ، وفى مقدمهم عمر بن أبى زيد ، وبقي معظم الرجال ممن لم يستطيعوا الفرار ولاسياً الجرحى ، فلبأوا إلى قفصة ، وشجعهم على ذلك ابن غانية ، ووعدهم بالأمان وتركهم يملأون طرقات المدينة ، حتى إذا اجتمعوا فيها أمر بقتلهم ، فقتلوا جميعاً . وجلس ابن غانية بنجاء السيد أبى يوسف ، وجمعت بين يديه أسلاب الموحدين وأسلحتهم ، ففرقها فى جندده ، واقتيد إليه على بن البربر وابن يومور ، فأمر بتعليقهما ثم قتلها ، وعلق رأس ابن يومور على باب قفصة . وكانت على الحملة هزيمة ساحقة للموحدين لم يصبرهم مثلها منذ بعيد<sup>(١)</sup> .

وكان لتلك النكبة فى نفس الخليفة يعقوب المنصور أعظم وقع ، فاعزم أن يأخذ بالثأر ، وأن يستأصل شأفة العدو ، ولم يدخر وسعاً فى الأهبة ، وفى تمييز جيشه وفى إعداداته للضربة الحاسمة . ثم خرج فى قواته من تونس فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ ( ٨ سبتمبر سنة ١١٨٧ م ) وسار جنوباً صوب القيروان ،

( ١ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٠ و ١٦١ ، ورحلة التجانى ص ١٣٦ و ١٦٢ . وراجع A. Bel : ibid ; p. 78 - 80



وقد برز الجيش الموحدى فى أروع حلاله واكتمال عدته ، وسمة خطورته ، ولما وصل المنصور إلى القيروان ، وجه منها إلى ابن غانية وحلفائه كتابا يندهم فيه بوجوب دخول الطاعة ، ونبذ الشقاق والعدوان ، فاعتقل ابن غانية الرسول ولم يجبه بشئ<sup>(١)</sup> ولكنه جد فى أهباته . ورأى الخليفة خلال تجواله بالقيروان ، وأحيائها الخربة المقفرة ، ما انتهى إليه جامعها الشهير من العناء والبلى ، فبعث من فوره إلى ولاية شرقى الأندلس : بإعداد كسائه وفرشه وزخارفه .

واستمر سير الجيش الموحدى بعد ذلك جنوباً فى طريق قابس حتى وصل إلى مقربة من « الحمة » الواقعة على مقربة منها ، وقد بدت طلائع العدو ، وكان على بن غانية وحلفاؤه من الترك والعرب ، قد عسكروا فى موقع حصين على مقربة من الحمة فى انتظار الموحدين . فضرب الموحدون محلهم إزاء العدو ، واعتزم المنصور أن يبادر منذ الغد بمهاجمة العدو ، وأن يقود المعركة بنفسه بالرغم من اعتراض القرابة والأشباخ ، وقدم المنصور على مختلف القبائل أشباخ قرابته وأكابر عشيرته . وما كاد الصبح يسفر ، وتبدد الشمس حجب الضباب المتراكم ، حتى دفع المنصور بعض قواته على معسكر العرب الضالعين مع العدو ، فبدد شملهم وأركنوا كعادتهم إلى الفرار ، واحتوى الموحدون على سائر أسلحتهم ، وقتت هذه الضربة الأولى فى عضد ابن غانية وحلفائه . ثم انقض المنصور بعد ذلك فى سائر قواته على جموع الميارقة والترك ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية عنيفة لم تدم سوى بضع ساعات ، وقد أدرك على بن غانية وحليفه أنهما يخوضان المعركة الحاسمة فى ظروف قاتمة . ولم يأت الظهر حتى كان الموحدون قد مزقوا صفوف العدو تمزيقاً ، وأبيد معظمهم بالقتل ، وفرقت فلولهم فى مختلف الأنحاء ، وكانت ضربة دموية ساحقة للميارقة والترك ، وفر ابن غانية وحليفه قراقوش فى بعض فلولهما صوب توزر ، فسار الموحدون فى أثرهم ، ولما اقترب الموحدون من توزر علم المنصور أن ابن غانية وحليفه قد فرا إلى الصحراء وغازى أثرهما . وتمت هذه الهزيمة الساحقة على ابن غانية فى يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٨٣ هـ ( ١٥ أكتوبر سنة ١١٨٧ م )<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) الرسائل الموحدية - الرسالة الثلاثون ص ١٨٦ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ١٦٢ و ١٦٣ ، ورحلة التجانى ص ١٢٦ ، و ١٢٧ و ١٦٢ ، والرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٨٨ . وكذلك :

A. Bel : ibid ; p. 81 & 82



أفريقية والمغرب الأوسط  
ومن أقاصيص بني خانيقة  
وبني الموحدين  
سنة ٥٨٠ - ٦٠٥ هـ

وسار المنصور على الأثر إلى قابس ، وقد كانت مركز قراقوش ، فاستولى عليها في اليوم التالي بالأمان ، وقبض فيها على أهل قراقوش وذويه وصحبه ، بعد أن حاولوا عبثاً الامتناع بالقصبة ، واستصغى أموالهم ، وأرسلهم ، رقيقاً إلى مراکش<sup>(١)</sup>. ثم سار من قابس إلى بلاد الجريد في طرق وعرة مقفرة ، واستولى تباعاً على قواعد هذه المنطقة : نواوة وتوزر ، وتقيوس ، والحمة ، ونقطة ، وأهمها هي توزر عاصمة بلاد الجريد ، وقام أهل هذه البلاد ضد من كان بها من بقية الميارقة ، وأبادوهم قتلاً وأسراً ، وفرت فلولهم من توزر إلى الصحراء . ثم سار الموحدون بعد ذلك من توزر إلى قصبة ، وكانت بها بقية كبيرة من صحب الميورقي وحلفائه الغز ، فامتنعوا بها معتمدين على حصانتها ، وأسوارها العالية ، فضرب الموحدون حولها الحصار ، وسلطوا عليها المجانيق وخربوا ماحولها من الزرع وغابات النخيل الهائلة ، وصنعوا برجاً عالياً من سبع طبقات ، شحن بالكماة والرماة ، ودفع حتى حاذى السور ، وردموا الخندق المقابل لثمة السور حتى ساوى وجه الأرض ، وأصبح السبيل ممهداً لاقتحام المدينة ، بيد أن المهمة كانت شاقة ، وقد ألقى المدافعون عند أول محاولة ، على الموحدين ، وابلاً هائلاً من الأحجار ، فارتدوا ليستعدوا لإعادة الكرة في اليوم التالي . ولكن أهل المدينة أدركوا ما سوف يحل بهم من الدمار ، فخرج أعيانهم بالليل ، وقصدوا إلى الخليفة المنصور ملتجئين الأمان ، وبحث المنصور الأمر مع القراية والأشياخ ، فاستقر الرأي على أن يؤمن أهل البلد الأصليين في أنفسهم وأملاكهم ، وأن يؤمن الأغزاز ( الغز ) في أنفسهم وممالكهم ، وأن يخرج كل من كان بالبلد من الحشود ، والغرباء على الحكم ، وأنه لا أمان للميورقيين ومن والاهم من الصحب والأوباش ، فتم الاتفاق على ذلك ، وفي صباح اليوم التالي خرج سائر من بالبلد من الشيخ الهرم إلى الغلام اليافع ، ولم يبق بالبلد سوى النساء والأطفال ، ومئز الناس ، وعزل منهم أهل البلد ، فأخلى سبيلهم ، وسُمح لهم بالرجوع إلى بلدتهم ، وعزل أصناف الجنود والغوغاء وسائر أهل الحشود ، ومن جملتهم إبراهيم بن قراتكين أحد قواد الغزو الوافدين من مصر وهو الذي سبق ذكره ، فقبض عليهم جميعاً ، وزجوا إلى البرج الكبير ، ثم اقتيدوا بعد صلاة الظهر بين يدي المنصور ، فأمر بإعدامهم جميعاً فأعدموا زمراً ، وألقوا إلى الحفير ،

( ١ ) الرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٠ .



ونقل المنصور محله بعيداً عن مسرح المذبحة ، وأمر بهدم أسوار قصبة فهدمت على الأثر . وكان الاستيلاء على قصبة فيما يرجح في أوائل ذي القعدة سنة ٥٨٣هـ ( يناير سنة ١١٨٧ م ) وليس في شعبان حسبما يقول صاحب البيان المغرب ، إذ كانت موقعة الحمة في التاسع من شعبان ، ثم كان بعدها الاستيلاء على قابس وسائر قواعد بلاد الجريد ، ثم حصار قصبة ، وقد اقتضى وحده مجهودات متعاقبة ، وليس من المعقول أن تقع هذه الأحداث كلها في أسبوعين أو ثلاثة ، ومن جهة أخرى فإن الخليفة يؤرخ رسالته التي وجهها من قصبة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش عن فتح قصبة في الثالث عشر من ذي القعدة سنة ٥٨٣هـ (١) .

ووصل إلى المنصور ، يوم حلوله تحت أسوار قصبة ، خطاب من قراقوش يعرب فيه عن خضوعه ورغبته في دخول التوحيد ، وأنه على استعداد إذا ما قبلت توبته أن يأتي إلى الموحدين مستنياً طائعاً . وفي اليوم التالي وصل خطاب مماثل من أبي زيان زعيم الغز ، وزميل قراقوش السابق ، وهو الذي استقل بحكم طرابلس ، يعرب فيه عن انضوائه تحت لواء التوحيد ، وأنه قد أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها (٢) .

وكان لهذه الانتصارات الرنانة التي أحرزها المنصور على أعدائه في إفريقية أبعد صدى . وقد أكثر الشعراء بهذه المناسبة من نظم قصائد التهئة والمديح ، فكان مما قاله أبو بكر بن مٌجبر في يوم الحمة قصيدة هذا مطلعها :

أسائلكم لمن جيش لهـام	طلائعه الملائكة الكرام
أت كتب البشائر عنه ترى	كما يتحمل الزهر الكمام
ومنها :	

لقد برزت إلى هون المنايا	وجوه كان يحجبها اللثام
وما أغنت قسى الغسر عنها	فليست تدفع القدر السهام
غدوا فوق الجياد وهم شخوص	وأمسوا بالصعيد وهم رمام

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٦ - ١٦٨ ، ورحلة التجاني ص ١٣٨ و ١٣٩ ،  
والرسالة الثانية والثلاثون من رسائل موحدية ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .  
( ٢ ) الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٨ .

هو الأمير الرضى طوبى لنفسه يكون لها بعصمته اعتصام  
حياة الدين دولته فدامت لأمر قد أتيح له الدوام  
سلام الله من قرب وبعد عليه وحسب ما نزل السلام

وعاد المنصور بعد افتتاح قفصة في قواته إلى تونس . ويقول لنا ابن عذارى  
إنه دخل تونس في العشرة الأخيرة من شوال سنة ٥٨٣ هـ . ونحن نعتقد تبعاً لما  
سبق أن أوضحناه عن تاريخ فتح قفصة ، أن عودته إلى تونس كانت بعد ذلك  
بقليل . ومكث المنصور في تونس بضعة أسابيع ينظم الشئون ، ويوطد الأحوال  
بعد ما طرأ عليها من الاضطراب والتزعزع ، وعقد لأخيه السيد أبى زيد على ولاية  
إفريقية . ولما انتهى من ترتيب الشئون ، سار إلى المهدية وقد أعلن عزمه على  
القفول إلى المغرب ، وأمر باتخاذ العدة للرحيل ، ف قضى بها فترة يسيرة ، وبعد  
أن نظر في شئونها ، وندب عمالها ، غادرها مرتحلاً إلى الحضرة ، وذلك في المحرم  
سنة ٥٨٤ هـ ( مارس سنة ١١٨٨ م ) .

فسار توجاً إلى تلمسان عن طريق تاهرت ، حتى وصلها دون توقف أو تلوم .  
وكانت قد وصلته خلال وجوده بإفريقية أنباء مقلقة عن بعض مؤامرات تدبر ،  
وعن بعض شخصيات من القرابة تتحضر للتمرد والوثوب . وكان أول من تلقاه  
بتلمسان عمه السيد أبو إسحق إبراهيم بن عبد المؤمن ، وكان قد نُمى إلى الخليفة ،  
أن هذا العم يطعن في آرائه ، ويسفه تصرفاته ، ولا سيما عقب هزيمة عُمره ،  
فلما قدم للسلام عليه ، رده المنصور بجفاء ، وكان مريضاً منذ مدة ، فاشتد به  
المرض ولم يلبث أن توفى .

بيد أنه كان ثمة ما هو أخطر من النقد الصراح . ذلك أنه على أثر هزيمة  
عُمره التي مزق فيها الجيش الموحدى وقتل معظم قاداته ، لاح لبعض السادة  
أن دولة المنصور قد تصدعت دعائمها ، وأضحت على وشك الانهيار ، وكان  
في مقدمة هؤلاء وأشدهم إقداماً وجراً ، أخو الخليفة السيد أبو حفص عمر  
الملقب بالرشيد والى مرسية ، وعمه السيد أبو الربيع سليمان والى تادلا . فأما الأول  
وهو الرشيد ، فقد كان يسيطر على ولاية مرسية حكم إرهاب حقيقى ، وكان  
يسوم الناس الخسف ، ولا سيما التجار ، ويستصنى أموالهم بالإرهاب والقتل ،  
ويستنزف ما فى بيوت المال ، وكان مما فعله أن قبض على ابن رجاء مشرف  
مرسية ، وألزمه بإحضار تقييدات أبواب الجباية ، ولما عجز عن ذلك أمر بقتله

فقتل ، وفر ابن سليمان صاحب العمل إلى بلنسية ، وكذلك فر منها الكاتب حكيم ابن محمد ناجياً بحياته ، ولكن الرشيد استدعاه بالخديعة ولين القول ، ثم غدر به وقتله ، والخلاصة أن الرشيد كان يرهق أهل مرسية ، خاصتهم وعامتهم بصنوف بطشه وبغيه . بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد . ذلك أن الرشيد كان يضمّر مشاريع أخرى . فلما وقعت هزيمة عمرة ، اضطربت تخيلته بمختلف الأطماع والمشاريع ، وبادر بالاتصال بألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وعقد معه حلفاً سرياً تسربت أنبأؤه إلى الخليفة مع الواصلين من الأندلس . فلما حدثت موقعة الحمة ، وأحرز المنصور نصره الساحق على ابن غانية وحلفائه ، أدرك الرشيد أنه توغل في أوهامه ، وارتد إلى شيء من التعقل والتريث ، ولم يلبث أن وصله أمر أخيه الخليفة بالاستدعاء إلى حضرة مراکش ، فسار إليها وهو معتمد على عطف أخيه وصفحه وإغضائه ، وتنفس على أثر رحيله مخرج أهل مرسية .

وأما السيد أبو الربيع عم الخليفة ، فقد كان ممن عارض في توليته وتخلّف عن مبايعته منذ البداية ، وكان حين وقعت حوادث إفريقية يتولى النظر على إقليم تادلا الواقع على مقربة من شمال شرق مراکش ، فلما وقعت نكبة الجيش الموحدى بعمرة ، أخذ السيد أبو الربيع في مفاوضة بعض قبائل صنهاجة القريبة لمعاونته على الثورة ، والقيام بأمره ، فلم تنجح محاولته ، وأعرضت تلك القبائل عن مساومته . وسار إليه في نفس الوقت السيد أبو زكريا يحيى بن السيد أبي حفص في سرية كبيرة من الموحدين ، فأحاطت بقاعدة تادلا ، وحالت بين السيد أبي ربيع وبين أية حركة أو نشاط يخشى منه ، ولم يجد السيد أمامه سبيلاً سوى التوبة والاستسلام ، فأمر بالذهاب لمقابلة الخليفة ، وكان الخليفة في طريقه إلى الحضرة ، فقصده إليه في محلته على مقربة من مكناسة ، ووصل السيد أبو حفص عمر الرشيد في نفس الوقت قادماً من الأندلس ، فأمر الخليفة بنزوله مع نفر من صحبه وحاشيته على انفراد . ثم أمر بالقبض على السيدين أخيه وعمه ، وبعث بهما مكبولين إلى رباط الفتح ، واعتقالهما بالقصبة ، حتى يصدر في شأنهما أمره . ولما وصل الخليفة إلى مراکش ، وانتهت مراسم التحية ، واستقبال الوفود ، بحث مع السيد أبي الحسن ، نائبه بمراكش ، ومع أشياخ الموحدين ، أمر السيدين المذنبين ، وذلك على ضوء ما صدر منهما من محاولات في الخروج والثورة ، وهو ما يستوجب إعدامهما شرعاً ، وانتهى الأمر بتقرير إعدامهما ، وبعث الخليفة إلى عثمان



ابن عبدالعزيز الكومي قائد قسبة رباط الفتح ، بأن يتولى تنفيذ هذا الحكم فيهما ، فقام بالمهمة ، وضرب عنقهما ، وقتل معهما في نفس الوقت عدد ممن تحقق اشتراكه معهما في محاولتهما<sup>(١)</sup> . ويزيد صاحب روض القرطاس على ذلك ، أن الخليفة قتل أيضاً أخاه أبا يحيى ، بمعنى أنه أمر بإعدام ثلاثة من السادة دفعة واحدة ، أحد أعمامه ، واثنين من إخوته<sup>(٢)</sup> ، ووقع ذلك فيما يرجح في أواسط سنة ٥٨٤ هـ ، (١١٨٨ م) . ويقول لنا المراكشي إنه كان لهذا التصرف الدموي وقع عميق لدى قرابة الخليفة فهابوه ، واشتد خوفهم وتوجسهم منه بعد أن كانوا يتهاونون بأمره ويحتقرونه ، لأشياء كانت تصدر منه في صباه أيام أن كان بالأندلس والياً لإشبيلية<sup>(٣)</sup> . وما كاد المنصور يستقر بمراكش ، بعد أن اطمأن إلى استتباب السكينة ، وتوطد سلطان الموحدين بإفريقية ، حتى أخذ ينظر في شئون الأندلس . وكانت الأحوال في شبه الجزيرة ، قد أخذت خلال انشغاله بحوادث المغرب وحملة إفريقية ، تتطور بصورة تدعو إلى القلق ، واشتد عدوان البرتغاليين من جهة على قواعد ولاية الغرب الجنوبية وانتهى بالاستيلاء على شلب وأحوازها ، ووصلت غارات القشتاليين من جهة أخرى إلى أحواز إشبيلية ، ومن ثم فقد خص المنصور شئون الأندلس بعنايته ، وأخذ في الاستعداد لتدارك تلك الحال ، والعمل على قمع عدوان النصارى . فأذاع الدعوة إلى الجهاد على حكم الاختيار والتطوع ، فتقاطرت جموع المتطوعين المجاهدين إلى الحضرة ، من سائر جنابات المغرب ، ومن مختلف الطوائف والقبائل ، وبعث الخليفة إلى العمال بالاستعداد ، وضرب الآلات الحربية ، وإعداد العتاد والأقوات ، ثم ندب لولاية إشبيلية ابن عمه السيد أبا حفص يعقوب بن السيد أبي حفص عمر ، وكان موضع ثقته وإيثاره ، كما كان أبوه من قبل موضع حب أبيه وإيثاره ، وذلك لكي يعمل على مواجهة الأحداث بالأندلس بروح وهمة جديدين ، وندب ابن عمه السيد أبا الحسن ابن أبي حفص والياً لتلمسان ، وعهد إليه بشئون المخازن والمؤن ، والسهر على إعدادها وتوفيرها للحشود المقبلة<sup>(٤)</sup> .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧١ - ١٧٣ ، والمعجب ص ١٥٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٣) المعجب ص ١٥٧ ، ويقول لنا المراكشي أيضاً إن قتل السادة كان في سنة ٥٨٣ هـ ، وهو تاريخ خاطئ ، لأن عودة الخليفة من غزواته الإفريقية ، كان في المحرم سنة ٥٨٤ هـ .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٤ .

## الفصل الثاني

### حوادث الأندلس وإفريقية

أطاع البرتغال في ولاية الغرب . تهيز الفرص لتحقيقها . مقدم السفن الصليبية إلى مياه أشبونة . اتفاق سانشو ملك البرتغال مع الصليبيين على غزو شلب . موقع شلب وخواصها في ذلك العصر . سير سانشو وحلفائه الصليبيين إلى الجنوب . زحفهم على شلب واستيلائهم على أرباضها . محاصرة شلب وضربها . صمود المدينة . قطع النصاري الماء عنها . اضطرارها إلى التسليم بالأمان . خروج المسلمين منها واستيلاء النصاري عليها . غزوات القشتاليين في منطقة إشبيلية . تأهب الخليفة أبي يوسف يعقوب للجهاد بالأندلس . مسيره إلى رباط الفتح . عبور الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . سير الخليفة إلى قرطبة . اجتماع الحشود الموحدية بالأندلس ، ومسيرها إلى شلب . سير الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية . عقد ملكي ليون وقشتالة للصلح مع الخليفة . سير الخليفة في قواته من قرطبة إلى وادى التاجة . غزوه لمنطقة شنترين . استيلائه على قلعة طرش . محاصرته لطومار . تخريبه لبساتن تلك المنطقة . صمود طومار . أمر الخليفة بالكف عن الغزو . عوده في قواته إلى إشبيلية . عود الجيش المحاصر لشلب . فشل هذه الغزوة لأراضي البرتغال . نظر الخليفة في أمر المسجونين والعمال . فتنة الجزيري ومطاردته . ما أذيع حول شخصه . القبض عليه وإعدامه . حقيقة أمره ودعوته الإصلاحية . سفارة صلاح الدين إلى المنصور . ظروف الشرق الإسلامى يومئذ . عدوان الصليبيين واستيلائهم على ثغور الشام وبيت المقدس . نهضة صلاح الدين وتحطيمه للمملكة اللاتينية . أثر ذلك في مضاعفة الغرب لأهباته المدوانية . اتجاه صلاح الدين إلى طلب العون من المغرب . رسالته الأولى إلى الخليفة الموحدى . سفارته إليه على يد ابن منقل . ما جاء في رسالته إلى الخليفة . أقوال الروايات المصرية والمغربية من حركات السفير المصرى ومسير سفارته . استقبال الخليفة لابن منقل وتسلم هدية صلاح الدين . فشل هذه السفارة وبواعث هذا الفشل . المغزى العظيم الذى تنطوى عليه . أهبة المنصور لاستئناف الغزو . خروجه في قواته من إشبيلية . مسيره إلى البرتغال . مهاجمته لقصر الفتح . تسليم النصاري إياها بالأمان . استيلاء الخليفة على حصن قلالة والحصون المجاورة . سير الموحدين إلى شلب . محاصرتها وضربها بالمجانيق . اقتحامها وتسليمها بالأمان . عود المنصور إلى إشبيلية . عبوره إلى العلوة ومسيره إلى الحضرة . مرض المنصور . اختياره لولده محمد لولاية العهد . ملخص بيعة أهل قرطبة لولى العهد . مقدم السيد أبي زيد وأشياخ العرب . استجاء الخليفة بفاس . مسيره إلى رباط الفتح وتجديد قصبتها . عوده إلى مراكش . أمره بإنشاء حصن الفرج بشرف إشبيلية . فتنة الأشل ببلاد الزاب . مطاردة والى بجاية له . حماية العرب له . تحيل الوالى في القبض على العرب . اضطرار عشائهم إلى القبض على الثائر وتسليمه . استئناف بنى غانية لحركاتهم . عيهم في بلاد الجريد . وفاة على بن إسماعيل ابن غانية . قيام أخيه يحيى مكانه بالأمر . توحيد قراقرش ومسيره إلى تونس . بواعث هذا التصرف . فراره من تونس وعوده إلى منامراته . استيلائه على طرابلس . الخلاف بينه وبين يحيى . هزيمة قراقرش وفراره . استيلاء يحيى على طرابلس . ثورة أهل طرابلس وعودهم لطاعة الموحدين .



لم يكن ثمة شك في أن نكبة شترين ، وما ظهر خلالها من عجز الجيوش الموحدية الحرارة ، واختلال نظامها ، كان له أكبر الأثر في إذكاء أطماع ملك البرتغال ألفونسو هنريكز ( ابن الرنق ) في انتزاع ما تبقى من ولاية الغرب الأندلسية ، وفي مضاعفة شهوة العدوان والتغلب ، في نفسه الوثابة المضطربة . ولكن ألفونسو هنريكز لم يعيش طويلاً يقوم بنفسه بتحقيق هذه الأطماع العريضة ، إذ توفي في السادس من شهر ديسمبر سنة ١١٨٥ م ( أواخر سنة ٥٨١هـ ) ، بعد أن حكم مملكة البرتغال زهاء نصف قرن ، وبعد أن وطد أركانها ، ووسع حدودها شرقاً وجنوباً على حساب الأراضي الإسلامية ، وكانت وفاته لنحو عام ونصف فقط من وفاة الخليفة أبي يعقوب يوسف عقب نكبة شترين . فخلفه ولده سانشو الأول ، وهو يضطرم بمثل أطماعه ، وقضى أعوام حكمه الأولى في العمل على إصلاح البلاد والحصون التي خربتها الحرب ، وتعميرها بالسكان . ومنذ بداية سنة ١١٨٩ م ( ٥٨٥هـ ) نراه يعد العدة لاستئناف غزو الأراضي الإسلامية . وكانت كل الظروف تشجعه ، وتعضد مشاريعه . فقد كان الخليفة الموحدى ، بعيداً في المغرب تشغله أحداث إفريقية ، ومغامرات بني غانية ، ومؤتمرات الخوارج عليه ، وكانت هذه الأحداث المحلية الخطيرة تجعل من المتعذر على الخليفة الموحدى ، أن يبعث بشيء من حشوده إلى شبه الجزيرة ، وكانت القوات الموحدية بالأندلس قليلة العدد والعدد ، لاتكفى لدفع عدوان النصارى سواء من ناحية مملكة قشتالة أو مملكة البرتغال . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الظروف تهيئ لنصارى البرتغال أمداداً طارئة لم تكن في الحسبان ، هي الأمداد الصليبية ، التي عادت تنقاطر إلى المشرق من ناحية المحيط ، لتنجد الجيوش الصليبية التي ضعفتها ضربات صلاح الدين ، وسقوط المملكة اللاتينية ، باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس في رجب سنة ٥٨٣هـ ( أكتوبر سنة ١١٨٧ م ) .

في أوائل سنة ١١٨٩ م ( أوائل ٥٨٥هـ ) ، وصل أسطول صليبي ضخم من خمسين سفينة ، يحمل عدداً وافراً من الجند الألمان والفلمنك إلى مياه إسبانيا الغربية في طريقه إلى البحر المتوسط ، ورسا في مياه جليقية قبالة مدينة شنت ياقب المقدسة ، ونزلت منه بعض طوائف من الجند لتزور قبر القديس ياقب ، ولكن أهل المدينة توجسوا شراً من مقدم أولئك الجند ، وخشوا أن تمتد أيديهم إلى الذخائر التي يحفل بها مزار هذا القديس ، فردوهم بعد معركة عنيفة ، قتل فيها عدد من



الجانيين ، وعاد الجند الصليبيون إلى سفنهم ، فسارت بهم نحو الجنوب . وتقدم في نفس الوقت إلى هذه المياه أسطول صليبي آخر من إنجلترا وبلاد الفلاندر ، ودفعته الأنواء والعواصف الجائحة نحو مياه أشبونة ، ثم انضمت إليه السفن القادمة من مياه جليقية ، فاجتمع بذلك في مياه أشبونة عدد ضخم من السفن الصليبية ، تحمل ألوفاً عديدة من المقاتلة ، فتلقاهم سانشو ملك البرتغال بترحاب ، وألقى في مقدمهم فرصة طيبة للاستعانة بهم في غزو القواعد الإسلامية الجنوبية ، وتفاهم مع الرؤساء والقادة الصليبيين على تسير حملة قوية مشتركة إلى مدينة شلب ، لانزاعها من المسلمين ، لأنهم يتخذونها بالأخص قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط يغزونها ، وينهبون ثغورها ، ويأسرون كثيراً من النصاري<sup>(١)</sup> ، فاستجاب إليه الصليبيون ، بما أذكى أطعاهم من إحراز الغنائم والثروات من أراضي المسلمين .

وكانت شلب ، في ذلك الوقت ، بعد باجة ويابرة ، أمنع قواعد ولاية الغرب الأندلسية ، وأوفرها عمراناً وثراء ، وهي تقع في أقصى جنوبي البرتغال ، على مقربة من المحيط ، فوق ربوة متدرجة تشرف على نهر دراد الذي يصب في المحيط جنوباً قرب ثغر بورتماو الصغير ، ومن حولها بسائط خضراء ، تكثر فيها غابات الزيتون ، والحدائق والحقول البانعة ، وإليك كيف يصفها لنا الشريف الإدريسي ، وقد زارها قبل ذلك بنحو نصف قرن :

« ومدينة شلب حسنة في بسيط من الأرض وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات . وشرب أهلها من وادئها الجاري إليها من جهة جنوبها وعليه أرحاء البلد ، والبحر منها في الغرب على ثلاثة أميال ، ولها مرسى في الوادي وبها الإنشاء ، والعود يجبالها كثير ، يحمل منها إلى كل الجهات . والمدينة في ذاتها حسنة الهيئة يديعة المباني مرتبة الأسواق ، وأهلها سكان قراها من عرب اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء خاصتهم وعامتهم »<sup>(٢)</sup> . تلك هي شلب الإسلامية التي أزمع سانشو ملك البرتغال وحلفاؤه الصليبيون

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٧٥ ، وأشباخ في تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٢٢٩ و ٢٣٠ ، وراجع أيضاً :

Huici Miranda: Impeio Almohade, cit. Las Crónicas dos Sete Reisde Portugal p. 842

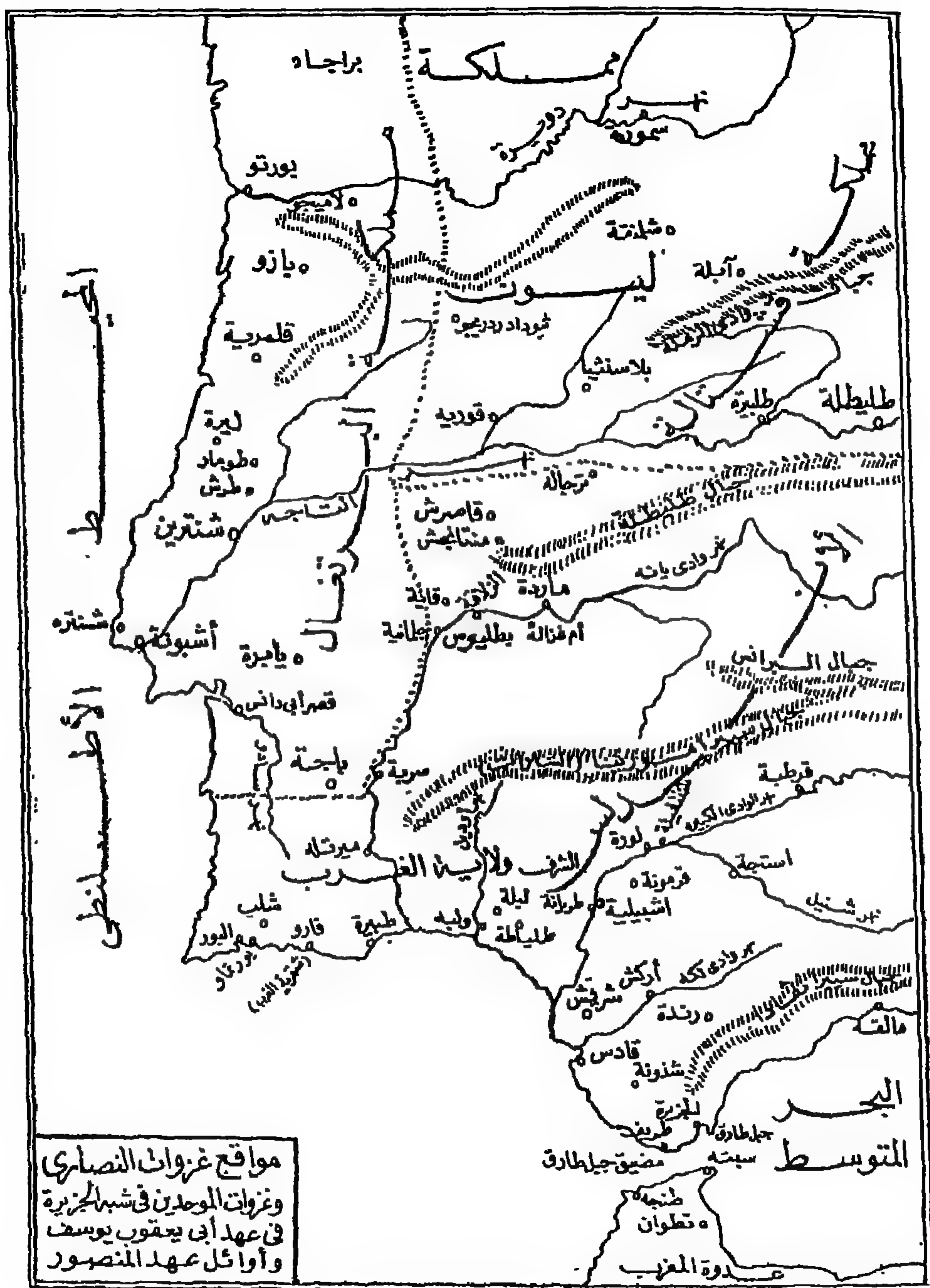
(٢) الإدريسي في وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ص ١٧٩ و ١٨٠) ، ونقله صاحب الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٠٦ .

أن ينتزعوها من المسلمين : ففي أوائل سنة ٥٨٥ هـ ( أوائل سنة ١١٨٩ م ) ،  
بعث سانشو بقواته البرية جنوباً صوب شلب ، وسارت سفن الصليبيين من خليج  
التاجه حذاء الشاطئ البرتغالي حتى مياه نهر بورتماو الصغير ، الواقع على قيد  
إثنى عشر كيلومتراً من جنوبي شلب . وبدأ البرتغاليون بمهاجمة حصن ألبور<sup>(١)</sup>  
الواقع على مقربة من غربي بورتماو ، وقتلت حاميته الإسلامية ومن كان به من  
اللاجئين المسلمين ، وعددهم جميعاً يقرب من الستة آلاف<sup>(٢)</sup> ، ثم زحف سانشو  
بعد ذلك في قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، نحو المدينة الإسلامية ، وهاجموا أرباضها ،  
واستولوا عليها في الحال . وكان والي المدينة عندئذ الحافظ عيسى بن أبي حفص  
ابن علي ، رجلاً عاجزاً قليل الخبرة بشئون الدفاع ، فامتنع بقواته داخل المدينة ،  
معتمداً على حصانها الطبيعية ، وأسوارها القوية العالية ، وشغل الصليبيون عن  
مهاجمة المدينة بنهب ما حولها من الأرباض والمحلات ، وحاول سانشو مدى بضعة  
أسابيع أن يقتحم المدينة بالمهجوم في قواته ، ولكن محاولاته ذهبت عبثاً : فاضطر  
أن يلجأ إلى الحصار ، وأن يستدعى قوات جديدة لمعاونته قدمت في أربعين سفينة  
جديدة . وتضع الرواية النصرانية بدأ حصار شلب في ٢١ يولييه سنة ١١٨٩ م  
( ربيع الآخر سنة ٥٨٥ هـ ) . وحاول سانشو في بدء الحصار أن يعاود اقتحام  
المدينة ، فصرمها بالمجانيق والنبال ضرباً شديداً ، ولكن ذلك لم يؤثر شيئاً على  
تحصينات المدينة القوية ، وحاول الحند القلمنك من جهة أخرى أن يخفروا  
السراديب تحت الأسوار وأن يحدثوا بها ثلمات للدخول ، فأحبط أهل المدينة كل  
محاولاتهم . وكان من الممكن أن يطول هذا الموقف ، وأن تصمد المدينة للحصار ،  
مدة طويلة ، لولا أن عمد سانشو إلى محاولة قطع الماء عن المدينة ، وإرغامها  
إلى التسليم من جراء العطش . وكانت شلب تستمد ماءها من النهر القريب بواسطة  
بئر كبيرة أقيمت قرب السور تسمى « القراجة » ، وأقيم فوقها لحمايتها برج  
قوى ، ففكر المحاصرون في هدم هذا البرج ، وهاجموه بواسطة السلام ، فلما  
رأى المسلمون هذه المحاولة ، خرجوا لمنعها ، ونشبت حولها معركة تفوق فيها  
النصارى واستولوا على البئر . وكانت هذه بالنسبة للمسلمين ضربة مؤلمة ، لم تلبث  
أن حققت نتائجها المحتومة . ذلك أن العطش أخذ إلى جانب الجوع ، يحدث أثره

( ١ ) حصن ألبور بالإنجليزية Alvor .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٥ .







المروع في أهل المدينة ، وكان النصارى يترقبون الفرصة القريبة لمهاجمة المدينة واقتحامها ، بعد أن يعجز أهلها عن الدفاع تماماً . ولكن المدينة لم تستطع أن تصمد حتى هذه اللحظة ، ولم يلبث أن بعث أهلها وفدهم إلى سانشو ، يعرض عليه تسليم المدينة ، إذا وافق على أن يخرجوا منها حاملين سائر أمتعتهم ، فتفاوض سانشو مع حلفائه ، وكان رأى القلمنك الصليبيين أن يقتل أهلها المسلمون جميعاً ، ولكن الرأى انتهى بإقناعهم بالحصول على أسلاب المدينة ، واتفق في النهاية على أن يؤمن أهل المدينة في أنفسهم ، وأن يتركوا البلد بجميع ما فيه من أموالهم وأثاثهم . وهكذا غادر أهل شلب مدينتهم « مسلوبين » ، ودخل النصارى مدينة شلب ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، في يوم الاثنين العشرين من رجب سنة ٥٨٥ هـ ( ٣ سبتمبر سنة ١١٨٩ م )<sup>(١)</sup> .

وكان سقوط مدينة شلب على هذا النحو ضربة قاصمة لسلطان الموحدين في ولاية الغرب ، إذ كانت هي آخر معاقلهم في تلك المنطقة الحساسة ، وسقوطها بعد سقوط باجة قبل ذلك بعشرة أعوام ، يفتح الطريق لتهديد بقية ولاية الغرب في اتجاه ولة ولبله ثم إشبيلية . على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن القشتاليين كانوا من الناحية الأخرى ، يهددون موسطة الأندلس ، ومنطقة إشبيلية بالذات ، بغاراتهم المتوالية . ففي نفس الوقت الذى سارت فيه القوات البرتغالية والصليبية لافتتاح شاب ، خرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة في قواته ، نحو منطقة قرطبة ، ثم اكتسح البسائط شرقاً نحو إشبيلية ، وهو يعيث فيها قتلاً وسلباً ، فخرجت قوات إشبيلية إلى لقائه فأوقع بها الهزيمة ، والتجأت فلولهم إلى حصن المنار ، فطاردهم النصارى واستولوا على الحصن ، واستأصلوا من فيه من المسلمين قتلاً وأسراً . ولم يمض قاييل على ذلك ، حتى سار ألفونسو إلى أم غزالة ، وكانت قد أخليت من سكانها قبل وصوله ، فحاصرها وقتلاً ثم تركها ، وسار إلى ربينة ، واستولى عليها ، وقتل معظم سكانها وأسر الباقين ، واستمر في حملته الغازية حتى قلعة جابر ، ثم حصن شلير ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة ٥٨٥ هـ ( أغسطس سنة ١١٨٩ )<sup>(٢)</sup> .

---

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٥ و ١٧٦ ، والروض المطار ( صفة جزيرة الأندلس ص ١٠٦ ) وراجع : Huici Miranda : *ibid*; (cít. Relaciones). p. 342 - 346 .

( ٢ ) البيان المغرب ص ١٧٥ و ١٧٦ .

وعاد ملك قشتالة بعد حملته المظفرة إلى طليطلة .

كان لتلك الحوادث أعمق وقع في نفس الخليفة يعقوب المنصور ، فما كاد يقف على أخبارها ، حتى أخذ في التأهب للعبور إلى الأندلس ، واستئناف الجهاد ، واعتمد في هذه المرة على التطوع في جمع الحشود ، حسبما ذكرنا من قبل ، وعنى عناية خاصة بتوفير العتاد والسلاح والمؤن ، ثم خرج في قواته من مراكش في الرابع عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٨٥ هـ ( ٢٣ يناير سنة ١١٩٠ م ) ، وذلك بعد أن وجه كتبه إلى إشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، بما اعتزمه من قدومه إلى شبه الجزيرة لنصرة أهلها على عدوهم ، وما يرجوه من تيسير استقبال الجيوش الوافدة ، وسار إلى رباط الفتح ، فلما وصلها ، أقام بها نحو الأربعين يوماً ، حتى وصلت باقي الحشود وقوات القبائل ، واستكملت أهبة الجيش الغازي .

وفي أواخر شهر المحرم من سنة ٥٨٦ هـ ( أوائل مارس سنة ١١٩٠ م ) غادر المنصور رباط الفتح في قواته ، وسار إلى قصر مصمودة ( القصر الصغير ) وجدد منه كتبه إلى إشبيلية متضمنة قرب وصوله . ولبت مقياً بالقصر ، حتى كان بدء الجواز في الخامس عشر من ربيع الأول ، ولما انتهى جواز الجند ، عبر المنصور البحر في يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول ، ونزل بجزيرة طريف ، وهناك أقبلت وفود بعض البلاد للسلام عليه ، وشكا البعض مما يقع من ظلم العمال ، فأغضى المنصور عن مناقشة هذا الأمر في هذه الظروف الدقيقة . ثم تحرك من طريف في غرة جمادى الأولى ، وسار شمالاً صوب مدينة أركش ، وهناك ودع الوفود الملتفة حوله ، وسار إلى قرطبة . وبعث إلى السيد يعقوب بن أبي حفص وإلى إشبيلية ، بأن يتحرك منها بعساكره ، وأن يجمع سائر الحشود ، من العرب والبربر ، من غرناطة وغيرها ، ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة ، وسائر المتطوعة والمجاهدين . فصعد السيد يعقوب بالأمر ، وحشد سائر القوات المتقدمة ، وسار فيها قاصداً إلى شلب ، وذلك في غرة جمادى الأولى ( ٦ يونيه ) وعسكر في ظاهر المدينة . ولم يمض شهر على ذلك حتى وصلت سفن الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية



على مقربة من ثغر بورتماو ، ثم دنا الموحدون من أسوار شلب ، ونصبوا عليها المجانيق ، وآلات الرمي ، وضربوا حول المدينة حصاراً صارماً مرهقاً .

وأما المنصور ، فإنه لما وصل بقواته إلى قرطبة نزل بها بالقصر الذي كان أنشأه السيد أبو يحيى . ثم تجول بأطلال مدينة الزهراء ، ليشاهد آثار القرون الماضية ، وليعتبر بما أحدثته صروف الدهر ، وأمر بإنزال التمثال الذي كان منصوباً فوق بابها ، وقد كان وفقاً لقول البكري تمثالاً للعنراء : ويقول لنا صاحب البيان إنه هبت في عصر ذلك اليوم ربيع عاصفة أحدثت بعض الخلل في محلة الساقة ، فأذاع بعض عامة قرطبة أن ذلك كان بسبب إنزال تمثال الزهراء ، وأن هذا التمثال كان طلسماً لحمايتها ، وبلغ المنصور ذلك فسخر منه ، وأنهى باللائمة على جهل أهل قرطبة<sup>(١)</sup> ، وأمر بالاجتهاد والتأهب :

وكان قد وصل إلى قرطبة رسل من قبل ملك قشتالة ، جاءوا ليسعوا إلى عقد الهدنة ، وكان مقدم الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، قد بث حسباً تحدثنا رسالة الخليفة ، بين النصارى ، أسباب الخزع والفرع ، فبادر ملوكهم إلى إرسال رسلهم في التماس المسالمة والتهادن ، وأنه بينما كان الخليفة على وشك العبور من القصر الصغير ، وصل رسل ملك قشتالة إلى إشبيلية ، يعرضون السلم ويطلبون عقد الهدنة ، ويعرضون التحالف على قتال غيرهم من النصارى . وتكررت هذه العروض عند وصول الخليفة إلى قرطبة ، فاستجاب الخليفة إلى مطالبهم ، لأنه حسباً يقول لنا في رسالته ، رأى مصلحة المسلمين في افتراق كلمة الكفر ، وكذلك عقد ملك ليون الهدنة مع الخليفة ، ولم يأبه بالحلف القديم الذي كان قد عقده أبوه فرناندو مع ملك البرتغال أيام موقعة شنترين<sup>(٢)</sup> .

ثم أمر الخليفة السيد أبا زكريا بن أبي حفص أن يسير إلى إشبيلية في جيش خاص من العرب وزناتة وأهل تلمسان ومن إليهم ، ليتجهز هنالك ويلحق به وبإخوته في طريق الغزو . وقام المنصور بعد ذلك بتمييز القوات المرتزقة ، والحشود الواصلة من العدو ، وفرقت فيهم البركة ، ثم أمر بعقد الرايات ، وخرج في قواته من قرطبة متجهاً نحو الشمال الغربي إلى وادي التاجه ، ولحق به السيد أبو زكريا في قواته في نفس الاتجاه . وكانت خطة المنصور ، فيما يبدو هي العمل

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٥ .

(٢) رسائل موحدية - الرسالة الرابعة والثلاثون ص ٢٢٢ و ٢٢٣ .



على إرغام ملك البرتغال على احتجاز قسم كبير من قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، في الشمال بعيداً عن شاب ، لكي يخفف ضغط النصارى بذلك على القوات الموحدية الضاربة حولها ، فستطيع تكريس جهودها للتغلب على منعة المدينة ذاتها . ومن ثم فقد سار المنصور صوب السهل الممتد على ضفاف التاجه شمالى شنترين ، وأنخن الموحدون في تلك الرقعة الخضراء ، فانتسفوا زروعها ، وخرّبوا ضياعها ، ثم عبروا النهر وساروا لمهاجمة قلعة طرش<sup>(١)</sup> الواقعة على مقربة من شمال شنترين ، وهي قلعة عظيمة شديدة المنعة ، تقع فوق ربوة عالية ، فحاصروها بشدة ، ولم تمض أيام قلائل ، حتى عرض قائدتها التسليم بالأمان ، فوافق الخليفة وغادر القلعة كل من كان فيها من النصارى ، وفي الحال خرب الموحدون القلعة وسائر متعلقاتها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكانت حسبما تصفها رسالة الخليفة محلة عامرة نضرة ، تغص بالغراس والكروم : ثم سار الموحدون بعد ذلك شمالاً ، وهاجموا مدينة طومار<sup>(٢)</sup> ، وهي قاعدة منيعة ، تقع في بسيط مخصب زاهر ، وكانت تدافع عنها حامية من فرسان المعبد ( الداوية ) فحرب الموحدون بسائطها ، ولكنهم اضطروا إلى حصارها ، نظراً لما أبدته حاميتها من شدة في الدفاع . ودام الحصار وقتاً دون أن تسلم طومار ، ويقول لنا صاحب البيان المغرب ، إن رسل ابن الرنك ( ملك البرتغال ) قدموا عندئذ في طلب المهادنة والسلام ، وأن المنصور أمر بتخفيف القتال ريثما ينقذ السام ، وتنتظم الأمور<sup>(٣)</sup> . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو مما يقصده علينا الخليفة في رسالته أن الموحدين ، كانوا خلال هذا الحصار ، يوجهون سراياهم في سائر البسائط القريبة تشخن فيها ، وتمعن في تخريبها ، وأن سانشو ملك البرتغال كان في ذلك الحين مرابطاً بقواته في شنترين ، لا يجرؤ على الخروج منها لملاقاة الموحدين<sup>(٤)</sup> .

وعلى أى حال فإن الموحدين لم يستمروا في حصار طومار ، ولم يأخذوها ، وحدث العكس حيث أمر الخليفة بالكف عن القتال واختتام أعمال الغزو . ويقدم إلينا صاحب البيان تفسيراً لذلك خلاصته ، أن الخليفة شعر بتوعلك تهادى أمره ،

( ١ ) هي بالإفرنجية Torres ، وتقوم اليوم مكانها بلدة Torres Novas البرتغالية .

( ٢ ) هي بالإفرنجية Tomar وهي تقع على مقربة من شمالى T. Novas .

( ٣ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٠ .

( ٤ ) الرسالة الموحدية الرابعة والثلاثون ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

وأنة من جهة أخرى لاحظ أن شئون التموين بالجيش قد اختلت ، وأخذت المؤن والعلوفات تنضب ، وقد كانت تحمل إليهم على خط تموين طويل يمتد من قرطبة . وهذا بعكس ما كان عليه البرتغاليون حيث استطاعوا قبل الغزو أن يحصلوا معظم زروعهم ، وأن يخبثوا المؤن الكافية<sup>(١)</sup> . ولهذا كله قرر الخليفة أن يخبث أعمال الغزو ، وأن يأمر بالارتداد إلى إشبيلية ، وصدرت الأوامر في نفس الوقت إلى الجيش المحاصر لشلب بأن يغادرها على وجه السرعة ، وأن يرتد كذلك أدراجة . وقضى المنصور في هذه الغزوة ثلاثة وأربعين يوما . وكانت عودته إلى إشبيلية في الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ (يوليه ١١٩٠ م)<sup>(٢)</sup> .

ونستطيع أن نقول إن غزوة المنصور لأراضى البرتغال لم تسفر عن نتائج ذى شأن ، وأنها كانت بالعكس غزوة فاشلة ، فلم تؤخذ طومار ، ولم تُسترد شلب ، وهى غاية الغزو الأولى . ونستطيع أيضاً أن نلاحظ مرة أخرى أن اختلال شئون التموين فى الجيوش الموحدية ، كان دائماً فى مقدمة أسباب فشلها فى تحقيق أغراضها العسكرية . على أننا نستطيع أن نلاحظ فى نفس الوقت ، أن ما تذرعه بالمنصور من الخزم فى تنظيم الارتداد فى الوقت المناسب ، كان كفيلاً بسلامة الجيش الموحدى ، وعدم تعرضه لكارثة أخرى ، من طراز كارثة شنترين .

على أن المنصور لم تقف همته ومشاريعه عند هذا الحد . ذلك أنه كان يشعر أنه لابد من تحقيق الهدف الرئيسى من عبوره إلى شبه الجزيرة ، باسترداد شلب . وضرب قوى البرتغال العسكرية ، ومن ثم فقد عول على البقاء بالأندلس ، والعكوف على الاستعداد الوثيد المجدى .

وانتهز المنصور فرصة وجوده بإشبيلية ، فأخذ ينظر فى شئون الناس والعمال ، وأمر بفحص قضايا المسجونين الذين طال سجنهم ، وإعدام من يستحق الإعدام منهم بعد عرض أمره عليه ، واشتد فى مطاردة المنكرات والملاهى . وأما عن العمال فقد أمر المنصور ، بالقبض على ابن سنان لما نعى إليه من أنه كان فى موقعة النار أول من بادر بالفرار ، وأمر كذلك باستصفاء أمواله .

( ١ ) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ص ٢٢٧ .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٠ .



وفي ذلك الحين بالذات ، رُفِعَ إلى المنصور أمرُ ثائرٍ من نوعٍ جديدٍ ظهر بمراكش . ويدعى على الخزيري . ويقدم إلينا صاحب البيان بالمغرب هذا الثائر في صورة غامضة مثيرة ، فيقول لنا إنه كان يتظاهر بطلب العلم ، ويعنى بنوع خاص « بحفظ المتشابهات » ، وأنه لما ظهر أمره لأول مرة ، أمر الخليفة بطرده من مراكش ، فغادرها ، وأخذ يتجول في الأقطار ، وهو يبيث دعوته سرّاً ، ولا سيما بين العامة حيث يخاطبهم ، ويسايرهم في أفكارهم ، ثم ظهر من جديد بمراكش وكثر القول عن دعايته ومساعيه ، فأمر والي المدينة السيد أبو الحسن ابن أبي حفص بمطاردته والبحث عنه أينما وجد ، ولكنه استطاع أن يلوذ بالفرار ، ثم ظهر بمدينة فاس ، وأخذ يختلط بعامتها وأوباشها وتبعه منهم جماعة ، فرفع خبره إلى واليها ابن ومازير ، فقبض على عدة من أتباعه وقتلهم ، وأفلت الثائر من المطاردة مرة أخرى ، واختفى ولم يوقف له على أثر .

ثم تواترت الأنباء بأن الثائر قد عبر إلى الأندلس ، فأمر المنصور بالكتب إلى سائر الولاة والعمال بصفته وهيئته وأماراته ، وبأن يقبض عليه أينما وجد . وذاعت بهذه المناسبة عن الثائر أقوال وروايات خرافية كثيرة ، ف قيل إنه ساحر قدير ، وأنه يتصور في صور الحيوانات المختلفة ، مثل الحمر والكلاب والسنائير ، وترددت هذه الأقاويل بين العامة . ثم قيل إنه عثر عليه في مالقة ، وقبض على كثير من الأوباش الذين التفوا حوله ، وفيهم أخوه ، فأمر المنصور بإحضارهم إلى إشبيلية ، وقيل إن الثائر كان ضمن هؤلاء المقبوض عليهم ، ولكنه استطاع أن يفلت بواسطة رشوة دفعها أتباعه للقاضي المختص ، ويدعى الوافي . فأمر المنصور بقتل أولئك الأتباع ، وعددهم تسعة وتسعون ، وأمر بأن يجلد القاضي بعدد الدنانير التي تقاضاها على سبيل الرشوة ، فهلك قبل أن يستوفي هذا العدد ، وقتل في نفس الوقت في مختلف الأنحاء كثيرون آخرون ممن نسب إليهم مسامرة الثائر واتباع دعايته .

وأخيراً ، وبعد بحوث ومطاردات عنيفة ، قبض على الثائر في بعض قرى مرسية ، وأخذ إلى إشبيلية ، وحمل إلى مجلس الموحدين ، وطيف به على الحاضرين وهو يعان إنكاره لما نسب إليه من المبادئ والنظريات الثورية ، ثم انتهى الأمر بصلبه ، والقضاء على مدار حول شخصه من ضروب الإرجاف والخرافة<sup>(١)</sup>.



ونظم الشعراء قصائدهم كالعادة في امتداح المنصور ، وتهنئته بالقضاء على هذه الفتنة . فن ذلك ما قاله الجراوى من قصيدة طويلة :

نار من الفتنة العمياء أطفأها      سعد الإمام وحد الصارم الذكر  
ما زال إبليس في الأقطار يوقدها      وترتمى من شرار الخلق بالشرر  
زاد الشقى على الخفاش مشبهه      ضعف البصيرة إذا ساواه في البصر  
جارى إلى سقر أصحابه فهووا      فيها سراعاً ووافاهم على الأثر

تلك هي رواية صاحب البيان المغرب عن ثورة الجزيرى ، وهي فيما يبدو مستمدة من أقوال ابن صاحب الصلاة ، وهي رواية بلاط لا تمثل سوى وجهة النظر الرسمية .

يبد أنه يبدو من جهة أخرى أن ثورة الجزيرى ، كان لها شأن آخر ، وأن الجزيرى واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزيرى ، لم يكن ذلك الدجال المشعوز ، الذى تقدمه إلينا الرواية الموحدية . فهو عالم أندلسى من أهل الجزيرة الخضراء ، أخذ من مختلف العلوم بقسط وافر ، وكان يُنعى على الدولة الموحدية ما جنحت إليه من الأخذ بأسباب الأبهة والترف ، ومن مخالفة تعاليم المهدي الأصلية . وكان يضطرم بنزعة إصلاحية ، ويطمح إلى إحياء سنن المهدي ابن تومرت ، ويبث دعوته بين الكافة بقوة وبراعة ، حتى عظم أمره ، وكان شاعراً مجيداً : ومن قوله يشير إلى رسالته الإصلاحية :

في أم رأسى سر      يبدو لكم بعد حين  
لأطلبن ——— مرادى      إن كان سعدى معينى  
أو لا فأكتب ممن      سعى لإظهار دينى

وكانت الجموع تهرع إلى الالتفاف حوله أينما وجد ، وتذاع عنه وعن دعايته أغرب الروايات ، حتى زعم بعض الناس أنه يتصور في صور الحيوانات مثل القطط والكلاب وغيرها . وكان من الطبيعي أن تفرع السلطات الموحدية لأمر هذا المصلح النائر ، وأن تخشى من تأثير دعايته في الجموع ، وأن تبث عليه العيون والأرصاد في كل مكان . وكان ينجح في الإفلات من المطاردة في أحيان كثيرة ، حتى قبض عليه أخيراً في بعض قرى مدينة بسطة ، وقتل ،

وأرسل إلى مراکش . وكانت ثورة الجزيرة في سنة ٥٨٦ هـ ( ١١٩٠ م )<sup>(١)</sup> .

وفي هذا العام بالذات أعنى في سنة ٥٨٦ هـ ، تلقى الخليفة الموحدى سفارة هامة ، من الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشام ، على يد وزيره عبد الرحمن بن منقذ . ولم تكن هذه أول مرة يحاول فيها عاهل مصر ، أن يتصل بالخليفة الموحدى ، وأن يكتب إليه . ولا بد لنا قبل التحدث عن موضوع هذه السفارة ، أن نشير إلى الظروف التى كان الشرق الإسلامى يجوزها في تلك الفترة ، التى حملت صلاح الدين ، على أن يتجه ببصره إلى الغرب الإسلامى ، ذلك أن الشرق الإسلامى كان منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ( أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ) ، يواجه عدوان الغرب المنظم في صورة الحملات الصليبية المتوالية . وكان هذا العدوان قد أسفر عن ثماره الأولى باستيلاء الصليبيين على ثغور الشام وبيت المقدس ، وقيام المملكة الفرنجية اللاتينية في بيت المقدس . وكانت مصر في تلك الفترة الموءلة ، وهى أواخر العهد الفاطمى ، تجوز مرحلة انحلال وضعف ، وتعوزها الوسائل والقوى الدفاعية الناجعة . فلما انتهت الدولة الفاطمية ، ونهضت مصر نهضتها المشهورة ، على يد الملك الناصر صلاح الدين ، واستطاعت أن تسحق قوى الصليبيين ، وأن تسترد بيت المقدس ، وأن تقضى بذلك على المملكة اللاتينية ( ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م ) هرع الغرب في حشوده العظيمة مرة أخرى إلى الشرق ، ليقضى على تلك القوة الجديدة ، التى تهدد أطماعه ومشاريعه بالانهيار . وكان صلاح الدين ، بالرغم مما شاده من القوى العظيمة ، وما أحرزه من الانتصارات الباهرة ، يشعر بأخطار هذا التكتل الصليبي الجديد ، ويخشى إذا لم يتداركه العون من إحدى النواحي ، أن يضعف عن مدافعتة . وهنا اتجه صلاح الدين ببصره نحو المغرب ، يرجو منه العون والغوث . وكان يرى في الدولة الموحدية التى بلغت يومئذ ذروة عظمتها وقوتها ، ملاذاً يجدر قصده والالتجاء إليه . فكتب إلى الخليفة الموحدى ، — يعقوب المنصور — في سنة ٥٨٥ هـ ( ١١٨٩ م ) رسالته الشهيرة مدبجة بقلم القاضى الفاضل يستنصره ، ويستنصر به على قتال الجيوش الفرنجية الزاحفة يومئذ على مصر والشام ، وفيها

---

( ١ ) هذه رواية صاحب المغرب في حل المغرب ( ج ١ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ ) . وقد نقل المقرئ هذه الرواية وهذا الشعر في نفح الطيب .



يصفه « بأمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين » ويصف له جهوده محاربة الصليبيين وهزيمتهم ، وما كان لذلك من أثر في تحالف النصرانية ، ودول الغرب عليه ، ونهوض ملوكه بجيوشهم وأساطيلهم لمحاربتة ، ومحاولة الاستيلاء على ثغور المشرق ، والقضاء على قوى الإسلام المجتمعة تحت لوائه ، ويطلب صلاح الدين إلى عاهل المغرب ، أن يمد الشام ، مسرح القتال ، بشرط من أساطيله المنصورة ، وأن يرسل في الوقت نفسه ، جناحاً من أسطوله إلى صقلية ، فيشغل طاغيتها ، ويعطله عن الاشتراك مع زملائه الملوك النصارى في مهاجمة مصر ، ويعتقله بذلك في جزيرته . ثم يقول صلاح الدين في رسالته إلى الخليفة الموحدى : « وبذلك يذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا ترد به المحامد على عقبها ، ويقم على الكفر قيامة ، يُطلع بها شمس النصر من مغربها » (١) .

والظاهر أن البلاط المصرى لم يكن على علم تام بحقيقة سير الأمور في المغرب والأندلس في تلك الفترة . ذلك أن يعقوب المنصور ، ما كاد يتولى الخلافة عقب مصرع أبيه في موقعة شترين ، حتى أخذ يواجه حسماً رأينا سلسلة من الأحداث المزعجة سواء في المغرب أو الأندلس . فأما في المغرب فقد رأينا كيف شغل بثورة بنى غانية ، واعتدائهم على إفريقية ، واستخلاص ثغورها من أيديهم . وأما في الأندلس ، فقد عنى المنصور ، كما رأينا بحشد الجيوش ، لاستئناف حركة الجهاد ، ورد عدوان النصارى عن أراضي الأندلس ، بعد ما تفاقم هذا العدوان سواء من جانب قشتالة أو من جانب مملكة البرتغال . وقد كان من الطبعى ، في تلك الظروف الدقيقة التى يجوزها الموحدون ، في المغرب والأندلس ، أن صرخ صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى ، لم يلق صدًى ، وإن رسالته لم يكن لها الأثر المرغوب .

على أن صلاح الدين لم ييأس من القوز بعون الخليفة الموحدى . ذلك أنه كان يشعر بأنه يتوجه بصريحه إلى الوجهة الصحيحة ، وأن نزعة الجهاد ، كانت تضطرم في المغرب على يد الدولة الموحدية ، اضطرامها في المشرق ، وأن الكفاح الذى يضطرم به الموحدون ضد إسبانيا النصرانية ، لم يكن إلا شطراً من الكفاح الذى تضطلع به مصر في المشرق . ومن ثم فقد اعتزم صلاح الدين أن يكرر محاولته . فعاد في العام التالى في سنة ٥٨٦ هـ ( ١١٩٠ م ) ، فأرسل إلى الخليفة

(١) تراجع رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى في صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٢٦ - ٥٣٠ .



يعقوب المنصور ، سفارة على يد وزيره الشهير شمس الدولة أبي الحارث عبدالرحمن ابن منقذ ، يحمل إليه رسالة وهدية فخمة . وكان ابن منقذ ، وهو سليل أمراء بني منقذ أصحاب حصن شيزر السابقين بالشام ، من رجالات الدولة الصلاحية البارزين ، ومن يصطفهم السلطان لقضاء المهام الدقيقة . ويصف صلاح الدين في رسالته إلى الخليفة الموحدى ، ما حدث من تقاطر الفرنج على الشام برأ وبحراً ، وفي مقلعتهم جيوش ملك الألمان وملك الإنجليز وأساطيله ، وما وقع حول عكا التي حاصرها الفرنج من المعارك الخطيرة ، وما بذله السلطان لإنقاذها من الجهود في البر والبحر . ثم يتجه إلى الخليفة يطلب الإنجاد ويقول : إنه كان من المتوقع من « تلك الدولة العالية ، والعزمة القادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام » ، وأنه لما تأخرت الإجابة « ظن أنها توقفت على الاستدعاء ، فاستصرخه بهذه النحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر ، إلى أن تحركها الرياح »<sup>(١)</sup> .

وهنا تختلف الروايتان المصرية والمغربية في تاريخ وصول السفير المصري إلى المغرب ، وفي ظروف لقائه مع الخليفة . فتقول الرواية المصرية إن ابن منقذ أبحر من الإسكندرية قاصداً إلى المغرب في شهر رمضان سنة ٥٨٦ هـ ، وأنه وصل إلى مراكش في شهر ذى الحجة من هذا العام ، وأدخل إلى الخليفة في العشرين منه ، وحملت هدية السلطان إلى الخليفة في نفس اليوم . بيد أنه يبدو أن الرواية المصرية لم تكن مطلعة تمام الاطلاع على سير الحوادث في المغرب والأندلس في تلك الفترة . ومن ثم فإنها لم تستطع أن تتبع حركات السفير المصري بدقة . ذلك أن الخليفة المنصور ، كان وقت وصول السفير المصري إلى المغرب ، قد عبر البحر حسبما تقدم في جيوشه إلى الأندلس معزماً مقاتلة النصارى ، وإنقاذ مدينة شلب من قبضة البرتغاليين ، وأنه كان في تلك الآونة بالذات مقبلاً بإشبيلية ، يجد في الأهبة ، ويرقب الحوادث . ومن ثم فإن الرواية المغربية ، وهي رواية صاحب البيان المغرب ، المستقاة فيما يبدو من رواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ البلاط الموحدى ، تقدم إلينا تفاصيل أخرى عن تحركات السفير المصري ،

---

(١) الروضتين في تاريخ الدولتين ج ٢ ص ١٧١ - ١٧٢ . وراجع مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ( المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال ) ج ٢ ص ٣٦١ و ٣٦٢ .

تبدو أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . فتقول لنا إن السفير المصرى حينما وصل إلى المغرب ، نزل بثغر تونس ، ثم بثغر بجاية ، فاستقبله السيد أبوزيد والى إفريقية والسيد أبو الحسن والى بجاية ، بمنتهى الحفاوة والإكرام ، وكتبوا إلى الخليفة المنصور وهو يومئذ بإشبيلية بمقدم السفير ، فوصلت كتبهما إليه فى شهر رجب سنة ٥٨٦ هـ فرد الخليفة عليهما بالشكر ، وأن يستمررا فى مجاملة السفير وإكرامه ، وأن يطلب إليه كتابان رسالته حتى يستقبله الخليفة ، وبأن يستقر بمدينة فاس معززاً مكرماً ، حتى يتم هذا الاستقبال<sup>(١)</sup> .

ولبت ابن منقذ مقياً بفاس زهاء عام ينتظر لقاء الخليفة . وكان المنصور فى تلك الأثناء ، حسباً تفصل بعد ، قد نظم غزوته الكبيرة لأراضى البرتغال ، واستولى على ثغر قصر أبي دانس أو قصر الفتح فى جمادى الأولى فى سنة ٥٨٧ هـ ، ثم سار إلى مدينة شلب واستولى عليها فى جمادى الثانية ، وعاد ظافراً إلى إشبيلية ، ثم غادرها عائداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ (يوليه ١١٩١ م) ، ولما وصل إلى مراکش واستقر بها ، استقبل ابن منقذ ، وقدمت إليه هدية السلطان ، وكان فيها مصحف كريم فى ربعة مخيشة بالمسك ، وثلاثمائة مثقال من العنبر ، وعشر قلائد من الجواهر ، ومائة قوس بأوتارها ، ونصول سيوف هندية وغيرها . ويقول لنا صاحب كتاب « الإستبصار » إن اجتماع ابن منقذ بالخليفة كان فى السادس من محرم سنة ٥٨٨ هـ (يناير ١١٩٢ م) وأنه غادر الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام<sup>(٢)</sup> . وأفضى ابن منقذ إلى عاهل المغرب بمضون سفارته ، فتلقى بجواب المنصور عنها مجملًا . ويقول لنا ابن خلدون إن الخليفة اعتذر عن إعاره الأسطول<sup>(٣)</sup> وأحيل ابن منقذ إلى الوزراء لاستكمال التفاصيل . ثم غادر مراکش فى العاشر من المحرم سنة ٥٨٨ هـ ، وهو يحمل من الخليفة إلى السلطان هدية تضارع هديته فى القيمة والفخامة ، فوصل إلى الإسكندرية فى أواخر جمادى الثانية من هذا العام<sup>(٤)</sup> .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٣ .

(٢) كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار ( المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ١٩٥٨ ) ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٣ ، و ١٨٤ .



ومما تذكره الرواية بهذه المناسبة أن ابن منقذ رفع إلى المنصور ، قصيدة من نظمه من أربعين بيتاً ، يمدحه فيها ، فنحه المنصور صلة بخية قدرها أربعون ألف دينار ، ألفاً عن كل بيت ، وقال له إنما أعطيناك لفضلك وليتكت ، وهذا بعض ما جاء في القصيدة المذكورة :

سأشكر بجرأ ذا عباب قطعته إلى بحر جود ما لأخراه ساحل  
إليك أمير المؤمنين ولم تزل إلى بابك المأمول تزدجى الرواحل  
قطعت إليك البر والبحر موقنا بأن نذاك الغمر بالنجح كافل  
فلازلت للعلياء والجود بانياً تبلغك الآمال ما أنت آمل<sup>(١)</sup>

ونحن نعرف أنه لم يكن لهذه السفارة نتائج عملية ، ولم يحصل صلاح الدين على ما كان يرجوه منها من عون وإنجاد . وفي بعض الروايات أن الخليفة المنصور لم يستجب إلى صريح صلاح الدين ، لأنه لم يلقبه في رسالته باللقاب الخلافة<sup>(٢)</sup> . وهي رواية ظاهرة الضعف . ذلك أن الأسباب الحقيقية لموقف الخليفة الموحدي ، يجب أن تفهم على ضوء الحوادث والظروف التي كان يجوزها الغرب الإسلامي . أعنى المغرب والأندلس ، في تلك الفترة . فقد كانت إفريقية وهي منطقة حساسة من المغرب ما تزال معرضة لعدوان بني غانية ، ومن إليهم من الأعراب الضالعين معهم ، وكانت الأندلس تواجه مثل الأخطار التي كان يواجهها الشرق الإسلامي ، من عدوان النصارى والصليبيين . وبالرغم من نجاح الموحدين في غزو البرتغال ، واستردادهم لقصر الفتح وشلب ، فإنه كان ثمة احتمال دائم ، بأن يتكرر عدوان البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين القادمين من الثغور الشمالية ، على غربي الأندلس ، وأن يتكرر عدوان القشتاليين على أواسطها . وقد كانت الأساطيل الموحدية ، التي كان صلاح الدين يطمح بالأخص إلى عونها ، ترابط باستمرار في مياه الأندلس الجنوبية والغربية ، استعداداً لموازنة الجيوش الموحدية لرد كل عدوان محتمل . ومن ثم فإنه لم يك ثمة إزاء هذه الظروف والأخطار كلها ، فيما يبدو ، مجال لأن يتقدم عاهل المغرب إلى غوث إخوانه المشاركة ، بقوات كان هو في أشد الحاجة إليها . وكان على كل فريق أن يعتمد على نفسه في رد العدوان الذي يواجهه .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٤٣٢ .



على أننا نستطيع ، بالرغم من هذه الآثار السلبية ، التي انتهت إليها محاولات صلاح الدين للحصول على عون الخليفة الموحدى . أن تقول إنها كانت تنطوى على نفس المغزى العظيم الذى أوحى ببذلها ، وهو رسوخ التضامن الروحى ، وقوة المشاعر المشتركة ، بين شطرى الكتلة الإسلامية ، فى المشرق والمغرب ، فى تلك العصور التى تعرض فيها كلاهما لمحنة العدوان الصليبي .

لبث المنصور خلال إقامته بإشبيلية ، منذ عاد إليها فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، يجد فى أهباته العسكرية ، ويجمع الآلات والعدد ، ويستكمل ضم الحشود . فلما تمت أهباته ، واستكملت من سائر نواحيها ، عزم على الحركة والسير لاستئناف الغزو ، فخرج من إشبيلية فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٨٧ هـ ( ٢٨ أبريل سنة ١١٩١ م ) فى قوات كثيفة ، حسنة الأهبة والهيئة والنظام ، وعبر نهر وادى يانه مخترقاً أراضي البرتغال ، ومتجهاً نحو الشمال الغربى ، وكان مقصده الخليفة الأول ، هو قاعدة قصر الفتح أو قصر أبى دانس الحصينة ، الواقعة جنوب شرق أشبونة على الضفة اليمنى لنهر سادو ، على مقربة من البحر<sup>(١)</sup> ، فلما وصل إليها قُسمت الحشود الموحدية وفق نظام خاص ، وقام العبيد وأهل الخدمة بردم خندق المدينة من جهاتها الأربع ، وأقبلت القوات الموحدية إلى السور تحاول اقتحام المدينة ، ولكن البرتغاليين أمطروا الهاجين وابلاً كثيفاً من النبال والحجارة ، فأصيب كثير من الجند الموحدين بالجراح . فلما رأى المنصور فتك النبال بجنده ، أمر بوقف القتال ثلاثة أيام ، طلباً للراحة ، والعود إلى مهاجمة المدينة ، بعزائم أشد ، ووصل فى تلك الأثناء جانب من الأسطول الموحدى ، دخلت سفنه النهر الذى تقع عليه المدينة ، وهى تحمل آلات الهجوم الفتاكة . وفى الحال — فى خلال يوم وليلة فقط — نصبت حول المدينة أربعة عشر منجنيقاً . وفى اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى ( سنة ٥٨٧ هـ ) الموافق ١٠ يونيه سنة ١١٩١ ، صدر الأمر لسائر الجيش الموحدى بمهاجمة المدينة ، فانقض عليها من سائر الجهات ، وأخذت

---

( ١ ) كانت قاعدة القصر Alcacer do Sal فى ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسي ، مدينة حصة متوسطة على النهر المسمى شطوبر ( Sadoa ) وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية بكثرة . وفيما استدارها من الأرض كلها أشجار الصنوبر ، وبها الإنشاء الكثير ، وبينها وبين البحر عشرون ميلاً ( وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٨١ ) .

المجانيق تضرب المدينة بشدة، فلما تفاقم الأمر ، ووصل هجوم الموحدين إلى ذروة عنفه وروعته ، يادر أهل المدينة بطلب الأمان ، ونزلوا من المدينة مستسلمين فحملوا في المراكب ، وبعثوا إلى إشبيلية ليكونوا هنالك عنوان الفتح . واستولى الموحدون على المدينة ، وشرع المنصور في النظر في شئون الحصن وأحواله ، وأمر بإصلاحه وشحنه بالمقاتلة الأنجاد من الموحدين ، ورتب لهم من المؤن والمواد رواتب شهرية وسنوية ، في مخازن إشبيلية وسبتة ، وتندب لولاية الحصن المذكور أبا بكر محمد بن وزير وهو ابن أبي محمد سيدراى بن وزير زعيم الغرب السابق ، أيام ثورة ابن قسى ، وكان حاكم الحصن من قبل ، قبل أن يسقط في أيدي البرتغاليين في سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م )<sup>(١)</sup> .

وسار الموحدون بعد ذلك إلى حصن قلالة<sup>(٢)</sup> ، وكان أمنع حصون هذه المنطقة ، وبه حامية قوية ، ولكنهم أيقنوا باستحالة المقاومة ، وعرضوا التسليم في الحال ، والجلاء عن الحصن ، فاستجاب المنصور لرغبتهم ، وأخلي سبيلهم ، فساروا آمنين إلى بلادهم ، ونهب الموحدون سائر ما في الحصن من الأثاث والأقوات والسلاح . ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدم حتى بحيث آثاره : وزحف الموحدون على حصن المعدن<sup>(٣)</sup> القريب ، فاستولوا عليه ، وأمر المنصور كذلك بهدمه ، فهدم حتى صار أثر آ بعد عين .

وتقول الرواية النصرانية في شأن هذه الحصون ، إن أهل الحصون المجاورة ، وهى حصون قلالة ، وكوينا ، والمعدن ، لما رأوا سقوط حصن القصر بالرغم من مناعته بهذه السرعة ، بادروا بانخلاء حصونهم ، وفروا في مختلف الأنحاء ، ولما أشرف الموحدون عليها ، أمر المنصور بهدمها ، فهدمت حتى سويت بالأرض<sup>(٤)</sup> .

ثم اتجه الموحدون بعد ذلك جنوباً إلى المقصد الرئيسى في هذه الغزوة ، وهو مدينة شلب . فوصلوا إليها في يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة ( ٢٧ يونيه سنة ١١٩١ م ) . وفي الحال طوقها الموحدون بقوات كثيفة ، وردمت الخنادق

( ١ ) البيان المغرب ص ١٨٥ .

( ٢ ) حصن قلالة ، وهو بالبرتغالية *Palmela* .

( ٣ ) حصن المعدن هو بالبرتغالية *Almada* .

( ٤ ) *Huici Miranda: ibid; (cit Crónica de Sancho I, p. 537)*

لمحيطتها بها ، ونصبت حول أسوارها المخانيق ، وأخذت تضربها بشدة . واستمر الحصار والضرب حتى يوم الأربعاء الخامس عشر من جمادى ، ففي فجر تلك الليلة ، كان الموحدون ساهرين يرقبون القرص : وكان الحراس وأهل المدينة ، قد غلب عليهم التعب والنوم ، ولم يتوقعوا أن يقوم الموحدون بأية محاولة في مثل هذه الفترة . ولكن الموحدين بالعكس ، لما رأوا إغفاء أهل المدينة ، تقدم أحد أدلائهم من السور ، ووثب إلى ثلثة فيه ، وتبعه جماعة من الأنجاد ، فرفعوا الرايات على السور ، وضربت الطبول ، وضج الجند بالتهليل والتكبير ، واقتحم الموحدون المدينة ، فلم يستيقظ أهلها ، إلا وقد سيطر عليها الفاتحون ، يشخنون فيهم قتلا وجرحاً ، فبادروا بطلب التسليم والأمان ، فضرب لهم المنصور أجلاً قدره عشرة أيام لإخلاء المدينة ، وخرج النصارى من قصبة شلب في يوم الخميس الخامس والعشرين من جمادى الثانية ( ٢٣ يولييه سنة ١١٩١ م ) ودخلها الموحدون في الحال ، وعادت شلب بذلك إلى قبضة الإسلام ، بعد أن لبثت في أيدي البرتغاليين ، منذ سقوطها في رجب سنة ٥٨٥ هـ ، زهاء عامين<sup>(١)</sup> . وقدم المنصور على ولايتها ابن وزير<sup>(٢)</sup> .

تلك هي الرواية الإسلامية عن استرداد شلب . أما الرواية النصرانية ، فلا تقدم إلينا شيئاً من تلك التفاصيل ، بل تكتفى بالقول بأن الموحدين نصبوا المخانيق حول المدينة ، وأخذوا في ضربها بالنهار والليل دون هوادة ، حتى اضطروا أهلها إلى التسليم ، وخرجوا منها بأنفسهم وأمتعتهم .

ولبث المنصور ثلاثة أيام أخرى في ظاهر شلب ، ثم غادرها في قواته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الثانية ، بعد أن أنفق في غزوته زهاء ثلاثة أشهر ، فوصل إلى إشبيلية في الرابع من شهر رجب سنة ٥٨٧ هـ ( ٢٨ يولييه سنة ١١٩١ م ) .

وأنفق المنصور في إشبيلية شهرين آخرين ، عني خلالها بتنظيم شئون الأندلس واختيار أكفاء القادة لرياسة الثغور ، أو بعبارة أخرى مدن الحدود وحصونها ، وشحنها بصفوة الجند ، وتعيين بعض قرابته لولاية المدن الشاغرة من الولاة .

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٥ و ١٨٦ .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .



وفي غرة رمضان ، جلس بحلائق البحيرة خارج إشبيلية ، لتلقى تحيات المودعين ، ولما تمت مراسيم الوداع ، غادر إشبيلية ، ميمماً شطر العلوة ، وعبر البحر في الخامس عشر من رمضان ، واستمر في سيره حتى وصل إلى حضرة مراکش<sup>(١)</sup> وما كاد يستقر بها حتى استقبله الشعراء كالعادة بقصائد التحية والتهنئة . فمن ذلك ما قاله شاعره الحراوى :

إياب الإمام حياة الأمم      توالى السرور به وانتظم  
وجاد به الأرض صوب الحيا      وجلى الظلام به بدرتم  
فتوح عظام جناها الزمان      لذى هم دونهم الهمم  
على أن المنصور ما كاد يستريح من وعثاء السير والسفر ، حتى دهمه المرض واشتد به ، وطال أشهراً حتى خيف منه على حياته . وأشار عليه الأطباء بالانتقال إلى فاس ، فحُمِل إليها في محفة ، واستمر بها أشهراً حتى تماثل إلى الشفاء . ويروى لنا المراكشى بهذه المناسبة أن الخليفة حينما اشتد مرضه ، أرسل يستدعى أخاه السيد أبا يحيى وإلى إشبيلية ، وأن أبا يحيى لبث يتلأأ في العود مؤملاً أن يموت أخوه ، وأنه قام في ظل هذا الأمل باستكتاب بعض أشياخ الجزيرة مساطير لتأييد دعوته ؛ فلما برىء الخليفة من مرضه عاد أبو يحيى إلى المغرب : وكان أخوه الخليفة قد وقف على حركته ، فأمر القبض عليه وقتله ، فتولى قتله أخوه لأبيه السيد عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحض من الناس<sup>(٢)</sup> . ونحن نلاحظ على هذه الرواية بأنها متأخرة عن موضعها ، وأن حادث ائثار السادة بالخليفة وقع في سنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨ م ) ، حسبما أشرنا إليه في موضعه ، وأن السيد أبا يحيى وهو ولد الخليفة وليس بأخيه ، لم يكن بين المتآمرين ، الذين عاقبهم الخليفة بالإعدام .

---

( ١ ) يقدم إلينا صاحب ررض القرطاس ، رواية أخرى عن غزوة الموحدين لبرتغال واسترداد مدينة شلب ، فيقول لنا إن الذى اضطلع بهذه الغزوة هو محمد بن يوسف وإلى قرطبة ، وأنه سار إلى شلب في جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس ، حتى نزل شلب فحاصرها ، وشد عليها القتال حتى فتحها ، وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة ويابرة ، ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمسة عشر ألف سبية وآلاف من أسرى الروم ، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسةائة ( ص ١٤٤ ) وهى رواية ظاهرة الضعف والخلط ، خصوصاً وأنها تغفل ذكر المنصور بالمرّة وتنسب لغيره قيادة هذه الغزوة .

( ٢ ) المعجب ص ١٥٨ و ١٥٩ .

وشعر الخليفة إبان مرضه بدقة الموقف ، وأراد أن يحتاط لكل احتمال ، فعقد البيعة لابنه أبي عبد الله محمد بولاية عهده ، وكان منه نحو عشر سنين<sup>(١)</sup> ، وهو الذى تسمى بالناصر فيما بعد ، وكتب بذلك إلى خاصة القرابة كالسيد أبي زيد وإلى إفريقية ، وولده السيد أبي يحيى وإلى إشبيلية ، فبادروا بالحضور إلى الحضرة ، مطيعين مؤيدين لذلك العهد ، وجاء وفد من شبه الجزيرة يحمل تأييد أهل الأندلس ، وجاء معهم يوسف بن الفخار اليهودى رسول ملك قشتالة يسعى إلى توطيد الهدنة المعقودة . وكان الخليفة قد أبل عندئذ من مرضه ، فتلقى تهنئة الوفود والأكابر بإبلاله ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالمعتاد<sup>(٢)</sup> .

وقد انتهت إلينا صورة وثيقة البيعة الرسمية التى كتبها أهل قرطبة بمبايعة ولى العهد أبي عبد الله محمد الناصر ، وهى مؤرخة فى العشر الأوائل من ذى القعدة سنة ٥٨٨ هـ ، وتبدأ بالتنويه بأهمية الاستخلاف فى الولاية ، وشرعيته ، منذ عهد النبي ، حينما استخلف أبا بكر فى الصلاة ، ثم تنوه بقيام المهدي ، وإعلاء كلمة الدين بظهوره ، وتقول لنا بعد ذلك فى صدد البيعة ما يأتى :

«وبعد فهذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها حرمها الله ، من الطلبة ، والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية ، من حاضر منهم ومن باد ، أجمعوا بتوفيق الله وعونه ، وإحسانه العميم ومنه ، على المبايعة للأمير الأجل الملك السعيد ، السيد الأوحده . . . المؤهل المؤئل ، الحائز لشرف الانتساب . . . فرع الشجرة المباركة الطيبة الانتاء التى أصلها فى مقر الهدى ثابت ، وفرعها فى السماء . . . أبو عبد الله محمد بن سيدنا الإمام المنصور ، الناصر لدين الله تعالى الخليفة المرتضى أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ، بن سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمرهم وأسماهم » .

ثم تقول « فبايعوه بمقتضى أمره العلى ، ونصه الواضح الجلى ، ببيعة مباركة سعيدة ، استقبلوها آمالا فسيحة مديدة ، وأعمالا من البر والتقوى جديدة : أسكبت عليهم شآبيب الرحمة والأمان ، وأصبحت فواضل الإنعام والإحسان ، وازدادت بهاء وجمالا معالم الإسلام والإيمان . . . » وإن أهل قرطبة « بادروا إلى

(١) المعجب ص ١٧٥ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٧ .

التزام عهد هذه البيعة المباركة عهداً ، وإحكام عقدها السعيد عقداً ، فبايعوا للأمير الأجل السيد السعيد الأوحده . . . بيعة لإخوانهم الموحدين ، على صفاء من قلوبهم ، وخلوص من عيوبهم ، وصحة من عقائدهم وضمايرهم ، وتوافق من بواطنهم ، وطوايرهم ، وعلى أوفى عهود البيعة وشروطها ، وأكمل عقودها وربوطها ، من من السمع والطاعة في السر والجلهر ، والعسر واليسر ، وعلى اعتقاد النصيحة والموالة الصريحة ، أعطوه بذلك عهد الله المؤكد ، وميثاقه المشدد ، وأعطوه به صفقة قلوبهم وإيمانهم ، وعهدة إسلامهم وإيمانهم ، ونخالصة سرهم وإعلانهم<sup>(١)</sup> وفي العام التالي سنة ٥٨٨ هـ ( ١١٩٢ م ) وصل السيد أبو زيد وإلى إفريقية ، ومعه برسم الخليفة هدية جليلة من التحف الملوكية ، وفي صحبته وفد من أعيان عرب سليم ورياح ، وأنجادهم<sup>(٢)</sup> ، وكان الخليفة قد تحرك في تلك الأثناء من الحضرة قاصداً إلى فاس نزولا على نصيح أطبائه ، فالتقى به السيد أبو زيد ومن معه في تانسيقت ، وأمر الخليفة بعد انقضاء مراسيم التحية واللقاء ، بمسير الوفود القادمة إلى مراکش لمشاهدة القصور والمرافق الخلافية ، وما تحويه الحضرة من جليل الآثار والمنشآت ، الدالة على عظمة الدولة الموحدية وقوتها . فأضمت الوفود بالحضرة أياما ، ثم لحقت بأمر المؤمنين في طريقه لتزجي إليه آيات الشكر ، والعرفان .

ورحل الخليفة إلى رباط الفتح ثم إلى فاس . وعنى خلال إقامته بفاس بالنظر في شئون إفريقية . وكانت هذه الشئون بما يعتورها من المتاعب ، ومن الأخطار المترتبة على عدوان بني غانية ، تلقى من الخليفة أعظم اهتمام ، وغمر الخليفة بهذه المناسبة وفود العرب من سليم ورياح بوافر صلاته وإكرامه ، والتزمت الوفود من جانبها بالوفاء ومقابلة البر بخسن الصنيعة ، ثم عادت إلى مواطنها بإفريقية ، وقد نالت من إنعام الخليفة وبره أضعاف ما أملت .

ولما شعر الخليفة باكتمال الصحة والعافية ، سار إلى رباط الفتح مرة أخرى ، وكان يؤثر هذه المدينة التي أسسها جده عبد المؤمن بحبه ، ويميل إلى سكناها والاستجمام بها . وكان في تلك المرة قد عقد العزم على الانتقال إليها بصفة نهائية ،

---

( ١ ) ورد نص هذه البيعة كاملا ضمن المخطوط رقم ٤٨٨ الفزيري بمكتبة الإسكوريال ، وهو الذي سبق أن نقلنا عنه عدة من الوثائق المرابطية .

( ٢ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .



واتخاذها حاضرة لمملكته ، فأمر بتجديد قصبتها ، وكانت تسمى بالمهدية ، إذ كانت بنحطتها وموقعها على البحر ، وأحاطته بها ، تشبه المهدية الفاطمية بإفريقية ، وأتى بشأن تنظيمها وتجميلها بقية أوامره ، ثم عاد إلى مراکش في منتصف هذا العام ( ٥٨٨ هـ ) ، واستقر بها ، وهو دائب الاهتمام بأعمال الإنشاء ، وتجديد الأهبات ، واستكمال العدد<sup>(١)</sup> .

وفي العام التالي سنة ٥٨٩ هـ ، أمر المنصور بإقامة صرح عظيم حصين خارج إشبيلية ليكون منزلاً للمجاهدين ، وأن يكون موقعة في وسط الشرف . ويقدم إلينا المراكشي بعض تفاصيل عن هذا الصرح ، فيقول لنا ، إن المنصور حينما عاد ظافراً من غزوته لاسترداد شلب ، أمر أن يُبنى له على النهر الأعظم ( نهر الوادي الكبير ) حصن ، وأن تبنى له في ذلك الحصن قصور وقباب ، جارياً في ذلك على عادته من حب البناء ، وإثارة التشييد ، فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد ، وسمى ذلك الحصن حصن الفرج . ويضيف صاحب البيان المغرب إلى ذلك ، وهو يتقل فيما يرجح عن ابن صاحب الصلاة ، أن هذا الحصن أو القصر الكبير ، قد كمل بمجالسه المشرقة على إشبيلية وما والاها من البطاح ، وأنه جاء من أضخم ما عمل ، وكان المنصور وهو بالحضرة دائب التشوف إلى متابعة أخبار هذا الصرح ، والوقوف على ما تم فيه ، وعلى صفاته ، حتى إنه أمر أخيراً باستدعاء المشرف على بنائه إلى الحضرة ليقص عليه بنفسه كل ما يتعلق بهذا الصرح وطرازه وصفاته<sup>(٢)</sup> .

ووقعت في تلك السنة سنة ٥٨٨ هـ ، ببلاد الزاب ، جنوبي إفريقية ، فتنة جديدة كان بطلها زعيم يدعى الأشل . وليس في الرواية الموحدية ، ما يلقي ضوءاً على شخصية هذا الزعيم اللائر ، ولا كنه دعوته ، وكل ما هنالك أنها تقول لنا ، إن الأشل قام ببلاد الزاب ودعا لنفسه ، فالتف حوله شرذمة من العرب ، وكثير من أشتات الناس من أهل تلك المنطقة ، ومن أهل الجبال المجاورة ممن تصفهم الرواية « بالغوغاء والسفلة » وكان يلقي في روع أتباعه بأنه موعود بأمره ، وأن

---

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٨ و ١٨٩ . ويقول ابن خلكان إن رباط الفتح كانت على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه ( الوفيات ج ٢ ص ٤٣١ ) وهو قول تطبعه المبالغة .

( ٢ ) المعجب ص ١٦٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٩ .

الكتب والدلائل نصت على خبره . وعظم أمره ، وذاع ذكره ، وكثر عدوانه في تلك المناطق ، وتوالت على الخليفة المنصور أنباؤه ، فبعث إلى السيد أبي زكريا والى بجاية ، بأن يبذل كل ما في وسعه للقبض على هذا الزعيم الناصر . فخرج السيد أبو زكريا في عسكره من بجاية ، وهو يتحسس أخبار الأشل ، ويتقصى آثاره : ولما توغل بعيداً في الصحراء ، اجتمعت طوائف من عرب البوادي ليحاولوا مهاجمته ، وانتهاب محلته ، ولكنه استطاع أن يجتنب اعتداءهم طوراً بلين القول وطوراً بالوعيد وإظهار القوة ، وأنقذ السيد رهطاً من رجاله ، يتحسسون أخبار الناصر ومكان وجوده . وحاول في نفس الوقت أن يغري بعض الأعراب بالصلات والوعود ليكشفوا له مكان وجوده ، ولكنه لم يظفر منهم بطائل : ثم عاد إليه رسلة الثقة ، وأخبره بعضهم بمكان وجود الناصر ، وأنه يتصدر مجلس الزعامة وهو في ثياب فاخرة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، وبين يديه سيف مُحلّى ، وقد التف حوله لفيف من شيعته وهو يتحدثهم بلسان حضري : وعندئذ حاول السيد مرة أخرى أن يحمل بعض الأعراب على إرشاده عن هذا المكان ، وهو يبذل لهم أطيب الوعود . ولكن الأعراب عقدوا العزم على خادعته وغدره : ثم سار السيد في قواته ميمماً شطر قلعة بني حماد ، وهي من أعمال بجاية ، ودخلها بعسكره : وهناك وفد عليه الزعماء العرب يطالبونه بإنجاز وعوده ، فاحتفل بهم وقدم لهم الطعام . فلما استقروا داخل القلعة ، أغلقت أبوابها ، وأمر السيد بالقبض على جملة من أولادهم ، ثم استدعى آباءهم ورؤساء العشائر منهم ، وأقسم لهم بأوثق الأيمان أنه لن يخل وثاقهم ، ولن يطلق سراحهم إلا بإحضار الأشل أو رأسه ، أو يحمل رؤوسهم مكان رأس الأشل إلى الخليفة المنصور . فأبدى العرب أنهم لا يستطيعون الغدر بمن لجأ إليهم ، واحتفى بجوارهم ، ولو قتلوا جميعاً . وعندئذ تدخل أمهات الأبناء المعتقلين ، وصاحوا كيف نضحى بأبنائنا في سبيل شتى مناقق : وعندئذ نشب الخلاف بين الأمهات والآباء ، وذاع الخبر في مختلف الأحياء ، ووقف الأشل على ما حدث فأراد الفرار اتقاء الغدر ، ولكن رهطاً من عشائر المعتقلين بادروه بالهجوم ، وقبضوا عليه وعلى وزيره وحملوهما إلى القلعة ، فغمرهم السيد بإحسانه وصلاته ، وأخلى سبيل المعتقلين ، وأمر بإعدام الناصر وصاحبه ، وحملت رأسه إلى بجاية ، وعلقت على بابها مع ذراعه وعضده ، وأخذت بذلك ثورته في مهدها<sup>(١)</sup>

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٠ و ١٩١ .



ولم تكد تنهى هذه الفتنة حتى وردت على المنصور في سنة ٥٩٠ هـ ، أنباء مقلقة عن إفريقية ، خلاصتها أن بني غانية قد استأنفوا حركاتهم بنشاط مضاعف ، وأن حلفاءهم من العرب والغز ، يعيشون فساداً في أنحاء إفريقية ولاسيما بلاد الجريد . ونحن نعرف أن علي بن إسحاق بن غانية الميورقي ، بطل هذه الحركة التي كادت تقضي على سلطان الموحدين في إفريقية ، كان على أثر هزيمته الساحقة في معركة الحمة ( سنة ٥٨٤ هـ ) قد فرجرحاً إلى أعماق الصحراء . وهنا تختلف الرواية في مصيره ، فيقول لنا صاحب المعجب إنه توفي بعد قليل متأثراً بجراحه التي أصابته في معركة الحمة<sup>(١)</sup> . ويقول ابن خلدون إنه توفي في بعض حروبه مع أهل نفزاوة من سهم أصابه في بعض المعارك ، وذلك في نفس العام ( ٥٨٤ هـ ) فدفن هنالك ، ثم حمل رفاتة إلى ميورقة<sup>(٢)</sup> . ويقول التجاني في رحلته إن علي بن غانية ، حينما طارده المنصور بعد موقعة الحمة ، توغل في صحراء توزر ، فرجع عنه المنصور ، ثم مات علي بعد ذلك على توزر من سهم أصابه في ترقوته فقضى عليه<sup>(٣)</sup> .

ولما توفي علي بن غانية ، قام بالأمر من بعده أخوه يحيى ، وهو يضطرم بمثل مثله ، ويرى إلى تحقيق مثل غاياته ، أعنى قيادة الثورة ضد الموحدين ، والقضاء على سلطانهم في إفريقية ، معتمداً في ذلك ، مثل أخيه على مخالفة سائر العناصر الخصيمة من العرب والغز وغيرهم . ومن ثم فإنه جدد التحالف الذي كان بين أخيه وبين قراقوش أو قراقش زعيم الغز . ولكن هذا التحالف لم يطل أمده . ذلك أن قراقش مالبت أن جنح إلى طاعة الموحدين ، فسار إلى تونس واجتمع بوالها السيد أبي زيد ، فتلقاها بمنتهى الترحاب والتكريم ، وأقام بها وقتاً في كنفه وتحت رعايته ، وكان ذلك في سنة ٥٨٦ هـ<sup>(٤)</sup> . وهنا بحق لنا أن نتساءل هل كانت ثمة علاقة بين تصرف قراقوش وبين سفارة ابن متقذ التي أوفدها صلاح الدين في نفس هذا العام إلى الخليفة الموحدي ؟ لقد كان قراقوش مملوكاً للملك المظفر تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، ابن أخي السلطان.

(١) المعجب ص ١٥٤ .

(٢) ابن خلدون في كتاب العبر ح ٦ ص ١٩٣ .

(٣) رحلة التجاني ص ١٦٢ .

(٤) رحلة التجاني ص ١٠٤ .



صلاح الدين، ومن الممكن أن يكون تصرف قراقوش قد وقع بإيحاء السلطان ، حتى لا تتور الصعاب مهمة سفيره لدى البلاط الموحدى . بيد أننا لانميل إلى الأخذ بهذا الرأي ، لأن قراقوش لم يكن إلا مغامراً لا ذمام له ، ولا يدين فى الظروف التى كان يجوزها بدين الولاء لأحد . وقد أقدم قراقوش من قبل على على مثل هذه الخطوة حينما كتب إلى المنصور عقب موقعة الحمة بعرض التوبة والطاعة . ومن ثم فإننا نراه بعد فترة يسيرة من التظاهر بطاعة الموحدين ، يفر من تونس ليستأنف مغامراته ، وذلك قبل أن ينتهى ابن منقذ من تأدية سفارته . ولما وصل قراقوش إلى قابس ، استطاع أن يدخلها مخادعة ، وقتل جماعة من أهلها ، وأعلن خروجه على الموحدين مرة أخرى ، واستدعى أشياخ العرب من ذباب وسليم ، فقتل سبعين منهم ، ومن بينهم محمود بن طوق بن بقية زعيم الحمديد ، وحديد بن جارية ، وذلك داخل قصر العروسين بقابس<sup>(١)</sup> . ثم سار إلى طرابلس فاستولى عليها من يد حاكمها الموحدى ، وسار بعد ذلك إلى بلاد الجريد فاستولى على معظم أنحائها . وكانت بلاد الجريد مقر حليفه يحيى بن غانية . وعندئذ وقع الخلاف بينهما ، وسار يحيى لقتال حليفه السابق ، فالتقى بموضع يعرف « بمحسن » من أعمال طرابلس ، فهزم قراقوش هزيمة شنيعة ، وفر إلى الجبال ، وأتبع يحيى نصره بانتزاع طرابلس من يد ياقوت نائب قراقوش ، وذلك بعد حصارها من البحر بمركبين بعث بهما إليه أخوه عبد الله والى ميورقة ، وقبض على ياقوت وأرسله مصفداً إلى ميورقة ، فلبث سجيناً بها ، حتى استولى الموحدون على ميورقة سنة ٥٩٩ هـ ، وعندئذ أفرج عنه ، وقصد إلى مراکش . وعين يحيى ابن عمه تاشفين بن غازى نائباً عنه بطرابلس ، وغادرها ليتابع مغامراته . فلم يمض سوى قليل حتى ثار أهل طرابلس بنائب الميورقي وأخرجوه منها ، وأعلنوا طاعتهم للموحدين مرة أخرى<sup>(٢)</sup> .

ونحن نقف فى حوادث إفريقية عند هذا الحد ، لنعود إلى تتبع حركات يحيى بن غانية ، الذى قدر له أن يعضى فى قيادة المعركة ضد الموحدين زهاء زهاء خمسين عاماً ، وهو ينزل بقواتهم الضاربة تلو الأخرى ، وسلطان الدولة الموحدية بإفريقية يهتز ويتصدع تباعاً .

( ١ ) رحلة التجانى ص ١٠٤ ، وابن خلدون فى المبرج ٦ ص ١٩٣ .

( ٢ ) رحلة التجانى ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

## الفصل الثالث

### موقعة الأرك

عزم المنصور على السير إلى إفريقية . سيره إلى رباط الفتح . مقدم ولاية الأندلس وإبلاغهم بانقضاء الهدنة مع النصارى . غارات النصارى وغيثهم في أراضي الأندلس . تعديل المنصور لخطته وعزمه على العبور إلى الأندلس . رواية أخرى عن بواعث هذا التحول . إتمام الأهبة ومقدم سائر الحشود . سير المنصور من مراكش إلى قصر الحجاز . جواز الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . سيره إلى إشبيلية . إجراء التمييز واستكمال الأهبة . سير الخليفة إلى قرطبة ثم خروجه إلى قشتالة . أهبة ألفونسو الثامن . سيره نحو قلعة رباح . نزوله بقواته في ربوة الأرك . سير الخليفة إلى لقائه ونزوله قرب الأرك . اشتباك الطلائع . رأى ابن صناديد في خطة القتال . تقسيم الجيش الموحدى وقواده . زحف الموحدين صوب الأرك . استعدادهم لخوض المعركة . ترتيب الجيوش الموحدية . تبادل الفران والحث على الجهاد . وصف عيان لميدان معركة الأرك . بدء المعركة في ضحى التاسع من شعبان . نزول القشتاليين واندفاعهم نحو المعسكر الموحدى . هجوم القشتاليين على القلب . عنف القتال وروعته . مقتل القائد العام أبي يحيى . اندفاع جيوش الأندلس والمغرب والأغزاز نحو النصارى . اضطراب النصارى إلى الارتداد والفرار إلى الربوة . حملة العرب والمطوعة والأغزاز عليهم وحصدهم . زحف الخليفة في سائر قواته نحو النصارى . ارتياح النصارى وفرارهم . اقتحام الموحدين لحصن الأرك . وصف الرواية النصرانية لأدوار المعركة . ارتداد ملك قشتالة في فله نحو طليطلة . الاتفاق بين الفريقين على تسليم حصن الأرك . استنقاذ الأسرى المسلمين وتسريح حامية الحصن . نتائج المعركة . عدد الجيش القشتالى وخسائره . خسائر المسلمين . الفنائم والأسلاب . المقارنة بين موقعة الزلاقة وموقعة الأرك . عنصر الأسطورة في المعركتين . الخلاف بين الموقعتين من حيث الظروف والنتائج . أسباب نصر الموحدين . زحف الموحدين على قلعة رباح واقتحامها . وصف عيان لأطلال هذه القلعة . تقسيم المنصور للفنائم . عوده إلى إشبيلية . توجيه كتب الفتح . تهانى الشعراء . عناية المنصور بإصلاح الجامع وإتمام صومته . قضاؤه للشتاء في إشبيلية . التمييز والاستعداد لاستئناف الغزو . سير المنصور من إشبيلية إلى منطقة أستمادورة . افتتاح الموحدين لحصن متانجش . استيلاؤهم على مدينة ترجالة ، وسانتاكروث . اقتحامهم لمدينة بلاسثيا وأمر حاميتها . سيرهم إلى طليطلة وتخريبهم لأحوازها . احتجاب القشتاليين وإحجامهم عن لقاء الفزاة . اقتراب الموحدين من طليطلة وتخريبهم لبساتنها . رواية عن غزوهم لطليطلة . استنصار ملك ليون بالمنصور . إمداده بقوة من الموحدين . غزو الموحدين واليونيين لقشتالة وتخريبهم لأراضيها . عود المنصور إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية . نتائج هذه الغزوة السلبية . عناية المنصور بأمر العمال والنظار . قيامه بتعيين بعض الولاة . استعدادده للغزوة التالية . سيره إلى قرطبة ونزوله بها .



لما تواترت على المنصور خلال سنة ٥٩٠ هـ ( ١١٩٤ م ) تلك الأنباء المقلقة عن حوادث إفريقية ، وتوالت عليه كتب واليها الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص عن استفحال أمر بني غانية ، وتفاقم غارات العرب واشتداد عيهم ، اعزم أن يسير إلى إفريقية لمعالجة الأمور بنفسه ، فغادر مراكش إلى رباط الفتح ، ليقوم هناك بإعداد الحملة المرغوبة ، وبعث بكتبه إلى ولاية الأندلس بالحضور لتلقي تعليماته فلما وفدوا عليه بالرباط قرروا أن الهدنة التي عقدت مع ملك قشتالة في سنة ٥٨٦ هـ ( ١١٩٠ ) عقب جوازه السابق إلى الأندلس ، قد انتهى أجلها ، وأنه أي ملك قشتالة قد بعث إلى جميع الثغور الإسلامية الواقعة على حدودها ينذر بها بذلك ، وأنه اعتماداً على انشغال الخليفة بحوادث إفريقية ، وباستعداده للحركة إليها ، قد بعث أقباطه وقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يغيرون عليها ، ويشخنون فيها ، حتى بلغت غاراتهم أحواز إشبيلية<sup>(١)</sup>. فصرف المنصور ولاية الأندلس ، وغادر رباط الفتح إلى مكناسة ، وهو على عزمه أن يسير إلى إفريقية : ولكن توالت عليه عندئذ كتب أهل الأندلس ، وقادة الثغور فيها ، باشتداد وطأة العدو ، وتفاقم غاراته ، وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد بعث مطران طليطلة مارتن لويث في حملة تخريبية مخضة إلى أراضي الأندلس ، عاثت فيها أشد عيث ، واستولت على كثير من الغنائم والماشية . فرفعت هذه المخاطبات والأنباء كلها إلى المنصور ، وهو في مكناسة يستعد للسير إلى إفريقية فأقلقته وأهمته ، ورأى عندئذ أن يعدل خطة سيره ، فأمر بأن تُبعث الأمداد إلى ولاية إفريقية ، وأن تعد العدة للسير إلى الأندلس ، فاشتدت الحركة عندئذ ، وأقبلت الحشود من كل صوب ، وكانت رغبة المجاهدين في العبور إلى الأندلس أشد لقربها ، وتيسير المؤن والأقوات بها<sup>(٢)</sup>.

تلك هي البواعث والظروف التي أملت على المنصور عزمه على العبور إلى الأندلس للمرة الثانية : ولكن توجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة ،

---

( ١ ) وتوجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة كان قد بعث إلى المنصور ، وهو يتأهب لغزو إفريقية ، رسوله يطلب تجديد الهدنة ، وهو يقصر الكيد ، فلما وصلت أنباء الغارات التي قام بها القشتاليون في أراضي الأندلس ، والرسول في محلة المنصور ، أمر المنصور بطرده وتجهيزه إلى البحر ( أورد هذه الرواية خلال حديثه عن موقعة الأرك أبو الحسن حازم القرطاجني في كتابه « رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة » ( مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٢ ) .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩١ و ١٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .



على أثر انقضاء الهدنة التي كانت معقودة بينه وبين الموحدين ، غزا أراضي الأندلس ، وتوغل في غاراته حتى الجزيرة الخضراء . وهناك وجه إلى الخليفة المنصور كتاباً من إنشاء وزيره اليهودي ابن الفخار ، يتحدث فيه بأسلوب يفيض غروراً ووقاحة ، أن يأتي لقتاله ، فإن جبن أوعجز ، فليرسل إليه السفن ليجوز فيها إليه ، ويقاته في أعز مكان لديه ، وأن المنصور غضب لذلك ، واستنفر الناس للجهاد ، وكانت حركته الثانية إلى الأندلس<sup>(١)</sup> . على أنه يبدو من نص هذا الخطاب ، ومن تحدثه عن « تواكل رؤساء الأندلس ، وإخلادهم إلى الراحة » أنه يمكن بطريقة أرجح نسبته إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأنه كان موجهاً إلى يوسف بن تاشفين ، وليس إلى الخليفة الموحدى .

وفي أوائل سنة ٥٩١ هـ ( ١١٩٤ م ) كانت أهبات الحملة الموحدية ، قد تقدمت تقدماً كبيراً ، واجتمعت الحشود من سائر بلاد المغرب والقبلة . وفي يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، خرج الخليفة يعقوب المنصور من حضرة مراكش ، والجيش تتلاحق في أثره من سائر النواحي ، وسار توطاً إلى قصر الحجاز ( القصر الصغير ) ، وهناك عني بتنظيم تموين الجيوش ، ثم بدأ الجواز ، فكان أول من جاز البحر قبائل العرب ثم قبائل زناتة ، ثم المصامدة ، فغارة ، فالجيوش المطوعة ، ثم الموحدون ، فالعبيد ، ولما تم جواز الجيوش على هذا النحو واستقرت بأراضي الجزيرة الخضراء ، عبر الخليفة المنصور البحر في جمع كبير من أشياخ الموحدين والزعماء والفقهاء ، والعلماء ، وكان عبوره إلى طريف<sup>(٢)</sup> في يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ ( أول يونيو سنة ١١٩٥ م ) .

وأقام المنصور بطريف يوماً واحداً ، ثم استأنف سيره إلى إشبيلية ، ولقيه في الطريق والى إشبيلية السيد يعقوب بن أبي حفص وجماعة من أعيانها ، ثم تقدمه ليعده له أسباب النزول في الحضرة الأندلسية ، ونزل الخليفة بقصر البحيرة خارج باب جهور ، وهرع أهل الحاضرة للسلام عليه ، وعهد الخليفة إلى أبي بكر

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ ، وابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٤٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٤٥ ، والنويرى طبعة ريمبر في مجلة (Revista del Centro de Estudios Historicos T. VIII ano 1919 p. 218) ج ٨ ص ٢٧٣

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٢ ، وفي روض القرطاس أنه عبر إلى الجزيرة الخضراء (ص ١٤٦) .

ابن زهر وزملاته أشياخ المدينة ، بإنزال الأشياخ والأكابر في الدور المعدة لنزولهم ، وبعد الظهر أذن بدخول السادات للسلام عليه ، وكان ذلك يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الثانية . وفي الغد ركب الخليفة إلى حصن القرج الذي كان قد أمر بإنشائه خارج إشبيلية ، وأعجب بمنعته وحسن روائه . ثم عاد فزار المسجد الجامع . وفي يوم السبت أمر بإجراء التمييز ، فانتظم سائر الجند بالزى الفاخر ، والعدد الكاملة ، وركب الخليفة ومعه من حضر من الأبناء ، والقراية والوزراء ، واستعرض الجند صفاً صفاً ، وقبيلة قبيلة ، ثم أخرجت الرواتب والبركات ، ووزعت على سائر الحشود<sup>(١)</sup> .

وأنفق المنصور في إشبيلية أسبوعين وهو يستكمل أهباته ، ويضع خططه في أناة وروية ، وفي صبيحة يوم الخميس الحادى عشر من رجب ( ٢٢ يونيه ) غادر إشبيلية قاصداً إلى قرطبة ، مخترقاً طريق نهر الوادى الكبير فوصل إليها يوم الجمعة التاسع عشر منه ، واستراح بها ثلاثة أيام . ثم خرج منها من باب مورادال في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه ، وسار في قواته شمالاً ميمماً صوب سهول شلبطرة وقلعة رباح .

وكانت أنباء عبور الخليفة الموحدى وجيوشه الزاخرة ، قد ترامت أثناء ذلك إلى ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، فجمع « الكورتيس » في مدينة كريون على عجل وأخذ يتأهب للحرب بكل ماوسع ، واستدعى سائر أتباعه من الأمراء والأشراف في قواتهم ، وحشد كل ما استطاع من الجند ، وبعث إلى زميله ملكى ليون وناقارا في طلب العون ، فوعدها بذلك ، وانتظر أياماً بطليطلة حتى وفد أتباعه في حشودهم ، ثم غادرها مسرعاً إلى الجنوب ، واخترق نهر وادى يانه متجهاً نحو أراضى قلعة رباح ، ولم ينتظر مقدم زميله وحليفه ملك ليون ، وكان قد وصل في قواته إلى طليطلة ، ولم ينتظر كذلك مقدم قريبه ملك ناكارا ( نبرة ) ، إذ كان واثقاً من رجحان كفة قواته وأهباته ، واثقاً من النصر على أعدائه ، مهما بلغت قواتهم .

وكان ملك قشتالة قد بدأ قبل ذلك بقليل بإنشاء حصن جديد في المحلة المسماة

---

( ١ ) البيان المغرب ص ١٩٢ و ١٩٣ .



« بالأرك » : وهي محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح ، تقع على مسافة أحد عشر كيلومتراً في غربى مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة<sup>(١)</sup> ، وتقوم فوق ربوة عالية ، تمتد سفوحها حتى نهر وادى يانه ، وكانت عندئذ هي نقطة الحدود بين قشتالة وأراضى المسلمين ، فإلى هذه المحلة اتجه ملك قشتالة بقواته ، وعسكر بها معتزماً أن يلحق الموحدون وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيه .

وأما الخليفة المنصور فاستمر في سيره مخترقاً قلعة رباح حتى وصل إلى مقربة من محلة الجيش القشتالى المعسكر فى الأرك . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الخليفة استمر فى سيره حتى بقى بينه وبين الأرك مرحلتان قريبتان ، وإنه نزل هناك ، وذلك فى يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ ( ١٣ يوليئ سنة ١١٩٤ م ) : وما كاد الجيش الموحدى يستقر فى محله حتى ظهرت سرية من خيل القشتالين خرجت لتستطلع أخبار المسلمين ، فظفرت بها طائفة من الجند الموحدين وأبادتها قتلاً : ومضت بضعة أيام أخرى قبل أن يقع الاشتباك بين الجيشين ، ولم تكن ثمة سوى الطلائع من الجانبين ، وكانت الحسارة تقع فى معظم الأحيان على القشتالين : وفى خلال ذلك كان الخليفة المنصور ، يعقد المؤتمرات الحربية ، ويجرى مشاوراته مع أشياخ مختلف القبائل ، ويروى لنا صاحب روض القرطاس أنه لما استشار قواد الأندلس أحواله على كبيرهم أبى عبد الله ابن صناديد ، وأن ابن صناديد أبدى رأيه للخليفة ، بأنه يجب أن تبدأ المعركة باشتباك سائر حشود الأندلس وقبائل العرب ، وسائر قبائل المغرب من زناتة والمصامدة وغيرهم وجند المتطوعة ، وأن ينتظر الخليفة فى المؤخرة ومعه جيوش الموحدين والعبيد والحشم فى موضع مستور ، فإن أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين فيها ، وإن أسفرت عن هزيمتهم ، فعندئذ يبادر الخليفة فى قواته إلى لقاء العدو ، وليحمى ظهور المسلمين ، ويكون العدو عندئذ قد خبت قواه ، فيكون النصر للمسلمين ، وأن الخليفة قد أعجب بهذا الرأى وقرر اتباعه<sup>(٢)</sup> .

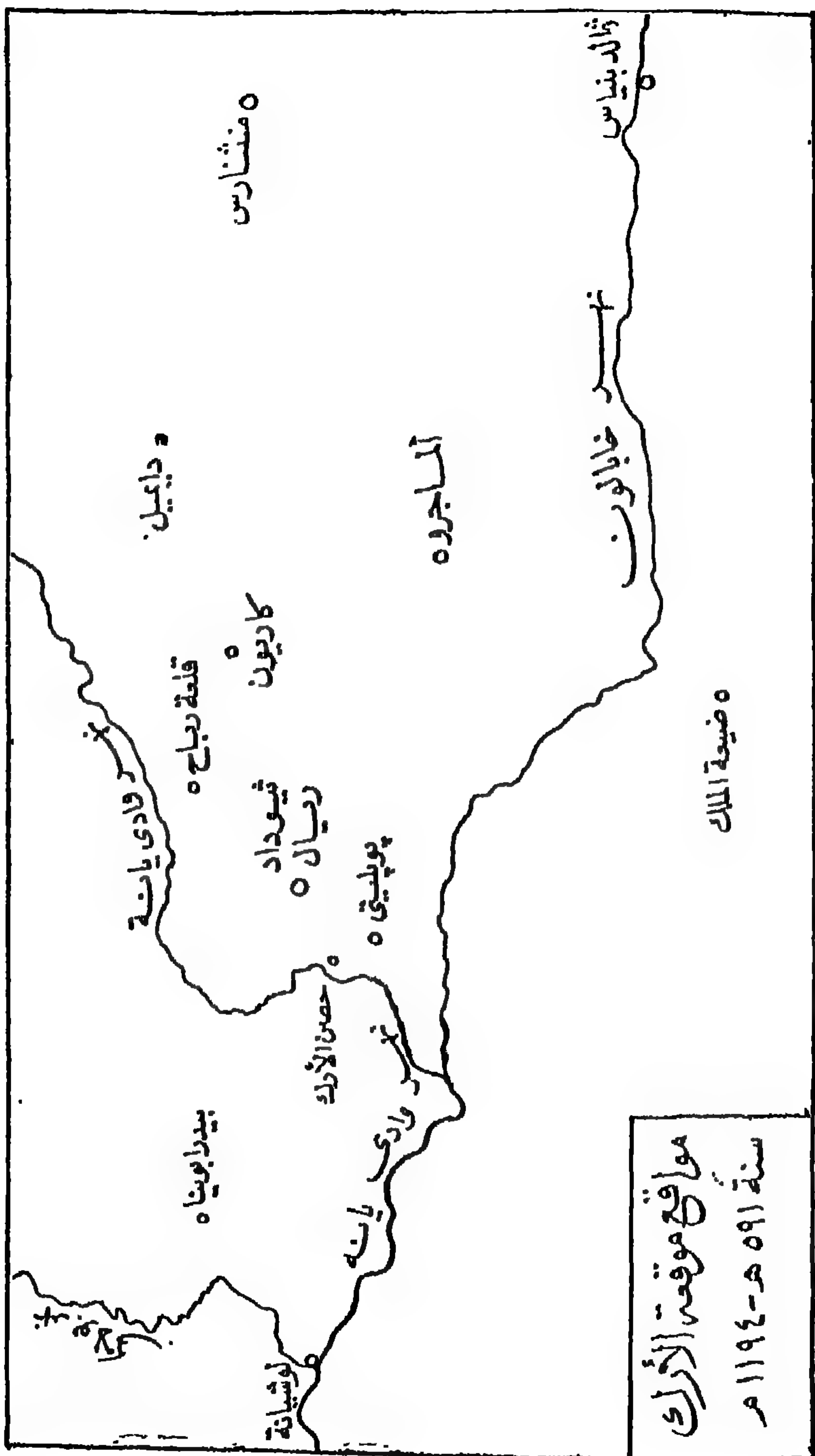
وبقدم إلينا صاحب روض القرطاس فوق ذلك تفاصيل هامة عن تقسيم الجيش

---

( ١ ) الأرك هي بالإسبانية Alarcos ، وثيوداد ريال هي Ciudad Real ومعناها المدينة الملكية . وتقوم مكان الأرك اليوم محلة صغيرة تسمى Sta Maria de Alarcos فى فحص قلعة رباح .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٤٧ .





الموحدى وقواده فى ذلك اللقاء الهام ، فيقول لنا إن الخليفة جلس فى يوم السبت الخامس من شعبان فى قبة الحمراء واستدعى الشيخ أبي يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص ، وهو حفيد الزعيم عمر بن أبي حفص الهنتائى صاحب المهدي ، وكان من أكبر وزرائه ، فولاه قيادة الجيش العامة ، وقدم ابن صناديد على عساكر الأندلس وحشودها ، وجيرمور بن رياح على جميع قبائل العرب ، ومنديل المغراوي على قبائل مغراوة ، وعقد لمحيو بن أبي بكر بن حمادة على جميع قبائل بني مرين ، ولخابر بن يوسف على قبائل عبد الواد ، وعقد لعبد القوي التجيني على قبائل تجين ، ولتجليدر على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولمحمد بن منعقاد على قبائل غمارة . وعقد أخيراً للحاج أبي خزر يخلف الأوريني على سائر المتطوعة ، وذلك على أن تكون هذه القيادات جميعها تحت القيادة العامة لأبي يحيى بن أبي حفص : واختص أمير المؤمنين من جانبه بكافة عسكر الموحدين والعبيد<sup>(١)</sup> .

وكان الخليفة المنصور ، قد قرر مع قاده أن تبدأ الجيوش الموحدية بالزحف على محلة النصرى . وتحركت الجيوش الموحدية بالفعل خلال السهل المنبسط أمام ربوة الأرك ، حتى صارت على مقربة منها ، ونزلات فى السهل المنخفض الممتد أمامها ، وهى تشرف عليه بمنعتها ووعورتها من عل ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء الثامن من شعبان ( ١٧ يولييه ) فلما رأى النصرى اقتراب الموحدين خرجت جملة من قواتهم ، وتقدمت قليلاً من مراكز الجيش الموحدى ، ولكن الموحدين لم يفعلوا شيئاً للاشتباك مع العدو . ذلك أن الخليفة المنصور لم يشأ أن يخوض الموحدون المعركة فى ذلك اليوم ، بل قرر خوضها فى اليوم التالى . فلما رأى النصرى المتقدمون جمود الموحدين ، عادوا إلى محلتهم فوق ربوة الأرك وقد أثقلتهم أسلحتهم<sup>(٢)</sup> : وفى اليوم التالى . وهو يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ ( ١٨ يولييه سنة ١١٩٥ م ) كانت الجيوش الموحدية كلها على قدم الأهبة ، وقد « عبئت تعبئة حرب » ، وعقدت الرايات لسائر القبائل والطوائف ، وجعل القائد العام أبو يحيى عسكر الأندلس فى الميمنة ، وزناته وسائر القبائل المغربية والعرب فى

( ١ ) روض القرطاس ص ١٤٨ .

( ٢ ) الرواية الصراية اللاتينية *Chronique latine des Rois de Castille* وقد أوردها الأستاذ هويش فى بحثه عن معركة الأرك *Campana de Alarcos* المنشور بمجلة المعهد المصرى بمديرية Vol. II. p. 62-67 ، ثم فى كتابه *Grandes Batallas de la Reconquista* p. 152.

الميسرة ، وجعل المتطوعة والرماة والأغزاز في المقدمة ، واحتل هو القلب مع قومه من قبيلة هتناة . وبقي المنصور في خاصته ، وفي جند الموحدين والعبيد في المؤخرة ، على أهبة للتدخل في اللحظة الحاسمة<sup>(١)</sup> .

ووقعت قبيل المعركة بقليل في المعسكر الموحدى ، مناظر مؤثرة ، حيث قام القائد العام الوزير أبو يحيى وصاح بصوت جهورى يقول للناس : إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وأن يتغافروا فيما بينهم ، وأن يطيبوا نفوسهم ، وأن يخلصوا نياتهم لله ، فبكى الناس ، وصاحوا من جانبهم بطلب الغفران من الخليفة ، وأنهم ييمن نيته وصدق طويته ، يرجون الخير من الرحمن . ثم قام القاضي أبو على بن حجاج ، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبياناً ، في الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدره عند الله ، وكان لهذه الحركة آثارها في إنعاش النفوس وتنبيه الضمائر ، وتنقية السرائر ، وإذكاء الغرائم<sup>(٢)</sup> .

ويجدر بنا قبل أن نصف أدوار المعركة ، أن نصف البقعة التاريخية ، التي وقعت فيها ، وقد أتيج لنا زيارتها ودراستها<sup>(٣)</sup> .

إن ميدان معركة الأرك Alarcos ، مازال معروفاً بمواقعه وحدوده ، تعيينه وتحده ، لا الرواية المتواترة فقط ، ولكن تحده كذلك آثار حصن الأرك الشهير ، الذى عرفت باسمه المعركة ، والذى تقوم اليوم مكانه ، فوق نفس الربوة التى كان يحتلها ، كنيسة ، أو معبد يسمى « كنيسة القديسة مريم صاحبة الأرك » Sta Maria de Alarcos .

ويقع هذا المكان على قيد نحو ستة كيلومترات من غربى مدينة « ثوداد ريال » الحديثة ، وشمال غربى بلدة « بوبليتي » الصغيرة ، وتفضى إليه طريق جبلية معبدة ، تحترق في البداية بسيطاً أخضر من الأرض ، يفضى غير بعيد إلى مجموعة من الهضاب الصغيرة . وعلى نحو أربعة كيلومترات من هذه الهضاب ، تقع ربوة الأرك Alarcos التى تقوم عليها اليوم ، فوق أنقاض الحصن القديم كنيسة القديسة مريم ، أوسيدة الأرك ، وهذه الكنيسة أو المعبد ، حسبما يسمى في تلك الناحية Ermita

( ١ ) روض القرطاس ص ١٤٨ و ١٤٩ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٧ .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٤ .

( ٣ ) كان ذلك في اليوم الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٣ .



عبارة عن بناء قديم ، يقوم وسط فناء شاسع ، تحيط به أسوار قديمة . ونوجد بداخله كنيسة بها صفان من العقود الكبيرة ، يحتوى كل منهما على أربعة عقود ، وهى بسيطة جداً ، وليست بها أية مظاهر فخمة :

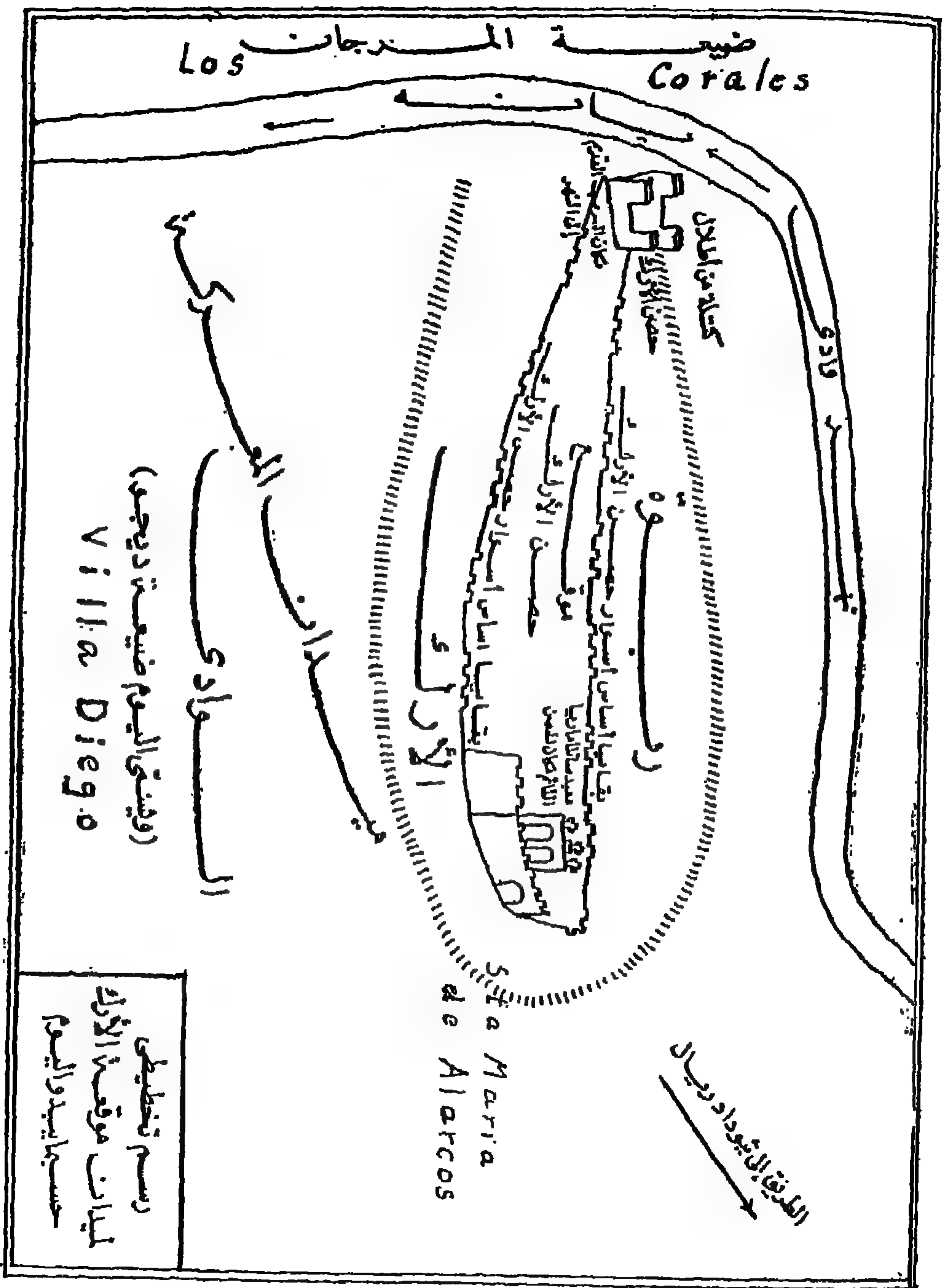
وأما آثار حصن الأرك القديم ، فتبدو أولاً فى مصطبة صخرية كبيرة تمتد خارج سور المعبد على حافة الربوة ، وتدور حولها ، وهو ما يدل على أن المعبد قد بنى فوق موقع الحصن القديم ، وتبدو ثانياً فى وجود عدة بقايا صغيرة من أسوار الحصن تقع فى غريبه : وظاهر من وجود الأحجار والأنقاض المتناثرة ، وامتدادها غرباً حتى قرب النهر أن بناء الحصن ، كان يمتد نحو ثلاثمائة متر ، كما أنه يوجد فى الناحية الخلفية ، من الربوة ، وهى تطل أيضاً على نهر وادى يانه ، آثار عقدين قديمين .

ويوجد عند نهاية الانقاض غرباً ، كتلة كبيرة من الأحجار والصخور ، وتحته أثر سرب قديم ، يقال إن الفرسان ، كانت تقود منه خيولها إلى النهر لتشرب من مائه : وأنقاض مصطبة الحصن التى سبق ذكرها ، تصل إلى هذه الكتلة من الانقاض ، مما يدل على أن الحصن كان يمتد حتى ذلك المكان . كما أنه يبدو خلال الانقاض الممتدة كثير من أسس الجدران القديمة .

وتشرف الربوة فى اتجاه الجنوب على واد عميق متدرج ، يصطلح على أنه المكان الذى وقعت فيه الموقعة . ويجرى نهر وادى يانه بجذاء هذا الوادى من شماله وغربه ، ويدور فى المنحاة كبيرة حول ربوة الأرك ، ويطلق اليوم على هذا الوادى الذى تغمره الخضرة اسم « محلة ديجو » Villa Diego .

ويبدو من أوصاف أدوار المعركة أن محلة الجيش القشتالى ، كانت تحتل مكاناً يتصل بمشارف ربوة الأرك ، على مقربة من الحصن ، ويمتد فى اتجاه قرية بوبلىتى ، ويستند إلى الحصن ، وإلى نهر وادى يانه ، وأن المسلمين كانوا يحتلون البسيط الواقع قبالتهم فى أسفل الوادى ، وتستند محلتهم غرباً إلى يسار النهر .

وفى ضحى هذا اليوم — التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ ( ١٨ يولييه سنة ١١٩٤م ) — نشبت المعركة المرقبة : وكان القشتاليون حينها رأوا جيوش الموحدين ترحف نحو محلتهم ببطيء ، وقد عبثت للهجوم أكمل تعبئة ، قد نزلوا من محلتهم فى صفوف كثيفة قائمة ، أو حسباً تصفهم الرواية الإسلامية وهم « كالليل الدامس ،

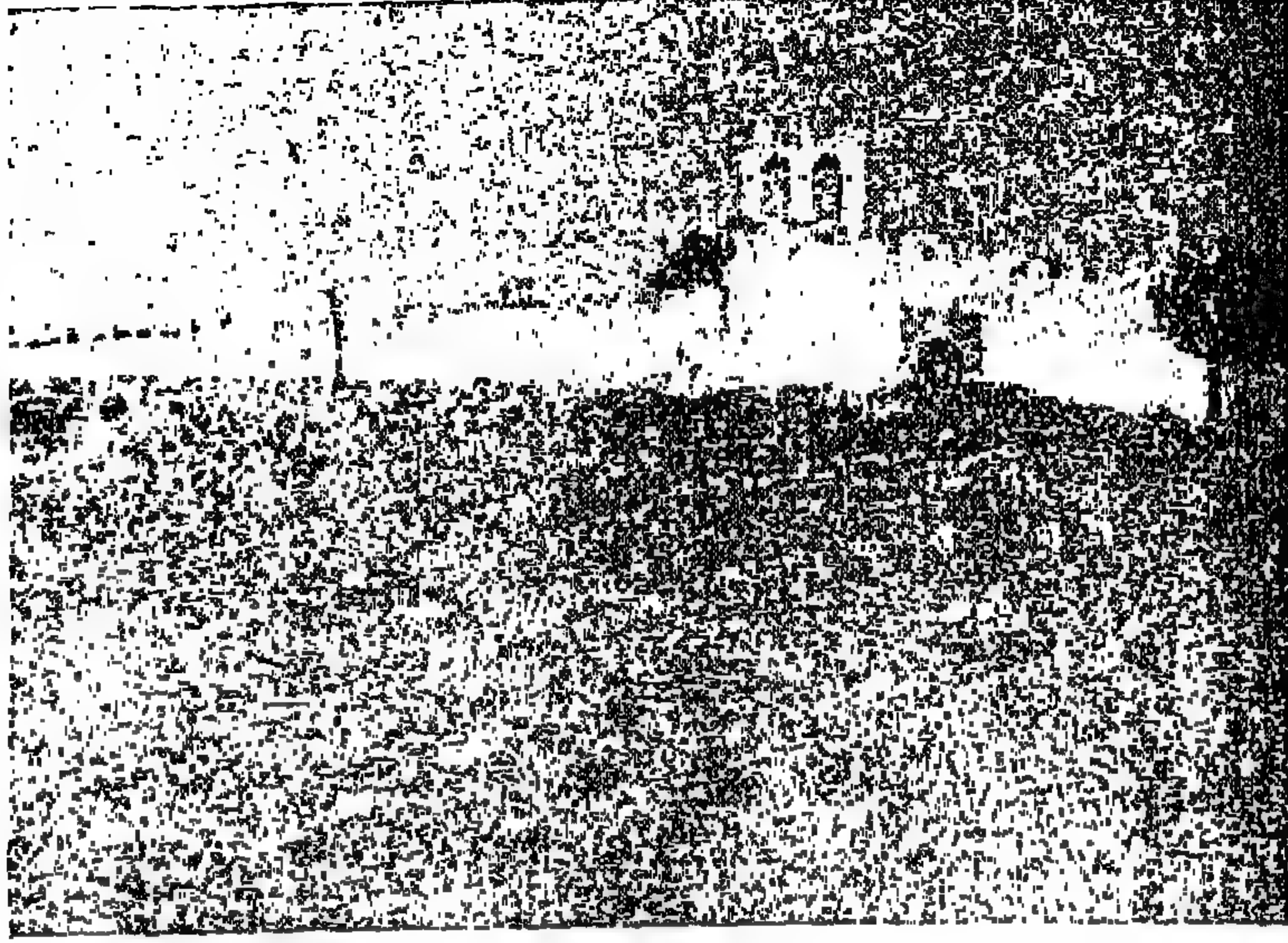


والبحر الزاخر ، أسراباً تتلو أسراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً . ويقدر صاحب روض القرطاس ، من هبط في هذه الدفعة الأولى من القشتاليين بنحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فارس « كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزرر » . ثم يتبع حركات هذه القوة النصرانية المهاجمة ، فيقول إنها اندفعت حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أو كادت ، ثم تقهقرت قليلاً ، وعادت إلى الاقتراب من المسلمين ، ثم ارتدت وتهيأت للهجوم الفعلي ، وفي أثناء ذلك كان الشيخ أبو يحيى والقائد ابن صناديد ، يحث كل منهما الجند على الثبات وإخلاص النيات والأعمال . وأخيراً تركز هجوم القشتاليين على قوات القلب التي يقودها القائد العام أبو يحيى ، معتقدين أنه هو الجناح الذي يقوده الخليفة ، وكان المنصور قد أمر بالفعل بأن ترفع الأعلام الخليفة على القلب ، فقاتل أبو يحيى وجنوده أشد قتال ، ولكن الصدمة كانت عنيفة ، فقتل أبو يحيى ، وقتل معه جماعة من هتاتة ، والمطوعة وغيرهم . وعندئذ تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغزاز والرماة ، وأحاطوا بالنصارى من كل جانب ، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس إلى المعركة وزحفت معه قبائل زناتة وسائر قبائل البربر ، واندفعت الجيوش الموحدية بجملتها نحو محلة القشتاليين ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة ، وكثر القتل في مقدمة القشتاليين ، التي اضطلعت بالهجمة الأولى ، واستمر القتال على هذا النحو بعنف وشدة ، حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التي تحتلها محلهم ، وبلدت بوادر الهزيمة على القشتاليين<sup>(١)</sup>.

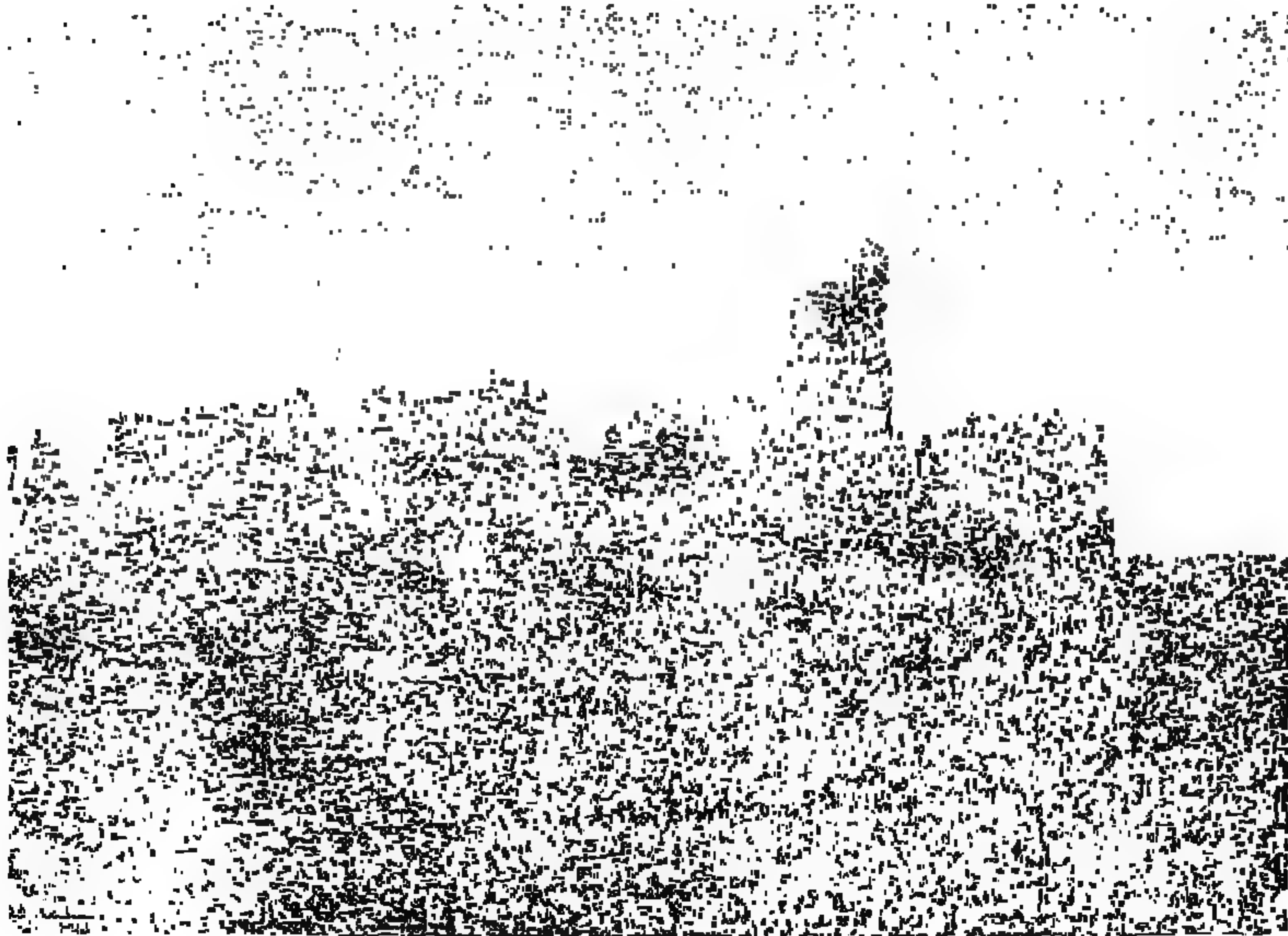
ولكن صاحب البيان المغرب ، وهو فيما يرجح ينقل عن رواية ابن صاحب الصلاة وهي رواية معاصرة ، يقدم إلينا عن المعركة صورة أخرى . فيقول لنا إن هجوم القشتاليين تركز أولاً على ميسرة الجيوش الموحدية ، وأنه أسفر عن تقهقر جماعة من المطوعة وأخلط السوق ، فلما رأى المنصور ذلك ، نهض بنفسه ، وترك ساقته على حالها ، وتقدم منفرداً ، وهو يحث الجند على الثبات والمهجوم على العدو ، فكان لحركته أعظم وقع في نفوس الجند ، فاضطربت همهم وعزائمهم ، واندفعت سائر الحشود والقبائل نحو القشتاليين بشدة ، والتحم الجيشان ، واشتد القتال ، وكثر القتل في صفوف القشتاليين ، واضطروا في النهاية إلى التقهقر والفرار . ودامت المعركة من ضحى اليوم حتى غروب الشمس ، وأسفرت عن قتل جموع

(١) روض القرطاس ص ١٤٩ - ١٥٠ .





كنيسة الأرك (سانتا ماريادى ألاكروس) التي أقيمت على أنقاض حصن الأرك



مجموعة أطلال قلعة رباح

عظيمة من النصارى ، واستطاع ملك قشتالة أن يفر في نحو عشرين فارساً من أصحابه ، فسار تحت جناح الليل صوب طليطلة لايلى على شيء ، واعتصمت معظم قلوب النصارى بحصن الأرك<sup>(١)</sup> .

وتفصل لنا الرواية الإسلامية ما حدث بعد هزيمة القشتاليين في الجولة الأولى . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، كان عندئذ معتصماً مع باقى قواته ببربوة الأرك . فلما ارتد القشتاليون ، وفروا نحو الربوة يحاولون الاعتصام بها ، حالت بينهم القوات الموحدية ، فارتدوا ثانية نحو السهل ، فحملت عليهم العرب والمطوعة وهتاتة والأغزاز والرماة ، وحصلوهم حصداً ، وأفنؤهم حسبما تقول الرواية عن آخرهم . ولما علم أمير المؤمنين بما حدث ، ضربت الطبول ونشرت الرايات ، وفي مقدمتها اللواء الخلفى الأبيض ، وزحف المنصور فى القوات الموحدية نحو القشتاليين ، تؤيده سائر الحشود والقبائل . وكان ملك قشتالة حينما رأى ما حل بقواته ، وسمع ضرب الطبول ، وعجيج الأبواق ، قد اعتزم أن يلقى ضد الموحدين بما تبقى من قواته ، ولكن القشتاليين حينما رأوا كثافة الجيوش الموحدية ، وروعة هجومها واضطرامها عولوا على الفرار ، فتلاحقت بهم فرسان الموحدين ، تحصدتهم قتلاً وأسراً ، وأحاط المسلمون بحصن الأرك ، يظنون أن ألفونسو الثامن قد اعتصم به ، ولكن تبين أنه قد لاذ بالفرار من أحد أبوابه الخلفية ، فدخل المسلمون الحصن عنوة ، وأضرموا النار فى أبوابه ، واحتوا على جميع مافيه ، وما فى مخلة النصارى ، من الذخائر والأسلاب والسلاح والمتاع والدواب والنساء<sup>(٢)</sup> .

وعلى أى حال ، فإنه يبدو من أقوال الرواية الإسلامية ، أن القشتاليين هم الذين بدأوا بالهجوم على الموحدين . وتؤيدها فى ذلك الرواية النصرانية . وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن المعركة ، وصفاً موجزاً يختلف قليلاً عما تقوله الرواية الإسلامية ، وهو أنه لما رأى القشتاليون الموحدين ، يتقدمون من محلتهم فى الصباح الباكر من ذلك اليوم ، حدثت ضجة فى معسكر النصارى ، وخرج القشتاليون فى قليل من النظام وتقدموا ، ثم اشتبكوا مع المسلمين . وفى الصدمة الأولى سقط عدة من أكابر النصارى ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة .

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٤ و ١٩٥ .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٥٠ .



ولما رأى ملك قشتالة رجاله يسقطون في المعركة على هذا النحو تقدم بنفسه إلى الأمام ، وأخذ يشحن مع طائفة من رجاله في المسلمين يميناً وشمالاً . ولكن رجاله رأوا أنه يستحيل عليهم أن يقاوموا ضغط الحشود الموحدة ، خصوصاً بعد أن سقط كثير من النصارى ، وقد استطالت المعركة إلى منتصف النهار ، فتضرعوا إليه أن يحتفظ بحياته ، خصوصاً وأنه يبدو أن الله قد تخلى عن النصارى . ولكنه أبى أن يصغى إليهم ، فجذبوه من المعركة رغم إرادته ، وارتد نحو طليطلة في نفر من الفرسان وقلوبهم تنفطر لما حدث حزناً وأسى<sup>(١)</sup> .

وتتفق الروايتان الإسلامية والنصرانية على أنه عقب الهزيمة ، لجأت قلوب القشتاليين إلى حصن الأرك بقيادة دون دييولوبث دى بسكايه . وتقدر الرواية الإسلامية هذه القلوب بخمسة آلاف ، فطوق الموحدون الحصن ، وكان الخليفة المنصور يعتقد أن ملك قشتالة قد لجأ إليه ، ولكنه تأكد من أقوال حليفه ونجدهمه القشتالي دون بيدرو فرنانديث دى كاسترو الموجود بمحلته ، أن الملك قد لاذ بالفرار إلى طليطلة ، فعندئذ طالب المنصور بتسليم الحصن في الحال ، وأن يُعطى اثني عشر فارساً كرهينة ، حتى يحضر دون دييغو إليه بمراكش ويسلم نفسه أسيراً ، وإلا فإنه سوف يقتحم الحصن ويقتل كل من فيه . وتقول لنا الرواية الإسلامية من جهة أخرى ، إن الاتفاق تم بواسطة دون بيدرو فرنانديث ( وتسميه ببطره ابن فراندس ) على أن يفرج عن خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل إطلاق القشتاليين المحصورين بالحصن ، وأن المنصور ارتضى هذا الاتفاق ، حرصاً على استنقاذ أسرى المسلمين ، وأخذت رهائن وُجّهت إلى إشبيلية . وهكذا استطاع دون دييولوبث أن يخرج من الحصن ، وأن يلحق بمليكه في طليطلة<sup>(٢)</sup> .

ولكن صاحب روض القرطاس يقدم إلينا عن تسليم حصن الأرك رواية بطبعها شيء من الخيال ، وهو أن الموحدين أخذوا في حصن الأرك أربعة وعشرين ألف أسير من زعماء الروم ، فرأى الخليفة المنصور أن يمن عليهم بالإفراج ، فأطلق سراحهم وأقالهم من الأسر بعد أن ملكهم ، وأن هذا التصرف من جانبه ،

---

( ١ ) الرواية النصرانية اللاتينية Chronique Latine des Rois de Castille التي سبقت الإشارة إليها .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٥ و ١٩٦ . والرواية النصرانية اللاتينية التي سبقت الإشارة إليها . وينقل صاحب الحجب المستورة هذه الرواية ( مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٤ ) .



قد عز على الموحدين وعلى كافة المسلمين ، واعتبروه سقطة من سقطات الملوك<sup>(١)</sup> تلك هي تفاصيل موقعة الأرك العظيمة التي أحرز فيها الموحدون أعظم نصر ، حققوه خلال حكمهم الطويل لشبه الجزيرة الأندلسية . على أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن نتائج المعركة بعض الأقوال والأرقام المغرقة ، وهي قبل ذلك تقدم إلينا عن عدد الجيش القشتالي أرقاماً لا يسيغها العقل لكي تتفق مع هذه النتائج . وهي لا تقدم إلينا شيئاً واضحاً عن عدد الجيش الموحدى ، وتكتفى بأن تتحدث عن عظمة حشوده ، وبأن تصفه بأنه جيش يضيق له الفضاء<sup>(٢)</sup> . ولكنها تقول لنا إن جيش القشتاليين كان يزيد على ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل<sup>(٣)</sup> . ويقول الضبي إنه كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل<sup>(٤)</sup> . أما عن خسائر النصارى ، فيقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنه قتل في المعركة من الكفرة ألوف لاتعد ولا تحصى . ويقول لنا ابن الأثير ويتابعه النويرى ، إن عدد القتلى من الفرنج بلغ مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وبلغ عدد الأسرى ثلاثة عشر ألفاً<sup>(٥)</sup> . بيد أنه توجد عن خسائر النصارى رواية أخرى أكثر اعتدالاً ، هي رواية يوسف بن عمر ، مؤرخ الموحدين ، التي نقلها إلينا صاحب البيان المغرب ، وهو أنه قتل في المعركة من النصارى زهاء ثلاثين ألفاً<sup>(٦)</sup> . ويأخذ بهذه الرواية صاحب كتاب « الحجب المستورة » وهو يتابع في روايته رواية البيان المغرب مع تعديلات يسيرة<sup>(٧)</sup> . وأما عن خسائر المسلمين فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النويرى ، إنه قتل من المسلمين نحو العشرين ألفاً ، وهي رواية تبدو معقولة وربما مبالغاً فيها بعض الشيء من حيث الكثرة<sup>(٨)</sup> . وتقول لنا بعض الروايات الأخرى إنه قتل من أعيان المسلمين نفر قلائل ، وإن عدد القتلى من المسلمين يبلغ نحو الخمسمائة وهو عدد ضئيل بالنسبة لاشتداد القتال ، وطول أمد المعركة .

( ١ ) روض القرطاس ص ١٥١ .

( ٢ ) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى ( طبعة جبار ريمير والسالفة الذكر ج ٨ ص ٢٧٤ ) .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١٤٩ .

( ٤ ) بنية الملتمس ( المكتبة الأندلسية ) ج ٣ ص ٣٥ .

( ٥ ) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى ، الطبعة المشار إليها ص ٢٧٤ .

( ٦ ) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٥ .

( ٧ ) كتاب الحجب المستورة في محاسن المقصورة ( مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٤ ) .

( ٨ ) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى ( الطبعة السالفة الذكر ) ج ٨ ص ٢٧٤ .

وعلى أى حال ، فإنه لا يسعنا إلا أن نلاحظ أن الرواية الإسلامية هنا ،  
وكعادتها فى مثل هذه المواقع العظيمة الحاسمة ، التى تضطرم بين الإسلام  
والنصرانية ، تبتلع إلى نوع من المبالغة والإغراق ، يمكن فهمه وتعليله وإن لم  
تتمكن استساغته . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت فادحة فى مثل هذه المعركة  
التي بلغ فيها القتال أشده ، والتي ثقلت فيها وطأة المطاردة على الجيش المهزم ،  
وأثنى الموحدون فى قلوبهم قتلا وأسرا ، ولكنها لا يمكن أن تعدو بضع عشرات  
من الألوف . ومن ثم كان الرقم الذى يقدمه إلينا المؤرخ الموحدى المعاصر وهو  
ثلاثون ألفاً ، يطبعه العقل والاعتدال . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا بعد ذلك  
عن الغنائم والأسلاب أرقاماً مذهشة . فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النويزى ،  
إن المسلمين حازوا من الخيام مائة وخمسين ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفاً ،  
ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف ، هذا غير مقادير لا تحصى من  
الأموال والتحف . وقسم الخليفة الغنائم بعد استبعاد الأخماس ، بين المسلمين وفقاً  
لأحكام الشريعة : وكان الخليفة فضلاً عن ذلك ، قد نادى فى عسكره أن من  
غنم شيئاً فهو له سوى السلاح ، فحُصر ما حمل إليه منه ، فكان يزيد على سبعين  
ألف لباس<sup>(١)</sup> .

وثمة مسألة أخرى تميل الرواية الإسلامية إلى ذكرها بمناسبة وقعة الأرك ،  
وهى المقارنة بين هذه الموقعة وبين موقعة الزلاقة ، وذلك من حيث ظروفها  
ونائجها : فهى تذكر كيف أن جنود الأندلس كانوا أول من أصيب من عسكر  
المسلمين فى الزلاقة ، وكيف كثر القتل فيهم لولا أن تداركتهم فى النهاية قوات  
ابن تاشفين المرابطية ، وهذا بخلاف ما حدث يوم الأرك حيث لقيت الجيوش  
الموحدية النصارى ، مجتمعمة وفى جبهة واحدة ، ومن ثم فقد كانت موقعة الزلاقة  
« مقسومة الثقل ، مكدره الصفو » ، ولكن موقعة الأرك جاءت « هنيئة الموقع  
عامة المسرة » . ثم هى ترى بحق أن غزوة الأرك ، كانت مثل الزلاقة من أيام  
الإسلام المشهورة ، وبها اعتز الإسلام وعلت كلمته ، بل ترى أنها كانت أعظم  
من موقعة الزلاقة ، وأنها أنست كل فتح تقدمها بالأندلس<sup>(٢)</sup> . على أن المقارنة

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويزى ( طبعة ريمبرو المشار إليها ) ص ٢٧٤ ،

وقفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) راجع البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٦ ، وروض القرطاس ص ١٥١ .



لا تنف عند هذا الحد ، فقد رأينا فيما تقدم من حديثنا عن موقعة الزلاقة<sup>(١)</sup> ، كيف أن الرواية الإسلامية تحيطها بطائفة من الأساطير التي تسبغ عليها هالة من القدسية ، وكذلك فإن حديثها عن موقعة الأرك لا تخلو من ذكر هذه الأساطير . وأسطع ما تقصه علينا في ذلك هو حديث الحلم الذي يقال إن الخليفة يعقوب المنصور رآه قبل الموقعة ببضعة أيام ، في ليلة الجمعة الرابع من شعبان ، واستبشر به ببلوغ النصر ، وهو أنه لبث طوال الليل راکعاً ساجداً مبهلاً ، وداعياً لتأييد المسلمين على أعدائهم ، فبينما هو راکع في مصلاه إذ غلبه النوم ، فرأى كأن باباً قد فتح في السماء ، ونزل منه فارس أبيض حسن الوجه ، ويده راية خضراء منشورة ، قد سدت الأفق من عظمها ، فسلم عليه ، فقال له من أنت يرحمك الله ، فقال أنا ملك من السماء ، جئت لأبشرك بفتح من رب العالمين ، لك ولعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايتك . ثم أنشد هذا الفارس أبياتاً حفظها الخليفة وهي :

بشائر نصر الله جاءتك سافرة      لتعلم أن الله ينصر ناصره  
فأبشر بنصر الله والفتح إنه      قريب وخيل الله لاشك ظافرة  
فتفنى جيوش الروم بالسيف والقنا      وتخلى بلاداً لا ترى بعد عامرة  
وأن الخليفة نهض من نومه موقناً بالفتح والظفر<sup>(٢)</sup> . فهذا الحلم الذي تقصه الرواية الإسلامية بمناسبة معركة الأرك ، يذكرنا بالحلم الذي تذكره بمناسبة موقعة الزلاقة وهو أن الفقيه الناسك أبا العباس بن رميلة القرطبي وكان بمحلة ابن عباد ، نهض في جوف الليل ، قبيل نشوب المعركة فرحاً مسروراً ، وهو يقول إنه رأى النبي ، وإن النبي بشره بالفتح والشهادة<sup>(٣)</sup> . ثم تذكرنا كذلك بالحلم الذي تقول لنا إن ألفونسو السادس ملك قشتالة رآه قبيل معركة الزلاقة ، وخلاصته أنه رأى أنه يركب فيلاً ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مزعجاً كلما قرعه ، وأن فقيهاً من أهل طليطلة ، نبأه بأن هذا الحلم هو نذير هزيمته ، مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة ، وقد كان يركب الفيل أيضاً . ثم يذكرنا كذلك ، بما تزعمه الرواية النصرانية من أن لآخر ، من أن الملوك النصاري ، كانوا متى اشتد القتال بينهم وبين المسلمين ، يرون ملاكاً يهبط من السماء وفي يده صليب أونحو ذلك .

(١) ، اجمع كتابي « دول الطوائف » ص ٣١٩ - ٣٢١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) الروض المعطار ص ٩١ .



والرواية سواء أكانت إسلامية أونصرانية تنجح إلى مثل هذه الأساطير ، بالأخص في المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية ، مثل الزلاقة ، والأرك وغيرهما . على أن موقعة الأرك تختلف عن موقعة الزلاقة من بعض الوجوه الهامة . فقد كان المسلمون من أندلسيين ومرابطين يواجهون في الزلاقة ، قوى إسبانيا النصرانية كلها ، ملتفة حول عميدها ألفونسو السادس . أما في يوم الأرك فقد كانت الجبهة النصرانية ، مقتصرة على ملك قشتالة وقواته . وقد غادر ألفونسو الثامن طليطلة في قواته ، حينما علم بزحف الموحدين نحو أراضي قشتالة ، ولم يرد أن ينتظر حليفه ملك ليون ، وكان قد وصل عندئذ بقواته إلى طليطلة ، ولكنه لم يقدم على معاونة زميله ، لأنه أبى أن يعطيه بعض الحصون التي طلبها ، ثم انقلب بعد ذلك إلى خصومته ، ومخالفة الموحدين أعدائه . وكذلك لم ينتظر ألفونسو الثامن معاونة من ملك نافارا ، أو من ملك أراجون وذلك لوثوقه من رجحان قواته ، وبقينه ببلوغ النصر على أعدائه . وقد انتصر عليهم من قبل مراراً في معارك محلية . ومن الغريب المدهش ما تقصه علينا الرواية الإسلامية من دلائل يقين ملك قشتالة بإحراز النصر على أعدائه ، وهو أنه كان يصطحب معه حين مسيره لقتال الموحدين جماعات من التجار اليهود ، جاءوا لشراء أسرى المسلمين ، وأعدوا لذلك الأموال اللازمة<sup>(١)</sup> .

وتختلف كذلك موقعة الأرك في نتائجها عن موقعة الزلاقة . ذلك أن موقعة الزلاقة بالرغم من كونها قد صدعت من قوى مملكة قشتالة ، وقضت مؤقتاً على الخطر الذي كان يهدد دول الطوائف ، فإنها اقتضت على تحقيق النصر للمسلمين ، ولم يتبع يوسف بن تاشفين نصره في الموقعة ، بأية محاولة أخرى لاسترداد طليطلة أو غزو أراضي قشتالة . هذا في حين أن المنصور بث جيوشه عقب النصر مباشرة في أراضي قلعة رباح فاستولت على عدة حصون . ثم إنه لم تمض بضعة أشهر على معركة الأرك ، حتى خرج المنصور في قواته ثانية لغزو أراضي قشتالة ، واخترقها حتى شمالي طليطلة ، واستولى على طائفة من المواقع والحصون حسبما نفصل بعد .

ولقد كان انتصار الموحدين في معركة الأرك ، يرجع فضلاً عن تفوقهم العددي ، إلى عدة أسباب ، روعى تحقيقها لأول مرة في الغزوات الموحدية

( ١ ) بفتح الملتبس ( المكتبة الأندلسية ) ح ٣ ص ٣٥ .

الكبرى ، وأولها وأهمها العناية بالمحافظة على نظام الجيش ، وتوفير تموينه وموته بصورة مؤكدة ، وتقسيم حشوده ، وتنظيم قياداته ، وتعيين قائد عام يشرف على هذه القيادات ، واعتماد الخليفة على مشورة قواده ، ثم مراعاة الحزم والسرعة في تحرك الجيش ، وإعداد له لضرب العدو على القور . فهذه الميزات التي روعي تحقيقها في الجيش الموحدى ، كانت كفيلة بأن تحقق له الظفر في معركة الأرك ، وأن تجنبه تلك المفاجآت السيئة ، التي أصيب بها في غزوة وبدة ، ثم بعد ذلك في نكبة شترين (١) .

— ٢ —

ما كادت تنتهى معركة الأرك العظيمة ، حتى بث المنصور سريات من جنده في أراضي قلعة رباح ، فاستولت على عدة من حصون العدو في هذه المنطقة ، ثم هاجم الموحدون قلعة رباح ذاتها ، واقتحموها بعد قتال عنيف ، وانتزعوها من أيدي فرسان جمعية قلعة رباح المتولين للدفاع عنها ، وقتل أثناء المعركة أستاذ الجماعة نونيو دى فوينتس . وغادر الفرسان القلعة ، ولجأوا إلى قلعة شلبطرة القريبة منها . وهكذا استرد المسلمون هذه القلعة المنيعة ، بعد أن لبثت في حوزة النصارى منذ سقوطها في أيديهم في سنة ١١٤٧ م ، زهاء نصف قرن . وأمر المنصور بتطهير جامعها الذي كان قد تحول إلى كنيسة ، وقدم على حاميتها يوسف بن قادس (٢) .

نقول ، وقد أتيج لنا أن نزور أطلال قلعة رباح القديمة (٣) هذه ، وأن نشهد بقايا هذه القلعة المنيعة ، التي لبثت دهوراً من حصون الأندلس الأمامية ، والتي لعبت دوراً كبيراً في الصراع بين المسلمين والنصارى . وتقع هذه

---

(١) راجع في معركة الأرك ، روض القرطاس ص ١٤٥ - ١٥١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٣ - ١٩٦ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و ٤٥ ، والنويرى ( طبعة جبار ديمير ) ص ٢٧٤ و ٢٧٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٩ و ١٦٠ ، ورفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ( مخطوط المتحف البريطاني ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٦ ) . ونشره الأستاذ هويثي ضمن مقاله المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدير ج ٢ ص ٥٧ - ٦١ وراجع أيضاً :

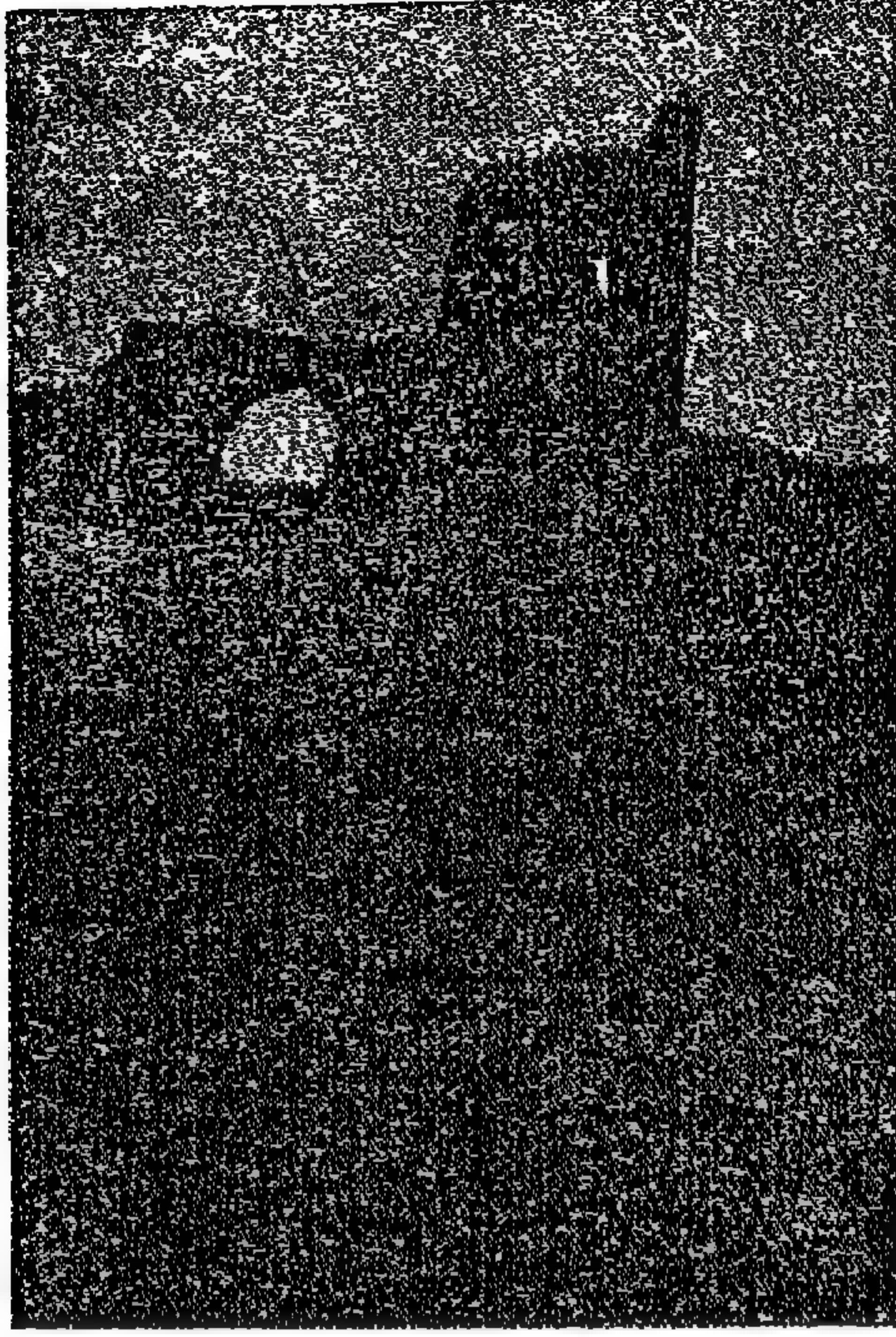
H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista , p. 137-169

(٢) الروض المطار ص ١٦٣ .

(٣) وهي بالإسبانية Calatrava la Vieja .



الأطلال على قيد خمسة عشر كيلومتراً من مدينة ثيوداد ريال ، وعلى قيد نحو سبعة كيلومترات من ضاحيتها كريون ، وهى عبارة عن مجموعة ضخمة من



الأطلال الدارسة ، تقع فوق ربوة قليلة الارتفاع ، وسط بنسيط كبير تظله الجبال الشاهقة ، ويستند من الشمال إلى نهر وادى يانه ، وتنقسم هذه الأطلال إلى مجموعتين ، فى إحداهما وهى اليمنى ، يوجد جدار برج عال ، ومن تحته عضادة تظلل عقداً كبيراً كاملاً ، وفى الوسط يقوم جدار ضخيم من عقد سابق . والمجموعة الأخرى ، يفصلها عن المجموعة الأولى فراغ كبير تتخلله الأنقاض والحرائب ، يبلغ طوله نحو ثمانين متراً ، وهى عبارة عن كتلة كبيرة ، يبدو أنها كانت قاعدة

لعدة أبراج ضخمة . وتمتد الأطلال من الناحية الأخرى إلى مدى يبلغ نحو مائة وخمسين متراً ، ويغمر هذه الأطلال الضخمة العالية ، والمكان كله ، جو من الوحشة والرغبة انقبضت له نفسى ، وأنا أطوف حول المكان منفرداً ، بين الأشواك والأدغال البرية ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، وعواء الكلاب المتوحشة ، ونعيق الغربان والنسور الصغيرة ، التى تعمر المكان ، يزعجنى ، وينذرني بسرعة الرحيل .

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لم يكتف بذلك ، بل سار محترقاً أراضى قشتالة يشحن فيها قتلاً وأسراً وسيئاً حتى وصل إلى جبل سليمان (١) على مقربة من قلعة هنارس شمالى طليطلة . بيد أنه لا يوجد ما يؤيد هذه

( ١ ) وهو بالإسبانية Cuesta de Zuloma « مرتفع سليمان » .



الرواية . والظاهر أن صاحب روض القرطاس يشير بذلك إلى غزوة المنصور التالية لأراضى قشتالة بعد ذلك بعامين ، وهى غزوة سوف نتحدث عنها فيما بعد (١) .  
وبعد أن أخرج المنصور خمس الغنائم ، وقسم ما فيها على المجاهدين ، سار في جيوشه المظفرة ميمماً شطراً شيبانية ، وقد عاين هذا النصر الباهر ما لحق مئة الخراب الموحدية في شبه الجزيرة ، عقب نكبة شترين من الانتكاس والتصدع ، فوصل إليها في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩١ هـ ( ٦ أغسطس سنة ١١٩٥ م ) ، وأقبلت إليه الوفود من كل فج تزجى إليه تهاني النصر . ثم أمر أن يكتب بالفتح إلى سائر جهات الأندلس والمغرب . وطلب إلى أبي الفضل بن طاهر ابن محشرة أن يتوخى في كتب الفتح غاية الإيجاز ، وأن يكتبها على مثل كتب الصحابة في فتوحهم ، فصنع أبو طاهر بالأمر . ورفع الشعراء قصائدهم إلى الخليفة كالعادة ، ونظم أبو العباس الجراوى شاعر البلاط الموحدى ، في الفتح قصيدة جاء فيها :

هو الفتح أعبي وصفه النظم والنرا	وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد في الدنيا وغار حديثه	فراقت به حسناً وطابت به نشرى
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى	وساقهم جهلاً إلى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأصحابه الآلى	تبرأ منهم حين أوردتهم بـندرا
رأى الموت للأبطال حوله ينتقى	فطار إلى أقصى مصارعه ذعرا
ألف غدت مأهولة بهم القسلا	وأمت خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحي الهيجا عليهم فأصبحوا	هشياً طحيناً في مهب الصبا يذرا

وأنشد الشاعر الأندلسى المرسى ، على بن حزمون بن يدي الخليفة قصيدة ، وقعت منه أجل وقع ، وهذا بعض ما جاء فيها :

حيثك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فلنر الكفار ومآتهم	إن الإسلام لنى عرس
أمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق للتمس
ورفعت منار الدين على	عمد شمٌ وعلى أسس

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

وصدعت رداء الكفر كما صدع الديجور سنا قبس  
لاقيت جموعهم فغلدوا فرسا في قبضة مفترس  
جاءوك تضيق الأرض بهم عدداً لم يحص ولم يقس  
ومضيت لأمر الله على ثقة بالله ولم تحس  
فأناخ الموت كلاكله بظباك على بشر رجس  
وتساوى القساع بهامهم المرفض مع الحذب والفرس  
فأولئك حزب الكفر ألا إن الكفار لفي نكس<sup>(١)</sup>

وأمر المنصور بتسريح الحشود والقبائل وسائر الجنود ، على أن يكونوا على أهبة للاستعداد للجهاد في أية لحظة . وقضى فصل الشتاء بإشبيلية ، وانتقل إلى حصن الفرج ، الواقع جنوب غربى المدينة على الضفة الأخرى من النهر الأعظم ( الوادى الكبير ) وهو الحصن ، الذى أمر بإنشائه قبل ذلك بقليل ، وكان يحبه ويؤثر الإقامة فيه ، وأمر باستكمال غروس بستانه ، وإنشاء النواعير على شاطئ النهر تحت الحصن لربه ، كما أمر بإصلاح المسجد الجامع ، واستكمال بناء صومعته ، وهو الجامع الذى كان قد أنشأه أبوه ، وأمر بإنشاء صومعته قبيل وفاته بقليل . ولما انتهى الشتاء وأقبل الربيع ، أمر المنصور باستئناف الحركة والاستعداد لمعاودة الجهاد ، واستنفر مختلف الحشود من منازلها ، فلما تم وصول مختلف الطوائف وحشدتها ، أمر الخليفة بتميز الحيوش وتنظيمها ، واستعدادها لاستئناف الغزو .

على أن المنصور ، قبل أن يبدأ الحركة ، رأى أن يستشير الزعماء والقادة في أمر توجيه الغزو ، واختيار المنطقة الملائمة في أراضي النصارى لإجرائه . وفي أثناء ذلك تردد رسل ملك قشتالة في طلب المهادنة وعقد السلم ، فرفض المنصور<sup>(٢)</sup> ، واستقر الرأى على أن توجه الغزوة إلى ما تسميه الرواية الإسلامية « ببلاد الخوف » أعنى منطقة إستر مادورة ، وذلك لاسترداد ما انتزعه النصارى من قواعد هذه المنطقة . وخرج المنصور من إشبيلية في قواته في منتصف جمادى الأولى سنة ٥٩٢هـ<sup>(٣)</sup> ( منتصف أبريل سنة ١١٩٦ م ) ، واتجه شمالا إلى حصن متانجش<sup>(٤)</sup> .

( ١ ) راجع هذه القصيدة بأكملها في المعجب ص ١٦٥ - ١٦٧ .

( ٢ ) الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية ( ص ٢٣١ ) .

( ٣ ) ذكر صاحب البيان المغرب أنه منتصف رجب . ولكن هذا التاريخ يتعارض مع سياق الحوادث ومع التواريخ التى توردها الرواية النصرانية .

( ٤ ) ورد اسمه في الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثين الخاصة بهذه الغزوة (منت أنثى) ص ٢٣١ .



وقد كان حسبنا أشرنا إليه من قبل من أمنع حصون منطقة بطليوس ، فتقدمت لمهاجمته قوة من الأندلسيين ، فلما رأت الحامية القشتالية مقدم الجيوش الموحدية الزاخرة ، طالبت بالأمان والتسليم ، فأجيبوا إلى ما طلبوا ، وأمر قائد الجيوش الأندلسية أبو عبد الله بن صناديد ، بتوصيلهم إلى المنطقة الآمنة ، ولكن حدث حينما بدأوا السير أن هاجمهم جماعة من « أوباش العرب » وسببت من كان معهم من النساء والأطفال ، فغضب الخليفة لهذا الاجترار والإخلال بالعهود المقطوعة ، وأمر بسجن من عثر عليه من المعتدين ، ورد النساء والأطفال إلى ذويهم ، وأوصل الجند القشتاليين آمنين إلى أوائل بلادهم .

وقصدت القوات الموحدية بعد ذلك إلى مدينة تـرـجـالـه « قاعدة الثغر الشمالى » الواقعة شمال شرق متانجش ، وشرق مدينة قاصرش ، وكان سكانها النصارى قد أدخلوا في إخلائها ، حينما شعروا باقتراب الموحدين ، فاستولى الموحدون على المدينة ، وطاردوا سكانها وأفنوا الكثير منهم ، وسبوا الكثيرين من نساءهم . واستولوا كذلك على بلدة « سانتا كروث »<sup>(١)</sup> القريبة منها ، وكانت حاميتها قد لاذت بالفرار . ثم عبر الموحدون نهر التاجه ، واتجهوا شمالاً نحو مدينة « بلاسثيا » وهى التى تسميها رسالة الفتح الموحدية ( ابلناسية ) وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انفق بضع سنين فى إنشائها وتحصينها ، ونقل إليها كثيراً من أهل الشمال ، وكان أهلها المدنيون قد غادروها ، وبقيت حاميتها فى قلعتها ، فاستولى الموحدون على المدينة ودمروها ، ثم هاجموا القلعة وضربوها بالنبال ضرباً شديداً ، حتى اضطرت الحامية بعد ليلة واحدة فقط من الاعتصام إلى التسليم ، واعتبر أفرادها أسرى بحكم مقاومتهم<sup>(٢)</sup> . ويقول صاحب الروض المعطار ، وهو يسمى ( بلاسثيا ) بالنسية ، إن الموحدين فتحوها عنوة ، وقبضوا على قائدها ، مع مائة وخمسين من أعيان النصارى ، وجهوا إلى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أسارى معركة الأرك<sup>(٣)</sup> . وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين بالعكس قتلوا الأسف والرهبان وكثيراً من النصارى .

( ١ ) وتسميها الرسالة الموحدية « شنتروس Santa Cruz » وتصفها بالقلمة « الحمية فى الامتاع » ص ٢٢٢ .

( ٢ ) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ، ص ٢٢٤ .

( ٣ ) الروض المعطار ص ١٣ .

واستمر الموحدون في زحفهم شرقاً صوب مدينة طليطلة ، وهي أكبر مدن ولاية طليطلة ، وهم يشنون في أراضي قشتالة ، تخريباً ، وأسرا وسبياً ، فلما أشرفوا على طليطلة انتسفوا زروعها ، وحداثتها وأشجارها ، ولكنهم لم يحاولوا اقتحام المدينة لمنعها ، ولعدم استعدادهم لضرب الحصار حولها ، إذ كانت تنقصهم آلات الحصار ، فقتنوا باجتياح كل ما حولها من مظاهر العمران ، وصبروا أراضيها قاعاً صفيصفاً . كل ذلك وملك قشتالة محتجب داخل مملكته ، غير مجترئ على لقاء الغزاة في أية ساحة . ثم اتجه الموحدون شمالاً إلى مكادة<sup>(١)</sup> ، وأنزلوا بأراضيها من التخريب ما أنزلوه بطليطلة . وهبطوا أخيراً إلى طليطلة من ناحيتها الشمالية ، وبرزت أمامها الحشود الموحدية فرساناً ومشاة في أكمل عددها وعدتها ، وقد امتنع النصارى بدخولها مستعدين للكفاح والدفاع ، ثم عبر الموحدون بعد ذلك نهر التاجه ، إلى ساحتها الجنوبية ، وانتسفوا زروعها ، وكرومها وحداثتها ، ولاسيما منبتها الشهيرة ، وهي التي كانت من قبل لبني ذي النون ، وورثها النصارى ، وامتدت أيامها حتى خربها الموحدون فيما خربوه من مرافقها وأراضيها ، وقضى الموحدون حول طليطلة بضعة أيام ، واقتصروا على تخريب ديارها ، وإبراز مظاهر قوتهم ، وروعة حشودهم الزاخرة<sup>(٢)</sup> .

ويقدم إلينا المقرئ عن غزوة طليطلة رواية خلاصتها أن المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ، واشتد في ضربها بالمجانيق حتى أوشكت على السقوط ، خرجت إليه والدته ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وبناته ونساؤه ، ومثلن بين يديه باقيات متضرعات إليه ، أن يبقى البلد عليهن ، فرق المنصور لضراعتهن ، وكف عن ضرب المدينة ، ووهب لمن قدرأ من المال والجواهر الحليلة ، وردهن مكرمات ، وهذه رواية يصحب علينا تصديقها لمجانبتها للمنطق والمعقول<sup>(٣)</sup> .

وفي خلال الغزوة الموحدية لأراضي قشتالة ، بعث ملك ليون ، وهو ألفونسو التاسع إلى المنصور ، يرجوه أن يعاونه ببعض قواته ، على غزو قشتالة ، فاستجاب المنصور لرغبته ، لما كان من سالف موقفه قبيل معركة الأرك ، وتنحيه عن معاونة ملك قشتالة ضد الموحدين ، وجنوحه إلى مصادقتهم ومخالفتهم . وغزا ملك ليون ، ومعه قوة من الموحدين أراضي قشتالة من ناحية « تيرادي كامبوس » :

(١) وهي بالإسبانية Maqueda . راجع الروض المعطار ص ١٣ .

(٢) الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثون ص ٣٣٦ و ٣٣٧ . والبيان المغرب ص ١٩٩ .

(٣) المقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٢٠٧ .



وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين الذين كانوا يقاتلون معه ، ضربوا الكنائس والأديار القشتالية بمنهى القسوة ، وقام الليونيون بانتساف وتخريب الضياع . ووصل ألفونسو التاسع في غزوته هذه حتى مدينة كريون . وفي نفس الوقت أغار سانشو ملك نافارا من جانبه على أراضي قشتالة المتاخمة له ، واقتحم مدينة سرية ، وعاث في تلك المنطقة تخريباً ونهباً .

ولما انتهى المنصور من غزاته ، وأثنى ما شاء في أراضي عدوه ، وأبرزت حشوده أمام أعين النصارى كل مظاهر قوتها وروعها ، قرر العود بسرعة ، قبل أن يختل نظام التموين في الجيش ، فارتد بقواته نحو الجنوب ، واقتحم الموحدون في طريقهم بعض حصون منطقة طليطلة الجنوبية ، فاخترق أراضي قلعة رباح ، ثم اتجه نحو جيان ثم إلى قرطبة ، وسار من قرطبة إلى إستجة فقرمونة ، ووصل إلى إشبيلية في أوائل رمضان ( ٥٩٢ هـ ) بعد أن قضى في غزوته نحو ثلاثة أشهر (١) .

وما نود أن نلاحظه هو أن هذه الغزوة الموحدية التي استطاع الموحدون أن يدفعوها إلى صميم أراضي قشتالة ، وإلى تطويق العاصمة القشتالية ذاتها ، أعنى طليطلة ، لم تسفر عن أية نتائج مستقرة ، ولم يحرز الموحدون خلالها أية أراضي أو مواقع ذات شأن . وإنه لما يلفت النظر أن يكتب الخليفة المنصور ، وهو الذي حطم قوى قشتالة قبل ذلك بأقل من عام في موقعة الأرك بالعيث والتخريب ، والسبي والنهب في أراضي العدو ، دون أن يتحرى غاية عسكرية جلية ، في وقت كان فيه في أوج قوته وأهباته العسكرية ، وفي وقت كان فيه عدوه الرئيسي ملك قشتالة في منتهى الضعف والاستسلام ، حتى أنه لم يحرك ساكناً للقاء الغزاة في أية مرحلة من مراحل الغزو . وإنه يحق لنا أن نتساءل ألم يكن في وسع الخليفة الظافر ، في مثل هذه الظروف المواتية ، أن يركز جهوده على محاولة الاستيلاء على طليطلة حصن الإسلام القديم على نهر التاجه ، وفي اعتقادنا أنه لو فعل ، لما كانت هنالك ثمة عقبات خطيرة تحول دون بغيته ، ولكن السياسة العسكرية الموحدية آثرت مع الأسف أن تقنع بالمظاهرات العسكرية الجوفاء ، التي يستطيع العدو القديم الخالد دائماً أن يصبر عليها ، وأن يهضمها بسرعة ليعود إلى عدوانه .

( ١ ) فصلت لنا الرسالة الموحدية المؤرخة في التاسع من شهر رمضان سنة ٥٩٢ هـ ، وهي الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية ، مراحل هذه الغزوة بإسهاب يغلب عليه الزخرف الأدبي ، وهي من إنشاء الكاتب أبي عبد الله بن عياش ( ص ٢٢٨ - ٢٤١ ) .

وعنى المنصور خلال إقامته عندئذ بإشبيلية بأمرين ، الأول النظر في أحوال الأعمال والنفقات ومحاسبة بعض العمال والنظار ، الذين لحقت بهم ريب التقصير والاختلاس ، والثاني الاستعداد للغزوة القادمة بعد أن ينال الحند قسطهم من الراحة والاستجمام والضيافة والإحسان . وقد أمر المنصور فيما يتعلق بالأموال بمحاسبة أبي سليمان داود بن أبي داود ، وندب لمحاسبته لجنة من الكتاب ، فحققت في سائر أعماله وتصرفاته مدى ستة أشهر ، ثم انتهت بإدائته وإثبات ما في ذمته من أموال ، بلغت في الأعمال نحو مائة وخمسين ألف ، فاستصفت أمواله ، ولكنه لم ينكب ولم يعاقب حتى عني عنه . وأمر الخليفة في نفس الوقت بمحاسبة أبي علي عمر بن أيوب ، على ما كان تحت يده من أموال النفقات ، فتبين أن في ذمته قدراً كبيراً من المال ، فطولب به ، ولما عجز عن الوفاء ، اعتقل مع أبي سليمان حتى عني عنه أمير المؤمنين .

وفي هذا العام أيضاً قام الخليفة ببعض التعيينات الهامة ، فقلد أبا زيد بن يوجان أشغال البرين ( المغرب والأندلس ) من الأعمال العلية والشئون السلطانية والوزارة ، وما يتعلق به من أشغال الموحدين وملازمة الخدمة ، فأبدى في تأدية مهامه المختلفة كفاية ظاهرة ، وقدم أبا القاسم بن نصير على الإشراف على عمل إشبيلية ، وقدم الكاتب المؤرخ يوسف بن عمر ، بعد أن ترك خدمة بني حفص ابن عبد المؤمن ، على المستخلص بمنطقة الشرف ومدينة لبلة .

وكان المنصور يعنى في نفس الوقت بالاستعداد لاستئناف الغزو في أراضي قشتالة . فلما انتهى فصل الشتاء أمر بالحركة وتعبئة الحشود ، فاجتمعت مختلف الطوائف والقبائل حتى ضاقت إشبيلية بجمعهم ، فلما استكمل الحشد والاستعداد ، خرج الخليفة في قواته من إشبيلية في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٩٣ ( ١٤ أبريل سنة ١١٩٦ ) وسار ميمماً شطر قرطبة ، وكانت سنة خصب ورخاء ، فسارت الجموع طول الطريق في دعة وعيش طيب . ولما وصل المنصور إلى قرطبة ، دخلها ونزل بها وقسم جيوشه لانتجاع الحصب ووفرة الأقوات ، حتى تحمل الفترة التي تكثر فيها المؤن والأقوات بأراضي قشتالة<sup>(١)</sup> .

( ١ ) البيان المغرب - القم الثالث ص ٢٠١ و ٢٠٢ .



## الفصل الرابع

### ما بعد الأرك

### حتى وفاة المنصور

إقامة الخليفة المنصور بقرطبة . الفيلسوف ابن رشد ومؤلفاته ومكانته العلمية . اجتماع الأسباب لتكبدته . سعى خصومه في الإيقاع به . تأويل آرائه ومسحها . إتهامه وبعض زملائه بالمروق . توجيه الاتهام إليه بالمسجد الجامع . إدانته ونفيه إلى بلدة اليسانة . مصادرة كتبه وإحراقها . كتاب المنصور في تبرير تصرفه وفي شرح تهم المارقين . أسباب أخرى لنصب المنصور على الفيلسوف . عفو المنصور عنه وعن زملائه . عودة ابن رشد إلى مراكش ثم وفاته . ما تكشف عنه نكبة الفيلسوف من منزى . خروج المنصور إلى الفزو . مسيره إلى طليطلة ثم إلى طليطلة . مسيره إلى مجريط وحصارها . تخريبه لمنطقة وادى الحجارة . توجيه كتاب الفزو . عود المنصور إلى قرطبة ثم إشبيلية . أمره بإتمام صومعة الجامع . أقوال ابن صاحب الصلاة في بناء الصومعة . تزويدها بالتفانج الذهبية . وصف لهذه التفانج وعملية رفعها . قيام هذه الصومعة حتى اليوم . انتقال المنصور إلى حصن القريج . تعيينه للعالم . تحالف قشتالة وأراجون ضد الموحدين . غزو قوات قشتالة وأراجون لمملكة ليون . عقد السلم بين المنصور وملك قشتالة . رفض المنصور معاونة ملك ليون . عبور المنصور إلى المغرب . وعوده إلى مراكش . أخذ البيعة لولده الناصر . عطفة على اليتامى . أمره بإلزام اليهود بزي خاص . بواعث هذا القرار . مرض المنصور وشعوره بدنو أجله . استدعاؤه للشيوخ والقراة . توصيته بولده وبمن يثق بهم من السادة . توصيته برعاية الأندلس والنود عنها . توصيته بالأغزاز والعرب والطلبة . توصيته بقبائل الموحدين . ما ينسب إليه من آخر أقواله . وفاة المنصور . عظمتة والإشادة بصفاته . عنايته بتنظيم الجيش وتقويته . شغفه بالجهاد . حزمه وعنايته بتوطيد العدل . ورعه وتقواه . عنايته بتطبيق أحكام الشرع وإقامة الصلاة والحدود . مطاردته لعلم الفروع والمذهب المالكي . اعتناقه للمذهب الظاهري . انتشار الظاهرية في عهده . إجلاله للعلامة ابن حزم . موقفه من إمامة المهدي وعصمته . ما ينسب إليه من نيته في افتتاح مصر . قول المراكشي في ذلك . أقوال الرحالة ابن جبير عن أحوال المشرق وضلال أهله . أقواله عن مدى الدعوة الموحدية بمصر . الفكرة الموحدية في غزو مصر . الفكرة لم تكن سوى أمنية . عظمة مصروفاتها أيام المنصور . صفات المنصور العلمية . عطفه على العلماء وطلبة العلم . أدبه وقصاحته . اجتماع الشعراء حوله . أبو العباس الجراوى يؤلف له كتاب « صفوة الأدب » . مدائح ابن مجبر . مواهب المنصور الإدارية والإنشائية . عنايته بالشئون المالية . منشأته العمرانية . إنشاءه لفصاحية الصالحة . تجديده لرباط الفتح وإنشاء مسجدها العظيم . إنشاءه لليمارستان بمراكش . منشأته بالأندلس . وزرائه وكتابه . قضاته . أولاده . صفته .

في خلال إقامة المنصور بقرطبة ، في تلك الفترة من شهور سنة ٥٩٣ هـ ، وقع حادث مؤسف ذومغزى عميق ، هو نكبة القاضي الفيلسوف أبي الوليد بن رشد . وقد سبق أن أشرنا إلى صلة ابن رشد بالبلاط الموحدى ، وإلى ما كان يتمتع به من عطف الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ولاسيما عن طريق أستاذه العلامة الفيلسوف الطبيب أبي بكر بن طفيل ، صديق هذا الخليفة وأستاذه الأثير لديه . وكان ابن رشد في هذا الوقت يتولى قضاء إشبيلية ، ويشغل في نفس منصب الطبيب الخاص للخليفة إلى جانب أستاذه ابن طفيل . ثم تقلب بعد ذلك في عدة من المناصب القضائية والإدارية الهامة ، أحياناً بقرطبة وأحياناً بإشبيلية ، وكان ينتقل في معظم الأحيان مع بلاط الخليفة ، سواء بالمغرب أو الأندلس . ولما توفى أستاذه ابن طفيل في سنة ٥٨١ هـ ( ١١٨٥ م ) انفرد بمنصب الطبيب الخاص للخليفة ، واستمر على حظوته ومكانته لدى الخليفة يعقوب المنصور ، كما كان من قبل لدى والده الخليفة أبي يعقوب يوسف .

وكان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوماً عظيماً ، وكتب كثيراً من كتبه الفلسفية ، ومعظمها في تلخيص كتب أرسطو وشروحها ، وكتب كذلك كثيراً من الكتب الطبية ، ومعظمها تلخيص وشروح لكتب جالينوس . ومنها « شرح » لأرجوزة « الشيخ الرئيس ابن سينا » في الطب ، وكتب كذلك كتابه « الكليات » ، ليتناول فيه أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، مقابل التفاصيل الجزئية التي تناولها أستاذه العلامة الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر في كتابه « التيسير » . وهذا كله عدا ما كتبه في الأصول والفقه وعلم الكلام والحكمة والمنطق . وقد بلغت تصانيف ابن رشد في مختلف العلوم أكثر من سبعين كتاباً ، ورسالة اشتهرت كلها في المشرق والمغرب ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى اللاتينية ، ولاسيما شروحه لفلسفة أرسطو ، وهي التي جعلت لابن رشد أعظم مكانة في ميدان التفكير الأوربي .

وكان الخليفة يعقوب المنصور ، كأبيه عالماً متمكناً يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وكان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية ، ويعقد مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء ابن رشد وشروحه ، ولاسيما في علاقة الفلسفة بالدين ، وهو



الموضوع الذى كتب فيه ابن رشد فيما بعد رسالة « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ». وكان الفيلسوف يقضى معظم أوقاته عندئذ فى البلاط الموحدى ، حيثما كان الخليفة ، وكان المنصور يعظم الفيلسوف ويقدره ، إلى حد أنه كان يجلس إلى جانبه مباشرة ، ويتعدى بموضعه مواضع أشياخ الموحدين الأكابر . ومن الغريب أن يقال لنا إن ابن رشد ، بالرغم مما كان يحيط بمقامه العلمى من ضروب التوقير والتكريم ، لم يكن يتمتع بالمظهر اللائق بمكانته من حيث اللبس والتجمل . وقد وصفه لنا القاضى أبو مروان الباجى فى قوله « كان القاضى أبو الوليد ابن رشد حسن الرأى ذكياً ، رث البزة ، قوى النفس » .

وقد شاء القدر أن يُنكب الفيلسوف ، فى تلك الفترة التى نزل فيها المنصور بقرطبة . وكان ابن رشد قد عاد إلى الأندلس فى ركاب الخليفة ، ونزل بدار أسرته فى قرطبة . وكانت أسباب هذه النكبة فى الواقع تتجمع منذ بعيد . وكانت قد نشأت من قديم بين الفيلسوف وبين أهل قرطبة وحشة . « أحدثها أسباب الحسد » . وكان الحفاظ والطلبة والفقهاء الموحدون فضلاً عن ذلك ، ينتمون على ابن رشد آراءه ودراساته الجدلية والفلسفية ، وينتمون بالأخص منزله لدى الخليفة . ونحن نعرف ما كان يتمتع به أولئك الحفاظ والطلبة لدى الخليفة الموحدى من عظيم النفوذ ، ولا سيما وقد كانوا نصحاء ومستشاريه الروحيين . وكان كثير من هؤلاء وكثير من غيرهم من خصوم الفيلسوف ، يثنون حول آرائه ونظرياته دعابة مسمومة ، ويرمون بالمروق والخروج على أحكام الشريعة ، « وإيثاره فيها لحكم الطبيعة » . وكانت الفلاسفة ودراساتها بالرغم مما كان يتسم به البلاط الموحدى ، منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، من رعاية العلم والعلماء ، من الموضوعات المريبة المكروهة . وهكذا كان خصوم ابن رشد يجلدون فى صميم دراساته وكتاباته ، مواد اتهامهم . وأكثر من ذلك أنهم كانوا يبدسون عليه ألفاظاً وعبارات محرجة . ومن ذلك وصفه فى أحد شروحه « الزهرة » بأنها « أحد الآلهة » وقد جمع أولئك الخصوم مقالات وأوراق كثيرة منسوبة إلى الفيلسوف ، وحملوها إلى مراکش فى أوائل سنة ٥٩١ هـ ( ١١٩٤ م ) ، وحاولوا أن يرفعوها إلى الخليفة . ولكن المنصور كان يشغل عندئذ بالأهبة للعبور إلى الأندلس . ومن ثم فقد فشل الساعون فى مسعاهم ، واضطروا للعودة خائبين .

ويقول لنا ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » وهو فيما يرجع يتقل عن

ابن صاحب الصلاة: « فلما كان التلوم من المنصور بمدينة قرطبة، وامتد بها أمد الإقامة، وانبسط الناس من مجالس المذاكرة، تجددت للطالبين آمالهم، وقوى تألبهم، واسترسلهم، فأدلوا بتلك الألقبات، وأوضحوا ما احتججوه من شنيع الهفوات الماحية لأبي الوليد كثيراً من الحسنات، فقرئت بالمجالس، وتوولت أغراضها، ومعانيها وقواعدها ومبانيها، فخرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج، وربما ذيلها مكر الطالبين، فلم يمكن عند اجتماع الملاء إلا المدافعة عن شريعة الإسلام: ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء، وأغمد السيف بالتماس جميل الجزاء، وأمر طلبة مجلسه، وفقهاء دولته، بالحضور بجامع المسلمين، وتعريف الملاء بأنه مرق من الدين، وأنه استحق لعنة الضالين<sup>(١)</sup>.

ولم يكن الاتهام بالمروق مقصوراً على الفيلسوف، ولكنه شمل عدة من زملائه وتلاميذه ممن يشتغلون « بالحكمة وعلوم الأوائل ». وكان من هؤلاء أبو جعفر الذهبي، والفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهري المشهور بالأصولي، وأبو الربيع الكفيف، وأبو العباس الحافظ الشاعر. وأحضر ابن رشد، والفقيه أبو عبد الله المهري وحدهما إلى جامع قرطبة، وتوارى الباقيون. وتولى توجيه الاتهام إلى الفيلسوف وزميله، القاضي أبو عبد الله بن مروان، والخطيب أبو علي بن الحجاج: ولم يقل لنا صاحب « التكملة »، ماذا كان موقف ابن رشد، ولكن المرجح أنه قام بالرد على أسانيد متهميه:

وعلى أي حال فقد انتهى الأمر بإدانة الفيلسوف، وقضى الخليفة المنصور بمعاقبته بالنفي من قرطبة، واعتقاله ببلدة « أليسانة » أو « اللسانة »، الواقعة في جنوبها على مقربة من نهر شتيل. وكانت هذه البلدة منذ عصور منزل اليهود في هذه المنطقة من الأندلس: وكانت بالأخص مدينة غنية زاهرة أيام دولة بني باديس أصحاب غرناطة<sup>(٢)</sup>: وقيل في اختيارها لاعتقال الفيلسوف « إنه يُنسب في بني إسرائيل، ولأنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس ». وكان من الواضح أن الخليفة قد راعى في الاقتصار على عقوبة الفيلسوف بالنفي، منه

(١) التكملة لابن عبد الملك المراكشي المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطاني. ونقله إلينا صاحب البيان المغرب مع الاختصار ص ٢٠٢.

(٢) وهي بالإسبانية Lucena. راجع الإدريسي، وصف المغرب والأندلس (طبعة دوزي)



وحالته الصحية . وكان ابن رشد يومئذ قد تجاوز السبعين من عمره . وقضى على زملاء الفيلسوف الذين تقدم ذكرهم كذلك بالنفي إلى جهات أخرى ، وكان أبرزهم بعد ابن رشد ، هو إبراهيم الأصولي . وصودرت كتب الجميع ، وأمر بإحراقها أينما وجدت .

ولم يكتف البلاط الموحدى بتوقيع العقوبة المادية على المتهمين ، ولكنه رأى أن يقرنها بإعلان وجهة نظره ، وتبرير تصرفه ، فوجه المنصور كتاباً في هذا الموضوع ، من إنشاء كاتبه أبي عبد الله بن عياش ، إلى مراکش وغيرها من قواعد المغرب والأندلس . وإليك بعض ما جاء في هذا الكتاب المشهور ، الذى انفرد بتدوينه ابن عبد الملك صاحب « الذيل والتكملة » :

« وقد كان في سالف الدهر قوم ، خاضوا في بحور الأوهام ، وأقرّ لهم عواقبهم ، بشغوف عليهم في الإفهام ، حيث لاداعى يدعو للحى القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلتدوا في العالم صففاً ، ما لها من خلاق ، مسودة المعاني والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً ، ويشيدون فيها شواكل وطرقاً . ذلكم ما في الله خاتمهم للنار ، ويعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما ينرون . ونشأ منهم في هذه [ اللمحة ] البيضاء شياطين .. يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فلنهرم وما يفترون ، فكانوا عليها أضمر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله .. لأن الكتابي يجتهد في ضلال ، ويجد في كلال ، وهاؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم [ الغمومة ] والتخييل ، وبث عقاربهم في الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم ، على رجال كان الدهر قد سالمهم على شدة حروبهم ، وأغنى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شيء علماً .

« وما زلنا وصل الله كرامتكم ، نذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويدنيه . فلما أراد الله فضيحة عمايتهم ، وكشف غوايتهم ، وقف لبعضهم على كتب مسطورة من الضلال ، موجبة أخذ

كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشحٌ بكتاب الله ، وباطنها مصرحٌ بالإعراض عن الله ، لبس منها الإيمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم ، مزلة للإقدام ، وسمٌ يدب في باطن الإسلام ، وأسياف أهل الصليب دونها مقلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مقلولة ، فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيمهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وبهتانهم ، فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين ، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين ، نبذناهم في الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . وأبغضناهم في الله ، كما أننا نحب المؤمنين في الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن [ الله ] وعملت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعدت أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإجماع فلا . . في مجال ألسنتهم ، والإيقاظ [ بحجة ] من عقولهم ونصرتهم ، ولا كنهم رفعوا بموقف الحزى والهوى ، ثم طردوا عن رحمة الله ، ولوردوا لعادوا ، لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان ، حذركم من السموم السارية في الأبدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التي بها يُعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عثر منهم على مجرٍ في غلوائه ، عم عن سبيل الله استقامته واهتدائه ، فليُعاجل فيه بالتقييف والتعريف ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . أو لا يرد الذين حبطت أعمالهم ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون . . . والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب في صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم » (١) .

هذا كله فيما يتعلق بناحية التكفير ، وناحية العقيدة ، وهي التي اتخذت ذريعة لاتهام الفيلسوف وإدانتة . بيد أنه كانت ثمة أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . منها توثق صلاته بالسيد أبي يحيى أخى المنصور ووالى قرطبة ، وقد

(١) أورد ابن عبد الملك المراكشى نص هذا الكتاب الموحى في « الذيل والتكلة » في ترجمة ابن رشد ( المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطاني ) .



كان بين الأخوين موجدة وجفاء . ومنها أنه أى ابن رشد ، كان يجرى فى أحاديثه مع الخليفة على مخاطبته دائماً بقوله « تسمع يا أخى » وكان المنصور يُسرّ له هذه الحرّاة فى مخاطبته . ومنها أخيراً ، وهو ما يدخل فى باب العيب فى ذات الخليفة ، إن ابن رشد قال فى شرحه لكتاب الحيوان لأرسطاطاليس ما يأتى : « ورأيت الزرافة عند ملك البربر » مشيراً إلى المنصور ، وقد وجد ذلك مكتوباً بخطه (١) . فهذه الأسباب كلها قد اجتمعت لتبئى لخصوم الفيلسوف ومنهميه فرصة النيل منه ، وإقناع الخليفة بصحة مانسب إليه من تهمة المروق والإلحاد .

ولبث ابن رشد فى معتقله فى «اليسانة» زهاء ثلاثة أعوام . ثم إن جماعة من أكابر أهل إشبيلية ، خاطبوا المنصور فى شأن الفيلسوف وزملائه ، وتشفعوا لديه فى سبيل إقالتهم والعفو عنهم ، ونفوا بالأخص عن الفيلسوف تهمة المروق والزيف ، وشهدوا بحسن إيمانه وسلامة عقيدته . وثنى ابن رشد عن نفسه من جهة أخرى ، تهمة العيب فى حق المنصور ، بوصفه « ملك البربر » وقال إن صحة الوصف هى ملك « البرين » وإن ما وقع هو تحريف من الناسخ ، فاستجاب المنصور إلى شفاعتهم ، وعفا عن ابن رشد وزملائه ، وذلك فى سنة ٥٩٤ هـ .

وهكذا استرد الفيلسوف حظوته ومكانته فى البلاط الموحدى ، وعاد إلى مراکش ليلتحق ببلاط الخليفة : بيد أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفى فى التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ ( ١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ م ) ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره . ودفن ابن رشد أولاً فى مقبرة « باب تاغزوت » خارج مراکش ، ثم حمل منها بعد أشهر قلائل إلى قرطبة مسقط رأسه ، وموئل أسرته ، ودفن فى روضة آبائه بمقبرة ابن عباس (٢) .

تلك هى أدوار المأساة المشجية التى اقترنت بحياة فيلسوف من أعظم أقطاب التفكير الإسلامى والتفكير العالمى . ولقد تكررت هذه المأساة ، التى اتخذت صورة الاضطهاد الفكرى ، غير مرة فى ظل المرابطين ثم الموحدين ، وكانت مطاردة ابن رشد ومحاكمته ، بلا ريب وصمة فى عهد خليفة عظيم عالم كالخليفة

( ١ ) المعجب للمراكشى ص ١٧٤ و ١٧٥ .

( ٢ ) راجع فى نكبة ابن رشد « الذيل والتكلة » لعبد الملك المراكشى ( المخطوط المشار إليه ) ، والتكلة لابن الأبار فى ترجمته ( القاهرة ) رقم ١٤٩٧ .

المنصور . بيد أنها تكشف بالأخص عن روح التزمّت العميق التي كان يتسم بها التفكير الديني في عهد الموحدين .

— ٢ —

وكان الخليفة في تلك الأثناء يستكمل أهبة للغزوة المنشودة ، فلما تم له ما أراد من ذلك ، غادر قرطبة في قواته ، واخترق جبل الشارات ( سيرا مورينا ) ميمماً شطر طليطلة : فلما وصل إلى حدود قشتالة ، قصد إليه رسل ألفونسو الثامن في طلب المهادنة ، فصرفهم دون جواب ، وقد عقد العزم على اختراق أراضي قشتالة ، وغزوها وفقاً للخطة التي وضعها . ولما وصل إلى طليطلة ، سار إلى مكادة ، وضرب ما حوله من الأراضي دون أن ينال منها شيئاً ، ثم انعطف جنوباً نحو طليطلة وحاصرها ، وهناك علم أن ملك قشتالة قد حصل على عون زميله ملك أراجون ، وأنهما يرابطان بقواتهما عند قلعة مجريط<sup>(١)</sup> في انتظار الاشتباك مع الموحدين ، فتحول المنصور نحو مجريط بسرعة ، بعد أن خرب أراضي طليطلة ، مؤملاً أن يلتقي بالقوات النصرانية . ولما وصل إلى مجريط ، حاصرها بضعة أيام ، ولكن الملكين لم يكونا بها ، بل كانا قد انسحبا في معظم قواتهما إلى جبال وادي الرملة<sup>(٢)</sup> ، وتركوا في حصن مجريط قوة مختارة بقيادة دون دييولويث دي هارو ، وهو الذي كان قد لجأ إلى حصن الأرك يوم الموقعة : فدافع القشتاليون عن مجريط بشدة ، فغادرها المنصور عندئذ ، وسار ميمماً شطر قلعة هنارس (قلعة النهر) ثم وادي الحجارة ، وهو ينتسف الزروع ، ويخرب الضياع والقرى ، ولكن الموحدين لم يستطيعوا كذلك الاستيلاء على وادي الحجارة لمنعها . وخرجت حاميتها ، وفاجأت قافلة المتاع والعتاد والحدم ، فأوقعت بها ، واستطاعت أن تنزع منها بعض الأسلاب ، قبل أن يتداركها الموحدون ، ويردوا المغيرين على أعقابهم ، ويقتلوا عدداً منهم .

وفي اليوم التالي ، نظم الموحدون مظاهرة عسكرية ضخمة في ظاهر وادي الحجارة ، بدا فيها الجيش الموحدى بمختلف طوائفه وحشوده ، إظهاراً لقوتهم وإرهاباً للعدو ، وبعث المنصور من محله بتفاصيل الغزوة إلى مختلف الجهات .

---

(١) وهي التي غدا موقعها فيما بعد نواة لموقع مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة ، وتطور اسمها

العربي من مجريط Magerit إلى Madrid

(٢) جبال وادي الرملة هي بالإسبانية Quadarrama .

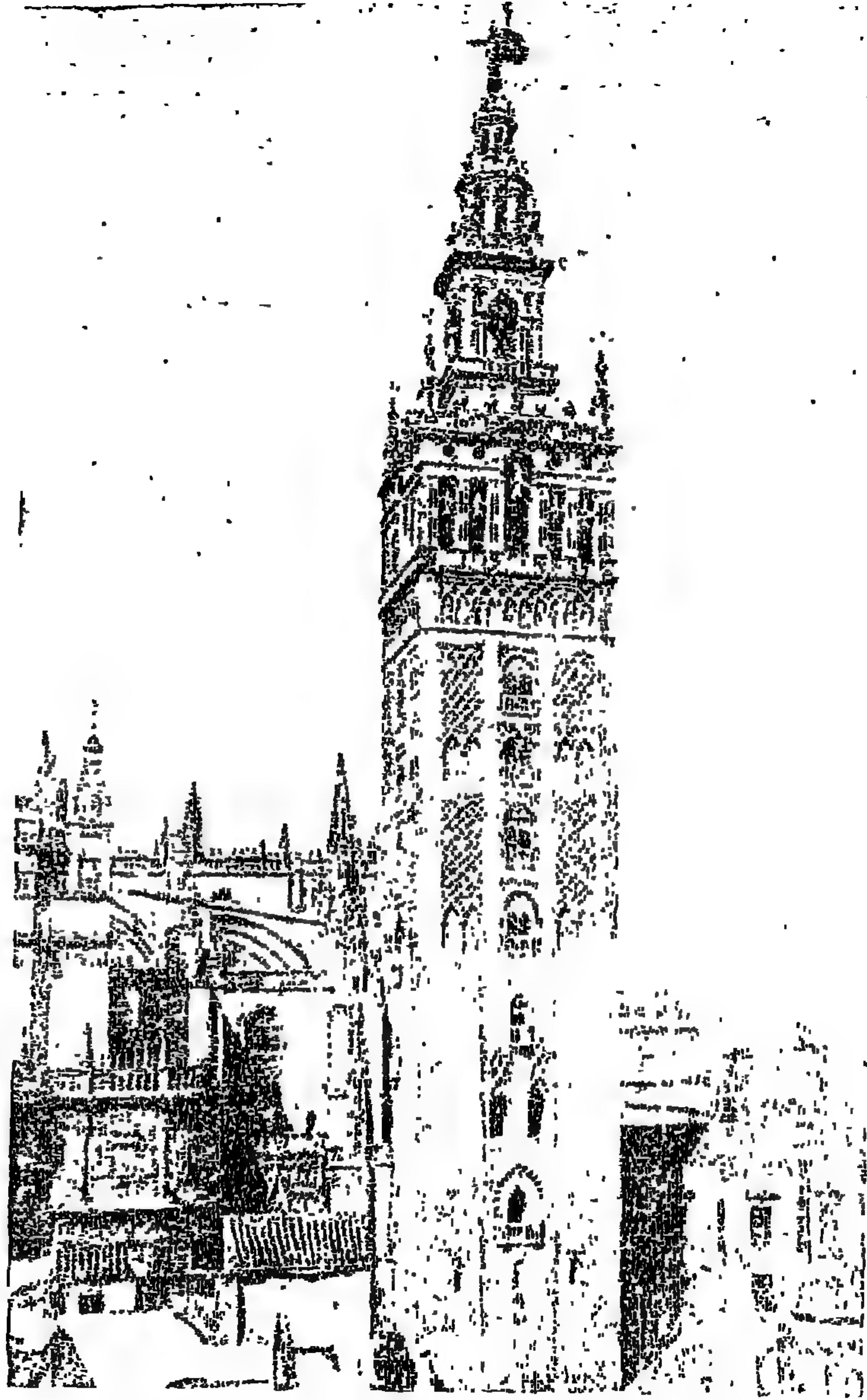


ثم أمر بالحركة والعود ، وسار بطريق وبذة . وهنا اتجه المنصور ، وفقاً للرواية النصرانية شرقاً نحو قوتقة وحاصرها ، ثم ارتد نحو أقليمش وسار منها جنوباً نحو الكرس وبيتاسه ، ووصل إلى قرطبة في أواخر رمضان سنة ٥٩٣ هـ ، ثم غادرها في الحال إلى إشبيلية ، فوصلها في يوم عيد الفطر ( أغسطس سنة ١١٩٧ م ) وذلك بعد أن أنفق في غزوته الثانية لأراضى قشتالة أربعة أشهر (١) .

وما كاد المنصور يستقر في إشبيلية ، حتى غنى بإتمام الأعمال الأخيرة لصومعة الجامع الأعظم ( المنارة ) وهي التي كان أبوه الخليفة أبو يعقوب يوسف ، قد أمر ببنائها قبل خروجه إلى غزوة شنتين في سنة ٥٨٠ هـ . وكان المنصور قد أمر بالمضي في إنشائها عقب توليه الخلافة . ووضع العريف أحمد بن باسئه أسسها لصق الجامع ثم تعطل البناء حيناً لعزل بعض العمال المختصين ، أو لغير ذلك من الأسباب . وفي سنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨ م ) بعد أن فرغ المنصور من غزواته بإفريقية ، أصدر أمره بإصلاح ما اختل من الجامع الأعظم وإتمام بناء صومعته . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو حسبنا أشرفنا من قبل غير مرة مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، أنه شرع في بناء الصومعة بالآجر الذي يؤخذ من سور قصر ابن عباد ، ودام العمل في ذلك أعواماً ، يجرى البناء فيها بصورة متقطعة ، فإذا حضر الخليفة إلى إشبيلية ، ضوعفت الهمة في البناء ، وإذا غادرها إلى الحضرة تعطل البناء ، ثم يُستأنف متى حضر . وكان الخليفة المنصور كأبيه الخليفة أبي يعقوب ، شغولاً بالبناء ، وكان وقت وجوده بإشبيلية ، يلزم في أوقات فراغه الإشراف على أعمال البناء بنفسه ، واستمر الأمر كذلك حتى عاد المنصور من موقعة الأرك مكللاً بغار الظفر ، وأصدر أوامره بمضاعفة الهمة لإتمام الصومعة ، ولما عاد إلى إشبيلية من غزوته الأخيرة ، كان بناء الصومعة قد تم ، ولم تبق سوى أعمال التجميل . وبالرغم من أن المنشآت الموحدية ، كانت حتى ذلك العهد تقتصر على مراعاة الروعة والمتانة ، ولا تميل إلى الزخرف والزينة ، فقد أصدر الخليفة أمره ، بأن تزود صومعة الجامع بتفانيحها الذهبية الشهيرة . وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هذه التفانيح ، ورفعها إلى أعلى المنارة ، في حفل كان من شهوده :

---

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . وراجع :  
Altamira : Historia de Espana; Vol. I. p. 364 .



صورة جامع المصور بإشبيلية المسماة لاخير الدا La Giralda



« فلما وصل أمير المؤمنين ، وهزم الله أذفونش الطاغية ، أمر رضى الله عنه في مدة إقامته بإشيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة ، الكبيرة الحرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الاسم والجسم ، فرفعت في منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون في إعلابها على رأيه ، وبلوغ وطره ، مركبة في عمود عظيم من الحديد مرسى أصله في بنيان أعلى الصومعة أعلاها ، زنة العمود مائة وأربعون ربعا من الحديد ، موثقاً هناك في تلاحك البنيان ، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح ، وصدمات الأمطار ، ما يطول التعجب من مقاومته وثباته . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى ، سبعة آلاف مثقال كباراً يعقوبية ، عملها الصباغ بين يدي أمير المؤمنين وحضوره . ولما اكملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان ليلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة ، بالتبكير عليها والتهليل ، حتى وصلت ورفعت بالمسندسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ، ووضعت في العمود ، وحصلت فيه ، وحصلت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضى الله عنه ، وبمحضر ابنة وولى عهده أبي عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضى وطلبة الحضر ، وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من شهر مارس العجمى عام أربعة وتسعين وخمس مائة ، ثم كشف عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز وشعاع رونقها »<sup>(١)</sup>.

ويضيف صاحب روض القرطاس إلى ما تقدم ، أن الذى قام بالإشراف على صنع هذه التفافيح الذهبية ، ورفعها إلى أعلى المنار ، هو المعلم أبو الليث الصقلى ، وأن هذه التفافيح قومت يومئذ بمائة ألف دينار من الذهب<sup>(٢)</sup>.

ونقول نحن ، إن هذه الصومعة أو المنارة العظيمة التى أمر بإنشائها الخليفة أبو يعقوب يوسف لجامع إشيلية الأعظم ، وأتمها ولده يعقوب المنصور ، وزودها بتفافيحها الذهبية الرائعة ، مازالت تقوم حتى يومنا ، وإن كانت قد فقدت تفافيحها الذهبية منذ بعيد ، وحولت طبقها العليا إلى برج للأجراس لكنيسة إشيلية

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة ( المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧١ ، اوب ) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥١ .

العظمى ، وهى التى قامت بدورها فوق أنقاض الجامع الأعظم . وهى تحمل اليوم اسمها الإشباني « لاخير الدا La Giralda » ، بيد أنها مازالت بالرغم من تحويلها إلى برج للأجراس ، تحتفظ بكثير من روحها الإسلامية القديمة ، ومازالت تعتبر من أعظم الآثار الأندلسية الباقية<sup>(١)</sup> .

ولما تم الاحتفال بإتمام صومعة الجامع الأعظم على هذا النحو انتقل المنصور إلى حصن الفرج ، وقضى به فصل الصيف ، وكان يؤثره لجمال موقعه ، وطيب هوائه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، فأقام بها أربعين يوما أخرى ، وعنى خلال هذه الفترة بتنظيم الشئون ، وتعيين الولاة والعمال ، فأسند ولاية إشبيلية إلى ولده السيد أبي زيد ، وولاية بطليوس وجهاتها إلى السيد أبي الربيع بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، وولاية منطقة الغرب إلى أبي عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، وندب العمال للنظر فى شئون الجباية فى مختلف الجهات ، ورتب الحاميات المختارة فى مختلف القواعد ، وأمر بتحصينها وإصلاح أسوارها<sup>(٢)</sup> .

وكانت الأحوال قد تطورت عندئذ فى مملكتى قشتالة وليون ، وأنشئ حلف جديد لمقاومة الموحدين بين قشتالة وأراجون ، وتقدم ملك أراجون بيدور الثانى لمعاونة حليفه ألفونسو الثامن ، وظهر أثر هذه المعاونة فى اجتماع القوات المتحالفة لمقاومة الموحدين فى منطقة وادى الحجارة ، حينما قام المنصور بغزوته الثانية لأراضى قشتالة . ومع أنه لم يقع بين الفريقين اشتباك ذو شأن ، فإن المنصور لم يغفل من حسابه أمر ذلك التكتل الجديد بين القوى النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان لذلك التطور أثره فى موقف ألفونسو التاسع ملك ليون حليف الموحدين . ذلك أنه كان قد غزا أراضى قشتالة بمعاونة قوة من الموحدين ، ووصل فى زحفه حتى مدينة كاريون ، وذلك فى نفس الوقت الذى غزا فيه الموحدون أراضى قشتالة من الجنوب . فلما انتهى الموحدون من غزوتهم ، وانسحبوا إلى الجنوب ، قامت قوة مشتركة من القشتاليين والأرجونيين بغزو مملكة ليون ، واخترقت أراضها حتى كويانسا ( بلنسية دى دون نخوان ) ، وحاصرت ملك ليون وحلفاءه الموحدين فى قاعدة بناقتى ، فالتزم ملك ليون الدفاع ، ولم يحاول

( ١ ) راجع تاريخ منارة المنصور ، وأوصافها القديمة والحالية فى كتاب « الآثار الأندلسية

الباقية » الطبعة الثانية ص ٥١ - ٥٦ .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .



أن يشتبك مع خصومه . ثم انسحب القشتاليون وحلفاؤهم من أراضي ليون مثقلين بالغنائم ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده وزال الخطر عن مملكة ليون . وقيل مغاردة المنصور لإشبيلية ، وفدت عليه رسل ملك قشتالة مرة أخرى في طلب المهادنة والسلم ، فرأى المنصور على ضوء هذه التطورات ، أن يجيبه إلى رغبته بشروط اشترطها ، وهو مما يصفه صاحب البيان المغرب بأن التهادن عقد وفقاً لشريعة الإسلام<sup>(١)</sup> . ومن جهة أخرى فإن ملك ليون ، بعد أن تخرج مركزه ، وأعلن البابا نفيه من الكنيسة ، باعتباره خارجاً على الدين ، وأذن لملك البرتغال بمحاربته متشجاً بالصفة الصليبية ، قصد بنفسه إلى إشبيلية ملتجئاً إلى المنصور ، وطالباً إليه معاونته بالهند والمال ، ولكنه لم يوفق في مسعاه هذه المرة ، نظراً لقيام التهادن والسلم بين الموحدين وبين مملكة قشتالة .

ولما انتهى المنصور من النظر في سائر الشئون ، أصدر أوامره بالتأهب للعودة إلى حضرة مراكش . ثم غادر إشبيلية في أواسط جمادى الأولى سنة ٥٩٤ هـ ( أواخر مارس سنة ١١٩٨ م ) وعبر البحر في غرة جمادى الثانية ، وقصد أولا إلى فاس ، فأقام بها نحو عشرين يوماً طلباً للراحة والاستجمام ، ثم غادرها إلى الحضرة ، فدخلها في شعبان سنة ٥٩٤ هـ .

استقر المنصور في حاضرتة ، وهو متعب منهوك القوى ، من جراء ما اضطلع به من الغزوات والأعمال مدى أربعة أعوام متوالية . وكان أول ما عني به هو أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر ، وكان قد اختاره لولاية عهده ، حينما اشتد به المرض في سنة ٥٨٧ هـ ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فبايعه سائر أشياخ الموحدين ، وأخذت له البيعة في سائر القواعد والجهات .

وكانت تصرفات الخليفة في هذه الفترة الأخيرة من حياته ، تصطبغ بنوع من التقى والورع . فمن ذلك أنه أمر أن يجمع الأطفال الأيتام ، وأن يُختنوا ، وأمر لكل منهم بثوب ودينار من الذهب ودرهم من الفضة وحنة من الفاكهة ، توضع في يده تخفيفاً لألمه . ويقول لنا المراكشي إن هذا الموسم لتختين اليتامى كان يقام كل عام<sup>(٢)</sup> .

---

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . ويقول المراكشي إن الهدنة عقدت بين الموحدين وملك قشتالة لمدة عشرين ( المعجب ص ١٦٠ ) .

( ٢ ) المعجب ص ١٦٢ .

ومن ذلك أنه أمر بتمييز اليهود بلباس خاص . ونحن نعرف أن السياسة الموحدية ، كانت منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، تجرى نحو الذميين على قاعدة التزمت وعدم التسامح ، وأن عبد المؤمن ، أمر في أواخر عهده بأن يعتنق النصراني واليهود والإسلام ، أو يغادروا الأراضي الموحدية ، وقرر الموت عقوبة للمخالفين . ولكن السياسة الموحدية جنحت من بعد عبد المؤمن إلى نوع من الاعتدال والتسامح ، فترك النصراني واليهود أحراراً يعيشون في البلاد الموحدية . وكانت النظرة إلى اليهود دائماً أكثر تزمناً وشدة منها إلى النصراني . وكان الذي حدا بالمنصور إلى تمييز لباسهم ، هو أنهم ازدهروا في عهده وتشبهوا بالمسلمين في اللباس ، وشاركوهم في مظاهرهم وأساليب حياتهم ، فرأى أن يفرض عليهم لباساً خاصاً يميزهم عن المسلمين . وكان هذا الزي عبارة عن قبص أزرق طوله ذراع وعرضه ذراع ، وبرنس أزرق ذو أكمام مفرطة السعة والطول ، وقلنسوة زرقاء يضعونها على الرأس مكان العمامة ، تصل إلى الأذنين . ويقول لنا المراكشي إن الذي حمل المنصور على هذا التصرف إزاء اليهود ، هو شكه في إسلامهم ، وأنه كان يقول لو صح عندي إسلامهم ، لتركهم يختلطون بالمسلمين في سائر أمورهم ، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرائعهم ، وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، لكنني متردد في أمرهم ، وهم يظهرون الإسلام ، ويغشون المساجد ، والله أعلم بما تكن وصدورهم . وصدر قرار المنصور بتمييز اليهود في أوائل سنة ٨٥٩٥ . وقد نظم ابن تغرالة زعيم اليهود المغاربة يومئذ ، وهو فيما يبدو سليل أسرة بني تغرالة أوبني النغريلي التي ازدهرت في غرناطة أيام باديس بن حبوس ، أرجوزة يتكلم فيها على هذا القرار ، وما فرضه من اللباس الأزرق ، ويواسي مواطنيه اليهود ، هذا مطلعها :

لبس ذا الأزرق ليس فيه خساراً فافهموا يا قوم هذه الإشارة  
ولما تولى الخلافة أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ولد المنصور ، استغاث به اليهود ، واستشفعوا لديه بكل من استطاعوا لإقالتهم من هذا الزي المرهق ، فأمر أن يستبدلوه بثياب صفراء وعمائم صفراء ، واستمروا على ذلك بقية عهد الموحدين<sup>(١)</sup> .

(١) المعجب ص ١٧٣ - والبيان المغرب القم الثالث ص ٢٠٥ ، ودائرة المعارف اليهودية : Vol. I. p. 433 .



ولم يمض قليل على ذلك حتى مرض المنصور مرضه الأخير ، وكان قد انتقل من الحضرة إلى صاحبة الصالحة الماكية التي كان قد أنشأها في بداية عهده ، ولما شعر بخطورة مرضه ، ودنو أجله ، استدعى شيوخ الموحدين ، ووجه أهل بيته ، وأعيان بلاطه : وقد وصف لنا صاحب البيان المغرب ، ما وقع في هذا المجلس الأخير للخليفة الراحل ، وما أوصى به أشياخ دولته وأهل بيته ، فقال إنه لما استقر المجلس بالحضور ، اتجه الخليفة إليهم ببصره ، وقد اغرورقت عيناه بالدمع ، فسألم عن أحوالهم وأعمالهم ، ثم قال : « أيها الناس رحمكم الله ، إن هذه العلل والأمراض قد توالى علينا ، وهدت قوانا ، وهتكت جوارحنا ، وأظن والله أعلم بغيبه أن هذه العلة هي آخر عهدنا بهذه الدنيا ، وأنها القاضية علينا ، فانظروا رحمكم الله ، وأعانكم على طاعته ، من تقدمون على أنفسكم وعلى رقاب المسلمين » .

قال ، فغلب البكاء على الحاضرين ، وتكلم أبو موسى بن محمد بن الشيخ أبي حفص بن علي ، وقال « كأنكم يا أمير المؤمنين يا سيدنا تخرسنا بهذا القول ، أنتم أمير المؤمنين ، فإن توفيتم فإلى رحمة الله تعالى ، والجميع صائرون ومنقلبون إلى ما تصيرون إليه ، وكنتم قلدتمونا عهدكم الكريم لسيدنا الأمير الأجل أبي عبد الله ابنكم ، فنحن باقون عليه ، إلى أن تلحق نفوسنا بنفوسكم ، وهو خليفتم علينا بعدكم » .

ثم تعاقب الحضور في الكلام ، وأبدى الخليفة لهم قلقه لصغر سن ولده ، وطلب إليهم أن يدعوا الله تعالى باليمن والإقبال ، فيما انعقدت عليه النية ، وأن يتولوه بمعونتهم ، ولا يتركوه لرأيه ، حتى ينتبه ، ويكمل عقله . ثم التفت إلى السيد أبي الحسن ، وأخيه السيد أبي زيد ، ابني السيد أبي حفص . وقال لهما لخير هذا البيت ، وإنه قد تمهما على الإخوان ، وعلى البلاد ، فليكونا على ما عهد منهما ، وعلى ما ربط لهما من قبل .

ثم أوصى الخليفة الحاضرين بالسادات ، وبعض الأشياخ ، وخص منهم بالذكر الشيخ أبا زكريا ، وأبا محمد عبد الواحد ، وأن يعتبر هذان الشيخان مستشارين لولده محمد ، لا يصدر إلا عن رأيهما ومشورتهما .

وقال الخليفة للحضور بعد ذلك وعيناه تذر فان الدمع ، أوصيكم بتقوى الله تعالى ، وبالأيتام واليتيمة . فسأله الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، يا سيدنا يا أمير المؤمنين ، ومن الأيتام واليتيمة ؟ قال اليتيمة جزيرة الأندلس . والأيتام سكانها المسلمون ، وإياكم الغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها ، وتربية أجنادها وتوفير رعيها ، ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا أعظم من ههما ، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى ، وحسن نظركم فيها ، فانظروا من المسلمين . وأجروا الشرائع على مناهجها .

وأوصى الخليفة أخيراً بالأغزاز (الغز) ومنحهم البركة التي أمر بها ، كما أوصى بملاطفة العرب والإحسان إليهم ، وشغلهم بالحركات ، وعدم تركهم للعطلة والراحة . وأوصى بطلبة الحضر ، وأن يكون لهم موضع خاص يشتغلون فيه بالذاكرة . وأوصى أخيراً ببعض أصحاب المناصب ، والعمال الذين أولاهم ثقته .

واختتم المنصور حديثه بالتوصية بقبائل الموحدين ووجوب مزاورتهم ، وسهام قبلا بعد قبيل . وكرر حديثه إلى الأشياخ بأن يحفظوا الأمانة التي ألقيت إلى أعناقهم ، وأن يجروا الشرائع على سننها ، وأن يحرصوا على اجتناب الباطل . ثم دعا للناس ، وانفض المجلس ، وانصرف الموحدون . وكان هذا آخر العهد به (١) .

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لما اشتد به المرض ، وشعر بدنو أجله ، قال لمن كان حوله من الأشياخ ، ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي ، إلا على ثلاث ، وددت أني لم أفعلها ، أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأنني أعلم أنهم أهل فساد ، والثانية بناء رباط الفتح ، أنفقت فيه من بيت المال ، وهو بعد لا يعمر ، والثالثة إطلاق أسارى الأرك ، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم (٢) .

وفي ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٨٥٩٥ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩ م) ، توفي الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور بقصره بالصالحية (٣) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٦ - ٢٠٩ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٢ .

(٣) ويقول لنا صاحب روض القرطاس إنه توفي بقصبة مراکش (ص ١٥٢) وفي رواية أنه توفي في غرة جمادى الأولى سنة ٨٥٩٥ ، وفي أخرى أنه توفي غرة صفر (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣١) ويقول ابن الأثير إنه توفي ثامن عشر ربيع الآخر ، وأن وفاته كانت بمدينة سلا (ج ١٢ ص ٥٧) .



ودفن مؤقتاً بمجلسه بالقصر ، وكتبت وفاته حيناً ، ثم نقل رفاته إلى تينملل ،  
ودفن بها ، وثارت حول اختفائه بعض الروايات والأساطير ، فزعم البعض  
أنه ترك الملك وأضحى مرابطاً بالأندلس ، وزعم آخرون أنه تزهد وساح  
في البلاد ، وقصد المشرق ومات خاملاً ، ودفن بالشام ، إلى غير ذلك<sup>(١)</sup> .  
وبوفاة المنصور ينتهم عهد من ألع عهود الدولة الموحدية .

— ٤ —

كان الخليفة يعقوب المنصور أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، إذا استثنينا  
جده عبد المؤمن ، مؤسس الدولة وموطد دعائمها . وفي ظله بلغت الدولة  
الموحدية أوج قوتها وعظمتها ، وظهرت على يديه روعة الملك وفخامته ، في  
أبهى حللها .

ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « نجم بني عبد المؤمن » وهي كلمة قوية بجامعة<sup>(٢)</sup> .  
وتشيد الرواية الإسلامية بخلال المنصور ، وتفيض في استعراض مآثره ،  
وامتداح تصرفاته وسياسته ، سواء من الناحية الداخلية أو من الناحية الخارجية ،  
وتشيد بنوع خاص بغيرته في الجهاد ، وتفانيه في الذود عن قضية الإسلام  
بالأندلس ، ومن ثم كانت عنايته بتنظيم الجيش وتنميته ، وشحنه بالفرق الجديدة  
من الفرسان والرجالة ، ونزويده بمؤن العتاد والسلاح ، والإنفاق عليه بسعة  
وسخاء ، وإعدادة للجهاد بصفة مستمرة . وكان يعنى بتوفير أرزاق الجند ، ومنحها  
في مواعيدها المقررة . وكان نظام العطاء في الجيش ، أن يمنح الجند الموحدون  
العطاء ، ( الجامكية ) ثلاث مرات في العام بصورة منتظمة ، مرة في كل أربعة  
أشهر ، ويمنح الجند الغز أو الأغزاز ، وكذلك العرب عطاءهم كل شهر . وكان  
رأى المنصور في اختصاص الأجناد الغز والعرب بهذه المزية ، هو أن الموحدين  
من أهل البلاد الأصليين ولهم بها الإقطاع والأموال الكثيرة . أما الغز والعرب ،  
فهم غرباء لا شيء لهم في البلاد يعتمدون عليه سوى هذا العطاء الرسمي المنظم<sup>(٣)</sup> .  
وكان لهذه العناية بتوفير أعطية الجيش أثرها القوي في رفع همم الجند ، وشحن

( ١ ) البيان المغرب ص ٢١١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢١ .

( ٢ ) ابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة أبي يعقوب يوسف ( مخطوط الإسكوريال انساب  
الذكر - لوحة ٣٩٥ ) .

( ٣ ) المراكشي في المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٨ .

الرغبة في الجهاد . والواقع أن الجهاد هو ألمع ما في حياة المنصور العامة ، وقد أسبغت عليه غزواته الموقفة للمالك النصرانية في شبه الجزيرة ، ولاسيما انتصاره الباهر في موقعه الأرك ، على شخصه وعلى جهاده ، هالة من العظمة والحلال غلبت على كل خلاله ومناقبه الأخرى ؛

وقد رأينا المنصور منذ بداية حكمه ملكاً حازماً . يعمل على إقامة العدل وتوطيد أسسه ، والنظر في الأحكام بنفسه ، ومراقبة أعمال الولاية والعمال ، ومحاسبتهم ، ومطاردة من ينحرف منهم عن جادة الحق والعدل وعزله ، ثم رأيناه ملكاً مصلحاً ، يضطرم بروح إنشائية قوية ، ويعنى بإقامة المنشآت العظيمة ، من مدن وحصون وجواميع وغيرها ، سواء بالمغرب أو الأندلس .

وأول ما تشدد به الرواية من صفات المنصور هو ورعه وتقواه ، والالتزامه أحكام الشريعة وسننها ، ومحاولة تطبيقها على حقيقتها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود ، حتى في أهله ، وعشيرته الأقربين ، وكان مثل جده عبد المؤمن يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، ويأمر بالمناداة عليها ، ويعاقب على تركها ، وكان يشدد كذلك في إقامة الحدود ، ويذهب في ذلك أحياناً إلى حدود بعيدة ، حتى قيل إنه عاقب على شرب الخمر بالقتل ، وأمر بقتل بعض العمال الذين تشكو الرعية منهم<sup>(١)</sup> .

وقد كان للمنصور من الناحية الدينية موقف خاص ، يمكن أن يوصف بأنه انقلاب في ميدان المذهب والعقيدة في الدواة الموحدية ، فهو أولاً قد طارد علم الفروع ، أعنى دراسة تفاصيل العبادات والمعاملات . وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي في سائر البلاد مثل مدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب ، وأمر الناس بترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فيه ، وأنذر من يفعل ذلك بشديد العقاب ، وأمر جماعة من العلماء المحدثين يجمع أحاديث من المصنفات العشرة في الصلاة وما يتعلق بها على نحو المجموعة التي جمعها ابن تومرت في الطهارة ، وذاع هذا المجموع في المغرب ، وأقبل الناس على حفظه . وكان قصد المنصور من ذلك أن يحو

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٨ ، و ٤٣٣ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، والبيان المغرب

القسم الثالث ص ٢٠٥ ، والمقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٦ .



مذهب مالك وأن يزيله من المغرب<sup>(١)</sup>. وكان المنصور أيضاً من أشد دعاة المذهب الظاهري ، وهذا المذهب الذي اشتهر على يد الفيلسوف ابن حزم القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري ، يرجع إلى القرن الثالث ، ومؤسسه هو خلف ابن داود الأصفهاني المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، وقد وضع أسسه في نحو منتصف القرن الثالث ، وخلاصتها أنه يجب في صوغ أحكام الشريعة أن يُرجع فقط إلى ظاهر القرآن والسنة أي الحديث ، وألا يُؤخذ في ذلك بالرأي أو القياس ، وأن يبقى الإجماع محصوراً في إجماع صحابة رسول الله : ويبدى ابن حزم لإمام المذهب الظاهري بالأندلس تشدداً في تطبيقه على العقائد ، وهو لا يأخذ في تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين في صوغ الأحكام . وقد حمل الخليفة المنصور الناس على اعتناق المذهب الظاهري ، والتزام الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث . وكان المنصور يشكو من تعدد الآراء والأحكام المذهبية في المسألة الواحدة ، ويرى أن الأخذ بالمذهب الظاهري يحسم كثيراً من هذه الخلافات . ونستطيع القول إن المذهب الظاهري ، غداً هو للمذهب الرسمي في عهد المنصور ، وعظم أمر الظاهرية ، وانتشروا بالمغرب ، وكانوا يسمون بالحزمية نسبة إلى الفيلسوف ابن حزم عميد المذهب . وكان المنصور يجعل ابن حزم ، ويرتفع به ويعلمه إلى أسمى مكانة . ومما يذكر في هذا الصدد ، ما يروى ، من أن المنصور ، مر في عودته من غزوه لأراضي البرتغال في سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، بشمال مدينة ولبة ، حيث توجد قرية منت ليشم ، وهي بلد بني حزم ، وبها قبر العلامة ابن حزم ، فوقف المنصور على قبره ، وهو يقول عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ؛ ثم قال « إن كل العلماء عيال على ابن حزم »<sup>(٢)</sup> . ويقول لنا ابن الأثير إن المنصور عين في أواخر أيامه قضاة من الشافعية . وقد كان الجناح إلى مذهب الظاهرية ، فيما يذكر لنا المراكشي من صفات أبيه الخليفة أبي يعقوب يوسف ، وجده الخليفة الفقيه العالم عبد المؤمن بن علي ، إلا أنهم ما لم يفصحوا عن هذا الاتجاه بشكل ظاهر ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ ، والتكلة لابن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٣ . وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٢ ، والنويري طبعة جبار ريمبرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٢٧٧ .

(٢) المقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ١٦٢ . وما زالت هذه القرية التي دفن بها العلامة الأندي الكبير ، قائمة حتى يومنا ، وهي تسمى اليوم باسمها الحديث «كاسا مونتيخو» Casa Montejo .

إذ كانت الدولة الموحدية ما تزال في بدايتها ، وكانت عقيدة التوحيد تملو على كل ما عداها . وكان من آثار هذا الاتجاه أن ازدهر علم الحديث في عهد المنصور ، وحظى طلابه بمنتهى التشجيع والرعاية<sup>(١)</sup> .

ومن جهة أخرى فإنه يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن المنصور لم يكن من الغلاة في تصوير إمامة المهدي ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، وهو اتجاه تبلور فيما بعد ، واتخذ على يد خلفائه صورته العملية<sup>(٢)</sup> .

ومما يتصل بتق المنصور ، وورعه ، وحماسته الدينية ، ما ينسب إليه من أنه كان ينوى افتتاح مصر ، وضمها إلى الإمبراطورية الموحدية ، لأنها كانت في نظر الموحدين بلداً ينجح إلى البدع ، وتشيع فيه المنكرات : وقد نوه بمشروع المنصور هذا نحو مصر ، غير واحد من المؤرخين والرواة . فيقول لنا المراكشي ، وهو معاصر لعهد المنصور إنه قد بلغه عن غير واحد « أن المنصور صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق ، وأنه كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول ، نحن لإنشاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات »<sup>(٣)</sup> . ويفيض الرحالة ابن جبير ، وهو أيضاً معاصر المنصور ، في رحلته ، في الكلام عن هذه النية الموحدية في غزو مصر ، وصداها في مصر ذاتها ، ويبدأ حديثه بالحملة على أحوال البلاد الشرقية ، ولا سيما ما يقع ببلاد الحجاز من ظلم الحجاج وانتهاك أموالهم ، ويعرب عن أمله في أن تُقمع هذه البدع المحقة بالمسلمين « بسيوف الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين في إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته » .

ثم يقول ابن جبير في النديد بأحوال المشرق وضعف إسلامه : « ولتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات فيها ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية ، فأهواء وبدع ، وفرقة ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها ، كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه ، إلا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم أئمة العدل في هذا الزمان ، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان ، فعلى غير

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٦٤ .

(٣) المعجب ص ١٦٠ .



الطريقة ، يُعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلا ، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين ، الذي قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق .

وأهم من ذلك ما ينوه ابن جبير من صدى الدعوة الموحدية بمصر ، وانتشارها بصورة تدعو إلى الدهشة ، ومن أن أكثر أهل مصر ، بل كلهم « يرمزون بذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك إلى آثار حدثانية ، وقعت بأيدي بعضهم ، وأنثرت بأشياء من الكوائن . : ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صباحاً جلياً ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التي لا يمترون في إنجاز وعدّها : شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما مشافهة وسماعاً ، أمراً غريباً ، يدل على أن ذلك الأمر العزيز ، أمر الله الحق ، ودعوته الصديق . ونُحى إلينا أن بعض فقهاء البلاد المذكورة وزعمائها ، قد جبرّ خطباً أعدّها للقيام بين يدي سيدنا أمير المؤمنين ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير » (١) .

ونستطيع أن نربط بين هذه الأقوال التي يصف فيها ابن جبير صدى الدعوة الموحدية بمصر خلال مروره بها في سنة ٥٧٩ هـ ( ١١٨٣ م ) ، أعنى قبيل عهد المنصور بقليل ، وبين ما ذكره أبو القاسم المؤمن المصري في كتابه المسمى « بالأنساب في معرفة الأصحاب » ، ونقله البيهقي ، عن أصحاب المهدي بمصر ، فقد ذكر لنا من هؤلاء واحداً وخمسين رجلاً بأسمائهم ، وقال إنهم كانوا من أعيان بلادهم « وإنهم كانوا سامعين لقوله ، مجيبين لأمره ، مؤمنين به ، مختارين صحبته ، مؤثرين لحقه ، معظمين لحرمة » (٢) .

ويستخلص مما تقدم ، ومن أقوال ابن جبير خاصة ، أنه كانت توجد ثمة فكرة موحدية لغزو مصر ، وأن هذه الفكرة ترجع إلى ما قبل عهد المنصور ، وأنها ربما تبلورت في عهد المنصور ، واتخذت طابعاً قوياً ، وذلك لما أبداه

---

( ١ ) رحلة ابن جبير ( المنشورة بتناية الدكتور حسين نصار - القاهرة سنة ١٩٥٥ )

ص ٥٣ و ٥٤ .

( ٢ ) نقله البيهقي في « أخبار المهدي ابن تومرت » ص ٣٠ - ٣٢ .

المنصور من عزم وضخامة في أهباته العسكرية ، وما وفق إليه من انتصارات باهرة ضد النصارى في شبه الجزيرة الإسبانية ، ولا سيما في معركة الأرك العظيمة . وربما كان من بواعث هذه الفكرة ومشجعاتها ، مثل الفاطميين ، الذين ساروا من المغرب ، قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وغزوا مصر ، واستولوا عليها بأيسر أمر . ولكن شتان بين العصرين ، وشتان بين ما كانت عليه مصر وقت الفتح الفاطمي ، وما كانت عليه أيام الخليفة المنصور . بيد أننا لانستطيع مع ذلك ، أن نعتقد أن الموحدين كانوا يحتضنون مشروع غزو مصر بصورة جدية . وأكبر الظن أنها ربما كانت أمنية ، وربما كانت مثل هذه الأمنية ترجع إلى عصر المهدي ذاته ، فقد رأينا المهدي أثناء مقامه بثغر الإسكندرية يغضب لما رآه فيها من « البدع » ثم يقوم بها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى قيل بأنه خرج منها متفيا ، لما ترقب على دعايته من الشغب . بل قيل أكثر من ذلك ، وهو أن المهدي قال ذات يوم لبعض أصحابه فيما قال ووعدهم به ، وكانوا يجلسون تحت شجرة الخروب المواجهة لمسجد تينمليل : « ليصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر ، مستظلين بهذه الشجرة ، قاعدين تحتها » (١) كذلك يلوح لنا أن ما يذكره ابن جبير عن انتشار فكرة الغزو الموحدى بمصر ، وما كان يهمس به الناس من ذلك الأمر ، إنما هو مبالغة ترجع إلى ولاء ابن جبير للدولة الموحدية ، التي خدم في ظلها وتمتع برعايتها ، والأغلب أن ابن جبير تلقى أخباره من بعض الغلاة الهائمين من أتباع المهدي وأنصاره بمصر ، فصورها على أنها تعبر عن اتجاه أغلبية الأمة المصرية ، وهو ما يعتبر في نظرنا من ضروب الوهم المغرق .

ولاشك أن الموحدين ، وفي مقلعتهم الخليفة المنصور ، كانوا يعرفون ما كانت عليه قوة مصر في ذلك العهد ، التي نعمت فيه بقيادة الملك الناصر صلاح الدين ، وما أحرزته بقواتها العسكرية الضخمة البرية والبحرية ، من انتصارات باهرة على الصليبيين ، فلم يكن من المعقول أن يفكروا في غزو مثل هذه الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ، التي تحطمت على صخرة قوتها الراجحة حملات الصليبيين المتوالية ؛ ومن جهة أخرى ، فإن قصور الموحدين في هذا الوقت بالذات عن القضاء على ثورة بني غانية في إفريقية بصورة حاسمة ، واستمرار هذه الثورة العتيدة ، أيام المنصور ومن بعده أعواما طويلة ، يقطع بأن فكرة

(١) المراكشي في المعجب ص ١٦٤ .



غزو مصر، إن كانت، لم تكن لدى الموحدين سوى أمنية خيالية بعيدة المنال . وكان المنصور عالماً مستنيراً، متقناً للحديث والفقه واللغة، مشاركاً في كثير من العلوم، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين، وقد أشرنا من قبل إلى شغفه بالحدل والمناقشات الفلسفية، وما كان يعقده من مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء الفيلسوف ابن رشد . وقد كانت نكبة الفيلسوف العظيم ونفيه إلى اليسانة من سقطاته البارزة، ولكن كان متأثراً في ذلك بضغط الفقهاء والطلبة الموحدين . وكان المنصور يعنى بأمر طلبة العلم أعنى علم الحديث، أعظم عناية، حتى نالوا على يديه من الرعاية والنفوذ ما لم ينالوه أيام أبيه وجده . وكان الموحدون يتبرمون بالطلبة، وبنقمون عليهم خطوتهم ونفوذهم لدى الخليفة، حتى اضطر المنصور ذات يوم، أن يصرح أمام سائر الموحدين، وقد بلغه موقفهم من الطلبة، « يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فن نابه منكم أمر فزع إلى قبيله، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم سوى، فهما نابههم أمر، فأنا ملجؤهم، وإلى فزعهم، وإلى ينتسبون . يقول المراكشي، فعظم من ذلك اليوم أمر الطلبة، وبالنسبة الموحدون في برهم وإكرامهم<sup>(١)</sup> .

وكان المنصور أديباً فصيحاً، جزل الألفاظ، وكان يجتمع حوله شعراء العصر من العدوتين، المغرب والأندلس، يصغى إلى مدائحهم، ويغمرهم بصلاته، وقد وضع له شاعره الأثير أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر<sup>(٢)</sup> . وانتشر هذا الديوان بين أهل المغرب انتشاراً عظيماً، وكان لديهم ككتاب الحماة لأبي تمام عند أهل المشرق، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى قصائد الجراوى ومدائحه للمنصور، وأبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف، فى مختلف المناسبات . وكان من شعراء دولته أيضاً أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مجبّر المرسى الأندلسى، وقد أشرنا إلى مدائحه كذلك من قبل غير مرة، وقد ذكر لنا ابن خلكان أن مدائح ابن مجبّر للمنصور جمعت فى ديوان، وأورد لنا منها قصيدة رقيقة فى مطلعها :

أتراه يترك الغزلا وعليه شب واكتهلا

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٨ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤، وروض القرطاس ص ١٤٢ .

كلف بالغيد ما عقلت نفسه السلوان مذ عقلا

وإلى جانب هذه الصفات العلمية والأدبية اللامعة ، كان المنصور جواداً ، وافر البذل ، كثير الصدقات ، وكان يقدر قيمة البذل في أسر النفوس وترويضها ، وكان يؤثر بصلاته الوفيرة أجناد الغز ( الأغزاز ) والعرب الذين ينضمون لجيشه ، استبقاء وتأكيذاً لولايتهم<sup>(١)</sup>.

هذا وأما عن كفاية المنصور ومواهبه الإدارية والإنشائية ، فإدنا من ذلك تفاصيل عديدة . فقد كان المنصور في الواقع من أقدر الخلفاء الموحدين في فهم شئون الدولة الإدارية وتنظيمها ، وكانت ولايته لوزارة أبيه مدرسة درس فيها هذه الشئون خير دراسة . وفيها « بحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاية والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور »<sup>(٢)</sup> . وقد رأينا سواه في المغرب أو الأندلس يعكف على معالجة شئون الدولة بهمة ، ويتقصى شئون الولاية والعمال . وكان يولى شئون الأندلس في ذلك عناية خاصة ، ففي كل مرة يعبر فيها إلى شبه الجزيرة ، يعنى إلى جانب أهباته للغزو ، بتنظيم شئونها الداخلية ، وفي سنة ٥٩٢ هـ ، نراه بعد ظفوره في معركة الأرك ، يعنى خلال إقامته بإشبيلية ، بمطاردة العمال المقصرين والمختلسين ومحاسبهم ، واستصفاء أموالهم ، كما يعنى بتعيين غيرهم من الخائزين لثقتهم . ثم هو في نفس الوقت يولى شئون الدولة المالية اهتماماً خاصاً ، ويندب لأعمال الحباية رجالاً من ذوى الأمانة والنزاهة . وكان من أهم مافعله المنصور في باب السياسة المالية ، هو تغييره للدينار الموحدى ، ومضاعفته لوزنه ، حسبما أشرنا إلى ذلك في موضعه .

وكذلك أبدى المنصور همة ظاهرة في إقامة المنشآت العمرانية العظيمة ، فأنشأ لأول عهده ضاحية الصالحة الملوكية في جنوبي مراكش ، فوق البسيط الممتد بين باب أنعمات شرقاً وباب الشريعة غرباً ، فجاء إنشاؤها دليلاً على ما كانت تجيش به نفسه من إظهار أبهة الملك وروعته ، على مثل ما كان عليه خلفاء الأندلس ، وعنى بتوسيع مدينة رباط الفتح ، التي كان قد اختطها جده فأبوه وتجديد قصبتها ، وإتمام أسوارها وأبوابها ، واستكمال أحيائها ومبانيها . وأنشأ

(١) المراكشى في المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٨ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، ونقله ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .



بها مسجداً عظيماً واسع الفناء ، يقول المراكشي بأنه كان أكبر مسجد في المغرب ، وأنشأ له صومعة متناهية في العلو « على هيئة منار الإسكندرية » يُصعد إليها بغير درج . ولكن هذا المسجد لم يتم إذ انقطع العمل فيه بوفاة المنصور<sup>(١)</sup> . ونريد نحن على ذلك بأن معالم المسجد المشار إليه ، وقواعد أعمدته مازالت قائمة في مكانها ، تدل على عظم مساحته ، وما زالت صومعته الشاهقة التي لم يكمل بناؤها قائمة في مكانها ، على مقربة من شاطئ المحيط ، وهي التي تعرف اليوم بمنارة حسان (تورحسان) ، وهي على نمط صومعة جامع إشبيلية الشهيرة (لاخيرالدا)<sup>(٢)</sup> .

يبد أن أهم منشآت المنصور في الحاضرة الموحدية — مراكش — كان هو البيمارستان (المستشفى) العظيم ، الذي كان أول صرح من نوعه حظيت به مراكش . وقد اختار لإقامته ساحة شاسعة ، وعنى بتخطيطه وبنائه أعظم عناية ، وغرست من حوله الحدائق ، وأجريت المياه إلى سائر أجنحته ، وزود بنفيس الأثاث والرياش ، ومختلف صنوف الأدوية ، وعين له رهط من مهرة الصيادلة لإعداد الأدوية على اختلاف أصنافها ، ورصدت الأموال اللازمة للإنفاق على المرضى ، وإطعامهم وكسائهم ، وكان المريض الفقير إذا تم شفاؤه ، زود عند خروجه بمال يعيش منه حتى يرزق بعمل ، وإن كان غنياً دُفع إليه ماله وترك شأنه ، وكان يؤم هذا المستشفى الكبير سائر المرضى من المحليين والغرباء ، وكان المنصور يركب إليه في كل جمعة بعد الصلاة ، ويعود المرضى ، ويسأل عن أحوالهم وحاجاتهم ، وكانت هذه المأثرة الإنسانية من أعظم مآثر المنصور وأخلاقها<sup>(٣)</sup> .

وأما عن منشآته بالأندلس فقد أشرنا إلى ما كان من إنشائه لحصن الفرج خارج مدينة إشبيلية ، وإنشاء قصوره وقبابه ، ثم إتمامه لصومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وهي التي كان أبوه قد أمر بإنشائها ، ولم تكمل في عهده ، فقام المنصور على إتمامها ، وتزويدها بتفانيها الذهبية حسبما أشرنا إليه في موضعه . وأنشأ المنصور في نفس الوقت بمدينة مراكش منارة الكتبية العظيمة على نسق صومعة جامع إشبيلية ، كما أنشأ بمدينة الرباط صومعة مسجدها على نفس الطراز ، وهي منارة حسان التي لم يكمل بناؤها ، حسبما تقدم . وقيل في شأن منارة الكتبية إنه بدئ بإنشائها في عهد جده الخليفة عبد المؤمن ، وقام هو بالعمل على إتمامها ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٠ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٦٢ .

وطبقاً لهذه الرواية تكون منارة الكتبية سابقة على صومعة إشبيلية ، وتكون هي أم هذا الطراز من الصوامع الموحدية ، وعلى أى حال فقد تم إنشاء الكتبية في سنة ٥٩٤ هـ ، قبيل وفاة المنصور بقليل<sup>(١)</sup> .

ووزر للخليفة المنصور في بداية أمره أخوه السيد أبو عبد الله . ثم خلفه في الوزارة أبو حفص عمر بن أبي زيد الهتائي ، ولما توفي خلفه أبو يحيى أبو بكر ابن عبد الله بن أبي حفص عمر الكبير ، واستمر في منصبه إلى أن قُتل في موقعة الأرك وهو يقود الصفوف . فتولى الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الشيخ أبي حفص ، وهو ابن عم أبي يحيى الشهيد المتقدم الذكر ، ولكنه لم يلبث في الوزارة سوى أيام يسيرة ، ثم تركها مختاراً وهام على وجهه في بعض نواحي إشبيلية ، وتزهّد ، فأرسل الخليفة إليه من استرده وأعفاه من الوزارة ، وخلفه في الوزارة أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهتائي ، فلم يزل في منصبه حتى توفي الخليفة المنصور ، فتولى الوزارة بتوصية الخليفة ، لابنه محمد الناصر مدى حين<sup>(٢)</sup> .

وكتب للمنصور عدة من أكابر الكتاب منهم أبو الفضل جعفر ابن محشرة من أهل مدينة بجاية ، وكان تلميذاً لأبي القاسم القالبي ، كاتب أبيه الخليفة أبي يعقوب ، وكان كاتباً مجيداً ، بارع الأسلوب ، واسع الرواية غزير الحفظ ، تشهد له بذلك رسائله العديدة التي انتهت إلينا ، واستمر في منصب الكتابة حتى توفي . فكتب من بعده للمنصور أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن عياش ، وهو أندلسي من أهل بُرْشانة من أعمال ألمرية ، واستمر في منصبه حتى توفي المنصور ، فكتب من بعده حيناً لابنه محمد الناصر ، ثم لحفيده يوسف : وكان من ألمع كتاب الدولة الموحدية وأبرعهم أسلوباً . وقد انتهت إلينا كذلك عدة من رسائله الصادرة عن الخليفة المنصور ، ومنها الرسالة التي وضعها في أهتمام ابن رشد وزملائه بالخروج على شريعة الإسلام ، وكلها تشهد بروعة بيانه<sup>(٣)</sup> .

(١) روى القرطاس ص ١٥١ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، والحلل الموشية ص ١٢١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٩ .

(٣) راجع في مجموعة الرسائل الموحدية الرسالة السادسة والعشرين إلى الرسالة الرابعة والثلاثين وهي جميعها من إنشاء ابن محشرة ، وراجع الرسائل الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وهي من إنشاء أبي عبد الله بن عياش .



وتولى القضاء في عهد المنصور ، أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة ، وكان يتولاه من قبل في عهد أبيه الخليفة أبي يعقوب ، ولما توفى خلفه في القضاء أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل وهران ، ثم عُزل وتولى القضاء من بعده أبو القاسم أحمد بن محمد من ولد بني بن مخلد فقيه الأندلس الأشهر ، واستمر في منصبه حتى وفاة المنصور ، ووقتا من عهد ولده محمد الناصر<sup>(١)</sup>.

وترك المنصور من الولد ستة عشر من الذكور ، هم محمد ولي عهده والخليفة من بعده ، وإبراهيم ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين . وقد تولى الخلافة منهم غير محمد ، اثنان آخران هما أبو محمد عبد الله العادل ، وأبو العلاء إدريس المأمون . وترك المنصور كذلك عدة من البنات .

هذا ، وأما عن شخص الخليفة يعقوب المنصور ، فقد وصفته الرواية المعاصرة ، بأنه كان شديد السمرة ، طويل القامة ، جميل الحيا ، أعين ، أفوه ، أقي الأنف ، شديد الكحل ، مستدير اللحية ، ضخيم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جزل الألفاظ<sup>(٢)</sup>.

تلك هي مآثر الخليفة الموحدى ، الظافر في معركة الأرك العظيمة ، وتلك هي صفاته وخلالله الوضاعة اللامعة .

---

(١) المعجب ص ١٤٩ .

(٢) المعجب ص ١٤٧ و ١٤٨ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

## الفصل الخامس

### عصر الخليفة محمد الناصر

جنوس الخليفة محمد الناصر. وزيره ومستشاروه. أعماله الأولى. أحوال إفريقية. استيلاء يحيى بن غانية على قابس. ابن عبد الكريم وظهوره. خلافه مع والي المهدية. القبض عليه ثم إطلاق سراحه. استيلاؤه على المهدية واستبداده بها. سيره لتزو تونس. اشتباكه مع الموحدين وهزيمتهم. لومه وعوده إلى المهدية. الخلاف بينه وبين يحيى الميورقي. استيلاؤه على قفصة. اشتباكه مع الميورقي. هزيمته والتجاء إلى المهدية. محاصرة الميورقي له. تسليمه للمهدية. قبض الميورقي عليه هو وولده ثم اغتيالهما. امتداد سلطان يحيى إلى معظم أنحاء إفريقية. سيره إلى باجة وانتحامها. سير الموحدين بقتاله. هزيمة الموحدين وسقوط محلتهم. سير يحيى إلى بكرة وانتحامها. عوده إلى المهدية. فتح البلاط الموحدى لحادث إفريقية. تجهيز حملة كبيرة لقتال الميورقي وتوقفها. ثورة أبي قسبة ببلاد تونس. سير الموحدين لقتاله. هزيمة الدعي ومقتله. وقوع الليل العظيم بإشبيلية. تأهب الموحدين لافتتاح الجزائر الشرقية. عبد الله بن إسحاق حاكم الجزائر. مسالته للدول النصرانية وتعاونها معها. انتراعه لمدينة ميورقة من الموحدين. إعداد الحملة الموحدية لافتتاح الجزائر. خروجها من دانية إلى يابسة ثم إلى ميورقة. استيلاء السفن الموحدية على منورقة. نزول الموحدين في ميورقة. القتال بينهم وبين عبد الله بن إسحاق. هزيمة عبد الله ومقتله. اقتحام الموحدين لمدينة ميورقة وافتتاحها. تعيين ابن طاع الله الكومي لولايتها. صدق هذا الفتح في أراجون والدول النصرانية الأخرى. تأثيره في خطط يحيى بن إسحاق. عزم يحيى على فتح تونس. سيره إليها في قواته. قطع اتصالاتها بالبحر ومحاصرتها. اقتحام يحيى لها. قبضه على واليها السيد أبي زيد وأولاده وأشياخ الموحدين. يحيى يفرض غرامة فادحة على تونس. خروجه إلى جبل نفوسة وتغريم أهله. وقع سقوط تونس في بلاط مراكش. انصار يعين ولاية الأندلس. عزمه على سحق الميورقي. سير الحملة الموحدية والأسطول الموحدى إلى إفريقية. حركات يحيى بن إسحاق في الجنوب. وصول الأسطول الموحدى. وصول الحملة الموحدية بقيادة الناصر. عودة يحيى إلى تونس. إرساله لأمواله وذخائره إلى المهدية. إخلاؤه لتونس ومسيره في قواته إلى قفصة. احتلال الموحدين لتونس. سير الحملة الموحدية في أثر الميورقي. تحصن الميورقي بحل دمر. تحصينه للمهدية. سير الناصر لمحاصرة المهدية. سير حملة موحدية بقيادة الشيخ أبي حفص إلى حل دمر. معركة دموية في رأس تاجرا. هزيمة الميورقي ومقتل أصحابه. فراره في فلوله. إنتفاذ السيد أبي زيد وصحبه. اشتداد المقاومة بالمهدية. المعارك المستمرة. طلب الغاني حاكم المهدية التسليم بالأمان. موافقة الناصر. خروجه من المهدية مع صحبه. دخوله في طاعة الموحدين. سحق بنى غانية وتحرير إفريقية. مثل بنى غانية في محاربة الموحدين. تحولها إلى سامرة في سبيل السلطان والثراء. مثالب حكومة الميورقي وأساليبها الممجية. بعض المحكومين لها. التحاء يحيى الميورقي إلى الصحراء الجنوبية. مطاردة الموحدين لنطوائف المفسدين. تعيين الشيخ ابن محمد عبد الواحد لولاية إفريقية. اعتذاره وشروطه للقبول. موافقة الناصر ومناذرته لتونس. سيره إلى تلمسان ثم إلى فاس. أعماله ومطاردته لعامل فاس ومكناسة.



مسيره إلى رباط الفتح ثم إلى مراکش . نظره في الأعمال السلطانية ومراجعتة لأعمال العمال . وفاة السيد أبي الربيع والى بحاية . تعيين السيد أبي عمران موسى والياً لتلمسان . عود يحيى الميورقي إلى الحركة . تحول بعض طوائف العرب عن مخالفتة إلى الموحدين . سير يحيى إلى الشمال . خروج الشيخ أبي محمد إلى لقائه . معركة تبيشة . هزيمة الميورقي وفراره . جمعه لقواته ومسيره غرباً صوب واحات سجلماسة . اقتحامه لسجلماسة ونهبها . اهتمام الموحدين في إفريقية ومراكش . عوده صوب تلمسان . مفاجأته لواليها السيد أبي عمران وقواته . هزيمة الموحدين ومصرع السيد وصحبه . اقتحام الميورقي لمدينة تاهرت . عيث الميورقي في أحواز تلمسان . إنجاد المدينة وتأمينها . سير حملة جديدة لمقاتلة الميورقي . ارتداده صوب طرابلس . عوده إلى الحركة . تضخم جيشه بالعرب والأغزاز . خروج الشيخ أبي محمد لقتاله . مسيره نحو جبل نفوسة . اشتباك الفريقين . هزيمة الميارقة وحلفائهم . مقتل أشياخ العرب . فرار يحيى وقله . عود القائد الظافر أبي محمد . كتابه إلى الخليفة بالفتح . معالجة الشيخ أبي محمد لشئون إفريقية . فضله في إخماد ثورة بني غانية . توطيده لسلطان الموحدين في إفريقية . التجاء سيراخي يحيى إلى الشيخ أبي محمد . أعمال الناصر وتعييناته للولاة والكتاب والقضاة . بعض حوادث المغرب في تلك الفترة . حريق مراكش . وفد المسلمين الصقليين إلى تونس . أحوال مسلمي صقلية منذ افتتاح النصاري للجزيرة . أقوال الرحالة ابن جبير عن ذلك .

لما توفي الخليفة يعقوب المنصور ، في ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ ( ٢٢ يناير سنة ١١٩٩ م ) ، خلفه في صباح اليوم التالي ولده أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر لدين الله ، وأخذت له البيعة العامة بعد ذلك بأسبوع في نهاية شهر ربيع الأول . ولم يعارضه أحد من الإخوة ولا العمومة . وكان المنصور قد اختاره لولاية عهده ، وعقد له البيعة بذلك في أواخر سنة ٥٨٧ هـ ، حينما دهمه المرض الشديد ، عقب عوده إلى المغرب ، من جوازه الأول إلى الأندلس . ثم أخذت له البيعة بعد ذلك في سائر أقطار المغرب والأندلس . وكان الخليفة الجديد حين جلوسه ، في نحو السابعة عشر من عمره ، إذ كان مولده في أواخر سنة ٥٧٦ هـ . ويقول لنا المراكشي إن أمه أم ولد رومية تدعى زهر . ولكن صاحب روض القرطاس ، يقول إن أمه بالعكس كانت حرة اسمها أمة الله ، وأنها ابنة السيد أبي إسحق بن عبد المؤمن<sup>(١)</sup> .

وتولى الوزارة للخليفة الجديد ، وزير أبيه أبو زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، وهو ابن أخي الشيخ أبي حفص<sup>(٢)</sup> ، وتولى مهمة الاستشارة والتوجيه ، الشيخ أبو زكريا وأخوه الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، ابنا الشيخ

(١) المعجب ص ١٧٥ ، وروض القرطاس ص ١٥٢ .

(٢) وقد ورد في بعض الروايات « أبو زيد بن يوجان » ( راجع رحلة التجاني ص ٣٦٣ ) .

أبي حفص عمر الهنتاتي ، وتولى رئاسة البيت المالك السيد أبو الحسن وأخوه السيد أبو زيد ، ابنا السيد أبي حفص عم الخليفة الراحل ، وذلك كله ، وفقاً لوصية المنصور في مرض موته حسبما أشرنا إليه من قبل .

وأقام الخليفة الجديد عقب ولايته بحضرة مراکش بضعة أسابيع ، حتى آخر شهر ربيع الثاني من سنة ٥٩٥ هـ ، وتمت البيعة خلال ذلك في سائر النواحي ، ووصلت إلى الحضرة ، وخرجت البركات للموحدين والأجناد كالعادة ، وقد تم الشعراء تهنيتهم بتجديد البيعة . ثم غادر الخليفة مراکش في أول شهر جمادى الأولى ، وقصد إلى مدينة فاس ، فأقام بها حتى نهاية هذا العام . وعنى الخليفة خلال ذلك بتصريف الشئون ، بمعاونة وزيره عبد الرحمن بن يوجان ، وكان في مقدمة المراسم الجديدة ، أن عين الخليفة السيد الحسن بن السيد أبي حفص والياً لبجاية وأعمالها ، وأمره بالرجال والأموال ليستطيع مواجهة الحوادث في تلك المنطقة المضطربة ، وعين أخاه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور والياً على إشبيلية مكان أخيه السيد أبي زيد<sup>(١)</sup> .

وكانت الأحوال في إفريقية قد ساءت في أواخر عهد المنصور ، ولا سيما حين شغل بأمر الجهاد في الأندلس ، ولم تسعف الظروف حين عودته بعد ذلك إلى المغرب ، ليعنى بالنظر في شئون إفريقية ، وتدارك مآلها من الحوادث ، حيث فاجأه المرض وتوفي . فكان على ولده الخليفة الفتي محمد الناصر ، أن يواجه هذه الظروف ، وأن يقوم بتداركها .

وقد وصلنا فيما تقدم من سرد حوادث إفريقية ، إلى ظفر يحيى بن إسحاق ابن غانية الميورقي ، بخصمه شرف الدين قراقوش ، وفراره إلى الجبال ، وانتزاع طرابلس من يده نائبه . ولما تم ليحيى ما تقدم سار إلى قابس ، وكان نائب قراقوش قد غادرها على أثر هزيمة سيده ، ووجه إليها الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص وإلى تونس ، حافظاً من الموحدين يسمى ابن تفرجين . فقصد إليها يحيى بقواته ووجه إلى أهلها كتاباً ينذرهم فيه بالتسليم ، ويحذرهم من المخالفة ، ويحدد لهم ثلاثة أيام لإجابة مطلبه ، فلما انتهى هذا الأجل دون أية إجابة ، زحف

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٢ و ٢١٣ .



يجي على المدينة ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وقطع غابات النخيل القريبة منها ،  
إلا نخلة واحدة تركها للعبارة . فأذعن أهل المدينة إلى التسليم ، على أن يؤمنوا بهم  
ابن تفرجين ، ويُسمح له أن يغادر المدينة بأهله من طريق البحر ، فأوفى لهم يحيى  
بذلك ، وفرض على المدينة إتاوة قدرها ستون ألف دينار . وكتب كاتبه أبو محمد  
عبد البر بن فرسان كتاباً بهذا الفتح ، يشيد فيه بعود المدينة إلى الدعوة العباسية<sup>(١)</sup> .

وبينما كان الميورقي يتابع مغامراته ، ويعمل على توطيد سلطانه في بلاد  
الجريد ، إذ ظهر بإفريقية عامل مقلق جديد بثورة ابن عبد الكريم . وكان محمد  
ابن عبد الكريم الرجراجي هذا ، من زعماء الحند ، الذين امتازوا بالشجاعة  
والنجدة ، وأبوه جندي من أهل المهدية ، ينتمي إلى قبيلة كومية الموحدية . وكان  
قد ظهر في مقاتلة الأعراب وغيرهم من العناصر المشاغبة المفسدة ، واستطاع في  
كثير من المواطن أن يجمع شغبهم وضررهم ، بمن التف حول له من الحند والأنصار ،  
فلما قوى أمره ، وظهرت كفايته ، قدمه الوالي لتلك المهمة ، وأطلق يده في محاربة  
الخوارج والمعتدين ، فكان يطاردهم وينكل بهم ، ويقتل من يقتل ، ويعتقل  
من يعتقل ، فلا يطلقه إلا بعد دفع الأموال الكثيرة ، وإعطاء العهود المؤكدة  
على التزام الطاعة والسكينة .

فلما ولى الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص ، من قبل الخليفة المنصور ، على إفريقية ،  
قدم على المهدية ، أتاه أبا علي يونس بن أبي حفص ، فطالب ابن عبد الكريم  
أن يشركه فيما يغنمه من أموال الأعراب المخالفين ، فرفض ابن عبد الكريم تحقيق  
رغبته ، وطلب إليه أن يتركه على ما كان عليه الولاية من قبل . فقبض عليه أبو علي  
وأهانته ، وزجه إلى السجن ، فاستغاث ابن عبد الكريم بالشيخ أبي سعيد وإلى  
إفريقية فلم يسعفه . وحدث عندئذ أن اشتد عيث الأعراب بالساحل ، وكثرت  
الشكوى منهم ، وألح الناس على أبي علي أن يطلق ابن عبد الكريم ، فاضطر  
إلى إطلاقه خشية الفتنة ، ورد إليه منصبه وجنده ، وأمره بالعمل على كف  
عيث أولئك الأعراب . فخرج ابن عبد الكريم في صحبه ، وأقام محله في ظاهر  
المهدية ، وشكا إلى جنده ما لحقه من ظلم الوالي ، وتفاهم معهم على الغدر بأبي علي  
والاستيلاء على المدينة . ويقدم إلينا ابن الأثير تفسيراً آخر لتصرف ابن عبد الكريم ،  
خلاصته أن جماعة من عرب بني عوف نزلوا على مقربة من المهدية ، فخرج

(١) راجع رحلة التجاني ص ١٠٥ - ١٠٨ .

إليهم ابن عبد الكريم ، فخافوا وفروا تاركين عيالهم وأموالهم ، فاستولى ابن عبد الكريم على المال والعيال ، وسلم العيال وجزءاً من المال والأسلاب إلى الوالى واحتفظ بالباقي ، فسار رؤساء بني عوف إلى الشيخ أبي سعيد ، وقدموا بالطاعة ووجدوا واستغاثوا به ، أن يرد إليهم أموالهم وعيالهم ، فاستدعى ابن عبد الكريم وطالبه برد ما أخذ من أسلابهم ، فاعتذر ابن عبد الكريم بأن أعطاه إلى الجند ولا يستطيع رده . فأغلظ له الشيخ أبو سعيد القول ، وهم أن يبطش به ، فاستمهله حتى يعود إلى المهديّة ، ويحاول أن يسترد من الجند ما استطاع . فلما عاد إلى المهديّة ، نبأ صحبه بما حدث ، واتفق معهم على الوثوب بأبي على يونس . وعلى أى حال فقد نفذ ابن عبد الكريم مشروعه ، ودخل المدينة في أواخر الليل في ثلة مختارة من صحبه ، وبادر إلى قصر الوالى ونفذ إليه ، وقبض على أبي على ، وحبسه في موضع من القصر ، ولم يطلقه إلا بعد أن وصل فداؤه من قبل أخيه الشيخ أبي سعيد ، فارتد إلى أخيه مخدولاً ، وبسط ابن عبد الكريم بذلك حكمه على المهديّة ، وكان استيلاؤه عليها في شهر شعبان سنة ٥٩٥ هـ<sup>(١)</sup> ، لأشهر قلائل من ولاية الناصر .

واستبد ابن عبد الكريم بحكم المهديّة ، وتسمى « المتوكل على الله » ، واستفحل أمره . وفي تلك الأثناء وصل السيد أبو زيد ابن السيد أبي حفص من قبل الناصر والياً على إفريقية ، مكان الشيخ أبي سعيد ، ومعه جماعة من الأسيّاح والأجناد . فاعتزم ابن عبد الكريم أن يحاصره بتونس ، قبل أن يستعد لقتاله ، فسار إلى جهة قرطاجنة وعسكر عند مدخل البحر إلى البحيرة ، فسير السيد أبو زيد السفن في البحر ، والجند في البر لقتاله ، وكان ابن عبد الكريم قد رتب كمائنه في بعض المواضع ، فلما أقبل إليها الموحدون ، خرجت عليهم تلك الكمائن ، فأوقعت بهم الهزيمة وفتكت بمعظمهم ، وانتشر عسكر ابن عبد الكريم في أحواز تونس ، وعاثوا فيها نهياً . وعندئذ بعث السيد أبو زيد والشيخ أبو سعيد إلى ابن عبد الكريم ، أسيّاحاً من الموحدين يسوقون إليه اللوم ، ويذكرونه بانتمائه إلى الموحدين ، وأن ما يفعله مروق ونكران لا يليق به ، وأنه من الخير أن يعود إلى طائفته ، فوعدهم ابن عبد الكريم خيراً ، ثم عاد إلى المهديّة .

وكانت قد حدثت في تلك الأثناء وحشة بين ابن عبد الكريم ، ويحيى الميورفي

(١) رحلة التيجاني ص ٣٥٠ - ٣٥٢ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ .



لما دب بينهما من عوامل التنافس والحسد ، وفكر ابن عبد الكريم في محاربته ومحاصرته ، وهو يومئذ بقابس ، فاستخلف على المهديّة ولده عبد الله وسار إلى قابس ، ولكنه لما أشرف عليها بجموعه هالته منعها ، فارتد منها إلى قفصة واستولى عليها . وعندئذ خرج الميورقي من قابس لمطاردته ومحاربته ، فخرج ابن عبد الكريم بقواته من قفصة ، والتقى الفريقان في مكان يعرف بقصور لالة ، فهزم ابن عبد الكريم ، وفر إلى المهديّة ناحياً بنفسه ، وتبعه إليها من نجا من فلوله ، واحتوى الميورقي على معسكره وجميع أسلابه . وكان ذلك في بداية سنة ٨٥٩٧ .

وأراد الميورقي أن يقضي نهائياً على خصمه ، وأن ينتزع منه المهديّة ، فبعث إلى السيد أبي زيد بتونس يسأله المهادنة والسلام ، ويطلب منه أن يعينه بعدة سفن يستطيع بها محاصرة المهديّة من البحر ، والقضاء على ابن عبد الكريم . وكان السيد أبو زيد يتوق إلى التخلص من هذا التأثير الذي استفحل أمره ، فبعث إلى الميورقي سفينتين ، فعندئذ أدرك ابن عبد الكريم أنه لا مفر من التسليم ، وبعث إلى الميورقي ولده عبد الله يعرض التسليم على أن يؤمن في نفسه وماله ، فأجابه الميورقي إلى ذلك ، وخرج ابن عبد الكريم وولده من المهديّة وتوجها إلى الميورقي للسلام عليه ، فلما رأهما أمر في الحال بالقبض عليهما متفرقين ، واستولى على المهديّة وعلى سائر ما كان بها لابن عبد الكريم من الأموال والذخائر . ثم زج بابن عبد الكريم وولده إلى السجن ولم تمض أيام قلائل حتى أخرج ابن عبد الكريم ميتاً من سجنه ، ثم أخرج ولده عبد الله وحمل إلى السفينة ، بزعم إرساله إلى ميورقة ، ولكن السفينة ما كادت تصل إلى مقربة من قسنطينة ، حتى ألقي به مكبولا إلى البحر ، فابتلعه المياه<sup>(١)</sup> .

وهكذا بسط يحيى بن إسحاق الميورقي حكمه على سائر إفريقية ، ما عدا شاطئها الشمالي ، واستولى على سائر قواعدها ، طرابلس وقابس وصفاقس والمهديّة والقيروان وسائر بلاد الجريد ، ووصلت دعوته إلى بونة ولم يبق بيد الموحدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة ، وقد أصبحت كذلك في خطر السقوط . وبينما كان السيد أبو زيد والي إفريقية ، ما يزال يعتقد أن الميورقي يرغب حقاً في السلم ، وأنه ينوي أن يضع حداً لأعماله العدائية ، إذا بالميورقي

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن رحلة التجاني ، وهي فيما يبدو أوثق الروايات عن هذه الحوادث ص ٣٥٢ - ٣٥٤ . وراجع ابن خلدون في كتاب البرج ٦ ص ١٩٤ و ١٩٥ ، وهو فيما يرجح ، ينقل عن التجاني .

يسير فجأة إلى بلدة باجة الواقعة غربي تونس ، وقد كانت من أخصب بلاد هذه المنطقة وأوفرها حنطة وطعاماً<sup>(١)</sup> ويقتحمها عنوة ، ويستولى عليها ، ويقتل حاكمها الموحدى على الفور . فبعث السيد أبو زيد في الحال جيشاً ، تحت إمرة أخيه السيد أبي الحسن وإلى بجاية ، لكي يعمل على إنقاذ باجة وحماية سكانها الذين عادوا إليها ، وكان الميورقي قد عاد لحصارها ، فلما علم بمقدم الموحدين ، رفع الحصار عن المدينة وسار للقاء خصومه ، وعسكر في موضع حصين بالقرب من قسنطينة ، وهناك أشرف عليه السيد أبو الحسن بجموعه ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها الموحدون ، واستولى الميورقي على معسكرهم وأسلابهم . وارتد أبو الحسن في بعض فلوله إلى بجاية وهو في أسوأ حال<sup>(٢)</sup> .

وكانت مدينة بسكرة التي استولى عليها الميورقي من قبل قد خلت طاعته ، وعادت إلى طاعة الموحدين ، فسار إليها يحيى ، واقتحمها عنوة ، وعاقب السكان على نكثهم ، بقطع أيدي الكثير منهم ، وقبض على عاملها الموحدى وزجه إلى السجن . ونحش أهل بونة أن يصيبهم ما أصاب أهل بسكرة ، فبعثوا إلى الميورقي بطاعتهم . ووقعت هذه الحوادث في سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) . وعاد يحيى بعد ذلك إلى المهدية فاستقر بها بعض الوقت<sup>(٣)</sup> .

وفي خلال ذلك كان البلاط الموحدى بمراكش يتتبع أنباء الحوادث في إفريقية بمنتهى الجزع ، ويحاول أن يجمع العدوان بالحملة المحلية المتواليه . فلما توالى فشل هذه المحاولات ، جهز الخليفة الناصر ، أوبالخرى مستشاروه من أشياخ الموحدين ، حملة كبيرة ندب لقيادتها الوزير ابن يوجان ، وسارت هذه الحملة إلى تلمسان ثم إلى بجاية ثم إلى قسنطينة ، ولكنها لم تقم بأية محاولة لمقاتلة الميورقي ، وعاد الوزير إلى تلمسان ، وهناك وصله الأمر بالنظر في أعمالها ، ثم ندب إلى ولاية فاس ، وأقام بها حتى ندبه الناصر للسير معه إلى إفريقية<sup>(٤)</sup> .

وكان هذا التردد في مطاردة الميورقي ، راجعاً إلى اضطراب ثورة جديدة في منطقة السوس . وذلك أن دعياً من أصل أندلسي ، ينتمى إلى قبيلة جزولة ،

(١) وهي طبعاً غير باجة بالأندلس . راجع الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١٦٠ .

(٢) المعجب ص ١٧٩ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ohania. p. 113.

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٤ ، والمعجب ص ١٧٩ . هذا وتراجع خريطة

إفريقية في ص ١٦٣ ، حيث وضعت بها سائر المواقع التي كانت مسرحاً لتلك المعارك المتواليه .



يسمى عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن القرس ، ويعرف بالمهر وبأبي قصبه ، كما يعرف عند البربر بما معناه « ابن الخزارة » ثار بالسوس . وكان هذا الدعي من طبقة العلماء بالأندلس . وحضر ذات يوم مجلس الخليفة يعقوب المنصور وبدرت منه بعض أقوال جدلية خشي عاقبتها ، فاختفى حيناً ، ثم ظهر بعد وفاة المنصور ، في السوس في منازل جزولة ، وانتحل الإمامة ، وادعى أنه « القطحاني » الذي ورد ذكره في الحديث ، بأنه لا تقوم الساعة ، حتى يخرج رجل من قطحان ، بقود الناس ، ويملا الأرض عدلاً كما ماثت جوراً ، ومما ينسب إليه في مصير بي عبد المؤمن شعر يقول فيه :

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن علي      تأهبوا لوقوع الحادث الجلل  
قد جاء سيد قطحان وعالمها      ومنهى القول والغلاب للدول

وذاعت دعوة أبي قصبه في أرجاء بلاد السوس ، والتفت حوله جموع غفيرة ، فبعث إليه بلاط مراکش عدة حملات صغيرة متوالية ، كان يهزمها تباعاً ، وأخيراً اضطر الناصر أن يجهز لقتاله حملة كبيرة من الموحدين والغز وغيرهم ، وسار الموحدون إلى بلاد السوس ، وأنذروا المصامدة وغيرهم من القبائل المجاورة ، بأن الدعي يعتمد على تسامحهم وتغافلهم ، وبذلك يقوى أمره ، ولو شاءوا لقضوا عليه ، فعند ذلك تحركت ، القبائل وانضمت إلى الجيش الموحدى القادم ، في مقاتلة الدعي ، فانفض عنه معظم جموعه ، وقتل منهم من وقف إلى جانبه ، وقُبض على الدعي وقتل ، واحتز رأسه ، وأرسل إلى مراکش ، وكان مصرع أبي قصبه وانهيار ثورته ، على هذا النحو سنة ٥٩٨ هـ ( ١٢٠٢ م ) (١) .

وكان من حوادث الأندلس في تلك الفترة أن عزل الناصر أخاه السيد أبامحمد عبدالله بن المنصور عن ولاية إشبيلية ، ولكنه عاد فاستبقاه في منصبه تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك في سنة ٥٩٧ هـ . وفي أوائل هذا العام بالذات ، وقع بإشبيلية حادث مفرع هو وقوع السيل العظيم ، الذي لم يسمع بمثله من قبل ، فاجتاح أجزاء كبيرة من سور المدينة ، ولاسيما ما بين باب طرّيانة وباب المؤذن ، وغمرت المياه المدينة بأسرها ، وسقط عدد كبير من دورها قيل إنه ستة آلاف ، وكان من رحمة القدر أن وقع هذا السيل ظهراً ، وكان وقوعه يوم الاثنين ١٩ من جمادى الأولى سنة ٥٩٧ هـ

(١) ابن خلدون في العبر ح ٦ ص ٢٤٦ و ٢٥٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٥ ، والمعجب ص ١٨٠ .

( ٢٦ مارس ١٢٠١ م ) واستمر ثلاثة أيام ، ولو حدث وقوعه بالليل لغرق آلاف من أهل المدينة . واجتاح هذا السيل وادى النهر الكبير كله من قرطبة إلى إشبيلية ، وحتى ثغر قادس ، ومات من جرائه الكثيرون غرقاً . وكان من أشنع الحوادث التي شهدتها إشبيلية من عهد طويل (١) .

وكان الخليفة الناصر ، وأشياخ الموحدين ، يتأهبون في نفس الوقت لمشروع ضخم ، هو افتتاح الجزائر الشرقية ( جزائر البليار ) . وكان استمرار يحيى ابن إسحاق الميورقي في عدوانه ، وتفاقم أمره في إفريقية ، وفشل الحملات الموحدية المتوالية في القضاء على سلطانه ، قد حمل البلاط الموحدي على أن يفكر في افتتاح ميورقة ، والقضاء على سلطان بني غانية فيها ، وضربهم بذلك في موطن قوتهم الأصلي ، ومصدر مواردهم وأمدادهم البحرية ، فيكون ذلك الفتح ذاته ، وسيلة لضرب سلطان يحيى الميورقي في إفريقية ، والتمهيد للقضاء على حركته .

وقد سبق أن فصلنا ظروف استيلاء بني غانية على الجزائر الشرقية ، وقيام حكمهم في ميورقة ، ومحاولة الخليفة أبي يعقوب يوسف أن يخضع عبيدهم إسحاق ابن غانية لسلطان الموحدين ، وما كان من إرساله سفيره علياً الربربري إلى ميورقة ، ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وإخفاق الربربري في مهمته ، ثم قيام علي بن إسحاق بافتتاح بجاية ، وبداية تلك الحركة المضطربة ، وتلك الحملات الخربة المتوالية ، التي قام بها بنو غانية في إفريقية ، واستيلائهم تباعاً على معظم قواعدها .

وكان على حكم ميورقة في ذلك الوقت الذي اشتدت فيه حركة يحيى بن إسحاق بإفريقية ، أخوه عبد الله بن إسحاق بن غانية . وقد سبق أن أشرنا إلى الظروف التي استطاع فيها عبد الله أن ينتزع حكم ميورقة من أخيه محمد بن إسحاق وذلك في سنة ٥٨٤ هـ ( ١١٨٨ م ) ، واستبد عبد الله بحكم ميورقة ، كبرى الجزائر ، وازدهرت في عهده ، واستمر على رياستها طوال هذه الأعوام دون منازع . وكان عبد الله ، يتبع سياسة أبيه إسحاق بن غانية في مسألة الدول النصرانية القريبة ،

---

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٤ . والذيل والتكلة لابن عبد الملك ( الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطاني ، في ترجمة محمد بن أحمد بن تمام المذري .



ولاسيما جنوة وبيزة ، ويعقد معها الصلات الودية ، وكان ذلك مما يساعد على رواج التجارة بين ميورقة وبين هذه الدول البحرية . وفي سنة ٥٩٤هـ ( ١١٩٨م ) عقد عبد الله مع جمهورية جنوة معاهدة صلح وتجارة لمدة عشرين عاما ، وذلك بواسطة نيقولا لاكانوتري سفير جنوة إلى ميورقة . وكان التجار النصارى في الجزيرة ، يعيشون في دعة وطمأنينة آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وتعاون جهودهم في ترويج تجارة الصادر والوارد بين الفريقين . وكان من الواضح أنه منذ اضطربت الحصومة بين بنى غانية والموحدين ، لم يكن في وسع الجزائر أن تعتمد في تموينها ومواردها الحيوية على الأندلس المعادية ، ومن ثم فقد كانت تسعى للحصول على مواردها من النصارى ، وكان هؤلاء يمدونها بالسفن والسلاح والدخائر ، مقابل الحبوب ومنتجات الجزيرة الأخرى . ومن جهة أخرى ، فقد كان النصارى يحنون ثمار هذه الصلات الودية مع ميورقة ، وذلك بامتناع عبد الله عن الإغارة على شواطئهم . على أن عبد الله كان ما يزال ينظم غاراته البحرية على شواطئ الدول التي لم يكن يرتبط معها بعهود الصداقة والمودة ، مثل فرنسا ، وكانت هذه الغارات ، توطد من مكانته لدى شعبه وتزيد في ثرائه . وبالرغم من أن عبد الله لم يكن في وسعه دائماً ، أن يمد أخاه يحيى بالسفن والجنود ، في مغامراته الإفريقية ، فإن ميورقة كانت تعتبر مع ذلك بالنسبة لبنى غانية ، مركزهم الرئيسي وموطن قوتهم الحقيقية<sup>(١)</sup> .

كانت هذه أحوال ميورقة ، حينما وصلت غزوات يحيى بن غانية للثغور الإفريقية إلى ذروتها ، وحينما اعتزم البلاط الموحدى أن ينفذ مشروعه لغزو ميورقة ، كوسيلة لضرب بنى غانية في صميم مشوى قوتهم وسلطانهم . وكان الموحدون يرون أنه متى سقطت ميورقة في أيديهم ، فإنهم يستطيعون عندئذ أن يفرغوا لمطاردة يحيى بن غانية والقضاء على سلطانه في إفريقية ، دون أن يكون أمامه ملاذاً وملجأ أخيراً يتجه إليه .

وبذل الخليفة الناصر وأعوانه من أشياخ الموحدين جهوداً مضاعفة لإعداد حملة بحرية عظيمة توجه لغزو ميورقة . وفي تلك الأثناء ، وقبل أن يتم إعداد الحملة ، عمده عبد الله بن إسحاق بن غانية إلى مهاجمة جزيرة يابسة الواقعة جنوب

---

( ١ ) A. Bel : Les Benou Ghania, p. 118 & 119

غربي ميورقة محاولا انتزاعها من الموحدين ، وكان ذلك في أوائل سنة ٥٩٧ هـ ، خلال فصل الشتاء ، حينما تكون الأساطيل الموحدية راسية في سبتة ، فقاومته السفن الموحدية المرابطة بقيادة ابن ميمون ، وانتزع ابن ميمون منه سفينتين وأحرقهما ، فارتد إلى ميورقة خائبا . ولكنه سار في العام الثاني ( ٥٩٨ ) هـ ، وهاجم جزيرة منورقة وانتزعها من أيدي الموحدين ، وولى عليها من قبله رجلا اسمه الزبير بن نجاح . والظاهر أن عبد الله كان قد ترامت إليه الأخبار عن مشروع الموحدين في غزو ميورقة ، فأراد أن يبادر بإبعادهم عن هذه المياه ، وتأمين ميورقة بالسيطرة على منورقة ويابسة جناحيها من الشرق والغرب .

وأخيراً تم إعداد الحملة البحرية المنشودة ، مكونة من أسطول سبتة بقيادة السيد أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومن جيش من الفرسان والرماة والرجالة ، بقيادة الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص . والتقت القوتان بثغر دانية ، أقرب قواعد الأندلس البحرية إلى الجزائر . وكانت القوى البرية تتألف من ألني ومائتي فارس ، وسبعمئة من الرماة ، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة غير غزاة القطع ( أي السفن ) . وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن ( سفينة ) منها سبعون غرابا ، وثلاثون طريدة ، وخمسون مركباً كبيراً ، ومائة وخمسون قارباً من مختلف الأنواع ، وكانت الحملة مزودة بكميات كبيرة من العدد والسلاح والمجانيق والسلام ، ومختلف الأدوات ، وكذلك من الدروع والسيوف والرماح والبيضات والدرق ، والقسي ، وصناديق النشاب ، وكانت بالأخص مزودة بكميات وافرة من الطعام استعداداً لطول المقاومة أو طول الحصار . وأقلعت الحملة من ثغر دانية في أواخر سنة ٥٩٩ هـ ( ١٢٠٣ م ) ، فوصلت بعد أيام قلائل إلى جزيرة يابسة ، فصلوا بها الجمعة ، ثم أقلعت منها يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة ( ٣ سبتمبر سنة ١٢٠٣ ) قاصدة إلى ميورقة<sup>(١)</sup> . ويبدو مما يقوله صاحب البيان المغرب ، أن السيد أبا العلاء ، قد انحرف أولاً بجزء من الأسطول نحو جزيرة منورقة ، وانتزعها من ابن نجاح ، وقبض عليه ، وأرسله مع بعض صحبه مصفداً إلى الحضرة ، وهناك أعدم وعاقبت رأسه<sup>(٢)</sup> . وبذلك تم تأمين جناحي الحملة الموحدية ، وتطويق ميورقة كبرى الجزائر . ثم أقبلت

( ١ ) نقلنا هذه التفاصيل عن صاحب الروض المطار ( ص ١٨٩ ) وهو يتفرد بها .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٦ .



السفن الموحدية إلى ميورقة واحتلت مرساها ، وأنزل العسكر المهاجم بالقرب من مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، فخرج إليهم عبد الله بن إسماعيل في جموعه ، واضطرم القتال بين الفريقين ، واستمرت المعارك بينهما سبعة أيام ، وعبد الله وجنوده يدافعون بمنتهى الشدة ويقاتلون قتال اليأس ، وأخيراً دارت عليه الدائرة فهزم وقتل ومعظم أصحابه . وأغلق المدافعون في الداخل أبواب المدينة فطوقها الرماة وغزاة البحر ، واقتحموها ، ودخلها الموحدون وبدأوا نهبها ، ودخل السيد أبو العلاء والشيخ أبو سعيد المدينة ، وأمامهما رأس عبد الله مرفوعة على قنّاة ، فأمر في الحال بمنع النهب ، وتأمين الناس ، وقبض على أولاد عبد الله وأهله ، فخرج الناس ، وقد أمنوا وأطمأنوا ، وكُتب في الحال بالفتح إلى الخليفة الناصر . وكان فتح ميورقة على هذا النحو في شهر ربيع الأول سنة ست مائة ( شهر ديسمبر سنة ١٢٠٣ م )<sup>(١)</sup> .

تلك هي تفاصيل الفتح الموحدي لميورقة حسب ما يوردها لنا صاحب الروض المعطار ، وحسب ما قصها علينا رسالة الفتح الصادرة عن الخليفة الناصر ، والمدبجة بقلم كاتبه أبي عبد الله بن عياش . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الحملة الموحدية لفتح ميورقة كانت بقيادة الخليفة الناصر نفسه ، وأنه خرج من مدينة فاس فوصل إلى جزائر بني مزغنة ، وجهاز من هنالك الأساطيل والعساكر لفتح ميورقة ، ففتحها وانتزعها من أيدي المرابطين<sup>(٢)</sup> . بيد أنه لا توجد أية رواية أخرى تؤيد هذا القول ، فضلاً عن أن رسالة الفتح الرسمية صريحة قاطعة في عدم صحته . ويقدم إلينا ابن خلدون إسمي قائد الحملة وهما كما تقدم السيد أبو العلاء إدريس قائد الأسطول ، والشيخ أبو سعيد بن أبي حفص قائد القوى البرية<sup>(٣)</sup> . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن الناصر كان في الوقت الذي سارت فيه الحملة الموحدية إلى الجزائر مقياً بحضرة مراکش<sup>(٤)</sup> .

ونذب السيد أبو العلاء لولاية الجزائر عبد الله بن طاع الله الكومي ، فكان

---

(١) الروض المعطار في روايته السابقة الذكر ص ١٨٩ ، وراجع الرسالة السادسة والثلاثين من رسائل من موحدية ، وهي خاصة بفتح ميورقة ( ص ٢٣٥ وما بعدها ) ، وكذلك روض القرطاس ص ١٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ ، ويتابعه في ذلك الأستاذ الفرد بل: *Les Benou Ghaina*, p. 167

(٣) ابن خلدون في البرج ٦ ص ٢٤٧ .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٨ .

أول ولايتها من الموحدين ، وعين لقضاها الفقيه المحدث عبد الله بن حوط الله .  
ثم ولي الناصر عليها عمه السيد أبا زيد بن أبي يعقوب يوسف ، وندب ابن طاع الله  
لقيادة البحر .

وكان فتح الموحدين لميوزقة ضربة شديدة لبني غانية ، قضت نهائياً على  
سلطانهم في الجزائر ، ومن جهة أخرى فقد كان له وقع عميق لدى الممالك  
النصرانية القريبة ، ولاسيما مملكة أراجون المواجهة في شبه الجزيرة . وإلى هذا تشير  
رسالة الفتح صراحة بقولها « ولأخذ ميوزقة على صاحب أرغون وبرشلونة ،  
أشد من رشق النبل وأهول من وقع السيف ، وأوحش من القطع بحلول المات » .  
وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتبعه بنو غانية من سياسة المسالمة والمودة نحو الدول  
النصرانية المجاورة ، ولاسيما مملكة أراجون وجمهوريتي جنوة وبيزة . وكانت  
تجمع بين بني غانية أصحاب الجزائر وبين أراجون بالأخص فكرة مشتركة ،  
هي خصومة الموحدين والكفاح ضدهم . وكانت أراجون وحليفاتها من الدول  
النصرانية لذلك ، تنظر إلى سيادة بني غانية للجزائر بعين الإغضاء ، ما ألزم  
بنو غانية سياسة المودة والمسالمة . أما الآن ، وقد احتل الموحدون الجزائر ، فإنه  
كان لابد للدول النصرانية ، وفي مقدمتها أراجون أن تتخذ نحو الجزائر موقفاً  
آخر . ومن المحقق أن أراجون ومن ورائها جنوة وبيزة كانت تطمع دائماً ،  
إلى انزعاج الجزائر من المسلمين . وقد جاء استيلاء الموحدين على الجزائر عاملاً  
جديداً ، يذكى هذه الرغبة ويؤكد لها . على أن ظفر الموحدين بالاستيلاء على  
الجزائر ، كانت تقابله من الناحية الأخرى ، ضربة جديدة مؤثرة للموحدين في  
في إفريقية . ذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، كان يشعر حين ترامت إليه  
أنباء الحملة الموحدية ، التي سارت إلى الجزائر ، أن مصير ميوزقة قد بت فيه ،  
وأنه لم يبق لبني غانية إلا أن يعملوا على توطيد أمرهم بإفريقية ، وأنه لابد لتحقيق  
هذه الغاية أن يسحق سلطان الموحدين نهائياً في تلك المنطقة . وكان يحيى  
قد ظفر عندئذ بالاستيلاء على المهديّة ، والقضاء على خصمه ابن عبد الكريم .  
ففكر عندئذ في الاستيلاء على تونس عاصمة إفريقية . وكانت سائر الثغور  
الشرقية ، وسائر القواعد الجنوبية القريبة من تونس قد سقطت في يد يحيى ،  
وجردت العاصمة من سائر مواردها المعتادة ، وكان والي إفريقية السيد أبوزيد  
لا يمتنعكم على قوى كافية للدفاع . ومن جهة أخرى ، فإن انشغال الموحدين في نفس



هذا الوقت بالذات ، بتسيير حملتهم الكبيرة إلى الجزائر ، كان يحول دون إرسالهم  
الأمداد العاجلة إلى إفريقية . ومضى ثم فإن الظروف كلها كانت مؤاتية لمشروع  
يحيى الميورقي . فاستعمل على المهدية ابن عمه على بن الغاني بن عبد الله بن محمد  
ابن غانية ويعرف بالكافي . وسار في قواته وعُده صوب تونس ، وذلك في أوائل  
شهر ذي الحجة سنة ٥٩٩ هـ ، ونزل بالجبل الأحمر في ظاهر تونس ، ونزل أخوه  
الغازي بن إسحق بالموضع المعروف بخلق الوادي حيث يتصل البحر بالبحيرة  
شرقي المدينة ، فردم الحجري الموصلي بينهما وجعله أرضا يابسة ، ورتب عليه  
الحرس ، وقطع بذلك سير القوارب الداخلة إلى المدينة والخارجة منها ، ثم تحول  
إلى قبلي المدينة ، على مقربة من باب الجزيرة وردم الخندق المواجه له ، ونصب  
أمام الباب المجانيق وآلات الحرب ، وضرب الميورقيون حول تونس حصاراً  
صارماً ، ولم يجرؤ الموحدون على الخروج من المدينة ، والاشتباك مع العدو في أية  
معركة ، لقلة عددهم ، وضآلة مواردهم . واستمر هذا الحصار المرهق أربعة أشهر .  
وفي يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر سنة ست مائة ( ١٥ ديسمبر سنة ١٢٠٣ م ) ،  
اقتحم يحيى في قواته البلد ، وقبض على واليها السيد أبي زيد ولديه ، وجماعة  
من أشياخ الموحدين ، وثقفوا بمكان بداخل القصبية تحت حرس قوى ، وأعلن  
يحيى الأمان لأهل تونس في أنفسهم وأموالهم ، ولكنه فرض عليهم غرامة قدرها  
مائة ألف دينار ، قال إنها هي مقدار ما أنفق في الاستيلاء عليها ، وقُسطت هذه  
الغرامة على أهل المدينة وفق أحوالهم المالية ، وعهد باقتضاؤها إلى كاتبه الأثير  
ابن عصفور ، وإلى أبي بكر من عبد العزيز السكاك من أهل المدينة ، فاشتطا  
في تحصيل المال ، ولحق الناس من ذلك منتهى الإرهاق والعنت ، وقتل منهم  
كثير بسبب ذلك ، وانتحر إسماعيل بن عبد الرافع المقدم على قبض مال المخزن  
وغيره من الناس ، فلما علم الميورقي بذلك ، أمر برفع ما بقي من الغرامة عن  
الناس ، ونودي فيهم بالأمان . وعلم الميورقي بعد ذلك أن أهل جبل نفوسة  
توقفوا عن أداء الإتاوة المفروضة عليهم ، وكان أهل هذه المنطقة معظمهم من  
الخوارج ، وكانوا يبغضون نير الموحدين ونير بني غانية معا ، ويثورون  
من آن لآخر محافظة على استقلالهم . فخرج إليهم يحيى بنفسه ، واستصحب  
معه السيد أبا زيد وزملاءه من الموحدين المعتقلين ، مبالغة في التحفظ عليهم ،  
وفرض على أهل نفوسة ألفي دينار . ولما انتهى من اقتضاها منهم

بوسائله المروعة ، عاد إلى تونس واستقر بقصبتها<sup>(١)</sup> .

وهكذا تم ليحيى بن إسحاق الميورقي الاستيلاء على عاصمة إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية ، بعد أن سقطت جميع قواعدها الشرقية والداخلية في يد الميورقي ، سوى ثغر بجاية ، وما يليه غرباً . وكان لسقوط تونس ، وما اقترن به من أسر والها وزملائه من أشياخ الموحدين ، وقع عميق في بلاط مراکش ، وكان مما يضاعف هذا الوقع ، ما يرتكبه الميورقي باستمرار من ضروب العيث والقمع والقسوة ، في مختلف القواعد التي يسيطر عليها . وكان الموحدون ، بعد أن ظفروا بالاستيلاء على ميورقة ، وجردوا بني غانية بذلك من ملاذهم ومركز سلطانهم في الأندلس ، يرون أن الوقت قد حان للقضاء على سلطانهم بإفريقية ، وتحريرها من نيرهم ومن عيهم ، واسترداد سلطان الموحدين ، والعمل على توطيد هيبتهم في تلك الأنحاء . بيد أن الموحدين كانوا شعرون في نفس الوقت بقداحة هذه المهمة ، ومن ثم فإن الخليفة الناصر حينما شاور الأشياخ في ذلك الأمر ، رأى معظمهم أن يكتفى بمسألة ابن غانية والاتفاق معه ، ولكن أبا محمد بن الشيخ أبي حفص أشار بوجوب السير إلى إفريقية ، ومحاربة ابن غانية ، ووافق الناصر على هذا الرأي .

وكان الناصر في الوقت الذي سار فيه الموحدون لفتح ميورقة ، أعنى في سنة ستائة ، يقيم بحضرة مراکش ، ويعنى بشئون الأندلس الإدارية والعسكرية ، وكان من أهم ما أعنى بذلك إرسال الأوامر المؤكدة إلى سائر ولاة الأندلس بالنظر في صنع الآلات الحربية . ففي شهر المحرم من هذا العام ، وصل الأمر إلى إشبيلية بضرب الآلات وشراء الدروع المحكمة . وفي شهر ربيع الأول ندب الناصر عمه السيد أبا إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن لولاية إشبيلية ، مكان الشيخ أبي عبد الله ابن يحيى ، الذي نقل إلى ولاية بسطة . ووُلّي السيد أبا محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن على مدينة شلب وبلاد غربي الأندلس ، والشيخ أبا يحيى بن أبي سنان على مدينة بطليوس وجهاتها . وندب أبا عبد الله بن عبد السلام الكومي لقيادة أسطول ستة . وفي نفس العام وصل إبراهيم بن الفخار اليهودي رسول

---

( ١ ) رحلة النحاشي ص ٣٥٤ — ٣٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ و ٢٤٨ .



ألفونسو التاسع ملك قشتالة ووزيره ، إلى مراکش ، يطلب تجديد المهادنة .  
فلما ترامت الأنباء بسقوط تونس في يد الميورقي ، واشتداد عيئه وبطشه  
بأنحاء إفريقية ، وعقد الخليفة الناصر عزمه على محاربته والقضاء على سلطانه ،  
أعدت حملة موحدية جديدة للسير إلى إفريقية ، وصدرت الأوامر إلى الأسطول  
بالسير من سبتة إلى مياة إفريقية ، وعين لقيادة وحداته أبو يحيى بن أبي زكريا  
الهزرجي . وكان يحيى الميورقي في ذلك الوقت بالذات ، ما يزال ينزل ضرباته  
بمختلف أنحاء إفريقية ، وكان بعد أن قام بإخماد ثورة أهل جبل نفوسة ، قد سار  
إلى ناحية طرّة قاعدة بلاد نفزاوة لإخماد ثورتهم أيضاً ، فاقتحم أحياءهم ،  
واشتد في معاقبتهم ، وقتل جنده كثيراً منهم ، وأضرمو النار في دورهم ، ثم  
سار إلى حمة مطاطة ، ففعل بأهلها مثل ذلك ، وضجت هذه الأنحاء كلها من  
سفكه وشديده عيئه<sup>(١)</sup> .

هذا وبينما الميورقي سادر في هذا العيث والسفك ، إذ بلغته الأنباء باقتراب  
القوات الموحدية ، وعلى رأسها الخليفة الناصر . وكان الناصر قد غادر مراکش  
على رأس قواته في أواسط جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ ( فبراير سنة ١٢٠٥ م )  
وسار إلى رباط الفتح قاعدة تجمع الجيوش الموحدية . ثم غادر رباط الفتح  
في قواته متجهاً صوب إفريقية ، وكانت وحدات الأسطول الموحدي ، تسير  
في نفس الوقت بحذاء الشاطئ ، صوب بجاية وتونس ، بقيادة أبي يحيى بن أبي  
زكريا الهزرجي . فلما علم الميورقي باقتراب الأسطول الموحدي من تونس ، ووصول  
الجيش الموحدي إلى بجاية ، وأدرك أنه لا قبل له بالصمود أمام هذه القوى الحارقة  
جمع أمواله وذخائره ، وأرسالها إلى المهدية ، لتكون تحت حراسة ابن غمه على  
ابن الغاني ، ثم بادر بإخلاء تونس ، وارتد في قواته جنوباً ، فوصل إلى  
القيروان وأقام بها أياماً ، وهو يجد في الأهبة ، ثم سار إلى قفصة ، وهناك  
استدعى طوائف العربان ، وبذل لهم الأموال والوعود ، وأخذ مواليقهم  
ورهانهم على مناصرتهم والقتال معه . ووقف الموحدون على انسحاب الميورقي  
من تونس ، فنزلتها القوات البحرية الموحدية ، وقتلوا كل من وجدوه  
بها من أتباع الميورقي ، وأصدر قائد الأسطول الأمان لأهلها . ولما علم الناصر  
باستيلاء قواته على تونس ، وفرار الميورقي في قواته نحو الجنوب ، سار في أثره

(١) رحلة التجاني ص ٣٥٦ .

صوب قفصة . فسار الميورقي في قواته إلى جبل دمر ، وتحصن به . وسار الناصر إلى قفصة ، فأقام بها أياما ، ثم توجه إلى قابس وندب لها عاملا من قبله . وكان يحيى الميورقي قد قرر أن يركز مقاومته الأخيرة في المهديّة ، فضعف تحصيناتها ، وشحنها بطائفة من قواته المختارة ، ووكل الدفاع عنها لابن عمه علي بن الغازي . واستعد هو للقاء القوات الموحدية بمكانه الحصين من جبل دمر ، وقرر الموحدون من جهة أخرى مطاردة الميورقي في مركزي مقاومته في وقت واحد ، فسار الناصر بنفسه لمحاصرة المهديّة ، وطوقها بقوات كثيفة من الموحدين والعرب ، ونصب عليها المجانيق ، وسار إليها الأسطول الموحدى ليحصرها من ناحية البحر . وبعث الناصر في نفس الوقت جانبا من القوات الموحدية يحتوى على أربعة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص لمقاتلة الميورقي في جبل دمر ، فلما أشرف الموحدون على محلته ، وشهد ضخامة عددهم ، أراد الفرار بقواته في البداية ، ولكن ضباطه شجعوه على الثبات وخوض المعركة ، فنشبت بين الفريقين فوق جبل صغير يعرف برأس تاجرا ، على مقربة من وادى مجسر ، جنوب شرقي قابس<sup>(١)</sup> معركة دموية عنيفة ، استمرت نحو ثلاث ساعات ودارت فيها الدائرة على الميورقي وأصحابه ، فقتل وأسر معظمهم ، وكان بين القتلى أخوه جبارة ، وكاتبه علي بن اللمطي ، وعامله الفتح بن محمد ، وفر يحيى مع جماعة قليلة من صحبه ، وكان قد ترك والده وأهله في موضع بعيد عن مكان المعركة فصحبهم في فراره ، وأنقذوا بذلك من الأسر ، واستطاع الشيخ أبو محمد القائد المظفر أن ينقذ السيد أبا زيد وأصحابه أحياء من أسر الميورقي ، وكان الموكل بالسيد أبي زيد علي وشك أن يجهز عليه ، واستولى الموحدون على محلة الميورقي ، ورايته العباسية السوداء ، وسائر ما كان بالمحلة من الأموال والأسلاب والإبل ، وكانت غنيمة وافرة تحتوى على ثمانية عشر ألفا من أحمال المال والمتاع والآلات ، وحمل ذلك كله إلى الخليفة الناصر ، وهو تحت أسوار المهديّة ، وكان بين الأسرى الأمين الموكل بثقاف السيد أبي زيد ، فشر به فوق جبل عال ، ويده الراية السوداء ، ووقعت هذه الهزيمة الساحقة بالمورقي بجبل تاجرا في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ ( ١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م )<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) تراجع خريطة إفريقية المنشورة في ص ١٦٣ ففيها بيان لمواقع هذه المعركة .  
( ٢ ) رحلة التجاني ص ٣٥٧ - ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٢٣ و ١٢٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ ، وراجع أيضا : A. Bel : Les Benou Ohania, p. 129



وكان الموحدون في تلك الأثناء يضاعفون جهودهم للضغط على المهديّة ، وإرغامها على التسليم . وكان يحيى الميورقي ، توقعاً لهذا الحصار ، قد بالغ في اتخاذ الأهبة ، وشحن المهديّة بالرجال والمؤن . وكان حاكم المدينة على بن الغازي جندياً جريئاً ، ومدافعاً قوى الشكيمة ، فبذل جهوداً عنيفة لرد المحاصرين ، وخرج لقتالهم عدة مرات ، وفي كل مرة يوقع بهم ويحرق مجانيةهم وآلاتهم ويسبب لهم خسائر شديدة ، واضطر الموحدون إزاء ذلك إلى الإكثار من المجانيق والآلات ، وإعداد السلام والأبراج العالية للإشراف على المدينة ، وضاعفة الحشود حولها ، واستمر الأمر على هذا المنوال ، حتى وقعت معركة رأس تاجراً ، وهزم يحيى وألحى إلى الفرار ، وحمل الموحدون الغنائم والعلم الأسود إلى الناصر تحت أسوار المهديّة ، وقاموا بتبريز الغنائم ، وتوزيعها بمشهد ظاهر من أهل المدينة المحصورة . ومع ذلك فإن بن الغازي وصحبه لبثوا حيناً غير مؤمنين بهزيمة يحيى ، واستمرت المعارك بينهم وبين المحاصرين وقتاً ، وجمع الناصر المجانيق على جهة واحدة من السور ، وشدد في ضرب المدينة ، فكثرت القتلى والجرحى من أهلها ، واضطر بن الغازي وصحبه أخيراً إلى طلب الأمان والتسليم ، على أن يُسمح لهم باللاحق بيحيى ، فوافق الناصر على طلبهم ، وسامت المدينة للناصر في اليوم السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٠٢ هـ ( ١١ يناير سنة ١٢٠٦ م ) وغادر على بن الغازي - وكان الموحدون يسمونه بالحاج الكافر - المدينة مع صحبه ، ونزل بموضع قريب منها بنية اللحاق بيحيى ، ولكنه عاد في اليوم التالي ، فعدل عن هذه النية ، وبعث إلى الناصر يعلن طاعته ودخوله في الدعوة الموحدية ، فاغتبط الناصر بتوحيده ، واستدعاه إليه ، وغمره بعطفه وإكرامه ، وصحبه معه فيما بعد إلى مراكش ، ولما عبر الناصر البحر بعد ذلك إلى الأندلس بقصد الجهاد ، سار على معه ، واشترك مع الموحدين في معركة العقاب ، وقتل ضمن من قتل منهم (١) .

وفي يوم عشرين من جمادى الآخرة ، غادر الناصر المهديّة ، بعد أن عفا عن سائر أهلها ، من المقاتلين وغيرهم ، وأمر بترميم أسوارها ، وتنظيم أمورها ، وعين لها والياً هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن يغمور الهنتاتي ، وعين لولاية طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع . ثم سار إلى تونس ، ومنها أصدر كتب الفتح ، واستقر بها بقية عام اثنين وسمائة ، ومعظم العام التالي .

(١) رحلة التجاني ص ٣٥٨ و ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٣ و ١٥٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٣ .

وهكذا انتهت هذه المعركة العنيفة الشاملة، بسحق يحيى بن إسحاق الميورقي ، وسحق سلطان بنى غانية فى إفريقية ، واسترداد الموحدين لسلطانهم وهيتهم ، فى تلك المناطق الغنية الآهلة . وكان قد مضى نحو ربيع قرن ، منذ نفذ بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، مشروعاتهم فى مهاجمة إفريقية ، واتخاذها مسرحاً للصراع ضد الموحدين خصوم الدولة المرابطية والمنزعين لثرائها ، ومنذ استولى عميدهم على بن إسحاق بن غانية الميورقي ، على ثغر بجاية فى سنة ٥٥٨٠ ( ١١٨٤ م ) فى أوائل عهد الخليفة المنصور . وقد تبعنا حركات بنى غانية ومغامراتهم فى إفريقية من ذلك التاريخ ، وأيننا على فتوحاتهم المتوالية للقواعد والثغور الإفريقية ، وعلى ما نشب بينهم وبين الموحدين ، فى مختلف المواطن والتواريخ ، من معارك مريعة مستمرة . ولقد كان بنو غانية رجال حرب وسياسة معا ، يبنون افتتاح الأقطار ، وبسط السيادة والسيطان على ما يفتحونه من الأراضي ، ولكن كانت تحفزهم إلى خوض هذه المعارك مع الموحدين مشاعر ومثل خاصة ، فقد كانت تجثم وراء هذه المعارك والفتوحات المتوالية ، إلى جانب شهوة السلطان والملك ، رغبة مضطربة فى تقويض أسس الدعوة الموحدية ، والقضاء على سلطان الموحدين . وكانوا يرون الدعوة الموحدية ، دعوة ختل وخداع ، ويعتبرون الموحدين غاصبين آثمين ، استولوا بغير حق ولا سند شرعى ، على تراث الدولة المرابطية غدرًا وظلمًا ، ويعتبرون المرابطين سادتهم وحماتهم الأوائل ، وبنى قبيلهم وجلدتهم ، مجاهدين شهداء ، يجب الانتقام لهم ، والانتصاف لحقهم المنصوب .

كانت هذه العواطف والمثل هى التى تحرك بنى غانية فى البداية إلى شهر صراعهم ضد الموحدين فى إفريقية ، ولكنهم بعدما تحقق لهم الظفر فى ذلك الصراع ، وبعد أن استولوا على معظم القواعد والثغور الإفريقية ، ونعموا بالملك والسلطان ، وامتلات أيديهم من الأموال والغنائم ، تحولوا إلى فئة من المغامرين ، تقصد قبل كل شىء إلى تحقيق الغنى والسلطان بأى الوسائل ، وتضائل لون المعركة المذهبي والمثالي شيئاً فشيئاً ، واستحال إلى صراع مادي على امتلاك تلك المنطقة الغنية الآهلة - إفريقية - وانتزاعها من أيدي الموحدين ، لتغدو غنماً لبنى غانية . وقد أسفر هذا الصراع عن تحقيق أمنية بنى غانية كاملة ، واستطاع



يحيى بن غانية ، بعد فترة قليلة من مصرع أخيه على بن غانية ، أن يفتح سائر القواعد والثغور الإفريقية — القيروان وسوسة والمهدية و صفاقس وقفصة وبلاد الجريد ، وجبل نفوسة وطرابلس وغيرها ، وانتهى أخيراً بأن افتتح تونس ذاتها ، وتغلب على خصومه من الغز في المنطقة الشرقية ، وبحق سائر الحملات الموحدية التي وجهت لقتاله ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية سوى بجاية ، وما يليها من الشاطئ .

على أن هذه المملكة العظيمة ، التي استطاع يحيى بن غانية أن يسطر عليها سلطانه ، لم تكن وحدة متماسكة متناسقة ، فقد كان سكانها يتألفون من عناصر مختلفة متنافرة ، من العرب والبربر ، وكان من بينها في الجنوب في جبل نفوسة ، وما يليه ، طوائف من الخوارج لاتدين بالولاء لأحد . ولم يكن يحيى بن غانية بالرغم من براعته وبسالته كجندى وقائد ، يتصف بشيء من المقدرة الإدارية والنظامية ، ولم يستطع بالرغم من ظفوره على خصومه في معظم المعارك التي خاضها ، أن ينشئ في البلاد التي افتتحها أية نوع من الحكومة المنظمة ، بل كان يجري في حكمها على نوع من الارتجال الخطر ، وكانت أساليبه في الحكم هي أساليب الطاغية المطلق ، أعنى حكم عسف وهوى ، لا يعرف معنى للحق والعدل ، فلم يكن ثمة في ظله ضمان للنفس أو الأموال أو الحرم ، بل كان يتميز قبل كل شيء بالقتل والغصب واستباحة الحرم ، وعلى الحملة ، فلم تكن حكومة الميورقي ، وعماله في تلك الأقطار ، سوى حكومة عصابات ناهية تعتمد في تدعيم سلطانها على الإرهاب المطبق . وكان يحيى لا يدخر وسعاً في استلاب المال بكافة الوسائل ، ينفق منه على حملاته ومشاريعه الحربية التي لاتنتهى ، ويبدل الوفير لأحلافه من طوائف الإعراب القلّيب الذين لا يحبو لهم جشع . وقد رأينا ما كان من بالغ جشعه واشتطاطه في فرض الغرامات على أهل تونس ، وجبل نفوسة ، وما اقترن باقتضائها من رائع السفك والتقتيل .

وقد كان حريّاً يمثل هذا الحكم أن يثير بغض سائر المحكومين ومقتهم وأن يحفزهم الى ترقب انهياره والحلاص منه . وهكذا كان سلطان بني غانية ، يقوم على بركان من البغض الخطر ، الذي لا يلفظ منه أى عطف أو ولاء . وبالرغم من أن حكم الموحدين لإفريقية لم يكن حكماً مثالياً ، فقد كان على الأقل حكماً نظامياً ، في معنى من المعاني ، وكان بعيداً عن مثل هذه الفظائع ، التي كانت تصم حكم

بنى غانية باستمرار ، ومن ثم فإنه لم يكن غريباً أن يتوق أهل المدن الإفريقية إلى عودة الحكم الموحدى ، وأن يستقبلوا الجيوش الموحدية بالترحيب والرضى ، وأن يتهجوا لسقوط الميورق وانهار سلطانه .

تلك هى الظروف والعوامل التى اجتمعت لتقوض سلطان بنى غانية فى إفريقية ، ولتحول انتصارات يحيى الميورق وفتوحاته ، إلى حملات ناهية غير مستقرة الدعائم ، ولتجعل من حكمه لتلك المملكة الغنية الشاسعة ، حكم عصابة مغامرة ، ولتحميل إليه فى النهاية عوامل الانهيار والسقوط .

على أن يحيى الميورق ، بالرغم من هزيمته الساحقة فى جبل تاجرا ، ومن فقدته لأمواله وعتاده ، ومعظم صحبه ، وفراره فى فلوله شريداً إلى الصحراء الجنوبية ، لم ييأس مع ذلك ، ولم تنكسر نفسه الوثابة ، ولم تحب قواه المعنوية ، ولم يعتبرها كلمة الفصل النهائية ، فى معركة مع الموحدين ، وسوف نراه فيما قريب ينزل إلى ميدان النضال والصراع مرة أخرى ، مزوداً بقوى جديدة ، وآمال جديدة .

- ٥ -

كان أهم ما عنى به الناصر خلال إقامته بتونس ، هو أن يتخذ كل إجراء ممكن ، لتأمين إفريقية ، وتوطيد سلطان الموحدين بها ، والحيلولة دون قيام أمر بنى غانية مرة أخرى . وكان يحيى الميورق على أثر هزيمته الساحقة فى موقعة تاجرا ، قد فر فى فلوله حسباً تقدم إلى الواحات الجنوبية ، بيد أنه لم يكن ثمة ما يدل على أنه قد سبق بصورة نهائية . ومن جهة أخرى فقد كانت توجد ثمة طوائف أخرى من البربر والأعراب فى الجهات الجنوبية ، دائبة الشغب والعصيان . ففي شهر صفر سنة ٦٠٣ هـ ، وجه الناصر وهو ما يزال بتونس حملة موحدية جديدة ، تحت إمرة أخيه السيد أبى إسحق ، إلى الأطراف الجنوبية لاستئصال أهل الشر والفساد ، فسارت هذه الحملة ، وهى تنقص آثار « الأشقياء » شرقاً وغرباً ، حتى وصلت إلى أحواز طرابلس ، وقامت بردع بنى دمر ، ومطماطة ، ووصلت إلى آخر جبال نفوسة ، وهى تعمل على مطاردة العناصر المشاغبة ومحقها ، ثم عادت إلى تونس بعد أن قامت بتأدية مهمتها ، دون أن تلقى معارضة أو مقاومة (١) .

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٢ و ٢٢٥ .



على أن أنجح إجراء اتخذه الناصر لتأمين إفريقية هو إسناده ولايتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي ، وهو الظافر في معركة تاجرا . وكان أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين ، وأعلام مكانة ، وأشدّهم نفوذاً لدى الخليفة . وكان يمت إلى الخليفة بصلة النسب الوثيق ، إذ كان متزوجاً أخته ابنة الخليفة المنصور : وكان الناصر يثق بحكمته ، وسديد رأيه ووافر مقدرته . وقد اعتذر أبو محمد بادئ ذي بدء عن قبول هذا المنصب ، وشعر أنه نوع من الإبعاد له عن البلاط ، والمشاركة في الحایل من الشؤون ، فبعث الناصر إليه ابنه ووليّ عهده الفتي يوسف ، ليقنعه بالقبول : ويفصل لنا التجاني في رحلته ، ما قاله ولي العهد للشيخ ، وما نوه به من أهمية إفريقية ، وماضحى به الموحّدون في سبيلها من المال والرجال ، وأن الخليفة لم يجد عن اختيار الشيخ معذراً ، وقد أكبر الشيخ حركة الخليفة ومقدم وليّ عهده ، فأبدى قبوله لولاية إفريقية ، بشروط خلاصتها أنه لا يبقى في منصبه إلا بقدر ما تصالح أحوال إفريقية ، وينقشع خطر الميورقي عنها ، وهو يقدر لذلك ثلاث سنين ، وأن يختار من قوات الجيش من يرى بقاءهم معه ، وألا يُسأل عن تصرفاته كائنة ما كانت ، وأن يُخبر في أمر الولاية الذين اختارهم الخليفة لبلاد إفريقية ، فيبقى من يشاء ويعزل من يشاء ، فقبل الناصر كل شروطه . ثم أزمع الرحلة إلى المغرب ، فغادر تونس في السابع من شهر شوال سنة ٦٠٣ هـ ، وصحبه الشيخ أبو محمد مدى ثلاثة أيام . وحدث عند خروج الناصر أن مثل بين يديه أهل تونس وأبدوا له خوفهم ، من أن يعود الميورقي إلى عدوانه ، بعد سفره ، فاستدعى الناصر أعيانهم ، وطمأنهم بوجود الشيخ أبي محمد على رأس الولاية ، وأنه آثرهم بوجوده رغم شدة حاجته إليه ، فاطمأن الناس لقوله واستبشروا بولاية الشيخ (١) .

وسار الناصر أولاً إلى تلمسان ، فوصل إليها في أوائل شهر ذي الحجة ، واستقر بها وقتاً ، وأنفذ منها الأوامر إلى ولاية إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبسطة وألمرية ومرسية ، لموافاته مع أتباعهم : وكان عند خروجه إلى غزوته في إفريقية ، قد أمر بعزل السيد أبي إسحق عن ولاية إشبيلية ، وقدم عليها أخاه السيد أبا موسى . وقضى أيام عيد النحر بتلمسان ، وبقي بها حتى نهاية ذي الحجة ، ثم غادرها إلى مدينة فاس ، ونزل بها في أوائل شهر المحرم سنة ٦٠٤ هـ ، واستأنف بها النظر في

(١) رحلة التجاني ص ٣٦١ و ٣٦٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

الأعمال ، وشكا إليه أهل فاس من مظالم عاملهم أبي الحسن بن أبي بكر ، كما شكا إليه أهل مكناسة من مظالم عاملهم أبي الربيع بن أبي عمران ، فأمر بالقبض عليهما ، واستصفاء أموالهما . ثم رحل إلى مكناسة ، ونزل بها في صفر ، وأصابته هنالك وعكة ، يبدو أنها كانت من أثر مرض وبائي فشا ببلاد الأندلس وانتقل إلى العدوة . فلما تماثل للشفاء ، غادر مكناسة إلى رباط الفتح ، فوصل إليها في شهر ربيع الأول ، ثم رحل منها مباشرة ، إلى مراكش ، فوصلها بعد أيام قلائل<sup>(١)</sup> . وماكاد الناصر يستريح من وعناء السفر ، حتى عاد إلى النظر في الأعمال السلطانية ، فقدم أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد على الأشغال بالعدوتين المغرب والأندلس : وكان أبو سعيد بن جامع متولياً للوزارة ، فبقى على ما كان عليه ، وكانت تربطه بعبد العزيز بن أبي زيد روابط الصداقة . ووصل معظم العمال مع أتباعهم وكتائبهم ، وفقاً للأمر الصادر بذلك ، وأخذ في تصفح أعمالهم ومراجعتها ، وكان ممن وصل من العمال بالأندلس ، يوسف بن عمرو الكاتب ومؤرخ الخليفة المنصور ، وكان يتولى النظر على بعض الأشغال المخزنية والسهام السلطانية ، وكان قد لحقت بتصرفاته بعض الريب ، فماكاد يقترب من الحضرة حتى أحيط بأحواله ومتاعه وقبض عليه وثقف ، ثم فتحت أحواله وأمتعته بحضور الشهود وروجعت ، فلم يوجد بينها شيء مما يدينه ، فأمر الخليفة بإطلاق سراحه ، ورد ماله ومتاعه إليه ، وكان مما شفع له في ذلك عند الناصر ، كتابه الذي ألّفه في محاسن والده المنصور<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا العام توفي السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن والي بجاية ، وكان قد قام بتجديدها عقب الحريق الذي أصابها وخرب كثيراً من ربوعها . وفي العام التالي أعنى سنة خمس وستائة أقال السيد أبو الحسن بن عمر والي تلمسان لمرضه وعجزه عن ضبط الأمور ، واضطراب قبائل زناتة في تلك المنطقة ، وعين مكانه في الولاية السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة ، فقدم إلى تلمسان ومعه عسكر من الموحدين ليستعين بهم في ضبط الأمن والسكينة في تلك المنطقة . وفي تلك الأثناء كانت الحوادث في إفريقية قد عادت إلى اضطرابها ، وعاد يحيى الميورقي إلى استئناف نشاطه ومغامراته . وكان منذ لحقت به

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، والبيان المغرب ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .



الهزيمة الساحقة ، بجبل تاجرا ، وارتد بقلوله إلى الجنوب ، يرقب القرص للانتقام واسترداد شيء من سلطانه الضائع . وكان ما يزال يلتف حوله بعض طوائف من حلفائه الأعراب ، الذين بقوا إلى جانبه بالرغم من محنته . وقد أشرنا من قبل غير مرة إلى الدور الذي كانت تقوم به طوائف العرب في أرجاء إفريقية ، من احترام الحرب ، والتقلب في محالفة مختلف الجهات . وكان بنو غانية يعتمدون بالأخص على معاونة العرب في سائر مشاريعهم الحربية . وكان يحيى الميورقي يجمع حوله كثيراً من حشودهم ، ويأسرهم بوافر بذله ، وإطلاق أيديهم كلما سنحت القرص ، في أعمال السلب والنهب . وكذلك كان الموحدون يعتمدون على بعض طوائف العرب في تزويد جيوشهم بفرق المرتزقة . فلما حلت الهزيمة يحيى وتحطم سلطانه ، تركه كثير من حلفائه العرب السابقين ، وانضموا إلى جانب الموحدين الظافرين ، وكان من هؤلاء بنو مرداس وبنو عوف من بطون بني سليم ، وكانت أحيائهم تقع في المنطقة الممتدة من قابس نحو بونة ، أما بنو زغبة فقد كانوا أصلاً من خصوم بني غانية ، ولم ينقطعوا عن محاربتهم قط ، وكانوا دائماً إلى جانب الموحدين ، ثم تحالفوا بعد ذلك مع بربر زناته الضاربين في المغرب الأوسط ، واستمرت المصادمات بينهم وبين بني غانية . بيد أن يحيى استطاع بالرغم من محنته أن يستبق إلى جانبه بالأخص ، حشوداً كبيرة من رياح وسليم ، ومن الزواودة من بطون رياح ، وشيوخهم محمد بن مسعود الباط لم يفارقه في ضرائه .

فلما غادر الخليفة الناصر ، تونس ، وسار في معظم قواته صوب المغرب ، في أواخر سنة ٦٠٣ هـ ، أخذ يحيى الميورقي يتأهب للنهوض والحركة مرة أخرى ، ثم سار على رأس جموعه نحو الشمال ، وهو يبعث حيثما حل ، وكان الشيخ أبو محمد الحفصي والى إفريقية ساهراً ، يرقب عن طريق عيون حركات الميورقي ، فلما ترامت إليه الأخبار بتحركه ، خرج في جيش من الموحدين والعرب ، من بني عوف وسليم ومرداس ، وسار توالى للقاءه . والتقى الفريقان في منطقة تبيشة على ضفة وادى شبرو ، واقتتل الفريقان بشدة وعنف ، واستمرت المعركة طول اليوم ، وأسفرت في النهاية عن ظفر الموحدين وهزيمة المرابطين الميورقين ومن معهم من العرب ، فارتد يحيى في قلوه وهو جريح ، والموحدون في أثره ، ولكنه استطاع أن يلحق بالصحراء في اتجاه طرابلس ، واستولى الموحدون على

محلته وسائر عتاده وأسلابه ومتاعه ، وكانت غنيمة وافرة ، وتمت هذه الهزيمة على يحيى الميورقي في ٣٠ ربيع الأول سنة ٥٦٠٤ ( ٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧ م ) . ورجع أبو محمد إلى تونس مكللاً بغار الظفر ، وكتب إلى الناصر بالفتح ، واستنجزه وعده في الإقالة من منصبه ، فبعث إليه الخليفة يشكره ويعتذر له بانشغاله بشئون المغرب ، ويرجوه الاستمرار في النظر ، وبعث إليه بالمال والخيل والكسب للإتفاق والعطاء ، وبلغ ما أرسله من المال وحده مائتي ألف دينار<sup>(١)</sup> .

على أن هذه الهزيمة الثانية لم تفت في عضد يحيى بن غانية ، ولم تحمد اديه عزم التوثب والنضال ، فجمع أشد قواته مرة أخرى ، ورأى تلك المرة ، تجنباً للصدام مع أبي محمد ، وتقاديا لضربات القاصمة ، أن يتجه نحو المغرب ، فسار في جموعه من المرابطين وطوائف العرب ، متجهاً صوب الجنوب الغربي ، وهو يبعث قتلاً ونهباً أينما حل ، وتحالف مع بطون زناتة الضاربة في تلك الأنحاء ، واستمر في سيره حتى وصل إلى واحات سجلماسة ، ثم هاجم سجلماسة واقتحمها ، ونهبها ، وفرق الغنائم في أصحابه ، وكانت وفيرة ، فانتعشت نفوسهم . وكان وصول الميورقي على هذا النحو إلى أعماق المغرب ، واقترابه من العاصمة الموحدية ، مثار الدهشة والروع بين الموحدين ، ونهض الشيخ أبو محمد في قواته مرة أخرى للقاء الميورقي عند العود ، وبعث إلى والي تلمسان السيد أبي عمران موسى بخبره من مفاجآت الميورقي ، وأن يتجنب لقاءه ، وكان السيد أبو عمران قد خرج من تلمسان بجوس بين قبائل زناتة الضاربة في جنوبها ، يسترضيهم ، ويستميلهم إلى أداء الجبايات ، والتزام الطاعة والسكينة . وكان بين قوات الميورقي كثير من بطون زناتة ، الخوارج على طاعة الموحدين ، فاتصل بهم زملاؤهم زعماء زناتة المقيمين في جنوبي تلمسان ، وعرفوا الميورقي بظروف السيد أبي عمران ، وعدم استعدادهم وضعف قواته ، وابتعاده عن مدينته المحصنة ، فسار الميورقي نحو الشمال حتى اقترب من جنوبي تلمسان . وعلم السيد أبو عمران

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ . وقد جاء في « العبر » أن مبلغ ما أرسله الخليفة من مال كان « مائة ألف ألف دينار ثنتان » . ومعنى ذلك أن المال بلغت مائة مليون دينار . وهذا رقم يصعب تصديقه ، ولا يتفق بأي حال مع تقديرات العصر وموارده . وربما كان هناك تحريف في النص .



بمقدمه وتردد وقتاً في لقائه . ولكن الميورقي لم يلبث أن فاجأه بجموعه من المرابطين والعرب . واضطر السيد أن يلقاه في قواته القليلة ، وتكاثر المرابطون والعرب على القوات الموحدية ، وفتكوا بها ، وصعد السيد أبو عمران ومن معه ، فقتلوا جميعاً ، وأسر بعض بني السيد ، والكاتب أبو الحسن بن عياش ، وبعض طلبة تلمسان ، واستولى الميورقي على المحلة الموحدية وسائر ما فيها من العتاد والسلاح والخيول ، واقتحمت مدينة تاهرت ونهبت وخربت حتى غدت أطلالاً ( ٥٦٠ هـ - ١٢٠٩ م ) ، وانتشرت جنود الميورقي من المرابطين والعرب في أحواز تلمسان ونهبوها ، وانتسفوا زروعها ، فارتاع أهل المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، وهم يتوقعون أسوأ مصير ، وبادر السيد أبو زكريا يحيى والى فاس في قوة من الموحدين ، فوصل مسرعاً إلى تلمسان ، وطمأن أهلها وسكن روعهم . وأمر الناصر في نفس الوقت بتجهيز حملة كبيرة من قوات مختارة ، زودت بوافر العدد والأقوات ، وعين لولاية تلمسان الوزير أبا زيد بن يوجان ، وقدمه على العسكر ، فسار ابن يوجان في قواته إلى تلمسان ، وعلم يحيى الميورقي بهذه الاستعدادات الضخمة كلها ، فغادر منطقة تاهرت في قواته ، وقصد إلى الصحراء متجهاً نحو طرابلس ، ومعه محمد بن مسعود شيخ الزاودة ، وطوائف رياح وسليم وغيرهم (١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اعتزم يحيى بن غانية أن يستأنف غاراته . وكانت نفسه قد قويت بما أحرز من نصر في تاهرت ، وانتعشت جموعه لما أحرزت من المال والغنائم ، وكان حلفاؤه العرب من جهة أخرى يتوقون إلى استئناف العيث والنهب ، وهو قوام أطماعهم ، ومورد عيشهم ، وقد تضخم جيش يحيى بما انضم إليه من طوائف جديدة من الغز والعرب ، جاءت لتبحث عن طالعها ، ولتغتني فرص الكسب ، وكان من هؤلاء رياح وزغبة وعوف ودباب ونعات وغيرهم ، هذا إلى الزاودة وشيوخهم محمد بن مسعود . وكان يحيى ينوي هذه المرة أن يعود إلى مهاجمة أراضى إفريقية ذاتها . ولم تكن نيات التأثير بخافية على أبي محمد بن أبي حفص والى إفريقية اليقظ الحازم . فبادر بحشد قواته ، معزماً أن يبادر الميارقة وحلفاءهم قبل أن يخرقوا إفريقية ، وخرج من تونس

---

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٩ و ٢٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ و ٢٧٨ .  
وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania p. 148 & 149 .

سنة ست وستائة ، في جيش كثيف وافر العدة ، وسار جنوبا نحو قابس ، ثم اتجه نحو جبل نفوسة ، حيث كان يحتشد المرابطون وحلفاؤهم العرب . والتقى الفريقان في موضع من جبل نفوسة ، وأقام أبو محمد محله مزودة بالقساطيط والأبنية ، حتى لا تكون ثمة أية فكرة في الرجوع . ثم اشتبك الفريقان في معركة عنيفة دامية ، فانكشفت ميسرة الموحدين في البداية ، وولى من كان بها من الغز والأعراب منهزمين ، وثبت الشيخ أبو محمد في القاب مع الموحدين والحفاظ ، وانحازت إليه بعض طوائف من بني عوف وبني سليم ، واستمر القتال طول اليوم على أشده ، وأسفر في النهاية عن هزيمة المرابطين وحلفائهم ، وطارد الموحدون الجيش المنهزم ، وأمعنوا فيه قتلا وأسرا ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، واستولى الموحدون على محلة الميورقي ، وسائر ما بها من الأسلاب والغنائم ، واستولوا كذلك على ضعائن العرب وغنائمهم التي كانوا يحتفظون بها ، وذكر ابن خلدون نقلا عن ابن نجيل كاتب أبي محمد أن أحمال الغنائم في هذه الموقعة بلغت ثمانية عشر ألفا ، وكان بين القتلى محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وابن عمه حركات بن أبي الشيخ ، وشيخ بني قرة ، وشيخ مغراوة ، ومحمد بن الغازي ابن غانية ، وكثيرون من أنجاد بني رياح وبني هلال . وكانت ضربة ساحقة إيحي ابن غانية ، وحلفائه ، تضارع في عنفها وأهية نتائجها ضربة جبل تاجرا ، وفر يحيى في قل من صحبه ، وقد هدته النكبة ، وأوقعت في قلبه اليأس ، وارتد أبو محمد في قواته إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الخليفة الناصر بالفتح ، فقرأ كتابه بالمسجد الجامع : وجلس الناصر لتقبل الهناء والاستماع لمذائح الشعر (١) ، وكان منها قصيدة لأبي عبد الله بن يخلفن الفازازي هذا مطلعها :

هذه فتوح تفتحت أزهارها      وتدفقت ملء الملا أنهارها  
وتأرجحت نفحاتها وتبرجت      صفحاتها وتبلجت أنوارها  
وأنت بشائرها إليك سوافرا      عن أوجه يا حبذا إسفارها

ولم ينس أبو محمد ما قام به عرب سليم من مخالفة الميورقي والقتال إلى جانبه ، فاخترق ديارهم خلال عوده ، وأمر بالقبض على زعمائهم ، وأرسلهم مصفدين إلى تونس ، فكان لتصرفه وقع عميق في تلك المنطقة ، التي كثر فيها قلب

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣١ و ٢٣٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ .



الأعراب وفسادهم . وبالعكس عومل العرب الذين وقفوا إلى جانب الموحدين  
بالرعاية والإحسان ، ووزعت عليهم أراض شاسعة خصبة في وادي القيروان .  
وكان أهل جبال نفوسة قد أرهقهم ابن عصفور نائب يحيى بجوره ، وأثقل  
كاهلهم بالمظالم والفروض ، فما كادت تقع الهزيمة على الميورقي ، حتى وثبوا  
بأبن عصفور فقتلوه ومعاونيه من المرابطين ، كما قتلوا ولدين ليحيى :

وعكف أبو محمد بعد نصره الحاسم على معالجة شئون إفريقية ، بما عرف  
عنه من الخزم والبراعة ، فقمع كل صنوف الفساد والشغب ، ووطد دعائم  
السكينة والنظام ، واستوفى فروض الجباية من سائر الطوائف ، فازدهرت في  
ظله بلاد إفريقية ، وعمها الأمن والرخاء ، وذاع اسم أبي محمد ، واشتهر أمره ،  
وسمت مكانته ، حتى غدا ثانياً رجل في الدولة بعد الخليفة ذاته ، وكان العمل  
الذي اضطلع به ونجح في تحقيقه ، وهو إخماد ثورة بني غانية ، وتحرير إفريقية  
من نيرهم ، وردّها إلى سلطان الموحدين ، وذلك في فترة يسيرة لا تتجاوز  
خمس أعوام أو ستة ، من أعظم الأعمال العسكرية والسياسية ، التي استطاعت  
الدولة الموحدية أن تقوم بها في مدى ربع قرن ، مذ نزل بنو غانية بإفريقية لأول  
مرة . ولم يكن ذلك عملاً هيناً ولا ميسوراً إزاء ما كان يتصف به على بن غانية  
وأخوه يحيى ، وبقية هذه العصابة ، من الجرأة والبسالة وشدة المراس . وكان  
توطيد سلطان الموحدين بإفريقية على هذا النحو ، عمل إنقاذ وقى الدولة  
الموحدية كثيراً من أخطار التمزق والتفكك ، التي كانت تتعرض لها ، من جراء  
تغلب بني غانية على جزء من أهم أراضى الدولة ، وعجزها عن رد عدوانهم .  
واستمر أبو محمد بن أبي حفص عدة أعوام أخرى حتى وفاته في سنة ٦١٨ هـ  
( ١٢٢١ م ) يسيطر على مصاير إفريقية ، ويسهر على سلامتها وأمنها ، ويوطد  
شئونها بمقدرة فائقة ، فهل كان عندئذ يضمّر أو يدور بخلده أنه إنما يهد بهذا  
التوطيد أسلطان عقبه ، وتأسيس أسرته المملوكية المستقلة ، التي قامت بعد ذلك  
بقليل ، في هذا القطر من أقطار الإمبراطورية الموحدية<sup>(١)</sup> .

أما يحيى بن غانية فقد لبث بعد نكبه الأخيرة في جبل نفوسة ، ملتجئاً مع  
فلوله إلى الصحراء الجنوبية ، يلوذ مؤقتاً بأهداب السكينة ، ويرقب الحوادث .  
بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى انفصل عنه أخوه سير بن إسحاق بن غانية ،

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٩ . وراجع أيضاً A. Bel : Les Benou Ghania p. 152 - 154

وكان ممن شهد معه غزوة تلمسان ، وسار إلى تونس ملتجئاً إلى الشيخ أبي محمد ،  
لائذاً بطاعة الموحدين ، فأكرم الشيخ مثواه ، ثم استأذنه في السفر إلى الحضرة  
فأذن له ، واستقبل هناك بالمودة والترحاب ( سنة ٦٠٧ هـ ) .

وفي خلال ذلك كان الخليفة الناصر عاكفاً على معالجة الشؤون الإدارية ،  
والنظر في أعمال الولايات . وكان كثير التغير والتبديل للولاة ورجال الدولة .  
ومن ذلك أنه في سنة خمس وستائة ، أقال أبا يحيى بن الحسن بن أبي عمران من  
الوزارة ، وألزمه أن يبقى في داره ، ثم عينه بعد ذلك والياً لميوزقة مكان السيد أبي  
عبد الله بن أبي حفص ، وعين السيد أبا عبد الله والياً بلنسية ، وقدم للوزارة أباسعيد  
ابن أبي إسحاق بن جامع مكان أبي زيد بن يوجان . ثم عين أخاه السيد أبا إسحق والياً  
لإشبيلية ، وأخاه السيد أبا محمد والياً لشرقي الأندلس ، والشيخ أبا عمران بن ياسين  
الهمتاني والياً لمرسية ، مكان أبي الحسن بن واجاج ، وعين السيد أبا زيد والياً  
بلجيان ، وأبا عبد الله بن أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص والياً لغرناطة . وعين  
لكتابة الديوان الكاتبين أبا محمد بن الحسن ، وأبا عبد الله بن منيع ، وكان كلاهما  
من الكتاب المحيدين ، واختص الأول بكتب التوقيعات والظواهر ، واختص  
الثاني بديوان العسكر ، والتنفيذات السلطانية . وكذلك تناولت هذه التعيينات  
شئون القضاء فعزل القاضي أبو عبد الله الباجي عن قضاء إشبيلية ، وعين مكانه  
أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق . وعين لقضاء قرطبة ابن حوط الله ، مكان  
أبي علي بن أبي محمد الماتقي ، واستدعى أبو علي إلى الحضرة حيث قدم على طلبة  
الحضر ، وهو المنصب الذي كان يتولاه أبوه وإخوته من قبل . وعين أبو إبراهيم  
ابن يغمور لقضاء بلنسية . وندب القائد أبو عبد الله بن عيسى المرسى لقيادة قوات  
الغرب بشلب ، وندب أبو الجيش محارب لاستقبال ملوك الروم وسفرائهم ،  
والاشتغال بإنزالهم وضيافتهم ، والترجمة عنهم ، مكان ابن عوبيل ، وهي وظيفة  
مستحدثة في البلاط الموحدي ، ولم يسبق أن وقفنا على ذكرها من قبل ضمن  
مناصب الإدارة الموحدية . ووقعت هذه التغيرات والتعيينات كلها في عام واحد ،  
هو سنة ٦٠٧ هـ ( ١٢١٠ م )<sup>(١)</sup> .

ووقعت بالمغرب في هذا العام عدة حوادث أخرى تستحق الذكر ، منها

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ و ٢٣٤ ، وابن خلدون



مصرع ابن عطية الزناتى ، أحد رؤساء زناتة الخوارج فى منطقة تلمسان الجنوبية ، وكان ممن تحالف مع ابن غانية حين غزوته لمنطقة تلمسان ، قدس إليه ابن يوجان والى تلمسان من اغتاله بمقره . وفى هذا الحادث ما يدل على أن الاغتيال السياسى . كان من وسائل الموحدين فى القضاء على خصومهم . ومنها أن الشيخ أباعحمد قام بغارة على أحياء الخوارج والمشايخين من بنى سليم ، واستاق أشياخهم وأموالهم ، وجعلهم رهينة لديه فى تونس ، حسباً لنسأدهم وشغبهم ، وإرغامهم على قطع إمدادهم ومعاونتهم لابن غانية ، ومن جهة أخرى فقد قام محمد بن عبد السلام عامل طرابلس بغارة على منطقة جبل نفوسة واقتحم بها قصرآ ، ألقى فيه جملة من ثمين المتاع والأموال لبني غانية ، ووطد أسباب الهدوء فى تلك المنطقة .

وكان من أهم الحوادث فى هذا العام أيضاً ، الحريق الكبير الذى وقع بمراكش ، وكان وقوعه فى ليلة يوم الخميس الثالث عشر بجمادى الأولى ، والناس يرقلون فى مضاجعهم : وشبت النار أولاً فى حى القيسارية ، وانتشرت بسرعة ، وأتت على الحى كله ، فشب الناس مذعورين من نومهم ، وكثر الصراخ والاستغاثة ، ونهض الخليفة الناصر على انزعاجه وغادر قصره مسرعاً ، واعتلى صومعة الجامع ليشهد تغلغل النار عاجراً . واقتحم الغوغاء كثيراً من الدروب ، وسلبوا ما استطاعوا سلبه مما سلم من الحريق ، واستمر الحريق حتى صباح اليوم التالى ، وقد أتى على كثير من أحياء المدينة . وأمر الناصر فى اليوم التالى ، بتتبع السفلة الناهيين ، واسترداد ما يمكن استرداده منهم ، فقبض على كثيرين من هؤلاء وأعدموهم على الأثر . وهلك فى تلك النكبة كثير من الأموال واللور ، واقتقر كثير من ذوى اليسار ، وفقدوا دورهم وثرواتهم . وأمر الناصر بأن يعاد تشييد الأحياء المحترقة بأحسن مما كانت عليه ، خصوصاً وقد كانت تواجه القصر الخلقى يسبح عليها أضواءه<sup>(١)</sup> .

هذا ويذكر لنا صاحب البيان ضمن حوادث هذا العام ، أعنى عام ٦٠٧هـ ، حادثاً يستوقف النظر ، وهو أن بعض أعيان جزيرة صقلية ووجوهها ، وفدوا على الشيخ أبى محمد بن أبى حفص بتونس ، ونبأوه بأن المسلمين فى صقلية انتزعوا كثيراً من المعاقل من أيدي الروم ، وأقاموا الخطبة فى بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية ، وقطعوا ما سواها من الدعوات من عباسية وغيرها .

(١) البيان المغرب ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .

ويبدو من تتبع تاريخ صقلية ، في تلك الفترة أن الأقلية الإسلامية التي كانت بالجزيرة حتى هذا العهد ، كانت تعاني من الضغط والاضطهاد . وكان المسلمون منذ سقطت الجزيرة في أيدي الأمراء النورمان في سنة ٤٧٩ هـ ( ١٠٨٦ م ) ، يتمتعون بطائفة من الحقوق والامتيازات ، ومنها السكنى في بعض الأحياء ، والأراضي ، في مسيني ، وبلرم ، وتراباني ، وجرجنت ، ومازرة ، وغيرها من المدن ، ومزاولة شعائرهم الدينية في مساجدهم القليلة الباقية ، ومزاولة مهنتهم وأعمالهم السلمية . واستمر الأمر على ذلك نحو قرن ، في ظل عدة متعاقبة من الأمراء النورمان ذوى التسامح المستنير ، وفي مقدمتهم ولد فاتح الجزيرة ، الدوق روجر ( رجتار ) الثاني ، وهو الذى أسبغ رعايته على الشريف الإدريسي ، وعهد إليه بوضع موسوعته الجغرافية الشهيرة « نزهة المشتاق » . فلما توفى في سنة ١١٥٤ م ، خلفه ولده وليم الأول ( غليام ) ، فولده وليم الثاني . وفي عهد هذا الملك ، اشتدت وطأة الحكم على المسلمين وأراد أن ينزع منهم بعض الأراضي التي يحتلونها ليعطيها لبعض الأديرة المجاورة ، فقام المسلمون ببعض ثورات محلية ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية ؛ والظاهر أن الملك وليم ، عدل بعد ذلك عن سياسة الضغط والقمع الى حاول أن يتخذها إزاء المسلمين ، وعاد الصفاء ينحيم على علائق المسلمين والنصارى .

وقد أورد لنا الرحالة الأندلسي ابن جبير وصفاً دقيقاً لأحوال مسلمي صقلية في عهد الملك وليم ( ويسميه غليام ) مما وقف عليه حين زيارته للجزيرة في شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ ( يناير سنة ١١٨٥ م ) ، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه ، وبلارمه ( بلرم ) ، واطرابنش ، واجتمع فيها بالمسلمين ، ووقف على أحوالهم : وهو يقول بصفة عامة ، إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وأن النصارى قد أحسنوا السيرة في استقبالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها في فصلين من العام ، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجلدونها ، ثم يقول لنا ، إنه لم يكن في مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن . وأما بلرم ، وهي عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم في الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين في بلرم رسم باق من الإيمان يعمرون به أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان



مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكنائهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ؛ ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى . ولهم بها قاض ، يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضر لعلمى القرآن ، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل<sup>(١)</sup> .

وهذه العبارة الأخيرة من أقوال ابن جبير ، تلخص لنا حقيقة أحوال المسلمين فى صقلية فى أواخر القرن السادس الهجرى ( الثانى عشر الميلادى ) . ذلك أنه بالرغم من تلك الامتيازات الشكلية فى السكنى والتجارة ومزاولة الشعائر ، فإنه لم يكن ثمة شك فى أن الأقلية المسلمة كانت تعيش داخل الجزيرة ذليلة مضطهدة . وهذا ما يفصله لنا ابن جبير بعد ذلك ، إذ يقول إنه خلال إقامته ببلدة إطرابنش ، « تعرف ما يؤلم تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها ، وما هم عليه من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهد الذمة ، وغلظة الملك ، إلى طوارئ دواعى الفتنة فى الدين » . ثم يقول لنا ، إنه التقي فى هذه البلدة بزعيم مسلمى صقلية ، وهو القائم بن حمود المعروف بابن الحجر وهو من ورثة أهل السيادة ، وكان من خيرة مسلمى الجزيرة كرماً ومآثر ، وكان قد اتهم بمخاطبة الموحدين ، واضطهد من أجل ذلك ، وغرم أموالاً طائلة . ويزيد ابن جبير على ذلك ، أنه وقف من هذا الزعيم ، على بواطن أحوال مسلمى الجزيرة مع أعدائهم « مما يبكى العيون دماً ، ويذيب القلوب ماءً »<sup>(٢)</sup> .

ويحدثنا ابن جبير عن الملك ولیم ( غليام ) ، فيقول إنه عجيب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، وإنه كثير الثقة بهم ، وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله جملة من العبيد المسلمين وعليهم قائد منهم . ثم يصف لنا فخامة قصوره ، وتناهيه فى الترف ورفاهة العيش ، وشغفه باتخاذ الفتيان والجوارى ، وأنه يقرأ العربية ويكتبها ، وأهل عمالته فى ملكه منهم مسلمون .

ولما توفى الملك ولیم الثانى فى سنة ١١٨٩ م ، وخلفه فى حكم صقلية الإمبراطور فردريك الثانى ، أول حكامها من آل هوهنشتاوفن ، عاد فانتزع من المسلمين

( ١ ) رحلة ابن جبير ( القاهرة ١٩٥٥ ) ص ٣١٤ و ٣٢٣ .

( ٢ ) رحلة ابن جبير ص ٣٣٢ و ٣٣٣ .

كثيراً من أراضيهم وأعطاهما للكنيسة : وكان ذلك في سنة ١٢٠٨م (٦٠٥ هـ)<sup>(١)</sup>.  
والظاهر أن المسلمين عادوا يومئذ إلى الثورة ، وانتزعوا بعض الحصون النصرانية  
مرة أخرى . ويبدو من مقارنة التواريخ ، أن هذه هي الحوادث التي يشير إليها  
وفد المسلمين الصقليين إلى الشيخ محمد الحفصي . على أنه يبدو كذلك أنه لم يترتب  
على مسعى هذا الوفد أي أثر ، وأن الموحدين لم يفكروا في التدخل في حوادث  
صقلية بأية صورة . وسنرى فيما بعد أن هذا الصراع يتجدد في صقلية بين المسلمين  
وحكامهم النصارى ، ثم ينتهي بإخضاع كل نزعة تحريرية للمسلمين ، وإخراجهم  
من ديارهم :

---

(١) راجع : (M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Firenze 1879)



## الفصل السادس

### موقعة العقاب

انشغال الموحدين بحوادث إفريقية عن شئون الأندلس . سكون الممالك النصرانية منذ الأرك . شعورها بسنوح الفرصة لاستئناف الغزو . انتهاء الهدنة بين قشتالة والموحدين . إغارة الفونسو الثامن وفرسان قلعة رباح على أراضي الأندلس . إغارة ملك أراجون على أراضي بلنسية . اهتمام الناصر لتلك الحوادث . اعتزامه العبور للجهاد واستنفاره للقبائل . خروج الناصر في قواته إلى رباط الفتح . مسيره إلى قصر كتامة . صعوبة تموين الجيش . مؤاخذه العمال المقصرين . عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة . عبور الناصر ومسيره إلى إشبيلية . الاستعداد وحشد الجند في سائر الكور . خروج الناصر في الجيوش من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره إلى قلعة شلبطرة . أحوال الممالك النصرانية عندئذ . الصلح والتهادن بينها . عدوان ملك قشتالة على الأندلس . اتخاذ قلعة شلبطرة قاعدة لهذا العدوان . غارات أراجون في الشرق . البايوية والصفة الصليبية لحروب النصارى ضد الأندلس . معنى البابا إنوسان لمعاونة ملك قشتالة . صدق مقدم الجيوش الموحدية . حصار الناصر لقلعة شلبطرة . عجز الفونسو عن إنجاءها وتسليمها بالأمان . رواية صاحب روض القرطاس عن الحصار . ما ينقص هذه الرواية . عود الناصر إلى إشبيلية . أهبة ملك قشتالة . معاونة البابا والأخبار النصارى . احتشاد جماعات الفرسان . مقدم المتطوعة الصليبيين من سائر الأنحاء . اجتماع جيوش قشتالة وأراجون وناثارا . الصوم والابتهال في رومة . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الأهبة . ما ورد في كتاب الخليفة . أهبة الناصر . مقدم الحشود الجديدة . خروج الجيوش النصرانية من طليطلة . خروج الناصر في جيوشه من إشبيلية . مسير النصارى إلى قلعة رباح ومهاجمتهم إياها . يأسحاكها ابن قادس من النجدة وتسليمه بالأمان . ما أثاره هذا من خلاف بين القشتاليين وحلفائهم الأجانب . مفادرة معظم المتطوعة الأجانب للمعسكر النصراني . إشارة الرواية الإسلامية إلى ذلك . وصول الناصر إلى جيان . مقدم ابن قادس إليه . اتهامه وصهره بالخيانة وإعدامهما . مخطط الأندلسيين لذلك . إصلاح ما حدث بالمعسكر النصراني . مسير سائر الجيوش النصرانية إلى الجنوب . صعودها إلى جبل الشارات ونزولها في مر مورادال . مسير الجيوش الموحدية للاقتاة العدو . أقسام الجيش الموحدى وعدده . مبالغة الرواية الإسلامية في تقديره . عبور الموحدين لنهر الوادي الكبير . احتلالهم لمرات جبل الشارات . نزولهم في السهل المواجه لمر تولوسا . توقف الناصر للقاء النصارى . وصف عيان لميدان الموقعة . حصن العقاب . الطريق الرومانى والنهر . بويرتودل مورادال . مائدة الملك . استيلاء النصارى على قلعة فيرال أو حصن العقاب . تعذر عبورهم لجبل الشارات من تلك الناحية . قصة الراعى والممر السهل . تحول الجيش النصراني واحتلاله لمرتفع « مائدة الملك » . وقوف الموحدين على تلك الحركة . تعبئة الجيوش الموحدية للقتال . المناوشات الأولى . ترتيب الجيش الموحدى لخوض المعركة . موقع قبة الخليفة وحرسه . تنظيم الجيش النصراني وقيادته . استعداد الفريقين للمعركة . بدء النصارى بالهجوم . هجوم طلائعهم على مقدمة الجيش الموحدى . هجوم جناحي النصارى على جناحي الموحدين . المعركة الهائلة . ارتداد المتطوعة المسلمين . ثبات الموحدين ورد جناحي النصارى .

قزول ملك قشتالة بالقوات الاحتياطية . اشتداد هجوم النصارى . ارتداد ميمنة وميسرة الجيش الموحدى . فرار الأندلسيين والعرب . هجوم النصارى على القلب . مقاومة الحرس الخليق العنيفة . ثبات الخليفة الناصر وحته جنده على الثبات . اختراق النصارى للقلب . اختراقهم للدائرة الخليفية المدرعة . تمزق الجيش الموحدى وكثرة ضحاياه . صعود الناصر . مصرع الآلاف من حرسه الأسود . اضطرابه فى النهاية إلى الفرار . سيره صوب بياضة ثم جيان . فرار الموحدين فى كل ناحية . المطاردة المروعة والقتل الذريع لهم . الاستيلاء على المحلة الموحدية وانتهاج سائر ما فيها . مختلف أسماء الموقعة . خسائر المسلمين فى الموقعة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقديرها . اعتدال الرواية النصرانية فى ذلك . مبالغتها فى التقليل من خسائر النصارى . ما يمكن أن يقال فى ذلك . وفرة السلاح والفنائم التى استولى عليها النصارى . خيمة الناصر والعلم الموحدى . الأسباب المادية والمعنوية لتلك النكبة . آثار النكبة بالنسبة للأندلس والمغرب . توكيد التفوق السياسى والعسكرى لإسبانيا النصرانية . الفزع فى أرجاء الأندلس . شبح السقوط والفناء . فناء الجيوش الموحدية والقرومية المغربية . تضعف الدولة الموحدية وتفككها . مقارنة بين الأرك والعقاب . كتاب الناصر عن الموقعة . ألفونسو الثامن يتبع نصره بالاستيلاء على الحصون الإسلامية . مهاجمته لبياضة وحصاره لأبدية . اقتحام أبدة وقتل وسبى أهلها . ظهور الوباء وارتداد النصارى إلى أراضيهم . وصول الناصر إلى إشبيلية ، ثم عبوره إلى مراكش . أخذه البيعة لولده أبى يعقوب يوسف . احتجاجه بقصره . مرضه ووفاته . ما قيل فى وفاته . الناصر وعهده . بدايته الحسنة . استبداده بالأمر . خلو عهده من الأعمال الإنشائية . عطله عن أنواع العلوم والمعرفة . صفات الناصر وفقاً لقول المراكشى وروض القرطاس . وزراء الناصر . قضائه وكتابه . أبنائه .

شغل الخليفة محمد الناصر لدين الله ، منذ ارتقائه العرش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ ، بحوادث إفريقية واستيلاء بنى غانية على قواعدها وثغورها ، والعمل على تحريرها واسترداد سيادة الموحدين بها ، عن سير الحوادث فى الأندلس ، ولم يستطع خلال هذه الفترة التى استطالت زهاء اثنتى عشرة عاماً ، أن يعنى بشيء من شئون الأندلس الجوهرية ، أو يعبر إليها بنفسه ، وحتى اهتمامه بافتتاح الجزائر الشرقية ، لم يكن سوى نتيجة مباشرة لصراعه مع بنى غانية فى إفريقية .

بيد أن شئون الأندلس ، كانت خلال ذلك تثير قلق الموحدين ، وتوجسهم من العواقب . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية ، وفى مقدمتها قشتالة ، قد لزمت السكينة حينئذ منذ موقعة الأرك ، ولبثت بضعة أعوام تهبب الاشتباك مع القوات الموحدية فى شبه الجزيرة ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت قشتالة وليون ، ترتبط كل منهما بعقد الهدنة مع الموحدين . فلما شغل الموحدون بصراعاتهم مع بنى غانية فى إفريقية ، ولما استطال أمر هذا الصراع أعواماً ، واتسع نطاقه وانقطع عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، أدركت الممالك النصرانية أن الفرصة قد سنحت مرة أخرى ، لاستئناف غزواتها للأراضي الإسلامية ، ولم يعقها



عن انتهاز هذه الفرصة على الفور سوى منازعاتها الداخلية .  
فلما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة وبين الموحيدين ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، يتأهب لغزو الأندلس . وكان منذ هزيمة الأرك الساحقة ، يتوق إلى الانتقام لهزيمته ، ورفع الوصمة التي لحقت من جرائها الجيوش النصرانية . وفي أوائل سنة ١٢٠٩ م ، خرج ألفونسو الثامن من قشتالة في قواته ، واحتشد فرسان قلعة رباح ، في قلعة شلبطرة ، على مقربة من قلعة رباح ، وكانوا قد لحأوا إليها منذ انتزع الخليفة يعقوب المنصور قلعة رباح من أيديهم عقب معركة الأرك . وسار ألفونسو صوب جيان وبياسة ، فانتسف الحقول وخرب الضياع ، وقتل وسبي ، وعاث الفرسان في أحواز أندوجر ، واستولوا على عدة حصون ، وأصاب المسلمين من جراء تلك الغارات ، بجن وخسائر فادحة . وفي العام التالي خرج ألفونسو إلى الأندلس مرة أخرى ، وعاث في أراضي جيان وبياسة ، ووصل في عيته إلى أراضي ولاية مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

وفي نفس الوقت ، وقعت في شرقي الأندلس حوادث مماثلة ، وكان السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف قائد الأسطول الموحيدي وقاتل الجزائر الشرقية ، قد سار في جميع وحدات الأسطول الموحيدي إلى مياه برشلونة ، وعاثت سفنه في شواطئ قطلونية ، وأنزل بها خسائر فادحة ، واستولى على كثير من الأموال والغنائم ، وكان ذلك في صيف سنة ١٢١٠ م ( ٥٦٠٧ هـ ) . فاستشاط ييدرو الثاني ملك أراجون لذلك غضبا ، وجمع قواته وخرج من منتشون ومعه فرقة من فرسان المعبد ( الداوية ) ، وسار جنوبا نحو أراضي ولاية بلنسية الشمالية وعاث فيها ، واستولى على عدة من الحصون الإسلامية في تلك المنطقة (١) .

وكان لاستئناف النصارى لغزواتهم المخربة ، في أراضي الأندلس ، على هذا النحو ، أعمق صدى ، وكان من الواضح أن الحاميات الموحدية الصغيرة التي ترابط في مختلف القواعد ، لم يكن في مقدورها أن تقوم ببرد الجيوش النصرانية الغازية ، ولم يك ثمة مندوحة من أن يعبر أمير المؤمنين بنفسه ، في جيوشه الحرارة ، إلى شبه الجزيرة ليضطلع بنفسه بجهاد النصارى ، على نحو ما فعل أبوه وجده . وقد عبر بالفعل وجوه شرقي الأندلس ، على أثر غارات ملك أراجون ، إلى العدو ، وقصدوا إلى الناصر ، مستغيثين به ، متضرعين إليه أن يسعفهم بعبوره ، فاهتز

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٤ .

الناصر لهذه الأنباء المزعجة ، وخصوصاً لما أبداه ملك قشتالة من الإصرار على خطته العدوانية ، بالرغم من احتجاج رسل الناصر إليه ، على خرق الهدنة .  
ومما هو جدير بالذكر أن الناصر كتب إلى الشيخ محمد بن أبي حفص وإلى إفريقية يستشيرهم في ذلك الأمر ، وفيما يتنويه من استئناف الجهاد والغزو ، فأبدى له الشيخ رأيه بوجوب التريث ونصح بعدم العبور واستئناف الغزو في تلك الآونة . ولكن الناصر لم يستمع إلى رأيه<sup>(١)</sup> ، وقرر الاستجابة لداعى الجهاد ، وأخذ بالفعل في الاستعداد ، ونفذت كتبه إلى سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة باستنفاذ الناس إلى الجهاد ، فاستجابت سائر الجهات والقبائل إلى الدعوة ، وكتب الناصر في نفس الوقت ، إلى ولاية إشبيلية وقرطبة ، بوجوب تجديد حشد الجند ، وإعداد المؤن ، وتمهيد السبل في جميع المناطق<sup>(٢)</sup> .

ولما كملت الأهبة ، وأقبلت الحشود من سائر الأنحاء ، وجهزت بما يلزم من العتاد والسلاح والكسب والمؤن ، خرج الناصر في قواته الجاردة من حضرة مراكش في يوم السبت عشرين من شعبان سنة ٦٠٧ هـ ( ٥ فبراير سنة ١٢١١ م ) وسار إلى رباط الفتح ، وعسكر في الضاحية المحاورة للمسماة ببرج الحمام ، وقضى هنالك نحو شهرين وهو يعمل على استيفاء الأهبة ، وتنظيم الشئون ، ونفذت كتبه مرة أخرى إلى الأندلس ، يطلب إلى ولايتها حث الناس على الجهاد ، واتخاذ ما يجب من ضروب الاستعداد ، فعكف الولاة على تنفيذ تلك الأوامر ، بكل ما وسعوا من غيرة وجهد :

وخرج الناصر في جيوشه من رباط الفتح ، في يوم الاثنين الثامن عشر من شوال ( ٤ أبريل سنة ١٢١١ م ) ، قاصداً إلى قصر كتامة ( القصر الصغير ) ، ونحن نعرف أن هذه المنطقة الممتدة من رباط الفتح شمالاً حتى البحر ، وهى طريق الجيوش الموحدية إلى الأندلس ، كانت مزودة بمراكز هامة لتكوين الجيوش والمسافرة ، سواء في الذهاب والإياب ، وأن هذه المراكز كانت تزخر دائماً بالمؤن والعلوفات اللازمة . ولكن الجيوش الموحدية لقيت هذه المرة خلال مسيرها ، صعاباً مرهقة في التمرين ، ونضبت الأقوات ، وغلت الأسعار بصورة لم تعهد

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ،

وروض القرطاس ص ١٥٤ .



من قبل ، ولحق الحند والناس من جراء ذلك ضيق وشدة . ووقف الناصر على ذلك ، فاستشاط غضباً ، وأدرك ما هنالك مما يرتكب من ضروب الإهمال والاختلاس ، فأمر بمواخضة سائر العمال المقصورين ومعاقبتهم ، وطلب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي علي بن مثنى صاحب الأعمال الخرفية والأشغال العملية ، بالقبض على عامل فاس ، وهو عبد الحق بن أبي داود ، فقبض عليه وعلى سائر نوابه من العمال المحليين ، واستصفيت أموالهم . وكذلك أمر الناصر ، حينما وصل إلى قصر كتامة بالقبض على عامل سبتة محمد بن يحيى المستوفى ، لما بدا من إهماله وفساده ، والقبض كذلك على سائر نوابه ، وتوجيههم جميعاً مصفدين إلى صاحب الأعمال بفاس<sup>(١)</sup> .

وحشدت السفن من سائر الأنحاء ، لعبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، واستمر عبورها بضعة أسابيع ، واستمر الناصر مقبلاً بالقصر ، حتى تم عبور ساقته وأنقاله وحاشيته وحرمه . وركب البحر في يوم الاثنين أول شهر ذى الحجة ( ١٥ مايو ) ونزل بساحل طريف ، وهناك استقبله قواد الأندلس وفقهاؤهم ، وأقام بطريف ثلاثة أيام ، ثم سار في جيوشه الحرارة إلى إشبيلية ، فوصلها يوم الاثنين منتصف ذى الحجة ( آخر مايو ) ونزل بقصور البحيرة الواقعة إزاء باب جهور ، وتم استقرار الجيوش الموحدية بالحاضرة الأندلسية ، وذلك في نهاية سنة ٦٠٧ هـ ( منتصف يونيو سنة ١٢١١ م ) .

وما كاد الناصر يستقر بإشبيلية حتى أمر باستئجار الحشود الأندلسية ، وصنع الآلات الحربية ، واستدعاء الحند والغزاة ، من سائر الكور ، ووصلهم مع العمال والولاة ، فلما تم تنفيذ هذه الأوامر ، وتم حشد الحند ، واستكمال الأمداد من سائر الجهات ، وأصبحت الجيوش الموحدية في حالة تعبئة كاملة ، شرع الناصر في الحركة ، وخرج من إشبيلية في جيوشه من الموحدين والعرب وأهل الأندلس والمطوعة والأغزاز وغيرهم من طوائف الحند ، وسار جنوبي الوادي متجهاً نحو قرطبة ، ثم سار منها إلى جيان وبياسة ، وكان النصاري هم الذين حددوا بتصرفهم ، الهدف الذي يقصد إليه الناصر بجيوشه ، وهو قلعة شلبطرة<sup>(٢)</sup> .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٧ ، وروض القرطاس ص ١٥٥ .

(٢) شلبطرة حسبما يرسمها صاحب الروض المعمار (ص ١٠٩) هي بالإسبانية Salvatierra ويرسمها صاحب روض القرطاس (ص ١٥٦) وابن خلدون (ج ٦ ص ٢٤٩) سربطرة أو شربطرة . ويرسمها المراكشي (المعجب ص ١٨٢) شلب ترة ، ويقول إن معناها « الأرض البيضاء » ويتابعه في هذا الرسم النويري ( طبعة ريمبرج ٨ ص ٢٧٩ ) :

التي تقع على مقربة من جنوبي غربي قلعة رباح ، بينها وبين جبال الشارات ( سيرا مورينا ) : وكان الخليفة يعقوب المنصور ، قد انتزع قاعدة قلعة رباح المنيعية ، حسبما تقدم ، من أيدي فرسان جمعية قلعة رباح الدينية في سنة ١١٩٥ م ، عقب هزيمة القشتاليين في معركة الأرك ، ونزل أولئك الفرسان في قلعة شلبطرة القريبة منها . وكانت هذه القلعة المنيعية ، فضلا عن مضايقتها لقلعة رباح باستمرار ، يتخذها النصاري قاعدة لغزواتهم الخربة داخل الأراضي الإسلامية ، ومنها سار القشتاليون والفرسان بالفعل للقيام بغاراتهم الخربة في أحواز جيان وبياسة وأندوجر قبل ذلك بقليل ، في سنة ١٢٠٩ م . ومن ثم فقد آلى الناصر على نفسه أن يفتح غزاته بالاستيلاء على تلك القلعة المنيعية .

— ١ —

وبجدر بنا بادئ ذي بدء أن نلم بطرف من أحوال اسبانيا النصرانية في تلك الآونة ، التي أخذت فيها طوابع الصراع الحاسم ، بين الموحدين والنصارى ، تبدو في الأفق مرة أخرى . وذلك أنه حينما وقعت معركة الأرك العظيمة في سنة ٥٩١ هـ ( ١١٩٤ م ) ، لم يكن الوثام سائداً بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وخاضت قشتالة المعركة وحدها ضد الموحدين . ولم تجد قشتالة بعد هذه الهزيمة الساحقة ضياعاً إسلامياً ، سوى عقد الهدنة مع الموحدين ، وارتضى الخليفة المنصور يومئذ ، أن يعقد السلم مع النصارى ، بعد أن بلغ غايته من سحق قواهم ، وقمع عدوانهم .

وقضت اسبانيا النصرانية منذ معركة الأرك فترة قصيرة من الهدوء والسلام ، وعقد الصلح أخيراً بين قشتالة وليون ، وذلك بزواج ألفونسو التاسع ملك ليون بالأميرة برنجيلا ابنة ألفونسو الثامن ملك قشتالة . بيد أن هذا الصلح لم يطل أمده ، إذ اضطر ملك ليون أن يطلق هذه الأميرة ، بعد ذلك بخمسة أعوام ، بناء على تدخل البابا وضغطه المستمر . ومن جهة أخرى فإن شريفاً قشتالياً كبيراً ، هودون ديجولوبث دي هارو ، سيد بسكاية ، وهو أخ لزوجة ملك ليون الأولى ، دونيا أورাকা ، قد ثار لما لحق بأخته من غبن وإهانة ، وارتد في أصحابه إلى أراضي نافارا ، وأخذ يغير منها على أراضي قشتالة ، فسار ألفونسو الثامن في قواته صوب نافارا ، فخشي ملكها سانشو الثامن العاقبة ، وقام بإخراج دون ديجو من مملكته ، فلبجاً دون ديجو إلى بيدرو الثاني ملك أراجون ، فنكل عن غوثه ، فاضطر أن يلجئ عندئذ إلى



المسلمين في ولاية بلنسية ، وأخذ يغير من هنالك في صحبه على أراضى أراجون . وكانت أول نتيجة لهذه الحوادث أن عقدت بين نافارا وقشتالة في سنة ١٢٠٧ م الهدنة لمدة خمسة أعوام . ثم تدخل ملك قشتالة بعد ذلك ، بين زميله ملك نافارا وملك أراجون ، فعقدت بينهما الهدنة ، وذلك في سنة ١٢٠٩ م ، وانعقد بذلك نوع من الوثام والتفاهم ، بين الممالك الإسبانية النصرانية خلا مملكة ليون .

وكان أجل الهدنة المعقودة بين ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وهو سنة ١٢١٠ م ، يدنو عندئذ من نهايته ، وكان ملك قشتالة ، بعد أن شعر بنوع من الطمأنينة والأمل في عون زملائه ، يضطرم رغبة في استئناف الحرب ضد الموحدين ، فبدأ بالقيام بغاراته الخربة التي أشرنا إليها في منطقة جيان وبياسة وأندوجر ، وذلك خلال سنتي ١٢٠٩ ، ١٢١٠ م ، ولم يحفل باحتجاج رسل الخليفة الموحدي ، على هذا الخرق لنصوص الهدنة المعقودة ، وكانت قلعة شابطرة ، التي يحتلها فرسان قلعة رباح ، قاعدة لهذه الغارات الدموية التي ضج لها المسلمون يومئذ . وحذا بيدرو الثاني ملك أراجون حذو زميله ملك قشتالة ، فغاث في منطقة بلنسية ، انتقاماً لغزو السفن الموحدية لشواطئه ، واستولى على عدة من حصون هذه المنطقة ، وكان من الواضح أن ملك قشتالة يستطيع أن يعتمد على موازنة حليفه ملك أراجون ، إذا ما اضطربت الحرب بينه وبين الموحدين . وكان على رأس البابوية يومئذ حبر يضطرم بروح صليبية عميقة ، هو البابا إنوسان الثالث ، الذي اعتلى الكرسي الرسولي في سنة ١١٩٨ م ، وقد سبق أن أشرنا في غير فرصة إلى ما كان يتمتع به الكرسي الرسولي لدى الممالك الإسبانية النصرانية ، من مكانة راسخة ونفوذ قوى ، وإلى ما كان يعلقه الملوك الإسبان ، من أهمية بالغة ، على الصفة الصليبية لحروبهم ضد المسلمين ، ولا سيما عند اضطرام الحرب الشاملة بين الفريقين ، وذلك استدراكاً لعطف الأمم النصرانية المجاورة ، واستجلاباً للمتطوعة والمرتزقة النصاري من سائر الأنحاء . وكان ملك قشتالة ، حينما اعتزم أن يشهر الحرب على الموحدين ، قد بعث جرهارد أسقف شقوبية إلى البابا إنوسان ، ليرجوه أن يدعوهم أوربا النصرانية لموازنته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين في اسبانيا ، وأرسل كذلك رديك مطران طليطلة<sup>(١)</sup> وعدة آخر

(١) هو رديك الطليطل صاحب التاريخ المشهور المنسوب إليه المكتوب باللاتينية *Anales Toledanes* ، والمتضمن لتاريخ اسبانيا النصرانية حتى أوائل القرن الثالث عشر . وقد طبع بفرانكفورت —

من أكابر الأحبار إلى فرنسا ، وإلى الأمم المجاورة ، للدعوة إلى قضيته واستثارة حماسة النصارى للعبور إلى اسبانيا ، ومؤازرة الجيوش النصرانية في قتالها ضد المسلمين . ونزل البابا عند رغبة ملك قشتالة ، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا في يناير سنة ١٢١٢ ، بأن يعظوا رعاياهم بأن يسبروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه أى البابا يمنح كل من لبي هذه الدعوة الغفران التام . وكان الإنفانت الفتي دون فرناندو ولي عهد قشتالة ، وولد ألفونسو الثامن قد توفي عندئذ ، فبعث إليه البابا يعزيه عن فقد ولده ، وكذلك عن فقد حصن شابطرة الذى استولى عليه الموحدون حسبا نفصل بعد ، ويعرب عن خوفه بأن الحرب ضد « الألبين »<sup>(١)</sup> في جنوب فرنسا قد تحول دون كثرة المتطوعين ، وأنه يتمنى له الفوز في جميع الأحوال . بيد أنه يعرب عن نصحه له بأنه إذا استطاع أن يعقد الهدنة مع « أمير المؤمنين » فليفعل ، حتى تسنح فرصة أفضل لضمان النصر المنشود .

كانت هذه هي أحوال قشتالة والممالك الإسبانية النصرانية ، حينما عبر الناصر في جيوشه الحرارة إلى شبه الجزيرة الأندلسية ، في شهر ذى الحجة سنة ٦٠٧ هـ ( مايو ١٢١١ م ) . ويعلق صاحب روض القرطاس على عبور الخليفة الموحدى بقوله : « واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه في قلوب ملوكهم ، وأخلوا في تحصين بلادهم ، وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم . وكتب إليه أكثر أمرائهم يستلون سلامته ويطلبون منه عفوه » ، ثم يقدم إلينا قصة غامضة عن مقدم ملك « بيوتة » على الخليفة بإشبيلية « مستسلياً خاضعاً مستصغراً ، يطلب صلحه ، ويسأل منه عفوه وصفحته » وكيف أن الناصر وافق على مهادنته إلى الأبد ، وأعطاه تحفاً جلية<sup>(٢)</sup> . ويرجع غموض هذا النص ، إلى أن مدينة بيوتة ، وهى تقع في الطرف الآخر من البرنيه على خليج بسكونية ، قرب مملكة ناغارا ، لم تكن يومئذ داخلة في حظيرة اسبانيا النصرانية ، بل كانت من أملاك چون ملك

سنة ١٦٠٦ ضمن سلسلة Hispana Illustrata ونشر أيضاً مع الطبعة العربية لتاريخ المكين بن العميد المطبوع بلندن سنة ١٦٢٥ .

(١) الألبينون Albigences هم فرقة من الملاحدة ظهرت في جنوب فرنسا في أوائل القرن الحادى عشر ، واتخذوا مدينة « ألبى » مركزاً لهم ومنها اشتق اسمهم . وشهروا على الكثرة ومبادئها ورسومها حرباً شديدة ، واستمروا يثبتون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سيمون دى مونفور في أوائل القرن الثانى عشر عليهم حرباً صليبية انتهت بتمزيقهم .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .



انجلترا ( ولد هنرى الثانى ) ، وذلك بالوراثه عن أمه دوقه أكويتين . وقد ترنب على ذلك أن بعض الباحثين ، رأو ، بالاستناد فى نفس الوقت إلى مؤرخ إنجليزى عاش فى القرن الثالث عشر ، أن صاحب روض القرطاس ، يشير بذلك إلى سفارة وردت إلى محمد الناصر من قبل ملك إنجلترا يومئذ ، وهو الملك جون . ولكننا نلاحظ أولاً أن صاحب روض القرطاس يتحدث عن مقدم « ملك بيوتة » بنفسه ، وليس عن مقدم سفيره ، ومن جهة أخرى فإن كلمة « بيوتة » هذه التى وردت فى طبعة تورنبرج التى نعتمد عليها قد وردت مكانها كلمة « بنبلوتة » فى النص الذى نقله السلاوى ( عن روض القرطاس )<sup>(١)</sup> . ومعنى ذلك أن الذى ورد على الناصر ، أثناء مقامه بإشبيلية هو ملك ناغارا ( نبرة ) ، وهو حدث مفهوم معقول ، يتفق مع ما سبق عقده من علائق المودة والتحالف بين سانشو السابع ملك ناغارا الملقب « بالقوى » وبين البلاط الموحدى . وتسجل لنا التواريخ النصرانية نفسها أن سانشو السابع ، كان قبل ذلك بيضعة أعوام ، حينما شعر بالخطر يتهدد مملكته من جراء تحالف جاريه ملكى قشتالة وأراجون ضده ، قد عبر البحر إلى المغرب ملتجئاً إلى عون الخليفة الموحدى ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وأنه قد أقام بمراكش فى ضيافة الخليفة الناصر ، زهاء عامين ، توطدت فيهما الصداقة والتحالف بين الملكين<sup>(٢)</sup> . يضاف إلى ما تقدم أن الألفاظ التى صيغ بها نص روض القرطاس ، والقصة كلها التى يوردها عن كيفية استقبال الناصر للملك المذكور ، لا يمكن أن تنصرف إلى أية سفارة واردة من خارج شبه الجزيرة الإسبانية . وإذا فمن المرجح المعقول أن يكون ملك ناغارا حليف الموحدين القديم هو الذى ورد على الناصر ، وهو ملك « بنبلوتة » . وهناك دليل آخر يؤيد هذا رأى ، وهو ما ورد فى كتاب الناصر عن موقعة العقاب من إشارته إلى صاحب نبرة ونكته بحلفه وكونه « كان متعلقاً من الموحدين بزمام ، فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكراً ، ولسواد أهل ملته مكثراً ، فالحق بتلك الجموع مرهجاً »<sup>(٣)</sup> ، ويقول لنا ابن خلدون إن الذى ورد على الناصر فى تلك المناسبة ، هو ملك ليون المعروف « بالبيوج » ، قدم عليه عام العقاب « فداخله » وأظهر له

( ١ ) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٩٢ .

( ٢ ) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 345 - 346 .

( ٣ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

التنصيح ، فبذل له أموالاً ثم غدر به <sup>(١)</sup> . ونستطيع أن نلاحظ أخيراً أنه لم تكن ثمة أية علاقات سياسية ومصلحية ، بين الموحدين وبين ملك إنجلترا ، تستدعي أن يأتي ملك إنجلترا بنفسه إلى الخليفة الموحدى : « مستسلماً خاضعاً مستصغراً » وليس من الممكن أن ينسب مثل هذا التصرف إلا إلى ملك من ملوك اسبانيا النصرانية <sup>(٢)</sup> .

وخرج الناصر في جيوشه من إشبيلية ، حسباً تقدم في الأيام الأولى من سنة ١٢٠٨ هـ (أواخر يولييه ١٢١١ م) متجهاً إلى جيان ، فأبدت وبياسة ، ثم سار شمالاً نحو قلعة شلبطرة . وكانت هذه القلعة تقع على ربوة عالية على مقربة من جبل الشارات ، وكانت من أكبر وأمنع قلاع تلك الناحية . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن الناصر كان يقصد السير توتاً إلى غزو قشتالة ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع ، أقنعه بوجوب الاستيلاء أولاً على قلعة شلبطرة ، نظراً لمناعتها الفاتكة ، وأهمية موقعها <sup>(٣)</sup> . بيد أنه يبدو من الروايات الأخرى أن غزو أراضى قشتالة ، لم يكن قد تقرر لدى الخليفة بعد ، وأنه كان يقصد الاستيلاء على شلبطرة بادئ ذي بدء . ويؤيد ذلك ما ورد في كتاب الفتح الخاص بشلبطرة على لسان الخليفة ، بأنه وإن كان صاحب قشتالة أقرب من تعيينت حربه داراً ، فإن فصل الغزو ، كان قد ذهب جُله ، واستحالت الأرض من جراء الأمطار الغزيرة إلى غدير وأوحال ، تحول دون مسير الخيل ، وذهبت معظم الحسور ، وأنه قصد إلى معقل شلبطرة لقيامه في قلب الإسلام ، وكون النصرانية قد جعلته جناحاً أكمل غاية ، تخلمه ملوكها وورهبانها ، وتتخذ منه عاصماً يعصمها <sup>(٤)</sup> . وعلى أى حال فقد طوق الموحدون قلعة شلبطرة ، بعد أن استولوا على أرباضها ، وقتلوا بها من النصارى أربعائة ، وأضرمو النيران فيها ، واستولوا على حصن آخر قريب منها تسميه الرواية « بحصن التلج » ثم نصبوا حولها أربعين قطعة من المجانيق الهائلة ، وضربوها بالحجارة الضخمة ، ورموها

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٦ و ١٥٧ .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٩ ، وراجع أيضاً المعجب ص ١٨٢ ، وتضع

بعض الروايات النصرانية سقوط القلعة في أيدي الموحدين في شهر سبتمبر سنة ١٢١٠ راجع :

La Orden de Calatrava (Ciudad Real 1959) (p. 18)



بالنبال والسهم المطرقة ، حتى اضطر النصارى إلى تسليم القلعة ومغادرتها . وقد استمر الحصار وفقاً لرواية صاحب الروض المعطار واحداً وخمسين يوماً . وكانت حامية القلعة ، وفقاً للرواية المذكورة ، حينها اشتد بها البلاء من جراء الضرب المروع المتواصل ، وتساقط الحجارة الهائلة ، قد طالبوا من الموحدين أجلاً يتصلون فيه بملكهم ألفونسو الثامن ليستأذنه في تسليم القلعة ، إذا لم يستطع إنجادهم ، وكان ألفونسو الثامن عندئذ بجوار طلبيرة يجد في أهباته ، فاتصل به رسلاً ، واضطر أن يوافق على تسليم القلعة لعجزه عن إمدادهم ، ولأنه لم يكن قد استكمل أهباته بعد . فعادوا وسلمت شلبطرة للموحدين ، فدخلوها وحولوا كنيسها في الحال مسجداً ، ووفى الخليفة بوعدده في ترك الحامية النصرانية تعود إلى بلادها ، وكان ذلك في أوائل ربيع الأول سنة ٦٠٨ هـ ( أواخر أغسطس سنة ١٢١١ م )<sup>(١)</sup> . ويقول صاحب روض القرطاس إن الحصار قد طال بالعكس ثمانية أشهر ، واستمر بذلك حتى دخل الشتاء واشتد البرد ، وقلت المؤن وكلت عزائم الجند ، وفسدت نباتهم التي قصدوا بها للجهاد ، ونضبت المواد من الحملة ، وأن ملك قشتالة لما وقف على ذلك وعلم أن شوكة المسلمين قد انكسرت ، والحدة التي قاموا بها قد خمدت ، تاهب لأخذ الثأر ، وجاءته ملوك الروم وهم في غاية الاستعداد ، ثم جاء ألفونسو بقواته وهاجم قلعة رباح واستولى عليها . ويضع تاريخ تسليم شلبطرة في أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٨ هـ ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة ، لما وقف على سقوط القلعة ، سار وسائر من كان معه من ملوك الروم ، وحشودهم والتي بالموحدين في موضع يسمى « حصن العقاب »<sup>(٢)</sup> . بيد أن هذه الرواية التي يستخلص منها أن سقوط شلبطرة في أيدي الموحدين ، وسقوط قلعة رباح في أيدي القشتاليين ، ثم نشوب معركة العقاب بين الفريقين ، قد حدثت كلها متتابعة في حلقة واحدة ، ينقضها أولاً كتاب الفتح الصادر عن الخليفة ذاته بفتح شلبطرة ، وهو مؤرخ في الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ ، ولا بد أنه كتب بعد سقوط القلعة بأيام قلائل<sup>(٣)</sup> ، ثم تنقضها أكثر من رواية وثيقة . فصاحب الروض المعطار يقول لنا ، إن الناصر بعد افتتاح شلبطرة « رجع إلى إشبيلية ظافراً غانماً ، ثم استغاث الأذفونش

(١) الروض المعطار ص ١١٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٨ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٨ .

بأهل ملته وحثمهم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، وانثالوا عليه من كل مكان .  
ويقول لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، إنه بعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله  
من هذا الفتح المتقدم الذكر ( أعنى فتح شلبطرة ) إلى إشبيلية ، استنفر الناس من  
أقاصي البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة<sup>(١)</sup> . وإذن فن الواضح أن غزوة شلبطرة  
كانت غزوة مستقلة ، اقتضت على فتح هذه القلعة المنيعه ، وأن القوات  
الموحدية التي قامت بفتحها ، لم تكن هي تلك الجيوش الحاررة التي عادت بعد  
ذلك بأشهر ، لتلتقي مع الجيوش النصرانية في « مرتفعات » العقاب ، وأن الموحدين  
والنصارى ، قد انتفع كلاهما بتلك الفترة لمضاعفة الأهمية والاستعداد .

ففي الوقت الذي حل فيه الناصر بإشبيلية ، بعد عودته من غزوة شلبطرة ،  
كان ملك قشتالة ، يبذل أقصى جهوده في استكمال أهباته لمقاتلة الموحدين .  
ولم تكن هذه الأهمية تقتصر على قشتالة وحلفائها من ملوك اسبانيا النصرانية ،  
ولكنها كانت تمتد بعيداً إلى ما وراء ذلك . وقد سبق أن أشرنا إلى مسعى ملك  
قشتالة لدى البابا ، ليسبغ الصفة الصليبية على محاربه المسلمين ، وأن البابا قد  
استجاب إلى رغبته ، وكتب إلى الأساقفة بدعوة النصارى في جنوبي فرنسا وغيرها  
إلى التطوع لمقاتلة المسلمين ، وكان سقوط شلبطرة وهي مركز فرسان قلعة رباح  
في أيدي الموحدين على النحو المتقدم ، نذيراً جديداً بتفاقم الخطر على مصابر  
اسبانيا النصرانية ، وبتأكيد هذه الصفة الصليبية<sup>(٢)</sup> . وكان المطران المؤرخ رديك  
الطليطلي ، وعدة من أكابر الأحرار عندئذ يجوبون جنوبي فرنسا لجمع المتطوعين .  
واستمرت هذه الجهود الصليبية تبذل خلال عام ١٢١١ م ، وكانت الوفود  
المتطوعة تأتي تباعاً إلى طليطلة ، التي تقرر أن تكون مكاناً لاجتماع الجيوش ،  
والوفود المختلفة . وفي أوائل سنة ١٢١٢ م ، عاد المطران رديك ومعه جمهرة  
كبيرة من المتطوعة الفرنسيين ، ثم اجتمعت بعد ذلك وفود المدن الإسبانية ،  
وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وفرسان الجمعيات الدينية ، وهم فرسان قلعة  
رياح ، وشنت ياقب ، والأسبتارية ، والداوية ( فرسان المعبد ) ، واجتمع كذلك  
سائر القوامس والفرسان القشتاليين ، وفي مقدمتهم رؤساء أسرة لارا وفرسانها ،  
والكونت ديجولوبيث ، ولوبي دياث دي هارو ، ومن معهم من الفرسان . وكان

( ١ ) الروص المطار ص ١٣٧ ، والمعجب ص ١٨٢ .

( ٢ ) La Orden de Calatrava ; p . 18 .



يرأس فرسان قلعة رباح جوميث راميريس ، وفرسان شنت ياغب بيدرو آرياس ، ويرأس فرسان الأسبتارية ولد جوتيرو هرمنجلد ، وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من مختلف المدن ، ويتولون الإنفاق على حشودهم . وقدم فوق ذلك عدة من أحبار فرنسا يقود كل منهم جماعة من المحاربين ، وفي مقدمتهم مطران أربونة وأسقف بوردو ونانت وغيرهم من أكابر رجال الدين .

ولم يأت شهر مايو سنة ١٢١٢ م ، حتى اجتمع في قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمعاونة اسبانيا النصرانية ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان والمقاتلة ، وخمسين ألفاً من الرجالة ، أو بعبارة أخرى اجتمع من هذه الوفود الصليبية المختلفة جيش ضخم يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل ، لموازة الجيوش الإسبانية النصرانية ، وكانت تتألف من جيوش قشتالة وأراجون ونافار ، ومن أمداد من جليقية والبرتغال . وتلقى ملك قشتالة ، فوق ذلك ، مقادير عظيمة من الأموال والسلاح ، والمؤن ، أرسلت إليه من أنحاء فرنسا وإيطاليا . ولم يأت شهر يونيه سنة ١٢١٢ م ، حتى بلغ عدد الجيوش الوافدة على قشتالة أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من الرجالة . وأمر البابا إنوسان الثالث في رومه بالصوم ثلاثة أيام ، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية في اسبانيا على المسلمين ، وأقيمت الصلوات العامة . وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب الدينية في الطرقات خاضعة متمهلة ، من كنيسة إلى أخرى ، وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبانيين<sup>(١)</sup> .

وتشير الرواية الإسلامية إلى هذه الاستعدادات الضخمة كلها ، وإلى ما سعى إليه ملك قشتالة من صبغ محاربه للموحدين بالصبغة الصليبية . وكان المراكشي أكثرهم إلاماً بذلك ، إذ يقول : « وخرج الأدفنش لعنه الله إلى قاصية بلاد الروم ، مستنفرأ من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان ، حتى بلغ نفيده إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشونوني لعنه الله »<sup>(٢)</sup> . ويقول صاحب

( ١ ) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح ( الترجمة العربية ص ٣٥٨ - ٣٦٠ ) .

( ٢ ) المعجب ص ١٨٢ .

البيان المغرب » فاستعد له ( أى للقاء الناصر ) وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفين <sup>(١)</sup> . ويقول أيضاً صاحب الروض المطار » ثم استغاث الأذقونش بأهل ملته وحشهم على حماية دينهم ، فاستجابوا له واثأوا عليه من كل مكان <sup>(٢)</sup> . وأبلغ من ذلك ماورد في كتاب الخليفة الناصر ذاته عن موقعة العقاب إذ يقول » إن صاحب قشتالة رأى أن يضرع للوك أهل ملته ، ويصانعهم على معونته بالتالد والطريف . . فبث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى . . فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق . . وكان أولهم سبقاً الأفرنج المتوغلون في الشرق والشمال <sup>(٣)</sup> فهذه الفقرات الموجزة تدل دلالة واضحة ، على أن الموحدين كانوا يعلمون بحقيقة الوسائل والاستعدادات البعيدة المدى ، التي لحأ إليها ألفونسو الثامن ليقود إلى ميدان الحرب أكبر قوة نصرانية يمكن حشدتها ، وليسبح صبغة الحرب المقدسة على المعركة التي يضطلع بها ، مثلاً كان المسلمون يسبقون صفة الجهاد في سبيل الله ، على المعارك التي يخوضونها ضد النصارى .

وكان الموحدون من جانبهم يقومون بمثل هذه الاستعدادات ، وقد استنفر الناصر عقب عوده من غزوة شلبطرة إلى إشبيلية ، الناس من سائر الجهات ، ليضعف حشوده ، وليدعم جيوشه ، فاجتمعت له قوات جديدة كثيفة ، وكان من الواضح أن الفريقين يرى كل منهما أن أجل اللقاء الحاسم يدنو بسرعة : ففي يوم ٢٠ يونيه سنة ١٢١٢ م ، خرجت الجيوش النصرانية ، من طليطلة قاصدة إلى الجنوب . وكانت مقسمة إلى ثلاثة جيوش رئيسية ، جيش الطليعة ويتألف من قوات الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف مقاتل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ، وكان يقوده القائد القشتالي ديجولويث دى هارو يعاونه عدد من أكابر الأحرار والقوامس . ويتألف الجيش الثاني من قوات أراجون وقطلونية وفرسان الداوية ، ويقوده بيدور الثاني ملك أراجون . ويتألف الجيش الثالث ، وهو جيش المؤخرة من قوات قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والأسبتارية ، ويقوده ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، يعاونه

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الروض المطار ص ١٣٧ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٤١ .



عدة قواد من الأحيار والسادة ، وفي مقدمتهم رديك مطران طليطلة ، وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذه الجيوش بثلاثين ألفاً ، وذلك غير المشاة .

وخرج الناصر في جيوشه من إشبيلية في العشرين من محرم سنة ٦٠٩ هـ (٢٣ يونيو سنة ١٢١٢م) متجهاً صوب جيان ، وقاصداً لقاء النصاري . وكانت الجيوش النصرانية تسير في نفس الوقت نحو الأراضي الإسلامية ، فوصلت طلائعها في اليوم الرابع والعشرين من يونيو ، إلى حصن ملكجون ، وهو من حصون الحدود الإسلامية ، فاستولت عليه ، وقتلت حاميته الإسلامية الصغيرة ، ثم استمرت الجيوش النصرانية في سيرها صوب قلعة رباح أكبر وأمنع القواعد الإسلامية في تلك المنطقة . وكان الخليفة المنصور قد انتزعها عقب موقعة الأرك من فرسان قلعة رباح حسبما تقدم وحول كنيسها إلى مسجد ، وعين لقيادتها أباً الحجاج يوسف بن قادس ، وهو من أنجاد الفرسان والقادة الأندلسيين ، وكان يسهر على حمايتها ، والدفاع عنها ، من ذلك التاريخ ، وكان لديه وقت مقدم النصاري حامية من سبعين فارساً<sup>(١)</sup> . ولقي النصاري في عبور نهر وادي يانه الذي تقع قلعة رباح على مقربة من ضفته الجنوبية صعاباً ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبيه الصنابير والخوازيق الحديدية ، فلما عبروا النهر ، طوقوا القلعة في الحال ، ولكن القلعة كانت فضلاً عن مناعتها الطبيعية بوقوعها جنوبي النهر ، تتمتع بأسوار وأبراج في منتهى المناعة ، ومن ثم فقد تردد النصاري في مهاجمتها بادئ ذي بدء ، ولبثوا تحت أسوارها ثلاثة أيام يبحثون فيما إذا كان من الأفضل الاكتفاء بتطويق القلعة ، وترك افتتاحها لما بعد وقوع النصر ، ولكن غلب الرأي في النهاية بوجوب مهاجمتها ، فهوجمت بشدة في يوم ٣٠ يونيو ، واستطاع النصاري أن يحتلوا قسمها الخارجي الذي يحاذي النهر ، وهو أضعف قسمها من حيث المناعة . وهنا تنفق الروايتان النصرانية والإسلامية ، فيما تلا من تفاهم المسلمين والنصاري على تسليم القلعة ، ومنح الأمان لحاميتها ، وتركهم أحراراً في مغادرتها إلى بلادهم ، وذلك على نحو ما حدث في شلبطرة بالنسبة لحاميتها النصرانية . وكان ابن قادس قد انتهى إلى هذا الرأي ، بعد أن حاول الاستنجاد عبثاً بالناصر ، وهو بمحلته القريبة ، وبعد أن أيقن بعبث الدفاع ، وتعريض رجاله لموت محقق ، إذا هو أصر على القتال . وكان ألفونسو ملك قشتالة ، يؤيد هذا الحل السلمي الذي يمكنه

(١) روض القرطاس ص ١٥٧ .

من الاستيلاء على قلعة رباح دون تأخير ودون سفك دماء . ولكن حلفاءه من الأرجونيين والأجانب الوافدين ، عارضوا في أية تسوية تحقق بها دماء الحامية الإسلامية . ولكن غلب الرأي بقبول هذا الحل في النهاية ، خصوصاً ، وقد صمم ابن قادن على الدفاع ، إذا لم يجب إلى ما طلب من منح الأمان والحرية لرجاله . واتفق على أن يغادر الفرسان المسلمون القلعة دون سلاح ، ومعهم خمسة وثلاثون من الخيل . وهكذا استولى ألفونسو الثامن على قلعة رباح ، وسلمها في الحال إلى « فرسان قلعة رباح » أصحابها السابقين ، قبل أن يفتحها الخليفة المنصور<sup>(١)</sup> .

وكان افتتاح قلعة رباح مثار التنازع والخلاف بين القشتاليين وحلفائهم الوافدين . ذلك لأن الوافدين الصليبيين ، رأوا في إفلات المسلمين من القلعة أحراراً أحياء ، عملاً لا مبرر له ، ولا يتفق مع أغراض الحرب الصليبية ، وثانياً لأن ألفونسو وجد في قلعة رباح مقادير وافرة من المؤن قسمها بالتساوي بين الجند الوافدين وزملائهم المحاربين الأصليين ، ولكن سرت الإشاعة بين الجند الوافدين ، أن ملك قشتالة ، قد عثر بالقلعة على تحف و ذخائر كثيرة استأثر بها لنفسه . ومن ثم فقد أبدت طوائف كثيرة من الجند الوافدين تبرمها وخطها ، واحتج كثير منهم بأنهم لا يحتملون جو إسبانيا الحار ، وأنهم وفوا بعهودهم في مقاتلة المسلمين في ملجون وقلعة رباح ، وأبدوا عزمهم على الرجوع إلى بلادهم ، وأيدهم في ذلك مطران بورجو أعظم أحبارهم ، ولم تنجح جهود ملك قشتالة وزملائه الإسبان ، في إقناعهم بالعدول عن قرارهم ، وغادرت معظم الطوائف الوافدة المعسكر القشتالي ، ولم يبق منهم سوى أرنولد أسقف أربونة في رجاله ، والكونت تيوبالد بلاسكون وهو قشتالي المنبت ، وكانت عدة رجالهم مائة وثلاثون فارساً ، وبلغ من غادر المعسكر القشتالي على هذا النحو زهاء خمسين ألف مقاتل ، اخترقوا قشتالة ، صوب جبال البرنيه عائدين إلى بلادهم ، وقد أغلقت سائر المدن الإسبانية أبوابها في وجوهم خوفاً من اعتدائهم وغيبتهم<sup>(٢)</sup> .

(١) المعجب ص ١٨٣ ، وروى الفرطاس ص ١٥٧ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة ، وكان مشتركاً في الموقعة ، وقد أوردها Hulci Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956) p. 242, 244 & 245 وكذلك أشباخ في تاريخ المرابطين والموحدين « الترجمة العربية » ص ٣٦١ و ٣٦٢ .

(٢) أشباخ في تاريخ المرابطين والموحدين الترجمة العربية ص ٣٦٢ و ٣٦٣ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة H. Miranda : ibid ; p. 245 .



ولأنه لما يلفت النظر أن الرواية الإسلامية ، لم يفتها أن تشير إلى هذا الشقاق الذى وقع فى المعسكر النصرانى ، على أثر افتتاح قلعة رباح ، فترى المراكشى يقول مشيراً إلى افتتاح القلعة « فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا إنما جئت لنفتح بنا البلاد ، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ، مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه » (١) .

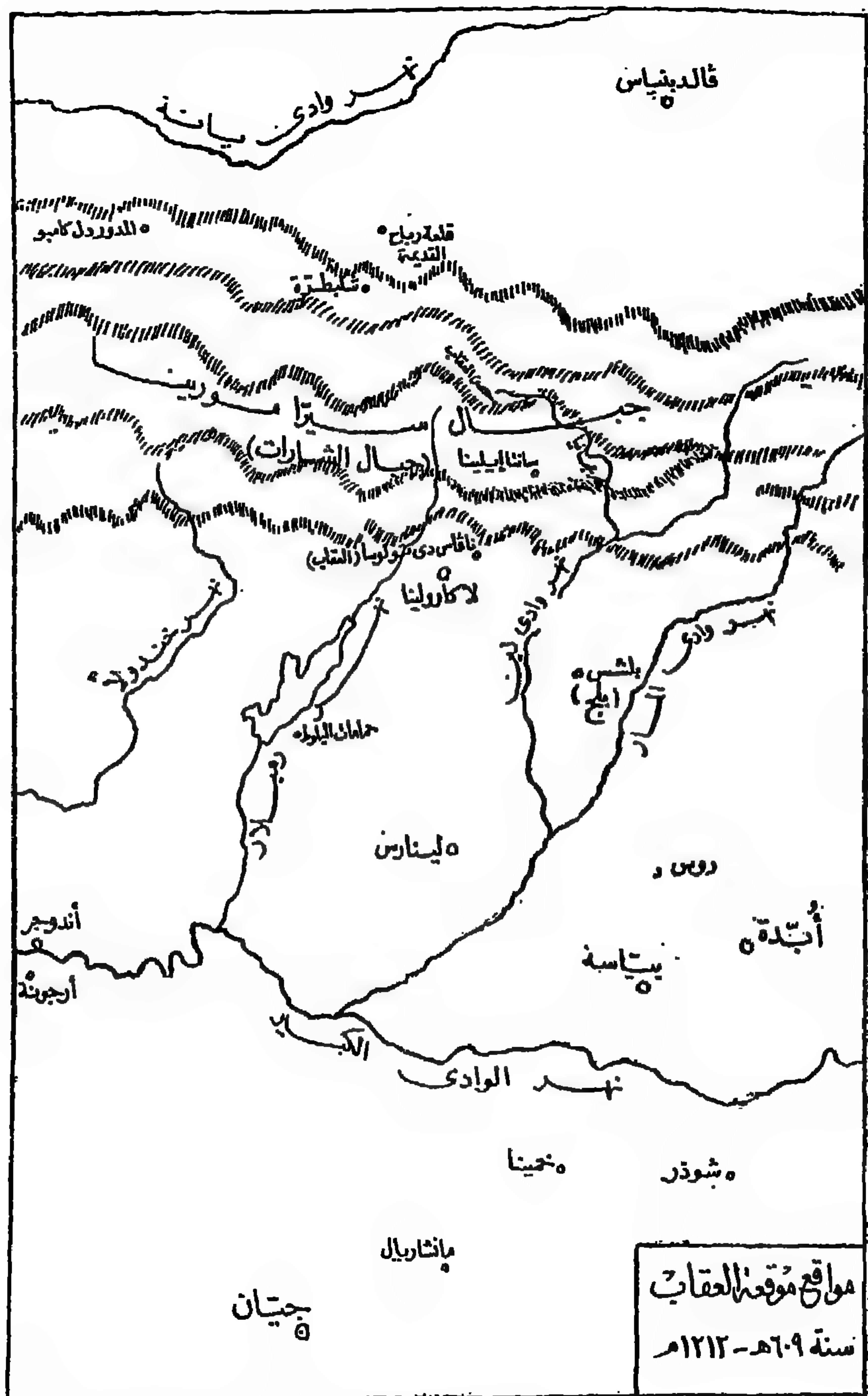
وفى ذلك الحين كان الناصر قد وصل فى جيوشه الحرارة إلى جيان ، وهناك استقر بظاهرها أياماً ، منتظراً عبور النهر ، ووقف على ما وقع من أحداث على الحدود ، من سقوط قلعة رباح فى يد العدو ، وما حدث على أثر ذلك فى المعسكر النصرانى من الشقاق ، وما عمدت إليه طوائف الجند الوافدين من العود إلى بلادها . وقدم ابن قادس قائد قلعة رباح عندئذ ، إلى المحلة الموحدية ، مع صهره ونفر من أصحابه ، ليقص أمره على الخليفة ، فمنعه الوزير أبوسعيد بن جامع من ذلك ، وصوّر موقفه للخليفة أسوأ تصوير ، واتهمه بالخيانة وتسليم القلعة للنصارى ، فأمر الناصر بإعدامه هو وصهره ، دون أن يستمع إليه ، أو يستوضح أمره ، فأعدما طعناً بالرماح ، وكان لمصرع هذا القائد الأندلسى الباسل على هذا النحو ، وقع عميق بين مواطنيه الجند الأندلسيين ، ولما شعر الوزير ابن جامع بما حدث من تغير نفوس الأندلسيين ، استدعى قادتهم ، وطلب إليهم أن يعتزلوا جيش الموحدين ، وأنه لا حاجة للموحدين بهم . وكانت هذه إحدى البوادر المقلقة فى المعسكر الموحدى (٢) .

وكان لسقوط قلعة رباح فى أيدي النصارى أسوأ وقع فى نفس الخليفة الناصر ، وكان ألفونسو الثامن عقب استيلائه على القلعة ، قد استطاع أن يتغلب بسرعة على ما حدث فى المعسكر النصرانى ، من جراء ذلك من خلل ، بسبب رحيل بعض طوائف المحاربين الوافدين ، وأن ينظم ما تبقى من قواته المكونة من قوات قشتالة وأراجون وجليقية والبرتغال . وكان ملك ناغارا ، قد ارتضى

---

(١) المعجب ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، واثروض المطارص ص ١٣٧ .





أخيراً بالرغم من خصومته القديمة لقشتالة ، ومهادنته للموحدين ، أن يشترك في تلك الحملة الصليبية بقوة صغيرة من الفرسان ، وذلك نزولاً على نصيح البابا وإلحاحه<sup>(١)</sup> ، وهكذا استأنفت القوات النصرانية المتحدة سيرها إلى الجنوب نحو الأراضي الإسلامية ، ومرت بشلبطة دون أن تتعرض لها ، حتى أشرفت طلائعها على مرتفعات جبال الشارات (سيرا مورينا) ، ثم لحقت بها سائر القوات الأخرى ، واحتلت البسيط العلوى المقفر المسمى ممر مورادال ، وذلك في يوم ١٣ يولييه (العاشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ) .

وفي خلال ذلك كان الخليفة الناصر ، قد تحرك في جيوشه الحرارة نحو الشمال لملاقاة العدو ، وكانت الجيوش الموحدية ، قد قسمت كالعادة إلى وحداتها العنصرية والقبلية ، فكانت خمسة أقسام ، يتكون القسم الأول من طوائف العرب ، ويتكون القسم الثاني من القبائل المغربية مثل صنهاجة وزناتة والمصامدة وغمارة وغيرها ، والقسم الثالث من الجنود المتطوعة ، والقسم الرابع من جند الموحدين النظامية ، والقسم الخامس من جنود الأندلس . أما عن عدد الجيوش الموحدية التي كان يقودها الناصر ، فقد بولغ في شأنه مبالغة كبيرة . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الناصر قد خرج في جيوش لا تحصى وأمم كالجراد المنتشر ، قد ملأت السهل والوعر ، وضاق بهم المتسع والتجد والغور . ثم يقدم إلينا في موضع آخر أرقام الجيوش الموحدية مفصلة ، فيقول إن عدد المتطوعة بلغ مائة وستين ألفاً بين فارس وراجل ، وبلغ عدد الرجال المحشودين ثلاثمائة ألف راجل ، وبلغ عدد العبيد الذين يمشون بين يدي الخليفة بالحرايب ويدورون حوله ثلاثون ألف عبد ، ومن الرماة والأغزاز (الغز) عشرة آلاف . وذلك كله دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم . ومعنى ذلك أن الجيوش الموحدية بلغت مجتمعة نصف مليون مقاتل غير المرتزقة<sup>(٢)</sup> . وفي رواية أخرى لا تقل مبالغة وإغراقاً أن الجيوش الموحدية كانت تضم ستمائة ألف مقاتل<sup>(٣)</sup> ، وهذا تقدير لا يمكن أن يسيغه العقل ، إذ كان من المستحيل مادياً أن يكفل تموين مثل هذا الجيش ، وخصوصاً في مثل هذه المنطقة الوعرة التي كان يحترقها الجيش الموحدى للقاء

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٠ .

(٣) المقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ ، ونقله اللادوي في الإستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

أعدائه . ونحن نعرف أن مسألة التكوين بالذات كانت من أعقد مشاكل الجيش الموحدى ، وكانت تسبب له دائماً أزمات ومتاعب عديدة . ونحن نعتقد أننا لو قدرنا الجيش الموحدى بمختلف وحداته بمائتى ألف مقاتل ، لكننا أقرب كثيراً إلى الحقيقة والمعقول .

واخترقت الجيوش الموحدية نهر الوادى الكبير ، واتجهت صوب بياسة ، وكانت قد تخلفت أياماً عن عبوره لارتفاع مائه ، ثم عبرته حين نضب الماء ، واحتلت سريات من خيرة أنجادهامرات جبل الشارات المؤدية إلى بياسة وأبدة ، ومنها ممر « لوسا » الوعر ، الذى تستطيع قوة صغيرة باحتلاله أن تمنع جيشاً كبيراً من جوازه ، ثم نزلت الجيوش الموحدية فى البسيط الواقع تجاه هذا الممر وهو يقع اليوم أمام الطرف الغربى لقرية سانتا إيلينا Sta. Elena وتسميه رسالة الغزو الرسمية « بالمرشة » .

واعتزم الخليفة الناصر أن يصعد فى هذا المكان للقاء النصارى . وكان الناصر يعتمد على ما بلغه من حوادث الانشقاق فى الجيوش النصرانية ، وما تلقاه من متاعب التكوين ، لانهاز الفرصة فى لقاءها ، وهى متعبة ، فائرة الهمم . ويبدو من أقوال سائر الروايات الإسلامية ، أن الناصر كان واثقاً من النصر ، معترفاً غاية الاعزاز بضخامة حشوده ، وتفوقه العددى .

ولابد لنا قبل أن نعرض إلى تحركات الجيشين المتحاربين ، أن نحاول أن نرسم للقارئ صورة واضحة من أوضاع هذه المعركة الشهيرة ، والامكنة التى وقعت فيها . ذلك أن دراسة ميدان معركة العقاب ، وخواصه الطبوغرافية ، مما يساعد على إيضاح كثير من الروايات التى وردت بشأن المعركة ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيج لنا أن نقوم بهذه الدراسة الشاقة ، وأن نتجول فى هضاب جبال سيرا مورينا ( جبال الشارات ) وأن نصعد إلى قممها الشاهقة ، وأن نشهد الامكنة التى اجتازتها وعسكرت فيها الجيوش النصرانية ، وأن ندرس طبيعة المكان الذى كان يحتله الجيش الموحدى فى أسفل الجبال .

ويجب أن نذكر أولاً أن المعركة تعرف فى التواريخ النصرانية ، بمعركة نافاس دى تولوسا Navas de Tolosa ، وهذا الاسم مازال يطلق حتى اليوم على محلة أوضيعة صغيرة ، تقع فى سفح جبال الشارات على مقربة من شمال شرقى بلدة « لاكارولينا » الواقعة على الطريق الكبير الممتد من مدريد جنوباً إلى الأندلس .

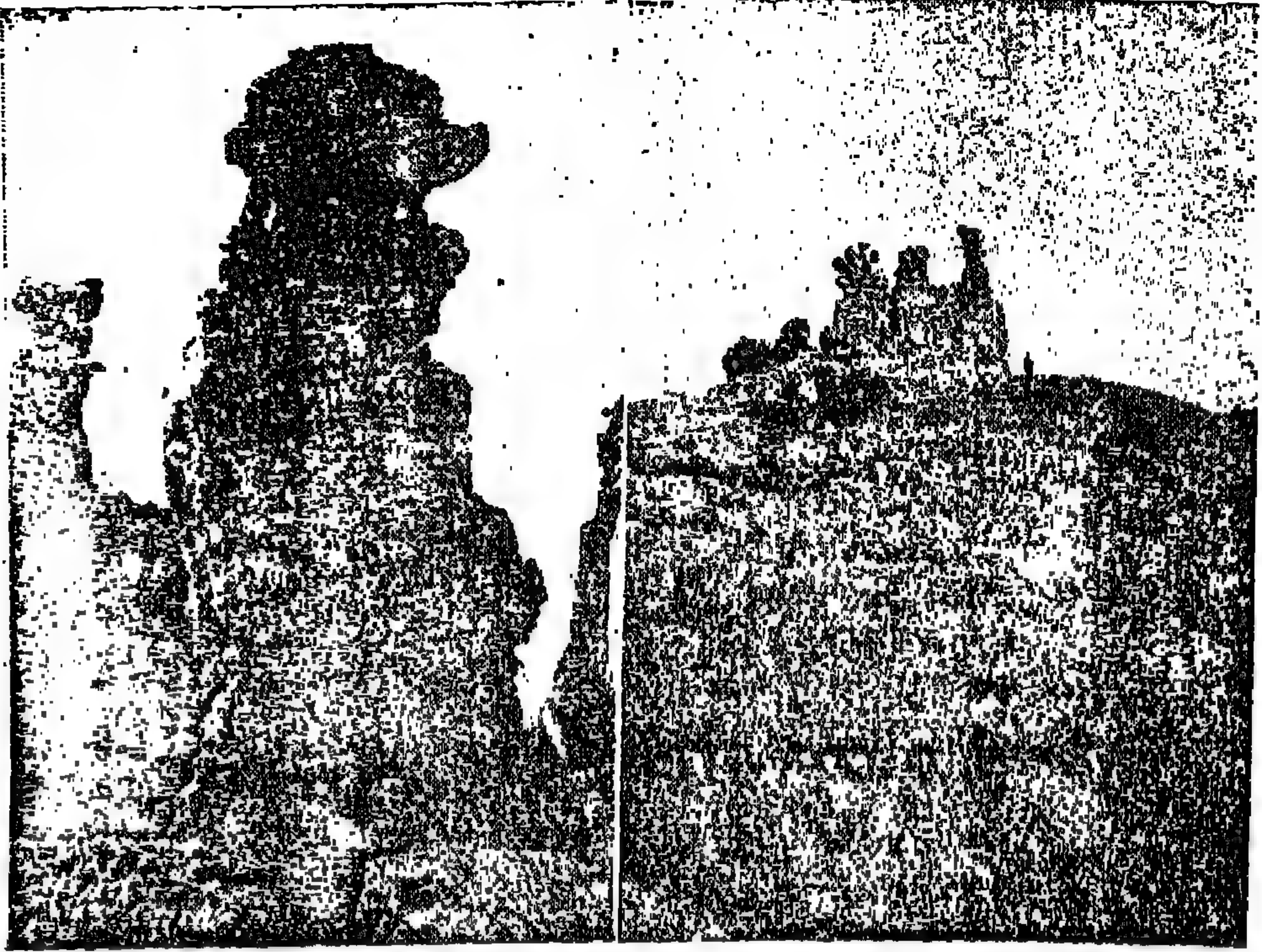


بيد أن هذا الاسم القديم الذى يعنى « هضاب تولوسا » أو « عقاب تولوسا » قد فقد مدلوله القديم : وتدل سائر المعلومات والوثائق التاريخية ، وكذلك البحوث الحديثة ، على أن المعركة لم تقع فى هذا المكان الذى أطلق اسمه عليها ، بل وقعت شمالى هذا المكان بنحو عشرة كيلومترات ، فى الهضاب والبساتط ، الواقعة غربى قرية « سانتا إيلينا » فيما بينها وبين قرية « ميرانده دل رى » وفى أسفل الأكمة المسماة « مائدة الملك » Mesa del Rey التى سوف نذكرها فيما بعد ، وذلك حسبما يوضح لنا الرسم التخطيطي ، الذى نقدمه نتيجة لدراستنا لمعالم الموقعة . ونستطيع من جهة أخرى أن نقدم دليلاً على صحة هذا التحديد الطبوغرافى لميدان الموقعة ، ما يعثر عليه الباحثون فى هذا المكان ، من آن لآخر ، من السهام الموحدية الأرضية التى كانت تنصب للخيول ، وقد عثرنا نحن على خمسة منها بالحفر بأنفسنا فى هذه الساحة ، وهى التى نقدم صورتها بعد .

#### حصن العقاب

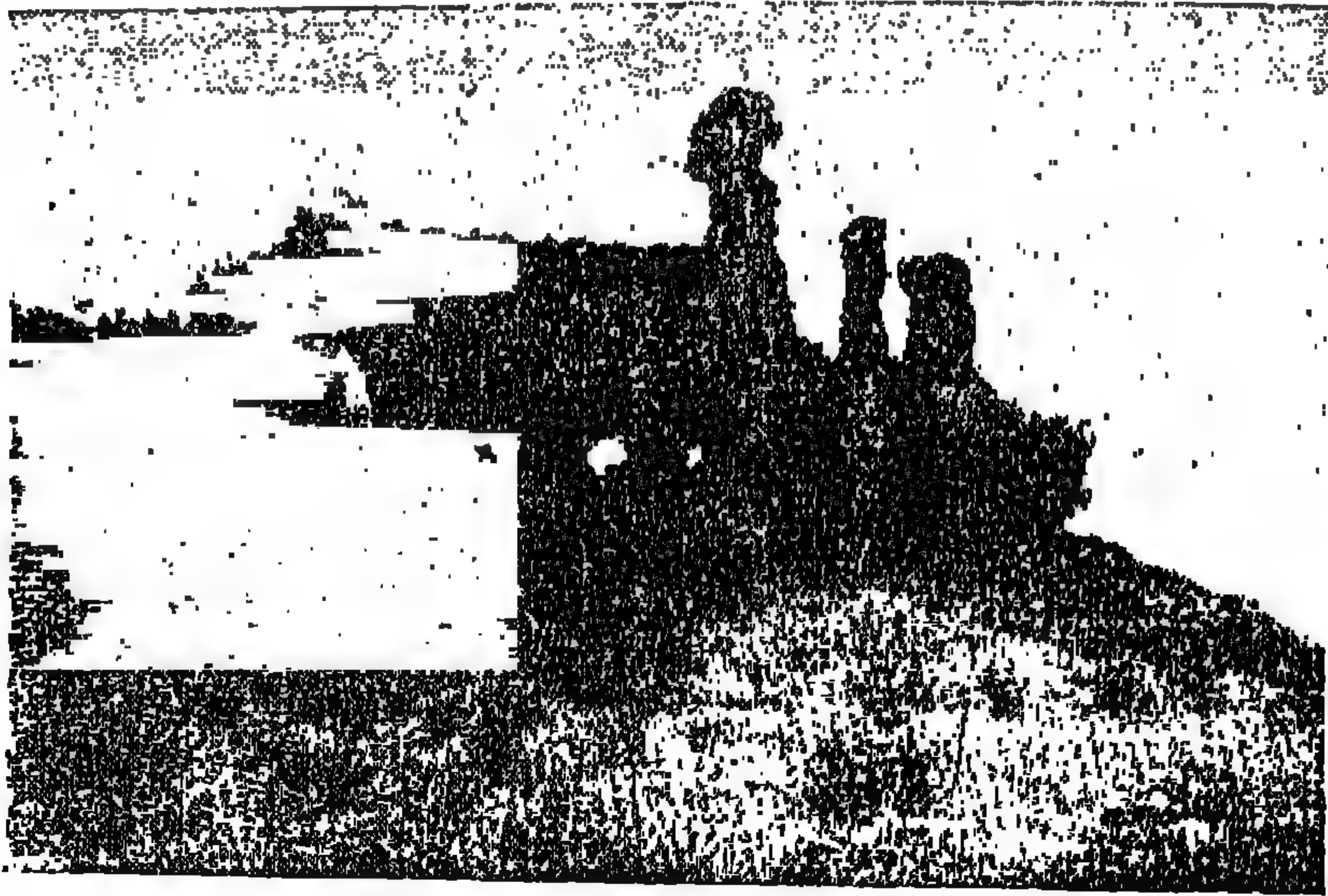
وجبال الشارات ، التى لبثت عصوراً تفصل بين الأندلس ، وإسبانيا النصرانية ، فى هذه البقعة ، عبارة عن عدة متعاقبة من الجبال السوداء العالية ، تفصلها هضاب وعرة أو بعض السهول المتدرجة . وقد بدأنا بعد رحلة شاقة فى أعماق الجبال ، استغرقت بضع ساعات ، بالصعود إلى موقع الحصن ، الذى يسمى بالإسبانية حصن كسترو فرال Castro Ferral ويسميه صاحب روض القرطاس ، حسبما يأتى بعد ، بـ حصن العقاب أو حصن العقبان . وهو يقع فوق قمة أحد الجبال فى الصف الثالث أو الرابع تجاه بلدة سانتا إيلينا . وهو يحتل أعلى قمة فى الجبل ، ويقع شمال غربى سانتا إيلينا ، إلى يسار المنحدر الجبلى الشهير المسمى دسبنيابروس Despenaperros ( أو منحدر الكلاب ) . ولم تبق اليوم من هذا الحصن سوى أطلال دارسة هى عبارة عن بقايا جدارين عاليين متوالين . ويبلغ ارتفاع الجدار الأول نحو ثمانية أمتار ، وبه ثغرة كبيرة فى وسطه . ويبلغ ارتفاع الجدار الثانى نحو عشرة أمتار ، وهو يليه ويبعد عنه نحو خمسة أمتار . وتوجد كذلك بقية جدار جانبي إلى يمين الداخل ، طولها نحو عشرة أمتار وارتفاعها نحو ستة ، وفيه ثغرتان من أسفل ، ومساحة هذا الطلل كلها تبلغ نحو عشرين متراً فى خمسة عشر . وما زالت أسس الجدران ظاهرة فى أرض المكان .





الدار الأوسط لأطلال حصن العقاب

أطلال حصن العقاب كما تبدو عن بعد فوق الجبال



الواجهة الخلفية لأطلال حصن العقاب



### الطريق الروماني والنهر

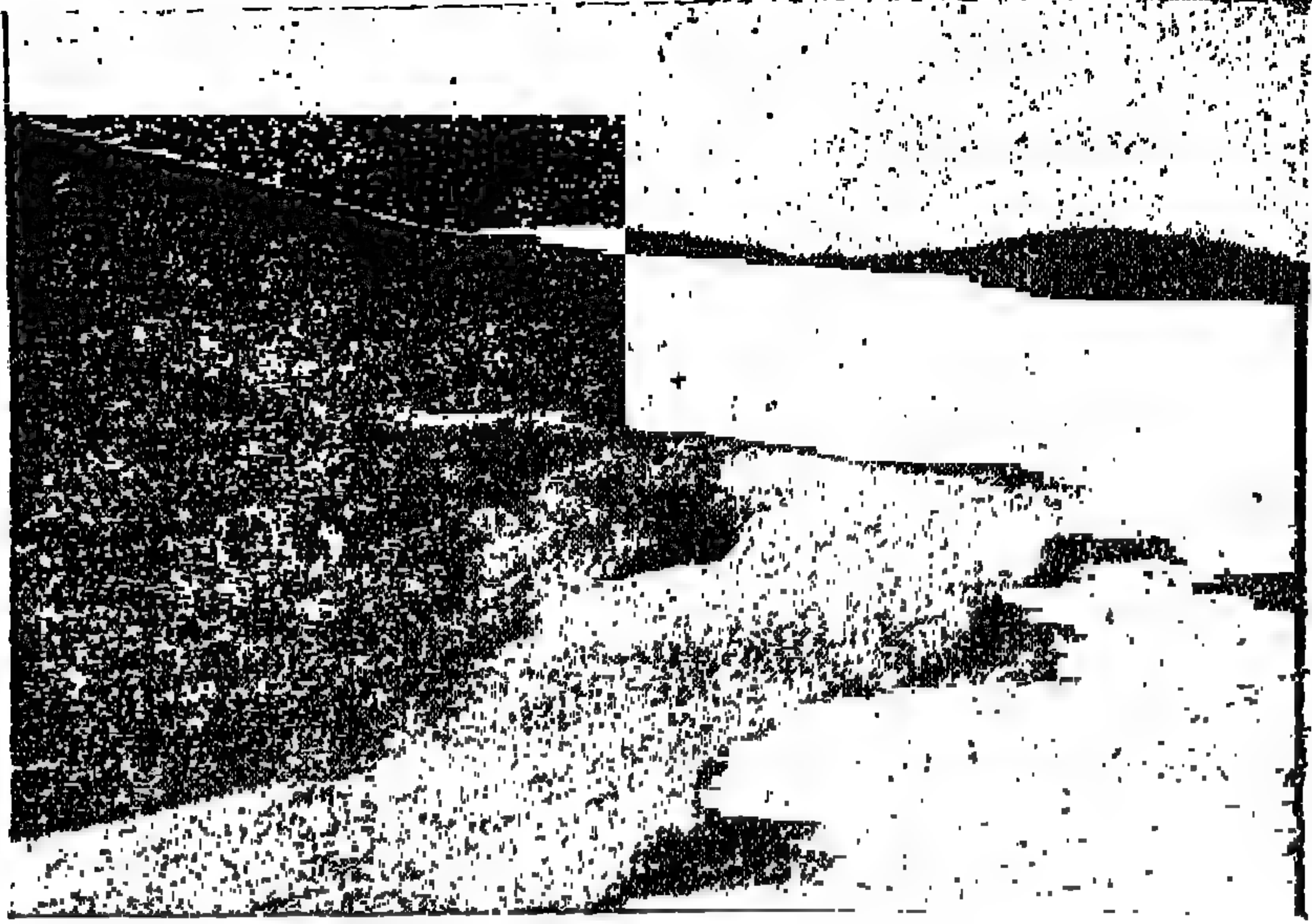
وإنه لما يسترعى النظر في أعماق هذه الجبال الوعرة ، هو طريق عبورها ، سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب أعنى من الأندلس إلى الشمال ( أراضي قشتالة ) . وقد تتبعنا هذا الطريق المسمى « كارثادا » Carzada ، وهو الطريق الروماني القديم ، وهو يوجد وراء الجبال في المنحدرات النازلة نحو النهر الصغير الذى يقع في سهل خفيض في أسفل الجبل ويسمى نهر مجانيا Magaña وهو عبارة عن فرع صغير من نهر وادى لين المتفرع من نهر الوادى الكبير ، وكان الطريق الهابط يستمر حتى النهر ، ثم بعد عبوره ، يعود فيصعد الصف الثانى من الجبال نحو الشمال . أما النهر ذاته فهو يقع خلف الصف الأول ، وأسفل الصف الثانى من الجبال ، وهو نهر صغير لا يزيد عرضه عن خمسة عشر متراً ، وقد رأينا به قليلاً من الماء . وكان المسلمون يعبرون هذا الطريق الذى كان يعبره الرومانيون من قبل ، إلى أراضي قشتالة .

### بويرتو دل مورادال

وهذا الطريق المسمى « كرتادا » يسير من ناحية أخرى صاعداً نحو القمة الكبيرة الواسعة من السفح المسماة Puerto del Moradal ( بويرتودل مورادال ) أو ثغر مورادال ، وكان هذا هو أهم ممرات جبل الشارات . والطريق الصاعد إليه فيما يبدو من آثاره الحجرية ، كان طريقاً عريضاً ، يبلغ عرضه نحو العشرة أمتار . وكذلك يبدو من بعض أجزائه القليلة الباقية ، المعبدة بالحجر الأسود ، أنه كان طريقاً معبداً كله ، وهذا الممر يحتل فوق قمة جبل الشارات مساحة كبيرة منبسطة ، ثم ينزل من الناحيتين صاعداً وهابطاً ، ويسمى منزل هذا الممر وما حوله باسم « الإمبرادليو » Empedradillo . وقد شاهدنا فوق قمة مورادال ، وأمام الممر ، أنقاض أحجار كثيرة ، قبل لنا إنها كانت أنقاض محلة رومانية Venta خلال الطريق القديم ، ومنها ينزل نحو نهر مجانيا . ويوجد على مقربة من ممر مورادال جبل مطل على النهر يسمى « جبل المسلم » Cerro del Moro .

### مائدة الملك

وإلى يسار ممر مورادال ، على مسافة نحو ساعة منه ، توجد قمة أخرى تشغل بسيطاً كبيراً بيضاوياً ، يمتد نحو اليمين ونحو اليسار إلى مسافة عدة كياومترات ،



نہر مجازیا کا یبدو فی أسفل الجبال



مہیچار دسینیاپروس



وهو البسيط الذى يسمى « مائدة الملك » Mesa del Rey ، وقد شهدناه من بعد  
أولا ، ولاح لنا أنه بالفعل ، مستدير أويضاوى كالمائدة ، ومن ثم كان الاسم  
الذى أطلق عليه . وتنحرف جوانب هذه القمة إلى أسفل الوادى ، مغطاة بالحضرة ،  
وإلى جانبها الأيمن مرتفعات متعددة صاعدة ونازلة . وهذا المرتفع المستدير يمتد  
كما قلنا من الجانبين إلى مسافات شاسعة يطلق عليها جميعا نفس الاسم « مائدة  
الملك » ، ويبدو من انبساطها وضخامة مساحتها ، أنها كانت بالذات تصلح  
محلة للجيش الغازية .

\* \* \*

ونحن نستطيع بعد تتبع هذا الوصف لأوضاع المعركة وأماكنها المختلفة ،  
أن نتبع تحركات الجيشين القشتالى والموجدى ، وأن تكون فكرة واضحة عن  
مسرح معركة العقاب الحقيقى .

وكان النصرارى بعد احتلالهم بسيط مورادال الواقع فوق الجبل ، قد استطاعوا  
أن ينزعوا قلعة كسترو فيرال الإسلامية الواقعة فى قمة الجبل والى وصفناها من  
قبل ، وهى التى تسمى أحيانا بـ حصن العقاب ، وكانت بها حامية موحدية صغيرة ،  
ولكنهم شعروا مع ذلك بخروج موقفهم فى ذلك المكان نظراً لوعورته ، ونقص  
وسائل التكوين والمياه فيه ، وكان لابد لهم بأى حال أن يعبروا جبل الشارات  
إلى الناحية الأخرى ، وكان ذلك متعذراً عليهم نظراً لاحتلال الموحدين سائر  
ممراته بقوات كافية ، ولاسيما ممر لوسا الواقع جنوب غربى الحصن ، وهو الذى  
يفضى إلى سهول تولوسا ، والذى لا يمكن لجيش عظيم بأسره اقتحامه . عندئذ  
اجتمع الملوك النصرارى مع قوادهم للبحث عن مخرج لهذا المأزق ، وكان رأى  
الغالب ، هو أن يعود الجيش النصرانى أدراجه إلى السهل ، ثم يحاول دخول  
أراضى الأندلس من طريق آخر ، ولكن ملك قشتالة عارض فى هذا الرأى ،  
لأن أية حركة ارتداد كانت فى نظره خطراً على روح الجيش المعنوية ، فضلاً  
عن اعتبارها من جانب الأعداء فراراً ونكولاً عن خوض المعركة . وهنا تعرض  
لنا الرواية النصرانية قصة يطبعها لون من الأسطورة ، وهى أن راعياً من رعاة  
هذه الأنحاء ، تقدم إلى القادة النصرارى ، وأخبرهم أنه يستطيع إرشادهم إلى طريق  
آخر لعبور الجبل ، يقع فى مرفق آخر ، ويفضى إلى سهل أبدية ، ويمكن أن يسلكه  
الجيش دون أن يفتن العدو إلى ذلك . فسار معه القائدان لوبث دى هارو ،



مر پورتو دل مورادال كما يبدو من أسفل الجبل



بسيط مائدة الملك Mesa del Rey كما يبدو من أسفل الجبل



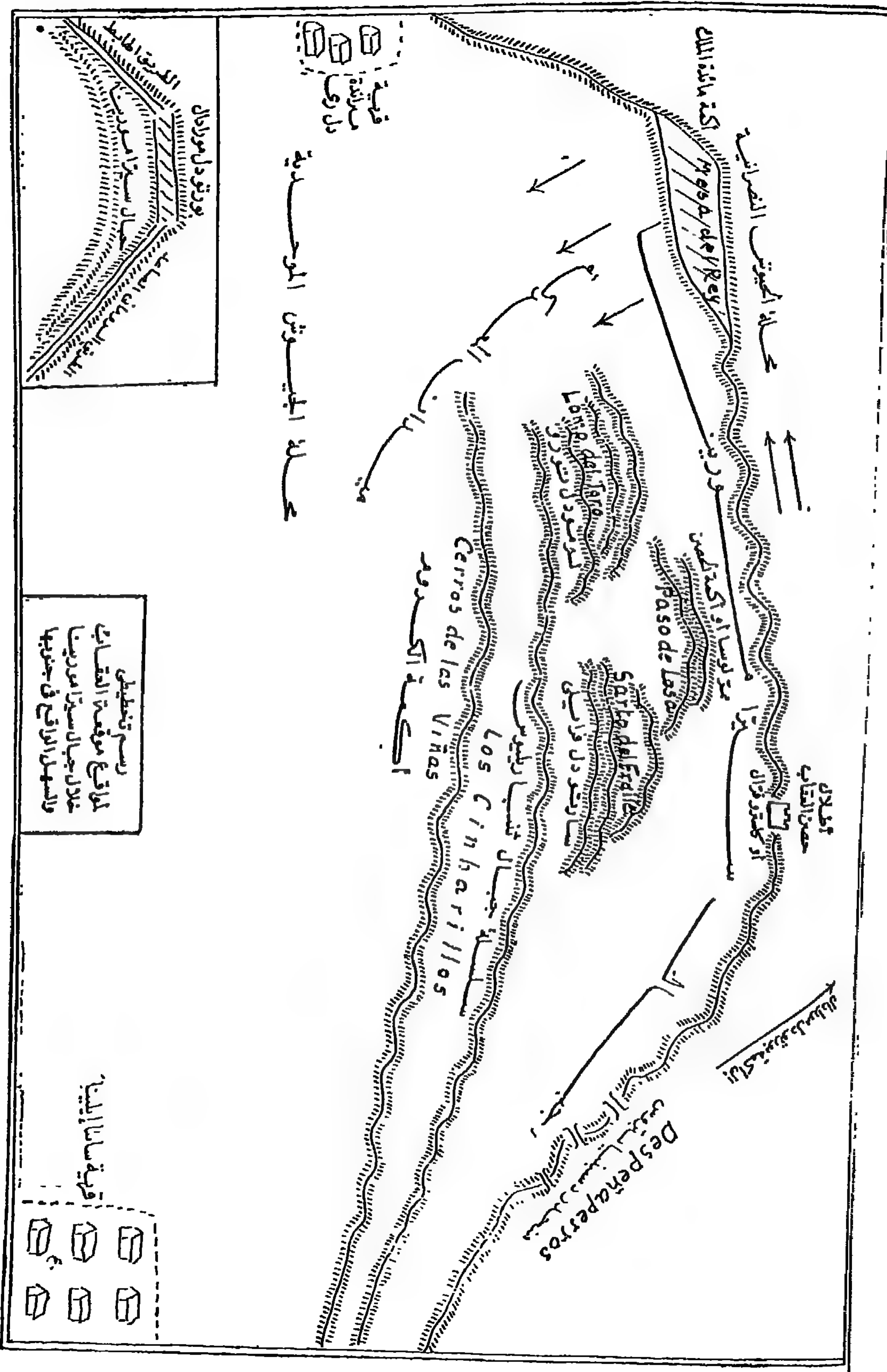
وغرسية روميرو لمعاينة هذا الطريق ، ولما تحققا من صحة كل ما قاله الراعي ،  
بادر الجيش النصراني في نفس اليوم — وهو يوم السبت ١٤ يولييه — بالسير إلى  
ذلك المرتفع الجديد ، واحتلوا بسيطه — وهو البسيط الذي يطلق عليه اليوم اسم  
« مائدة الملك » Mesa del Rey وهو الذي وصفناه ، وبينما موقعه فيما تقدم .  
وحصنوا ما حوله ، وبقيت بقية الجيش النصراني مرابطة من ورائه ، واعتبر  
هذا الراعي المرشد متقدماً أرسله الله<sup>(١)</sup> .

ولم يخف أمر هذه الحركة التي قام بها الجيش النصراني على الموحدين ، وقد  
وقفوا في الحال على مكان عدوهم الجديد ، وحاولت فرقة من الفرسان الموحدين  
عبثاً أن تنتزع هذا المرتفع الجديد من أيدي النصارى . وصدرت أوامر الخليفة  
الناصر بتعبئة الجيوش الموحدية لخوض المعركة في الحال ، ولكن الملوك النصارى  
آثروا الاعتصام مؤقتاً بمركزهم المنيع ، ولم يريدوا بالأخص أن يخوضوا المعركة  
في يوم أحد ، واقتصر الأمر على بعض المناوشات البسيطة بين سرايات الفرسان  
من القرية . بيد أنه لم يكن من اليسور على النصارى أن يؤخروا خوض المعركة  
لأكثر من يوم ، أولاً لقلّة مؤنهم ، وخوفهم أن تنضب بسرعة ، وثانياً لكون  
الجيش الموحدى ، لبث منذ يوم السبت في حالة تعبئة مستمرة للقتال ، وقد  
يفاجئ الجيش النصراني بالهجوم . وكان الناصر على علم مستمر بأحوال الجيش  
النصراني ، وكانت كل تقديراته تؤكد له تحقيق الظفر المنشود .

وليس لدينا في الرواية الإسلامية تفاصيل شافية ، عن التنظيمات التي وضعت  
للجيوش الموحدية لخوض المعركة ، بيد أنه يبدو مما ذكره لنا صاحب روض  
القرطاس ، وكذلك ما يذكره لنا رديك الطليطلى ، وهو من شهود المعركة ،  
أن الجيش الموحدى ، قُسم وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق ، تتألف  
الفرقة الأمامية من القوات المتطوعة من مختلف الطوائف ، وتتألف قوات القلب  
والقوات الاحتياطية من الجند الموحدين ، وهم أغلبية الجند النظامية ، وتتألف  
الميمنة من القوات الأندلسية ، والميسرة من قوات البربر من مختلف القبائل .

---

(١) وردت هذه التفاصيل وهذه القصة في معجم التواريخ النصرانية الإسبانية . ويراجع في ذلك  
Primera Crónica General ( Ed. Pidal ) Vol. II, p. 698 ونقلها الأستاذ هوثي في كتابه :  
Las Grandes Batallas de la Reconquista ; p. 250 . ونقلها أيضاً أشباخ في تاريخ  
المرابطين والموحدين ( الترجمة العربية ) ص ٣٦٥ .





وضربت قبة الخليفة الحمراء ، فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذي تحتله الحيوش الموحدية ، والذي يواجه مواقع الجيش النصراني. ودارت العبيد ، وهم أغلبية الحرس الخلفي حول القبة من كل ناحية ، وكلها مزودة بالسلاح والعدة ، وضرب في نفس الوقت حول القبة الخليفة سياج من الأعمدة وعدة من السلاسل الحديدية الضخمة ، وشهر جند الحرس حراهم في اتجاه العدو ، فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ، وجلس الناصر في قبة مستنداً إلى درقته ، ومعه أشياخ الموحدين ، وربطت فرسه مسرجة أمامه ، ووضعت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد ، تحت إمرة الوزير أبي سعيد بن جامع . وكان بوسع النصارى أن يروا من مواقعهم العالية ، جموع المسلمين التي لا تحصى ، وفي قلبها قبة أمير المؤمنين الحمراء<sup>(١)</sup> .

أما عن تنظيم الجيش النصراني فلدينا تفاصيل كثيرة ، يقدمها إلينا رديك الطليطي وغيره من شهود المعركة ، رخصتها أن الجيش النصراني قسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتزعم كل قسم بها ، ملك من ملوك النصارى الثلاثة ، الأول يتكون من القلب ويقوده ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، هذا إلى جانب احتفاظه بالقيادة العليا . ويتكون الثاني من الجناح الأيمن ، ويقوده سانشو ملك نافارا ، ويضم فضلاً عن القوات النافارية ، جند سرية وآبله وشقوبية ومدينة سالم ، وفرسان فرنسا الذين يرأسهم مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال . ويتكون القسم الثالث من الجناح الأيسر ، ويقوده بيدرو الثالث ملك أراجون ، ويشتمل على قوات الطليعة والقوات التي يقودها أشراف أراجون . وقد وزع كل قسم من هذه الأقسام إلى وحدات عديدة ، فوضع في القلب فرسان الداوية والأسبتارية وفرسان قلعة رباح كل منها تحت إمرة قائده الخاص ، وكذلك الصفوف التي يقودها مطران طليطلة وخمسة من الأساقفة القشتاليين<sup>(٢)</sup> .

وفي ليلة يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ ( ليلة ١٦ يولييه سنة ١٢١٢ م ) ، استعد الفريقان لخوض المعركة ، وقضى النصارى شطراً من

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ ، وراجع أيضاً أتباخ في تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ص ٢٦٧ ، وكذلك :

Huici : cit. Anales Toledanes, Las O. Batallas de la Reconquista p. 257

(٢) أشياخ الترجمة العربية ، ص ٣٦٦ ، وكذلك : Huici : ibid; p. 253 & 254 .

الليل في الصلاة والدعاء ، وتلقى البركة والغفران البابوي على يد الأساقفة ورجال الدين . ولم نجد في الرواية الإسلامية ما يشير إلى أنه وقع الجيش الموحدى في تلك الليلة ، شىء من تلك المناظر المؤثرة ، التي وقعت به قبيل اضطرام معركة الأرك ، من تبادل الاستغفار بين الخليفة والناس ، ومن وعظ وبكاء وحث على الجهاد ، فقد كان الخليفة الناصر حسبما تشير سائر الروايات ، واثقاً من النصر ، واثقاً من تفوقه العددي الهائل ، ولم يكن ينتظر سوى بدء المعركة لإحراز النصر المنشود .

وبدأت المعركة في الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من صفر ، وكان كل من الجيشين على أهبة لحوضها ، وقد رتبت صفوفه وفقاً للأوضاع التي سبق وصفها . وبدأ النصارى بالهجوم ، فهبطت طلائعهم بسرعة من المرتفع الذى تحتله الجيوش النصرانية في بسيط « مائدة الملك » Mesa del Rey إلى السهل الأسفل الذى يحتله الجيش الموحدى ، والذى يشغل بسيطاً شاسعاً ، يقع عند الطرف الغربى من بلدة « سانتا إيلينا » ، ويستند من الخلف إلى سلسلة من المرتفعات المنخفضة ، وانقضت على مقدمة الجيش الموحدى ، فلقيتهم صفوف المتطوعة بقوة وثبات ، واقتتل الفريقان بشدة حتى بدأ النصارى فى التراجع ، فأدركتهم الأمداد ، وعادوا إلى الثبات تعززهم فرق الفرسان ، التى صعب على المتطوعة الموحدين اختراقها ، وهجم فى نفس الوقت جناح الجيش النصرانى على جناحى الجيش الموحدى ، واحتدمت بين الجيشين معركة هائلة عامة ، وكانت طبول الساقة الموحدية ، تهز الآفاق بدويها الرائع . ويستفاد من أقوال الروايتين الإسلامية والنصرانية ، أن المتطوعة المسلمين بعد ثباتهم الأول ، قد ارتدوا تحت ضغط النصارى الهائل ، وكثر القتل فيهم ، بل يقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنهم لبثوا يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم « وعساكر الموحدين والعرب وقواد الأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك منهم أحد »<sup>(١)</sup> . ولكن النصارى حين تقدموا بعد التغلب على فرق المتطوعة إلى قلب الجيش الموحدى ، لقوا من الجند الموحدين أشد مقاومة ، وردوا على أعقابهم . ومن جهة أخرى ، فإن قوات الميمنة والميسرة الموحدية استطاعت بعد قتال عنيف أن ترد جناحى الجيش النصرانى ، وأخذ النصارى حسبما تقول لنا الرواية النصرانية ذاتها ، فى الارتداد

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ .



والفرار<sup>(١)</sup>، ولاح للفريقين أن لواء البصر سوف يعقد للموحدين .  
ولكن هذه البارقة لم يطل أمدها . ذلك أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ،  
حينما شهد من فوق المرتفع ما آلت إليه المعركة ، من تراجع القوات النصرانية  
في القلب والجناحين ، وما ينذر به ذلك من هزيمة محققة ، اعتزم في الحال أن  
ينزل إلى الميدان بقواته الاحتياطية المختارة ، من قوات قشتالة وليون ، ليقاقل  
قتال اليائس ، واندفع بالرغم من اعتراض المطران والأساقفة والقوامس على مسلكه  
الخطر ، في قواته إلى الصف الأمامي . وتبعه في نفس الوقت ملكا أراجون وناقارا  
كل في قواته ، نحو جناحي الجيش الموحدى ، وهجمت القوات النصرانية  
كلها في وقت واحد ، بمنتهى العنف والشدة ، حتى بدأت ميمنة الجيش الموحدى  
وميسرته في الارتداد أمام ضغط الفرسان النصارى ، وفرّ الأندلسيون والعرب ،  
وأحدث فرارهم اضطرابا في الصفوف . وهنا تمركز هجوم النصارى على قلب  
الجيش الموحدى ، المكون من الجنود النظامية والاحتياطية ، والذي تتوسطه  
قبة الخليفة الحمراء ، ومن حولها الحرس الخليقي الأسود ، وكان النصارى قد  
انتعشوا ، بما شهدوا من تطور المعركة في صالحهم ، فشددوا الهجوم على الموحدين .  
وصمد الموحدون ، ودافعوا بمنتهى الشدة ، ومن ورائهم الحرس الأسود شاهراً  
رماحه ، من وراء السلاسل الحديدية الضخمة ، وكان الخليفة الناصر قد أدرك  
حقيقة الموقف ، فنهض من مجلسه وجلس أمام خبائه على درفته ، وهو يبحث جنوده  
على الاستبسال ، واستطاع النصارى أخيراً أن يخترقوا قلب الجيش الموحدى إلى  
دائرة الحرس الأسود ، فردتهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد المشهرة حيناً ،  
وهم كالبنيان المرصوص حول القبة الخليفية . ولكن النصارى « ردوا أكفال الخيل  
المدرعة إلى رماح العبيد »<sup>(٢)</sup> فاخترقوا الدائرة المدرعة ، وكان أول من دخلها  
منهم الكونت ألبارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين ، وفي  
يده علم قشتالة الأبيض ، ودخلها في نفس الوقت ملكا أراجون وناقارا كل من  
ناحيته ، وبذلك مزق الجيش الموحدى من كل ناحية ، وكثر القتل فيه كثرة  
مروعة ، وليث الخليفة الناصر حتى آخر لحظة في مجلسه الحرج ، وهو يحاول

(١) وهذا ما تقوله لنا رواية ألفونسو العالم . وتراجع في : *Primera Crónica General*

(Ed. Pidal) Vol. II p. 701 .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ .

حث جنده على الصمود . وتنوه الرواية الإسلامية بثبات الناصر وصموده اليأس في تلك اللحظة الرهيبة ، التي تناثر فيها الجيش الموحدى ، والحرس الخليفى من حوله أشلاء دامية ، وشراذم فارة في كل ناحية ، وتقول لنا إنه لبث في مكانه لا يتزحزح ، حتى كادت الروم أن تصل إليه ، بل كاد أن يهلك ، وقتل حوله من العبيد أكثر من عشرة آلاف عبد ، وأنه لولا ثباته على هذا النحو لاستوصلت جموع الجيش الموحدى كلها قتلا وأسرا<sup>(١)</sup> . واضطر الناصر في آخر لحظة أن يمتطي صهوة فرس قدمها إليه أعرابى كان إلى جانبه ، وأن يفر مع نفر من خاصته على جناح السرعة جنوبا نحو بيباسة ، ثم اتخذ طريقه منها إلى جيان ، وكانت فلول الجيش الموحدى عندئذ تفر في كل ناحية ، ومن ورائها الفرسان النصارى يمعنون فيها قتلا وإفناء . واستمرت هذه المطاردة المروعة على مدى ثلاث مراحل حتى دخل الليل ، وكانت أشنع ما وقع من ضروب السفك والتقتيل ، إذ هلك فيها عشرات الألوف من الجند الفارين ، وانقض الجند النصارى على المحلة الموحدية ينتزعون منها ما استطاعوا من المتاع والأسلاب ، بالرغم من تحذير مطران طليطلة . وقيل مغيب الشمس ، كان الماوك النصارى ، والمطران ، والأساقفة ، وجزء كبير من الجيش النصرانى ، قد دخلوا محلة الجيش الموحدى ، واستقروا بها ، وأضحى الجيش الموحدى العظيم الذى كان بها منذ ساعات قلائل فقط ، أثراً بعد عين .

وكان وقوع هذه النكبة المروعة بالجيش الموحدى في يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ الموافق يوم ١٦ يولييه سنة ١٢١٢<sup>(٢)</sup> ، وهي تعرف في التواريخ النصرانية حسباً قدمنا بموقعة هضاب أو عقاب تولوسا Las Navas de Tolosa لوقوعها فوق مجموعة من الوديان الصغيرة ، التي تحيط بها الربى ، تقع في سفح جبل الشارات الجنوبى ، وتعرف أيضاً بموقعة أبدة لوقوعها على مقربة من شمال غربى هذه المدينة . وأما في التواريخ الإسلامية فلإنها تعرف

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٩ ، والمراآت في المعجب ص ١٨٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) هذا هو التاريخ الذى تأخذ به معظم الروايات الإسلامية ، وهو الذى يتفق بالفعل مع الروايات النصرانية (راجع المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٩ ، والروض المعمار ص ١٣٨) . ولكن ابن خلدون يضع تاريخها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (كتاب البرج ٦ ص ٢٤٩) . ويضع صاحب السان المغرب تاريخها في يوم الاثنين ٨ صفر سنة ٦٠٩ هـ - القسم الثالث ص ٢٤١ .



بموقعة العقاب ، من مفردتها عقبة ، وذلك فيما يرجح لوقوعها بين الربى والتلال المانعة<sup>(١)</sup> ، وليس بمعنى المعاقبة على الذنب ، وإن كان بعض الكتاب والشعراء قد نسبوا إليها مثل هذا المعنى ، في معرض التلويح بغضب الله وعقابه للموحدين ، لأنهم حادوا عن جادته ، وبغوا وتجبروا ، واعتمدوا على كثرتهم ولم يعتمدوا على عونه . وينفرد صاحب روض القرطاس إلى جانب تسميتها بموقعة العقاب بتسميتها بموقعة « حصن العقاب » أو « حصن العقبان »<sup>(٢)</sup> وهو باسمه الإسباني حصن فرال أو كاسترو فرال Castro Ferral الواقع في قمة جبل الشارات ، والذي استولى عليه القشتاليون قبيل المعركة ثم تركوه ليعبروا الجبل من الناحية الأخرى التي أرشد عنها الراعى .

ومن المسلم أن خسائر المسلمين في معركة العقاب كانت فادحة جداً . والروايات الإسلامية تجمع كلها على أن الجيش الموحدى ، قد هلك معظمه . بيد أنها تذهب أحياناً إلى تقديرات لا يستسيغها العقل ، ومن ذلك ما يقوله صاحب روض القرطاس أنه لم ينج من الجيش الموحدى إلا الواحد من الألف ، فإذا ذكرنا أنه يقدر جموع الجيش الموحدى بأكثر من نصف مليون ، فمعنى ذلك أنه لم ينج من الموحدين في المعركة سوى خمسمائة جندي ، وهذا منتهى الإغراق . ثم هو من جهة أخرى يقول لنا بأن سبب هذه الكثرة الفادحة من القتلى ، يرجع إلى أن ملك قشتالة أمر أن ينادى في جيشه بأن لا أسر إلا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره<sup>(٣)</sup> . ويصف صاحب الحلل الموشية الموقعة « بالهزيمة العظمى » التي فني فيها أهل المغرب والأندلس . ويقول صاحب « الذخيرة السنية » مشيراً إلى الموقعة أنه قتل من المسلمين خلق كثير لا يحصر ، وفيها فني جيوش الغرب والأندلس<sup>(٤)</sup> ، ولكن المراكشى وهو مؤرخ معاصر يقول لنا في نوع من الاعتدال ، إنه قتل من الموحدين خلق كثير ، ويتابعه في هذا الوصف صاحب الروض المعطار ، ويقول لنا إنه قد هلك في الموقعة جملة من الأعيان والطلبة ، منهم أبو بكر بن عبد الله بن أبي حفص ، وعلى بن الغاني الميورقي . وسقط كذلك في المعركة عدة من أكابر

(١) جاء في القاموس المحيط أن عقبه بالتحريك هي مرق صعب من الجبال والجمع عقاب ( بكسر العين ) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٩ و ١٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٩ .

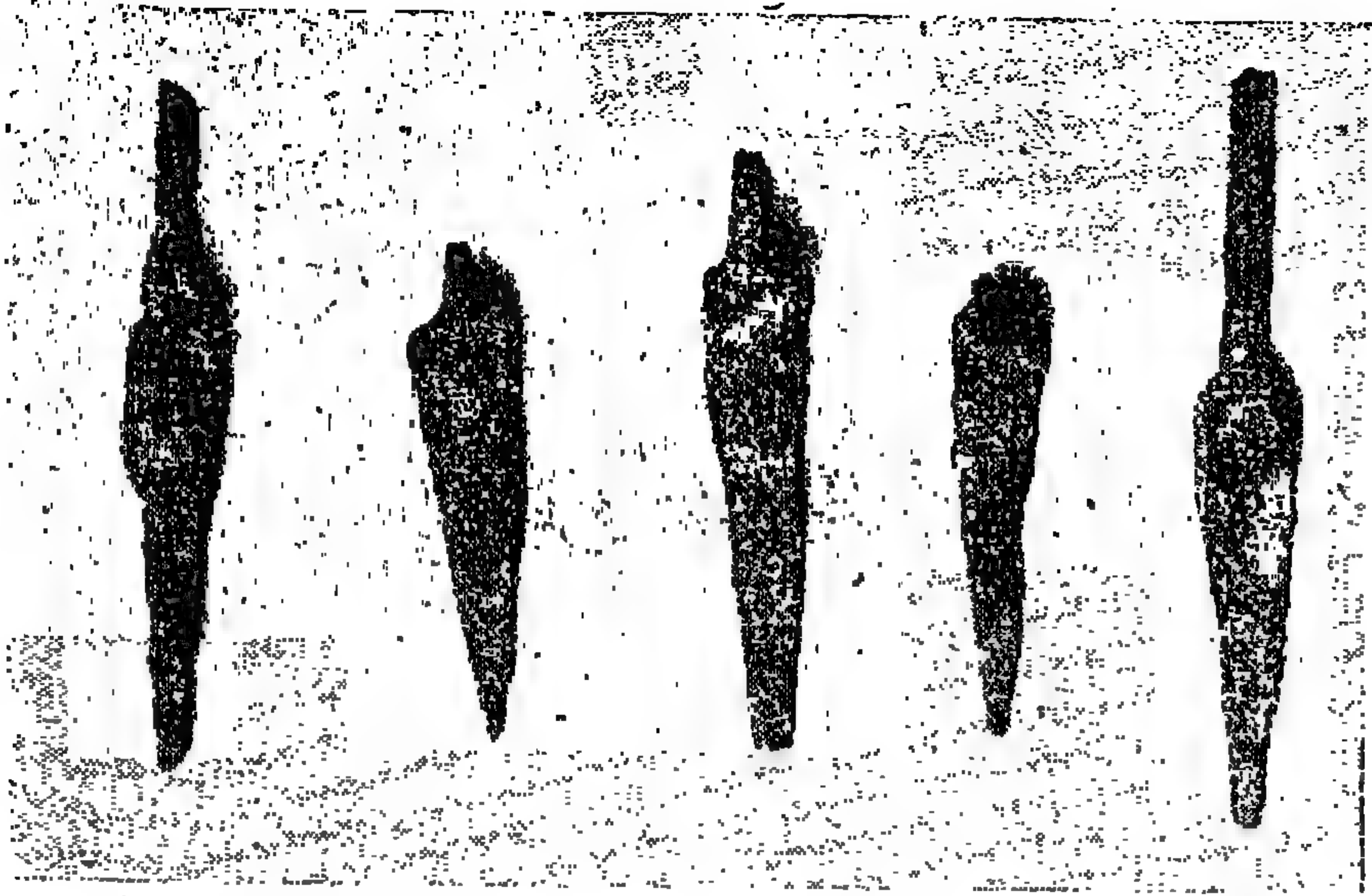
(٤) الحلل الموشية ص ١٢٢ ، والذخيرة السنية ص ٤٨ .

العلماء والحفاظ ، منهم أحمد بن هارون بن عات النفزى ، وإسحاق بن إبراهيم المجابرى ، ومحمد بن حسن الأنصارى المعروف بابن صاحب الصلاة ، ومحمد ابن إبراهيم الحضرمى ، وأيوب بن عبد الله بن عمر الفهرى ، والشاعر الزاهد تاشفين بن محمد المكتب وغيرهم<sup>(١)</sup> . بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أن الرواية النصرانية مع ما يؤثر عنها من المبالغة فى مثل هذه المواطن ، تقدم إلينا عن خسائر الموحدين فى الموقعة ، أرقاماً يطبعها نوع من الاعتدال ، بكونها تقل كثيراً عما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية ، بيد أنها من جهة أخرى تبالغ فى التقليل من خسائر النصارى . ذلك أن رديك الطليطلى يقدر من قتل من المسلمين فى الموقعة بمائتى ألف ، وذلك من مجموع الجيوش الموحدية التى يقدرها بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة ، ويقدر الملك ألفونسو الثامن قتل المسلمين فى خطابه إلى البابا بمائة ألف ، ويقدرهم أرنولد مطران أربونة بستين ألفاً ، ثم يقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من هذا العدد أثناء الفرار ، وتقدر الأميرة برنجاريا القشتالية فى خطابها إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتل المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً . بيد أن الروايات النصرانية تقدم إلينا فى نفس الوقت عن خسائر النصارى فى المعركة أرقاماً لا يمكن أن يصدقها العقل ، ومن الغريب أن شهود العيان الذين تقدم ذكرهم هم الذين يقدمون هذه الأرقام . فالمطران رديك يقول لنا إنه لم يقتل فى الموقعة من النصارى سوى خمسة وعشرين ، والملك ألفونسو يذكر فى خطابه إلى البابا أنهم لم يتجاوزوا الثلاثين ، وأرنولد مطران أربونة يقول إنهم لم يتجاوزوا الخمسين ، ولا ريب أن مثل هذه الأرقام الضئيلة لم تملأ سوى أثره الرواية النصرانية ، ومحاولتها أن تسبغ ثوب المعجزة ، على النصر الذى أحرزه النصارى . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت شديدة أيضاً ، فى مثل هذه المعركة التى التحم فيها الجيشان بأسرهما ، وردت فيها هجمات النصارى الأولى بخسائر كبيرة لاريب ، ولم ينجحوا فى اختراق قلب الجيش الموحدى إلا بعد جهود فادحة ، وبعد أن ألقوا فى المعركة بقواتهم الاحتياطية ، ولا يمكن أن تقل هذه الخسائر عن الألوف العديدة ، فى جيش لم يكن يقل تعداده عن ثمانين ألف أو مائة ألف من الفرسان والمشاة . ويقدم إلينا الراهب ألبريكوس الذى عاش

( ١ ) المعجب ص ١٨٣ ، ولروض المطار ص ١٢٨ ، وابن الأبار فى التكلة ( القاهرة ) فى

التراجم رقم ٢٦٢ و ٥١٧ و ١٥٠٨ و ١٥٠٩ .





سهام خيل أرضية عثر بها المؤلف بالحفر في بعض نواحي السهل الذي كانت به المحلة الموحدية

قريباً من هذا العصر تفسيراً لهذا الرقم الضئيل ، الذي تقدمه الرواية النصرانية عن خسائر النصارى ، فيقول إنه قد هلك في الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك في نفس الوقت من النصارى خلال التحام المعركة عدد كبير ، بيد أنه لم يهلك منهم خلال مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين<sup>(١)</sup> .

واستولى النصارى في محلة الجيوش الموحدية على مقادير وافرة من الغنائم من العتاد والسلاح والخيام والذهب والفضة ، والنقود الذهبية والبسط والآنية الثمينة والثياب والأقمشة الفخمة ، وكذلك على مقادير عظيمة من المؤن ، وعلى ألوف مؤلفة من دواب الحمل ، فكانت من أعظم الغنائم التي ظفر بها النصارى<sup>(٢)</sup> .

---

(١) تراجع الروايات النصرانية عن خسائر المسلمين والنصارى في أشياخ ( الترجمة العربية ) . ص ٣٧٠ و ٣٧١ . وكذلك في :

Huici: Las Grandes Batallas de la Reconquista p. 266 & 267

(٢) راجع في تفاصيل موقعة العقاب ، المعجب ص ١٨٢ - ١٨٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٠ - ٢٤٢ ، وروض القرطاس ص ١٥٦ - ١٦٠ ، والروض العطار ص ١٢٧ و ١٣٨ والنويرى ( طبعة ريمبرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٣٧٩ ) والحلل الموشية ص ١٢٢ ، =

وكان من أهم الغنائم الغنائم التي أحرزها النصارى خيمة الناصر الحريرية الموشاة بالذهب ، وعَلِمَ الموحدى ضخماً مازال يحفظ حتى اليوم بين ذخائر اسبانيا النصرانية . وقد أرسلت الخيمة مع طائفة أخرى من نفيس الهدايا إلى البابا برسم كنيسة القديس بطرس ، لتعرض بها تذكاراً للنصر ، واستولى ملك نافارا على السلاسل الحديدية التي كانت تحيط بقبة الخليفة . وأما العَلِمَ الموحدى فما زال يحفظ حتى اليوم بالدير الملكي بمدينة برغش<sup>(١)</sup> ، وقد شهدناه وقت زيارتنا لهذه المدينة التاريخية ، وهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣,٣٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً . وبها في الوسط دائرة كبيرة صفراء يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة ، وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش عربية جميلة ، ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة أحزمة بنية ، نقش عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفي ذيلها دوائر نقش فيها أدعية مختلفة . والظاهر أن هذا العلم لم يكن من الأعلام التي كانت تحمل خلال المواقع ، وإنما كان من الأعلام التي تعلق بخيمة الخليفة . ومن ثم كان الاسم الذي يعرف به وهو « مُعلق معركة العقاب » *Pendón de las Navas* ، وكذلك الوصف الذي سطر تحته بالإسبانية وهو « غنيمة انتزعت من العدو في موقعة العقاب »<sup>(٢)</sup>.

ولا بد لنا أن نحاول بعد ذلك أن نتلمس الأسباب المادية والمعنوية ، التي أدت بالجيش الموحدى إلى تلك الكارثة المروعة . فالحقيقة أنه إلى جانب الأسباب التقليدية المعروفة ، من اختلال نظام الجيوش الموحدية الكبيرة العدد ، وعدم اتساق تنظيماتها ، وتناثر العناصر المكونة منها ، وعدم توحيد قيادتها بأيدي قادة يتسمون بالبراعة العسكرية ، واختلال نظام التموين بها ، نظراً لابتعادها عن قواعدها مسافات شاسعة ، إلى جانب ذلك توجد عدة أسباب أدبية عاونت

= وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، ونقح الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ وراجع الروايات النصرانية *P. Crónica General* (Ed. Pidal) P. 690 - 704. Huici : *Las Grandes Batallas de la Reconquista*; p. 231 - 303 والمراجع . وكذلك ألباخ ( الترجمة العربية ) ص ٢٦٥ - ٢٧٨ .

( ١ ) واسمه بالإسبانية *Real Monasterio de las Huelagas* .

( ٢ ) راجع وصف هذا العلم وما نقش عليه من آيات في كتابنا الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ( الطعة الثانية ) ص ٢١٣ و ٢١٤ . وراجع أيضاً : *A. de los Rios : Trofeos Militares de la Reconquista, Enseñas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos). (Madrid 1893) p. 27 - 48.*



على وقوع الكارثة . وتشير الرواية الإسلامية إلى طرف من هذه الأسباب ، وتلخصها في تغير قلوب الموحدين ، ومخطئهم على الوزراء والقادة ، وذلك بسبب حبس أعطيهم وتأخرها ، وقد كان المتبع منذ أيام المنصور ، أن يُمنح العطاء للجنود مرة في كل أربعة أشهر دون تأخير ، ولكن العطاء كان يؤخر في عهد الناصر ولا سيما في هذه الحملة الكبيرة ، فنسب الجنود أسباب التأخير للوزارة ، وخرجوا إلى الغزو وهم كارهون ، وقد خبت قواهم المعنوية ، وهكذا خرج الناصر إلى الغزو « بحشود لا غرض لهم في الغزو ، وقد أمسكت أرزاقهم ، وقتر عليهم » ، ويقول لنا المراكشي فضلاً عن ذلك ، أنه بلغه من جماعة منهم « أنهم لم يسلوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك »<sup>(١)</sup> . أضف إلى ذلك ما حدث قبيل نشوب المعركة في المعسكر الموحدى ، من حوادث كان لها نذير . منها قتل الخليفة الناصر للقائد الأندلسي الباسل ابن قادس قائد قلعة رباح هو وصهره ، دون أن يستقبله أو يستمع إلى عذره ، ومنها إهانة الوزير أبي سعيد بن جامع للقواد الأندلسيين وإنذارهم بمغادرة الجيش ، وقد كان لهذه الحوادث أسوأ وقع في نفوس الأندلسيين ، وفي تثبيط همهم في القتال ، وكان الأندلسيون بالرغم من قلة العددية ، عنصراً هاماً في جيوش الغزو الموحدية المقاتلة بالأندلس ، لأنهم كانوا أكثر خبرة بقتال النصارى الإسمانيين ، وأكثر دراية بطريقتهم في الحرب<sup>(٢)</sup> . وقد رأينا كيف كان اعتماد الخليفة المنصور على نصيح ابن صناديد قائد الأندلس ومشورته ، من أسباب نصره في معركة الأرك . وأخيراً فإن ما أبداه الناصر من العجب والاعتداد بكثرة جموعه ، واعتماده على تفوقه العددي البالغ ، والتقليل من شأن العدو ، كان له أكبر الأثر فيما بدا من الرعونة ، وعدم الحرص والتحوط في لقاء العدو ، ومن ثم فقد كان ظفر القشتاليين باختراق قلب الجيش الموحدى بتلك السرعة ، مفاجأة هائلة لم تخطر للناس ولا للقادة الموحدين . وترى بعض الروايات الإسلامية أن نكبة الناصر في العقاب كانت عقوبة من الله على ما أبداه من العجب والاعتزاز بكثرة جموعه ، واعتقاده أنه لا غالب له من الناس ، فأراه

(١) المراكشي في المعجب ص ١٨٣ ، والروض المطار ص ١٣٨ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٦ و ١٤٧ ، والروض المطار ص ١٣٨ ، وراجع أيضاً

نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .





العلم الموحى الذى غنمه الاسبان فى معركة العقاب ويحفظ الآن بدير برغش الملكى ( لاس هويلجاس )



الله تلك الآية ليعلم أن النصر من عند الله ، وأن القدرة والحول والقوة بيد الله (١) .  
وقد أسفرت هزيمة العقاب الساحقة ، عن أفدح وأروع الآثار التي يمكن  
تصورها ، سواء بالنسبة للأندلس أو المغرب أو الدولة الموحدية . فأما بالنسبة  
للأندلس ، فقد قضت هذه الهزيمة نهائياً ، على سمعة الموحدين العسكرية في شبه  
الجزيرة ، وتحطم ذلك الدرع الذي كانت تسبغه الجيوش الموحدية ، القادمة  
من وراء البحر ، على الأندلس وعلى دولة الإسلام بها ، وتضعضع سلطان الحكم  
الموحدى بالأندلس ، وأخذت الأندلس من ذلك الحين تنحدر إلى برائن القوضى  
الطاحنة ، وانتشرت غير بعيد إلى أحزاب وشيع جديدة ، قامت لتضرب بعضها  
بعضاً ، ولتبدأ عهداً جديداً من المعارك الانتحارية الصغيرة التي لانهاية لها ، والتي  
تذكرنا بعهد الطوائف . وضمن ذلك النصر الباهر الذي أحرزته الجيوش النصرانية  
المتحالفة في هضاب تولوسا ، لإسبانيا النصرانية ، تفوقها السياسي والعسكري  
في شبه الجزيرة ، وفتح الباب واسعاً لغزو الاسترداد La Reconquista  
النصراني المنظم ، الذي سوف يستمر من ذلك الحين في اجتلاء ثماره ، بانتزاع  
القواعد الأندلسية ، واقتطاع أشلاء الأندلس الكبرى بصورة متتابعة ، وفي فترات  
قصيرة مذهلة .

وقد تردد هذا الفرع الذي سرى إلى الأندلس يومئذ ، وما كان ينفوح لها من  
من شبح الفناء ، من جراء كارثة العقاب ، واضحاً في الأدب والشعر . فمن ذلك  
ما قاله أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي :

وقائلة أراك تطل تفكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب  
فقات لها أفكر في عقاب غداً سيألمركة العقاب  
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب (٢)

وأما بالنسبة للمغرب ، والدولة الموحدية ، فقد كانت كارثة العقاب ضربة  
شديدة للمغرب ، ولأهل المغرب ، بما هلك فيها من حشود القبائل البربرية ، وزهرة  
جنودهم ، ومن الجيوش الموحدية النظامية ، ولم يعد في مقدور هذه القبائل أن  
تقدم للغزو الكثير من حشودها ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية أن تجدد مثل

(١) روض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) نفع العيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

هذه الحملات العسكرية العظيمة ، التي كان يقودها خلفاء مثل عبد المؤمن وأبي يعقوب يوسف والمنصور والناصر . وكما أن الرواية الإسلامية تنوه بخطورة آثار الهزيمة في مصير الأندلس ، وتصفها بأنها كانت سبباً في « هلاك الأندلس »<sup>(١)</sup> ، فإنها تنوه كذلك ، وبنوع خاص ، بالحسارة الآدمية الهائلة ، التي وقعت من جرائها بالمغرب والأندلس ، وتصف الموقعة بالهزيمة العظمى « التي فني فيها أهل المغرب والأندلس »<sup>(٢)</sup> ، أو التي خلا بسببها أكثر المغرب<sup>(٣)</sup> ، أو حسبما تقول لنا في عبارة أوضح وأشمل « إن المغرب قد باد أهله ورجاله وفني خيله وحماته وأبطاله ، وقتلت قبائله وأقياله ، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب »<sup>(٤)</sup> . ويلخص لنا ابن الأبار ، نتائج الموقعة المدمرة بالنسبة للأندلس في قوله إنها « أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تحييف الروم بلادها ، حتى استولت عليها »<sup>(٥)</sup> . وأما بالنسبة للدولة الموحدية ، فقد هزت كارثة العقاب أركانها إلى الأعماق ، وقضت على كل عوامل التوطد ، التي أسبغها عليها المنصور بانتصاره في معركة الأرك ، والتي تأيدت بإخماد ثورة بني غانية في إفريقية . ومما لا ريب فيه أن تضعضع الدولة الموحدية على هذا النحو ، كان أكبر مشجع لبني حفص على اقتطاع إفريقية وإقامتهم غير بعيد لدولتهم المستقلة بها . ويلخص لنا صاحب الروض المعطار أثر الهزيمة في الدولة الموحدية بقوله « وكانت هذه الواقعة أول ومن دخل على الموحدين ، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة »<sup>(٦)</sup> .

ونستطيع بعد أن استعرضنا آثار هزيمة العقاب أن نقول في معرض المقارنة بينها وبين معركة الأرك ، إن انتصار الموحدين في الأرك ، بالرغم من عظمتهم ولعائنه ، لم يسفر بالنسبة لإسبانيا النصرانية عن آثار عميقة ، ولم يصب قشتالة بأكثر من ضعف عسكري مؤقت ، استطاعت أن تنهض منه في فترة قصيرة ، ولم يستطع الموحدون أن يقوموا في أعقابها إلا بغزوات عابرة لمنطقة إستمادورة ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢ .

(٣) المقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٢٤ .

(٥) ابن الأبار في « التكلة » ( القاهرة ) ج ١ ص ١٠٢ .

(٦) الروض المعطار ص ١٣٨ .



ثم لمنطقتي طليطلة و طليطلة ، وقد حاصروا طليطلة بالفعل ، ولكنهم لم يحاولوا  
أولم يستطيعوا الاستيلاء عليها . أما هزيمة العقاب ، فقد رأينا بالعكس مما تقدم ،  
ما كان لها من الآثار الهدامة العميقة .

ومن الغريب المدهش حقاً ، أن الناصر لم يرد أن يلوذ بالصمت إزاء هذه  
الكارثة القادحة ، بل أراد أن يقدم عنها اعتذاره في رسالة رسمية ، وجهت  
من إشبيلية إلى حضرة مراکش وإلى غيرها من قواعد المغرب والأندلس ، وذلك  
في أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ . وقد نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض فصول  
هذه الرسالة ، وهي من إنشاء الوزير الكاتب أبي عبد الله بن عياش ، وفيها يقص  
علينا الناصر قصة استعدادات ألفونسو الثامن لمحاربة المسلمين ، واهتمام البابا ،  
والأخبار النصارى بمعاونته وشد أزره ، وما كان من انضمام ملكي أراجون ونافارا  
إليه . ثم يصف لنا سيره للقاء النصارى ، ويقول لنا إنه نشبت بين الفريقين في  
الموضع المعروف « بالمرشة » معركة « اشتد فيها الكفاح ، وأرخصت الأرواح » .  
ثم يقول « ولكن الله أراد أن يمحى المؤمنين ، ويبيد الكافرين ، فكانت عاقبة  
اليوم على الخصوص لأهل الصليبان ، والعاقبة المطلقة هي لأهل الإسلام والإيمان ،  
وتحاجز الفريقان ، والمسلمون عزيزة جوانبهم ، محروسة بقدرة الله كتابهم ،  
لم تصب الحرب منهم أحداً ، ولا نقصت لهم عدداً . وهي الحروب قضى الله  
أن تكون بجالا ، وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالا » . ثم يقول في ختام رسالته :  
« وإذا كانت وفقكم الله الجيوش موفورة ، والرايات منشورة ، والعزائم باقية ،  
وكفايات الله وافية ، فلا تهنوا فإننا لا نهن ، وانتظروا الكرة على الكفار ، والإمداد  
عليهم ، بجند الله الذين هم خير الأنصار ، فما كان الله ليترك المؤمنين ، حتى  
يأخذ أعداءهم أخذاً ويبيلا ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .  
وعرفناكم لتكون عندكم هذه الواقعة على وجهها ، والنازلة على كنهها ، ولتعلموا  
أنه لم يدبر للموحدين قتل ، ولا أصيب منهم كثير ولا قليل والسلام » (١) .

وإذا كان من الصعب أن يعلق المؤرخ على مثل تلك الرسالة ، التي يصفها  
صاحب الروض المعطار بأنها من قبيل « الزخرف الكاذب » ، فإنه يمكن القول  
بأنها محاولة جريئة من الخليفة المهزوم ، للاعتذار عن نكبته وتهوين شأنها في  
نفوس أمته ، واستدراج عطفهم ، والتخفيف من سخطهم .

(١) راجع البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

حاول ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، على أثر ظفـره العظـيم في موقـعة العقاب أن يجتني ثمار نصره باقتطاع ما يستطيع من الأراضى الإسلامية ، فاستولى في أيام قلائل على معظم الحصون الإسلامية في تلك الناحية ، وكان من بينها حصن فرآل ( حصن العقاب ) ، الذى كان قد أخلاه قبل الموقعة ، وبلغ ، وبانيوس ، وتولوسا . ثم سار إلى مدينتى بياسة ، وأبدة ، اللتين لا تبعدان عن مسرح المعركة سوى بضع مراحل . وكانت بياسة قد غادرها معظم أهلها ، ولكن كان بها كثير من الجرحى والضعاف والفارين ، فأحرق دورها ، وخرّب مسجدها الجامع ، وقتل معظم من وجده بها ، وأخذ بعضهم أسرى . ثم سار إلى مدينة أبدة ، القريبة منها ، وكانت تموج بأهلها ، وبمن وفد عليهم من أهل بياسة ، ومن الفارين ، ولكنها كانت في حالة دفاع وأهبة ، وقد امتنعت وراء أسوارها الحصينة ، فحاصرها ألفونسو ثلاثة عشر يوما ، وصمد المسلمون ، ولحقت بالنصارى بعض الخسائر ، ثم عرض المسلمون في النهاية أن يدفعوا فدية قدرها ألف ألف دينار على أن تترك المدينة حرة ، وأن يتمتعوا بدينهم وشعائهم ، فقبل ألفونسو وزمـيـلاه ملكا أراجون وناقارا هذا العرض ، ولكن الأخبار عارضوا في تنفيذه ، وأصرّوا على تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط ، فنزل الملوك عند هذا الضغط ، ونقضوا العهد المقطوع ، واقتحم الجنود النصارى المدينة ، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفاً ، وسبوا منهم مثل هذا القدر . وتعترف الرواية النصرانية نفسها بهذه الشناعات ، وتقدر من قتل وسبي من أهل أبدة ، بمائة ألف ، ويقدر بعضها السبايا وحدهم بمائة ألف<sup>(١)</sup> ، ويقول لنا المراكشى ، وهو المؤرخ المعاصر ، إن ألفونسو دخل أبدة عنوة ، فقتل وسبي وفصل هو أصحابه من السبي من النساء والصبيان ، بما ملثوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة<sup>(٢)</sup> . ثم هدم النصارى دور المدينة ، بعد أن خلت من سكانها حتى أصبحت خرابا يابا .

ولم يكن بين النصارى الظافرين وبين مدينة جيان سوى بضع مراحل ، وكان من الطبيعى أن يقصد ملك قشتالة إلى انتزاع هذه القاعدة الأندلسية الهامة .

( ١ ) راجع أشناخ - الترجمة العربية ص ٣٧٢ ، وكذلك :

. Hulci : Imperio Almohade, Vol. II p. 427

( ٢ ) المعجب ص ١٨٤ .



ولو حاول ذلك لكان من المحقق أن يفوز ببغيته ، في تلك الظروف التي انهار فيها خط الدفاع الأمامي بالأندلس . ولكن مصاعب التكوين كانت تتفاقم ، وقد سادت الفوضى بين جنود الجيش الظافر ، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم كانت الطامة بانتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الحشث التي غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصاري في قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة في موكب ملوكي ضخمة ، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر ، وتقرر أن يغدو يوم ١٦ يولييه ، وهو اليوم الذي تحقق فيه النصر ، عيداً قومياً يحتفل به في طليطلة وسائر أنحاء قشتالة ، ويسمى عيد « ظفر الصليب » .

هذا وأما الخليفة الناصر لدين الله ، فإنه بعد أن فرّ من ميدان المعركة في آخر لحظة ، حسبما أشرنا من قبل ، سار إلى جيّان ثم غادرها مسرعاً إلى إشبيلية فوصلها في أيام قلائل ، في أواخر شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ ، ووجه منها كتابه بالاعتذار عن الكارثة ، إلى قواعد المغرب والأندلس . وليث مقبلاً بإشبيلية حتى شهر رمضان من هذا العام ، وهو لا يحرك ساكناً ولا يبالي بأمر ، ثم عبر البحر إلى العدو ، قافلاً إلى حضرة مراکش ، وما كاد يستقر بها حتى أخذ البيعة بولاية العهد لولده السيد أبي يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر ، فبايعه كافة الموحدين ، وخطب له على جميع المنابر بالمغرب والأندلس ، وذلك في أواخر شهر ذي الحجة سنة تسع وستمائة . ثم لزم الناصر بعد ذلك قصره ، واحتجب عن الناس . يقول صاحب روض القرطاس : « وانغمس في لذاته ، فأقام فيه مصطبحاً ومغتبقاً ، أي صباح مساء . وفي أوائل شهر شعبان سنة ٦١٠ هـ ، مرض الناصر ، وتوفي في مساء يوم الأربعاء العاشر من شعبان ( ٢٢ ديسمبر سنة ١٢١٣ م )<sup>(١)</sup> . وقد اختلف في أسباب وفاته ، فقيل إنه توفي غماً وألماً من آثار نكبته في العقاب<sup>(٢)</sup> . وقيل إنه توفي من عضّة كلب<sup>(٣)</sup> ، وقيل إنه مات مسموماً ، بتدبير بعض وزرائه ، ممن خشوا من نغمته وانتقامه ، لما بلغه عنهم من سوء فعلهم وفسادهم ، فأغروا

(١) اختلف في يوم وفاته ، فلا ذكر إنه اليوم الخامس من شعبان أو اليوم العاشر (النويري- طبعة ريمبروج ٨ ص ٢٨٠) ، وذكر أنه اليوم الحادي عشر (روض القرطاس ص ١٦٠) . ولكن المراكشي وهو أقرب من عاصره يضع تاريخ وفاته في يوم الأربعاء العاشر من شعبان (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) (٣) الروض المطار ص ١٢٨ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢ .

بعض جواريه بوضع السم له في قدح من الخمر فات من حينه<sup>(١)</sup>. ولكن المراكشي وهو في ذلك أكثر اطلاعاً وأقرب إلى الثقة، لمعاصرتة لتلك الحوادث؛ يقول لنا إن أصبح ما بلغه عن وفاة الناصر «أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه، وذلك يوم الجمعة لحمس خلون من شعبان، فأقام ساكناً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك، وتوفي يوم الأربعاء لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠، ودفن يوم الخميس، وصلى عليه خاصة الحشم<sup>(٢)</sup>».

وكان الخليفة محمد الناصر لدين الله، آخر ذلك الثبت من الخلفاء الموحدين الذين اقترنت بعصرهم بعض الأحداث الضخمة الحاسمة، وكان أهم تلك الأحداث أولاً تحطيم ثورة بني غانية في إفريقية، وهو الملع حادث في عهده، ويقترن بذلك فتح الموحدين لميورقة، وثانياً نكبة العقاب المشتومة التي هزت أركان الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس. ولم يكن ثمة في بداية عهده ما يؤذن بأنه صائر إلى ذلك الانهيار، الذي انتهى إليه في فترته القصيرة، بل كانت صولة أبيه العظيمة، وذكريات نصر الأرك الباهر، مازالت تظلل الخلافة الموحدية. وقد بدأ الناصر عهده بداية حسنة، وأبدى همة ظاهرة في إدارة الشئون وتنظيم الإدارة، ومطاردة الفساد، وإقصاء العمال الظلمة والمرتشين، ولكنه لم يتلرع في ذلك بالروية وبعد النظر، بل كان يغلب في ذلك النزق والاستبداد. وكان الناصر في البداية، وهو ما يزال في شرح فتوته يسترشد بآراء أشياخ الموحدين، في تسير الشئون الكبرى، ولا سيما بآراء الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، وفقاً لوصية أبيه المنصور، ولكنه لما اشتد ساعده، استبد بالأمر، ولم يعد يقبل نصحاً أو مشورة من أحد، حتى أنه رفض نصيح الشيخ أبي محمد عبد الواحد، حينما استشاره في شئون الأندلس، بالألا يسير إلى غزوته الكبرى، التي انتهت بنكته في موقعة العقاب. ولم يقع في عهد الناصر شيء يذكر من الأعمال الإنشائية، التي امتاز بها عهد أبيه وجده، ولم يكن الناصر على شيء خاص من أنواع العلوم أو المعرفة، ولم يجتمع في بلاطه أحد من أولئك العلماء المبرزين، الذين اجتمعوا حول أبيه، وإنما كان يلوذ ببلاطه فقط بعض الشعراء الملقين، الذين عرفناهم فيما تقدم، مثل أبي العباس الجراوي، ووزيره خالد اللخمي وغيرهما.

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣، وروض القرطاس ص ١٦٠.

(٢) المعجب ص ١٨٤، ونقله النويري (طبعة ريمبرج ٨ ص ٢٨٠).



وقد وصف لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، وربما شاهد عيان ، صفات الناصر في قوله : « كان كثيراً الإطراق ، شديد الصمت ، بعيد الغور ، كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه ، حليماً ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لا يعنيه ، إلا أنه كان بخيلاً »<sup>(١)</sup>. ونحن نعتقد أن وصف الناصر بالعفة عن الدماء ، وصف في غير موضعه ، لما رأيناه ، فيما تقدم ، من تسرعه في سفك دماء بعض العمال ، ودماء القادة الأندلسيين . ويقول صاحب روض القرطاس « إنه كان كبير المهمة ، غليظ الحجاب ، لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد ، مصيب برأيه ، مستبد في أموره وتدبير مملكته بنفسه »<sup>(٢)</sup> وأما عن شخصه ، فيوصف الناصر ، بأنه كان أبيض ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، نحيل الجسم ، حسن القامة .

ووزر للناصر في البداية وزير أبيه عبد الرحمن بن يوجان ، ثم استوزر من بعده أخاه إبراهيم بن الخليفة المنصور ، ثم ولي الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد ابن علي بن أبي عمران ، فسار فيها سيرة حسنة ، وكان يحض الخليفة على فعل الخير ، ونشر العدل ، والإحسان إلى الرعية والحد ، ثم عزله الناصر ، ووُلى الوزارة من بعده ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع . وإبراهيم هو جد هذه الأسرة من الوزراء ومن صحب المهدي ابن تومرت حسبما سبقت الإشارة إليه . وتولى القضاء للناصر ، أبو القاسم أحمد بن بقي قاضي أبيه ، ثم أبو عبد الله محمد بن مروان ، فلبث في منصبه حتى توفي في سنة ٦٠١ هـ ، فخلفه في القضاء أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران ، واستمر بقية عهد الناصر وشطراً من عهد ابنه المستنصر . وكان من كتاب الناصر اثنان من أسرة بني عياش اللامعة ، هما الكاتب الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش كاتب أبيه من قبل ، وأبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش ، وكان أبوه من كتاب عبد المؤمن ، وأبو عبد الله محمد بن يخافتن الفازازي .

وكان من كتاب جيشه أبو الحجاج يوسف المراني وهو أندلسي من أهل شريش ، وأبو جعفر أحمد بن منيع . ولم ينجب الناصر لدين الله من الولد سوى ثلاثة من البنين ، هم يوسف المستنصر ولي عهده ، والخليفة من بعده ، ويحيى وقد توفي في حياة أبيه في سنة ٦٠٨ هـ ، وإسحاق ، وعدد من البنات .

(١) المعجب ص ١٧٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ .

الكتاب الثاني

الدولة الموحدة

في طريق الانحلال والتفكك



## الفصل الأول

### عصر الخليفة يوسف المستنصر بالله

#### وأوائل ظهور بني مرين

يوسف المستنصر يحلف أباه الناصر . بيعته الخاصة ثم بيعته العامة . وزراؤه وكتابه . ميله إلى حياة الدنيا . عماله على الولايات . السيد أبو إسحق والي غرناطة . السيد أبو العلاء أمير تونس . ثورة الفاطميين . تفاصيل حركته . إخماد ثورته وإعدامه . مقدم سفير قشتالة في طلب السلم . عقد السلم مع قشتالة . بواغث إثارة قشتالة للسلم . طلائع بني مرين عند أحواز فاس . أصول بني مرين ومنازلهم . اقتسابهم إلى العرب . أمراؤهم الأوائل . صراعاتهم مع القبائل الحصينة . اللقاء الأول بينهم وبين الموحدين . هزيمتهم ومقتل أميرهم . اشتراكهم في الجهاد مع الموحدين . انحلال قوى الموحدين عقب موقعة العقاب . نهوض بني مرين لانتهاز الفرصة . إغارتهم على أطراف المغرب . تأهب الموحدين لردهم . اللقاء بين الفريقين . موقعة المشعل . هزيمة موحدية أخرى في رباط تازة . الخلاف بين بني مرين . خروج بني حمامة منهم . أميرهم عبدالحق . تحالف المنشقين مع الموحدين والعرب . القتال بين الفريقين . مقتل عبد الحق وولده إدريس . تجدد الحرب وهزيمة بني حمامة . أبو سعيد عثمان يتولى رئاسة بني مرين . حوادث الأندلس . مهاجرة البرتغاليين والصليبيين لثغر القصر . محاصرة النصارى لثغر . مبادرة الموحدين إلى إنجاده . اللقاء بين المسلمين والنصارى . هزيمة المسلمين . صمود حصن القصر ثم تسليمه . استيلاء النصارى على حصن القصر . محاصرة ملك ليون لقاصرش وصمودها . تكرار الهجوم عليها ومعاودة حصارها . سقوطها في أيدي النصارى . أحوال المغرب في هذا الوقت . ركود بلاط مراكش وتواكله . اضطراب الأمن . الأحوال الاقتصادية وانتشار المجاعة . كتاب الخليفة المستنصر إلى الولاة والأعيان والكافة . تجدد الهادن بين الموحدين وقشتالة . كتاب البلاط الموحدى إلى ملكة قشتالة . مصرع المستنصر الفجائى . ركود عهده واضطراب الأحوال فيه . أقوال المؤرخين في ذلك . أحوال المغرب حسبما يصورها ابن عبد الملك . صورة أخرى للمستنصر وخلالله . حكومة المستنصر . وزراؤه وكتابه وقضاته .

تدخل الدولة الموحدية ، بعد وفاة الخليفة محمد الناصر لدين الله ، في العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، في مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، مرحلة انحلال مضطرد ، وصراع داخلى مستمر على انتزاع العرش ، وتنتشر أسرة بني عبد المؤمن الشاذلية ، إلى شيع وأحزاب ضعيفة متخاصمة ، وينتشر شمل القبائل الموحدية ، حول تأييد هذا الفريق أوذاك ، وتنهك قوى الدولة الموحدية ومواردها الضعيفة تباعاً ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، في معارك انتحارية مستمرة ، وتتخذ هذه

المرحلة في الأندلس بالأخص ، طابعاً مشثوماً ، لم يسبق للأندلس أن نكبت بمثله ، فتغلبوا من جديد مسرحاً مضطرباً للحرب الأهلية ، أولاً فيما بين الموحدين المتنافسين على العرش ، وثانياً فيما بين أبناء الأندلس أنفسهم ، وفي خلال هذه الموجة الغامرة من المحنة القومية ، تتحفز اسبانيا النصرانية ، لانتهاز الفرصة الساحقة ، وتنظم متعاونة متفاهمة ، أخطر برنامج لفتوح « الاسترداد » ، وتهتز مصابير القواعد الأندلسية الكبرى ، ومصابير الأمة الأندلسية كلها.

خلف المستنصر بالله ، أبو يعقوب يوسف ، أباه محمد الناصر ، في اليوم التالي لوفاة ، في الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٣ ديسمبر سنة ١٢١٣ م) وأمه حرة ، هى فاطمة بنت السيد أبى على بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقيل إنها أم ولد نصرانية تدعى قمر<sup>(١)</sup> . وكان المستنصر حين ولايته فتى فى السادسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده فى أول شوال سنة ٥٩٤ هـ<sup>(٢)</sup> ، وهناك أقوال أخرى بأنه كان فى العاشرة من عمره<sup>(٣)</sup> ، ولكننا نفضل الأخذ بالرواية الأولى ، إذ هى رواية المؤرخ الموحدى المعاصر ، وهو الذى يقدم لنا تاريخ مولده ، ويأخذ بهذه الرواية مؤرخان كبيران هما ابن خلكان وابن خلدون<sup>(٤)</sup> .

وكان يوسف المستنصر فتى وسيماً ، حسن القد ، جميل الحيا ، صافى السمرة ، شديد الكحل ، ولم يكن على قول المؤرخ فى بنى عبد المؤمن أحسن وجهاً منه ، ولا أبلغ فى المخاطبة<sup>(٥)</sup> . وكان أبوه الناصر لدين الله قد أخذ له البيعة بولاية عهده عقب عوده من الأندلس ، على أثر موقعة العقاب ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٩ هـ ، قبيل وفاته بأشهر قلائل ، وكان أول من أخذ له البيعة الخاصة ، عم جده أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، وأبو زكريا يحيى بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومن أشياخ الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى زيد الهنتانى ، وأبو على عمر بن موسى عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان

(١) يقول بالرواية الأولى صاحب روض القرطاس ( ص ١٦٠ ) ، وبالثانية المراكشى ( المعجب ص ١٨٤ ) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٨٤ .

(٣) هذه هى رواية ابن عذارى فى البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وصاحب

الحلل الموشية ص ١٣٣ .

(٤) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ ، وابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٥٠ .

(٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ .



عبد الملك بن يوسف من أهل تينملل ، وكان هؤلاء نفر من القرابة والأشياخ هم الذين نصبوا أنفسهم للوصاية على الخليفة الصبي وتوجيهه ، وذلك بتوصية من والده الخليفة المتوفى ، واستغرقت البيعة الخاصة يوم الخميس والجمعة ، الحادى عشر والثانى عشر من شعبان ، وفى يوم السبت أذن بأداء البيعة العامة . ويقول لنا المراكشى ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، أن أبا عبد الله بن عيَّاش الكاتب كان قائماً يقول للناس « تُبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول الله ، من السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، والنصح له ولولائه ولعامة المسلمين . هذا ما له عليكم . ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم ، وأن لا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطاءكم ، وأن لا يحتجب دونكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما قلد من أموركم » . وكان يعيد هذا القول لكل طائفة إلى أن انقضت البيعة<sup>(١)</sup> . وأخذت بعد ذلك بيعات الأعيان والوفود القادمين من مختلف الأنحاء ، ثم وردت بيعات مختلف البلاد بالمغرب والأندلس . واتخذ الخليفة الجديد لقب المستنصر بالله ، وفى بعض الروايات أنه لُقّب أيضاً بالمتنصر بالله<sup>(٢)</sup> .

ولم يتأخر فى تقديم البيعة سوى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى إفريقية ، وذلك لصغر سن المستنصر . وأكن الوزير أبا سعيد بن جامع بذل سعيه لدى الشيخ لتسوية هذا الأمر ، فوصات بيعته فيما بعد<sup>(٣)</sup> .

وتولى الوزارة للمستنصر وزير أبيه من قبل ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله ابن إبراهيم بن جامع ، فاستمر فى الوزارة حتى سنة ٦١٥ هـ ، ثم عُزل وخلفه زكريا ابن يحيى بن إسماعيل الهزرجى . وهو ابن بنت الخليفة يعقوب المنصور ، أعنى ابن عمه المستنصر ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتب أبيه وجده من قبل أبو عبد الله بن عيَّاش ، وأبو الحسن بن عيَّاش .

وكان الخليفة الجديد ميالاً إلى حياة الدعة والبطالة مشغلاً عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشباب<sup>(٤)</sup> لا يعنيه شئ من مهام الملك ، أو بعبارة أخرى لا يمكن من العناية بشئ منها . وكانت الأمور تجري وفقاً لما يراه ويرمه الأشياخ

(١) المعجب ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٠ ، وتاريخ الدولتين للزركشى (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ١٤ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٠ .

الأوصياء . وكان عهده على العموم ، يمتاز بالهدوء والركود ، لم تقع خلاله حوادث ذات شأن ، ولم تنظم غزوات ما ، ولم تُحشد الجيوش الموحدية ، ولم تعبر البحر إلى شبه الجزيرة ، وفقاً لما جرى عليه الأمر ، منذ عهد أول الخلفاء الموحدين عبد المؤمن بن علي .

وعقد المستنصر لأول ولايته للسادة ، على عمالات الولايات بالمغرب ، والأندلس . فولّى على مدينة فاس السيد أبا إبراهيم إسحق الملقب بالأمير الظاهر ابن يوسف بن عبد المؤمن وكان والياً على غرناطة ، وهو أبو الخليفة المرتضى . وقد اشتهر السيد أبو إبراهيم إسحق هذا أيام ولايته لغرناطة في آخر عهد الناصر ، بمشآته العمرانية بها ، وكان من أهمها وأجلها القصر الذي أنشأه خارج غرناطة على مقربة من ضفة نهر شليل ، وهو القصر الذي عرف فيما بعد أيام ملوك غرناطة « بقصر السيد » . والظاهر أن السيد إسحق ولى حكم غرناطة في عهد المستنصر مرة أخرى ، إذ يقول لنا صاحب « الحلال الموشية » إنه أنشأ أمام هذا القصر ، رابطة في سنة ٦١٥ هـ . وقد استعمل « قصر السيد » أيام ملوك غرناطة منزلاً للضيافة الملوكية ، وما زالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله ، في ضاحية غرناطة المسماة « أرملة » (١) .

وولى على إشبيلية عمه السيد أبا إسحاق بن يعقوب المنصور ، وهو المعروف بالأحول ، وبعث عم أبيه أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن إلى تونس ليستقر في قصبتها ، وأن يكون أميراً عليها ، يعنى بتدبير شئونها ، والدفاع عنها ضد الميورقي ، إلى جانب الشيخ أبي محمد بن أبي حفص وإلى إفريقية . والسيد أبو العلاء هذا هو الذي أنشأ البرجين على باب المهدية ، وأنشأ باب سبتة الحديد ، ثم أنشأ بإشبيلية برج الذهب الشهير أيام ولايته لها (٢) .

وكان أول حادث ذو شأن وقع في ولاية المستنصر ، هو إخماد ثورة الفاطمي العبيدي . وقد روى لنا المراكشي قصة هذا الدعي كاملة ، وقد عرفه

---

(١) راجع في ذكر « قصر السيد » وصفه ، الحلال الموشية ص ١٢٦ ، والإحاطة في أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٥ ، ٣٢٤ و ٥٦١ . وراجع كتاب « الآثار الأندلسية الباقية » (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب القم الثالث ص ٢٤٣ و ١٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٦١ .



واجتمع به . وكان اسمه عبد الرحمن ، ويدعى أنه من بني عُبيد ، وأنه ولد الخليفة العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين . وكان قد ورد على المغرب ، أيام الخليفة المنصور ، وسعى إلى الاجتماع به فلم يأذن له ، واستمر يطوف بالبلاد ، إلى أن قبض عليه بأمر الخليفة الناصر ، واعتقل في سنة ٥٩٦ هـ ، فلم يزل في سجنه إلى أن تحرك الناصر إلى إفريقية في سنة ٦٠٨ هـ ، فشفع له فيه أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الهزرجي ، فوافق على إطلاق سراحه ، على أن يلتزم السكنة ، وألا يشتغل بأي أمر غير مرغوب فيه . ولكن الدعي ما كاد يسترد حريته ، حتى غادر مراکش إلى بلاد صنهاجة ، وهناك التف حوله كثيرون ممن جذبته دعوته ، وكانوا يعظمونه ويبجلونه . يقول المراكشي « وكان هذا الرجل كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقيته مرتين ، فلم أر في أكثر من شهادته من المشبهين بالصالحين ، مثله في الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس ، وسكون الأطراف ، ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ، ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة » . ثم خرج هذا الرجل في جموعه متجهاً صوب مدينة سجلماسة ، فخرج إليه واليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العبيدي ، واضطر أن يرتد في قلوبه إلى سجلماسة ، وما زال العبيدي يتنقل بين قبائل البربر ، من موضع إلى موضع ، دون أن يستقر في مكان ، أوتثبت حوله جماعة ، إذ كان وفقاً لقول المراكشي « غريب البلد واللسان ، لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يُرجع إليه » حتى رمت به المقادير إلى أحواز فاس . وكانت السلطات الموحدية تطارده أينما حل ، فقبض عليه بظاهر المدينة ، وأودعه حاكم فاس ، وهو السيد إسحاق ، المطبق ، وكتب إلى الخليفة المستنصر بأمره ، فكتب إليه المستنصر يأمر بقتله وصلبه ، فضرَب عنقه ، وصلب جسده ، وأرسلت رأسه إلى مراکش ، حيث علقت هنالك إلى جانب عدة أخرى من رؤوس الثوار والمتغلبين<sup>(١)</sup> .

ويضع ابن عذاري تاريخ ثورة العبيدي في سنة ٦١٢ هـ ( ١٢١٥ م ) ، ويقول إنه قام بثورته في بلاد جزولة ، من إقليم السّوس ، وكان يزعم أنه فاطمي من ذرية عبد الله الشيعي ، ولم يزل ييث دعوته حتى ظفر به الموحدون فقتل وعلق رأسه على باب فاس<sup>(٢)</sup> . بيد أننا نؤثر الأخذ برواية المراكشي ،

( ١ ) المراكش في المعجب ص ١٨٦ .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣ .

وهو معاصر وشاهد عيان ، وهو ينفرد بما يقدمه إلينا من التفاصيل .

وفي نفس هذا العام ، سنة ١٢١٢ هـ ( ١٢١٥ م ) وصل إلى مراکش إبراهيم ابن الفخار اليهودي وزير ملك قشتالة ، سفيراً إلى الخليفة الموحدي في شأن التهادن وعقد السلم ، فرحب المستنصر وأوصياؤه ، بهذه الرغبة ، ووجه كتابين إلى الأندلس ، أحدهما إلى السيد أبي الربيع والي جيان ، والثاني إلى الشيخ أبي العباس بن أبي حفص والي قرطبة ، يطلب إليهما عقد التهادن والسلم مع ملك قشتالة ، على جميع بلاد الموحدين بالأندلس ، وفقاً للشروط التي اتفق عليها بين الخليفة وبين ابن الفخار ، والتزم بها السفير القشتالي نيابة عن مليكه ، وكان عقد السلم مع قشتالة على هذا النحو ، خطوة طيبة ، حققت للأندلس فترة من الهدوء والسلام<sup>(١)</sup> .

ويجب لكي نفهم البواعث التي حملت قشتالة ، على أن تسعى إلى عقد السلم مع الموحدين ، ولما عمض سوى ثلاثة أعوام على انتصارها الساحق في معركة العقاب ، أن نذكر أنه لما توفي ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وهو الظافر في معركة العقاب ، في أكتوبر سنة ١٢١٤ م ، خلفه على العرش ولده الطفل هنري ( إنريكي ) ، ولم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره ، فتولت أمه الملكة إليونور ، الوصاية عليه ، ولكنها توفيت بعد أشهر قلائل ، فخلفتها في الوصاية أخته دونيا برنجيلا ، زوجة ألفونسو التاسع ملك ليون المطلقة ، وكان آل لارا الأقوياء يطمحون إلى انتزاع الوصاية لأنفسهم ، فتنازلت عنها إليهم دونيا برنجيلا بشروط تعهدوا باحترامها ، أهمها ألا يعلنوا الحرب على أي ملك ، أو يتنازلوا عن الأراضي للاتباع ، أو يفرضوا أية ضرائب ، دون موافقة الملكة ( برنجيلا ) . وسارت الأمور في قشتالة على هذا النحو حيناً ، حتى توفي الملك الصبي هنري بعد ذلك بقليل من جرح أصابه خلال اللعب مع بعض الصبية الآخرين ، وذلك في يونيو سنة ١٢١٧ . فعندئذ بادرت الملكة برنجيلا باستخدام ولدها فرناندو وهو الذي رزقت به من ألفونسو ملك ليون ، وكان صبيّاً في الثانية عشرة من عمره ، واستدعاء صحبها المخلصين ، وسارت إلى بلد الوليد ، وهناك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة ، بيد أنها تنازلت في الحال عن العرش لولدها

---

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٤ .



فرناندو فأصبح ملكاً على قشتالة ( أول يولييه سنة ١٢١٧ م ) وهذا الملك الصبي ، هو الذي غدا فيما بعد فرناندو الثالث ، أو فرناندو المقدس<sup>(١)</sup> .

وفضلاً عما كان يحيق بعرش قشتالة من عوامل التقلقل والضعف ، فإن أحوال قشتالة العامة لم تكن يومئذ تدعو إلى الرضى ، فإن آثار الوباء كانت ماتزال متفشية في معظم الأنحاء ، وكان الإنتاج الزراعى قد انخفض من جراء ذلك ، وهلكت المحاصيل ، وانتشرت المجاعة بين السكان .

نستطيع على ضوء هذه الظروف التى كانت تجوزها قشتالة عندئذ ، أن نفهم كيف جنحت قشتالة إلى المسألة ، وآثرت أن تجوز فترة هدوء وسلام ، تستطيع خلالها أن تنظم شئونها ، وأن توطد عرشها ، وأن تعمل على إنعاش مواردها وأحوالها الزراعية والاقتصادية .

وفي العام التالى أعنى فى سنة ٦١٣ هـ ( ١٢١٦ م ) ، وقع حادث ضئيل فى ظاهره ، كبير فى مغزاه ، ونتائجه المحتملة ، هو ظهور طلائع بنى مَرِين فى أحواز مدينة فاس . وقد شرح لنا ابن خلدون أصل أولئك القوم ، الذين كتب لهم ، أن ينتزعوا ملك الموحدين فيما بعد ، فهم من شعوب بنى واسين من بطون قبيلة زنانة الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل البربرية التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ، ومغيلة ، ومديونة ، وبنى يفرن ، وبنى دمر ، وزواغة ، وجراوة ، وبنى عبد الواد ، وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مَرِين ، كعظم الأسر البربرية التى شادت بالمغرب دولا شامخة ، يرجعون نسبهم إلى العرب . وقد رأيت أن هذا كان شأن المرابطين حيث تُرجع صنهاجة التى تنتمى إليها لمتونة نسبتها إلى العرب البماية ، وشأن الموحدين ، حيث ينتسب صاحب دعوتهم المهدي ابن تومرت ، إلى آل البيت ، ويُرجع مؤسس دولتهم عبدالمؤمن نسبته إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وإلى هذا الفرع أيضاً ينتسب بنو مَرِين ، فيقولون إنهم من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وجدهم الأعلى جرماط بن مَرِين بن ورتاجى بن ماخوخ بن وجديج بن فائق بن يدّر . ابن بجفت بن يصلين بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سجيك ابن واسين<sup>(٢)</sup> . وكانت منازل بنى مَرِين ، وإخوانهم من بنى مديونة وبنى يلوى

( ١ ) M.Lafuente : Historia General de Espana. T. III. p. 380 & 381

( ٢ ) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ( طبع الجزائر ١٩٢٠ ) ص ١٠ ، ١١ ، ١٦ —

وبني يادين بن محمد في المغرب الأوسط ، ما بين وادي ملوية شمالاً وسجلماسة جنوباً . وكانت المعارك كثيراً ما تنشب بين بني مرين وجيرانهم من بني يادين ، وهم الذين ينتمى إليهم بنو عبد الواد ، أصحاب مملكة تلمسان فيما بعد ، وكانت الغلبة في معظم الأحيان على بني مرين ، لكثرة خصومهم من بني يادين ، وكان بنو مرين كعظم البطون البربرية في تلك المنطقة ، من البدو الرحل ، يتجولون في هاتيك القفار شرقاً وغرباً ، وربما وصلوا في ظعنهم شرقاً إلى بلاد الزاب . وقد كانت الرياسة فيهم ، حسبما تذكر الرواية قبل ذلك بعصور ، لمحمد بن وزير ابن فكوس بن كرماط بن مرين . ولما توفي محمد قام بأمر بني مرين من بعده أكبر أولاده حمادة ، ثم خلفه أخوه عسكر ، فلما توفي قام مكانه في الرياسة ولده أبو يكي الملقب بالخنضب ، فلم يزل أميراً عليهم حتى ظهر أمر الموحدين ، وزحف عبد المؤمن إلى تلمسان في أثر تاشفين بن علي ، ليخوض معه المعركة الحاسمة ( ٥٣٩ هـ ) ، وبعث قوة من الموحدين بقيادة الشيخ أبي حفص عمر المهناني ، لمحاربة الخوارج من بطون زناتة ، فاجتمع لقتاله بنو يادين وبنو يلوي وبنو مرين ومغراوة ، فزق الموحدون جموعهم ، وأذعن بنو يلوي وبنو يادين وبنو عبد الواد إلى الطاعة . ولكن بني مرين لحقوا بالصحراء في اتجاه الزاب . ولما دخل عبد المؤمن وهران ، على أثر مصرع تاشفين وتبدد قواته ، واستولى على أموال لتونة وذخائرها ، عهد بهذه الأموال والذخائر إلى قوة من الموحدين لتحملها إلى تينملل ، فعلم بنو مرين بذلك ، واعترضوا تلك القوة ، وانتزعوا الغنائم من أيدي الموحدين . فحشد عبد المؤمن أوليائه من بطون زناتة ، وبعثهم مع الموحدين لاستنقاذ الغنائم . والتقى الموحدون وبنو مرين في مكان يعرف بفحص مسون ، فهزم بنو مرين ، وقتل شيخهم الخنضب بن عسكر ، وذلك في سنة ٥٤٠ هـ ( ١١٤٥ م ) . ولبأ بنو مرين على أثر ذلك إلى الصحراء ، وعادوا إلى القفر يرقبون الفرص .

وقام بأمر بني مرين بعد الخنضب بن عسكر ، ابن عمه أبو بكر بن حمادة ابن محمد . ولما توفي في سنة ٥٦١ هـ ، قام بأمرهم ولده محيو ، فلم يزل في

١٧ و ١٨ ، وابن خلدون في كتاب العبر ج ٧ ص ١٦١ . ويقدم لنا صاحب الذخيرة السنية شرحاً طويلاً لكيفية تحول نسل يربن قيس عيلان بالمغرب من العروبة إلى البربرية .

( ١ ) الذخيرة السنية ص ١٨ و ١٩ .



رياستهم ، حتى استنفرهم الخليفة يعقوب المنصور للجهاد معه بالأندلس ، فاشركت معه منهم جماعة كبيرة في موقعة الأرك ، وأبلىوا فيها البلاء الحسن ( ٥٩١ هـ - ١١٩٥ م ) ، وأصيب عيدهم محيو في المعركة بجرح توفي منه بعد بضعة أشهر ، فخلفه في الرياسة أكبر أولاده أبو محمد عبد الحق ، وكان من خيرة أمرائهم ، وعلى يديه أخذ نجم بن مرين يبرز في الأفق<sup>(١)</sup> .

ولما وقعت كارثة العقاب ، وفي معظم الجيوش الموحدية ، في شبه الجزيرة الأندلسية ، أخذت بوادر التفكك والضعف تبدو على سلطان الموحدين ، في معظم العائلات والأطراف . ولم يكن ذلك بخاف على القبائل المتوثبة مثل بنى مرين . ولما توفي الخليفة الناصر ، وخلفه ولده النصبي يوسف المستنصر ، وشغلته نزوات الحداثة والشباب ، عن تدبير شئون الدولة ، وغلب التواكل والتراخي ، على السادة والأشياخ ، في مختلف النواحي ، لاح لبنى مرين أن فرصتهم قد سنحت . وكانوا لا يأوون إلا إلى القفار ، ولا يخضعون لأي حكم ، ولا يؤدون الجزية لأحد ، ولا يعرفون الحرث والزرع ، ولا شاغل لهم غير الصيد والغارات ، وجل أموالهم من الإبل والحيل<sup>(٢)</sup> . وكانت منازلهم ما تزال في جنوبي وادي ملوية ، وكانوا يترددون في تلك الأنحاء ، ولا سيما في المنطقة الممتدة ما بين وادي ملوية ومكناسة ، ويأبنسون بمن بها من عسائر زناتة ، وينتجعون المرعى أيام الربيع والصيف ، ويجمعون الحبوب لأقواتهم طيلة الشتاء ، ثم يرتدون إلى منازلهم في القفر فوق التلال والربى . فلما شهدوا من تضعضع الدولة الموحدية ، وتخاذل أطرافها ماشهدوا ، اعزموا أن يهجروا القفر ، وأن ينتجوا العمران ، فنفذوا إلى نواحي المغرب المجاورة ، واكتسحوا بخيلهم البسائط ، وملأوا أيديهم بالغارة والنهب ، وكان ذلك بداية عهد الخليفة المستنصر . فثار لذلك بلاط مراکش ، وأمر المستنصر بتجهيز الحشود ، وندب أبا علي بن وانودين للقيادة ، وبعثه إلى السيد إبراهيم إسماعيل وإلى فاس ، وأمر بأن يخرج السيد لغزو بنى مرين ، وأن يشخن فيهم وأن يستأصل شأفتهم ، وكان بنو مرين حينما علموا بأمر هذه الأبهة قد اجتمعوا وتشاوروا ، واتفق رأيهم على التأهب للحرب والنزال ، فتركوا أموالهم وحریمهم في حصن تاروطا بأرض عمارة ، وساروا جنوبا صوب فاس ،

( ١ ) ابن حلدون في المبرج ج ٧ ص ١٦٧ .

( ٢ ) الذخيرة النية ص ٢٢ .

وكانوا في نحو أربعائة فارس غير الرجال ، وخرج الموحدون إليهم بقيادة السيد أبي إبراهيم ، وكانوا في عشرين ألف مقاتل أو في عشرة آلاف وفقاً لرواية أخرى . والتقى الفريقان بوادي نكور ، فكانت الهزيمة على الموحدين ، واستولى بنو مرين على أسلابهم ودوابهم ومتاعهم بل وثيابهم ، وأسروا السيد أبا إبراهيم ثم أطلقوا سراحه بعد ذلك ، وارتدت فلول الموحدين إلى فاس ، وبعضهم نحو رباط تازة ، وكثير منهم يسترون أنفسهم بورق النبات المعروف « بالمشعلة » حتى لقد سميت هذه الموقعة بموقعة المشعلة ، بل سمي هذا العام ( سنة ٦١٣ هـ ) بعام المشعلة<sup>(١)</sup> ، وسار بنو مرين بعد ذلك شرقاً نحو بلدة رباط تازة ، وبعث أميرهم أبو محمد عبد الحق إلى عاملها الموحدى ، يطلب إليه أن يقيم في خارجها سوقاً لبني مرين ، يتزودون منها بما يحتاجون إليه ، فأنف العامل الموحدى ، وثار لذلك الطلب ، وخرج في جمع غفير من الموحدين والعرب وأبناء القبائل المجاورة ، ونشبت بينه وبين المرينيين معركة شديدة هزم فيها وقتل ، ونهبت محله . فكان ثانياً نصر لبني مرين على الموحدين في ظرف بضعة أشهر<sup>(٢)</sup> .

ثم وقع الخلاف بين بني مرين أنفسهم ، وانقسموا إلى فرقتين ، الأولى يزعمها بنو عسكر بن محمد ، والثانية يزعمها بنو حمادة بن محمد ، وقد كانت الرياسة في البداية في بني عسكر ، ثم انتقلت إلى بني حمادة ، فغص بذلك فريق بني عسكر ، وخرجوا على أميرهم أبي محمد عبد الحق ، وتحالفوا مع أولياء الموحدين من عرب رياح ، وكان الخليفة المنصور قد أنزلهم بتلك المنطقة . وفي سنة ٦١٤ هـ ، نشبت بين بني عسكر وحلفائهم من أولياء الموحدين ، وبين بني حمادة في وادي سبو ، موقعة هزم فيها بنو حمادة في البداية ، وقتل أميرهم عبد الحق وولده الأكبر إدريس ، فاضطرم بنو حمادة سخطاً ، واستجمعوا قواهم ، وحلوا على خصومهم من الموحدين والعرب حملة عنيفة ، كثر فيها القتل من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الموحدين والعرب وتمزيق جوعهم ، وانتهاب سائر أسلابهم . ( جمادى الآخرة سنة ٦١٤ هـ ) . وقام برياسة بني مرين بعد مقتل أميرهم عبد الحق ، والده أبو سعيد

( ١ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٤ و ٢٤٧ ، وروض

القرطاس ص ١٨٨ ، والذخيرة السنية ص ٢٦ - ٢٨ .

( ٢ ) الذخيرة السنية ص ٣١ و ٣٢ .



عثمان ، وهو الذى بزغ على يديه نجم بنى مرين ، وأصبحوا قوة لها خطرهما<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

ولقد أشرنا فيما تقدم إلى عقد التهادن والسلم بين الموحدين ومملكة قشتالة ، ولكن هذا التهادن لم يتحقق بالنسبة لباقي الممالك الإسبانية النصرانية ، ومن ثم فقد وقعت بالأندلس ، فى قطاع الغرب ، حوادث هامة ، كان من نتائجها ، أن نكبت الأندلس بفقد طائفة جديدة من الأراضى والحصون .

وكان أول ضربة أصابت الأندلس من جراء العدوان النصرانى ، فقد ثغر القصر أوقصر أبى دانس<sup>(٢)</sup> ، وهو أمتع قاعدة دفاعية اسلامية فى منطقة الغرب ، وكانت القصر قد سقطت فى أيدي البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ هـ ( ١١٦٠ م ) ، على أثر اضطراب الحوادث فى منطقة الغرب ، ولما عبر الخليفة المنصور إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، لاسترداد شلب التى استولى عليها البرتغاليون بمعاونة النصارى الصليبيين ، فى سنة ٥٨٥ هـ ، غزا منطقة الغرب واستطاع أن يسترد حصن القصر من النصارى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ ( يونيه ١١٩١ م ) ، وولى عليه أبا بكر محمد بن وزير . ويقع ثغر القصر جنوب شرق أشبونة على مصب نهر شطوبر Sadoa ، على مقربة من المحيط الأطلنطى ، ويتسع مصب هذا النهر لدخول السفن الكبيرة ، تشقه حتى أسوار المدينة ، ويتصل قبل مصبه فى المحيط بخليج واسع يصلح لتجمع السفن الغازية . وكانت مناعة القصر تقف سداً منيعاً ضد تقدم البرتغاليين نحو الجنوب . فى أوائل سنة ٦١٤ هـ ( ١٢١٧ م ) وصل إلى شواطئ البرتغال أسطول من الصليبيين الألمان فى طريقه إلى المشرق ، ورسا فى مياه أشبونة ( لشبونة ) ، فانهز البرتغاليون تلك الفرصة ، ودعوا إلى إشهار الحرب الصليبية ، ضد مسلمى الأندلس ، وسار البرتغاليون وحلفاؤهم الصليبيون الألمان إلى ثغر القصر ، وضربوا حوله الحصار من البحر ومن البر ، وذلك فى ٣٠ يولييه سنة ١٢١٧ م ، فامتنع المسلمون داخل ثغرهم ، وبادر إليها عبد الله ابن وزير ، وهو ولد إليها السابق أبى بكر بن وزير ، يطلب الإنجاد من الموحدين ، ووصل صريحه إلى بلاط مراکش ، فبعث المستنصر إلى ولاية قرطبة وإشبيلية ، وجيآن وولاية الغرب ، بحشد جيوشهم ، والمبادرة إلى إنجاد الثغر المحصور ،

( ١ ) الذخيرة السنية ص ٢٢ - ٣٤ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

( ٢ ) وهى بالبرتغالية Alcácer do Sal

وسارت الجيوش الموحدية المجتمع صوب القصر ، فوصلت إليه في أوائل شهر سبتمبر ، وكان المسلمون مازالوا صامدين في ثغرهم ، وقد استطاعوا أن يردوا عدة هجمات للمحاصرين . وسارت في نفس الوقت طائفة من السفن الموحدية إلى مياه القصر ، لتسد الطريق على السفن المحاصرة . ونشب القتال بين الجيوش الموحدية المتحدة وبين النصارى . والظاهر أن البرتغاليين كانوا يتفوقون في الكثرة على المسلمين ، إذ كان جيشهم يضم وفقاً للرواية النصرانية ذاتها ، عشرين ألفاً من الرجال وعدداً من الفرسان . فهزم المسلمون ومزقت صفوفهم . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المسلمين ماكدوا يرون النصارى حتى أدركهم الرعب ، وولوا الأدبار ، وذلك لسابق رعبهم منذ هزيمة العقاب ، فطاردتهم النصارى وقتلوهم عن آخرهم<sup>(١)</sup> ، ويقول صاحب الروض المعمار ، إنه قد اجتمع من الأمداد جيش عظيم ، لكنهم تخاذلوا على عادتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا مدبرين ، ووقع القتل والأسر ، ولم يبرز للمسلمين من الروم إلا نحو سبعين فارساً ، ورأى أهل الحصن ذلك فأيقنوا بالتغلب عليهم<sup>(٢)</sup> .

ويضع ابن الأبار تاريخ الواقعة في شهر جمادى الأولى سنة ٦١٤ هـ ( أغسطس ١٢١٧ م ) ، وفي موطن آخر في أحد شهرى ربيع سنة ٦١٤ هـ متقدماً قليلاً عن الرواية النصرانية ، ويقول إنه فقد فيها آلاف من المسلمين بتخاذل رؤسائهم ، يوم التقى الجمعان ، وأن الواقعة كانت « إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آلى إليه أمر الأندلس »<sup>(٣)</sup> .

ومع ذلك فقد بقيت حصن القصر صامدة ، فلما رأى النصارى أنهم لم يستطيعوا تلم الأسوار ، صنعوا برجين عاليين من الخشب ، يضارعان في ارتفاعهما أبراج المدينة ، وشحنوها بالرماة ، وركبوا في جوانبهما آلات الرمي ، وضربوا الأسوار من هذين البرجين ضرباً شديداً ، حتى أيقن المدافعون أنه لا أمل في الصمود ، فعرضوا التسليم . على أن يسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ، ووافقوا فقط أن يسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئاً معهم . ففتحوا الأبواب ، وانطلقوا إلى حال سبيلهم . وسلمت المدينة بعد أن لم تبقى أية وسيلة

(١) روض القرطاس ص ١٦١ . (٢) الروض المعمار ص ١٦٢ .

(٣) الرواية الأولى في الحلة السراء ص ٢٤٢ . والثانية في التكملة ( القاهرة ) ج ٢ في

الدرجة رقم ١٥٧٧ .



للدفاع ، وذلك في ١٨ أكتوبر سنة ١٢١٧ م ( ١٤ رجب ٦١٤ هـ ) ، بعد شهرين ونصف من بدء الحصار . وسلم قائد الثغر ، وهو عبد الله بن وزير ، نفسه للنصارى ، وتظاهر باعتناق النصرانية طلباً للسلامة ، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى استطاع الفرار ، والوصول إلى الأراضى الإسلامية . ولجأ فيها بعد إلى مدينة إشبيلية . ودخل النصارى مدينة القصر أوقصر أبي دانس ، وقتلوا كل من كان بها ، وبالصياح المجاورة ، من المسلمين . وفتح سقوط هذا الثغر المنيع ، الطريق إلى زحف البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين نحو الجنوب ، نحو باجة وميرتلة وشلب . ولكن ملك البرتغال ألفونسو الثاني ( ألفنش ) ، وهو لم يشترك في حصار القصر ، آثر أن يتمهل بعض الوقت لتعمير الأراضى المفتوحة ، ومن جهة أخرى فإن الصليبيين لم يستطيعوا الزحف إلى الجنوب ، بعد أن وصلتهم أوامر البابا قاطعة بأن يستأنفوا سيرهم إلى المشرق<sup>(١)</sup> .

ومن الغريب أن ابن عذارى ، وهو في معظم ما يكتبه ، يقظ متنبه للأحداث ، يقول لنا إنه لم يتحقق خبراً يذكره في سنة أربع عشرة أو خمس عشرة ، هذا في حين أن صاحب روض القرطاس ، يذكر واقعة سقوط القصر ، وتاريخ وقوعها في سنة ٦١٤ هـ ، ويصفها بأنها كانت من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب . ولم تمض بضعة أعوام على نكبة مدينة القصر ، حتى منيت الأندلس بفقد قاعدة أخرى من حصونها الأمامية المنيعة هي قاصرش<sup>(٢)</sup> . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون غير مرتبط مع الموحدين برباط التهادن والسلم ، وكان يطمح إلى الاستيلاء على قاصرش ، الواقعة شمالى ماردة وغربى تـرـجـالـه ، وذلك لكي يضمن سلامة حصن القنطرة الواقع على نهر التـاجـه في شمالها الغربى ، والذي كان مركز جمعية فرسان القنطرة ، فسار إليها في شهر نوفمبر سنة ١٢١٨ م ( ٦١٦ هـ ) وضرب حولها الحصار ، ولكن حاميتها الإسلامية صمدت ، واضطر أن يرفع الحصار عند حلول الميلاد ، وفي سنة ١٢٢١ م ( ٦١٩ هـ ) استولى فرسان القنطرة على قاعدة « بلنسية »<sup>(٣)</sup> الإسلامية . وفي العام التالى ، اشترك فرسان شنت ياقب

( ١ ) راجع في سقوط حصن القصر ، روض القرطاس ص ١٦١ ، والروض المطارص ص ١٦١ و ١٦٢ وكذلك : A.Huici : Historia Política del Imperio Almohade, p. 442 & 448

( ٢ ) وهى بالإسبانية Cáceres

( ٣ ) هى المعروفة ببلنسية القنطرة الواقعة غربى قاصرش ، وهى طبعاً غير ثغر بلنسية الكبير ، فى الشرق .

وملك ليون في حصار قاصرش ، ولكن ألفونسو التاسع عاد فرفع الحصار للمرة الثانية ، عن القاعدة الإسلامية . وفي الأعوام التالية ، تكرر هجوم الليونيين على قاصرش ، بمعاونة جماعة من القشتاليين ، وانتهى الأمر بسقوطها في أيديهم ، وذلك في صيف سنة ١٢٢٣ م ( ٦٢٢ هـ ) ، بعد وفاة الخليفة المستنصر بنحو عامين .

ومن جهة أخرى فإنه بالرغم من عقد المهادنة بين قشتالة ، والخليفة الموحدى ، كانت العناصر النصرانية المتعصبة التي لا يروقها الكف عن محاربة المسلمين تربعص الفرص ، لتجديد غزو الأندلس ، وكان في مقدمة هؤلاء الحبر المتعصب ، ردرىجو خينث دى رادا مطران طليطلة ، فإنه قام بتجهيز حملة صليبية ، وعبر إلى الأراضي الإسلامية من ناحية الشرق ، واستولى على عدة من حصون المسلمين ، ووصل في زحفه إلى بلدة ركانة الواقعة غربى بلنسية ، وحاول النصارى الاستيلاء على ركانة فضربوها بالمجانيق ، وهاجموها مراراً ، وهدموا بعض أبراجها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق بغيتهم ، وارتدوا عنها خائبين . وكان ذلك في أواخر سنة ١٢١٩ م ( ٦١٧ هـ ) .

\* \* \*

وكانت الأمور خلال ذلك كله ، تسير في العاصمة الموحدية رتيبة راكمدة ، وبلاط مراکش على ما هو عليه من التواكل والسكون ، والخليفة القتي يوسف المستنصر ، مكب على حياة اللهو والمرح ، وأشياخ الموحدين المضطلعين بتدبير الأمور ، غير حافلين بشيء ، ولم توقظهم نهضة بنى مرين وفورتهم الخطيرة ، التي لم يحدها سوى خلافهم فيما بين أنفسهم ، ولم تهزهم حوادث الأندلس وسقوط ثغر القصر ، وما اقترن به من الحوادث المؤلمة ، ولم يفكروا في العمل على تعزيز معاقل الأندلس ، وخطوطها الدفاعية ، تحوطاً للحوادث . ثم جاءت سنة ٦١٦ هـ ( ١٢١٨ م ) ، وقد هلكت الزروع ونضبت الحبوب ، وانتشرت المجاعة ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلاً . وكانت الأحوال الاقتصادية قبل ذلك ، تسير من سيئ إلى أسوأ ، وقد سجلت لنا الرواية عن أحوال المغرب في هذا الوقت صورة قائمة ، حيث كثرت الفتن بين قبائل المغرب ، ونبذ أكثرها الطاعة ، وقطعت السابلة ، واشتد الخوف في الطرقات ، وكثر اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ، وانكمش الأخذ والعطاء لاختلال الأمن ، وإغارة القبائل



البربرية وجموع العرب على مختلف الأنحاء<sup>(١)</sup>. كل ذلك والحكومة الموحدية جامدة لا تفكر في اتخاذ أى إجراء لإصلاح الأحوال . فلما اشتدت المجاعة وعلم المستنصر بما يقاسيه الناس من أهوالها ، أمر بفتح المخازن السلطانية ، المعدة لاختزان الحبوب والمؤن ، ففتحت وفرقت منها مقادير عظيمة على العامة والضعفاء دون ثمن ، وفرق منها على الأقوياء والميسورين بالثمن ، وفرق الخليفة كذلك مبالغ كبيرة من المال على الناس ، فكان لذلك أثر طيب في تخفيف الضيق . ومن الغريب أنه طافت بالآندلس في العام التالى سنة ٦١٧ هـ ، مثل هذه الشدة ، فقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ولكن الأزمة لم تطل ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا العام ، سنة ٦١٧ هـ ( ١٢١٩ م ) ، وجه الخليفة المستنصر بالله كتابا إلى قواعد المغرب والآندلس ، على نمط الكتب التى كان يوجهها الخلفاء الموحدون ، منذ عبد المؤمن ، إلى الولاة والأعيان والكافة ، فى مختلف المناسبات ، بوجوب التمسك بالدين ، واتباع أحكام الشرع ، والتمسك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما إلى ذلك من النصائح والوصايا ، وربما كان لذلك أيضاً علاقة باختلال الأحوال ، ومحاولة تطمين الرعايا ، وإلقاء السكينة فى روعهم . وقد نقل إلينا ابن عذارى فصلا من ذلك الكتاب ، ونحن ننقل بعض فقراته فيما يلى :

« وإلى هذا ، وصل الله توفيقكم ، فقد علمتم أن الدين هو الأساس الوثيق ، والبناء العتيق ، والقسطاط المضروب ، والعلم المنصوب ، والتجر الذى لا يبور ، والطريق الذى لا يحجور ، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن تحصن به ، فقد تحصن بالمعقل الأحصن الأرقى ، فإذا وقفتم على كتابنا هذا ، فجددوا للناس به الذكرى ، وعرفوهم أن الدنيا مطية إلى الدار الأخرى ، وحضوهم على العمل الصالح ، والتجر الرابع ، عسى أن يجعلهم الله تعالى فى الدارين ، من الذين لهم البشرى ، وبثوا فى جهاتكم كلها ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . واستحفظوا الكافة صلواتهم ، فإنها الكتاب الموقوف على على المؤمنين ، وخذوهم باعتياد المساجد ، فإنها الشاهد الأزكى بشهادة خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والأسواق ،

( ١ ) الدخيرة السنية ص ٣٥ .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٥ .

فإنه الخير المألوف ، والشعار المعروف ، والرسم الذى عليه العمل ، والعهد الذى لا يجب فيه التغيير والخلل .

« ونحن قد قلدنا الله قلادة نعلم لوازمها ، ومحفظ مراسمها ، ومن جعلها التذكير بالدين ، فهو الشافع الذى لا يغفل ، والوسيلة التى لانضاع ولا تهمل ، فاعلموا أعزكم الله هذا المقصود علماً ، وكونوا فى القيام به لانخالفون يقظة ، ولانوماً ، وللناس عليكم ما تأمركم به من العدل التام ، والإنصاف العام ، وكف الأيدي ، وقبضها عن التعدى . وهذا خطاب قد أرشدنا فيه إلى مناهج سوية ، وحضضنا فيه على أمور ضرورية ، وأتينا فيه بما يجب البدار إليه ، وخير العمل ما دووم عليه ، والله معينكم والسلام عليكم ، وكتب فى عاشر ربيع الأول سنة سبع عشر وستمائة » (١) .

والظاهر أن توجيه هذا الكتاب ، لم يكن إلا محاولة من الخليفة الفتى ، للعمل على إحياء تقليد من تقاليد آباءه الخلفاء الموحدين ، فى تذكير الناس من وقت إلى آخر بدستورهم الدينى ، والتنبيه إلى توقيره ، والمحافظة عليه .

وفى العام التالى ، سنة ٦٢٨ هـ ( ١٢٢٠ م ) ، قدم سفير قشتالة إلى مراکش مرة أخرى ليسعى فى تجديد المهادنة والسلام . وكانت المفاوضات الأولى قد تمت بين القشتاليين ، وولاة الأندلس من السادة الموحدين ، وتم تجديد المهادنة بين الفريقين ، وفقاً لتوجيه الخليفة المستنصر . ثم كتب وزير المستنصر ، أبو يحيى بن أبى زكريا ، إلى « ملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليلة » كتاباً من إنشاء الكاتب ابن عيَّاش بما أبرم بينه وبين رسولها من عقد السلم . ومن الواضح أن ملكة قشتالة المشار إليها هنا ، لم تكن سوى الملكة برنجيلا بنت ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ومطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، وكانت يومئذ تتولى الوصاية على ابنها الصبى فرناندو ، الذى أعلن ملكاً على قشتالة فى سنة ١٢١٧ م ، وكانت بذلك تعتبر هى الملكة الأصلية فى نظر الموحدين .

وقد أورد لنا ابن عذارى نبذة من الكتاب المشار إليه ننقلها فيما يلى :

« وقد انقلب إليكم رسول منكم ، بما تعرفونه فى السلم المنعقد ، النيرشابه ، المتقد بين الموحدين وبينكم ، بالمخاطبة الكريمة ، التى حملها إليكم ، وحمل نحوكم

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٥ و ٢٤٦ .



من الإتحاف ما يبلغكم على يديه ، الذى هو عنوان المخالصة ، وثمره المواصلة ، وكل ما يكون من هذا بيننا وبينكم ، ينبغي أن يكون متقبلاً ، وعلى أحسن المتأولات متأولاً ، ان شاء الله ، وأنتم بحول الله تقفون عند حدود السلم ، وتحافظون عليها ، وتعاقبون كل من هم بإذاية المسلمين ، فإن الوفاء شعار الملوك ، وعليهم فيه يجب السلوك . وكتب فى سادس رمضان سنة ثمان عشرة وسمائة (١) .

وكان من تصرفات المستنصر الأخيرة ، أن عين عمه أبا محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور والى غرناطة ، وهو الذى تسمى بالعدل فيها بعد ، والياً على مرسية ، وذلك فى سنة ٦١٩ هـ ( ١٢٢١ م ) .

ولم يك ثمة ما يؤذن بوفاة الخليفة المستنصر فى سن مبكرة ، وقد كان فى فى عنفوانه ، لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وكان متين البنية ، حسن التكوين . ولكن حياة اللهو الصاحب المستمر ، التى انهمك فيها ، حطمت بنيته ، ومهدت الألعاب والرياضات العنيفة ، التى كان يشغف بها لوفاته الفجائية . ويقص علينا صاحب روض القرطاس قصة هذه الوفاة الفجائية ، فيقول لنا إن يوسف المستنصر ، كان مولعاً بالبقر والخيول ، وكان يستجلب الأبقار من الأندلس ، ويربها فى رياضه الكبيرة بمدينة مراكش ، فى عشية ذات يوم ، ركب المستنصر فتشياً ( مهراً ) ، وذهب إلى الروض ليتأمل خيله وأبقاره فى ضوء القمر ، فبينما هو يسير بين البقر ، إذ قصدت إليه بقرة شرود منهن ، فضربته بقرنيها يعنف ، ضربة أصابته فى القلب ، وأودت بحياته على الأثر . وكان ذلك فى مساء يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ( ٤ يناير ١٢٢٤ م ) (٢) . ولكن هذه الرواية ، التى ينقلها بعض المؤرخين المتأخرين ، ليست هى الوحيدة فى شرح ظروف وفاة الخليفة المستنصر الفجائية ، فإن هناك رواية أخرى ، مفادها ان المستنصر توفى مسموماً ، بتدبير وزيره أبى سعيد بن جامع والفتى مسرور ، وهذا ، نقله إلينا الزركشى عن « ترجان العبر » (٣) .

والآن فلنلق نظرة عابرة على هذه الأعوام العشرة ، التى شغلها خلافة المستنصر ، وعلى شخصية هذا الخليفة الفتى ، وهى شخصية لم تتميز بشيء من الحلال العظيمة ، والأعمال البارزة .

( ٢ ) روض القرطاس ص ١٦١ .

( ١ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٦

( ٣ ) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ .

ان سائر التواريخ المعاصرة والقريبة من العصر ، تحدثنا عما كان عليه عهد الخليفة المستنصر ، من التعطل والركود ، وعما كان عليه المغرب يومئذ ، من من اختلال الأحوال ، واضطراب السكينة والأمن ، وذبوع التوجس والقلق ، وضعف الموارد العامة والخاصة ، وانتشار الضيق والفقر ، وفتور همم أولى الأمر ، ونكولهم عن القيام بأية إجراءات ناجعة ، لتنظيم شئون الدولة ، أو معالجة الأحوال العامة ، أو معاونة الشعب على اجتياز أزماته الاقتصادية والاجتماعية . ولم يكن ثمة شك في أن هذه كلها ، كانت علامات مزعجة ، تؤذن بديب الوهن والانحلال إلى الدولة الموحدية العظيمة ، وبانحدارها إلى المصير ، الذي لابد أن تنحدر إليه دولة يصيبها مثلما أصاب الدولة ، في عهد المستنصر بالله .

وإذا لنقرأ في وصف المؤرخين لشخصية المستنصر ، وفي تعليقاتهم على عصره ، تلك الصور المروعة ، لدولة تنحدر بسرعة إلى هاوية السقوط .

فمثلا يقول لنا ابن عذارى : « ولم تكن للمستنصر بالله حركة ولا غزوة ، ولا خرج من حضرته إلا المدينة تينمل ، على العادة في التبرك بالمهدى . فما وقفت له على خبر أذكره إلا ما رأيت في بعض الرسائل ، والله يوتى ملكه من يشاء »<sup>(١)</sup> . ويقول صاحب روض القرطاس : « ولم يخرج من حضرة مراکش طول خلافته إلى أن توفي ، وكانت أوامره لا يتمثل ، أكثرها لضعفه وليانته ، وإذماته على الخلاعة ، وركونه إلى اللذات . وتفويضه أمور مملكته ، ومهمات أموره ، إلى السفلة »<sup>(٢)</sup> .

ويقول ابن خلدون : « وقام بأمر الموحدين من بعده (أى بعد الناصر) ابنه يوسف المستنصر ، فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم ، وشغلته أحوال الصبا وجنونه ، عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ، فأضاع الخزم ، وأغفل الأمور ، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه ، ونفس عن مخنقهم ، من قبضة الاستبداد والقهر ، فضاعت الثغور ، وضعفت الحامية ، وتهاونوا بأمرهم وفشلت ريجهم »<sup>(٣)</sup> .

على أن أبلغ ما وقفنا عليه من هذه التعليقات يتمثل في تلك الفقرة التي يوردها ابن عبد الملك المراكشى ، في ترجمة أبي الحسن بن القطان ، تعليقاً على اختلال

( ١ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٧ . ( ٢ ) روض القرطاس ص ١٦١ .

( ٣ ) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ .



الأحوال في المغرب وقطع السبل ، ووقوع النهب على التجار وغير ذلك :  
« واستمرت الأمور على هذه الحال ، وهذه السبيل زمانا ، والمستنصر في  
غفلة عن كل ما يجري ، غير سائل عن رعيته التي يسئل عنها ، وإن بدر منه سؤال  
عن أحوال الناس والبلاد ، أجاب الوزير أبو سعيد ، أن الجميع في سبوغ نعمه ،  
وشمول عافية ، واتساع أحوال ، وبسط أموال ، فيقنعه ذلك ، ويعود إلى انهماكه  
في لذاته . وأهل مع ذلك جانب الأجساد الذين هم آلة الملك وأعوانه ، فأرجل  
فرسانهم ، وصرفت رجالاتهم ، فتفاقم الأور ، واستشرى شري المنفسدين وكثر  
أضرارهم ، وعم عدوانهم . ولما تبادى ظهور الفساد ، واشتدت شوكة أهله ،  
أجرى أبو الحسن ( المترجم ) ذكر ذلك بمجلس الوزير أبي سعيد ، وأشار عليه  
بإنفاذ جيش إلى بعض نواحي مراکش لردع من نجم من أهل البغي ، فأجابه  
بأن ذلك لا يحتاج إليه ، وأنه سيكتب إلى أهل تلك الناحية ، بالنفوذ إلى من تعرض  
إلى أرضهم ومراقبتهم ، والقبض عليهم وقتلهم ، ونحو هذا » (١) .

في تلك الفقرة ، التي يقدمها إلينا مؤرخ عاش فيها قريباً من العصر ، تبدو  
أصديق صورة للمستنصر وأحوال عصره ، وهي صورة تنطق بنفسها ، عما يمكن  
أن يترتب على مثلها بالنسبة للدولة التي تجوزها من النتائج الخطيرة .

على أنه توجد لدينا في نفس الوقت بعض نصوص تقدم إلينا المستنصر ، هذا  
الفتى المتعطل المستهتر ، في صورة أخرى ، هي صورة الطاغية القوى المستبد ،  
الذي يستأثر بالأمور ، وإليك ما يقوله لنا في ذلك مؤرخ موحدى معاصر وشاهد  
عيان ، هو عبد الواحد المراكشي ، وقد عرف المستنصر شخصياً واتصل به .

يقول عبد الواحد خلال حديثه عن المستنصر : « ولم يغير أبو يعقوب هذا على  
الناس شيئاً من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عن كان قبله ، خلا أني رأيت  
كل من يعرفه من خواص الدولة : قد ملئ قلبه رعباً لما يعلمون من شهامته  
وشدة تيقظه . لقيته وجلست بين يديه خالياً به ، وذلك في غرة سنة ٦١١ ، فرأيت  
من حدة نفسه ، وتيقظ قلبه ، وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق ، فكيف  
الملوك ، ما قضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع » (٢) .

---

( ١ ) كتاب الذيل والتكلة لابن عبد الملك المراكشي ( السفر الخامس من مخطوط المتحف البريطاني  
لوحه ١٩ ) في ترجمة علي بن محمد بن عبد الملك بن سباحة الحميري الكتاني ، أبي الحسن بن القطان .

( ٢ ) المعجب ص ١٨٧ .

ويؤيد هذه الصورة في بعض نواحيها صاحب روض القرطاس حين يقول في حديثه عن المستنصر : « فضعفت دولة الموحدين في أيامه ، واعتراها النقص ، وأخذت في الإدبار ، إلا أن أيامه كانت أيام هدنة ودعة وعافية . فلما كبر ، واشتغل بأموره ونهيه ، واستبد بملكه ، جعل يفرق أعمامه ، من حواله الذين كانوا يدبرون أمر دولة وأقاموها ، وأشياخ الموحدين الذين أسسوها ، وقرب أناسا وتمسك بهم ، لم يكن لهم أصل فيها » (١) .

هذا وقد كانت حكومة الخليفة المستنصر ، تتألف من معظم الأشخاص الذين عملوا مع أبيه الناصر ، فكان وزيره وزير أبيه أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إدريس بن إبراهيم بن جامع ، وهو سليل تلك الأسرة التي استأثرت بوزارة الخلافة الموحدية زهاء نصف قرن ، وكان عميدها إبراهيم بن جامع من أصحاب المهدي ، واستمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ هـ ، ثم صرفه المستنصر ، واستوزر من بعده أحد اقربائه ، وهو زكريا بن يحيى بن اسماعيل المزرجي ، فاستمر في الوزارة حتى نهاية عهده ، بيد أن هناك ما يدل على أن المستنصر ، عاد فاستدعى الوزير أبا سعيد للعمل مرة أخرى ، وذلك في أواخر عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتباً أبيه وجده من قبل ، وهما أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش ، ولما توفيا متعاقبين في شهور سنة ٦١٩ هـ ، استدعى للكتابة أبو عبد الله محمد ابن مخلف بن الفزازي ، كاتب الناصر من قبل ، وكان عندئذ يشغل منصب القضاء بمرسية ، وعين معه للكتابة أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش ، وبقي كاتب الجيش أحمد بن منيع ، وهو كاتب الناصر من قبل ، في منصبه دون تغيير . وتولى الحجابة للمستنصر ، مبشر الحصى حاجب أبيه ، ولما توفي خلفه في الحجابة فارج الحصى المعروف بأبي السرور ، واستمر في الحجابة حتى وفاة المستنصر . وتولى القضاء للمستنصر ، أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضي أبيه ، فلم يزل في منصبه حتى نهاية عهده ، وهذا القاضي هو أيضاً ، حفيد أسرة استأثرت بمناصب القضاء منذ أيام عبد المؤمن ، وكان عميدها أبو عمران موسى الضير صهر عبد المؤمن .

ولم ينجب المستنصر ولداً ، ولم يعقب إلا حملاً من جارية ، لم تذكر لنا الرواية مصيره (١) .

(٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

(١) روض القرطاس ص ١٦١ .



# الفصل الثاني

## أبو محمد عبد الواحد والعاذل

### وثورة البياسى بالأندلس

ولاية الخليفة أبي محمد عبد الواحد . نشأته وصفاته . تصرفاته الأولى . اعتراض السيد أبي محمد عبد الله والى مرسية على خلافته . قيامه بالدعوة لنفسه وتلقبه بالعاذل . انضمام إخوته ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة إليه . تأييد أبي محمد عبدالله البياسى والى جيان له . مخالفة السيد أبي زيد والى بلنسية . استوزاره لابن يوجان ونزوحه إلى إشبيلية . القيام بدعوته في مراكش . مصرع الخليفة أبي محمد عبد الواحد . تطور الحوادث بالأندلس . خروج البياسى على العادل ودعوته لنفسه . مسير أبي العلى إدريس لقتاله . استنصار البياسى بملك قشتالة . تحاذل أبي العلى عن قتاله وارتداده . العادل يرسل جيشاً آخر لقتال البياسى . هزيمة هذا الجيش وفراره . استيلاء البياسى على قرطبة . إغارة النصارى على أحواز إشبيلية . خروج أهلها لرد الغزاة . هزيمتهم وتمزيق صفوفهم . إغارة النصارى على أحواز مرسية . هزيمة المسلمين . مفادرة العادل للأندلس ومسيره إلى مراكش . العادل ونشأته وصفاته . اهتمامه بشئون الأندلس وكتابه في ذلك . تفاقم الحوادث في الأندلس . أعمال البياسى والقشتاليين في أواسط الأندلس . تحالف البياسى وملك قشتالة . محاصرة ملك قشتالة لجيان . فشل الحصار وارتداد النصارى . افتتاح القشتاليين للقبذاق وباعة . غزؤهم للوشة والحامة . محاصرتهم لغرناطة ثم جلاؤهم عنها . زحف البياسى على إشبيلية . خروج أبو العلى إدريس في الموحددين لمداقته . هزيمة الموحددين وأهل إشبيلية . خضوع قرطبة وبلاد شرق إشبيلية للبياسى . ما سلمه البياسى لملك قشتالة من المواقع والحصون . عود البياسى إلى مهاجمة إشبيلية . خروج أبي العلى لقتاله . هزيمته وتمزيق جموعه . عود بلاد شرق إشبيلية إلى طاعة العادل . كتاب أبي العلى إلى أخيه الخليفة . ثورة أهل قرطبة ضد البياسى . مطاردته ومصرعه وانهيار ثورته . صفاته الذميمة . افتتاح ملك قشتالة لحصن قبالة . استنجد أهل بياسة بصاحب جيان . خروج أهلها منها واستيلاء النصارى عليها . استيلاء فرناندو الثالث على شوذر ومواضع أخرى . مسير السيد أبي العلى إلى مرتش وعجزه عن مهاجمتها . يعقد الهدنة مع القشتاليين . اضطراب الأحوال في المغرب . عيث الخلط وهسكورة في أحواز مراكش . خروج أبي العلى إدريس بالأندلس على أخيه . دعوته لنفسه بالخلافة . كيف مهد لنفسه طريق الدعوة . مبايعته واتخاذ لقب المأمون . سعى الوزير ابن يوجان لتأييده . اتفاق الموحددين على خلع العادل . رفض العادل التنازل ومصرعه . بيعة الأشياخ للعادل ثم عدوهم عنه إلى ابن أخيه يحيى الناصر . تلقب يحيى بالمتصم . غضب المأمون واعتزاهم العبور إلى العدو .

لما توفي الخليفة يوسف المستنصر بالله دون عقب في يوم السبت الثاني عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، اجتمع رأى أشياخ الموحددين ، وفي مقدمتهم الوزير أبو سعيد بن جامع ، على أن يقدموا مكانه للخلافة السيد أبا محمد عبد الواحد

ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن<sup>(١)</sup> ، وكان شيخاً قد جاوز الستين ، يعيش مغموراً في هدوء ودعة . ويقول لنا المراكشي ، فيما بلغه ، أنه لما توفي المستنصر ، اضطرب الأمر ، وتطلع الناس لنشوب الخلاف ، ولكن معظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبي محمد عبد العزيز ( عبد الواحد )<sup>(٢)</sup> . على أنه يبدو أن اختيار عبد الواحد ، كان أمراً تقرر بمنتهى السرعة ، إذ بويغ في اليوم التالي لوفاة المستنصر ، أعني في يوم الأحد الثالث عشر لذي الحجة ، ويبدو في نفس الوقت أن هذا الاختيار لشيخ جاوز الستين ، يرجع إلى حكمة مزدوجة ، أولاً لكي يكون أداة مطواعة للزعماء الذين يقبضون على ناصية الحكم ، وثانياً لكي تكون خلافته ، ومفروض أنها سوف تكون قصيرة الأمد ، فترة انتقال ، يتمكن الأشياخ فيها من حسم خلافاتهم ، والاتفاق على الخليفة الحقيقي .

ويقدم إلينا المراكشي ، وقد عرف السيد عبد الواحد شخصياً ، تفاصيل عديدة عنه ، وعن حميد صفاته . فهو من أصغر أولاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وأمه حرة اسمها مريم وهي صنهاجية من أهل قلعة بني حماد ، كانت قد سبيت هي وأماها فيمن سبوا عند افتتاح عبد المؤمن للقلعة ، فأعتقهما عبد المؤمن ، وزوج مريم لابنه أبي يعقوب يوسف ، فرزق منها بثمانية من الولد ، أربعة ذكور ، وأربع إناث ، وكان الذكور هم إبراهيم وموسى وإدريس وعبد الواحد وهو أصغرهم . ولبت عبد الواحد طيلة شبابه مغموراً ، لم تسند إليه ولاية ما ، حتى تولى الخلافة ابن عمه الناصر لدين الله ، فأسند إليه ولاية مالقة ، وذلك في سنة ٥٩٨ هـ ، ثم صرفه عنها في سنة ٦٠٣ هـ ، وولاه أمر قبيلة هسكورة ، وهي ولاية ضخمة ، فاستمر في ولايته هذه طوال عهد الناصر ، وشطراً من عهد ولده المستنصر . ثم اختاره المستنصر والياً لسجلماسة ، ثم والياً لإشبيلية ، وذلك حينما عزل عنها أخوه أبو العلاء إدريس ، ونقل إلى ولاية تونس ، ثم صرف عنها وعاد إلى مراكش .

وقد بويغ السيد أبو محمد عبد الواحد بالخلافة على كره منه ، فلم يك راغباً فيها ، ولم يك يصلح لها<sup>(٣)</sup> . وكان حسبما يصفه لنا المراكشي عن علم ومشاهدة ،

( ١ ) وفي الحلال الموشية أن كنيته « أبو مالك » ، ص ١٢٣ .

( ٢ ) المعجب ص ١٨٧ .

( ٣ ) روض القرطاس ص ١٦٢ .



رجلاً ورعاً صالحاً ، بعيد النظر ، قوى العزم ، شديد الشكيمة ، حريصاً على اتباع الحق ، لاتأخذه فيه لومة لائم ، كثير التلاوة لكتاب الله ، دؤوباً على تلاوة الأوراد ، لا يمنعه عن ذلك مانع ، ولا يترك وظيفة من الوظائف التي رتبها لنفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن والأذكار ، رتبها على أوقات الليل والنهار . يقول المراكشي : « شهدت هذا كله بنفسى ، لا أنقله عن أحد ، ولا أستند فيه إلى رواية . هذا مع دماثة خلق ، ولين جانب ، وخفض جناح لأصحابه ، ولين علم فيه خيراً للمسلمين » . وأما عن شخصه فيصفه المراكشي بأنه كان « أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جداً ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء » (١) .

وتمت بيعة السيد أبى محمد عبد الواحد فى جو من التفاهم والوفاق ، ولم يختلف أحد فى المغرب على بيعته ، ولم يبد عليها اعتراض من أحد ، ولم يتخذ الخليفة الحديد لقباً خلافاً كآسلافه ، ولكنه عرف فيما بعد « بالمخلوع » لأنه كان أول من خلع بنى عبد المؤمن عن كرسى الخلافة . وكان فى مقدمة تصرفاته أن أمر بمحاسبة ابن أشرفى صاحب الخزن ، ومطالبته بالمال . وكتب لأخيه أبى العلاء الكبير بتجديد الولاية على إفريقية ، وكان المستنصر قد أوعز بعزله ، بيد أنه توفى قبل استئناف ولايته ، وأمر بإطلاق سراح الوزير السابق أبى زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، ولكن الوزير ابن جامع اعترض على تنفيذ هذا الأمر ، وبعث بابن يوجان مع الأسطول بقصد تغريبه إلى ميورقة (٢) . ولكنه لما وصل إلى الأندلس ، أخذ وسجن فى حصن جنجالة ، فبقي فيه حتى توفى ابن جامع ، وعندئذ أطلق سراحه (٣) . ثم كان ظهور الخلاف والمعارضة للخليفة الحديد ، لا فى المغرب ولكن فى جهة أخرى ، فيما وراء البحر ، أعنى فى شبه الجزيرة الأندلسية . وذلك أنه لم يمض شهران على بيعته بالمغرب ومعظم أنحاء الأندلس ، حتى ارتفع أول صوت ضد بيعته فى شرق الأندلس ، وكان هو صوت ابن أخيه السيد أبى محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور . وكان أبو محمد عبد الله عندئذ ، والياً لمرسية . وكان إخوته أبو العلى ( أبو العلاء ) والياً على قرطبة ، وأبو الحسن والياً على غرناطة ، وأبو موسى والياً على مالقة . وكان قد استوزر أبى زيد بن يوجان بعد إطلاق سراحه :

( ١ ) المحب ص ١٨٨ .

( ٢ ) ابن خلدون فى البرج ٦ ص ٢٥١ .

( ٣ ) الروض المطار ص ٦٧ فى مقال جنجالة .

وكان ابن يوجان هذا داهية زمانه ، فلما وردت الأنباء بأخذ البيعة لأبي محمد عبد الواحد ، تقدم ابن يوجان إلى السيد أبي محمد عبد الله ، وحذره من المبايعة للخليفة الجديد ، وقال له إنهم بتنصيب عبد الواحد ، قد أخرجوا الإمامة عن عقب سيدنا المنصور ، وأنه يشهد بأن المنصور قال إن لم يصلح محمد (أعني الناصر) فعبد الله ، وأنه أي عبد الله أحق بالخلافة ، فهو ولد المنصور ، وأخو الناصر ، وعم المستنصر ، وأنه صاحب عقل وحزم وسياسة وبعد نظر ، ولن يختلف اثنان على استحقاقه للخلافة ، خصوصاً وأن الناس يكرهون بني جامع الذين توارثوا الوزارة ، وجعلوا يقصون عن الحضرة كل ذي رأى ومقدرة ، وأخيراً فإن له من وجود أخوته الثلاثة في رياسة قرطبة وغرناطة ومالقة أكبر عضد<sup>(١)</sup> . وكان لتوجيه ابن يوجان وتحريضه أكبر الأثر ، فنهض السيد أبو محمد واستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرسية وأحوازها ، ودعاهم إلى مبايعته ، فلبوا دعوته ، وتسمى بالعدل ، وكان ذلك في يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ وذلك لشهرين من بيعة أبي محمد عبد الواحد ، وبإيعه إخوته ولالة قرطبة ، وغرناطة ومالقة . وكذلك بإيعه السيد أبو محمد عبد الله بن أبي عبد الله محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، وهو الذي عرف فيما بعد بالبياسي ، لقيامه فيما بعد ضد العادل ببياسة . وكان سبب انضمامه للعادل ما قرره الخليفة عبد الواحد من عزله ، بعمه أبي الربيع بن أبي خض ، فانتفض عليه وباع للعادل<sup>(٢)</sup> . وفي رواية أخرى أن عبد الله البياسي كان عند قيام العادل والياً على إشبيلية<sup>(٣)</sup> . وعلى أي حال ، فقد استطاع العادل أن يحصل على تأييد سائر قواعد الأندلس ، خلا بالنسية ودانية وشاطبة ، حيث امتنع وإياها السيد أبو زيد بن أبي عبد الله محمد أخو البياسي عن مبايعته ، وبقيت هذه القواعد على طاعته . ثم خرج العادل من مرسية وبصحبه وزيره أبو زيد بن يوجان ، وسار إلى إشبيلية ، وأخذ في تدبير الأمور ، ولم يلبث أن برم بطغيان ابن يوجان واستثاره بكل أمر ، فبعثه إلى سبتة ، ليكون هناك نائبه ، ولينظر في شئون العودة . وهنا يحق الغموض بسير الحوادث سواء بالمغرب أو الأندلس.

(١) الروس المطار ص ٦٨ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) هذه رواية ابن عذاري في البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٨ .



ففي رواية أن العادل حينما وصل إلى إشبيلية ، وصلته هنالك بيعة أهل مراکش وبلاد المغرب. وفي رواية أخرى أنه كتب إلى الأشياخ الموحدين بحضرة مراکش يدعوهم إلى بيعته ، وخلع عبد الواحد ووعدهم بحرييل الصلات ، ورفع المناصب والولايات ، فصدعوا برغبته ودخلوا على الخليفة عبد الواحد ، وهددوه ، وأرغموه على أن يعلن خلع نفسه ، وأن يشهد بذلك على نفسه أمام القاضي والفقهاء والأشياخ ، وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢١ هـ . ولم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى دخلت عليه جماعة من الموحدين ، وخنقوه ، ونهبوا قصره ، وسبوا حريمه ، فكان بذلك أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن<sup>(١)</sup> ومن جهة أخرى فإنه يبدو أن أشياخ الموحدين بمراكش ، لما بلغتهم بيعة العادل بالأندلس ، اختلفوا فيما بينهم أولا ، وبادروا بعزل الوزير ابن جامع ، واقتسموا السلطات فيما بينهم ، وأنفذوا أوامرهم إلى الأسطول بمنع جوار العادل إلى المغرب: ولكن الظاهر أنهم قرروا أمرهم فيما بعد ، وبعثوا ببيعتهم إلى العادل<sup>(٢)</sup>.

- ١ -

وفي أثناء ذلك اضطربت الحوادث بالأندلس ، وانخذت وجهة جديدة لم تكن في الحسبان . وكان لبيعة العادل أكبر أثر في تطورها على هذا النحو . وذلك أن السيد أبا محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، لما رأى من رفض أخيه السيد أبي زيد وإلى بالنسبة ودانية وشاطبة ، بيعة العادل ، واعتصامه بهذه القواعد الشرقية ، عاد بدوره ، فأعلن خلعه لطاعة ابن عمه العادل ودعا لنفسه وتلقب بالظافر ، وأطاعته جيان وأبدة وقيجاطه وبياسة ، وسائر أراضي تلك المنطقة . فبادر العادل ، وبعث من إشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ابن المنصور ، في قوة كبيرة من الموحدين ، لقتال السيد أبي محمد عبد الله وإخماد ثورته ، فخرج السيد عندئذ من جيان ولجأ إلى بياسة وامتنع بها . وسمى من ذلك التاريخ بالبياسي ، وبعث إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به . ونحن نعرف منذ أيام الطوائف ، ماذا كان الثمن الذي يتقاضاه الملوك النصاري نظير هذه المعونة ، فقد كان دائماً قطعة من أشلاء الأندلس ، تبذل دون تحفظ ، إلى

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

جانب الخضوع والطاعة . ولم يشذ البياسى عن هذه القاعدة المؤلمة ، بل سرى أنه ذهب فيها إلى أبعد حد .

وأشرف الجند الموحدون بقيادة أبي العلاء على بياسة في أواخر سنة ١٢٢١ هـ ( أواخر سنة ١٢٢٣ م ) ، ونزلوا في ظاهرها ، وكان الوقت شتاء ، وقد بلغ البرد ذروته ، واشتد هطل الأمطار ، وغمرت السيول كل صقع ، فحاصر أبو العلاء بياسة أياما قلائل ، ثم خشي أن يفيض النهر ( الوادى الكبير ) فيتعذر عليه العبور عند العودة ، وخشي كذلك أن يداهمه القشتاليون حلفاء البياسى ، وبعث إليه البياسى من جهة أخرى بعوده إلى طاعة العادل ، وأرسل إليه ولده الأصغر رهينة لديه ، فاكتفى أبو العلاء بذلك وارتد عائدا بقواته إلى إشبيلية ، دون أن يحقق شيئا من مهمته ، فقبول في إشبيلية بمنهى الاستهجان والسخط ، ورمى بالخور والجبن<sup>(١)</sup> . وعندئذ بادر العادل بتجهيز جيش موحدى آخر ، أسندت قيادته إلى أبي سعيد عثمان بن أبي حفص . فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال من جنوبى المدينة ، على مقربة من شمال الوادى الكبير ، فخرج إلى قتاله نحو مائة فارس من أصحاب البياسى ، وقوة من حلفائه القشتالين ، فسرى الرعب إلى الموحدين عند رؤيتهم ، وبأدروا إلى الفرار دون قتال وارتدوا إلى إشبيلية ، وبقي البياسى في بياسة دون منازع ، وقد احتل حلفاؤه القشتاليون قصبها<sup>(٢)</sup> .

وهنا يحيق الغموض بموقف البياسى وتحركاته ، ويبدو من مختلف الروايات أنه استطاع في تلك الآونة أن ييسط سلطانه ، فضلا عن منطقة بياسة ، على مدينة قرطبة ، وذلك على خلاف في طريق تملكها ، فابن عذارى يقول لنا إن العادل هو الذى أسند إليه ولايتها ، وقت أن كان مُقرأ بطاعته ، وصاحب روض القرطاس يقول إن أهل قرطبة هم الذين انضموا إليه . وأما صاحب الروض المعمار ، فيقول إن البياسى هو الذى تملك قرطبة ، بل يزيد على ذلك أنه تملك أيضا مالقة ، « وكاد يستولى على الأمر لو ساعده القدر »<sup>(٣)</sup> . وعلى أى حال

( ١ ) الروض المعمار في مقاله عن بياسة ص ٥٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٣ .

( ٢ ) الروض المعمار ص ٥٨ .

( ٣ ) البيان المغرب - القسم الثالث ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ ، والروض

المعمار ص ٥٨ .



فقد كان من الواضح أن البياسى ، كان يحتل فى الأندلس الوسطى مركزاً له خطره ، وكان منافساً قوياً للعادل ، يكاد ينتزع الأمر منه .

وكان العادل قد غدا بإشبيلية على أثر فشل قواته فى إخضاع البياسى ، فى مأزق حرج . وزاد من حرج مركزه عندئذ ، غزوة قام بها النصارى فى أراضى الشرف غربى إشبيلية . وذلك أن قوة من الجند الليونيين يقودها مارتن سانشيز ، وهو ابن غير شرعى لملك البرتغال سانشو الثانى ، دخل فى خدمة ملك ليون ، عبرت جبال الشارات ، وسارت جنوباً حتى وصلت إلى أراضى الشرف ، وعاشت فى تلك المنطقة ، واستولت على كثير من الغنائم والسبى ، وأبى العادل ، وأخوه أبو العلاء ، ووزيره ابن يوجان ، ومن معهم من أشياخ الموحدين ، أنفسهم عاجزين عن دفع النصارى ، وبجاية المدينة مما قد يصيبها . ووقع الهرج بين أهل المدينة ، واجتمع الناس خاصتهم وعامتهم بالمسجد الجامع ، وطالبوا العادل وأشياخ الموحدين بجمع الصفوف ، والخروج إلى لقاء العدو ، فاستنفر العادل الناس ، واحتشدت منهم جموع غفيرة ، ومعظمهم من غير سلاح ، واجتمع من الفرسان نحو مائة ، وسارت هذه الجموع إلى حيث نزل النصارى على مقربة من طلياطة<sup>(١)</sup> وهى تقع غربى إشبيلية على مقربة من لبله ، وكان النصارى فى قوة كبيرة حسنة الألية والسلاح ، فأراد العامة أن يدفعوا قوة الفرسان الصغيرة إلى لقاء العدو ، فامتنع قائدها عبد الله بن أبى بكر بن يزيد ، وحاول أن يقنع العامة بعث هذه المحاولة ، وبأن التزام الدفاع أفضل وأولى ، فتناولوا عليه وسبوه ، فانسحب مع فرسانه . وعندئذ انقض النصارى على هذه الجموع الهزيلة المفككة من المسلمين ، ففتكوا بها وأقتلوا الكثير منها قتلاً وأسيراً ، وفر الكثير منهم فى مختلف الأنحاء . ويقدر من هلك من المسلمين فى الموقعة بعدة آلاف ، ويبالغ بعضهم فيقدرها بنحو عشرين ألفاً ، ووقعت موقعة طلياطة هذه فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ ( مايو ١٢٢٤ م )<sup>(٢)</sup> .

ولم يمض شهران على ذلك ، حتى وقعت فى شرقي الأندلس غزوة نصرانية مماثلة ، وهزيمة مماثلة للمسلمين . وذلك أن حكام قونقة ووبذة والأركون ومويا ،

---

( ١ ) وهى بالإسبانية Tliata

( ٢ ) ينفرد صاحب الروض المطار بما يقدمه إلينا عن هذه الموقعة من تفاصيل وافية

( ص ١٢٨ و ١٢٩ ) .

جمعوا قواتهم ، وسارت منها حملة غازية بقيادة ألبرو تليس اخترقت وادي شُقر جنوباً حتى أراضي مرسية ، فخرج لردهم جند مرسية وأهلها بقيادة أبي على ابن أشرقى ، وكانوا على مثل أهل إشبيلية من التفكك والفوضى ، فتشبت بينهم وبين النصارى ، فى مكان يعرف بعفص Aspe يقع شرقى مرسية ، معركة شديدة هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وأسر وقتل منهم فيها الكثير . وكان ذلك فى شهر رجب سنة ٦٢٢ هـ ( يولييه ١٢٢٤ م ) ، وفى ذلك يقول شاعر مرسى ، مقارنا بين موقعى عفص وطلايطة :

موقعة عفص وطلايطة      تكامل إقبال أيامنا  
فبالغرب تلك وبالشرق ذى      أناخا على شم أعلامنا<sup>(١)</sup>

فى ذلك الحين ، كانت بيعات الموحدين بمراكش والمغرب ، قد وصلت إلى العادل بإشبيلية ، وكان الخليفة عبد الواحد ، قد خلع ولقى مصرعه ، وأصبح عرش الخلافة الموحدية خاليا ، فرأى العادل أن الوقت قد حان لكى يعبر إلى المغرب ، خصوصاً وقد أخذت الحوادث تتجههم فى الأندلس ، على أثر فشله فى التغلب على البياسى ، وفى رد النصارى عن أراضي إشبيلية ، فندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر على شئون الأندلس ، وغادر إشبيلية ، وعبر البحر إلى المغرب ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٢ هـ ( أكتوبر سنة ١٢٢٤ م )<sup>(٢)</sup> . والظاهر أنه لقي فى طريقه إلى مراكش صعاباً من تعرض العربان وغيرهم إليه . ولما وصل العادل إلى مراكش ، واستقر بقصر الخلافة ، استوزر أبازيد

( ١ ) راجع الروض المطار ص ١٢٦ .

( ٢ ) ابن خلدون ح ٦ ص ٢٥٢ ، والروض المطار ص ١٢٩ . ونحن نرجح الأخذ بهذا التاريخ الذى يقدمه إلينا صاحب الروض المطار لعودة العادل ، ولكن يبدو من أقوال ابن عذارى أن العادل عاد إلى مراكش يوم السبت ٢٠ شعبان سنة ٦٢٢ ، وهو آخر يوم من حكم عبد الواحد ، وأنه دخل عليه القصر فى هذا اليوم . وفى اليوم التالى أشهد على نفسه بالخلع ، وأن عبد الواحد خنق بعد ثلاثة أيام من خلعه ( البيان المغرب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ) ومعنى ذلك أن العادل هو الذى قام بخلع عبد الواحد ثم أوعز بقتله ، ونهب قصره وسبى حريمه . وهذه الرواية التى ينفرد بها ابن عذارى ، تبدو فى نظرنا ضعيفة بعيدة الاحتمال . وبالعكس فإن الظروف والقرائن الزمنية تحمل كلها على الاعتقاد بأن عودة العادل كانت بعد خلع عبد الواحد ومصرعه . ويتفاد ذلك فضلاً عن قول صاحب الروض المطار ، من قول ابن خلكان ( ج ٢ ص ٤٣٤ ) ، وصاحب الحلال الموشية ( ص ١٢٣ ) وصاحب روض القرطاس ( ص ١٦٣ ) وكذلك ابن الخطيب فى الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال ١٦٧٤ الفزيرى ) لوحة ١٥٤ .



ابن أبي محمد بن أبي حفص ، وأقر عماله سواء بالمغرب أو الأندلس على أعمالهم ، وأقر خاصته وحشمه كل في وظائفهم وطبقاتهم .

وقد تقدم نسب العادل ، فهو أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن بن علي ، وأمه أم ولد نصرانية برتغالية ، من سبي شنترين اسمها سر الحسن أسرت فيما يبدو ، حين غزوة المنصور الأولى للبرتغال في سنة ٥٨٦ هـ ( ١١٩٠ م ) ، وبذلك يمكن أن نضع تاريخ مولد العادل في نحو سنة ٥٨٧ هـ ( ١١٩١ م ) فيكون عمره وقت أن تولى الخلافة ، نحواً من أربعة وثلاثين عاماً . ولقبه الكامل هو « العادل في أحكام الله تعالى » . وأما عن صفته ، فقد كان العادل نحيل القد ، أشهل العينين ، أفنى الأنف ، خفيف العارضين<sup>(١)</sup> . وكان العادل من خيرة بني عبد المؤمن ، فاضلاً وقوراً ، كبير النفس ، عالى المهمة ، من أهل العلم والمعرفة<sup>(٢)</sup> .

وتولى العادل حكم غرناطة في سنة ٦١٩ هـ ، أيام ابن أخيه يوسف المستنصر ، ثم نقل باختياره إلى ولاية مرسية . ولما تولى الخلافة عمه أبو محمد عبد الواحد ، خرج عليه بمرسية ، كما تقدم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وذلك في يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١ هـ ، ولم يتخلف عن بيعته بالأندلس سوى السيد أبي زيد والى بلنسية ، وأخوه السيد أبو عبد الله صاحب جيان ، وهو المعروف بالبياسي . وأما في المغرب فقد تلقى بيعة سائر الموحدين ، ما عدا بيعة بني حفص ولاية إفريقية ، وكان هؤلاء عندئذ يدبرون الحطة لانفصالهم عن الدولة الموحدية ، والاستقلال بحكم ما تحت أيديهم . وكان في مقدمة ما فعله العادل ، أن وجه إلى قواعد الأندلس ، كتاباً يؤكد فيه عناية الموحدين بشئون الجزيرة ، واجتماع كلمتهم على الجهاد . وقد أورد لنا ابن عذارى من الكتاب المذكور فقرة تنقل منها ما يلي :

« وما هم بحمد الله ( أى الموحدين ) قد انتظم شملهم ، واتصل جبلهم ، واجتمعت أهواءهم ، واتفقت على إعزاز الحق آراؤهم ، وحلوا بدار الموحدين ، ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين ، حيث الجموع وافرة . والأعداد متكاثرة ، وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة ، وذلك حلول استدعاء واستنفار ، لا حلول إقامة واستقرار ، عازمين على الجهاد ، والله تعالى عصى عزائمهم ، ويجبرهم

(١) روض القرطاس ص ١٦٢ .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة ( مخطوط الإسكوريال المشار إليه ) لوحة ٥٤ ا .

على جميل معتقداتهم ، على جهاد أعداء الله الكفار ، فاعملوا وفقكم الله على ذلك ، والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم<sup>(١)</sup> .

والواقع أن شئون الأندلس ، كانت أهم ما يشغل العادل ، وقد تركها عند مغادرته لشبه الجزيرة ، في حالة اضطراب مروع ، تتجاوزها تيارات جارفة ، من الفتن الداخلية ، ومن عدوان النصارى .

— ٣ —

غادر العادل الأندلس ، وترك أخاه أبا العلى إدريس في إشبيلية ليواجه العاصفة . وكانت الأندلس قد غدت كما قدمنا مرة أخرى ، مذ أعان العادل دعوته بالخلافة ، مسرحاً لصراع المتغلبين . وكانت حركة البياسى أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، في أواسط الأندلس ، قد اتسع نطاقها ، وكادت أن تمتد بعد الأندلس الوسطى ، إلى إشبيلية ، والأندلس الغربية . وكان البياسى ، قد لجأ حسبما تقدم ، إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به ، ويطلب عونه ضد خصومه ، وكان فرناندو ، وهو الذى قدر له أن يفتح فيما بعد معظم قواعد الأندلس الكبرى ، يقدر كأسلافه ، مزايًا هذا التدخل في حوادث الأندلس ، وفي حروبها الأهلية ، وما يترتب عليه من مغامر سياسية ، وإقليمية جلية ، فلبى نداء البياسى ، وبعث إليه بالأمداد ، وامتنع البياسى بمدينة بياسة ، وصمد أمام الجيوش الموحدية ، التى بعثها العادل لإخضاعه . ولما اطمأن إلى حصانة مركزه ، خرج مع حليفه ملك قشتالة ، ليعاونه على افتتاح أول قاعدة أندلسية من قواعد هذه المنطقة ، وهى مدينة قيجاطة<sup>(٢)</sup> الواقعة جنوب شرق بياسة . وكان فرناندو الثالث قد خرج بجيشه في خريف سنة ١٢٢٤ م (أواخر سنة ٦٢٢ هـ) ، واخترق أراضي أبدة قاصداً إلى قيجاطة ، وكانت تزخر بالأموال والثروات ، فاقتحمها القشتاليون ، وهدموا معظم أسوارها ، وقتلوا من أهلها الألوف ، وقتلوا وأسروا كذلك معظم حاميتها الموحدية (سبتمبر ١٢٢٤ م) . واستولى القشتاليون في نفس الوقت على عدة أخرى من حصون هذه المنطقة . ثم ساروا بعد ذلك ، ومعهم حليفهم البياسى ، فعاثوا في أراضي جيان ، وقتلوا من أهلها نحو ألف وخمسمائة (أكتوبر ١٢٢٤ م) . ثم ارتد ملك قشتالة

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٩ .

(٢) وهى بالإسبانية Quesada .



في قواته مثقلاً بالغنائم والأسرى ، عند اقتراب الشتاء ، وعبر نهر الوادي الكبير عائداً إلى بلاده<sup>(١)</sup> .

وفي صيف العام التالي ، أعنى في سنة ٦٢٣ هـ ( ١٢٢٥ م ) ، خرج فرناندو الثالث من قشتالة بجيش ضخم ، وعبر ممر مورادال بجبال سيرا مورينا ( جبل الشارات ) ونزل في سهل العقاب ، على مقربة من شمالي بياسة ، وبعث إلى البياسي يستدعيه ، فهرع البياسي إلى لقاء ملك قشتالة ، وقدم إليه خضوعه بصفة رسمية ، وعقد معه عهداً يعترف فيه بطاعته ، ويتعهد بأن يسلم إليه حصون مرتش ، وأندوجر ، وجيان ، متى حصلت في يده ، وكذلك سائر الحصون ، التي يطلب ملك قشتالة الاستيلاء عليها ، في أراضي المسلمين ، وسلم البياسي ولده الأصغر إلى ملك قشتالة كغالة بولائه وإخلاصه . وتعهد ملك قشتالة من جاتبه بأن يقدم إلى البياسي المعونة العسكرية الكافية ، لاسترداد أملاكه وتأمينها<sup>(٢)</sup> .

وعلى أثر ذلك قصد ملك قشتالة ومعه حليفه أو تابعه البياسي إلى مدينة جيان وهو يخرب سائر الأراضي التي يمر بها ، خلا تلك التي يسيطر عليها البياسي . ولما وصل إلى جيان ، ضرب حولها الحصار ، وأخذ القشتاليون مدى أيام يهاجمونها دون جدوى . وكانت جيان أمتع قاعدة في تلك المنطقة ، ولها أسوار عالية ، وقصبة في منتهى المناعة ، مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم ، تشهد بسابق حصانتها . وكانت تدافع عنها حامية موحدة قوية بقيادة عمر بن عيسى بن أبي حفص بن يحيى ، ومعهم فرقة من الفرسان النصاري بقيادة ألبار بيريث دي كاسرو ، وكان مثل أبيه يعمل في خدمة الموحدين بغيرة وإخلاص ، ولما اشتدت هجمات النصاري ، خرج المسلمون لهم ، واشتبكوا معهم في معركة ، قتل فيها من المسلمين مائة وثمانون ، وأسر نحو ألفين . ثم امتنع المسلمون بالمدينة ، ولبثوا صامدين ، وكرر القشتاليون هجماتهم على المدينة ، وهم في كل مرة يرتدون عنها خائبين . وأخيراً اضطر ملك قشتالة أن يرفع الحصار عن المدينة . وأن يرحل عنها<sup>(٣)</sup> .

---

( ١ ) البياز المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٩ ، والروض المطار ص ٦١ وكذلك :

J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia (Madrid 1946) ;  
cit. Anales Toledanes; p. 36 & 37

( ٢ ) J. Gonzalez : ibid; p. 38

( ٣ ) J. Gonzalez : ibid, cit. Crónica Latina; p. 40

وسار ملك قشتالة بعد ذلك ومعه البياسى إلى القبذاق<sup>(١)</sup> ، فاستولى عليها وسلمها لحليفه ، إذ كانت من أملاكه ، ثم سار جنوبا نحو باغة<sup>(٢)</sup> ، فقاومته حاميتها بشدة ، واضطر إلى محاصرتها مدة ، ثم سلمت حاميتها بالأمان نظير فدية كبيرة ، وقصد بعد ذلك إلى لوشة ، وهى جنوب باغة على ضفة نهر شنيل . فاقتحمها وفتك بأهلها . ولما وصل إلى مدينة الحامة فى جنوبها ، ألفاها خالية ، إذ هجرها أهلها خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل لوشة .

ثم سار القشتاليون بعد ذلك شمالا صوب غرناطة ، وكان أهلها قد استدعوا ألبار بيريث لمعاونتهم على الدفاع . فلما اقترب القشتاليون من المدينة ، وضربوا حولها الحصار ، وسط أهلها ألبار بيريث ليفاوض ملك قشتالة فى أن يرحل عنهم ، نظير تسليمهم إياه ألفا وثلاثمائة أسير من النصارى كانوا لديهم ، فتم الاتفاق على ذلك ، وعفا ملك قشتالة عن ألبار بيريث ، فترك خدمة الموحدين ، وعاد إلى إلى خدمة مليكه ، وارتد ملك قشتالة فى قواته شمالا ، حتى اقترب من يياسة ، وهناك قام البياسى بتسليمه حصنى مرتش وأندوجر ، وفقاً لعهد الذى أخذ على نفسه<sup>(٣)</sup> .

وكان البياسى قد شعر عندئذ بتوطد مركزه ، وضخامة العون الذى يلقاه من حلفائه النصارى ، فماكاد فرناندو الثالث يختم غزوته فى أراضي المسلمين ، حتى سار البياسى فى قواته ، ومعه جيش من النصارى ، تقدره الرواية بعشرين ألفاً<sup>(٤)</sup> صوب إشبيلية ، وعبر نهر الوادى الكبير إلى الشرف ، وخرجت القوات الموحدية وأهل المدينة بقيادة السيد أبى العلاء لرد الغزاة ، وهناك أيضاً ، على مقربة من طلياطة ، فى فحص القصر ، اشتبك الفريقان فهزم الموحدون وأهل إشبيلية ، هزيمة شديدة ، وقتل منهم نحو ألفين<sup>(٥)</sup> وكان من نتيجة هذا النصر ، أن خضعت معظم البلاد والحصون الواقعة شرقاً بين إشبيلية وقرطبة لسلطان البياسى ، بل إن أهل مدينة قرطبة ذاتها ، حينما رأوا تفوق البياسى على هذا النحو ، خلعوا طاعة حاكمهم الموحدى السيد أبى موسى أخى العادل ، وأعلنوا طاعتهم للبياسى . وكان فرناندو الثالث قد عاد فى تلك الأثناء ، فعبر بقواته إلى أراضى

(١) وهى بالإسبانية Alcaudete . (٢) وهى بالإسبانية Priego .

(٣) راجع الروض المطار ص ٦١ و ١٦٥ و ١٧٤ . وكذلك :

J. Gonzalez, ibid; cit Crónica Latina p. 42

(٤) روض القرطاس ص ١٦٤ . (٥) الروض المطار ص ٥٨ .



الأندلس مرة أخرى ، واستدعى البياسى إلى حصن أندوجر ، وطلب إليه أن يسلم إليه طائفة من الحصون التى يرغب الاستيلاء عليها فى منطقة قرطبة ، فوعد البياسى بأن يسلمه حصون شلبطرة ، وقبالة ، وبرج الحمة<sup>(١)</sup> ، وارتضى أن يسلمه قصبة بياسة كفالة بتنفيذ وعده ، واحتل استاذ فرسان قلعة رباح ورجاله بالفعل قصر بياسة ، وبقى المسلمون على حالهم بالمدينة . ثم بذل البياسى جهده فى تسليم حصن شلبطرة ، وندب لذلك رسولا من قبله استطاع بعد مشقة أن يقنع حاميته بتسليمه للنصارى ، وكذلك سلم النصارى حصن برج الحمة ، ولم يبق عليه إلا أن يسلمهم حصن قبالة ، الذى امتنع عليه<sup>(٢)</sup> .

ولم يقنع البياسى بما تم من توطد مركزه ، واستقراره بعاصمة الخلافة القديمة ، وسيطرته على معظم نواحي الأندلس الوسطى ، ولكنه أراد أن يستولى على إشبيلية ذاتها ، وأن يقضى نهائياً على سلطان منافسه العادل وأخيه أبى العلاء ، فسار فى قواته مرة أخرى صوب إشبيلية ، وحاول أن يضرب حولها الحصار . وكان أبو العلاء قد استعد للقاءه فخرج إليه فى حشود الموحدين وأهل المدينة ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها البياسى ، ومزقت جموعه ، وارتد فى فلوله صوب قرطبة . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة ، فى الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ ، وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة ، وهو ٢٥ فبراير سنة ١٢٢٦ م<sup>(٣)</sup> .

وكان لهذا النصر الحاسم الذى أحرزته القوات الموحدية على البياسى ، نتائج هامة ، فقد ارتدت طلياطة وحصن القصر ، وبقية الحصون والبلاد الممتدة شرق إشبيلية عن طاعة البياسى ، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل<sup>(٤)</sup> وكتب السيد أبو العلاء إلى أخيه العادل بمراكش ، كتاباً ينبئ فيه بهذا النصر ، ومما جاء فى الكتاب المذكور :

« إن المحنة بهذا البائس قد بلغت مداها ، وانقبضت بعد البسط يداها ،

(١) وهى بالإسبانية على التوالى Salvatierra و Baños de la Encina, Capilla ، وتقع الأخيرة شمال أندوجر .

(٢) الروض المطار ص ٥٨ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 46 & 47

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٠ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 48

(٤) البيان المغرب ص ٢٥١ .

وانتهى إلى غاية لا يتعداها ، والحمد لله الذى أذل للخلافة العادلة ، أحد عداتها وأنصفها من منازعها بأداتها ، فكافر النعم تستحيل عليه نقماً ، وحاجب الشمس ضوءها ، حافظاً بين ظلام وعياء ، والموحدون عازمون على اتباع هذا العدو ، إلى أن يدعوهم عقيراً ، أو يستثبتوه أسيراً إن شاء الله تعالى ، وكتب فى ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وسمائة .

وهنا خرج فرناندو الثالث فى قواته مرة أخرى ، وكان هدفه فى هذه المرة الاستيلاء على حصن قبالة<sup>(١)</sup> ، وهو من حصون الحدود الواقعة فى شمالى قرطبة ، وشمالى جبل الشارات ، وكان قد تعذر على البياسى ، أن يقوم بتسليمه وفقاً لتعهداته ، وكان البياسى قد وصل فى تلك الأثناء إلى قرطبة منهزماً مدحوراً ، وكان أهل قرطبة لما رأوا إفراطه فى مخالفة النصارى ، وإسرافه فى تسليم الحصون الإسلامية إليهم ، قد خشوا أن ينتهى الأمر بأن يغدر بهم ، ويسلم قرطبة ذاتها للنصارى ، فاعزموا القتلى به والتخلص منه ، فثاروا به ، وشعر البياسى بمخاطرة الأمر ، ففر من المدينة ، والتجأ إلى حصن المدور الواقع جنوبى النهر على مقربة من جنوب غربى قرطبة ، ولكن الثوار طاردوه بشدة ، وحاصروه فى الحصن ، ثم اقتحموه ، وقتلوا البياسى ، واحتزوا رأسه ، وبعثوا بها إلى السيد أبى العلى بإشبيلية ، فأرسلها بدوره مع كتاب إلى أخيه العادل عمراكش ، فرد العادل بكتاب يتضمن تعيين أخيه أبى العلى واليا لقرطبة بالإضافة إلى إشبيلية<sup>(٢)</sup> ، وكان البياسى عند مصرعه شيخاً قد جاوز الستين .

وهكذا تحطمت ثورة أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، المسمى بالبياسى ، بعد أن لبثت ثلاثة أعوام تبث الاضطراب والدمار إلى أواسط الأندلس ، وتمهد للنصارى اقتطاع القواعد والحصون الواقعة فى شرقى قرطبة وفى شمالها ، وقد اقتطعوا منها بالفعل طائفة كبيرة ، كان ضياعها سبباً فى إضعاف خطوط الدفاع عن قرطبة ، والتهديد لسقوطها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، البياسى ، فى صور بغیضة قائمة<sup>(٣)</sup> . ونستطيع أن نعتبر البياسى بالفعل على ضوء ماتقدم ، من أعماله وخياناته المتوالية لقضية

( ١ ) وبالإسبانية Capilla .

( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٢ ، والروض المطار ص ٥٩ .

( ٣ ) راجع الروض المطار ص ٥٨ و ٦١ ، والبيان المغرب ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .



الإسلام ، وقضية الأندلس ، تحقيقاً لأطاعه الوضيعة ، شخصية بغیضة مشيرة ، تستحق أن يدمغها التاريخ بأقسی الأحكام ، ويرميه ابن عذارى بالارتداد عن الإسلام ، واعتناق النصرانية ، بيد أننا لم نجد في الروایات النصرانية ما يؤيد هذا الاتهام ، ولو وقع لكانت الرواية النصرانية أول من يسجله ويشيد به .

— ٤ —

وكان فرناندو الثالث حينما وصلته أنباء هذه الحوادث أمام حصن قبالة المنيع ، وقد ضرب حوله الحصار ( أوائل يونيه سنة ١٢٢٦ ) وأخذ يهاجمه باستمرار ، وحاميته الإسلامية ، صامدة ، يد أنه لما طال الحصار ، واشتدت هجمات النصاري ، اضطر المسلمون إلى مفاوضة ملك قشتالة ، وعرضوا أن يقدموا رهائنهم بالتسليم ، وأن يبعثوا رسلهم إلى السيد أبي العلاء ، وكان عندئذ بقرطبة ، يطلبون إليه الإنجاد ، فإذا لم تصل إليهم النجدة خلال ثمانية أيام ، سلموا الحصن بالأمان ، فقبل فرناندو هذا العرض . ولم تمض أيام قلائل حتى عاد الرسل من قرطبة خائبين ، فسلم المسلمون الحصن ، وسمح لهم وفقاً للاتفاق ، أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأن يسيروا محروسين حتى حصن « غافق » الواقع جنوب قبالة ، وهو أقرب الحصون الإسلامية إليهم ، ودخل فرناندو الحصن وفي الحال حول مسجده إلى كنيسة ، ووضع به حامية نصرانية ، وكان تسليم حصن قبالة في أوائل أغسطس سنة ١٢٢٦م ( أواخر سنة ٦٢٣ هـ ) .

وجاء بعدئذ دور بياسة ، وكان من الواضح ، بعد مصرع البياسي ، أن مصر بياسة غدا في كفة القدر ، وأن ملك قشتالة كان يتطلع إلى أخذها باعتبارها من أملاك تابعه . وكان فرسان قلعة رباح قد احتلوا قصبة بياسة كما قدمنا ، كفالة بتنفيذ البياسي اتعهداته ، فلما قتل البياسي ، أراد أهل بياسة أن يخرجوا النصاري من قصبتهم ، فبعثوا إلى صاحب جيان عمر بن عيسى بن أبي حفص بن يحيى ، يستنجدون به ، فقدم عليهم في بعض قواته ، ومعه القائد محمد بن يوسف المسكدالي ، ودخل المدينة ، وكان بها سوى من بالقصبة ، طائفة كبيرة من النصاري ، فقتلوا جميعاً مدافعين عن أنفسهم ، ولكن صمد من كان منهم بالقصبة لخصانها ، فطلب أهل بياسة إلى الوالي الموحدى ، أن يبقى يوماً أو يومين لحصار النصاري بالقصبة لإرغامهم على التسليم ، لأنهم كانوا يتلقون مؤثماً من أهل المدينة يوماً بعد يوم ، فأبى وأصر على الخروج من فوره ، وذلك خوفاً من قدوم القشتاليين ،

وقال لأهل المدينة ، إني ذاهب ، فمن أحب أن يخرج معي فليخرج ، ومن أراد البقاء فليبق ، فاضطر أهل المدينة إلى مغادرتها خوفاً من الوقوع أسرى في أيدي النصارى ، وتفرقوا في مختلف الأنحاء . وهكذا استولى النصارى الذين بالقصبة وهم فرسان قلعة رباح على سائر المدينة ، وذلك في اليوم التاسع من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ ( أول ديسمبر سنة ١٢٢٦ م ) وذهب فرناندو الثالث الفرسان من أجل ذلك كثيراً من دور المدينة ورياضها وضياعها<sup>(١)</sup> .

وفي العام التالي استولى فرناندو الثالث على شوذر<sup>(٢)</sup> الواقعة جنوبي بياسة ، وعلى عدة من الحصون المجاورة ، وأخرج من بقي من المسلمين في بياسة ومرتش وغيرهما من القواعد والحصون التي استولى عليها .

وهكذا استطاع القشتاليون أن يخرجوا من ثورة البياسى ، بأكثر غنم ، وأن يضعوا أيديهم على طائفة كبيرة من القواعد والحصون الأندلسية الهامة في منطقة جيان وقرطبة ، وأن يتحكموا بذلك في خطوط الدفاع عن الأندلس الوسطى ، وأن يقتربوا من قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، التي كان الاستيلاء عليها من أعز أمانهم .

وكان السيد أبو العلى (أبو العلاء) إدريس ، مذحلّ بقرطبة عقب مصرع البياسى ، يحاول أن يضع حداً لعدوان النصارى في تلك المنطقة ، فسار في بعض قواته إلى مرتش وحاصرها ، وحاول أن يستولى عليها ، ولكن الأمداد القشتالية جاءت أخيراً لتنقذها من السقوط ، واضطر السيد أبو العلى أن يرفع الحصار وأن ينصرف بقواته ، وذلك في أوائل سنة ٦٢٤ هـ - ١٢٢٧ م . فلما شعر أبو العلى باشتداد وطأة القشتاليين على الأراضي الإسلامية ، سعى إلى عقد الهدنة معهم ، وبعث رسوله أبا القاسم للمفاوضة ، وتم الاتفاق على أن تعقد الهدنة بين الفريقين لمدة عام واحد ، وأن يدفع الموحدون لقاء عقدها ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، دفع بعضها عند توقيع التعاقد ودفع الباقي بعد ذلك<sup>(٣)</sup> .

— ٥ —

لم نجد بعد أن سجلنا أحداث الأندلس الأليمة في عهد الخليفة العادل ، مانسجله

( ١ ) اروض المطار ص ٥٨ و ٥٩ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid, p. 52 .

( ٢ ) وهي بالإسبانية Jodar .

( ٣ ) J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina, p. 55 .



من الأحداث في عهده بالمغرب ، وهو عهد لم يطل إلا نحو عامين ، إلا ما كان من تفاقم الأحوال ، واضطراب جبل الأمن ، وازدياد الفوضى ، وتوالي عيث العرب ، وبعض القبائل البربرية ، ولاسيما هسكورة ، في الأنحاء القريبة من العاصمة وازدياد شأن بني مَرِين ، وتغلبهم على كثير من النواحي والقبائل ، وفرض المغارم عليها ، بل وفرضهم الإتاوات على بعض المدن القريبة من منازلهم ، مثل فاس وتازي ومكناسة ، وذلك لكي يكفوا الغارة عنهم (١) .

وكان أهم ما حدث في تلك الفترة القصيرة ، قيام عرب الخلط ، وشيخهم هلال بن مقدم ، وهسكورة ، وشيخها عمر بن وقاريط ، بالعيث في نواحي مراکش ، وتخريبهم بلاد دُكالة . وخرج إليهم في البداية ابن يوجان فلم يستطيع شيئاً ، فوجه إليهم العادل عسكرياً من الموحدين بقيادة إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حفص ، فهزم وقتل ، واستمرت أعمال العدوان والعيث على حالها (٢) .

وبينما المغرب يجوز في ظل العادل ، هذه الفترة المدهمة ، إذ وقع بالأندلس حدث جديد ضخم ، هو خروج السيد أبي العلي والي إشبيلية وقرطبة على أخيه العادل ، وخلع طاعته ، وإعلانه الدعوة لنفسه ، ومبايعته بالخلافة في إشبيلية ، وذلك في الثاني من شهر شوال سنة ٦٢٤هـ ( ١٥ سبتمبر سنة ١٢٢٧ م ) . ولم يتخذ السيد أبو العلي قراره ارتجالاً ، بل مهد إليه بالسعي والاتصالات ، وكان معه بإشبيلية عدة من وجوه الموحدين وأشياخهم ، الذين يعتد برأيهم ، فأراد أن يسبر غورهم أولاً ، فاتفق مع قاضي المدينة ، أبي الوليد بن أبي الأصبغ ابن الحجاج ، وكان ذلك في أواخر شهر رمضان ، أن ينشئ خطبة بليغة يلقيها في يوم الفطر ، وأن يتعرض فيها لمسألة الخلافة ، وأن يشير بلباقة إلى مايجول بخاطره من القيام بالأمر ، فألقى القاضي خطبته حسبما اتفق ، وأطرب في ذكر السيد واستحقاقه للأمر ، وفي اليوم التالي ، اجتمع أشياخ الموحدين بمجلس السيد أبي العلي ، وقام الجميع بمبايعته ، واتخذ لقب المأمون ، وبايعه على أثر ذلك بعض ولاية الأندلس ، وفي مقدمتهم السيد أبو زيد والي بلنسية ، وبعثوا بديعاتهم إليه . وكذلك بايعته من أنحاء العدو سبتة وطنجة (٣) .

(١) روض القرطاس ص ١٦٦ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ١٦٦ .

ويقول لنا ابن الخطيب ، إن أبا العلى ، قام على أخيه العادل بمالأة أخيه السيد أبى زيد أمير بلنسية وتحريكه إياه ، وقد وهم ابن الخطيب فجعل من السيد أبى زيد وأخيه عبد الله البياسى ، أخوين للعادل وأبى العلى ، فى حين أنهما من أبناء عمومتهما ، إذ أن أبا زيد عبد الرحمن والى بلنسية ، وأخاه عبد الله البياسى ، هما ولدا محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومحمد هو أخ ليعقوب المنصور<sup>(١)</sup>.

وبعث أبو العلى المأمون إلى ابن يوجان ، يدعوهُ إلى مبايعته والعمل على نصرته ، وكان العادل قد تغير على ابن يوجان وأقصاه ، وخاطب ابن يوجان هلال بن مقدم أمير الخُلُط ، وعمر بن وقاريط شيخ هسكورة ، وأوعز إليهما بالاستمرار فى الإغارة على أحواز مراکش ، حتى يذعن الموحدون إلى خلع العادل ومبايعة المأمون<sup>(٢)</sup>. ويقول لنا صاحب روض القرطاس من جهة أخرى إن المأمون أرسل إلى الموحدين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ، وإلى الفتك بأخيه العادل ، وأنهم صدعوا بأمره ، وقتلوا العادل ، وكتبوا بيعتهم إليه<sup>(٣)</sup>. على أن الأمور اتخذت فى بلاط مراکش وجهة أخرى. وكان يسيطر على الدولة رجلان هما أبو زكريا بن الشهيد زعيم هتاتة ، ويوسف بن على شيخ تبنملن . فلما وردت الأنباء بقيام أبى العلى المأمون وبيعته ، ولما تفاقم أمر الخُلُط وهسكورة ، انتفقا على خلع العادل وعقد البيعة لأبى زكريا يحيى بن محمد الناصر . فدخل الموحدون القصر على العادل ، وطلبوا إليه أن يخلع نفسه ، ولما أصر على الرفض قتلاه ، وذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن القتلة ، وضعوا رأس العادل فى خصة تفور بالماء ، وشنقوه بعمامة حتى مات . ويزيد على ذلك بأن الموحدين عقدوا البيعة أولا للمأمون ، وبعثوا بها إليه ، وخطب له بالفعل على منبر جامع المنصور ، ثم خشوا بعد ذلك بطشه وانهقامه ، فنكثوا البيعة ، وبايعوا إلى ابن أخيه يحيى بن الناصر<sup>(٤)</sup>.

ويؤيد ابن الخطيب هذه الرواية ، فيقول لنا إن الموحدين عقدوا البيعة للمأمون بمراكش والأندلس ، ثم إن الموحدين بمراكش بدا لهم فى أمره ، وعدلوا

( ١ ) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٧٣) ج ٤١١ ، ومخطوط الإسكوريال (١٦٧٤)

ديرسور) لوحة ٥٤ .

( ٢ ) الروض المطار ص ٦٩ . ( ٣ ) روض القرطاس ص ١٦٦ و ١٦٧ .

( ٤ ) البيان المغرب ص ٢٥٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ و ١٦٧ .



عنه إلى ابن عمه ( والصحيح ابن أخيه ) ، أبي زكريا يحيى بن الناصر<sup>(١)</sup> ثم يؤيدها بعد ذلك بصورة قاطعة ، ما حدث ، عقب استيلاء المأمون على العرش ، من قتله لأشياخ الموحدين ، جزاء لهم على نكث بيعته بعد عقدها<sup>(٢)</sup> .

وعلى أى حال فقد انتهى الموحدون بمراكش ، إلى البيعة ليحيى بن الناصر . ويقول ابن عذارى إن هذه البيعة قد تمت في اليوم الثاني والعشرين من شهر شوال أعني في نفس اليوم الذي قتل فيه العادل<sup>(٣)</sup> ، وهذا ما لا يتفق مع سير الحوادث ، وعقد البيعة للمأمون ثم النكث بها ، ومن ثم فأننا نؤثر الأخذ برواية صاحب روض القرطاس وهو أن بيعة يحيى قد تمت في اليوم الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ<sup>(٤)</sup> ، أعني بعد مصرع العادل بأسبوع ، وهو أكثر اتفاقاً مع المنطق . وكان يحيى بن الناصر ، هو الذي اجتنب ثمرة الجريمة ، وليس أخوه الخليفة المقتول ، وقبض بعد ذلك بأشهر قلائل على الوزير السابق أبي زيد بن يوجان ، وولده الأكبر بالرغم من اختفائهما وقتلا ، وذلك لما نسب إليهما من تحريض عرب الخلط وهسكورة على الاستمرار في عيئهما<sup>(٥)</sup> .

وتلقب يحيى بن الناصر ، بالمعتصم ، وكان وقت تقلده الخلافة ، فتي حدثاً في السادسة عشرة من عمره ، وامتنع من بيعته عرب الخلط ، وقبيلة هسكورة ، وبقياً على ولائهما في بيعة المأمون .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى المأمون بالأندلس ، استشاط منخفاً وغضباً ، وكان قد أخذ بالفعل في الأهبة للمسير ، وقصد إلى الجزيرة الخضراء ليجوز منها إلى العدو ، فارتد إلى إشبيلية ، وقد آلى على نفسه أن يعمل بكل ما وسع لانتزاع عرش الخلافة ، والانتقام من أولئك الأشياخ المنافقين الذين غدروا به ونكثوا بيعته . بيد أنه يجب قبل أن نتبع مصاير الخليفة المأمون ، وما اقترن بعهد من أحداث المغرب ، أن نقف لحظة لكي نستأنف الكلام على سير الحوادث بالأندلس .

( ١ ) الإحاطة ( ١٩٧٣ ) ج ١ ص ٤١١ . ( ٢ ) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٥ .

( ٣ ) البيان المغرب ص ٢٥٣ . ( ٤ ) روض القرطاس ص ١٦٥ .

( ٥ ) الروض المطار ص ٦٩ و ٧٠ .

## الفصل الثالث

### عصر الخليفة أبي العلى المأمون

#### إلغاء رسوم المهدي ابن تومرت

#### وقيام الدولة الحفصية بإفريقية

المأمون يعقد حلفاً مع قشتالة . شروط هذا الحلف . معاونة فرناندو الثالث العسكرية للمأمون .  
هبور المأمون إلى المغرب . اللقاء بينه وبين يحيى المعتمد . هزيمة يحيى وفراره . دخول المأمون مراکش .  
فتكه بأشياخ الموحدين . القتال ثانية بين يحيى والمأمون . هزيمة يحيى وفراره للمرة الثانية .  
مرسوم المأمون بإزالة رسوم المهدي وإعلانه بطلان دعوته . كتابه في ذلك . رواية أخرى عن إزالته  
للدعوة للمهدية . ما كان يحش به المنصور من ذلك . بناء النصارى لكنيستهم في مراکش . إفريقية تحت  
ولاية الشيخ أبي محمد عبد الواحد . وفاته وقيام ولده أبي محمد عبد الله مكانه . الخليفة الموحدي يعين  
أميراً لتونس . تحرك يحيى بن إسحاق بن غانية . نهوض السيد أبي العلاء من تونس لقتاله . أطوار القتال  
بين الفريقين . هزيمة ابن غانية وفراره . ولاية السيد أبي زيد لإمارة تونس ثم إقالته . العادل يعين أبا محمد  
عبد الله لولاية إفريقية . دخوله تونس وتعيينه لأخيه أبي زكريا لحكم قابس ، وأخيه أبي إبراهيم  
لحكم توزر . تأثر هبة الشيخ أبي محمد عبد الواحد وبنيه بإفريقية . عود ابن غانية للميث في شمال إفريقية .  
اقتحامه لقسنطينة ومليانة والجزائر . خروج الشيخ أبي محمد لمطاردة . مسيره صوب أحوار  
سجلماسة . استعراض لفتامرات بني غانية . تدهور مثلهم الثورية . هزيمتهم وانهيار أحلامهم . الأعوام  
الأخيرة من حياة يحيى بن غانية . وفاته وتعليق ابن خلدون عليها . مصرع الخليفة العادل وقيام يحيى  
مكانه . اضطراب أمر الخلافة الموحدية . قيام الخليفة المأمون وماتلا ذلك . توقف أبي محمد عبد الله  
عن مبايعته . عزله وتعيين أخيه أبي زكريا لولاية إفريقية . محاولة أبي محمد مقاتلة أخيه ورده عن ذلك .  
استعلاء الأشياخ لأبي زكريا واعتقال أبي محمد . سير أبي زكريا إلى تونس . تعيين المأمون لبعض العمال الجدد .  
غضب أبي زكريا لذلك . خلعه لطاعة المأمون . رواية أخرى عن نزاع الأخوين وقيام أبي زكريا في الحكم .  
خلع طاعة بني عبد المؤمن واستقلال إفريقية . اسيلاء أبي زكريا على قسنطينة وبجاية من الولاة الموحدين .  
قيام إفريقية المستقلة تحت حكم الدولة الحفصية . بنو حفص والشيخ أبو محمد عبد الواحد . انشغال  
بلاط مراکش وعجزه . كتاب المأمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . السيد أبو موسى وإلى سبتة  
يدعو لنفسه بالخلافة . الثورة في منطقة فازاز . سير المأمون لمعاينة الثوار . تفرق الثوار وسير المأمون  
إلى سبتة . فشل محاصرته لها . عبور أبي موسى إلى الأندلس . تنازله عن سبتة لابن هود . اقتحام يحيى  
لمراكش . احراقه لكنيستها وقتله للنصارى . عود المأمون ووفاته في الطريق . اتفاق الأشياخ على مبايعة  
ولده الرشيد . سير جيش المأمون إلى مراکش . امتناعها واستعدادها للقائمة خشية انتقام الجند  
النصارى . صدور ظهير الرشيد بتأمينها . دخوله المدينة . تمريض النصارى افتداء للمدينة . الخليفة  
أبي العلى المأمون ونشأته وصفاته . براعته البيانية . نموذج من بلاغته . بعض شعره . ووزاؤه وكتابه .  
شخصه وأولاده .



لما عاد المأمون إلى إشبيلية ، بعد أن أخفق في التغلب على ابن هود ، كانت تشغله فكرة واحدة ، هي العبور إلى المغرب ، وانتزاع العرش من يد ابن أخيه يحيى ، ومعاقبة الناكثين لبيعته . وكان مما يشجعه على العبور ، أن وردت إليه من المغرب بيعات وإلى فاس ، ووالى تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان ، ووالى سبتة ، وهو أخوه أبو موسى بن المنصور ، ووالى بجاية ، وهو ابن أخته ، وكذلك وصلت إليه بيعة مقدم بن هلال أمير عرب الخلط ودعوته بالقدوم<sup>(١)</sup> . على أن المأمون لم يرد العودة دون قوة عسكرية تكفل له النجاح ، ومن ثم فقد اتجه نحو ملك قشتالة ، وكان فرناندو الثالث ، قد عبر الحدود إلى الأندلس في أواخر سنة ١٢٢٨ م (أوائل سنة ٦٢٦ هـ) ، وهو يرقب حوادث الأندلس وما تجوزها من فن ومعارك داخلية ، تمهد سبل الوثوب . فبعث إليه المأمون يعرض تجديد الهدنة السابقة إلى عام آخر بنفس الشروط ، أعنى مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، ويطلب إليه في نفس الوقت عقد حاف يحصل بمقتضاه على قوات عسكرية تعبر معه إلى المغرب . ويقدم لنا صاحب روض القرطاس خلاصة الشروط التي اشترطها ملك قشتالة لعقد هذا الحلف وقبلها المأمون ، وهي أن يسلمه المأمون عشرة من الحصون الإسلامية في منطقة الحدود يختارها بنفسه ، وأن تُبنى بمراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائهم ، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه ، ويرد إلى إخوانه يقضون في أمره ، وفق ما يرون ، وإن تنصر بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل . بيد أنه يبالغ في قيمة العون الذي قدمه ملك قشتالة للمأمون ، فيقول إنه بعث إليه بجيش كثيف من إثني عشر ألف فارس من النصارى ، برسم الخدمة معه ، والجواز إلى العدو ، وأن هذا الجيش الضخم ، وصل إلى المأمون في شهر رمضان سنة ٦٢٦ هـ ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدو على هذا النحو<sup>(٢)</sup> ، وفي هذا القول مبالغة ظاهرة ، وليس من المعقول أن يعبر ملك قشتالة مثل هذا العدد الضخم من فرسانه للخليفة الموحدى ، ولجيش القشتالى كله لم يكن يضم في كثير من المواقع الضخمة أكثر من هذا العدد من الفرسان . والحقيقة التي تقدمها إلينا الرواية النصرانية . هن أن ملك قشتالة لم يعد المأمون

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ ، والبركشي في تاريخ الدولتين ص ١٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٧ .

بأكثر من خمسمائة فارس<sup>(١)</sup>. وهذا هو بالذات ما يقرره ابن عذارى ، إذ يقول مشيراً إلى عزم المأمون على الجواز إلى العدو : « فحشد الحشود ، وزم الجنود ، وجمع نحو خمسمائة فارس من الروم ، لما كان يبغى من الحركة ويروم<sup>(٢)</sup> ». ويكتفى ابن الخطيب بأن يصف هذه القوة التي أمد بها ملك قشتالة حليفه المأمون بأنها « جمع من فرسان الروم<sup>(٣)</sup> » .

وعبر المأمون البحر في حشوده من الموحدين والعرب والقشاليين ، ولم يترك بإشبيلية وباقي القواعد الأندلسية الباقية على طاعته ، سوى بعض الحاميات الضئيلة . وكان جوازه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، وذلك في شهر ذى القعدة سنة ٦٢٦ هـ (أكتوبر سنة ١٢٢٨ م) . فأقام في سبتة أياماً ، ينظم قواته ، ويستعد للسير إلى غزوته المنشودة . ثم سار في قواته صوب الحاضرة الموحدية ، وكان ابن أخيه الخليفة الفتي يحيى بن الناصر وأشياخ الموحدين الموالين له ، حيناً بلانهم عبور المأمون إلى العدو ، قد استعدوا للقائه . وخرج يحيى في قواته من العرب ، والموحدين ، لرد المأمون ، وكان اللقاء على جبل إيجاز ، على مقربة من مراکش ، وذلك في اليوم الخامس والعشرين لربيع الأول سنة ٦٢٧ هـ (يناير ١٢٢٩ م) ، فهجم الفرسان النصارى على قبة يحيى الحمراء واقتحموها ، ومزقت حشوده وقتل معظمهم ، وفر هو ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى جبل هتاتة . ودخل المأمون حضرة مراکش ، فبادر أشياخ الموحدين إلى بيعته ، واستقر في كرسى الخلافة<sup>(٤)</sup> .

وكان أول عمل قام به المأمون ، هو تتبع خصومه والناكثين لبيعته ، ولا سيما من أشياخ هتاتة ، وتينملل ، ولحقاً في ذلك إلى حيلة لاجتذابهم فأعلن الأمان ، فهرع معظمهم للسلام عليه ، ولما تم اجتماعهم ، استحضر خطوطهم وبيعاتهم ، ثم أخذ يحاسبهم على تصرفاتهم وعلى خديعتهم ، ونكثهم التكرار ببيعاتهم ، وذلك بحضرة القاضي الفقيه المكيدى ، وكان قد حضر معه من إشبيلية ، ثم خاطب القاضي بقوله : « ما تقول يا فقيه في قوم بايعوا شخصاً ، ثم نكثوا عليه وخلصوه ، ثم قتلوه ، ثم بايعوا شخصاً آخر فنكثوا عليه وقتلوه ، ثم بعثوا ببيعتهم هذه إلى ثم نكثوا » .

(١) J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Ardalucia p. 69, Nota 14

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٤ .

(٣) الإحاطة (القاهرة ١٩٧٢) ج ١ ص ٤١١ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٧ ، وابن خلدون ح ٦ ص ٢٥٣ ، وابن الخطيب في الإحاطة ح ١ ص ٤١٩ .



أيضاً على ، فقال القاضي : « وجب عليهم القتل أجمعين » وتلا الآية : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » فأمر المأمون بإعدامهم جميعاً ، وكانوا نحو مائة من أعيان الموحدين ، ودفنوا على الأثر في حفرة كبيرة حفرت لهم خارج باب السادة ، ثم تتبع من بقي منهم مراكش ، حتى فنى معظمهم ، وتضاءلت بذلك مشيخة الموحدين ، وضعف نفوذها القوى ، الذى لبث ، منذ أيام المهدي ، يأخذ بأكبر نصيب في توجيه مصائر الدولة الموحدية (١) .

وفي شهر رمضان من هذا العام ( ٦٢٧ هـ ) خرج المأمون من مراكش ليرد هجوماً جديداً كان يدبره يحيى بن الناصر وأنصاره من الموحدين . فالتقى الفريقان بفحص واونزرت ، ف وقعت الهزيمة للمرة الثانية على يحيى وأصحابه ، وقتل منهم عدد ضخم ، وفر يحيى في قلوله إلى بلاد درعة وسلماسة ، وعلق المأمون من رؤوسهم على أسوار مراكش نحو أربعة آلاف ، وكان الوقت قيظاً ، فانتشرت روائحها الكريهة في المدينة ، وضج الناس من ذلك ، ورفع الأمر إلى المأمون ، فكان جوابه أنه يوجد ثمة مجانين ، وتلك الرؤوس لهم أحراز لا يصلح حالهم إلا بها ، وإنها لعطرة عند المحبين ، كريهة عند المبغضين (٢) .

وكان المأمون يجيش بأفكار ومشاريع عظيمة ، نحو تجديد الدولة الموحدية ، وتجديد رسومها وتعاليمها ، بعد أن أضحت في نظره عتيقة بالية . وقد تذرّع في تنفيذ خطته بمنتهى الشجاعة والجرأة ، وقد كان المأمون في الواقع شجاعاً صارماً ، مضطرم النفس ، فأصدر مرسومه إلى سائر بلاده بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة ، ونحو اسمه من المحاطبات ، وقطع النداء عند الصلاة بالنداءات البربرية مثل « تاصيلت الإسلام » و « سودود » و « ناردى » وأصبح والله الحمد « وغير ذلك مما كان العمل جارياً عليه منذ بداية الدولة الموحدية . وأذاع في كتابه الرسمى ، الذى أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت بالمهدي وبالإمام المعصوم « إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه » . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذا الكتاب الشهير ، الذى يعتبر صدوره حدثاً حاسماً في تاريخ العقيدة الموحدية ، ونحن ننقله هنا لبالغ أهميته :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ،

---

( ١ ) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ ، والإحاطة ج ١ ص ٤١١ .

( ٢ ) البيان المغرب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ .

إلى الطلبة والأعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله  
 شكر أنعمه الجسام ، ولا أعلمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام ، وإنا كتبناه إليكم ،  
 كتب الله لكم عملاً منقاداً ، وسعداً وقاداً ، وخاطراً سليماً ، لا يزال على الطاعة  
 قائماً مقبلاً ، من مراكش كلأها الله تعالى ، ولحق لسان ساطع ، وحسام قاطع ،  
 وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق نحو النفاق بعد ، والذي  
 نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل ،  
 وأظهرنا الحق ، وأن لامهدي ، إلا عيسى بن مريم ، وما سمى مهدياً إلا أنه تكلم  
 في المهدي ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها . وقد  
 أزلنا لفظة العصمة عن لا تثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه ، فنسقط  
 وتبت ، وتمحى ولا تثبت . وقد كان سيدنا المنصور ، رضى الله عنه ، هم أن  
 يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرفع للإمة الخرق الذي رقعنا ، فلم يساعده  
 لذلك أمله ، ولا أجله إليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية ،  
 وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأى يد يأخذ  
 كتابه ، أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، ولذلك ولوا وذلوا ، ما تكون لهم المحجة  
 على تلك المحجة ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد أننا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة  
 من أهل النار ، ونعوذ بك يا جبار من فعلهم الرثيث ، وأمرهم الخبيث ، لأنهم  
 في المعتقد من الكفار ، وإنا فيهم كما قال نبيكم عايه السلام « رب لا تنذر على  
 الأرض من الكافرين دياراً » والسلام على من اتبع الهدى واستقام<sup>(١)</sup> .

وفي رواية أخرى هي رواية صاحب روض القرطاس ، أن المأمون بعد  
 أن دخل مراكش وباعه الموحدون ، صعد إلى المنبر بجامع المنصور ، وخطب  
 الناس ، ولعن المهدي ، وقال أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم ، وادعوه بالغوى  
 المذموم ، إنه لامهدي إلا عيسى ، وإنا قد نبذنا أمره النحيس به ، ثم أصدر  
 مرسومه المتقدم ، بإزالة اسم المهدي من الخطبة والسكة ، وأن كل ما فعله المهدي ،  
 وتابعه أسلافنا فهو بدعة ، ولا سبيل لإبقاء البدع . ثم دخل قصره فاحتجب  
 ثلاثة أيام ، ثم خرج في اليوم الرابع ، فاستدعى أشياخ الموحدين بين يديه ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٧ و ٢٦٨ ، وابن الخطيب في الإحاطة ج (١٩٧٣)



وعاتبهم على نقض عهودهم ، ثم أمر بإعدامهم حسبما تقدم<sup>(١)</sup>. بيد أنه يبدو من المرجح أن المأمون ، قد عمد أولاً إلى التخلص من خصومه من أشياخ الموحدين ، ثم أقدم على تنفيذ خطته في إزالة رسوم المهدي وتعاليمه .

ولاريب أن عمل المأمون كان أعظم انقلاب ثورى حدث في أصول العقيدة الموحدية على يد بنى عبد المؤمن ، وقد أصاب الصميم من أسس هذه العقيدة وتعاليمها ، وقضى بصورة رسمية قاطعة ، ببطلان أحداث الأسطورة التى مثلت في جبل إيجليز قبل ذلك بمائة واثنى عشرة عاما ، وأعلن فيها محمد بن تومرت أنه المهدي المنتظر ، والإمام المعصوم .

ونحن نعرف أن الخليفة يعقوب المنصور ، كانت تساوره نحو المهدي مثل هذه الأفكار ، وأنه لم يكن من الغلاة في تصوير إمامته ومهديته ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، فكان عمل المأمون في الواقع ، وحسبما يشير إليه كتابه ، تنفيذاً لما كان يجيش به والده المنصور ، ولم يكن يجرأ في وقته على الجاهرة به ، أو الإقدام على تنفيذه .

والظاهر أن عمل المأمون في إزالة رسوم المهدي وتعاليمه ، لم يكن له كبير صدى ، ولم ترتب عليه أية معارضة أو بوادر انتفاض ، وبالعكس فقد أشاد الشعراء بتصرفه ، وأزجوا إليه مدائحهم في قصائد عديدة ، يورد لنا ابن عذارى بعضها<sup>(١)</sup> .

وأذن المأمون في نفس الوقت لحلفائه النصارى القادمين معه ، في بناء الكنيسة بمراكش ، وهى التى اشترط ملك قشتالة إنشاءها ، وأخذت النواقيس منذ إتمامها ، تدق لأول مرة في العاصمة الموحدية<sup>(٢)</sup> .

وكان من أعظم الحوادث الحاسمة في عصر المأمون ، إلى جانب محو أصول العقيدة الموحدية ، انفصال إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيامها دولة مستقلة تحت سلطان بنى حفص . ونحن نعرف أنه لما تفاقم أمر يحيى بن إسحاق بن غانية

---

(١) روص القرطاس ص ١٦٧ و ١٦٨ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٨ و ٢٦٩ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ .

الميورقي في إفريقية ، واشتد عيئه بها ، واستولى على معظم قواعدها ، ثم استولى على تونس ذاتها ، وكاد سلطان الموحدين يحيى في ذلك الركن من إمبراطوريتهم التاسعة ، سار إليه الخليفة الناصر لدين الله في الجيوش الموحدية ، ولبثت هذه الجيوش تطارده من مكان إلى مكان ، حتى ضربته ضربتها الحاسمة في موقعة جبل رأس تاجرا في سنة ٦٠٢ هـ ، وانزعت منه قواعد إفريقية واحدة بعد أخرى ، ورأى الناصر تأمينا لإفريقية ، وتوطيدا لسلطان الموحدين بها ، أن يسند ولايتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص بن عمر الهتائي ، وهو الظافر في معركة رأس تاجرا ، وكان الشيخ أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين وأشدّهم نفوذاً لدى الخليفة ، وكان فوق ذلك صهر الخليفة متزوجاً بأخته ابنة الخليفة المنصور ، فقبل الشيخ الولاية ، على كره منه ، واشترط لتقلدها شروطاً تكفل له الاستقلال التام برأيه وتصرفاته ، وأبدى الشيخ في ولايته منتهى الحصافة والحزم ، ووقف بالمرصاد للميورقي ، وقضى على كل محاولاته ، ومحاولات حلفائه من طوائف العرب ، وغيرهم من المغامرين المفسدين . وحقق لإفريقية عهداً من الاستقرار والطمأنينة والرخاء لم تعرفه منذ بعيد .

ولما توفي الخليفة الناصر ، بعد موقعة العقاب المشؤمة بقليل ، في اليوم العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، وخلفه ولده يوسف المستنصر ، وبادر أشياخ الموحدين من سائر الأنحاء إلى بيعته ، تمهل الشيخ أبو محمد في تقديم بيعته بعض الوقت ، وأحيط تصرفه يومئذ بمختلف التعليقات ، ولكنه انتهى بسعي الوزير ابن جامع إلى تقديم البيعة المنشودة . ولكن حدث حيناً قام الخليفة المستنصر بتعيين عمال النواحي ، أن ندب عمه السيد أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ليكون أميراً على تونس ، وليستقر بقصبتها ، ليعنى بتدبير شئونها ، والسهر منها على حركات الميورقي ، إلى جانب الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، وأن يبقى الشيخ على ما هو من تقلد أعمال ولايته ، ولم يك ثمة شك في أن هذا التعيين لم يكن محلاً لرضى الشيخ ، وأنه رأى فيه مضايقة له ، وافتئاتاً على حقوقه وسلطانه<sup>(١)</sup> .

وهناك قول آخر بأن تعيين السيد أبي العلاء لإمارة تونس لولاية إفريقية ، لم يقع إلا بعد وفاة الشيخ أبي محمد ببضعة أشهر ، في أواخر سنة ٦١٨ هـ ، وأنه عين خلفاً للشيخ . ومما يعزز هذا القول ، هو أن السيد أبا العلاء ما كاد يتولى

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٧٣ و ٢٧٤ .



منصبه ، حتى أمر بالقبض على كاتب الشيخ ، محمد بن أحمد بن النجيل ، وأخويه أبي بكر ويحيى ، واستصفاء أموالهم ، وذلك بنهمة تأمرهم على سلامة الدولة ، ثم أمر بعد ذلك بإعدام ابن النجيل وأخيه يحيى (١) .

وتوفي الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس في مستهل شهر محرم سنة ٦١٨ هـ (٨ مارس سنة ١٢٢٠ م) ، بعد أن لبث نيافاً وأربعة عشر عاماً يضطلع بأعباء منصبه الشاقة ، وكان الشيخ بلاريب أقدر الحكام الذين ولوا حكم إفريقية ، وأمضاهم عزماً ، وأوفرهم شجاعة وجرأة ، وكان لعزمه وشجاعته أكبر الأثر في تحطيم ثورة بني غانية ، وإنقاذ سلطان الموحدين بإفريقية ، وحماية جناح الدولة الموحدية الشمالى الشرقى من الانهيار مدى حين .

وهنا تختلف الرواية مرة أخرى في أمر من ولي حكم إفريقية عقب وفاة الشيخ ، فيقول لنا ابن عذارى متفقاً مع روايته الأولى ، إن ابنه أبا محمد عبد الله هو الذى خلفه في منصبه ، وذلك تحت إشراف السيد أبي العلاء إدريس (٢) ، وهناك قول آخر ، يتمشى مع الرواية الثانية ، وهو أن الذى خلفه في منصبه هو السيد أبو العلاء إدريس ، معيناً من قبل الخليفة يوسف المستنصر .

وعلى أى حال فإن وفاة الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، قد تمخضت عن نتيجتين في منتهى الأهمية ، الأولى تحرك ابن غانية من جديد ، والثانية تحول مجزى الحكم في إفريقية .

وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، ما كاد يعلم بوفاة خصمه العتيد ، الشيخ أبي محمد ، حتى تنفس الصعداء ، وأخذ في التحرك من منفاه السحيق في الصحراء ، وكان قد لزم ودان وأحوازها ، منذ هزأته الفادحة على يد الشيخ أبي محمد ، ولبث هناك زهاء تسعة أعوام يرقب الفرص ، فلما لاحت الفرصة بوفاة الشيخ ، سار في الصحراء نحو الشمال ، وعاث في بلاد الحريد ، فنهض السيد أبو العلاء في جيش من الموحدين ، وسار إلى قابس ، ونزل بها بقصر العرومين ، حتى لا تسقط في يد الناصر ، وبعث ولده السيد أبا زيد في قوة إلى درج وغدامس ، وبعث قوة أخرى إلى ودان لرد ابن غانية ، ومحاصرته . ولكن العرب من أنصار

---

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 164

( ٢ ) البيان المغرب ص ٢٧٤ .

ابن غانية وحلفائه اعترضوا سبيل الموحدين ، وفر ابن غانية في جمعه من المثلثين والأعراب إلى جهة الزّآب ، فسار السيد أبو زيد في أثره ، ونجح ابن غانية في الوصول إلى الشّمال والاستيلاء على بلدة بسكرة جنوبي قسنطينة ، وتخريبها ونهبها ، فهاجمه السيد أبو زيد ، وانترعها منه ، وفر ابن غانية في حشوده من العرب والبربر وسار شرقاً حتى اقترب من أحواز تونس ، فأتبعه السيد أبو زيد في عسكر الموحدين والعرب الموالين ، ولاسيما عرب هوارة ، ونشّب بين الفريقين في مكان يسمى مجلول قتال مرير ، وهزم فيه ابن غانية ، وقتل كثير من جنده ، وامتثلت أيدي الموحدين من غنائمهم . وكان ذلك في أوائل سنة ٦٢١ هـ ( ١٢٢٣ م ) . وفر ابن غانية في فلوله نحو الجنوب مرة أخرى ، وأخذ يتجول بين الواحات ، وهو يحشد الأنصار ، وينهب الأموال أينما استطاع ، ويرقب القرص السانحة<sup>(١)</sup> . وعلم السيد أبو زيد على أثر الواقعة بوفاة أبيه السيد أبي العلاء ، فارتد إلى تونس ليشغل منصبه في الإمارة ، ووفقاً لهذه الرواية يكون تعيين السيد أبي زيد لولاية إفريقية ، قد جاء من قبل الخليفة أبي محمد عبد الواحد المنخوع ، الذي تولى الخلافة ، في أواخر ذي الحجة سنة ٦٢٠ هـ . على أن ابن عذارى ، يقول لنا متفقاً مع روايته أن ولاية السيد أبي زيد للإمارة ، كانت على نمط ولاية أبيه السيد أبي العلاء ، وأن الشيخ أبا محمد عبد الله بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بقي على حاله مكان أبيه في ولاية إفريقية ، ينظر بالأخص في تدبير الشؤون وجباية الأموال . ولكن السيد أبا زيد أساء السيرة ، واشتد في معاملة الناس ، خلافاً لما كان عليه الشيخ أبي محمد عبد الواحد وولده عبد الله . فسخط عليه الناس وتمنوا زوال حكمه ، واستمر السيد في منصبه حتى توفي الخليفة أبو محمد عبد الواحد وتولى الخليفة العادل ، فأقال السيد أبا زيد من منصبه ، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٦٢٣ هـ ، وأرسل إلى إفريقية عمه السيد أبا عمران موسى بن ابراهيم بن اسماعيل الحفصي ليتولى الحكم بها حتى يصل إليها حاكمها الأصلي الذي اختاره الخليفة ، وهو أبو محمد عبد الله ابن الشيخ محمد عبد الواحد . وبعد ذلك ببضعة أشهر سار أبو محمد عبد الله وأخوه أبو زكريا يحيى إلى إفريقية ، وتوقف أبو محمد قليلاً في بجاية ، ومعه أخوه أبو عبد الله اللحياني<sup>(٢)</sup> ، وبعث أخاه أبا زكريا إلى تونس

( ١ ) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ١٩٧ ، والزرّكشي في تاريخ الدولتين ص ١٤ وكذلك :

A. Bel : ibld; p. 167.

( ٢ ) وقد عرف بهذا الاسم لطول لحيته ( ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨١ ) .



ليمهد لاستقباله . ثم سار إلى تونس ، ودخلها في اليوم السابع عشر من ذي القعدة سنة ٦٢٣ هـ ( نوفمبر سنة ١٢٢٥ م ) في مواكب حافلة ، واستقر في منصبه دون منازع ، وندب الشيخ أبو محمد عبد الله ، أخاه الأمير أبا زكريا يحيى لحكم قابس والحمّة ، وأخاه الأمير أبا إبراهيم لحكم توزر ونفطة ، وسائر بلاد قسطنيلة<sup>(١)</sup> ، وتمكن بذلك سلطان بني حفص بإفريقية . وكانت سيرة الشيخ أبي محمد ، وحكمة العادل ، وسياسته اللينة الرفيقة ، مما يسبغ على أسرته وبنيه من بعده ، حسن الذكرى ويحبوها بالمحبة والولاء من سائر الناس .

وفي تلك الأثناء ، كان يحيى بن غانية ، وهو في مثواه بالصحراء ، يجد في تحصيل الأموال ، وحشد الرجال ، ويرقب الفرصة للقيام بضربة جديدة ، وفي أواخر سنة ٦٢٣ هـ ، سار نحو الشمال في اتجاه منطقة قسنطينة ، ثم اجتازها بسرعة ، واقتحم بجاية ، ثم غادرها لوقته صوب تدلس ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، ثم اتجه نحو الغرب ، وغزا متيجة ، وتوغل في منازل زناتة ، واكتسح أحياءها ، وانتهب ثرواتها ، وحاول شيخ مغراوة ، عبد الرحمن بن منديل ، وهو من أولياء الموحدين ، أن يقف في سبيله ، فهزمه ابن غانية وأسرته ثم قتله ، ثم اتجه ابن غانية بعد ذلك شمالا واقتحم مليانة ، ثم استولى على الجزائر وصلب جثة ابن منديل على سورها . وخرج الشيخ أبو محمد عبد الله من تونس على عجل لمطاردة ابن غانية ، ووضع حد لعبثه ، وذلك في أواسط سنة ٦٢٤ هـ ، فسار أولا إلى أبة ، وهاجم منازل هوارة ، وكانت ضالعه مع ابن غانية ، وقبض على زعمائها وأرسلهم مصفدين إلى المهدية . ثم سار في أثر ابن غانية ، ودخل بجاية ، وأصلح شئونها ، وقصد بعد ذلك إلى مليانة ، وكان ابن غانية في تلك الأثناء ، قد غادر الجزائر بعد اقتحامها ، وسار نحو الجنوب الغربي ، واستمر في مسيره حتى وصل إلى أحواز مجلّاسة ، فترك الشيخ أبو محمد مطاردته ، وعاد إلى تونس ، وذلك في شهر رمضان سنة ٦٢٤ هـ<sup>(٢)</sup> .

ومن ذلك الحين ، تغيض أخبار يحيى بن اسحاق بن غانية . وكان إلى ذلك الحين ، قد قطع أربعين عاما في متابعة ذلك الصراع المرير ، الذي بدأه أخوه عليّ ضد الموحدين ، في إفريقية ، والذي اتخذت إفريقية ، لموقعها من الجزائر

(١) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٥ ، والبيان المغرب ص ٢٧٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid ; p. 174 .

الشرقية مثنوى بنى غانية ، ونأبها عن مركز الحكومة الموحدية ، وثرواتها الطائلة ، مسرحاً له ، والذي كانت تحدوه في البداية مثلٌ سياسية وقومية ، ثم انحدر بعد طول النضال ، إلى غزوات خاطفة ، ومعارك ناهبة . وقد وصل ابن غانية إلى ذروة سلطانه ، بالاستيلاء على سائر قواعد إفريقية بما فيها العاصمة تونس ، خلا بجاية ، ثم قلب له الحظ ظهر الحجن ، فانتزع الموحدون الجزائر الشرقية ، مثنوى أسرته وموئل سلطانه ، ومستودع مواردها ، وذلك في سنة ٦٠٠ هـ ، ثم لقي هزيمته الحاسمة في موقعة جبل تاجرا في سنة ٦٠٢ هـ . ومع ذلك ، وبالرغم من تمزق حشوده ، وتضاءل موارده ، فإنه لم يَحْبُ له عزم ، ولم تضعف له إرادة ، فاستمر في نضاله اليائس أعواماً طويلة أخرى ، ولكنه كان نضال العصبة المغامرة ، والانتقام المضطرم . وكان من الواضح أن الحلم الذي كان يجيش به بنو غانية ، وهو العمل على إحياء الإمبراطورية المرابطية في إفريقية ، وفوق أنقاض سلطان الإمبراطورية الموحدية ، قد تحطم وتلاشى ، بيد أنه لم يك شك أيضاً في أن هذه الضربات المتوالية ، التي أنزلها على بن إسحاق بن غانية ، وأخوه يحيى ، مدى نصف قرن بسلطان الموحدين وجيوشهم في إفريقية ، قد هزت من أركان الدولة الموحدية وساعدت على تفككها ، وتبديد مواردها وقواها ، وكانت عاملاً من أهم العوامل التي اجتمعت في تلك الفترة ، لتهديد إلى انهيارها وسقوطها .

وقد عاش يحيى بن غانية أعوامه الأخيرة بين قليل من الصحب والجند ، حياة شريد لا يستقر له مقام ، بيد أنه لم ينقطع عن الإغارة على تخوم إفريقية كلما استطاع ، ولم ينقطع أمير إفريقية ، وكان عندئذ أبا زكريا يحيى عن مطاردته ورده عن أراضيه ، وأقام فوق ذلك في مختلف الحدود مراكز ثابتة ، مزودة بالجند للسهر على حركات الثائر ، وإخمادها في بدايتها ، ومع ذلك فإن ابن غانية كان دائم النشاط والحركة ، دائم الإغارة والعيث ، حتى أنه كان من وقت لآخر يصل في غاراته شمالاً حتى وادي شليف ، واستمرت هذه الغارات حتى سنة ٦٢٦ هـ . بيد أن هذه لم تكن سوى النفثات الأخيرة لثورة غانية ، ولم يكن يلتف حوله عندئذ سوى القلائل من صحبه المخلصين ، ولم يكن له أهل ولا ولد ، بعد أن مات أخوته وولده في ساحة الحرب ، سوى عدد من البنات ، وكان في هذه الأعوام الأخيرة ، يشهد انحلال الدولة الموحدية التي نذر نفسه لكفاحها ، ولكنه كان يرى في نفس الوقت أنه لم يحن من صراعه وصراع أسرته



الذي استطال خمسين عاما ، أية نتائج مادية ، وأن علم الدولة المرابطية الذي حاول أن يرفعه سوف يخبر بوفاته إلى الأبد . ثم كانت الخاتمة النهائية ، وتوفي يحيى ابن اسحاق بن غانية ، وهو في محله على ضفاف نهر شليف على مقربة من مليانة ، وذلك في سنة ٦٣١ هـ أو سنة ٦٣٣ هـ ( ١٢٣٤ م ) ودفن هنالك ، ثم عني أثر مدفنه . قال ابن خلدون معلقاً على موته : « وانقض أمر الملثمين من مستوفة وملتونة من جميع بلاد إفريقية ، والمغرب والأندلس ، بمهلكه ، وذهب ملك صنهاجة ، من الأرض ، بذهاب ملكه وانقطاع أمره » . وقيل إن يحيى بعث قبيل وفاته بيناته إلى الأمير أبي زكريا لعش في كتفه ، فأكبر الأمير الحفصي حسن ظنه ، وأحسن كفالتهم ، وأبنتى لصونهن داراً خاصة بحضرة تونس ، عرفت بقصر البنات ، وأقمن بها في عيش رغد ، محروسات مشمولات بأقصى رعاية ، حتى توفي عنانسات معمرات ، ولم يقبأن الزواج من أحد (١) .

وهنا نعطف على ذكر الحدث الثاني الذي ترتب على وفاة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص وإلى إفريقية ، وذلك في مستهل شهر المحرم سنة ٦١٨ هـ . وقد رأينا فيما تقدم أن الذي خلف الشيخ أبا محمد في ولاية إفريقية ، هو ولده أبو محمد عبد الله ، وذلك على خلاف في تاريخ هذه الولاية وكيفية وقوعها ، مما سبق لنا تفصيله ، وعلى أي فقد كان أبو محمد عبد الله قائماً في ولاية إفريقية ، منذ حُلّ بتونس في شهر ذي الحجة سنة ٦٢٣ هـ ، وكان الذي قلده ولايتها وفقاً لذلك ، هو الخليفة العادل .

ولم تمض عدة أشهر على ذلك ، حتى وقع مصرع الخليفة العادل ، بعد مصرع سلفه الخليفة أبي محمد عبد الواحد ، وجلس الخليفة الفتي يحيى المعتصم على كرسى الخلافة : مكانه في شوال سنة ٦٢٤ . ثم تفاقم اضطراب أمر الخلافة الموحدية ، بقيام السيد أبي العلي بن المنصور بالأندلس ، والدعوة لنفسه باسم المأمون ، وجوازه إلى العدو ، واستيلائه على كرسى الخلافة من يد ابن أخيه يحيى المعتصم ، وقتله لأشياخ الموحدين ، وذلك في أوائل سنة ٦٢٦ هـ . وقد كان لذلك كله أعظم وقع في إفريقية . ولما بعث المأمون إلى أبي محمد عبد الله وإلى إفريقية ليأخذ له البيعة ،

( ١ ) نقلنا هذه التفاصيل الأخيرة عن وفاة يحيى وبناته عن ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ،

وكذلك : A. Bel : ibid; p. 186 .

توقف عن عقدها ، فكتب المأمون عندئذ إلى أبي زكريا يحيى أخى السيد أبي محمد ، وكان يومئذ حاكماً لقابس ، بالولاية على إفريقية ، وعزل أخيه السيد أبي محمد ، فبادر أبو زكريا بعقد البيعة للمأمون ، ووقعت الوحشة بذلك بين الأخوين .

ذلك أنه لما علم أبو محمد عبد الله ، بما كان من أخيه أبي زكريا ، خرج في عسكره من تونس ، فلما وصل إلى القيروان جميع أشياخ الموحدين ونبأهم بما اعزم من قتال أخيه ، فأنكر الأشياخ عليه ذلك ، واعتذروا إليه عن تنفيذ فكرته ، وذلك لمحبتهم للأمير أبي زكريا وتقدير صفاته ، فأصر أبو محمد على رأيه ونهرهم ، فأغلظوا له القول ، وكادوا يعتدون عليه . وبعث الأشياخ إلى أبي زكريا ينبثونه بما حدث ، ويستدعونه إليهم ، فقدم أبو زكريا على الأثر ، وتسلم قيادة العسكر ، وأمر بالقبض على أخيه أبي محمد ، وحمل محروساً إلى تونس ، وهناك اعتقل حيناً بقصر ابن فاخر . ودخل الأمير أبو زكريا تونس في اليوم الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٢٥ هـ ، وأمر في الحال بالقبض على أبي عمر كاتب أخيه ، فقبض عليه وعذب وقتل ، ثم بعث بأخيه أبي محمد إلى المغرب عن طريق البحر . وتولى أبو زكريا حكم إفريقية باسم الخليفة المأمون . ولكن لم يمض قليل على ذلك حتى بعث المأمون من قبله بعض عمال (حكام) إلى تونس ، فثار لذلك أبو زكريا ، وصرفهم ، ونخلع طاعة المأمون ، وأمر بالخطبة ليحيى المعتصم . وكانت هذه أول خطوة في استقلال إفريقية<sup>(١)</sup> .

بيد ابن عذارى يقدم إلينا عن نزاع الأخوين ، واستيلاء أبي زكريا على الحكم ، رواية أخرى ، خلاصتها أنه لما تفاقم اضطراب الأحوال في البلاط الموحدي ، وتوالى قتل أشياخ الموحدين ، جمع الأمير أبو زكريا أشياخ الموحدين بتونس ، وشرح لهم الأحوال ، وفاوض أخاه أبا محمد عبد الله في وجوب نخلع طاعة الخلافة المؤمنية ، والاستقلال بالحكم ، فأبى عبد الله كل الإباء ، واعتقل أخاه أبا زكريا بدارد ، ففر أبو زكريا من معتقله ، وسار إلى قابس ، وهناك تفاوض مع شيخها ابن بكى ، فوافقه على مشروعه ، ثم خاطبه الموحدون من تونس ، باجتماع كلمتهم على اختياره ، وانفقوا معه على التنفيذ ، منى خرج أخوه عبد الله برسم الحركة إلى القيروان . فلما خرج عبد الله بقواته ، ونزل بظاهر تونس ، طالبه الحند ببركاتهم ، فتلکأ في الإجابة ، وكان أبو زكريا قد قدم في صحبه ، ونزل على مقربة من محلة أخيه ، فبادر الحند إلى خباء أخيه ، ورموه بالحجارة حتى



كاد يهلك ، فقرأهمهم ، وعفّ الجند عن قتله إكراماً لأخيه ، وقصد عبد الله إلى مراکش ، وفي الحال جلس الأمير أبوزكريا مجلس الأمراء ، وبايعه أشياخ الموحدين ، ثم دخل تونس وبويع بها بيعة الخلفاء ، واختار وزراءه وكتابه . وأبقى أبوزكريا في البداية ذكر الإمام المهدي ، في الخطبة وغيرها من المراسم<sup>(١)</sup>.

وتمت هذه الخطوة الأولى في استقلال إفريقية في أول سنة ٦٢٧هـ (نوفمبر ١٢٢٩م) وأعلن أبوزكريا يحيى خلع طاعة بني عبدالمؤمن ، وتسمى أولاً بالأمير وجعل ذلك اللقب في صدر كتبه . ولما كانت قسنطينة وبجاية ، مازالتا بيد الحكام الموحدين ، وكان أبوزكريا ، يرمى إلى تحقيق استقلال إفريقية بسائر جهاتها . وأراضها ، فقد بادر في العام التالي (٦٢٨هـ) بالزحف على قسنطينة ، وحاصرها أياماً ، وانتهى الأمر بأن سُكن من دخولها ، فدخلها وقبض على واليها الموحدي ، وولى عليها عاملاً من قبله ، ثم سار إلى بجاية فافتتحها ، وقبض على واليها الموحدي أبي زكريا عمران ، وبعث بالواليين المقبوض عليهما إلى المهدية ، وبعث بأهلها وأولادهما في البحر إلى الأندلس ، وقبض كذلك على عدة من أشياخ الموحدين والعرب الموالين لهم ، وأرسلهم أيضاً إلى المهدية ، فزجوا إلى مطبقها ، واستكملت بذلك سيادة بني حفص على سائر رقعة الوطن الإفريقي . وصحب الأمير أبا زكريا أخوه أبو عبد الله اللحياني ، وكان متولياً أشغال بجاية . أما أخوه أبو محمد عبد الله والي إفريقية السابق ، فقد لقي مصرعه بمراكش ، وكان قد لجأ إليها .

وفي يوم الجمعة السابع من صفر سنة ٦٣٣هـ دعى في الخطبة للأمير أبي زكريا بعد ذكر الإمام ، وبويع للمرة الثانية بيعة تامة شاملة ، لم يتخلف فيها أحد ، ولكنه استمر مقتصرأ على لقب الأمير ، ولم يتسم بأمر المؤمنين<sup>(٢)</sup>.

وهكذا قامت بإفريقية ، أحد أقاليم الدولة الموحدية الكبرى ، دولة جديدة ، هي الدولة الحفصية ، نسبة للأسرة التي أنشأها وحكمها ، وهم بنو حفص ، أبناء الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى الهتائي ، وقد كان أبو حفص عمر بن يحيى من أصحاب المهدي العشرة ، وكان زعيم هتاتة أقوى قبائل مسمودة ، وهو الذي مهد لخلافة عبد المؤمن عقب وفاة المهدي ، وكان له أعظم شأن وأقوى نفوذ لدى الخلافة الموحدية ، وكانت وفاته بعد حياة حافلة بجلال الأمور في سنة

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٤، ٢٧٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١ .

(٢) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٨ ، والبيان المغرب ص ٢٧٦ .

٥٧١ هـ<sup>(١)</sup> ، وكان لولده الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، وهو أحد أبناء عدة تولوا جميعاً رفيع المناصب بالمغرب والأندلس ، مثل مقامه ونفوذه لدى البلاط الموحدى ، وكان يعتبر كبير أشياخ الموحدين ، وقد رأينا ما كان من إخماده لحركة ابن غانية ، بعد أن كادت تقضى على سيادة الموحدين بإفريقية ، وما كان من اضطراره بولاية إفريقية ، فى أخرج الظروف وأدقها ، وما وفق إليه بعزمه وحزمه وقوة نفسه ، من إنقاذها من عيث ابن غانية وحلفائه العرب ، ومن توطيد أمنها وسلامها . وقد كان انفصال إفريقية واستقلالها على هذا النحو ، ضربة جديدة للدولة الموحدية . وكان عاملاً جديداً فى إضعاف قواها ومواردها . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى مراکش . وكان البلاط الموحدى فى هذا الوقت ذاته مشغولاً ، بما يدور حول كرمسى الخلافة ، من حروب ومنافسات ، وما يقوم به بنو مرين من استتالة ، وعيث مستمر ، فى أطراف المغرب ، وما يضطرم من ثورات محلية فى بعض القواعد الهامة مثل مكناسة وسبتة ، ولم تكن لديه أية قوة أو وسيلة يستطيع أن يحاول بها الوقوف فى سبيل هذا الحدث المحتوم .

- ٤ -

تركنا أخبار الخليفة المأمون ، وقد هزم منافسه وابن أخيه يحيى المعتصم مرة أخرى ، بفحص واونزرت على مقربة من مراکش ، فى شهر رمضان سنة ٦٢٧ هـ ، ثم أصدر مرسومه بعد ذلك بمحو اسم المهدي ابن تومرت ورسومه . وفى العام التالى ، سنة ٦٢٨ هـ ، وجه المأمون كتبه إلى سائر بلاد الموحدين بالمغرب ، والأندلس ، يدعو فيها إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحض على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والصدقات ، والنهي عن شرب الخمر والمنكرات ، والتحريض على الدعاية . وقد أورد لنا ابن الخطيب فصولاً من كتابه المشار إليه نقل منها الفقرة الآتية :

« وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونعنى بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهم وأولى ، والهمم بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها ، أحق أن يقدم وأحرى وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع ونندع ، ونتبع السنن المشروعة ، ونذر البدع . ولنا أن لاندخر عنها نصيحة ، ولا نغيبها أداة من الأدوات مريحة ، ولنا عابها أن تطيع وتسمع »<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ ؛ وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٣١١ .

(٢) الإحاطة (١٩٧٣) ج ١ ص ٤١٣ ، و ٤١٤ .



وقد صدر مثل هذا الكتاب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحث على اتباع أحكام الشريعة ، ونبذ البدع ، عن معظم الخلفاء الموحدين ، حسبما أشرنا إليه في مواضعه .

هذا وبينما المأمون مشغول على هذا النحو ، بإصلاحاته المذهبية والدينية ، إذ وقع انفصام جديد في الخلافة الموحدية ، وظهر مدّع جديد للخلافة ، هو السيد أبو موسى بن يعقوب المنصور أخو المأمون . وذلك أن المأمون كان قد ولي أخاه السيد أبا موسى حكم ثغر سبته ، في سنة ٦٢٩ هـ ، دعا السيد أبو موسى لنفسه بالخلافة ، وتسمى بالمؤيد بالله ، وفي نفس الوقت كانت قبائل فازاز ومكلاثة ، قد جاهرت بالعصيان ، وعاشت في منطقة مكناسة ، وحاصرت مكناسة ذاتها ، فحشد المأمون قواته ، وخرج من مراکش يريد تأديب القبائل النائرة أولاً ، ثم يسير إلى سبته ثانياً ، وكان عندئذ قد اطمأن إلى عجز ابن أخيه يحيى المعتصم عن القيام بأية محاولة جديدة ، بعد أن تركه الموحدون ، وعادوا إلى جباهم ، وسار هو في صحبه القليل إلى منطقة درعة وسجلاسة .

ولما أشرف المأمون بقواته الكثيفة على مكناسة ، بادرت القبائل النائرة بالتفرق والفرار ، وعندئذ استمر في سيره إلى سبته ، فلما وصل إليها ضرب حولها الحصار من البر ، ولكن المدينة المحصورة لم تشعر بشيء من الضيق ، إذ كانت حرة مفتوحة من جهة البحر ، فلم تنقطع عنها الموارد . وفضلاً عن ذلك فإن السيد أبا موسى ، بعث إلى ابن هود صاحب الأندلس يستنصر به ، فأمدّه ابن هود ببعض سفنه . ومن ثم فقد لبث المأمون على حصارها ثلاثة أشهر ، وهو يضربها بالمجانيق كل يوم ، دون أن يلحقها شيء من الضيق أو تقع ثلمة في أسوارها ، أو يهدم شيء من دورها ، وربما كان في عزم المأمون أن يتابع هذا الحصار الفاشل حيناً آخر ، لولا أن بلغه عندئذ خبر رُوع له ، وأرغمه في الحال على رفع الحصار ، هو وقوع مراکش في يد يحيى المعتصم .

وما كاد المأمون يبتعد عن سبته حتى عبر أخوه ، السيد أبو موسى إلى الأندلس . وكان ابن هود قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ، وبايعت له معظم قواعد الأندلس ، فبايعه ، ونزل له عن سبته ، فعوضه عنها بولاية ألمرية . وبعث ابن هود إلى سبته بحليفه ، وقائده السابق الغشتي واليائها ، فلبث بها بضعة أشهر إلى أن أخرج أهلها وخلعوا طاعة ابن هود ، وبايعوا أبا العباس أحمد بن محمد

اليانشتي ، فاستبد بحكمها ، وتسمى بالموفق بالله ، وذلك في سنة ٦٣٠ هـ (١) .

وكان يحيى المعتصم قد انتهز غيبة المأمون عن الحضرة ، فجمع حشوده على عجل ، وانضم إليه عرب سفيان بقيادة شيخهم جرمون بن عيسى ، وأبوسعيد بن وانودين شيخ هتانة ، وسار إلى مراکش ، واقتحمها عنوة ، وكانت بلا دفاع ، ودخل القصر ، وجمع سائر مافيه من الأموال والذخائر ، وبعث بها إلى الجبل ، وقتل وسبي الكثيرين ولاسيما من اليهود ، وأحرق الكنيسة ، وقتل من بها من القسس والنصارى . وبلغت هذه الأنباء إلى المأمون وهو على حصار سبتة ، فرفع الحصار من فوره ، وارتد في قواته منصرفاً صوب مراکش ، وذلك في أوائل شهر ذي القعدة سنة ٦٢٩ هـ ، وهو يعتزم أن ينكل يحيى وصحبه ، وأقسم لحلفائه النصارى الذين معه ، وقد اضطرموا بنظراً لما حل بكنيستهم ومواطنهم ، أن يطلقهم على مراکش ثلاثة أيام ينتصفوا فيها لأنفسهم . ولما وصل المأمون إلى وادي العبيد ، الفرع الشمالى لوادي أم الربيع ، مرض وتوفي فجأة ، وذلك في آخر شهر ذي الحجة سنة ٦٢٩ هـ ، فكتمت زوجته حباة الرومية ، وهى أم والده الأكبر وولى عهده الرشيد ، وفاته ، ولم يقف عليها سوى القادة وأشياخ الخلط وبعض القرابة ، ولم يقف عليها أحد من عامة الجيش . وفي اليوم التالى وهو مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ ( ١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢ م ) ، اجتمع الأشياخ والقادة وانفقوا على بيعة ولد المأمون أبى محمد عبد الواحد الرشيد بالخلافة ، مبايعة سرية خاصة ، وكان فتي في الرابعة عشرة من عمره . وأذيع في المحلة أن أمير المؤمنين مريض ، لا يستطيع الركوب ولا الظهور ، وحمل المأمون في تابوت وضع في هودج ، وسارت الجيوش أمامه وهى على أهبها للقاء يحيى المعتصم (٢) .

ولما وصلت حشود المأمون إلى مقربة من مراکش ، خرج إليها يحيى المعتصم في قواته من الموحدين وعرب سفيان وغيرهم ، فنشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيى ، وقتل معظم جنده ، وتفرق الباقون في مختلف الأنحاء . ولكن قوات المأمون ، حينما أشرفت على مراکش ، وعلى رأسها ولده الرشيد ، ألقت الحاضرة وقد استعدت للدفاع . وكان واليها من قبل يحيى ، أبوسعيد بن وانودين قد تخلى عن

( ١ ) البيان المغرب ص ٢٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٦٩ .

( ٢ ) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٨٠ - ٢٨٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ و ٢٥٤ ،

وروض القرطاس ص ١٦٩ ، وابن الخطيب في الإحاطة ( ١٩٧٣ ) ج ١ ص ٤١٧ .



عن منصبه ، واختار الناس مكانه السيد أبا الفضل جعفر بن السيد أبي سعيد ، وكان أهل مراکش قد تراسى إليهم ما أعلنه المأمون قبل وفاته ، من أنه سوف يبيع المدينة للنصارى ، انتقاماً من أهلها ، لما أبدوه من استسلامهم نيحى ، وتمكينه من دخولها ، ومن ثم فإنهم لما رأوا مآلهم جيش المأمون ، ازدحموا فوق الأسوار ، واستعدوا للدفاع ، فعندئذ أصدر الرشيد لأهل المدينة ظهيراً بتأمينهم والعفو عنهم جميعاً ، وعمن كان معهم من الموحدين ، ورفع المغارم عنهم ، وضمن ظهيره كثيراً من الوعود الطيبة ، وحمل هذا الظهير القاضى أبو محمد عبد الحق ، ومعه جملة من الناس ، واقتربوا من السور من جهة باب السادة . وأعلن للناس وفاة المأمون وولاية ابنه الرشيد ، وهزيمة يحيى ، وعرفهم بما يتضمنه الظهير من تأمينهم والإنعام عليهم ، فاطمأن الناس وسكنت نفوسهم ، وأذنوا له ولرفاقه بالدخول إلى المدينة ، ثم سار معه إليها السيد أبو الفضل والوجوه إلى القصر الحلى ، وقرئ الظهير على الكافة ، فعم البشر والاطمئنان ، وكتب الأشياخ والوجوه إلى الخليفة بالسمع والطاعة ، وعاد القاضى وأصحابه معهم وفد من الكبراء للسلام على الخليفة واستقباله . وكانت حجابة أم الخليفة قد تفاهمت مع القواد النصارى ، ودفعت لهم مقابل فيء المدينة التى وعدوا باستباحتها ، واقتدأها من الاعتداء والنهب ، مبالغ طائلة ، ويقال إن الرشيد دفع لهم مقابل ذلك خمسمائة ألف دينار<sup>(١)</sup> ، وهكذا أنقذ الموقف ، ومهد كل شى لدخول الخليفة القى إلى حضرته .

— ٥ —

يبد أنه يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام عن خلافة الرشيد ، أن نذكر كلمة عن الخليفة المأمون ، وعن صفاته وخلاله .

كان أبو العلى (أو أبو العلاء) من أنبه الخلفاء الموحدين وأقدرهم ، وكان يتسم بكثير من صفات أبيه العظيم الخليفة يعقوب لمنصور ، ولو أتاح له القدر فسحة من الوقت ، فربما كان من المرجح أن يعمل الكثير لإنقاذ الدولة الموحدية من محنتها ، ولتأخير انحلالها وسقوطها ، ولكنه أنفق أعوام خلافته الخمسة فى منازعات وحروب متوالية ، لم يبق منها حتى أدركه الموت . وكانت سقطته الجوهرية ، هى التجاؤه إلى النصارى لتحقيق مشروعه فى انتزاع الخلافة . ولكنها

(١) البيان المغرب ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٠ .

كانت سقطة العصر وظروفه المؤلمة ، وقد تردى فيها من قبله ومن بعده كثير من زعماء الأندلس .

وكان مولد المأمون بمدينة مالقة سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأمه حرة هي صفية ابنة أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش ، وكان المأمون صنو أبيه المنصور في صفاته العلمية . فقد كان فقيهاً حافظاً ، ضابطاً للرواية ، متمكناً من علوم الدين ، إماماً في اللغة ، أديباً واسع المعرفة بالأدب والسير ، كاتباً بليغاً ، متين البيان ، وشاعراً محسناً ، وكان يعنى عناية خاصة بتدريس كتاب البخارى ، وكتاب الموطأ ، وسنن أبي داود . وكان فوق ذلك حاكماً مقتدرأ ، بارعاً في الإدارة ومعالجة الشئون ، ذكياً وافر الهمة والعزم . ويحمل ابن الخطيب صفاته في قوله : « كان رحمه الله شهماً ، شجاعاً جريئاً ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوى الشكيمة ، لبياً ، كاتباً أديباً ، فصيحاً ، بليغاً ، ألياً ، جواداً ، حازماً » (١) . بيد أنه كان في نفس الوقت صارماً ، سفاكاً للدماء . وقد رأينا كيف أسرف في استباحة دماء خصومه وقضى عليهم جميعاً .

وكان المأمون كاتباً جزلاً ، يشغف بتسطير كتبه بنفسه ، بالرغم من وجود عدة من أئمة البلاغة بين كتابه . وقد نقل إلينا ابن عذارى وابن الخطيب كتابه ، الذى كتبه بخطه إلى أهل أندلوجر بالأندلس ، وفيه ينحى باللائمة عليهم ، ويتوعدهم بالنكال لخنوحهم إلى الاستسلام للنصارى ، وهو ينطق بروعة أسلوبه ، وإليك بعض ما جاء فيه :

« إلى الجماعة والكافة من أهل . . . ، وقاهم الله عثرات الألسنة ، وأرشدكم إلى محو السيئة بالحسنة . أما بعد فقد وصل من قباكم كتابكم الذى جدد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من السهاد ، بالداهية الساد ، أتعثرون من الحال ، بضعف الحال ، وقلة الرجال ، إذا نلحقكم بربات الحجال ، كأنا لانعرف مناحى أقوالكم ، وسوء متقلبكم وأحوالكم ، لاجرم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده إلى ذلك الموضع عصمه الله ، فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدراً ، وشمتم ريح الموت ورداً وصدراً ، وظنتم أنكم أحيط بكم من كل جانب ، وأن القضاء قد غص بالتفاف القنا ، واصطفاف المناكب ، ورأيتم غير شيء ، فتخيلتموه طلائع الكتائب ، تبا لهمتكم المنحطة ، وشيمنتكم الراضية بأدون خطة . أحين



ندبتم إلى حماية إخوانكم ، والذب عن كلمة إيمانكم ، نسقتم الأقوال وهي مكنوبة ،  
ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة ، لقد آن لكم أن تبدلوا جل الحرصان ،  
إلى مغازل النسوان ، وما لكم ولصهوات الحبول ، وإنما على الغانيات جر الذبول ،  
أتظهرون العناد تخريصاً ، بل تصريحاً وتلويحاً ، ونظن أن لا يجمع لكم شتاً ولا يدنى  
منكم تزوحاً . أين المفر وأمر الله يدرككم ، وطلبنا الخيث لا يترككم ، فازبلوا  
هذه النزعة النفاقية من خواطركم ، قبل أن نمحوا بالسيف أقوالكم ، وأفعالكم ،  
ونستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » (١) .

ومن نظمه قوله عند ظفـره بخصومه الناكثين بيعته ، وقتلهم وتعليق رؤوسهم :-  
أهل الحـرابـة والفساد من الوري يعزون في التشييه بالذكار  
ففساده فيه الصلاح لغيره بالقـطـع والتعليق في الأشجار  
ذكارهم ذكرى إذا ما أبصرو فوق الخدوع وفي ذرى الأسوار  
لو عم عفو الله سائر خلقه ما كان أكثرهم من أهل النار  
ووزر للمأمون الشيخ أبو زكريا بن أبي الغمر ، وكتب له عدة من أعلام  
البلاغة في ذلك العصر ، مهمم أبو زكريا الفازازي ، وأبو المطرف بن عميرة  
الخزوي ، قطب البلاغة بالأندلس يومئذ ، وأبو الحسن الرعيني ، وأبو عبد الله  
ابن عيـاش ، وأبو العباس بن عمران ، وغيرهم (٢) .

وأما عن شخصه فقد كان المأمون أبيض اللون ، معتدل القامة ، جميل الحياء ،  
أكحل العينين ، فصيح اللسان ، محسن الصوت والتلاوة (٣) .  
وترك المأمون عدة من البنين هم ، أبو محمد عبد الواحد الرشيد ولي عهده  
والخليفة من بعده ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وعثمان ، وأبو الحسن علي ، الملقب  
بالسعيد ، والوالى بعد أخيه الرشيد ، وترك كذلك عدة من البنات ، وأمـهات  
الجميع روميات وسريات مغربيات (٤) .

---

(١) وردت هذه الرسالة في البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٦ و ٢٦٧ ، وفي الإحاطة  
(١٩٧٣) ج ١ ص ٤١٤ ، ٤١٩ .  
(٢) البيان المغرب ص ٢٨٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٤١٧ .  
(٣) روض القرطاس ص ١٦٦ .  
(٤) البيان المغرب ص ٢٨٢ و ٢٨٣ .

كتب أخرى بقلم مؤلف هذا الكتاب  
موسوعة الأندلس الكبرى

دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية ( العصر الأول )  
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ( العصر الثاني )  
عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ( العصر الثالث )  
نهاية الأندلس ( العصر الرابع )  
الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال

\* \* \*

ابن خلدون - حياته وتراثه الفكري  
مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية  
مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام  
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية  
تاريخ الجامع الأزهر  
مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصري  
لسان الدين بن الخطيب  
تراجم إسلامية  
الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين بن الخطيب ( ٤ جزء )  
ريحانة الكتاب ونجعة المتاب لسان الدين بن الخطيب ( ٢ جزء )  
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف شباخ ( ٢ جزء )

\* \* \*

وتطلب هذه الكتب كلها من مكتبة (الخانجي بالقاهرة) (ص ب ١٣٧٥)  
١٣ شارع حبر (العزیز) - القاهرة - تليفون : ٣٩٠٦١٤٨ فاكس : ٣٩١٥١٤٨



رقم الإيداع ٢٠٠١/١١٦٨٦

I.S.B.N. 977 - 01 - 7340 - 1







بين الحلم والواقع كانت مسابقة زمنية ربما بدت لى  
طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعاً  
ملموساً حياً يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة  
تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير،  
خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة  
اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنشر في  
كل دول العالم النامي وأسعدنى التشييد الشجيرة ومحاولة  
قيمها في دول أخرى، كما أسعدنى كل السعادة  
احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلفها  
على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كياناً ثقافياً له مضمونه  
وشكله وهدفه النبيل، ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة  
في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى اعتبر مهرجان القراءة  
للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا  
المشروع كان سبباً قوياً لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التوير تواصل إشعاعها بالمعرفة  
الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدراً أساسياً وخالداً  
للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن  
على التوالي، تضيف دائماً من جواهر الإبداع الفكرى  
والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادا  
ثقافياً لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة  
مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

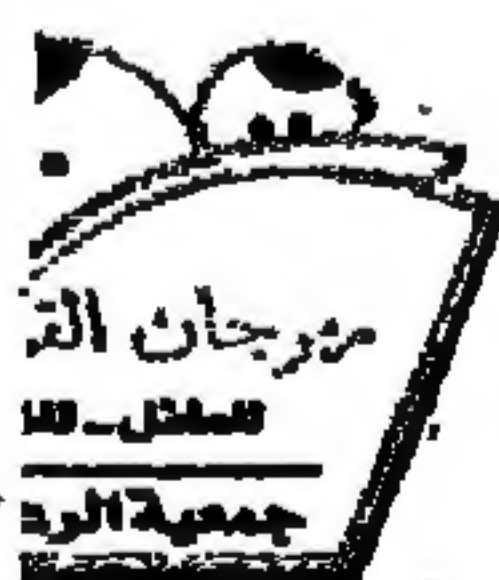
**سوزان مبارك**

سعر رمزى أربعة جنيهات للجزء مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

Ribliotheca Alexandrina



0295843



**مهرجان القر**